١٩٢٨

مكتبة نوبل

سيغريد أوندست

كريستين لافرانسداتر



الجزء الثاني

سيدة هوسابي

ترجمة

توفيق الأسدي

الجزء الثاني

سيدة هوسابي



مكتبة نوبل

Author : Sigrid Undset	اسم المؤلف : سيغريد أوندست
Title : 2/ The Mistress of Husaby	عنوان الكتاب : ٢/ سيدة هوسابي
Kristin Lavransdatter	من ثلاثية كريستين لافرانسداتر
Translator: Tawfik Al-Assadi	ترجمة : توفيق الأسدي
Al- Mada : P. C.	الناشر : المدى
First Edition 1999	الطبعة الأولى : عام ١٩٩٩
Copyright © Al-Mada	الحقوق محفوظة
This title was published in collaboration with Norla (Norwegian literature abroad)	صدر هذا الكتاب بالتعاون مع مؤسسة نورلا النرويجية .

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada : Publishing Company F.K.A. Cyprus

Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .

Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

١٩٢٨

مكتبة نوبل

سيغريد أوندست

كريستين لافرانسداتر

الجزء الثاني

سيدة هوسابي

ترجمة

توفيق الأسدي



القسم الأول

ثمرة الخطيئة



١

في الليلة السابقة على قداس سايمون (٢٨ تشرين الأول/ أكتوبر) ، كانت سفينة بارد بيترسون الشراعية راسية في مرسى بيرغسي وكان رئيس الدير أولاف من نيدارهولم قد نزل إلى الشاطئ ليحيّي قريبه إرلند نيكولاوسون ويرحب بزوجته الشابة التي كان يحضرها إلى بيته . كان الزوجان سيحلان ضيفين على رئيس الدير ويبيتان في "فيغ" في تلك الليلة .

كانت زوجة شابة شاحبة شحوب الموتى تلك التي اقتادها إرلند إلى الشاطئ من الرصيف البحري . تحدث رئيس الدير مازحاً عن آلام السفر في البحر . ضحك إرلند وقال إنه يعتقد فعلاً أن زوجته ما كانت تتوق إلى أي شيء آخر عدا الاستلقاء مجدداً في سرير مثبّت جيداً إلى جدار المنزل . جاهدت كريستين لتبتسم ، ولكنها فكرت في داخلها أنها لن تضع - بإرادتها- قدمها ثانية على سفينة طالما بقيت على قيد الحياة . كانت تشعر بالغثيان إذا ما اقترب منها إرلند مجرد اقتراب ، فقد كانت تفوح منه رائحة السفينة والبحر : كان شعره متلبّداً ودبقاً من ماء البحر . كان مجنوناً من الفرح طوال فترة وجوده على متن السفينة ، وكان السير بارد قد ضحك : ففي منزله في مور ، حيث ترعرع إرلند ، كان الفتية يخرجون بقوارب إلى

البحر ويمارسون التجديف في أوقات مبكرة ومتأخرة . فكرت كريستين : صحيح أنهما كانا آسفين قليلاً لأجلها ، أي إرلند والسير بارد ، ولكن ليس كثيراً ، ليس بقدر ما يستحقه بؤسها . ظلاّ يقولان إن دوار البحر سينقضي حين تعتاد ركوب السفينة . ولكن بؤسها استمرّ منذ البداية إلى النهاية .

حتى في صباح اليوم التالي ظلت تشعر وكأنها لا تزال مبحرة في السفينة ، وذلك وهي تمتطي حصانها عبر الأراضي المستوطنة . وسواء صعوداً في الجبل أو هبوطاً فيه ، كان دربهم يؤدي عبر سلاسل طينية من التلال الكبيرة الحادة ، وحين حاولت أن تثبّت عينيها على بقعة ما فوق الجبال البعيدة أمامها ، بدا لها وكأن الريف كله كان يغطس ثم يصعد ، في موجات ترتفع أمام سماء الصباح الشتائي اللامعة ذات اللون الأزرق الأبيض .

كانت مجموعة كاملة من أصدقاء وجيران إرلند قد وصلت إلى "فيغ" في الصباح الباكر لاستقبال العروسين ، لذلك راحوا يسيرون ضمن موكب كبير . كان للأرض صوت أجوف تحت وقع حوافر الجياد ، فقد كانت هذه الأرض قاسية كالحديد من الجليد الأسود . وكان الهواء مترعاً بالبخار الصادر عن الرجال والجياد . كانت أجساد الحيوانات وشعور الرجال وفراؤهم بيضاء من الجليد . بدا إرلند أبيض الشعر مثل رئيس الدير ، ملتمع الوجه من جرعة الصباح والريح اللاذعة . كان يرتدي رداء العرس . بدا الشباب والسعادة وهما يشعان منه ، كما كان الفرح والبهجة ينبعان من لهجة صوته الرخيم الهادئ وهو راكب حصانه ، صارخاً وضاحكاً بين ضيوفه .

بدأ قلب كريستين يرتجف على نحو غريب : بالحزن والحنان والخوف . كانت لا تزال تشعر بالغثيان من الرحلة البحرية . كما كان هناك ذلك الشعور الحارق في صدرها والذي كان ينتابها كلما أكلت أو شربت حتى

القليل . كانت بردانة إلى حد مرير ، وفي مكان عميق من ذهنها كانت هناك بقعة ساكنة خرساء من الغضب تجاه إرلند ، لأنه كان قادراً على أن يكون مرحاً وخالي البال إلى هذا الحد... ومع ذلك ، وحين رأت الآن اعتزازه الطفولي وسعادته البراقة في إحضارها إلى بيته كزوجة له ، فإن ندماً مريراً كان ينتابها . كان صدرها يؤلمها من شفقتها عليه . كانت تتمنى الآن لو أنها لم تصغ إلى مشورة إرادتها الشخصية ، وأبلغت إرلند بدلاً عن ذلك حين كان في منزلها في الصيف الماضي... أبلغته بما كان لا يجعل الاحتفال بزفافهما بكل تلك الأبهة أمراً ملائماً . لقد أدركت الآن أنها قد تمنت لو جعلته يشعر -هو أيضاً- بأنهما لن يستطيعا النجاة ممّا ارتكباه دون إذلال .

... وكانت خائفة من أبيها أيضاً . وقد فكرت كما يلي :

ما أن يتم شرب نخب زفافهما ، سيرحلان في رحلة طويلة إلى ذلك المكان البعيد . ومن المحتمل أنها لن ترى بيتها مجدداً لفترة طويلة جداً... وعندها يكون كل الكلام حولها قد مرّ عليه زمن كاف لنسيانه...

و الآن راحت ترى أن الأمور هنا ستكون أسوأ بكثير ممّا كانت تظن . صحيح أن إرلند تحدث عن حفل عظيم بمناسبة انتقالها إلى منزلهما في هوسابي ، ولكنها لم تعتقد أن الحفل سيكون أشبه بحفل زفاف ثان . وكان الضيوف هنا هم الناس الذين كان عليهما هي وإرلند أن يعيشا بينهم ؛ وكان عليهما كسب احترامهم وصداقتهم . كان هؤلاء الناس هم من كانوا يرون بأم أعينهم حماقة إرلند وشروره طوال هذه السنوات . والآن كان هو نفسه يعتقد أنه قد حرّر نفسه في نظرهم من أخطاء الماضي لأنه استطاع أن يحتل مجدداً المكانة التي تلائم محتده وثروته بين أقرانه . وبدا الآن أنه سيكون مادة للضحك في كل هذا الريف حين سيتبيّن أنه قد ارتكب الخطيئة مع عروسه وهي خطيبته بعد .

انحنى رئيس الدير نحوها وهو لا يزال على حصانه :

"تبدين حزينة جداً يا كريستين لافرانسداتر . ألم تتخلصي بعد من دوار البحر ؟ أو هل أنت في شوق إلى أمك ؟"

قالت كريستين برقة : "صحيح يا سيدي ، أنا أفكر بأمي" .

•

كانوا قد وصلوا إلى "سكاون" ، وقد بدأوا يصعدون جانب جبل مرتفع . من تحتهم في قعر الوادي كانت الغابات بيضاء وشعثاء من الجليد . في كل مكان كان نور الشمس يشع ، والتمعت بحيرة صغيرة في الوسط بلون أزرق . ثم فجأة مرّ الموكب عبر غابة صنوبر وأشار إرلند نحو الأمام :

"هناك تقبع هوسابي [1] يا كريستين . فليمنحك الرب أياماً سعيدة كثيرة هناك يا زوجتي!" قال لها ذلك وقد اعترت صوته الإثارة .

امتدّت أمامهم أراض مفلوحة واسعة ، بيضاء من الجليد . وكانت الضيعة تنتصب على طاق واسع في منتصف الدرب على جانب الجبل... وإلى القرب منهم كانت كنيسة صغيرة ذات أحجار فاتحة اللون ، وإلى الجنوب منها كانت المنازل المتراكمة . كانت كثيرة وعظيمة ، وكان الدخان يتصاعد من مداخنها . بدأت الأجراس ترنّ في الكنيسة ، وخرج كثير من الناس من الساحة للقائهم ، وهم يصرخون بهتافات الترحيب . قام الشبان في موكب العرس بضرب سيوفهم ببعضها البعض... وتقدم الموكب بقعقعة هائلة ووقع حوافر الخيل المدوية والهتافات المرحة نحو مسكن العريس .

•

توقفوا أمام الكنيسة . أنزل إرلند عروسه عن حصانها وقادها نحو باب الكنيسة ، حيث كان حشد صغير من الكهنة ورجال الدين ينتظر ليرحب بهما . في الداخل ، كان البرد قارصاً ، وكان نور النهار الذي يتسلل عبر النوافذ الصغيرة المستديرة المقوسة لصحن الكنيسة يبهت من نور الشموع المحترقة على المذبح .

أحسّت كريستين بالبرد والخوف حين أطلق إرلند يدها ومضى إلى ناحية الرجال ، بينما اتخذت هي مكانها بين عصبة النساء الغر يبات المرتديات جميعاً ملابس العيد . كانت الصلاة رائعة جداً . ولكن كريستين كانت تشعر بالبرد إلى حد كبير ، وبدا وكأن صلواتها كانت تهبّ عائدة إليها حين حاولت أن تحرر قلبها وترفعه إلى الأعلى . وفكرت أنه طالما كان هذا اليوم هو يوم القديس سايمون فليس ذلك بالفأل الحسن : فقد كان هذا هو القديس الحارس للرجل الذي أساءت إليه .

خرج الناس كلهم من الكنيسة في موكب نحو الضيعة ، أولاً الكهنة ثم كريستين وإرلند يداً بيد ، ثم ضيوفهما زوجاً زوجاً . لم تكن كريستين متمالكة نفسها إلى حد تستطيع معه مشاهدة كثير من أبنية الضيعة . كانت الساحة طويلة وضيقة . والمباني كانت على صفين إلى جنوبها وشمالها . كانت أبنية كبيرة وقد شيدت قريبة إلى بعضها البعض ، إلا أنها بدت عتيقة ومهملة .

توقف الموكب عند باب القاعة ، وباركه الكهنة بالماء المقدس . ثم قادها إرلند عبر غرفة خارجية معتمة . إلى يمينها فتح باب سمح لفيض من النور بالدخول . انحنت وهي تمر عبر الباب ، ووقفت مع إرلند في قاعته .

كانت أكبر غرفة[٢] سبق لها أن رأتها في أي منزل . وكانت هناك مدفأة

في وسط الأرضية ، طويلة إلى حد أنه كان فيها موقدان ، واحد عند كل جانب . وكانت الغرفة عريضة إلى حد أن العوارض المتقاطعة كانت محمولة على أعمدة منحوتة : بدت لها وكأنها كنيسة أو قاعة ملك أكثر ممّا هي غرفة في ضيعة . عند نهاية الجملون الشرقي ، حيث كان الكرسي العالي منتصباً في وسط المقعد الجداري ، كانت أسرّة صندوقية قد نُصبت بين الأعمدة الخشبية .

و يا له من حشد من الأنوار المشتعلة في القاعة : المسلطة على الموائد التي كانت تئنّ تحت ثقل الأكواب والأوعية الثمينة وعلى حاملات المصابيح المثبتة على الجدران! ووفق أسلوب العهود القديمة ، كانت الأسلحة والتروس معلقة بين قطع النسيج المطرّزة الممدودة . وخلف الكرسي العالي كان الجدار مغطى بستارة مخملية ، وفوقها كان رجل الآن يثبّت سيف إرلند المطعم بالذهب وترسه الأبيض الذي رسم عليه أسد أحمر بارز .

كان الخدم من رجال ونساء قد خلعوا عن الضيوف أرديتهم الخارجية . أمسك إرلند بيد زوجته وقادها إلى الأمام نحو الموقد ، والضيوف واقفون في نصف حلقة من خلفهما . تقدمت سيدة بدينة ذات وجه لطيف منهما وسوّت غطاء كريستين الكتاني الأبيض حيث كان قد تجعّد من قلنسوة عباءتها . وحين عادت إلى مكانها ، أومأت برأسها إلى الزوجين الشابين وابتسمت . أومأ إرلند وردّ بابتسامة ثم عاد فنظر إلى زوجته : كان وجهه وهو ينظر إليها جميلاً . وأحست كريستين مجدداً بأن قلبها كان يغور في جوفها إشفاقاً عليه . كانت تعرف بما يفكر فيه الآن ، وهو يراها واقفة هناك في قاعته والغطاء الكتاني الأبيض الثلجي فوق ثوب العروس القرمزي . وفي هذا الصباح اضطرت أن تلف حزاماً طويلاً محبوكاً حول خصرها تحت ملابسها حتى

يلائمها الثوب ، كما كانت قد فركت وجنتيها بمرهم أحمر أعطتها إياه الليدي آشيلد . وبينما راحت تزين نفسها على هذا النحو فكرت بأسى ومرارة أن إرلند لم يكن ينظر إليها كثيراً ، فقد أصبحت ملكاً له الآن... فهو لم يلاحظ ولم يعرف بعد . لقد ندمت الآن بمرارة أنها لم تخبره .

و بينما وقف الزوجان هكذا ، يداً بيد ، كان الكهنة يمشون حول القاعة ويباركون المنزل والموقد والسرير والمائدة .

ثم حملت إحدى الخادمات مفاتيح المنزل إلى إرلند الذي ربط الحزمة الثقيلة إلى حزام كريستين بكلاّب ، وقد بدا وهو يفعل ذلك وكأنه سيقبّلها حيث كانت واقفة . جلب أحد الرجال قرناً ضخماً محاطاً بخواتم ذهبية : رفعه إرلند إلى شفتيه وشرب نخبها :

"مرحباً وأهلاً بك في بيتك ، يا سيدة هوسابي" .

و صاح الضيوف وضحكوا بينما شربت هي مع زوجها وصبّت بقية النبيذ فوق نار الموقد .

ثم بدأ المغنون بالعزف على آلاتهم ، بينما قاد إرلند نيكولاوسون عروسه إلى الكرسي العالي ، واتخذ ضيوف الزفاف أماكنهم على المائدة .

•

في اليوم الثالث بدأ عقد الضيوف بالانفراط ، ومع حلول ساعة العصر كان آخرهم قد رحل ، وبقيت كريستين وحيدة مع زوجها في هوسابي .

كان أول شيء فعلته أنها أمرت الخدم بأخذ كل أغطية السرير وغسلها مع الجدران المحيطة به بالقلي ، وأن يحملوا القش خارجاً ويحرقوه . ثم

ملأت هيكل السرير بقش جديد ووضعت فوقه أغطية الفراش والبطانيات التي أحضرتها معها . ولم ينته هذا العمل إلا في ساعة متأخرة من الليل ، ولكن كريستين أعطت الأوامر بأن يتم هذا الأمر نفسه على كل أسرّة المكان ، وأن يتم تعريض كل البسط المصنوعة من جلود الحيوانات إلى حرارة شديدة في الحمام ، وعلى الخادمات البدء بهذا العمل في الصباح الباكر ، وأن ينجزن من هذا العمل أكبر مقدار ممكن قبل يوم الأحد . هزّ إرلند رأسه وضحك : إنها ربة بيت بالفعل! ولكن خجله لم يكن قليلاً .

لم تستطع كريستين النوم في الليلة الأولى ، رغم أن الكهنة باركوا سريرها . لقد نشرت فوقه الوسائد الحريرية وشراشف الكتان وأروع البطانيات الفراء ، ولكن تحت هذا كان قش قذر عفن ، وقمل في أغطية السرير وفي جلد الدب الأسود الرائع الذي نشر فوق هذا كله .

لقد سبق لها ورأت أشياء كثيرة في هذه الأيام القليلة . خلف الستائر الثمينة المعلقة ، فإن الجدران غير المغسولة كانت سوداء من القذارة والسخام . في الاحتفال كانت هناك أكوام من الطعام ، ولكن فسد معظمه بسبب الترتيب والخدمة السيئين . أما لأجل التدفئة فلم يكن لديهم سوى الحطب الأخضر الرطب ، الذي لا يشتعل إلا بالكاد ، والذي ملأ القاعة بالدخان .

في كل مكان شاهدت رعاية سيئة ، وذلك في اليوم التالي حين قامت بجولة مع إرلند لتتفرج على الضيعة والمزرعة . ومع انتهاء الاحتفال ، ما كان قد تبقى سوى القليل في مخزن الحبوب والمستودع . كانت صناديق القمح قد نظفت تماماً . ولم تستطع أن تفهم كيف يستطيع إرلند أن يفكر في أن يحتفظ بكل هذه الجياد والكثير من الماشية خلال الشتاء على ذلك القليل من القش والتبن الموجودين في مخزن الحبوب : ولم يكن هناك من العلف الورقي ما يكفي حتى للخراف والماعز .

و لكن كانت هناك علية نصف ممتلئة بالكتان الذي كان قد ترك هناك دون استخدام . لابد أنه الجزء الأعظم من محصول كثير من السنين . كما كان هناك مستودع مليء بالصوف العتيق غير المغسول الذي تفوح منه رائحة كريهة ، البعض منه في أكياس والبعض الآخر في أكوام . وحين أمسكت كريستين بحفنة منه ، نزل منه رشاش من البيوض الصغيرة بنية اللون : لقد أتى عليه العث والديدان .

كان وضع الماشية بائساً فهي نحيلة مقرحة وجرباء . لم يسبق لكريستين أن رأت كل ذلك العدد من الحيوانات المتقدمة في السن معاً في مكان واحد . الجياد فحسب كانت في وضع جيد ومعتنى بها . ومع ذلك لم يكن بينها من هو ندّ لغولدسفاينن أو رينغندتروتن ، ذلك الفحل الذي لدى أبيها الآن . أما سلونغفانباوغ ، ذلك الحصان الذي منحها إياه لدى مغادرتها البيت ، فكان أجمل حصان في الاسطبلات . وحين اقتربت منه ، كان عليها أن ترمي بذراعيها من حول عنقه وتضغط بوجهها على خده .

فكرت في وجه أبيها حين حل أوان ركوبها لهذا الحصان لتغادر البيت مع إرلند ورفعها هو إلى السرج . كان يتظاهر بالسعادة ، فقد كان هناك الكثير من الناس الذين وقفوا يحيطون بهما ، ولكنها شاهدت عينيه . ربت على ذراعها نزولاً ، وأمسك بيدها في يده مودعاً . في تلك اللحظة ، على الأرجح ، كان تفكيرها يتركز في أغلبه حول مدى سعادتها لأنها كانت سترحل أخيراً . ولكن بدا لها الآن أنها مهما عاشت فإن روحها كانت ستعاني من الألم كلما تذكرت عيني أبيها في تلك الساعة .

•

و هكذا بدأت كريستين لافرانسداتر ترتب وتنظم الأمور في بيتها . كانت تستيقظ مع صياح الديك في كل صباح ، رغم اعتراضات إرلند ، وتظاهره بأنه سيبقيها في الفراش بالقوة ؛ فلا يتوقعنّ أحد من زوجة لازالت عروساً أن تقوم من سريرها قبل الفجر لتتجول بين الأبنية والدور .

حين رأت الحالة السيئة التي وصلت إليها الأمور ، وكم عليها من أعمال تتطلب الإنجاز ، مرّت في خاطرها فكرة واضحة وقاسية . لو أنها أثقلت روحها بالخطيئة حتى تصل إلى هنا ، فليكن الأمر كذلك... ولكن التعامل مع عطايا الرب على هذا النحو الجاري هنا لم يكن خطيئة من وزن أقل . فليحلّ العار على المسؤولين عن الأمور هنا ، وعلى كل من ترك متاع إرلند يذهب هباء على هذا النحو! لم يكن هناك وكيل كفؤ في هوسابي في السنتين الأخيرتين . أما إرلند نفسه فكان كثير الغياب عن بيته خلال هذه المدة ، كما أنه لم يكن يفقه إلاّ قليلاً في شؤون إدارة أملاكه . لم يكن متوقعاً سوى أن يقوم وكلاء مزارعه في الأبرشيات البعيدة بغشّه ، كما كانت على ثقة من ذلك ، وأن الخدم في هوسابي ما كانوا يعملون إلا بقدر ما يرضيهم ، ومتى وكيف يروق لهم . ولن تكون مهمتها سهلة في إعادة الأمور إلى نصابها .

تطرقت في أحد الأيام إلى هذه الأمور مع أولف هالدورسون ، التابع الأمين لإرلند . كان يتوجب القيام بدرس القمح على الفور ، على الأقل ذاك القمح الذي في مزرعة البيت – ولم يكن هناك الكثير منه على أي حال – وذلك قبل أن يحين الأوان للذبح لأجل مؤونة الشتاء من اللحوم . قال أولف :

"تعرفين يا كريستين أني لست عامل مزرعة . كان عملي هو حمل سلاح إرلند –أنا وهافتور– ولم أعد ماهراً في أعمال الزراعة ."

قالت سيدة الدار : "أعرف ذلك . ولكن على ما يبدو يا أولف لن يكون

أمراً سهلاً عليّ إدارة الأمور هنا في هذا الشتاء ، أنا القادمة الجديدة إلى شمال دوفر ، دون معرفة كافية بالناس هنا . وستكون لفتة ودية منك أن تقدم لي يد المساعدة والمشورة ."

"أعتقد ذلك جاداً يا كريستين : أن مهمتك لن تكون سهلة هذا الشتاء" ، قال الرجل وهو ينظر إليها بابتسامة صغيرة ، تلك الابتسامة الغريبة التي كانت دائمة الارتسام على وجهه كلما حادثها أو حادث إرلند . كانت جريئة وساخرة ، ومع ذلك كان في تصرّفه لطف ونوع من الاحترام لها . ولم يكن يحق لها ، كما بدا لها ، أن تشعر بالإساءة لأن أولف يعاملها بتلك الجرأة الزائدة عن المعتاد . لقد جعلت هي نفسها وكذلك إرلند من هذا الخادم فريقاً في كل أفعالهما العابثة والخادعة . واستطاعت أن تلاحظ أنه كان يعرف أيضاً وضعها الحالي . عليها أن تترك هذا الأمر يمرّ... وبالفعل فقد لاحظت أن إرلند كان يتحمل أي شيء كان أولف يقوله أو يفعله ، وأن الرجل كان لا يبدي سوى القليل من الاحترام لسيّده . صحيح أنهما كانا صديقين منذ الطفولة . كان أولف من "مور" وكان ابناً لمزارع صغير يعيش قرب ضيعة بارد بيترسون . كان ينادي إرلند باسمه المجرّد ، ويناديها هي باسمها المجرّد أيضاً... ولكن كان صحيحاً أن هذا النوع من المخاطبة كان أكثر شيوعاً هنا في شمال دوفر ممّا هو في منطقتها .

كان أولف هالدورسون رجلاً وسيماً ، طويل القامة ، ذا شعر أسود داكن وعينين جميلتين . ولكن فمه كان قبيحاً وخشناً . كانت كريستين قد سمعت قصصاً بشعة عنه من الفتيات في ذلك المكان –حين يكون في المدينة فإنه يشرب على نحو مفرط وينفق وقته في القصف والعربدة في أسوأ بيوت الزيارة . ولكن في البيت في هوسابي كان أفضل الرجال ، طوع الإشارة ،

وأكثر العمال ملاءمة وقوة وحكمة . لقد أضحت كريستين تميل إليه كثيراً .

استأنف قائلاً : "لم يكن بالأمر السهل على أي امرأة أن تأتي إلى هنا ، إلى هذا المنزل... بعد كل الذي جرى . ومع ذلك أيتها السيدة كريستين ، فأنا أعتبر أنك ستنتصرين على نحو أفضل من أي شخص آخر . لست المرأة التي تجلس وتئن وتتذمّر . ولكنك ستركزين تفكيرك على حفظ إرث أولادك بنفسك طالما لا يوجد هنا أحد يفكر في مثل هذه الأمور . وأعتقد أنك تعرفين أنك تستطيعين أن تثقي بي ، وأني سأساعدك بقدر استطاعتي . وعليك أن تتذكري أني لست معتاداً على أعمال المزرعة . ولكن لو شاورتني وسمحت لي بمنحك المشورة ، أعتقد أننا سنجتاز هذا الشتاء في أحسن حال ."

شكرت كريستين أولف ، ثم دخلت المنزل .

●

كان قلبها مثقلاً بالقلق والخوف ، ولكنها حاولت أن تنسى ذلك من خلال العمل . الأمر الوحيد الذي لم تفهمه أن إرلند لم يبد عليه أنه يشك في أي شيء . ولكن المشكلة الأخرى والأسوأ كانت أنها لم تستطع أن تشعر بوجود حياة في الطفل الذي تحمله في أحشائها . ففي الأسبوع العشرين كان عليه أن يتحرك ، كما كانت تعرف... والآن مرّ أكثر من ثلاثة أسابيع فوق الأسابيع العشرين . كانت تبقى مستيقظة في الليل وتشعر بالعبء الذي في داخلها والذي كان يصبح أثقل فأثقل ، ولكنه كان ساكناً دون حياة دائماً . ثم كان يمر بذهنها كل ما سمعته عن الأطفال الذين يولدون مشلولين ، بأوتار قاسية كالحجارة ، وعن ولادات لأطفال دون أطراف لا تكون لهم إلا

بالكاد أشكال بشرية . وكانت تمر أمام عينيها المغلقتين بشدة صور عن أطفال صغار ، مشوهين على نحو مروّع ؛ والشكل المشوّه الواحد يتحول إلى آخر أكثر ترويعاً . في الجنوب في الوادي حيث موطنها ، في ليدستاد ، رزق أحد البيوت بطفل ؛ لابدّ أنه صار كبيراً الآن . لقد رآه والدها ولكنه لم يذكره قط . وقد لاحظت أنه كان يضطرب لو ذكره أي شخص أمامه . كيف كان يبدو ؟ -أوه ، كلا! أيها القديس أولاف ، صلّ لأجلي! -عليها أن تثق تماماً برحمة الملك المقدس الرقيقة . أولم تضع طفلها تحت رعايته ؟ ستعاني لأجل خطاياها بالتواضع ومن كل قلبها ستثق أنها ستتلقى المساعدة والرحمة لأجل الطفل . لابد أن "العدو" نفسه هو الذي أغراها بتلك الرؤى البشعة ، حتى يقودها إلى اليأس . ولكن لياليها كانت سيئة... إن لم يكن للطفل أطراف ، لو كان مشلولاً ، فإن الأم على الأرجح لن تشعر بأي أثر للحياة في داخلها... لاحظ إرلند ، نصف المستيقظ ، أن زوجته كانت قلقة ، فجذبها إلى ذراعيه ، ودفن وجهه في نحرها .

و لكنها لم تكن تظهر أي أمارة من أمارات القلق . في كل صباح كانت ترتدي ملابسها بحيث تحرص على أن تخفي عن أهل المنزل لفترة أطول أنها كانت تحمل حياة أخرى في داخلها .

كما جرت العادة في هوسابي كان الخدم ينطلقون إلى أماكن نومهم بعد وجبة المساء ، بحيث كانت تُترك هي وإرلند وحيدين في المنزل الرئيسي . على أي حال كانت أساليب الحياة في هذه الضيعة تشبه كثيراً أساليب الأيام الغابرة ، حين كان الناس يستخدمون الرقيق والإماء للأعمال المنزلية . لم تكن هناك مائدة ثابتة في المنزل الرئيسي ، ولكن الوجبات الصباحية والمسائية كانت توضع فوق لوح خشبي كبير يوضع على جحوش خشبية ،

وبعد انتهاء الوجبة كان اللوح يعلق مجدداً على الجدار . في الوجبات الأخرى كان الناس يأخذون طعامهم إلى المقاعد ويجلسون ويتناولونها هناك . عرفت كريستين أن العادة كانت تجري على هذا النحو في الأزمان الغابرة . ولكن في هذه الأيام ، حين أضحى من الصعب إيجاد رجال يخدمون على الموائد ، وأضحى الناس كلهم راضين بوجود خادمات للأعمال المنزلية ، فلم يعد ذلك يلائم هذا العصر : أضحت النساء كارهات أن يتركن ظهورهن تنكسر في رفع الموائد الثقيلة . تذكرت كريستين كيف كانت أمها تحكي لها كيف أنهم وضعوا مائدة ثابتة في سوندبو في القاعة حين كان عمرها لا يتجاوز ثمانية شتاءات وأن النساء اعتقدن أن ذلك كان أروع هدية -فلم تعد هناك حاجة إلى حمل أدوات الخياطة إلى منزل النساء ، بل يستطعن الجلوس في القاعة والقص والقطع- كما كان منظراً جميلاً إبقاء الشمعدانات وبعض الأوعية الثمينة أمام أنظارهم . فكرت كريستين : في الصيف التالي سترجو إرلند أن يضع مائدة ثابتة على امتداد الجدار الشمالي .

هكذا كان الأمر في بيت أهلها ، وهناك كان كرسي أبيها العالي في نهاية اللوح الخشبي ، ولكن هناك كانت الأسرّة عند جدار المدخل . في بيت أهلها كانت أمها تجلس في أعلى مكان على المقعد الخارجي ، حيث تستطيع أن تتحرك جيئة وذهاباً وتراقب خدمة الطعام . ولكن حين يكون هناك عيد فحسب كانت راغنفريد تجلس قرب زوجها . ولكن هنا كان الكرسي العالي في وسط نهاية الجملون الشرقي ، وكان إرلند سيجلسها دائماً عليه معه . في البيت كان أبوها يضع دائماً خدم الرب في الكرسي العالي إن كان مثل أولئك ضيوفاً على الضيعة ، وكان هو نفسه وراغنفريد يخدمانهم خلال الأكل والشرب . ولكن إرلند ما كان يمارس ذلك ، إلاّ إذا كان هؤلاء من رتبة عالية . لم يكن محبّاً كبيراً للكهنة والرهبان : كانوا

أصدقاء مكلفين كما اعتاد أن يقول لكريستين . لم تكن كريستين قادرة على مغالبة التفكير فيما كان أبوها وسيرا آيريك يقولانه دائماً ، حين كان الناس يتذمّرون من طمع رجال الكنيسة الشديد في المال : كان الناس ينسون المتع الخاطئة التي اختطفوها لأنفسهم حين يحلّ أوان دفع التعويضات عنها .

سألت إرلند عن الحياة هنا في هوسابي في الأيام السالفة . ولكنه ويا للعجب ما كان يعرف سوى القليل . كانت الأمور على هذا النحو أو ذاك ، كما كان قد سمع . ولكنه لم يستطع التذكر جيداً . كان الملك سكوله يمتلك هذه الضيعة وقد شيّد عليها الأبنية . ويُقال إنه أراد أن يجعل هوسابي سكناً له ، حين تخلّى عن "راين" إلى دير للنساء . كان إرلند شديد الفخر لأنه سليل لذلك "الدوق" ، الذي كان يدعوه بالملك دائماً ، وكذلك للأسقف نيكولاوس . كان الأسقف والد جده ، مونان بيشوبسون . ولكن بدا لكريستين أنه لم يكن يعرف عن هؤلاء الناس أكثر ممّا تعرفه هي من حكايات أبيها . في بيت أهلها كان الأمر خلاف ذلك . فلا أبوها ولا أمها كانا شديدي الاعتزاز بسلطة أجدادهما والاعتبار الكبير الذي كانوا يتمتعون به . ولكنهم كانوا غالباً ما يذكرونهم ، وكانوا يتخذون من الأمور الطيبة التي يعرفونها عنهم مثالاً يُحتذى ، ويحكون عن أخطائهم وعن الأعمال الشريرة التي اقترفوها كتحذير . كما كانت لديهم حكايات صغيرة مرحة أيضاً : عن إيفار غييسلينغ العجوز وشجاره مع الملك "سفير" ؛ عن نوادر إيفار بروفست السريعة والذكية ، عن ضخامة جسم هافارد غييسلينغ ، وعن حظ إيفار غييسلينغ الرائع في الصيد . كان لافرانس يحكي عن أخي جده الذي حمل عذراء فولكونغا من دير فريتا . عن أم جده رامبورغ سونسداتر التي كانت تتوق دائماً إلى بيتها في ويستر غوتلاند ، وأخيراً كيف مضت إلى هناك عبر

الجليد وتاهت ، وذلك وهي تقود عربتها على بحيرة فينير في إحدى المرات التي كانت تمكث فيها مع أخيها في سولبرغا . كان يحكي عن براعة أبيه الفائقة في الأسلحة وحزنه الشديد على زوجته الشابة الأولى ، كريستين سيغوردسداتر ، التي ماتت خلال ولادتها للافرانس . وكان يحكي من أحد الكتب عن جدته السيدة المقدسة إلين من سكوفد ، التي مُنحت كرامة أن تكون إحدى شهود دم الرب . كثيراً ما كان أبوها يتحدث عن رحلة حج مع كريستين إلى قبر هذه الأرملة المقدسة . ولكن هذه الرحلة لم تتم قط .

في خوفها وبؤسها ، حاولت كريستين أن تصلي لهذه القديسة التي ترتبط بها بروابط الدم . صلت للقديسة إلين لأجل طفلها ، وقبّلت المذخر الذي أخذته من أبيها ، وكان فيه مزقة من كفن السيدة المقدسة . ولكن كريستين كانت تخشى القديسة إلين ، بعد أن جلبت العار على جنسها . حين كانت تصلّي للقديس أولاف والقديس توماس لأجل شفاعتهما ، غالباً ما كانت تشعر أن شكاواها تصل إلى آذان حية وقلوب رحيمة . هذان الشهيدان من شهداء الورع اللذان كان أبوها يحبهما أكثر من كل القديسين الآخرين ، وحتى أكثر من القديس لاورنتيوس نفسه ، رغم أن هذا هو القديس الذي سمي هو باسمه ، والذي كان يقيم على شرفه في أواخر الصيف حفل شراب كبير ويتبرع بمبالغ كبيرة للفقراء . لقد رأى والدها مرة في أحلامه القديس توماس وهو راقد بعد إصابته بجرح خارج باغاهوس . لم يكن هناك لسان قادر على وصف مدى جماله وروعته ، ولم يستطع لافرانس نفسه قول أي شيء عدا : "أيها الرب!" ولكن الشخص المشع في ملابس الأسقف لمس بلطف جراحه ووعده بأنه سيُمنح الحياة واستخدام أطرافه حتى يرى مجدداً زوجته وابنته ، حسب صلاته . ولكن لم يصدق أحد في ذلك الحين أن لافرانس بيورغولفسون سيتمكن من البقاء حيّاً حتى الصباح .

أجل ، قال إرلند . يسمع المرء بمثل هذه الأمور . فلم يحدث له أي شيء مشابه ، ولاشكّ أنه لن يحدث ، فهو ليس بالرجل الورع كما هو لافرانس .

ثم سألت كريستين عن كل الناس الذين كانوا في احتفال وصولها إلى البيت . لم يكن لدى إرلند الكثير ليقوله عنهم أيضاً . بدا لكريستين أن زوجها لم يكن شبيهاً بأناس هذا الريف . كانوا أشخاص وسيمين ، شقراً حمر البشرة ، لهم رؤوس مستديرة قاسية وأجساد قوية متينة : كان كثير من المسنين بدينين إلى حد كبير . بدا إرلند كطائر غريب بين ضيوفه . كان أطول بمقدار رأس عن معظم الرجال ، رشيقاً ضامراً بأطراف نحيلة ومفاصل ممتازة وشعر حريري أسود وبشرة سمراء فاتحة ، إنما بعينين زرقاوين فاتحتين تحت حاجبين أسودين كالفحم ورموش سوداء طويلة . كان جبينه عالياً وضيقاً ، وصدغاه غائرين ، أما الأنف فكبير نوعاً ما والفم صغير جداً وضعيف بالنسبة إلى رجل : ولكنه كان وسيماً على أي حال . لم تكن قد رأت رجلاً له نصف وسامة إرلند . حتى صوته الرقيق الهادئ لم يكن مشابهاً لأصوات الآخرين الغليظة الشبعانة .

ضحك إرلند وقال إن أجداده لا ينتمون إلى هذه المنطقة أيضاً ، عدا أم جده راغنفريد سكولسداتر . ويقول الناس إنه يشبه كثيراً جده لأمه المسمى غاوت إرلندسون من سكوغهايم . سألته كريستين عمّا يعرفه عن جده هذا ، ولكن تبين أنه لا يعرف عنه شيئاً .

•

في إحدى الليالي كان إرلند وكريستين يخلعان ملابسهما في المنزل

الرئيسي . لم يستطع إرلند فك شريط حذائه . وبينما راح يقطعه انزلقت السكين وجرحت يده . وقد نزف كثيراً وراح يشتم بوحشية . أحضرت كريستين قطعة من القماش الكتاني من خزانتها . كانت ترتدي شلحتها فقط . وبينما راحت تربط له يده ، مرّر إرلند ذراعه الأخرى من حول خصرها .

و فجأة نظر إلى وجهها والخوف والاضطراب في عينيه ، وقد تضرج وجهه حتى أصبح أحمر نارياً . أحنت كريستين رأسها . رفع إرلند ذراعه ، دون أن يقول شيئاً . ثم ذهبت كريستين في صمت ودخلت إلى السرير . كان قلبها يدق دقات قوية مصمتة على أضلاعها . بين الحين والآخر كانت تنظر إلى زوجها . كان قد أدار لها ظهره وراح يخلع ملابسه ببطء وأخيراً جاء إلى السرير واضطجع فيه .

انتظرت منه كريستين أن يتكلم . لقد انتظرت وكأن قلبها لم يعد يخفق ، بل توقف وراح يرتعش في صدرها .

و لكن إرلند لم ينبس ببنت شفة . كما أنه لم يضمّها بين ذراعيه . وأخيراً ، وبتردّد ، مد يده من فوق صدرها وضغط بذقنه على كتفها بقوة حتى أن لحيته النامية خدشت بشرتها . وبما أنه لم ينطق بكلمة واحدة ، فقد أدارت كريستين وجهها إلى الجدار .

كأنما كانت تغرق وتغرق . لم يستطع أن يجد كلمة يقولها لها ، بعد أن عرف الآن أنها كانت تحمل طفله في أحشائها طوال هذه الفترة المديدة . أطبقت على أسنانها بقوة في الظلام . لن ترجو وتتوسل أبداً... إن اختار هو الصمت ، فستصمت هي أيضاً ، حتى يوم الولادة ، إن دعا الأمر . تدفقت المرارة في قلبها ، ولكنها بقيت ساكنة عند الجدار . كما بقي إرلند ساكناً

في الظلام . وساعة بعد ساعة بقيا مضطجعين على هذا النحو ، وكل واحد منهما يعرف أن الآخر لم يكن نائماً . وأخيراً عرفت من تنفسه المنتظم أنه قد أغفى ، فأطلقت العنان لدموعها التي تفجرت حزناً ومرارة وعاراً . لن تسامحه أبداً ، كما بدا لها ، على هذا الفعل .

•

و لثلاثة أيام بحالها بقي إرلند وكريستين على هذا المنوال : وهو يبدو ككلب مبلّل ، كما فكرت الزوجة الشابة . كانت محتدّة من الغضب : وقد جُنّت من الغضب حين لاحظت أنه كان يبحث عنها بعينيه ثم ينظر بعيداً إن التفتت بعينيها نحوه .

•

في صباح اليوم الرابع ، وبينما كانت جالسة في المنزل الرئيسي ، دخل إرلند عبر المدخل وقد ارتدى ملابس الركوب . كان سيتجه غرباً إلى "ميدالبي" . ربما تود القدوم معه ومشاهدة المكان . كانت ميدالبي إحدى المزارع التي وهبت لها كهدية من "هدايا الصباح" . أجابت كريستين بنعم . وساعدها إرلند بنفسه على ارتداء حذائها الطويل القاسي والعباءة السوداء ذات الأكمام والأبازيم الفضية .

في الساحة كانت أربعة جياد مسرجة ، ولكن إرلند قال إن "هافتور" و"إغيل" قد يبقيان في المنزل ويساعدان في الدراسة . ثم ساعد زوجته على الركوب . أحست كريستين بأنه كان في ذهن إرلند أن يتكلما الآن حول ما كان يجري بينهما دون كلام . ومع ذلك لم يقل شيئاً وهما سائران في طريقهما ببطء جنوباً نحو الغابات .

كان الشتاء قد بدأ منذ زمن ، ولكن لم يكن الثلج قد هطل في هذا الريف بعد . كان النهار منعشاً ولطيفاً ، وقد بزغت الشمس للتو ، والجليد الأبيض يلتمع بلون فضي وذهبي في كل مكان ، على الحقول وعلى الأشجار . كانا يجتازان أراضي هوسابي . لاحظت كريستين أنه لم يكن هناك سوى القليل من الأرض المبذورة أو المحصودة ، فقد كانت معظم الأراضي أراضي خالية من الزرع تركت للأعشاب ، ومروجاً قديمة غير مستوية نمت عليها الطحالب ، واختنقت بفروع أشجار جار الماء . تحدثت عن هذا الموضوع .

أجابها زوجها :

"ألا تعرفين يا كريستين ، أنت التي تتمتع بمهارة كبيرة في إدارة البضائع والمعدات ، أنه ليس بالأمر المربح زراعة القمح إلى القرب من تلك السوق الكبيرة ؟... الأفضل للمرء أن يقايض صوفه وزبدته لقاء ذرة ودقيق التجار الأجانب..."

قالت كريستين : "إذن كان عليك أن تقايض كل ذلك الصوف الذي هو قابع الآن في عليّاتك وقد أصابه التلف منذ زمن بعيد . ولكن بحدود علمي فإن القانون يقول إن كل رجل يؤجر الأرض سيبذر قمحاً في ثلاثة أرباعها ، ويترك الربع الأخير مراحاً للعشب . وليس ملائماً أن تتلقى ضيعة صاحب الأرض عناية أقل من مزارع المستأجرين ، هذا ما كان أبي يقوله على الدوام ."

ضحك إرلند قليلاً ، ثم أجاب :

"لم يسبق لي أن بحثت في القانون المتعلق بهذه القضية... طالما أحصل على ما هو حقي فإن المستأجرين لديّ يستطيعون حراث مزارعهم كما يحبون ، وأما بالنسبة إلى هوسابي ، فأنا أديرها حسب ما أرى أنه الأفضل والأكثر ملاءمة ."

سألت كريستين : "هل أنت إذن أكثر حكمة من آبائنا الذين سبقونا ، ومن القديس أولاف والملك ماغنوس اللذين وضعا هذه القوانين ؟"

ضحك إرلند مجدداً وقال :

"هذه مسألة لم يسبق لي أن فكرت فيها... ولكن لابدّ أن الشيطان وكل شيء آخر وراء كونك عارفة بقوانين الأرض إلى هذا الحد يا كريستين ."

قالت كريستين : "لا أعرف إلا القليل عن هذه الأمور لأن أبي كان غالباً ما يطلب من سيغورد من لوبتسغارد أن يكرر القوانين أمامنا حين كان يأتي لزيارتنا ونجلس في البيت مساء . لقد اعتبر أبي أنه أمر مفيد للخدم والشبان أن يتعلموا شيئاً عن مثل تلك الأمور . وهكذا كان سيغورد يكرر هذا المقطع أو ذاك ."

قال إرلند : "سيغورد... أجل ، أتذكر الآن أني شاهدته في حفل زفافنا . إنه ذلك الرجل العجوز الأدرد ذو الأنف الطويل الذي بكى وثرثر وسال لعابه وربت على صدرك... لقد كان ثملاً كبومة حتى في صباح اليوم التالي حين وصل الناس ليروني أضع القبعة الكتانية على رأسك..."

قالت كريستين بغضب : "لقد عرفني منذ نعومة أظفاري . وقد اعتاد أن يجلسني في حضنه ويلعب معي حين كنت فتاة صغيرة..."

ضحك إرلند مجدداً .

"حسناً ، لابد أنها كانت تسلية غريبة بما فيه الكفاية... أن تجلسوا جميعاً هناك وتصغوا إلى ذلك الرجل العجوز وهو ينشد القوانين ، مادة مادة . لا شك أن لافرانس لا نظيرله بين الرجال في مسائل كثيرة... فالآخرون يقولون إنه لو عرف الفلاح قوانين الأرض بالكامل ، وعرف الفحل القوة ، فسيصبح الشيطان فارساً ."

فجأة وبصرخة ، لطمت كريستين حصانها على مؤخرته واندفعت إلى الأمام ، تاركة إرلند وهو يحدق ملاحقاً زوجته بعينيه وقد اعتراه العجب والغضب .

و فجأة همز حصانه . يا للمسيح... الزقاق البحري بين الجروف الصخرية كان دون معبر فوقه الآن... فالضفة الطينية قد انزلقت في الخريف .

مطّ سلونغفانباوغ نفسه ليعدو على نحو أسرع حين سمع الحصان الآخر خلفه . كان إرلند في حالة من الخوف القاتل : فها هي تنطلق هابطة المنحدر الجبلي الشاهق أيضاً! وأخيراً استطاع أن يسبقها عبر الشجيرات ، ثم التفتَ إلى الدرب حيث كان مستوياً لمسافة قصيرة ، ووقف بحيث تضطر إلى التوقف . حين اقترب منها رأى أنها بدت خائفة قليلاً هي أيضاً .

انحنى إرلند إلى الأمام نحو زوجته وصفعها بقوة تحت أذنها... حتى أن سلونغفانباوغ قفز جانباً وشبّ رعباً .

قال إرلند بصوت مرتجف بعد أن هدأ روع الحصانين وراحا يسيران الواحد إلى جانب الآخر مجدداً : "أجل ، لقد كنت تستحقين ذلك . أن تتابعي السير هكذا... مجنونة تماماً من الغضب . لقد أخفتني..."

رفعت كريستين رأسها على نحو لا يرى معه وجهها . تمنى إرلند لو أنه لم يضربها . ولكنه قال مجدداً :

"لقد أدخلت الرعب في قلبي يا كريستين... تصرفك على ذلك النحو! وأن يحدث ذلك الآن وليس في أي وقت آخر..." ، أضاف بصوت خفيض .

لم ترد كريستين عليه كما لم تنظر إليه . ولكن إرلند استطاع أن

يشعر أنها كانت أقل غضباً الآن ممّا سبق ، حين راح يسخر من أهلها . وقد تعجب من ذلك... ولكنه رأى أن الأمر كان على هذا النحو .

•

وصلا إلى ميدالبي ، وخرج أحد مستأجري إرلند وطلب منهما الدخول إلى مسكنه . ولكن إرلند قال إنه يريد منه مرافقته للقيام بجولة حول أبنية المزرعة أولاً ، على أن تذهب كريستين معهما . "لقد صارت المزرعة ملكاً لها الآن ، وهي تفهم في هذه الأمور أكثر مني يا ستاين ." قال هذا ضاحكاً . كان هناك مزارعون آخرون أيضاً وصلوا ليكونوا شهوداً : وكان بعضهم من مستأجري أراضي إرلند .

كان ستاين قد وصل إلى المزرعة في آخر يوم من أيام العقد ، وكان منذ ذلك الحين يرجو أن يصل مالك الأرض ويرى حالة الأبنية لدى استلامه لها ، أو سيرسل رجاله لينوبوا عنه . وقد شهد المزارعون الآخرون بأن أياً من الأبنية لم يكن صاداً للريح والمطر ، وأن تلك الأبنية التي تداعت لم تكن في حال أفضل حين وصل ستاين . لاحظت كريستين أنها كانت مزرعة جيدة ، ولكن دون عناية ملائمة بها . استطاعت أن ترى أن ستاين هذا كان مجداً في عمله . وكان إرلند أيضاً منطقياً ووعده ببعض السماح في الإيجار حتى يتم ترميم الأبنية .

ثم دخلا إلى المنزل الرئيسي ووجدا المائدة وقد أعدت بطعام طيب وجعة قوية . رجت زوجة المزارع كريستين أن تسامحها لأنها لم تخرج لمقابلتها . قالت إن زوجها لن يسمح لها بالخروج تحت السماء حتى تكون قد دخلت الكنيسة بعد إنجابها . حيّت كريستين المرأة بلطف وجعلتها

تقودها إلى المهد لترى الطفل . كان الطفل الأول لهذه العائلة : كان صبياً في يومه الثاني عشر ، وكان كبير الحجم قوي البنية .

ثم اقتيد إرلند وكريستين إلى المقعد العالي ، وجلس الناس جميعاً وأكلوا وشربوا لفترة طويلة . كانت كريستين هي التي تكلمت خلال الوجبة أكثر من غيرها . أما إرلند فلم يقل سوى القليل ، ولم يقل الفلاحون الكثير . ولكن كريستين فكرت أنها استطاعت أن تلاحظ أنهم أحبوها جيداً .

ثم استيقظ الطفل وبدأ أولاً بالنشيج ثم صرخ على نحو مخيف حتى اضطرت أمه إلى إحضاره وتلقيمه ثديها لتوقف صراخه . نظرت كريستين أكثر من مرة نحو الأم والطفل ، وحين شبع الطفل وهدأ ، أخذته من المرأة ووضعته على ذراعها .

قالت : "انظر يا زوجي! أليس هذا وغداً جميلاً وشرهاً ؟

قال زوجها دون أن ينظر في اتجاهها : "لا شك في ذلك ."

جلست كريستين تحمل الطفل لفترة قصيرة قبل أن تعطيه لأمه .

قالت : "سأرسل هدية لابنك الصغير هذا يا آندريس ، لأنه أول طفل أحمله بين ذراعي منذ أن وصلت إلى هنا شمالاً من دوفر ."

نظرت بحرارة وتحد وبابتسامة صغيرة إلى زوجها ثم إلى صف الفلاحين الجالسين على المقعد الطويل . كان هناك أقل القليل من الارتعاش على زوايا فم واحد أو اثنين منهم . ولكنهم حدقوا إلى الأمام على الفور ، وقد اعترتهم الرزانة . ثم وقف شخص عجوز جداً كان قد سبق له وأكثر من الشراب . أخذ المغرفة من وعاء الجعة ، ووضعها على المائدة ورفع الوعاء الثقيل عالياً :

"إذن سنشرب نخبك أيتها السيدة مع أمنية : نتمنى أن يكون الطفل

التالي الذي ستحملينه بين ذراعيك هو سيد هوسابي!" نهضت كريستين وتناولت الوعاء الثقيل . أولاً رفعته إلى زوجها ، ولكن إرلند مسّه فحسب بشفتيه ، ولكن كريستين عبّت عبّاً عميقاً وطويلاً .

قالت : "شكراً على الأمنية الطيبة يا يون الغابات ." وأومأت برأسها إليه ، ووجهها مترع بالنور والفرح . ثم مررت الوعاء .

جلس إرلند هناك وقد تورّد وجهه بلون أحمر داكن ، كما استطاعت كريستين أن ترى ، من الغضب الشديد . لم تكن تشعر الآن بأي شيء عدا الحاجة التي لا مبرر لها إلى الضحك والشعور بالسعادة . بعد فترة ، أعطى إرلند إشارة النهوض ، وانطلقا في رحلة العودة .

•

كانا قد قطعا شوطاً طويلاً دون كلام ، حين حطم إرلند الصمت فجأة :

"هل تعتقدين أنه كانت هناك حاجة لجعل فلاحينا يعرفون أنك كنت حاملاً حين عقد قرانك ؟ يمكنك أن تراهني بروحك على أن هذه الحكاية عنا نحن الاثنين ستكون قد وصلت إلى مسامع كل أبرشية في غروندهايم فيورد بأسرع ممّا تتوقعين..."

لم تجب كريستين . نظرت إلى الأمام مباشرة من فوق رأس حصانها ، ثم شحب وجهها حتى اعترى إرلند الخوف .

قالت أخيراً دون أن تنظر إليه : "لن أنسى أبداً أن هذه كانت أول تحية لابنك الصغير الذي هو تحت زناري ."

قال إرلند متوسلاً : "كريستين!" ثم قال برجاء : "يا كريستين" ، حين لم تجب ، ولم تنظر إليه . "كريستين!"

قالت بلهجة باردة متحفظة دون أن تلتفت برأسها : "سيدي ؟"

شتم إرلند غاضباً ، ثم همز حصانه واندفع إلى الأمام على امتداد الطريق . ولكنه عاد بعد قليل ليقابلها .

قال : "لقد أغضبتني إلى حد أني كنت على وشك أن أنطلق في طريقي وأتركك لوحدك ."

أجابت كريستين بهدوء : "و لو فعلت ذلك ، لربما كان عليك أن تنتظر طويلاً وطويلاً جداً قبل أن ألحق بك إلى هوسابي ."

قال الرجل يائساً : "عجباً كيف تتكلمين!"

و من جديد قطعا مسافة دون كلام . ثم وصلا إلى مكان كان فيه ممر ضيق يؤدي إلى حافة جبل . قال إرلند لزوجته :

"لقد كنت عازماً على الذهاب إلى البيت من هذا الدرب فوق الجبل ، إنه أبعد قليلاً ، ولكني كنت أتوق إلى اصطحابك إلى هذا المكان في وقت من الأوقات ."

أومأت كريستين برأسها بفتور .

بعد فترة قصيرة قال إرلند إنه من الأفضل لهما أن يسيرا على الأقدام . ثم ربط حصانيهما إلى شجرة .

قال : "كان لأخي غونولف قلعة على قمة الجبل هنا . وأريد أن أرى إن كان قد تبقى من قلعتنا شيء..."

أمسك بيدها . تركته يمسك بها ، ولكنها مشت وهي تنظر إلى الأرض ، إلى حيث تمشي . ولم يمر وقت طويل حتى وصلا إلى القمة . عبر الغابات التي غطاها الصقيع في وادي النهر الصغير شاهدا هوسابي على جانب

الجبل أمامهما ، كانت واسعة الامتداد ورائعة ، بكنيستها الحجرية والأبنية الضخمة الكثيرة ، والأراضي الواسعة المفلوحة من حولها والمنحدرات الداكنة المغطاة بأحراج الصنوبر .

قال إرلند بصوت خفيض : "كانت أمي تأتي معنا إلى هنا... غالباً . ولكنها كانت تجلس دائماً وتحدّق جنوباً ، نحو دوفرفييلد . أعتقد أنها كانت تتوق في البداية وفي النهاية إلى مغادرة هوسابي . أو كانت تلتفت أحياناً نحو الشمال وتنظر نحو الوادي الجبلي حيث ترين الجبال الزرقاء والبعيدة إلى ما وراء الزقاق البحري . لم تكن تنظر إلى هوسابي أبداً ."

كان صوته رقيقاً ومتوسلاً . ولكن كريستين لم تتكلم ولم تنظر إليه . سرعان ما ابتعد عنها وبدأ يرفس نباتات الخلنج المتجمدة :

"لا ، لا أستطيع أن أرى أن أي شيء قد بقي من قلعتنا ، قلعة غونولف وقلعتي . هذا صحيح ، فقد مرّ وقت طويل منذ أن كنا نلعب هنا ، غونولف وأنا..."

لم يكن هناك جواب... هناك إلى الأسفل حيث وقفا سابقاً كانت بركة متجمدة... تناول إرلند حجراً ورماه فوق الجليد . كانت البركة متجمدة حتى قاعها ، لذلك فإن الحجر رسم نجمة بيضاء صغيرة فحسب فوق المرآة السوداء . تناول إرلند حجراً آخر ورماه بقوة أكبر... ثم ثالثاً فرابعاً ، حتى كان في النهاية يمطر البركة بالأحجار بجنون ، وقد صمم على تكسير الجليد كله . ثم لمح وجه زوجته... كانت واقفة هناك وعيناها داكنتان بالاحتقار ، تبتسم بازدراء على تصرفه الطفولي .

التفت إرلند بحدة ، ولكن كريستين شحبت في اللحظة نفسها شحوب الموتى ، وأغمضت عينيها . وقفت وهي تقبض الهواء بيديها ، وتترنح

وكأنها على وشك السقوط... ثم تمسكت بجذع شجرة واستندت إليه .

سأل خائفاً : "كريستين... ما الأمر ؟"

لم تجب ، بل وقفت كأنها تصغي إلى شيء ما . كانت عيناها بعيدتين وغريبتين .

لقد أحست بذلك مجدداً . ففي أعماقها كانت تحسّ وكأن هناك سمكة تحرك ذيلها . ثم بدا لها مجدداً وكأن الأرض كلها كانت تترنح فيما حولها ، فشعرت بالدوخة والوهن ، ولكن على نحو أقل الآن ممّا سبق .

قال إرلند مجدداً : "ما خطبك ؟"

كانت قد انتظرت هذا كثيراً... ولكنها لم تكن تجرؤ على الاعتراف لنفسها بألم الانتظار . لم تكن قادرة على البوح بذلك... وخاصة الآن بعد ذلك اليوم كله من الشجار . ولكنه قالها أخيراً :

"هل هو الطفل الذي ينمو بسرعة في أحشائك ؟" سأل بصوت خفيض ، وهو يلمس كتفها .

في تلك اللحظة نسيت كل غضبها ضده ، وتمسكت بوالد الطفل وخبأت وجهها في صدره .

•

و سرعان ما هبطا إلى المكان الذي ربطا فيه جواديهما . كان النهار القصير قد قارب على الانقضاء . إلى الخلف منهما في الجنوب الغربي ، كانت الشمس تهبط وراء رؤوس الأشجار ، كرة حمراء ضبابية في السديم الجليدي .

اختبر إرلند حزام وأبازيم سرج حصان زوجته بعناية قبل أن يرفعها إليه . ثم ذهب وحرّر حصانه . تحسس حزامه بحثاً عن قفازيه اللذين حشرهما هناك ولكنه لم يجد سوى واحد منهما . بدأ يتطلع فيما حوله عند المنحدر .

لم تستطع كريستين أن تغالب القول :

"لا فائدة من البحث عن قفازك هنا يا إرلند ."

قال : "كان عليك أن تخبريني حين رأيتني أسقطه ، رغم أنك كنت غاضبة مني كما لم يسبق لك من قبل ." كان هذان القفازان هما اللذان حبكتهما له كريستين وأهدتهما له ضمن هدايا الخطوبة .

قالت كريستين بصوت خفيض جداً وبعينين مسبلتين :

"لقد سقط منك حين ضربتني ."

وقف إرلند قرب كتف حصانه ويده على قوس السرج . بدا خجولاً وحزيناً . ولكنه بدأ يضحك على حين غرة :

"لم يسبق لي أن حلمت يا كريستين –في تلك الأيام التي كنت أخطب فيها ودّك ، وأنا أتجول متوسلاً أقربائي أن يخطبوك باسمي ، حين كنت أذلّ نفسي لأكسبك – أنك قد تكونين جنيّة إلى هذا الحد!"

عندها ضحكت كريستين أيضاً :

"لا... فلو أنك فعلت ، لكنت تخليت عن مطلبك قبل ذلك بوقت طويل... ولاشك أن ذاك كان في مصلحتك ."

سار إرلند خطوتين باتجاهها ووضع يده فوق ركبتها :

"فليكن يسوع في عوننا يا كريستين... هل سبق لك وسمعت أنه سبق لي وقمت بفعل لمصلحتي... ؟"

وضع رأسه على حجرها ونظر بعينين لامعتين إلى وجه زوجته . أحنت كريستين رأسها وقد تضرج وجهها وشعرت بالسعادة ، وحاولت أن تخفي عنه ابتسامتها وعينيها .

قاد حصانها من شكيمته وترك حصانه يلحق بهما ، وسارا على هذا النحو حتى هبطا من الجبل . وفي كل مرة كان ينظر فيها إليها ، كان يضحك ، وكانت هي تلتفت بعيداً برأسها حتى لا يرى أنها كانت تضحك أيضاً .

قال بمرح حين وصلا إلى الطريق مجدداً : "و الآن سنمضي إلى البيت في هوسابي ، يا كريستين ، وسنكون سعيدين كلصّين!"

٢

في مساء عيد الميلاد ، هبت الرياح وهطل وابل من الأمطار . لم يكن ذاك طقساً ملائماً لركوب مزالج الجليد ، لذلك اضطرت كريستين للبقاء في البيت حين انطلق إرلند وجماعته إلى قداس منتصف الليل في كنيسة بيرغسي .

وقفت في مدخل المنزل الرئيسي وراقبتهم وهم يبتعدون . كانت مشاعل جذور التنوب التي يحملونها تلتمع حمراء فوق جدران المنزل القديم المعتم ، وكانت تنعكس على صفحة الماء المتجمع في الساحة . أمالت الريح لهيب المشاعل نحو الجانب . وقفت كريستين حتى تلاشت أصوات رحيلهم في الليل .

في الداخل ، في المنزل الرئيسي ، كانت الشموع منارة فوق اللوح الخشبي . وكانت قد تبعثرت فوقه بقايا وجبة العشاء : العصيدة اللزجة في الأطباق ، شرائح الخبز نصف المأكولة وحسك الأسماك في برك من الجعة المراقة . كانت الخادمات اللواتي سيبقين في البيت قد سبق لهن واضطجعن في أماكن الاستراحة فوق قش الأرضية . كانت كريستين لوحدها في الضيعة

معهن ومع رجل عجوز واحد يدعى "آن" . كان هذا قد خدم في هوسابي منذ أيام جد إرلند . وهو يعيش الآن في كوخ صغير قرب البحيرة ، ولكن غالباً ما كان يأتي إلى الضيعة في وقت النهار ، ويمارس صناعة الفخار ، أي أنه حسب رأيه كان يقوم ببعض العمل . كان "آن" قد نام عند اللوح الخشبي في هذه الليلة ، وكان إرلند وأولف قد حملاه إلى زاوية ، وهما يضحكان ، وقد وضعاه هناك وغطياه بسجادة .

في مثل هذا الوقت ، في يوروندغارد في بيت أهلها ، كان من شأن البيت أن يكون في فورة من النشاط ؛ فقد كانت كل جماعة في البيت تنام في المنزل الرئيسي في الليالي المقدسة في فترة عيد الميلاد . وقبل أن ينطلقوا نحو الكنيسة كان من عادتهم تنظيف بقايا الطعام من وجبة عشاء الصوم ، كما كانت أمها والفتيات يرتبن المائدة على أفضل نحو ، مع الزبدة والأجبان ، وأكوام من شرائح الخبز الرقيقة السمراء ، اللامعة بلحم الخنزير المقدد الأبيض ولحم رسغ الخروف المدخن . كانت الأباريق الفضية وقرون "الميد" تلتمع على المائدة . كما كان أبوها يضع بنفسه براميل الجعة الخشبية على المقعد .

حولت كريستين كرسيّها نحو المدفأة : ما عادت تنظر إلى المائدة القذرة . كانت إحدى البنات تشخر : كان الصوت رهيب الوقع في أذنيها .

كان هذا أحد الأمور التي لم تستطع أن تحبّها في إرلند : ففي بيته كان يأكل بأسلوب قذر ، وينقب في الأطباق بحثاً عن طعام شهي ، ونادراً ما كان يغسل حتى يديه قبل الطعام . ثم كان يدع كلابه تقفز إلى حجره وتختطف كسرات الطعام بينما لا يزال الناس يأكلون . لذلك كان من المتوقع أن يكون الخدم مفتقرين إلى التهذيب على المائدة...

في بيت أهلها كانت قد تعلمت كيف تأكل بأناقة... وببطء . فلم يكن أمراً ملائماً ، كما قالت أمها ، أن يجلس أهل المنزل ينتظرون بينما يأكل الخدم ؛ كما أن أولئك الذين يكدحون ويتعبون يجب أنْ يمنحوا الوقت الكافي ليأكلوا ويشبعوا .

نادت كريستين برقة الكلبة الصفراء الضخمة التي كانت ترقد مع مجموعة جراء كاملة عند الحافة الحجرية للمدفأة : "غونا" . كانت شديدة النزق حتى أسماها إرلند باسم سيدة منزل راسفولد العجوز ذات المزاج النكد .

همست كريستين : "يا للمسكينة العجوز النحيلة!" وهي تربت على الكلبة حين اقتربت هذه ووضعت رأسها على ركبة كريستين . كان عظم ظهرها حاداً كالمنجل ، كما كانت حلمات أثدائها تكاد تلامس الأرض . كانت الجراء تلتهم أمها تدريجياً . "حسناً ، حسناً يا نحيلتي العجوز المسكينة!"

مالت كريستين برأسها إلى الكرسي ونظرت إلى العوارض التي غطاها السخام . كانت متعبة...

أوه ، كلا... لم تكن أوقاتاً سهلة تلك التي تمر بها ، تلك الشهور التي قضتها في هوسابي . لقد تحادثت مع إرلند في مساء اليوم الذي كانا فيه في ميدالبي . ولقد لاحظت أنه يعتقد أنها كانت تشعر بالمرارة تجاهه لأنه جلب عليها هذه المحنة .

قال همساً : "أتذكر جيداً ذلك اليوم في الربيع حين ذهبنا إلى الغابات شمال الكنيسة . أتذكر جيداً أنك رجوتني أن أدعك بحالك..."

سُرّت كريستين لأنه قال هذا . ففي أوقات أخرى تعجبت دائماً من الأشياء الكثيرة التي يبدو أن إرلند قد نسيها . ولكنه قال الآن :

"لم أصدق أنك يا كريستين تستطيعين أن تحملي كل هذا الحقد الدفين ضدي ، ومع ذلك يبدو عليك اللطف والمرح شأنك دائماً . لأنك لابد قد عرفت منذ فترة طويلة حالتك . كنت أظنك صافية القلب وصريحة كالشمس في كبد السماء..."

قالت بحزن : "آه يا إرلند ، عليك أن تعرف أكثر من أي شخص آخر في العالم أني مارست أساليب سرية وأني كذبت على أولئك الذين وضعوا ثقتهم بي ." ولكنها كانت راغبة في أن يفهم . "لا أعرف إن كنت لا تزال تتذكر يا أعز الناس ، أنه قبل ذلك بزمن طويل ، لم تكن أفعالك تجاهي من النوع الذي يمكن لأي شخص أن يدعوها بالعادلة . ومع ذلك فإن الرب ومريم العذراء يعرفان أني لم أحمل لك الضغينة ، كما أن حبي لك لم يتراجع..."

رقّ وجه إرلند .

قال بصوت خفيض : "هذا ما حسبته . ولكني أعتقد أنك تعرفين هذا أيضاً... ناضلت خلال تلك السنوات لأصحح ما كسرته . إني أجد السلوان في فكرة أن هذه الأمور ستنقضي في النهاية حتى أستطيع أن أكافئك لقاء معاناتك الطويلة وكونك صادقة إلى هذا الحد ."

ثم سألته :

"لقد سمعت عن أخي جدي والليدي بنغتا اللذين هربا معاً من السويد ضد إرادة أهلهما . وقد عاقبهما الرب بالعقم . أو لم تخش في هذه السنوات الأخيرة أن يعاقبنا الرب بالطريقة نفسها... ؟"

ثم قالت له برقة وهي ترتجف :

"عليك أن تصدق يا إرلند أنها كانت مزحة صغيرة لي في الصيف

الماضي حين عرفت لأول مرة بأني حامل . ومع ذلك فقد فكرت... فكرت في أنك لو مُتَّ وتركتني قبل أن نتزوج ، فسأكون أسعد أن تتركني مع طفل من صلبك على أن أُترك وحيدة . كما فكرت في أني لو كنت سأموت وأنا ألِدُ طفلك ، فسيكون ذلك أفضل من ألاّ يكون لك ابن شرعي تضعه مكانك على الكرسي العالي في منزلك حين يكون عليك أن تغادر هذه الدار الدنيا ."

أجاب إرلند بحماسة :

"بالنسبة إليّ ، سأعتبر أن ابني سيكون مكلفاً جداً لو كان سيكلفك حياتك . لا تتحدثي على هذا النحو يا كريستين... ليست هوسابي عزيزة جداً عليّ . على الأقل منذ أن عرفت على وجه الثقة أن (ابني) أورم لن يستطيع أن يرثني أبداً..."

سألته كريستين عندئذٍ :

"أيهمك أمر ابنها أكثر مما يهمك أمر ابني ؟"

"ابنك ؟" ضحك إرلند قليلاً . "كل ما أعرفه عنه هو هذا ، أنه سيأتي إلى هذه الحياة قبل موعده بنصف سنة أو نحو ذلك . أما أورم فقد أحببته منذ اثنتي عشرة سنة..."

بعد برهة سألته كريستين :

"طفلاك هذان... ألا تفتقدهما أحياناً ؟"

أجاب الرجل : "أجل . في السابق غالباً ما كنت أمضي إلى الداخل إلى أوستردال حيث هما لأراهما ."

"تستطيع الذهاب إلى هناك في الشهر السابق على عيد الميلاد هذا" ، هذا ما قالته كريستين بصوت خفيض .

سألها إرلند بتوق : "ألن تكرهي ذهابي ؟"

أجابت كريستين بأنها تعتقد أن هذا هو العمل الصحيح . ثم سألها إن كانت ستمتعض لو أحضر معه طفليه إلى البيت لأجل فترة عيد الميلاد . "سيكون عليك أن تريهما إن عاجلاً أو آجلاً ." ومن جديد أجابت أن هذا يبدو لها على أنه الأمر الصحيح .

خلال غياب إرلند في أوستردال ، عملت كريستين بجد لتحضير الأمور لعيد الميلاد . لقد ضايقها كثيراً أن تتجول في هذا المكان بين هؤلاء الأتباع والخادمات : لقد بذلت جهداً كبيراً لإرغام نفسها على أن تلبس وتخلع ملابسها في وجود خادمتين ، واللتين قال إرلند إنهما ستنامان إلى القرب منها في المنزل الرئيسي . كان عليها أن تذكّر نفسها أنها ما كانت لتستطيع تحمل النوم لوحدها في ذلك المنزل الكبير : حيث كانت امرأة أخرى قد نامت مع إرلند قبلها .

لم تكن خادمات الضيعة أفضل ممّا كان المرء يتوقعه . كان الفلاحون الذين يهتمون جيداً ببناتهم غير راغبين بإرسالهن للخدمة في منزل يعيش فيه السيد في علاقة زنا صريحة مع امرأة متزوجة ، ويجعلها تتحكم بالمنزل . كانت الخادمات كسولات وغير متعوّدات على إطاعة سيدة . ولكن بعضهن بدأن يحببن النظام الجديد الذي أدخلته كريستين ، خاصة وأنها كانت تشارك بنفسها في مهماتهن . لقد أصبحن ثرثارات ومرحات ، بما أن السيدة كانت تصغي إليهن وترد عليهن بلطف وبشاشة . كما أظهرت كريستين لأهل المنزل كل يوم وجهاً هادئاً ولطيفاً . لم تكن توبخ أحداً بقسوة ، ولكن لو أن أي خادمة خالفت أمراً من أوامرها ، كانت السيدة تظن أن الفتاة لا تعرف ما تفعله ، وتريها بهدوء كيف يكون عليها أداء العمل .

هكذا رأت كريستين أباها يعامل الخدم الجدد الذين كانوا يتذمرون ؛ ولم يحدث أن رفض أي رجل في يوروندغارد عملاً أمره به لافرانس مرة ثانية .

و هكذا فقد يمرّ الشتاء هذا العام دون مشاكل . لاحقاً سيكون عليها التخلّص من النساء اللواتي لم تستطع أن تحببهن ، أو اللواتي لم تستطع أن تهذّبهن .

كان هناك عمل واحد لم تستطع أن تسيطر عليه ، إلا حين تتحرر من مراقبة هؤلاء الغريبات . ولكن في الصباحات حين تجلس وحيدة في المنزل الرئيسي ، فإنها كانت تخيط الملابس لطفلها : قماطات من الصوف الناعم ، ورزم من المواد المشتراة ، الحمراء والخضراء ، والكتان الأبيض لثوب حفلة العماد . وبينما جلست تخيط راح ذهنها يتخبط بين الخوف والثقة بأصدقاء البشرية المقدسين الذين صلّت لهم حتى يتدخلوا في صالحها . صحيح أن الطفل كان حياً ويتحرك في جوفها الآن حتى أنها لم تعد تعرف الراحة ليلاً ونهاراً . ولكنها سمعت عن الأطفال الذين يولدون ولهم بطن حيث من المفروض وجود وجه أو برؤوس ملتفتة إلى الخلف أو أصابع قدم حيث يجب أن تكون كواحلهم . واستطاعت أن ترى أمام عينيها "سفاين" الذي له لطخة زرقاء – حمراء فوق نصف وجهه ، لأن أمه أصيبت بصدمة خوف من حريق...

ثم كانت ترمي بأدوات الخياطة وتذهب وتركع أمام صورة مريم العذراء ، وتتلو صلاة "السلام عليك يا مريم" سبع مرات . كان الأخ إدفين قد قال إن أم الرب كانت تمتلئ بمتعة فائقة جداً في كل مرة تسمع فيها تحية "الملاك" ، حتى لو كان ذلك من فم أكثر الخطاة شراً . وكانت كلمتا "ممتلئة نعمة " هما أكثر الكلمات التي تسعد قلب مريم العذراء ، لذلك كان على كريستين أن تكررهما ثلاث مرات .

كان هذا يساعدها لفترة من الزمن .

•

في إحدى الأمسيات بينما كانت جالسة إلى المائدة مع جماعة من المنزل ، قالت إحدى النساء ، وهي شابة تساعد في الأعمال داخل المنزل :

"أعتقد يا سيدتي أنه كان من الأفضل لو بدأنا بخياطة القماطات وملابس الطفل الآن ، قبل أن ننصب هذه الشبكة التي تتحدثين عنها..."

تظاهرت كريستين بأنها لم تسمع ، وتابعت الحديث عن صباغة الشبكة . ثم بدأت الفتاة تقول مجدداً :

"و لكن هل جلبت معك يا ترى ملابس الطفل من بيت أهلك ؟"

ابتسمت كريستين قليلاً والتفتت مجدداً نحو الأخريات . وحين نظرت فيما حولها لاحقاً ، كانت الفتاة جالسة ، وقد احمرّ وجهها ، وراحت تحدق بخوف إلى سيدتها . ابتسمت كريستين مجدداً وبدأت تحادث أولف عبر المائدة . وفجأة ، انفجرت الفتاة باكية . ضحكت كريستين قليلاً ، فبكت الفتاة أكثر فأكثر ، حتى سال أنفها وأعولت .

قالت كريستين أخيراً وبهدوء : "كلا يا فريدا ، لا نريد الكلام عن هذا بعد الآن . لقد جئت إلى هنا كخادمة ناضجة . حاولي ألاّ تتصرفي كطفلة ."

بكت الفتاة -لم تكن تعني أن تكون وقحة- لا يجب على كريستين أن تغضب منها .

قالت كريستين وهي لا تزال تبتسم : "لا . تناولي عشاءك الآن وتوقفي عن البكاء . لا تتحلّى أي منا بذكاء يزيد عمّا منحه الله لها ."

قفزت فريدا من مكانها وخرجت وهي تعدو باكية بمرارة .

لاحقاً ، حين وقف أولف هالدورسون يتحدث مع كريستين عن العمل الذي سيتم في اليوم التالي ، قال ضاحكاً :

"كان على إرلند أن يتزوجك قبل عشر سنوات يا كريستين . لكانت أموره الآن أصلح بكثير من كل النواحي ."

قالت وهي لا تزال تبتسم : "أتعتقد ذلك ؟ في تلك الأيام كان عمري لا يتجاوز تسع شتاءات . أتظن أن إرلند كان ذلك الرجل الذي ينتظر سنوات طويلة عروساً طفلة ؟"

ضحك أولف وخرج .

و لكن في تلك الليلة بقيت كريستين مستيقظة ، وهي تبكي بدموع الوحدة والعار .

ثم عاد إرلند إلى البيت ، في الأسبوع السابق على عيد الميلاد ومعه ابنه "أورم" راكباً إلى جانب أبيه . شعرت كريستين بطعنة مؤلمة تخترق قلبها حين قاد الصبي نحوها وطلب منه أن يحيّي زوجة أبيه .

كان طفلاً جميلاً جداً . فكرت أن ابنها الذي تحمله سيبدو هكذا على الأرجح . حين كانت تتجرأ أحياناً على الشعور بالسعادة ، تتجرأ على أن تثق بأن طفلها سيولد صحيحاً ووسيماً ، وأن تحلم مسبقاً بأن الطفل سينمو إلى جوارها ، فقد كان هذا الطفل يبدو هكذا في حلمها : شبيهاً جداً بأبيه .

كان ربما ضئيل الحجم بالنسبة إلى سنه ، ورقيق الحاشية ، إنما كان ذا شكل حسن وله أطراف حسنة ووجه جميل . كان داكن البشرة والشعر ، إنما له عينان زرقاوان كبيرتان وفم أحمر ناعم . حيّا زوجة أبيه على نحو

مؤدب ، ولكن وجهه كان قاسياً وبارداً . لم تتح لكريستين الفرصة لتحادث الصبي كثيراً . ولكنها أحست بعينيه عليها ، أينما تحركت ، وأحست كأنها كانت تصبح أثقل وأكثر اضطراباً في الجسد والمشية حين كانت تشعر أنه كان يحدق إليها .

لم تلاحظ أن إرلند كان يحادث ابنه كثيراً ، ولكنها استطاعت أن ترى أنه من بين الاثنين كان الصبي هو الذي يتراجع . تحدثت كريستين إلى زوجها عن أورم ، وقالت إنه فتى وسيم وذو ذكاء جيد . لم يكن إرلند قد جلب ابنته معه . كان يعتبر مارغريت أصغر من أن تقوم برحلة طويلة خلال الشتاء . كانت أوسم من أبيها ، كما قال لها باعتزاز حين سألته كريستين عن الفتاة الصغيرة ، وأذكى منه . كانت تستطيع أن تلعب بمربيها بإصبعها الصغيرة . كانت لها خصلات ذهبية مجعدة وعينان بنيتان .

إذن لابد أنها تشبه أمها ، هكذا فكرت كريستين . ورغماً عنها ، راحت الغيرة تنهش قلبها . هل يحب إرلند ابنته كما كان أبوها هي يحبها ؟ كان صوته رقيقاً ودافئاً جداً حين يتحدث عن مارغريت .

•

نهضت كريستين وذهبت إلى البوابة الخارجية . كان الظلام شديداً في الخارج والمطر يهطل بغزارة لذلك لم يكن ممكناً مشاهدة القمر أو النجوم . فكرت على أي حال أن الوقت هو منتصف الليل الآن . أحضرت القنديل من الغرفة الخارجية وأشعلته . ثم لفت نفسها بعباءتها وخرجت في المطر .

همست وهي تصالب على نفسها ثلاث مرات : "باسم المسيح" ، وذلك هي تخطو في الليل إلى الخارج .

في أعلى الساحة كان منزل الكاهن . ورغم أن إرلند كان قد رُفع عنه التحريم الكنسي منذ مدة طويلة ، إلا أنه لم يحضر أي كاهن للسكن في هوسابي . بين الحين والآخر ، كان أحد القساوسة من أوركيدال يأتي ليتلو القداس . ولكن الكاهن الجديد الذي عُيّن للكنيسة كان في بلاد أجنبية مع السيد غونولف . ويبدو أنهما كانا زميلي دراسة . كان متوقعاً وصولهما في الصيف الماضي ، ولكن إرلند قال إنه لن يتوقع وصولهما قبل أواخر الربيع القادم . لقد أصيب غونولف بمرض رئوي في صغره ؛ وكان لا يستطيع إلا بالكاد السفر في الشتاء .

خرجت كريستين إلى البناء البارد الفارغ ووجدت مفتاح الكنيسة . ثم توقفت لبرهة . كانت الأرض زلقة والعتمة شديدة وكانت هناك الريح والمطر . كان أمراً محفوفاً بالخطر خروجها ليلاً في مثل حالتها ، خاصة في ليلة عيد الميلاد ، حين تكون كل الأرواح الشريرة في الجو . ولكنها لم تستطع التخلي عن نيّتها ؛ عليها أن تدخل الكنيسة .

همست في العاصفة : "باسم الرب القادر على كل شيء أدخل إلى هذا المكان" . وإذ أنارت لنفسها الطريق بالقنديل ، فقد خطت بحرص حيث برز العشب والأحجار فوق قشرة الجليد . في العتمة بدا الطريق إلى الكنيسة طويلاً ، ولكنها وقفت أخيراً على حجر العتبة .

في الداخل ، كان البرد قارساً ، أبرد بكثير من الخارج تحت المطر . مضت كريستين نحو الأمام إلى الهيكل وركعت أمام الصليب الذي كان يومض على نحو باهت من فوقها .

بعد أن تلت صلواتها ونهضت ، وقفت ساكنة لبعض الوقت . كأنما كانت تنتظر أن يحدث شيء لها . ولكن لم يحدث أي شيء . كانت بردانة

وخانفة في الكنيسة المعتمة المهجورة . مشت إلى المذبح ببطء وقربت قنديلها من الصور . كانت صوراً قديمة وقاسية وقبيحة . كانت طاولة المذبح من الحجر العاري : كانت تعرف أن أغطية المذبح القماشية والكتب والأوعية مودعة في خزانة .

في صحن الكنيسة كان مقعد يمتد على طول الجدار . مشت كريستين إليه وجلست وقد وضعت قنديلها فوق الأرض . كانت عباءتها مبللة أما قدماها فكانتا رطبتين وباردتين . حاولت أن تضع إحدى قدميها تحتها ، ولكن آلمها الجلوس فوقها . لذلك لفّت عباءتها جيداً من حولها ، وحاولت تجميع وتركيز أفكارها على شيء واحد ، أن ساعة منتصف الليل المقدسة قد حلّت مجدداً ، حين ولد المسيح نفسه من مريم العذراء في بيت لحم .

(والكلمة ، صار جسدا وحل بيننا)

(إنجيل يوحنا)

تذكرت صوت سيرا آيريك العميق والواضح . وكذلك أودون الشماس العجوز الذي لم يكن أي شيء آخر إلاّ شماساً . وتذكرت كنيستهم في بيت أهلها حيث كانت تقف إلى جانب أمها وتصغي إلى قداس عيد الميلاد . في كل سنة كانت تصغي إليه . حاولت أن تتذكر مزيداً من الكلمات المقدسة ، ولكنها لم تستطع أن تفكر بأي شيء آخر عدا الكنيسة وكل الوجوه المألوفة . إلى أبعد نقطة في المقدمة ، حيث قسم الرجال ، كان أبوها يقف ويحدق بعينين شاردتين إلى وهج النور من المكان المخصص لجوقة المرتلين .

كان أمراً لا يصدق أن كنيستهم قد اندثرت . فلقد احترقت بكاملها .

انفجرت باكية عندما تذكرت هذا . وهاهي تجلس هنا لوحدها في هذه الليلة ، حين كان كل المسيحيين مجتمعين معاً في فرح وسعادة في بيوت الرب . ولكن بدا لها أن الأمر كان كما يجب أن يكون : أنها كانت محظورة هذه الليلة من الاحتفال بمولد ابن الرب من عذراء طاهرة نقية... لا شك أن أباها وأمها كانا في سوندبو في عيد الميلاد هذا . لن يكون هناك قداس هذه الليلة في المعبد هناك . كانت تعرف أنه في ليلة عيد الميلاد كان سكان سوندبو يتجهون إلى الكنيسة في لادالم للاستماع إلى القداس هناك .

كانت تلك أول مرة ، بقدر ما تستطيع ذاكرتها أن تعود إلى الوراء ، لا تحضر فيها قداس عيد الميلاد . لا شك أنها كانت صغيرة جداً عندما اصطحبها أبوها وأمها معهما . فقد كانت قادرة على تذكر أنهما حشراها في كيس من جلد الخروف في داخله صوف ، وكيف حملها والدها بين ذراعيه . كانت تلك ليلة باردة إلى حد مخيف ، وقد عبرا غابة : كان نور مشاعل جذور التنوب يومض فوق أشجار الصنوبر المثقلة بالثلج . كان وجه أبيها أحمر أرجوانياً في الوهج ، بينما كانت الحافة الفراء لقلنسوته بيضاء كالثلج من الجليد . بين الحين والآخر كان يحني رأسه قليلاً ويعض أرنبة أنفها ، ويسألها إن كانت قد شعرت بالعضّة . ثم كان ينادي على أمها ملتفتاً إليها ضاحكاً قائلاً إن أنف كريستين لم يكن قد تجمد تماماً بعد . حدث ذلك حين كانوا لا يزالون يسكنون في سكوغ لابدّ : كان عمرها ثلاثة شتاءات فقط . في تلك الأيام كان أبوها وأمها لا يزالان شابين بعد . تذكرت الآن صوت أمها في تلك الليلة : عالياً وسعيداً ومليئاً بالضحك وهي تنادي على زوجها وتسأل عن الطفلة . أجل ، كان صوت أمها شاباً ونضراً عند ذاك...

... بيت لحم... تعني هذه الكلمة باللغة النرويجية مكان الخبز الثقيل . فقد منح إلى الرجال الخبز الذي يغذي الحياة الأبدية...

في يوم القداس النهاري دخل سيرا آيريك إلى المقرأ وترجم الإنجيل إلى لغة هذا الشعب .

بين القداسات كان الناس يجلسون في أكواخ الضيوف شمال الكنيسة . كانوا يحتسون الشراب والأكواب كانت مستديرة . بين الحين والآخر كان الرجال يخرجون إلى مرابط الجياد ليطمئنوا عليها . ولكن في ليالي العيد في أوقات الصيف كان كل من سكان الأبرشية يسهرون خارجاً على مرج الكنيسة ، وكان الشبان يرقصون بين الصلوات .

و لفّت العذراء المباركة مريم ابنها بالقماط . ثم وضعته في المعلف الذي اعتادت الثيران والحمير على الأكل منه...

ضغطت كريستين يديها بقوة على جبينها .

ابني الصغير ، يا أحلى ابن ، يا ابني أنا ، سيرحمنا الرب لأجل أمه المباركة . يا مريم المباركة ، أنت يا ألمع نجمة في البحر ، أنت يا فجر الحياة الأبدية ، التي ولدت شمس العالم كله... ساعدينا! يا طفلي الصغير ما الذي يقلقك هذه الليلة حتى تكون مضطرباً كل هذا الاضطراب... ألا تستطيع أن تشعر ، حتى تحت قلبي ، أني مقرورة إلى ذلك الحد المرير... ؟

في قداس كيلدار في عيد الميلاد الماضي ، كان سيرا آيريك قد قرأ من الإنجيل ما يتعلق بالأطفال الأبرياء الذين ذبحهم الجنود القساة بين أذرع أمهاتهم . ولكنّه قال إن الرب قد اختار هؤلاء الأطفال الصغار ليدخلوا قاعة الجنة قبل كل الشهود من الأقارب . وكانت تلك علامة على أن ملكوت السماء هو من أطفال كهؤلاء . ثم أخذ الرب طفلاً ووضعه في وسطهم . وإن لم تجعلوا أنفسكم مشابهين لهؤلاء ، أيها الأخوة والأخوات ، لن تستطيعوا دخول قاعات ملكوت السماء . وليكن في هذا سلواناً للجميع ، رجالاً

ونساء ، ممّن ثكلوا بأطفالهم الصغار... عند ذلك رأت كريستين عيني أبيها تقابل عيني أمها عبر الكنيسة . ثم نظرت هي بعيداً بسرعة ، لأنها عرفت أنه لم يكن لها دور في ذلك .

حدث ذلك في العام الماضي . أول عيد ميلاد بعد وفاة أولفهيلد . أوه ، ولكن ليس طفلي أنا! أيها المسيح ، يا مريم! دعوني أحتفظ بابني!

كان أبوها كارهاً الذهاب إلى موكب ركوب القديس ستيفن في العام الماضي... ولكن جميع الرجال : الرجال كلهم رجوه وتوسلوا إليه حتى انضم إليهم أخيراً . انطلق الموكب من مرج الكنيسة قرب المنزل وانطلق عدواً إلى ملتقى النهرين في لوبتسغارد . وهناك التقوا بالرجال القادمين من أوتادال . تذكرت أباها وهو يندفع عبر الحشد على حصانه الكميت الذهبي : وقف في ركابه وانحنى إلى الأمام مع عنق حصانه ، وهو يصيح ويهتف على الحصان ، والموكب كله يهدر من خلفه .

و لكن في العام الماضي عاد أبوها باكراً إلى البيت ، وقد وصل وهو صاح تماماً . في السنوات الأخرى اعتاد الرجال أن يصلوا في وقت متأخر في مثل ذلك اليوم ، وقد ثملوا إلى أقصى حد . فقد كان عليهم زيارة المزارع على الطريق وشرب الأنخاب التي تُحضر إليهم كنخب المسيح والقديس ستيفن ، الذي كان أول من رأى النجمة في الشرق وهو يقود أمهار الملك حيرود إلى نهر الأردن ليسقيها . حتى الجياد كانت تُسقى الجعة في ذلك اليوم حتى تثور وتجمح . في عيد القديس ستيفن كان المزارعون منهمكين دائماً بمباريات الأحصنة حتى المساء... وكان صعباً جعل الرجال يفكرون بأي شيء أو يتحدثون بأي شيء عدا الجياد...

تذكرت إحدى أعياد الميلاد حين أقيم حفل الشراب الكبير في

يوروندغارد ، كما أن أباها وعد الكاهن الذي كان بين ضيوفه أنه سيهديه مهراً صغيراً كميتاً ، هو ابن غولدسفاينن ، إن استطاع الإمساك به وإرجاعه القهقرى ، وهو يعدو حراً ودون سرج في الساحة .

لقد مرّ وقت طويل على ذلك - قبل حادث أولفهيلد . كانت أمهما تقف عند باب المنزل وأختها الصغيرة على ذراعها ، بينما وقفت كريستين وهي تتشبث بتنورتها... خائفة قليلاً .

عدا الكاهن وراء الحصان ، أمسك بالرسن وقفز عن الأرض حتى أن رداءه الطويل طار من كل الجوانب . ولكنه اضطر إلى تحرير الحصان الناري الذي شب على قائمتيه الخلفيتين مجدداً . غنّى الكاهن وهو يقفز ويرقص مثل ذكر الماعز : "هيا يا مهري... يا مهري... هيا يا مهري ، هيّا ، يا بنيّ!" وقف أبوها ومزارع عجوز هناك عاجزين ، والواحد منهما ممسكاً بالآخر ، وقد حرفت ملامحهما من الضحك والشراب القوي .

إمّا أن الكاهن ربح الرهان وكسب المهر ، أو أن لافرانس قد أعطاه إياه دون أن يستحقه ، لأن كريستين تتذكر أنه كان يركبه وهو يغادر الضيعة . ثم كانوا جميعاً في حالة كافية من الصحو . وحين ركب الكاهن المهر ، أمسك لافرانس بالركاب له بإجلال كبير ، فباركهم بثلاث أصابع وهو يودعهم . كان يبدو ككاهن له بعض الوقار...

أجل كان بيت أهلها شديد المرح غالباً في فترة عيد الميلاد . كان هناك وصول المهرجين أيضاً . رماها أبوها على ظهره ، وشعرت بمعطفه مثلجاً وشعره رطباً . وحتى يصحو الرجال قبل الذهاب إلى صلاة المساء ، مضى الرجال إلى البئر وصبوا ماء مثلجاً الواحد فوق الآخر . كانوا يضحكون حين كانت الناس تؤنبهم على ذلك . كان أبوها يأخذ بيديها الصغيرتين

الباردتين ويضغطهما على جبينه الذي كان أحمر وساخناً ما يزال . وكان هذا في الساحة خارجاً ، في المساء : وكان هناك قمر فضي أبيض صغير معلق فوق سلسلة الجبال في السماء الخضراء كالحبر . وحين كان يحملها إلى القاعة ، صدمت رأسها خطأ بأعلى الباب ، بحيث برز لها في جبينها ورم كبير . لاحقاً جلست على حجره عند اللوح الخشبي . وضع هو مقبض خنجره على الورم وأطعمها الأطعمة الشهية وسمح لها بشرب الميد من كأسه . وبينما كانت تجلس هناك لم تكن تشعر بالخوف من المهرجين المقنّعين الصاخبين الذين كانوا يثبون في أرجاء القاعة .

... يا أبي ، يا أبي... يا أبي اللطيف العزيز!

أخفت كريستين وجهها بيديها وهي تبكي بصوت مرتفع . أوه ، لو أن أباها يعرف كيف هي حالها في أمسية عيد الميلاد هذه!

●

حين عادت إلى المنزل الرئيسي ، رأت شراراً يتطاير فوق سطح المطبخ . كانت الخادمات يحضرن الطعام لأولئك الذين مضوا إلى الكنيسة .

كانت القاعة معتمة . فالشموع على المائدة قد انطفأت والموقد أسود تقريباً . وضعت كريستين المزيد من الحطب ونفخت على الجمر . ثم لاحظت أن أورم كان يجلس في كرسيها . لكنه نهض ما إن رأته .

قالت كريستين : "أورم . ألم تذهب إلى القداس مع أبيك والآخرين ؟"

بلع أورم ريقه مرة أو مرتين :

"لا شكّ أنه نسي أن يوقظني على ما أعتقد . لقد أمرني أن أنام قليلاً في السرير الجنوبي . قال إنه سيوقظني ."

قالت كريستين : "يا للأسف يا أورم" .

لم يجب الصبي . خلال فترة وجيزة قال :

"ظننت أنك قد ذهبت معهم على أي حال... لقد استيقظت ووجدت نفسي وحيداً في القاعة ."

قالت كريستين : "ذهبت إلى الكنيسة لبعض الوقت ."

سألها الغلام : "و هل تجرأت على الذهاب إلى هناك في ليلة عيد الميلاد ؟ ألا تعرفين أن موكب أسغاردس كان يمكن أن يمرّ ويأخذك بعيداً... ؟"

أجابت : "أعرف أن ليس الأرواح الشريرة فحسب هي التي تكون خارجة في هذه الليلة . ففي ليلة عيد الميلاد كما يقولون تخرج كل الأرواح... -عرفت راهباً ذات مرة وهو ميت الآن... وأنا واثقة تماماً من أنه واقف أمام وجه الرب ، إذ لم يكن فيه شيء آخر عدا الخير . وقد حكى لي مرة... هل سمعت عن الحيوانات في حظائرها وكيف تتحادث مع بعضها في ليلة عيد الميلاد ؟ كانت قادرة على النطق باللاتينية في تلك الأيام . لذلك صاح الديك : "و كريستوس ناتوس إست" (المسيح قد ولد) ، كلاّ ، لا أتذكر القصة كلها . ولكن الحيوانات الأخرى سألت : "أين ؟" فأجابت العنزة وهي تثغو : "بيت لحم... بيت لحم..." وقالت الغنمة : "إياموس ، إياموس..."

ابتسم أورم بازدراء .

"أتظنينني طفلاً إلى هذا الحد حتى أنك تريدين أن تواسيني بحكايات المربيات... ؟ لم لا تعرضين عليّ أن تجلسيني في حجرك وترضعيني... ؟"

قالت كريستين بهدوء : "أعتقد أني حكيتها لأواسي نفسي على الأغلب يا أورم . فأنا أيضاً وددت الذهاب معهم إلى القداس ."

شعرت الآن أنها ما عادت قادرة على احتمال النظر إلى المائدة القذرة المغطاة بالبقايا . ذهبت إليها وجمعت البقايا كلها في طبق ثم وضعته على الأرض لأجل الكلاب . ثم أخرجت الممسحة المصنوعة من أعشاب البردي من تحت المقعد ومسحت الطاولة ثم جففتها .

سألت كريستين : "هل تود القدوم معي إلى المخزن الغربي يا أورم ، لإحضار الخبز واللحم المملح ؟ ثم سنجهز المائدة لصباح عيد الميلاد ."

سأل الغلام : "لم لا تأمرين خادماتك بذلك ؟"

قالت الزوجة الشابة : "لقد تعلمت في بيت أبي وأمي أنه في عيد الميلاد لا يجب أن يطلب أحد شيئاً من شخص آخر ، ولكن على كل شخص أن يبذل جهده ليفعل الأفضل . والشخص الذي ينال البركة أكثر من الكل هو الذي يخدم الجميع خلال الأيام المقدسة كلها ."

سأل أورم : "و مع ذلك أنت تطلبين مني طلباً الآن ."

"الطلب منك أمر آخر... فأنت ابن البيت ."

أخذ أورم القنديل وذهبا معاً عبر الساحة . في المخزن ملأت كريستين طبقين كبيرين بطعام عيد الميلاد وجلبت شمعتين كبيرتين . وبينما كانا يقومان بهذا العمل ، قال الصبي :

"أعتقد أن ما تحدثت به للتو هو أسلوب يخص المزارعين . فقد سمعت أن لافرانس بيورغولفسون مجرد مزارع يرتدي الصوف الخشن غير المصبوغ ؟"

سألت كريستين : "ممّن سمعت هذا ؟"

قال أورم : "من أمي . لقد سمعتها مرات كثيرة تقول لأبي حين كنا

نعيش في هوسابي من قبل ، إنه سيرى الآن أنه حتى مزارع يرتدي اللون الرمادي لن يزوجه من ابنته ."

قالت كريستين بعد وقت قصير : "لقد كانت هوسابي بيتاً يبعث السرور في تلك الأيام ."

لم يجب الصبي ولكن فمه ارتجف قليلاً .

حملت وأورم الأطباق المليئة إلى القاعة ، ورتّبت هي المائدة للوجبة . ولكن كانت هناك أمور ناقصة لا تزال ، ويجب إحضارها من المخزن . أخذ أورم طبقاً وقال ببعض الخجل :

"سأذهب لأجلك يا كريستين . الأرض زلقة في الساحة ."

وقفت خارج الباب وانتظرته حتى عاد .

لاحقاً ، جلسا عند الموقد... هي في الكنبة والصبي على كرسي واطئ إلى القرب منها . بعد فترة قال أورم إرلندسون بصوت خفيض :

"إحك لي المزيد بينما نحن جالسان هنا يا زوجة أبي ."

سألت كريستين باللهجة نفسها : "أحكي لك... ؟"

قال الصبي بخجل : "أجل... حكاية أو ما شابهها... شيء يلائم ليلة عيد الميلاد ."

استندت كريستين في كرسيها وهي تمسك بين يديها رؤوس الحيوانات المحفورة عند نهاية ذراع الكنبة .

"ذاك الراهب الذي ذكرته قبل قليل ، كان في انكلترا أيضاً . وقد اعتاد أن يقول إن هناك مكاناً فيها تنمو فيه نباتات شوكية تزهر زهوراً بيضاء في كل ليلة عيد ميلاد . لقد هبط القديس جوزيف أوف أريماثيا إلى أرض في

الريف وهو هارب من وجه الوثنيين ، وهناك أقحم عصاه في الأرض ، إلا أنه نمت لها جذور وأزهرت . كان أول من جلب الدين المسيحي إلى بريتلاند . يسمى ذلك المكان غلاستونبورغ... تذكرت الآن . لقد رأى الأخ إدفين تلك الشجيرات بنفسه... لقد دفن هناك في غلاستنبورغ ، مع ملكته ، أعني الملك آرثر الذي سمعت عنه... هو ذاك الذي يُعد بين الأبطال السبعة للمسيحية .

"يقولون في إنكلترا إن صليب المسيح مصنوع من خشب جار الماء . ولكننا اعتدنا في بيت أهلي أن نحرق الدردار في الأيام المقدسة . فقد صنع القديس جوزيف النار من خشب الدردار ، حين أراد أن يشعل ناراً لأجل مريم وابن الرب حديث الولادة . وقد سمع أبي أيضاً عن الأخ إدفين..."

قال الصبي : "و لكن القليل من الدردار ينمو هنا إلى الشمال من دوفر . لقد استهلكوه في الأيام الغابرة لصنع الرماح ، كما تعلمين . لا أعرف بوجود شجرة دردار واحدة في كل أراضي هوسابي عدا تلك التي تقف عند البوابة الشرقية للساحة وأن أبي لا يستطيع قطعها ، حيث أن "براوني" يسكن تحتها... ولكن يا كريستين أتمنى لو أنهم يضعون "الصليب المقدس" نفسه في رامبورغ . لا شك أنهم يستطيعون أن يكتشفوا أنه مصنوع فعلاً من شجر جار الماء..."

قالت كريستين : "أجل . لا أعرف إن كان ذلك صحيحاً . فأنت تعرف أنه يقال إن الصليب كان مصنوعاً من فرع من "شجرة الحياة" ، تلك التي مُنح "شيث" نعمة إحضارها من جنة عدن وحملها إلى آدم قبل أن يموت ."

قال أورم : "أجل ، ولكن احكها لي ."

بعد برهة قالت كريستين للصبي :

"سيكون أمراً حسناً أن تنام قليلاً الآن يا قريبي . لن يعودوا من الكنيسة قبل وقت طويل ."

نهض أورم واقفاً .

"نحن لم نتعاهد بعد على أن نكون قريبين يا كريستين لافرانسداتر ، وذلك بأن نشرب نخب أحدنا الآخر ."

مضى وجلب قرن شراب من المائدة وشرب نخب زوجة أبيه ثم ناولها القرن .

أحست كأن جدولاً مثلجاً جرى هابطاً ظهرها . لم تستطع سوى أن تتذكر تلك الساعة حين أرادت أم أورم منها أن تشاركها الشراب . وتحرك الطفل الذي في رحمها بقلق . كيف هو الليلة ؟ هكذا فكرت الأم . لكأن الطفل الذي لم يولد بعد كان يحس بكل ما تحس به هي ، وأنه كان يحس بالبرد حين تكون هي بردانة ، وكان ينكمش خوفاً حين تكون خائفة ، ولكن بما أن الأمر هكذا ، فعليّ ألاّ أكون ضعيفة إلى هذا الحد ، كما فكرت كريستين . أخذت القرن وشربت نخب ابن زوجها .

حين أعادته إلى أورم ربتت بيدها بخفة على شعره الأسود الطويل . لا ، هكذا فكرت كريستين ، لن أكون زوجة أب قاسية معك ، كن على ثقة... أنت يا ابن إرلند الوسيم الوسيم الصغير...

كانت قد أغفت في كرسيها حين وصل إرلند ورمى بقفازيه المتجمدين على المائدة .

سألت كريستين مستغربة : "هل سبق لك وعدتَ ؟ ظننت أنك ستبقى حتى قداس الصباح ."

قال إرلند : "أوه ، إن من شأن قداسين أن يكفياني مدة طويلة . "كانت العباءة التي تناولتها منه كريستين ثقيلة من الجليد . "أجل ، لقد صفا الجو مجدداً ، وهو يتجمد بقوة..."

قالت زوجته : "من المؤسف أنك نسيت أن توقظ أورم" .

سأل الأب : "هل كان منزعجاً من الأمر ؟ ولم تكن المسألة أني نسيت فحسب " ، قال بصوت خفيض . "ولكنه كان نائماً على نحو عميق جداً حتى أني فكرت... ويمكن أن تكوني على ثقة من أن الناس الطيبين فغروا أفواههم بما فيه الكفاية باتجاهي في الكنيسة ، لأني وصلت إلى هناك دونك... ولم يكن في ذهني فوق ذلك كله أن أصطحب الصبي أيضاً معي ."

لم تقل كريستين شيئاً ، ولكن الكلمات جرحتها . لم تعتقد أن إرلند قد تصرف على النحو الصحيح .



٣

لم يريا الكثير من الناس الغرباء في هوسابي في موسم عيد الميلاد ذاك . كان إرلند يرفض الخروج إلى أي مكان يُطلب منه الذهاب إليه ، بل يفضل البقاء في بيته في الضيعة دون مزاج يبعث السرور .

و حقيقة الأمر كانت أن هذه البليّة (حمل الزوجة قبل الزواج) كانت تغضبه أكثر من قدرة زوجته على المعرفة بهذا الغضب . فقد كان تبجّح كثيراً بخطيبته منذ أن ذهب قريباه إلى يوروندغارد ونالا موافقة أبيها . وكان آخر أمر يريده هو أن يعتقد أي شخص بأنه كان يعتبر أهلها أدنى منزلة من أهله... كلا... على الجميع أن يعلموا أنه قد اعتبر نفسه على أنه نال شرفاً ومجداً بأن يقبل لافرانس بيورغولفسون بتزويجه من ابنته . والآن سيقول الجميع إنه عامل الفتاة كما تُعامل ابنة فلاح ، بما أنه تجرأ على تحقير أبيها بمضاجعة ابنته قبل الزواج . خلال حفل زفافه ، ضغط إرلند كثيراً على والديّ عروسه لزيارته في هوسابي في الصيف التالي ليريا كيف هي الأمور هناك . ولم يكن راغباً فحسب في أن يريهم المستوى الجيد الذي ستعيش فيه ابنتهم ، ولكنه كان سعيداً أيضاً بفكرة التجوّل ليراه الناس في صحبة هؤلاء الأقرباء الجدد ذوي المظهر اللائق الجليل ، لأنه كان عارفاً بأن لافرانس وراغنفريد كانا

قادرين على أن يبزّا بحضورهما الجميع أينما كانا . كما أنه كان يظن ، منذ ذلك الحين وقت احترقت الكنيسة ، أن لافرانس أحبه بعض الشيء رغم كل ما حدث . ولكن لم يعد لديه الآن أي سبب يجعله يفكر بأن اللقاء التالي بينه وبين أهل زوجته سيجلب السرور إلى أي من الفريقين .

كان ممّا يثير ضيق كريستين أن يصبّ إرلند سوء مزاجه على أورم غالباً . لم يكن لدى الصبيّ رفاق لعب من سنّه ، لذلك غالباً ما كان مثيراً للمشاكل ولجوجاً . كما كانت له أخطاؤه أيضاً . ففي إحدى المرات أخذ قوس أبيه الفرنسي دون إذن وكسر شيئاً في قفله . غضب إرلند غضباً شديداً ، فلكم أورم على أذنه ، وأقسم أن الصبي لن يلمس قوساً مرة ثانية في هوسابي .

قالت كريستين دون أن تلتفت : "لم تكن تلك غلطة أورم ." كانت جالسة تخيط وظهرها إليهما كليهما . "كان النابض معطلاً حين أخذ القوس ، وقد حاول إصلاحه . لا يجب أن يعوزك الإنصاف حتى تنكر على صبي رائع كابنك استخدام واحد من كل تلك الأقواس التي لديك في المنزل . الأجدر بك أن تعطيه أحد الأقواس الموجودة في خزانة السلاح ."

قال إرلند بغضب : "الأجدر بك أن تمنحيه قوساً من لدنك إن كنت راغبة في ذلك ."

أجابت كريستين بالأسلوب السابق نفسه : "سيسرّني ذلك . سأكلم أولف في الموضوع حين يذهب إلى المدينة في المرة التالية" .

قال إرلند بصوت مترع بالغضب والازدراء :

"عليك أن تشكر زوجة أبيك يا أورم ."

فعل أورم ما أُمر به ثم خرج من الغرفة بأسرع ما تحمله به قدماه . وقف إرلند صامتاً لبرهة .

قال : "لقد فعلت ذلك لتثيري حنقي" .

أجابت : "أجل . أعرف أني جنية . لقد سبق لك وذكرت لي ذلك ."

قال إرلند باحتقار : "و لكن أتعتقدين أني لم أكن جاداً حين قلت تلك الكلمة يا حلوتي ؟"

لم تجب كريستين ولا التفتت عن عملها . وسرعان ما خرج هو ، وحين أصبح خارجاً راحت تبكي . كانت قد أصبحت تود أورم وتعتبر أن إرلند كان غالباً غير منصف مع ابنه . ولكن صمت زوجها ومظهره الكئيب كانا يعذبانها حتى أنها كانت تبكي نصف الليل . ثم كان رأسها يؤلمها طوال النهار التالي . كانت يداها قد هزلتا إلى حد أنها اضطرت إلى لبس بعض الخواتم الفضية الصغيرة التي كانت في حوزتها منذ الطفولة فوق خاتم الخطبة وخاتم الزواج حتى لا يسقطا من أصابعها خلال النوم .

•

في يوم الأحد السابق على بداية الصوم ، وفي وقت متأخر من العصر ، وصل سير بارد بيترسون وابنته الأرملة وكذلك سير مونان باردسون وزوجته إلى هوسابي كضيوف غير متوقعين . خرج إرلند وكريستين إلى الساحة للترحيب بالضيوف .

ما أن رأى السير مونان كريستين حتى أمسك بكتف إرلند :

"أرى جيداً يا قريبي أنك قد عرفت كيف تعتني بزوجتك حتى أنها قد

اكتسبت العافية في بيتك . ما عدت نحيلة وشاحبة كما كان حالك يوم زفافك يا كريستين... كما أن لونك أنضر بكثير ." هذا ما قاله ضاحكاً إذ أن كريستين احمر وجهها حتى أصبح بلون التوت .

لم يجب إرلند . كان وجه السير بارد مكفهراً . ولكن لم يبد على السيدتين أنهما سمعتا أو رأتا شيئاً . وقد حيتا مضيفيهما على نحو لائق وهادئ .

قدمت لهم كريستين الجعة والميد عند المدفأة ريثما ينتظرون الطعام . تحدث مونان باردسون دون توقف . كانت معه رسائل لإرلند من الدوقة... تسأل فيها عما حدث له ولعروسه . وهل كانت الفتاة التي تزوجها هي التي كان يريد أن يهرب بها إلى السويد ؟ كانت رحلة شيطانية حقاً تلك التي قام بها في منتصف الشتاء ، (أي مونان) ، عبر الوديان ثم بالسفينة إلى نيداروس . ولكنه سافر في مهمة للملك ، ولم يكن مسموحاً التذمر . وقد زار أمه في هاوغن وهي ترسل تحياتها .

سألته كريستين بصوت خفيض : "هل مررت بيورونغارد ؟"

لا ، فهو قد عرف أن (أهلها) قد غادروا البيت لحضور جنازة في بلاكارساروف . فقد جرى حادث مشؤوم . إذ أن ربة المنزل تورا ، وهي ابنة عم راغنفريد ، قد سقطت من شرفة المخزن وكسرت ظهرها . كان زوجها هو الذي دفعها دون أن يدري فسقطت من عل... كان المخزن واحداً من تلك المخازن القديمة التي ليس لها شرفة ملائمة ، بل مجرد بضعة ألواح وضعت فوق نهايات الأعمدة في الطابق العلوي . وقد سمع أنهم اضطروا إلى شد الوثاق على "رولف" وأن يراقبوه ليل نهار منذ ذلك الحادث المشؤوم ، وذلك حتى لا ينتحر .

جلس المستمعون في هدوء شديد ، وهم يرتجفون . لم تكن كريستين تعرف هؤلاء الأقرباء إلا قليلاً ، إلا أنهم حضروا زفافها . وفجأة انتابها إحساس غريب وشعرت بالضعف : ظهر سواد أمام عينيها . قفز مونان ، الذي كان جالساً قبالتها ، واقترب منها . حين وقف إلى القرب منها وذراعه حول كتفيها ، بدا عليه اللطف كما فكرت كريستين . لم يكن أمراً غريباً جداً ربما أن يكون ابن خالة إرلند هذا عزيزاً عليه .

قال : "كنت أعرف رولف منذ كنا صغاراً . كان الناس يرثون لتورا غوتورمسداتر... كانوا يقولون إنه عنيف قاسي القلب . ولكن المرء يستطيع أن يرى الآن أنها كانت عزيزة عليه . أجل ، أجل... كثير من الرجال يتبجحون ويتفاخرون بمدى سعادتهم لو استطاعوا الهروب من الزوجية ، ولكن معظم الرجال يعرفون جيداً أن خسارة الزوجة هي أكبر خسارة يمكن أن تصيبهم..."

نهض بارد بيترسون فجأة ومضى إلى المقعد الذي قرب الجدار .

قال السير مونان برقة : "اللعنة على فمي . كلما فكرت في أني لا أستطيع أبداً أن أراقب لساني..."

لم تفهم كريستين ما الذي كان على خطأ . كانت الدوخة قد تلاشت الآن ، ولكنها راحت تعاني من شعور بعدم الراحة... لقد بدوا جميعاً غريبين جداً . كانت سعيدة أن الخدم أحضروا الطعام .

نظر مونان إلى المائدة وفرك يديه :

"لقد كنت واثقاً من أننا سنفعل خيراً في زيارتكم يا كريستين ، قبل أن نبدأ بالتعود على طعام الصوم . من أين حصلت على هذه الأطباق الشهية خلال فترة قصيرة كهذه ؟ قد يعتقد المرء أنك تعلمت السحر من أمي . ولكني أرى جيداً أنك سريعة في تدبير الأمور التي على الزوجة أن تُسعد زوجها بها ."

جلسوا إلى المائدة . كانت وسائد مخملية قد وضعت لأجل الضيوف على المقعد الجداري على كلا جانبي الكرسي العالي . جلس الخدم على المقعد الخارجي ، وأولف هالدورسون في الوسط مقابل سيده .

تحدثت كريستين قليلاً وبهدوء مع السيدتين الغريبتين ، محاولة أن تخفي مدى قلقها واضطرابها . وبين الحين والآخر كان مونان باردسون يتلفّظ بكلمات هازلة ، ضارباً باستمرار على وتر وضعها الحالي . وكانت تتظاهر بأنها لم تسمع .

كان مونان بديناً أكثر من المعتاد . كانت أذناه الصغيرتان الجميلتان غارقتين في لحم عنقه الأحمر الغليظ ، وكان كرشه يعترض طريقه حين يجلس إلى المائدة .

قال : "أجل ، غالباً ما تساءلت حول قضية انبعاث الجسد ، أي ما إذا كنت سأُبْعَثُ مع كل الدهن الذي جمعته من حول عظامي ، حين يأتي ذلك اليوم . سرعان ما ستعودين إلى خصرك النحيل مجدداً يا كريستين ، أما أنا فليست قضيتي سهلة إلى هذا الحد . لن تصدقي ذلك إلا بالكاد ، ولكن حزامي لم يكن أعرض من حزام إرلند حين كنت في العشرين من عمري..."

رجاه إرلند بصوت خفيض : "إهدأ الآن يا مونان . أنت تزعج كريستين..."

وبّخه الآخر قائلاً : "سأكون لطيفاً جداً . أنت رجل فخور بنفسك الآن ، كما أجرؤ على القول تحت اليمين... وأنت جالس إلى مائدتك مع زوجتك إلى جانبك في الكرسي العالي . أجل ، والرب الذي فوق الجميع يعرف أن هذا لم يحدث سريعاً أيضاً ، فأنت عجوز بما فيه الكفاية يا فتى! بالطبع سأمسك لساني ، بما أنك أمرتني بذلك . ولكن لم يسبق لأحد أن قال لك متى يكون

عليك الكلام أو الصمت ، في الأيام الماضية حين كنت تجلس إلى مائدتي . غالباً ولفترة طويلة كنت ضيفي ، لا أعتقد أنك لاحظت في أي مرة من المرات أنك لم تكن مرحّباً بك .

"و لكني أتساءل ما إذا كانت كريستين تتضايق فعلاً من مزاحي معها... ما تقولين يا زوجة قريبي الجميلة ؟... ما كنت معتادة أن تكوني شديدة الحساسية في الأيام السابقة . لقد عرفت إرلند منذ كان طوله يصل إلى ركبتي ، وأعتقد أني أستطيع القول بأني تمنيت للصبي دائماً الخير على الدوام . أنت متّقد نشاطاً ورجولة يا إرلند وهذا السيف في يدك ، سواء على ظهر الحصان أو على متن سفينة . ولكن سأصلّي للقديس أولاف ليشطرني نصفين بفأسه في اليوم الذي أراك فيه تقف على ساقيك الطويلتين هاتين ، وتنظر إلى الرجل أو المرأة مباشرة في الوجه ، وتردّ على الشر الذي ارتكبته بسبب خفّة عقلك . لا يا قريبي العزيز ، ستطأطئ رأسك كطائر في الفخ ، وتنتظر حتى يأتي الرب وأقرباؤك لمساعدتك لتخرج من المأزق . وأنت يا كريستين امرأة واضحة الذهن ، فأنا أعتقد أنك تعرفين ذلك... وأعتقد أنك في حاجة إلى بعض الضحك الآن . فأنا أراهن أنك شاهدت ما يكفي في هذا الشتاء الماضي من النظرات الخجلة والأسف والندم..."

جلست كريستين بوجه شديد الاحمرار . كانت يداها ترتجفان ولم تكن لتجرؤ على النظر إلى إرلند . كان الغضب يحتدم في داخلها وهاهما السيدتان الغريبتان جالستان وكذلك أورم وخدمها . هكذا هي الأساليب المهذبة لأقرباء إرلند الأغنياء...

ثم قال السير بارد بصوت خفيض حتى لا يسمعه سوى أولئك الذين يجلسون قريباً منه :

"لا أرى في هذا الأمر هزلاً... أن يكون إرلند قد تصرّف على هذا النحو قبل زفافه . لقد أعطيت عهداً نيابة عنك يا إرلند وذلك إلى لافرانس بيورغولفسون" .

قال إرلند بصوت مرتفع وبغضب : "أجل ، والشيطان يعرف أن ذلك لم يكن أمراً حكيماً منك يا أبي بالتربية . وأنا أتعجب كيف يمكنك أن تكون أحمق إلى هذا الحد . فأنت تعرفني أيضاً..."

و الآن لم هناك ما يمنع مونان من الانفجار :

"أجل ، ولكني سأقول الآن لماذا يبدو الأمر لي هازلاً مرحاً . أتتذكر ذلك الجواب الذي قدمته لي يا بارد ، حين جئت إليك وقلت إن علينا أن نساعد إرلند على إتمام هذا الزواج... كلا... سأحكي الآن كل شيء . سيعرف إرلند ما صدقته أنت مني... لقد قلتَ إن الأمر بينهما على هذا النحو ، وإذا لم يستطع أن يتزوج من كريستين لافرانسداتر ، فالرب ومريم العذراء وحدهما يعرفان ما هي الأعمال الجنونية التي سنسمع عنها تالياً . ثم سألتني إن كنتُ راضيا إلى ذلك الحدّ أن يتزوج هو من الفتاة التي خانها لأني ظننتُ أنا أيضاً أنها كانت عاقراً ، حيث لم تظهر عليها أي أمارات بعد مرور تلك الفترة الطويلة جداً ؟ ولكني أعتقد أنكم تعرفونني ، أنتم أيها الآخرون... تعرفونني قريباً يثق به أقرباؤه..." وهناك كان شديد التأثر إلى حد أنه انفجر باكياً . "ليكن الرب وكل القديسين شهوداً عليّ... لم يسبق لي أن اشتهيت متاعكم يا أقربائي... وثم تأكدوا أن هناك غونولف بيني وبين هوسابي . وقد أجبتك يا بارد ، وأنت تعرف ذلك جيداً بأن أول صبي تحمله كريستين سيحصل على خنجري الملبّس بالذهب ذي الغمد العاجي... ويمكنك الحصول عليه الآن!" صرخ من خلال دموعه بهذا ورمى بالسلاح الثمين عبر المائدة نحوها ." وإذا لم يكن صبياً هذه المرة ، فمن المحتمل أن يكون كذلك في العام التالي..."

تدحرجت دموع العار والغضب على خدي كريستين . مرّت بصراع قاس حتى لا تنهار تماماً . ولكن السيدتين الغريبتين جلستا وهما تأكلان بهدوء وكأنهما معتادتان جيداً على هذه المشاهد . همس لها إرلند أن عليها أن تأخذ الخنجر : "أو أن مونان سيبقى يتكلم على هذا النحو طوال الليل ."

تابع مونان : "أجل ، ولا أنكر يا كريستين أني لست منزعجاً من أن أباك لا بد أن يكتشف أنه كان شديد التهوّر حين أجاب لصالحك . كان لافرانس شديد التكبّر : لم نكن نحن في منزلة ملائمة له حقاً... وكنت أنت أكثر نقاء وطهارة من أن تقبلي إرلند زوجاً لك . لقد تكلم وكأنك ما كنت تحتملين أن تفعلي أي شيء في الليالي سوى أن تغنّي ضمن جوقة من الراهبات . قلت له : "عزيزي لافرانس ، ابنتك فتاة شابة جميلة ونقيّة ومفعمة بالحيوية ، وليالي الشتاء طويلة وباردة في بلادنا هذه..."

أسدلت كريستين كتان قبعتها فوق وجهها . كانت تبكي بصوت مرتفع وعلى وشك أن تنهض من مكانها ، ولكن إرلند جذبها وجعلها تبقى في مكانها .

قال بقوة : "ابقي في مكانك . لا تكترثي بمونان... لا شك أنك تستطيعين أن تري أنه يهذر من السكر ، أليس كذلك ؟..."

أحست أن ليدي كاترين وليدي فيلبورغ كانتا تعتبران أنه ليس لائقاً منها ألاّ تكون أقدر على التحكم بنفسها على نحو أفضل, ولكنها لم تستطع كبح دموعها .

قال بارد بيترسون حانقاً :

""أمسك عليك لسانك الفاسد . لقد كنت خنزيراً طوال حياتك... ولكن عليك أن تترك امرأة مريضة في أمان من حديثك القذر..."

"هل قلت خنزير ... ؟ أجل ، هذا صحيح ، فلديّ من أولاد الزنا أكثر مما لديك . ولكن هناك شيء واحد لم أفعله – ولم يفعله إرلند أيضاً – أن نشتري رجلاً آخر ليُسمّى والداً لأطفالنا بدلاً عنا..."

صرخ إرلند وهو ينهض من مكانه :

"مونان! إنّي أطلب الهدوء الآن في منزلي!"

"أوه ، فلتطلب الهدوء في ذيلك!... إن أطفالنا ينادون بكلمة أبي ذاك الذي أنجبهم : في حياة خنزيرية كما تسميها!" ضرب مونان المائدة ضربة قوية حتى أن الأكواب والأطباق قد قفزت في الهواء ." لا يسكن أبناؤنا كخدم في بيوت أقربائهم . ولكن يجلس معك هنا ابن لك إلى هذه المائدة على مقعد الخدم . وأنا أعتبر هذا أسوأ أنواع العار..."

نهض بارد وضرب الآخر بإبريق في وجهه . تشابك الرجلان حتى كادا يقلبان المائدة ، حتى أن الطعام والأواني انزلقت إلى أحضان أولئك الجالسين عند المقعد الخارجي .

جلست كريستين شاحبة كالموتى وفمها نصف فاغر . نظرت مرة واحدة نحو أولف : كان الرجل يضحك بصوت مرتفع ضحكة خشنة شريرة . ثم ، أمسك بأعلى المائدة وأعادها إلى وضعها الصحيح دافعاً إياها نحو الرجلين المتماسكين .

قفز إرلند إلى المائدة . ركع فوقها بين بقايا الطعام وأمسك بمونان من حول ذراعيه تحت كتفيه وجرّه رغماً عنه... كان وجهه يحمرّ من الجهد . رفس مونان الرجل العجوز فجعله ينزف من فمه ، ولكن في تلك اللحظة التالية كان إرلند قد رماه عبر المائدة إلى الأرضية الخالية . ثم قفز وراءه ووقف يلهث كمنفاخ .

وقف مونان على قدميه بصعوبة واندفع نحو إرلند الذي انزلق من قبضته مرة أو مرتين ثم قفز فوقه فجأة وأمسكه بشدة بين ساقيه الطويلتين قويتي الأعصاب وذراعيه . كان إرلند رشيقاً كهرّ ، ولكن مونان الوطيد الثقل حافظ على توازنه ولم يقع . ترنّحا وهما يتصارعان في أرجاء القاعة ، بينما راحت الخادمات يزعقن ويصرخن ولم يحرك أي من الرجال يداً ليفرقهما .

ثم نهضت الليدي كاترين ، البدينة الثقيلة بطيئة الحركة كما هو دأبها ، من مكانها ، وصعدت فوق المائدة بهدوء كأنها تصعد درج بيتها .

قالت بصوتها الغليظ البطيء : "انتهى الآن . اتركه يا إرلند . لقد أسأت التصرف يا زوجي... لا يجوز أن تكلم على هذا النحو رجلاً عجوزاً وقريباً من أقربائك..."

أطاعها الرجلان . وقف مونان بضعةٍ وترك زوجته تمسح الدم عن أنفه بحاشية قبعتها . أمرته بالذهاب إلى السرير ، وتبعها مطيعاً حين قادته إلى حجرة السرير الجنوبية . قامت زوجته وأحد رجاله بجذب أغطية السرير لأجله ، ثم دحرجاه إلى السرير وأغلقا أبواب السرير لأجله .

كان إرلند قد ذهب إلى المائدة . انحنى عبرها قرب أولف الذي لم يتحرك من مكانه .

قال بصوت بائس : "يا أبي بالتربية!" بدا عليه أنه نسي زوجته تماماً . جلس السير بارد وهو يهز رأسه ، والدموع تنزل على خديه .

"لم يكن هناك من داع أن يعمل أولف كخادم أيضاً" ، قال عبر دموعه التي جعلته يلهث ويشهق . "كان بإمكانك الحصول على المزرعة حين يموت هالدور... كنت تعرف جيداً أن هذه هي نيّتي ."

قال أولف : "المزرعة التي أعطيتها إلى هالدور لم تكن رائعة جداً... لقد

اشتريت زوجاً لخادمة زوجتك بسعر بخس . لقد نظّف الأرض وفلحها وحسّنها... وأعتقد أنه فعل ذلك حتى تؤول إلى أخوتي بعد أبيهم . وعلاوة على ذلك ، ما كنت أهتم إلاّ قليلاً بأن أصبح مزارعاً... وأن أكون مزارعاً في ذلك المنحدر الجبلي النازل إلى ساحة هستنز... لقد بدا لي الأمر وكأني أسمع هناك في الأعلى أصوات (بال) و(فيلبورغ) وهما يجدّفان لأنك منحت ابنك بالزنا تلك الهدية الثمينة..."

قال بارد وهو لا يزال يبكي : "لقد قدمت لك المساعدة يا أولف حين كنت مصمماً على العمل مع إرلند . لقد حكيت لك كل الحقيقة فيما يخص هذه المسألة ، وذلك في العمر الذي كان يؤهلك لتفهم الأمر . وقد رجوت أن تلتفت إلى أبيك..."

"أنا أسمي (أبي) ذاك الذي ربّاني حين كنت طفلاً . واسم ذلك الرجل هو هالدور . كان طيباً مع أمي ومعي . لقد علمني ركوب الخيل والمبارزة بالسيف... كما يبارز الحراث بالهراوة كما قال بال مرة ."

رمى أولف من يده السكين التي كان يحملها ، فطارت عبر المائدة وانغرزت فيها وهي ترنّ . ثم نهض وأمسك بها ، مسحها على فخذه ووضعها في غمدها . ثم التفت إلى إرلند :

"فَلْتُنْهِ وليمتّك هذه الآن ولتجعل الناس يذهبون إلى أسرّتهم . ألا ترى أن زوجتك غير معتادة على الأساليب الراقية لأقربائنا في ولائمهم ؟"

و بهذا غادر القاعة .

تابعه السير بارد بنظره... بدا فجأة عجوزاً وضعيفاً على نحو بائس ، وهو جالس هناك ، جاثماً بين الوسائد المخملية . ساعدته ابنته فيلبورغ وأحد رجاله على النهوض على قدميه وقاداه إلى الخارج .

جلست كريستين لوحدها على الكرسي العالي ، وهي تبكي وتبكي . وحين حاول إرلند أن يمسك بها أزاحت يده جانباً بقوة . ترنحت وهي تقف على قدميها مرة أو مرتين حين مشت عبر الأرضية . ولكنها أجابت بلطف : "لا" ، حين سألها زوجها إن كانت تحس بالضعف .

ما كانت تحب هذه الأسرّة المغلقة ذات الصندوق . في بيت أهلها كانت الأسرّة محاطة بستارة لتحجبها عن القاعة ولكنها ستارة معلّقة ، بحيث أن الهواء في الداخل كان أقل حرارة وليس خانقاً . والليلة كان الأمر أسوأ هناك من أي وقت آخر... فهي لن تستطيع في أفضل الحالات أن تتنفس . لا بد أن الكتلة القاسية التي تحس بها ضاغطة على عظام صدرها رأس الطفل... تخيّلت أنه يقبع هناك برأسه الصغير وهو يشعر بالملل بين جذور قلبها... كان يمنع تنفسها كما فعل إرلند في الماضي حين كان يضغط برأسه ذي الشعر الداكن على صدرها . ولكن في هذه الليلة لم تكن هناك عذوبة في الفكرة...

سألها زوجها وهو يحاول أن يمرر ذراعه من تحت كتفيها :

"ألن ينتهي هذا البكاء أبداً ؟"

كان صاحياً تماماً . كان قادراً على تحمل الكثير من الشراب ، ولكنه لم يكن يشرب إلاّ قليلاً . كانت كريستين تفكر : ما كان ممكناً لمثل هذا الأمر أن يحدث إطلاقاً في بيت أهلها . لم يسبق لها أن سمعت هناك الناس يشتم أحدهم الآخر ، أو أن يثيروا في حديثهم أموراً يتوجب أن تبقى سرية . غالباً ما رأت أباها ثملاً يترنح والقاعة ملأى بالضيوف السكارى ، ولكن لم يحدث في أي مرة أنه لم يكن قادراً على فرض النظام في منزله : السلام والإرادة الطيبة كانا سائدين دائماً ، وحتى حين كان الناس يقعون عن المقاعد إلى الأرض فقد كانوا ينامون معاً في مرح وانسجام .

رجاها إرلند : " يا أعز الناس ، لا تأخذي الأمر بكل هذه الجدية ."

قالت من خلال الدموع :

"و السير بارد ، أن يقوم بتلك الأفعال ، فيا للعار... هو الذي كلّم أبي وكأنه يحمل رسالة من الرب نفسه... أجل ، لقد حكى لي مونان في وليمة خطبتنا عن ذلك..."

أجاب إرلند برقة :

"أعرف الأمر جيداً يا كريستين ، أعرف أن لديّ المبرّرات حتى أغضّ من بصري أمام أبيك . إنه رجل صالح... ولكن أبي بالتربية ليس أسوأ منه . لقد مكثت إنغا - أم بال وفيلبورغ - مريضة ومشلولة ست سنوات قبل أن تموت . كان ذلك قبل وصولي إلى (هستنس) ، ولكني سمعت الحكاية كلها ، ولم يكن هناك زوج (مثل بارد) يعتني كل تلك العناية بزوجته المريضة وبكل ذلك الصدق والحب . ولكن أولف ولد في ذلك الحين..."

"إنه لعار أكبر إذن... مع خادمة زوجته المريضة..."

"تبدين أحياناً طفولية جداً ، حتى لا يستطيع المرء أن يحادثك بأي أمر" ، قال إرلند يائساً . "فليساعدنا الله يا كريستين ، ستصبحين في العشرين في الربيع القادم... وقد مرّ أكثر من شتاء واحد على ذلك العمر الذي تعتبرين فيه امرأة ناضجة..."

"أجل ، يحق لك أن تزدريني لذلك..."

أنّ إرلند بصوت مرتفع :

"تعرفين أني لم أعن ذلك... ولكنك عشت هناك في يوروندغارد وأصغيت إلى لافرانس... ورغم أنه رجل شجاع ورجولي ، إلا أنه غالباً ما يتكلم وكأنه راهب وليس رجلاً ناضجاً..."

سألته بغضب : "هل سبق لك وسمعت براهب أنجب ستة أولاد ؟"

قال إرلند يائساً : "سمعت بواحد يدعى سكوردا-غريم وأنه أنجب سبعة . كان ذاك هو رئيس دير الرهبان في هولم... كلا يا كريستين ، يا كريستين ، لا تبكي هكذا... أستحلفك باسم الرب! أعتقد أنك فقدت رشدك..."

•

كان مونان خجولاً في صباح اليوم التالي . قال بجدية وهو يربت على خدها : "ما كنت أظن أبداً أنك ستأخذين هذري وأنا ثمل على محمل الجد يا كريستين يا فتاتي . وإلاّ لكنت قد راقبت لساني على نحو أفضل ، وعليك أن تكوني واثقة من ذلك ."

تكلم إلى إرلند حول أورم ، قائلاً إنه سيكون أمراً مثيراً للضيق أن ترى كريستين أورم في أرجاء المكان في هذا الوقت . وسيكون الأمر أفضل لو أُرسل إلى مكان آخر خلال هذه الفترة... وقد عرض أن يصطحب الغلام لفترة من الزمان . أُعجب إرلند بالعرض ، وكان أورم مسروراً بالذهاب مع مونان . ولكن كريستين افتقدت الطفل كثيراً... فقد كانت بدأت تشعر بمودة كبيرة تجاهه .

و ها هي تبقى وحيدة من جديد وحيدة مع إرلند في الأمسيات ، ولم يكن هو رفيقاً جيداً لها . كان يجلس قرب الموقد ، ويتلفظ بكلمة بين الحين والآخر ، أو يحتسي جرعة من الجعة ، ويداعب كلابه قليلاً . ثم يذهب ويضطجع على المقعد ثم يمضي إلى السرير... وكان يسألها مرة أو مرتين إن لم يكن عليها أن تخلد إلى الراحة ، ثم يغط في النوم .

كانت كريستين تجلس وتخيط . كانت أنفاسها قصيرة وثقيلة إلى حد

أنه يمكن سماعها . ولكن لم يعد هناك وقت طويل من الانتظار الآن . ما عادت تستطيع أن تتذكر إلا بالكاد ، كما بدا لها ، كيف تكون حرة ورشيقة الخصر وقادرة على ربط حذائها دون ألم وجهد .

و الآن بعد أن نام إرلند لم يعد هناك جدوى من محاولة حبس دموعها . لم يكن هناك صوت في القاعة ، إلاّ حين كانت جمرة متفتتة قد سقطت على الموقد ، أو أن كلباً تحرك في نومه . أحياناً كانت تتساءل عمّا كانا يتحدثان عنه في الأيام الخوالي... هي وإرلند ؟ على الأرجح لم يكونا يتكلمان كثيراً... كانت لديهما تسليات أخرى في مواعيدهما القصيرة المختلسة...

كان هذا هو الوقت من السنة الذي اعتادت فيه أمها والخادمات الجلوس في الأمسيات في مبنى الحياكة . وكان أبوها والرجال يدخلون ويجلسون قرب النساء ولديهم مهماتهم...إصلاح معدات الجلود وأدوات الزراعة والحفر على الخشب . كان المبنى الصغير يمتلئ بالناس ، والحوار يجري بهدوء وسهولة بينهم . وحين يذهب أحدهم لإحضار شراب من حوض الجعة ، كان يسأل دائماً قبل أن يعلق المغرفة مجدداً ، إن كان أي شخص راغباً في المزيد من الشراب : كانت تلك قاعدة ثابتة .

ثم كان هناك من يستطيع أن يتلو مقطعاً من حكاية بطولية ما : عن الأبطال في العصور القديمة الذين حاربوا سكان الروابي وماردات الجبال . أو كان أبوها يحكي لهم ، وهو جالس يمارس الحفر على الخشب ، حكايات عن الفروسية ، ممّا سمعه يُقرأ عالياً في قاعة اللورد ، حين كان وصيفاً للدوق هاكون في شبابه . أسماء أجنبية جميلة : الملك أوسانتريكس والسير تيتوريل الفارس... وسيسيب وغونيفر وغلوريانا وإيسود ، وكانت هذه أسماء الملكات... ولكن في الأمسيات الأخرى كانوا يحكون حكايات الديك

والثور وحكايات مرحة ، حتى كان الرجال يقهقهون من الضحك ، بينما تهز أمها والخادمات رؤوسهن ويضحكن ضحكات مكبوتة .

كانت أولفهيلد وآستريد تغنيان . كان لأمها أعذب الأصوات ، ولكن كانوا يرجونها كثيراً قبل إقناعها بالغناء لهم . لم يكن أبوها رجعياً جداً ، وكان قادراً على العزف على قيثارته على نحو متناغم .

ثم كانت أولفهيلد تترك دولابها ومغزلها وتضغط بيديها على ظهرها .

"هل ظهرك متعب الآن يا أولفهيلد الصغيرة ؟" كان أبوها يسألها ، ثم يأخذها في حضنه ، ثم كان أحدهم يجلب لوح الداما وكان الأب وأولفهيلد يلعبان حتى يحين موعد النوم . تذكرت ضفائر أختها الصغيرة الصفراء وهي تتدلى فوق كم قميص أبيها الصوفي ذي اللون البني المخضّر . كان يمسك بالظهر الصغير الضعيف بكل رقة ضمن دائرة ذراعه .

كانت يدا أبيها الطويلتان الرشيقتان تحملان خاتماً ذهبياً في كل خنصر . وكان هذان الخاتمان لأمه . الخاتم ذو الفص الأحمر هو خاتم زفافها ، وكان يقول إن كريستين ستناله من بعده . ولكن ذاك الذي على يده اليمنى وله فصّ نصفه أزرق ونصفه أبيض مثل شعار ترسه ، فكان ذاك الذي صنعه السير بيورغولف لزوجته حين حملت لافرانس... كانت ستُمنح هذا الخاتم حين تلد له صبياً . وقد لبست كريستين سيغوردسداتر هذا الخاتم لثلاث ليال ، ثم ربطته من حول عنق الصبي . وقال لافرانس إنه سيأخذه معه إلى قبره .

أوه ، ما الذي سيقوله أبوها حين يسمع بما حدث لها ؟ حين سيعمّ الخبر في كل الريف المحيط ببيت أهلها ، وهو سيعرف حتماً ، أن كل الرجال كانوا يسخرون منه من وراء ظهره ، لأنه سمح لنفسه أن يُخدع على هذا

النحو . في يوروندغارد زينوا رأس فتاة فاسقة بتاج سوندبو الزفافي ووضعوه فوق شعر العذرية المسدل...

"يقول الناس عني ، كما أعرف جيداً ، أني لا أستطيع التحكم بأطفالي" . وهي تتذكر نظرة أبيها حين قال هذا الكلام... كان يريد أن يبدو حزيناً وصارم الوجه ، ولكن عينيه كانتا مرحتين . كانت قد أخطأت في مسألة صغيرة ، كلّمته أو لم تكلّمه أمام أناس غرباء ، أو ما شابه . "أجل يا كريستين ، إنه ليرضيك أنك لا تخافين أباك كثيراً ." ولم يعرف أي منهما ما الخطأ : أنها لم تخف منه ، أو أنه لم يستطع أن يحافظ على جبين غاضب حين كان عليه أن يقرّعها .

لكأنما كان الخوف الذي لا يحتمل من وجود شيء ليس على ما يرام في الجنين قد أصبح أضعف وأبعد مع ازدياد آلام ومشاكل كريستين الجسدية . حاولت أن ترسل أفكارها إلى الأمام - خلال شهر سيكون ابنها قد ولد . ولكنها لم تستطع أن تصدق ذلك . كانت تتوق وتتوق لبيت أهلها فحسب .

كان إرلند قد سألها ذات مرة إن كانت ترغب في أن يرسل وراء أمها . ولكنها قالت : لا... فهي لا تعتقد أن أمها كانت قادرة على السفر تلك المسافة الطويلة في الشتاء . والآن هي نادمة على هذا . كما أنها نادمة لأنها قالت لا لتورديس من لاوغاربرو التي كانت راغبة جداً بالقدوم شمالاً معها ومساعدتها في أول شتاء لها كسيدة للمنزل . ولكنها فكرت أنه من العار أن تكون تورديس إلى جوارها . كانت تورديس خادمة لراغنفريد في بيتها في سوندبو ، وقد لحقت بسيدتها إلى سكوغ ثم عادت مجدداً إلى "ديل" . حين تزوجت ، عَيّن لافرانس زوجها وكيلاً في يوروندغارد ، لأن راغنفريد

لم تكن تطيق بعاداً عن وصيفتها العزيزة . لم تكن كريستين راغبة في وجود أي امرأة من بيت أهلها معها هنا .

و لكن بدا لها الآن أنه لأمر مخيف ألا يكون معها وجه أليف واحد ينظر إليها حين سيأتيها المخاض وتتمدد على القش . كانت خائفة... كانت لا تعرف سوى القليل عن الولادة . لم تذكر أمها لها هذا الموضوع إطلاقاً ، كما كانت ترفض وجود الفتيات الصغيرات حين كانت تساعد النساء في المخاض... كان من شأن الأمر أن يخيف الفتيات الصغيرات كما كانت تقول . ولكن كريستين كانت تعرف أن الأمر كان مخيفاً أحياناً... تذكرت ولادة أولفهيلد . رغم أن راغنفريد قالت إن الأمر حدث كذلك لأنها نسيت نفسها وزحفت تحت حاجز ، أما أولادها الآخرون فقد ولدتهم بسهولة . ولكن كريستين تذكرت أنها كانت هي نفسها مهملة فقد مرت تحت حبل فوق ظهر السفينة...

و لكن هذا ما كان يسبب دائماً مخاضاً عسيراً... لقد سمعت أمها ونسوة أخريات يتحدثن عن مثل هذه الأمور . كان لدى راغنفريد اسم أفضل قابلة في الريف المجاور ، وما كانت تتردد في طلب مساعدتها ، حتى لو كانت المرأة الموشكة على الوضع شحاذة أو ابنة أفقر رجل ، وحتى لو كان الطقس يتطلب ذهاب ثلاثة رجال على الزلاجات والتناوب على حملها على ظهورهم...

و لكن جاءت الفكرة لكريستين كومضة ، ما كان ممكناً بكل تأكيد التصديق بأن امرأة لها كل تلك الدراية في مثل هذه الأمور كأمها لم تلاحظ وضعها في الصيف الماضي ، حين كانت متوعكة إلى ذلك الحد . لذلك... لا بدّ أن أمها ستأتي ، رغم أنهما لم يرسلا في طلبها . لن تتحمل راغنفريد

فكرة أن تترك ابنتها تعاني كل تلك المعاناة بين ذراعي امرأة غريبة . ستحضر أمها... لا شك أنها على الطريق الآن إليها... وعندها ستطلب من أمها أن تغفر لها كل ما ارتكبته من خطايا في حقها... وأمها ستسامحها ، ستركع على ركبة أمها حين تحمل لها طفلها . أمي قادمة ، أمي قادمة... بكت كريستين خلف يديها من قلب ارتفعت عنه الغمّة . يا أمي ، سامحيني يا أمي .

أصبحت فكرة أن أمها كانت في طريقها إليها ملحة جداً على كريستين حتى أنها ظنت يوماً أنها تستطيع أن تشعر ضمن نفسها أن أمها قادمة هذا اليوم . وفي الصباح لفت عباءتها من حولها وخرجت لتقابلها على الطريق التي تؤدي من غاودال إلى سكاون . لم يلاحظها أحد حين غادرت الضيعة .

كان إرلند قد طلب إحضار أخشاب من الغابة لإصلاح وترميم المباني ، لذلك كان الطريق ممهداً جيداً من كثرة الاستخدام . ولكن السير عليه كان ثقيلاً عليها على أي حال . انبهرت أنفاسها ، وبدأ قلبها يدق بقوة ، وأحست بألم حاد في جنبيها : أحست كأن اللحم المشدود بإفراط سيتمزق بعد أن مشت لمسافة صغيرة أخرى . كان الطريق في معظمه يمر بغابة كثيفة . أحست فعلاً بالخوف... ولكنها لم تكن قد سمعت بوجود أي ذئاب في الريف في هذا الشتاء . ولا شك أن الرب سيحميها لأنها ماضية لتلاقي أمها ، لتركع عند قدميها وتطلب غفرانها... ولم تستطع سوى الاستمرار في السير .

وصلت أخيراً إلى بحيرة صغيرة تقع على شاطئها بعض المزارع الصغيرة . وحيث يؤدي الطريق إلى الجليد ، جلست على جذع شجرة... راحت تمشي أحياناً وتجلس أحياناً لتبقى دافئة ، وهي تنتظر هناك لساعات كثيرة . وأخيراً كان عليها أن تعود إلى البيت .

في اليوم التالي ، خرجت مرة أخرى على الطريق نفسه . ولكنها حين مرت بساحة إحدى المزارع الصغيرة عند البحيرة ، رأتها ربة المنزل فأتت تعدو وراءها .

"باسم الرب يا سيدتي ، ما هذا الذي تفعلينه ؟"

ما أن نطقت المرأة حتى أحست كريستين فجأة بالخوف الشديد حتى أنها لم تعد تستطع أن تتحرك من مكانها... وراحت تحدق إلى الفلاحة وهي ترتجف وعيناها قد أصابهما الفزع .

"أتذهبين عبر الغابات... ماذا لو أن الذئب اشتم رائحتك! كما أن أموراً سيئة أخرى قد تحيق بك أيضاً... كيف تتصرفين على هذا النحو الخالي من الذكاء ؟"

رمت المرأة الطيبة بذراعيها من حول سيدة الضيعة الشابة وأمسكت بها... ثم نظرت إلى وجهها النحيل الأبيض المصفرّ والمبقع باللون البني :

"ادخلي إلى بيتنا وارتاحي قليلاً... ثم سيصطحبك إلى بيتك... شخص ما من هنا » ، قالت وهي تقود كريستين .

كان بيتاً صغيراً وفقيراً ، وفي الداخل كانت الفوضى سائدة لوجود الكثير من الأطفال الصغار يلعبون على الأرض . أرسلتهم الأم إلى المطبخ وأخذت عباءة ضيفتها وقادتها إلى كرسي ، ثم خلعت عنها حذاءها المغطى بالثلج . ثم لفّت جلد خروف من حول قدميها .

و رغم أن كريستين رجت المرأة ألا تزعج نفسها ، إلا أن المضيفة لم تكن لتتأخر عن خدمتها بالطعام والجعة من برميل عيد الميلاد الخشبي . وكانت تفكر في هذه الأثناء... لا شك أن لديهم قانوناً نادراً في هوسابي! إنها

مجرد زوجة رجل فقير ، ولم تكن تصلهم إلا مساعدات قليلة إلى مزرعتهم ، وغالباً ما لا يأتي أي شيء . ولكن "أويستاين" ما كانت لتخرج وحيدة خارج سياج ساحة مزرعتها حين تكون حاملاً... حتى لو أنها كانت ستعبر إلى زريبة الأبقار بعد الظلام ، فلا بدّ من وجود من يرعاها . ولكن أغنى سيدة في هذا الريف تخرج لتشرد في الطرقات وتعرض نفسها لخطر الموت المريع ، وليس من روح مسيحية تعتني بها... رغم أن الخدم في هوسابي كانوا كثرة ولا يفعلون شيئاً . لا شك أن ما كان يقال عن أن إرلند نيكولاوسون كان قد سبق له وملّ من زواجه وأنه لم يكن يهتم بزوجته... لا شك أن هذا صحيح...

و لكنها راحت تثرثر مع كريستين طوال الوقت وتجبرها على الطعام والشراب . وكانت كريستين تشعر بخجل شديد لأنها وجدت نفسها ذات شهية للطعام كما لم تشعر بها من قبل... ليس منذ الربيع الماضي . كان طعام المرأة اللطيفة شهياً جداً . وقد ضحكت المرأة وقالت إن نساء كبار القوم ما كنّ مختلفات عن نساء فقرائهم . والأمر غالباً ما يكون هكذا ، فحين لا يكون للمرأة قدرة حتى على النظر إلى الطعام في البيت ، فإنها تكون نهمة تماماً لتناول طعام شخص غريب حتى لو كان رديئاً وفقيراً .

كان اسمها أودفينا أندونسداتر ، وكانت من "أوبدال" كما قالت . وحين لاحظت أن هذا بعث البهجة في نفس ضيفتها ، فقد راحت تحكي لها عن بيتها الأصلي ومنطقتها . وقبل أن تلاحظ كريستين ، فإن لسانها هي أيضاً قد انطلق ، وراحت تتحدث عن بيتها الأصلي وأبويها وريفها . لاحظت أودفينا جيداً أن قلب الزوجة الشابة كان على وشك الانكسار من شوقها إلى بيتها ، لذلك أغرت كريستين وتحايلت عليها حتى تتابع الحديث . وتابعت كريستين ، التي شعرت بالدفء والدوار ، الحديث ، حتى راحت تضحك

وتبكي في آن معاً . كل ما حاولت عبثاً أن تطرده بالدموع من قلبها في ساعات المساء الوحيدة في هوسابي ، بدا الآن وكأنه يذوب قليلاً قليلاً وهي تحكي حكايتها لهذه الفلاحة الطيبة .

كان الظلام مخيماً تماماً الآن فوق فتحة الدخان ، ولكن أودفينا طلبت من كريستين البقاء حتى يصل أويستاين أو أبناؤهما من الغابة ليرافقاها إلى بيتها . أصبحت كريستين أميل إلى الصمت والنعاس ، ولكنها جلست تبتسم ، بعينين لامعتين... كانت سعيدة جداً كما لم يسبق لها أن كانت منذ أن أتت إلى هوسابي .

و فجأة فُتح الباب ودخل رجل وهو يصرخ سائلاً إن كانوا قد رأوا السيدة... ثم شاهدها جالسة هناك واندفع إلى الخارج مجدداً . بعد دقيقة دخل إرلند بشكله الطويل وانحنى ليمرّ من الباب . أبعد عنه الفأس التي كان يحملها ، وترنح على الجدار... كان عليه أن يسند نفسه بيدين مدفوعتين إلى الخلف ، ولم يستطع أن يتكلم .

سألت أودفينا وهي تتجه نحوه :

"كنت خائفاً على السيدة ؟"

"أجل... لا أخجل من قول ذلك ." ومرّر يده تحت شعره . "لم يشعر بالخوف أي رجل من قبل كما شعرت أنا بالخوف هذه الليلة ، على ما أعتقد . حين سمعت أنها ذهبت إلى الغابات..."

حكت له أودفينا كيف وصلت كريستين إلى هنا . أخذ إرلند بيد المرأة :

قال : "لن أنسى أبداً ما أدين به لك ولزوجك لقاء هذا" .

ثم مضى نحو مكان جلوس زوجته ووقف إلى القرب منها ، ووضع يداً على عنقها . لم ينطق بكلمة واحدة ، بل وقف صامتاً على هذا النحو خلال وجودهما في ذلك المنزل .

و الآن دخلت جمهرة من الخدم من هوسابي ورجال من المزارع القريبة . وقد بدا الجميع كأنهم في حاجة إلى جرعة تشدّ من عزمهم ، فحملت أودفينا لهم وعاء الجعة وجعلته يدور بينهم قبل أن يغادروا مجدداً .

كان الرجال قد انطلقوا على زلاجاتهم عبر الحقول ، ولكن إرلند كان قد أعطى زلاجته إلى أحد أتباعه . هبط التل وهو يمشي الآن ويمسك بكريستين داخل عباءته . كان الظلام شديداً ، والنجوم لامعة جداً .

ثم وصل صوت من الغابات خلفهم... عواء ممطوط راح يرتفع ويرتفع في الليل . تلك كانت ذئاباً... والكثير منها . توقف إرلند ، وهو يرتجف ، وخفّف من قبضته عليها ، وعرفت كريستين أنه رسم إشارة الصليب على نفسه ، بينما كان يمسك بالفأس باليد الأخرى . "لو كنت الآن... أوه ، لا..." ضمّها إليه بقوة وعنف إلى حد أنها أنّت من الألم .

التفّ راكبو الزلاجات في الحقول وعادوا إلى الزوجين بأسرع ما يستطيعون الصعود . ثم رموا بالزلاجات من فوق أكتافهم ، وشكلوا حلقة وثيقة من حولها برماحهم وفؤوسهم . لحقت بهم الذئاب طول الطريق إلى هوسابي... كانت قريبة جداً إلى حد أنهم كانوا يرونها عبر الظلام أحياناً .

حين دخلوا القاعة المضاءة ، كانت وجوه الكثير من الرجال رمادية وبيضاء . قال أحدهم : "كانت هذه أكثر شراسة..." ثم راح يتقيأ في نار الموقد . اصطحبت الخادمات الخائفات سيدتهن إلى سريرها . لم تكن تستطيع أن تأكل . ولكن الآن ومع انقضاء الخوف المُمْرض الرهيب ، فقد بدا لها أنه أمر يبعث على الراحة أن ترى الجميع خائفين لأجلها .

حين تُرِكا لوحدهما في القاعة ، اقترب إرلند وجلس على حافة سريرها .

همس : "لم فعلت ذلك ؟" وحين لم تجبه ، قال بصوت أخفض بعد :

"هل أنت حزينة جداً لدخولك منزلي... ؟"

لم تفهم قصده إلا بعد برهة قصيرة :

"يا يسوع ، يا مريم! كيف يمكن لك أن تفكر في مثل هذا ؟"

"ما الذي كان في ذهنك في تلك المرة حين قلت -وقتما كنا في ميدالبي ، حين ابتعدت بجوادي عنك- إنه كان عليَ أن أنتظر فترة طويلة قبل أن تلحقي بي إلى هوسابي ؟" سألها باللهجة الخفيفة نفسها .

قالت كريستين خجلة بصوت خفيض : "أوه ، لقد نطقت عن غضب" . ثم حكت ما الذي كان يجعلها تخرج في هذه الأيام الأخيرة . جلس إرلند هادئاً تماماً وراح يصغي .

قال وهو ينحني فوقها في الظلام : "أتساءل كثيراً متى سيحين ذلك الوقت الذي سيبدو فيه منزلي في هوسابي بيتك أيضاً ."

همست كريستين بضحكة مرتجفة : "أوه ، ربما خلال أسبوع على الأكثر ."و حين وضع وجهه على وجهها ، رمت بذراعيها من حول عنقه وردّت له قبلته بلهفة .

"هذه أول مرة ترمين فيها بذراعيك من حول عنقي من تلقاء نفسك منذ أن ضربتك" ، قال إرلند بصوت خفيض . "أنت لا تغفرين بسرعة يا كريستين..."

و قد مرّ في خاطرها أن هذه كانت المرة الأولى منذ تلك الليلة التي

عرف فيها أنها حامل ، التي تتجرأ فيها على أن تداعبه دون أن يطلب إليها ذلك .

و لكن بعد هذا اليوم ، راح إرلند يظهر لها من المودة الشيء الكثير حتى أن كريستين ندمت على كل ساعة كانت فيها غاضبة منه .

٤

هلّ قدّاس غريغوري (١٣ شباط / فبراير) ومضى . كانت كريستين على اعتقاد راسخ بأنها ستضع حملها في ذلك الحين على الأكثر . وهاهو قداس مريم (٢٥ آذار / مارس) قد اقترب خلال الصوم الكبير وكانت لا تزال على قدميها .

اضطر إرلند إلى الذهاب إلى نيداروس لحضور مجلس منتصف فترة الصيام . قال إنه سيعود إلى البيت ليلة الاثنين بكل تأكيد ، وهاهو صباح الأربعاء قد حلّ ولم يكن قد عاد بعد . جلست كريستين في القاعة وهي لا تعرف ما تفعله... كأنما لم تكن لديها القدرة على البدء بأي عمل .

تسلّل نور الشمس عبر فتحة الدخان : أحست أن الطقس في الخارج ربيعي هذا اليوم . نهضت ورمت بعباءتها من حولها .

قالت إحدى الخادمات لها إن الناس تقول إنه لو تأخرت امرأة عن أجلها المحدّد ، فالأفضل لها أن تدع الحصان الذي ركبته في عرسها يأكل القمح من حضنها . وقفت كريستين لفترة قصيرة عند باب القاعة... في نور الشمس المبهر . كانت الساحة كلها بنية اللون ، ولكن جداول لامعة من الماء كانت

تجري في أخاديد صغيرة براقة متجمدة عبر روث الجياد وبقاياها . كانت السماء تنتشر لامعة وزرقاء فوق الأبنية القديمة... على التمثالين المثبتين على أعمدة المخزن الشرقي ، كانت آثار الطلاء بالذهب تلتمع هذا اليوم في الجو الصافي . كان الماء ينقّط ويجري من الأسطح ، والدخان يتلوى ويرقص في نفحات الريح الصغيرة الرقيقة .

ذهبت إلى الإسطبل وهناك ملأت حضن تنورتها بالشوفان من حوض القمح . أنعشتها رائحة الإسطبل وصوت الجياد وهي تتحرك هناك في العتمة . ولكن بعض الأشخاص كانوا في الإسطبل ، وقد خجلت من أن تنجز ما جاءت لتقوم به .

خرجت ورمت بالحبوب إلى الدجاجات التي كانت تنقر الأرض وتتشمّس في الساحة . انطلقت أفكارها بعيداً ، وهي تنظر إلى "تور" عامل الإسطبل ، وهو يمشط شعر الفرس الرمادية وينظفه بالفرشاة... كانت تبدّل جلد الشتاء بسرعة . بين الحين والآخر كانت تغمض عينيها وتلتفت بوجهها ، الذاوي والشاحب من المكوث بين الجدران ، نحو نور الشمس .

و هكذا كانت واقفة حين وصل ثلاثة رجال إلى الساحة على خيولهم . كان أولهم كاهناً شاباً لم تكن هي تعرفه . وما أن شاهدها حتى قفز عن حصانه واقترب منها بيدٍ ممدودة .

قال مبتسماً : "لم يكن هذا الشرف الكبير موجهاً إليّ ، على ما أعتقد ، أي أن تقومي أنت سيدة المنزل ، بالخروج للترحيب بي . ولكن عليّ أن أشكرك على ذلك على أي حال . لأني أعتقد جيداً أنك لابدّ زوجة أخي ، كريستين لافرانسداتر ؟"

أجابت ووجهها يتورّد : "إذن أنت لا بدّ السيد غونولف ، أخو زوجي . أهلاً بك يا سيدي وسهلاً في بيتك في هوسابي!"

قال الكاهن : "شكراً لهذا الترحيب الجميل" ، ثم انحنى وقبّل خدها ، حسب الأسلوب الذي عرفت أنه كان متّبعاً في البلدان الأجنبية حين يتقابل الناس . "فليكن سعيداً قدومك إلى هنا يا زوجة إرلند!"

خرج أولف هالدورسون وأمر سائساً بأخذ جياد الغرباء . حيّا غونولف أولف تحية من القلب :

"أأنت هنا يا قريبي ؟... كنت أتطلع إلى أن أسمع أنك أصبحت رجلاً متزوجاً وصاحب منزل الآن ."

"كلا ، لن أتزوج قط ، إلا إذا كان عليّ أن أختار بين الزوجة والمشنقة" ، قال أولف ضاحكاً ، وضحك الكاهن أيضاً . "لقد عاهدت الشيطان أن أعيش دون زواج بالحزم نفسه الذي عاهدت به الرب أنت نفسك ."

"أجل ، فلتكن آمناً أنّي توجهت يا أولف" ، أجاب الماستر غونولف ضاحكاً . "فأنت ستحسن عملاً يوم تنكث عهدك لذلك الرجل في الأسفل . ومع ذلك سيُقال أيضاً إن على الرجل أن يحافظ على عهده حتى لو كان مع الشيطان نفسه... أليس إرلند في البيت ؟" سأل متعجباً . عرض يده على كريستين وهما يلتفتان ليدخلا القاعة .

ولإخفاء خجلها ، راحت كريستين تتحرك بين الخادمات ، وأشرفت على مدّ لوح المائدة الخشبي . وقد طلبت من أخ إرلند العلاّمة الجلوس في الكرسي العالي ، ولكن حين رفضت الجلوس هناك إلى جانبه ، انتقل إلى المقعد إلى جوارها .

و الآن إذ جلست إلى القرب منه ، لاحظت أن السيد غونولف كان

أقصر من إرلند بنصف الرأس على الأقل... ولكنه كان يبدو ذا حجم أكبر . كان ذا بنية أقوى كما كان بدنه وأطرافه أضخم ، وكتفاه العريضتان كانتا مستقيمتين... أما كتفا إرلند فكانتا مترهلتين قليلاً . كان غونولف يرتدي رداء داكناً ملائماً جداً لكاهن ، أما الغفّارة التي كانت تصل إلى قدميه وصعوداً تقريباً حتى حزام قميصه الكتاني ، فكانت مثبتة بأزرار من المينا ، ومن حزامه المحبوك كانت عدة طعامه معلقة في غمد فضّي .

نظرت إلى وجه الكاهن . كان له رأس مستدير قوي ووجه مستدير إنما نحيل ، مع جبين منخفض وواسع وعظام وجنة كبيرة قليلاً وذقن دقيق مستدير . كان أنفه مستقيماً وأذناه صغيرتين جميلتين ، ولكن فمه كان واسعاً وشفتاه نحيلتين ، بينما الشفة العليا بارزة إلى الأمام جيداً وتغطي الشفة الحمراء . شعره فقط كان كشعر إرلند : وكانت الحلقة المحلوقة حول البقعة الجرداء من رأس الراهب سوداء ، لها لمعة جافة سخامية ، وتبدو كأنها حريرية ناعمة شأن شعر إرلند . أما من حيث البقية فكان يشبه ابن خالته مونان باردسون... استطاعت أن ترى الآن أنه ربما كان صحيحاً أن مونان كان وسيماً في شبابه . كلا ، لقد كان يشبه آشيلد خالته ، لقد لاحظت الآن أن له عيني الليدي آشيلد... العينان الصفراوان الكهرمانيتان اللامعتان تحت حاجبين أسودين مستقيمين ضيقين .

في البداية كانت كريستين خجلة قليلاً من أخي زوجها الذي تلقى الكثير من العلم في أكبر المعاهد في باريس وفالاند (الاسم العام الذي يطلق على الدول اللاتينية) . ولكنها نسيت خجلها تدريجياً . كان من السهل جداً أن تحادث ماستر غونولف . لم يبد أنه يتحدث عن نفسه... كما لم يكن يتظاهر بمعرفته . ولكن حين أتيح لها الوقت لتفكر قليلاً ، وجدت أنه قد

حكى لها الكثير حتى أن كريستين ظنّت أنها لم يسبق لها أن عرفت من قبل كم كان العالم خارج النرويج هائلاً . لقد نسيت نفسها وكل مشاغلها ، وهي جالسة تنظر إلى وجه الكاهن المستدير ذي العظام الكبيرة ، وابتسامته المرحة اللطيفة . كان قد وضع ساقه فوق ركبة الساق الأخرى تحت ردائه ، وجلس ويداه البيضاوان القويتان مشبكتان من حول كاحله .

و حين انضم إليها في القاعة ، عصراً ، سأل إن كان يمكن لهما أن يلعبا الداما . ولم تستطع كريستين سوى أن تجيب بأنها تظن أن ليس هناك أي لوح داما في المنزل .

سأل الكاهن مستغرباً : "ألا يوجد ؟" ثم مضى نحو أولف .

"أتعرف يا أولف ما فعله إرلند بلوح الداما المذهب الخاص بأمنا ؟... أدوات التسلية التي خلّفتها هنا ؟... لا شك أنه لم يسمح لأحد أن يأخذها .

قال أولف : "إنها في صندوق في غرفة السلاح في الأعلى . لقد فكّر هو أيضاً في أنها لا يجب أن تقع في حوزة أشخاص آخرين... من الذين كانوا في الضيعة سابقاً" ، وقد قال الجملة الأخيرة بصوت خفيض . "هل تريدني إحضار الصندوق يا غونولف ؟"

"أجل... لا يمكن لإرلند أن يعارض في ذلك الآن" ، قال الكاهن .

بعد فترة قصيرة وصل الاثنان حاملين صندوقاً كبيراً مزخرفاً . كان مفتاحه فيه ، ففتحه غونولف . في الأعلى كانت هناك قيثارة وآلة وترية أخرى لم يسبق لكريستين أن رأت شبهاً لها . وقد سماها غونولف "سالتريون" (السنطور)... ترك أصابعه تسرح على الأوتار ، ولكنها كانت غير مدوزنة . كانت هناك لفّات من الشرائط والحرير والقفازات المطرزة والقبعات الحريرية

وثلاثة كتب ذات مشابك . وأخيراً وجد الكاهن لوح الداما . كانت المربعات بيضاء وذهبية والحجارة من عاج كركدن البحر بلونين أبيض وذهبي .

كان على كريستين أن تعترف الآن لأخي زوجها بأنها غير ماهرة في الداما وليست موهوبة جداً في عزف الآلات الوترية . ولكنها كانت تواقة إلى قراءة الكتب .

"أجل... هل تُرى تعلمت قراءة الكتب يا كريستين ؟" سأل الكاهن . والآن استطاعت أن تجيب ببعض الفخر ، أنها تعلمت الكثير وهي طفلة بعد . وفي الدير امتُدحت لمهارتها في القراءة والكتابة .

وقف الكاهن يراقبها وابتسامة على وجهه بينما راحت هي تقلّب صفحات الكتب . كان أحدها حكاية بطولية فروسية عن "تريستان" و"إزولده" ؛ والآخر يحوي حكايات عن القديسين... ففتحته على حكاية القديس مارتين . أما الثالث فكان باللاتينية ، وكان ذا كتابة جميلة بأحرف كبيرة ملونة بألوان كثيرة .

قال غونولف : "هذا الكتاب كان يخص جدّنا الأسقف نيكولاوس" .

قرأت كريستين بصوت نصف مرتفع (باللاتينية) :

"استر وجهك عن خطاياي وامح كل آثامي
قلباً نقياً اخلق فيّ يا الله وروحاً مستقيماً جدّد في أحشائي .
لا تطرحني من قدام وجهك وروحك القدوس لا تنزعه مني ."

(المزمور ٥١)

سأل غونولف : "هل تفهمين هذا ؟" فأومأت كريستين وقالت إنها تفهم القليل . كانت تعرف ما يكفي من معنى الكلمات حتى أنها تأثرت على نحو

غريب لأنه كان على عينيها أن تقعا عليها الآن بالذات . ارتجف وجهها قليلاً ثم وضع غونولف السنطور في حضنه ، وقال إنه سيحاول دوزنته .

و بينما كانا جالسين هكذا ، سمعا صوت حوافر الخيل في الساحة... ومباشرة دخل إرلند القاعة وهو يشعّ سعادة... كان قد سمع أن أخاه قد وصل . وقف الأخوان وكلٌّ يضع يديه على كتفي الآخر ، وإرلند يطرح الأسئلة دون أن ينتظر الأجوبة . كان غونولف في نيداروس لمدة يومين ، وكانت محض صدفة أنهما لم يلتقيا هناك .

قال إرلند : "و إنها لغريبة حقاً . ظننت أن كل كهنة كنيسة الرب سيتقدّمون في موكب لمقابلتك ، حين تعود إلى البيت... وأنت مترع بالحكمة ومحشوّ بالعلم كما هي حالك الآن..."

سأل أخوه ضاحكاً : "و هل تعرف عن ثقة أنهم لم يفعلوا ذلك ؟ فأنت لا تقترب من كنيسة المسيح حين تكون في المدينة ، كما سمعت عنك ."

"صحيح يا غلام... لا أقترب من اللورد الأسقف حين أستطيع أن أبتعد عنه... لقد ترك توقيعه على جلدي سابقاً ولمرة واحدة..." ضحك إرلند دون ندم أو توبة . "كيف تجدين أخا زوجك يا حلوتي ؟... أرى أنه سبق لك وقابلت كريستين يا أخي... إنها لا تهتم كثيراً بأقربائنا الآخرين..."

و لم يلحظ إرلند أنه كان لا يزال يرتدي قبعته الفرو وعباءته وأن سيفه كان إلى جنبه إلاّ حين جلسوا إلى مائدة العشاء .

كانت تلك أكثر الأمسيات مرحاً منذ أن وصلت كريستين إلى هوسابي . كان إرلند قد أجبر أخاه على الجلوس معها في الكرسي العالي ، وراح هو يخدمه ويملأ له كوبه . في المرة الأولى التي شرب فيها نخب غونولف ، ركع على ركبة واحدة وتظاهر بأنه كان سيقبّل يد أخيه .

"فليتبارك الرب! علينا أن نعتاد يا كريستين على أن نقدم فروض الطاعة إلى الأسقف... حسناً ، فأنت ستصبح أسقفاً لا بدّ يا غونولف!"

لم تغادر جماعة المنزل القاعة إلاّ في وقت متأخر من الليل ، ولكن الأخوين وكريستين تابعوا الشراب . كان إرلند قد جلس على الطاولة مواجهاً أخاه .

قال وهو يشير إلى صندوق أمه : "أجل ، فكرت في هذا الصندوق في يوم زفافنا ، ورأيت أن يكون من حصة كريستين . ولكني أنسى بسهولة . وأنت يا أخي ، إنك لا تنسى شيئاً . ولكني أعتقد أن الخاتم الذي تركته أمي قد وجد طريقه إلى يد جميلة ، على ما أعتقد ، ما رأيك ؟" ثم وضع يد كريستين على ركبته ودوّر خاتم الخطبة .

أومأ غونولف برأسه . وضع السنطور في حضن إرلند :

"غنّ الآن يا أخي . كان من عادتك أن تغني على نحو جميل وتعزف جيداً فيما مضى..."

قال إرلند على نحو أكثر جدية : "لقد مضت سنون كثيرة على ذلك ." ثم مرّر أصابعه على الأوتار :

"ركب الملك الطيب أولاف ابن هارالد
جواده تحت ظل الغابة الكثيفة .
فرأى في الأرض آثار أقدام صغيرة
... هاهي أنباء عظيمة!

*

قال فين أرنسون

... بعد أن ركب متقدماً على عصبته :

"ستكون جميلة من تترك هذا الأثر الصغير للأقدام

في جوارب قرمزية..."

ابتسم إرلند وهو يغني ، ونظرت كريستين إلى الكاهن بخجل... فهو قد لا تعجبه قصيدة أولاف وآلفهيلد الغنائية . ولكن غونولف جلس مبتسماً... ولكنها شعرت فجأة بأنها متأكدة من أنه كان يبتسم لإرلند وليس للأغنية .

قال إرلند وهو يربت على خدّها :

"لا داعي لأن تغني يا كريستين الليلة . أعتقد أن أنفاسك لا تسمح لك الآن بذلك يا عزيزتي . ولكن حان دورك الآن..." وأعطى السنطور إلى أخيه .

و يستطيع المرء أن يعرف من عزف الكاهن وغنائه أنه كان على دراية كبيرة بالغناء والعزف :

سار الملك شمالاً إلى الجبال...

*

سمع حمامة تئنّ

تندب أليفها :

"لالي ، لالي! لالي ، لالي!

كان مستعداً لمطاردة الصقر

الذي طار عبر الجبال الواسعة البعيدة .

و قد قاده الصقر إلى الأعلى ثم إلى أسفل

ثم قاده إلى بستان سفعته الشمس .

في ذلك البستان كان منزل
علقت فيه ستائر نعش أرجوانية .

هناك كان يتمدد فارس جميل مخضباً بدمه
إنه السيد الشجاع الطيب .

عند رأس سريره كان حجر
كتب عليه "جسد الرب"

لا لي ، لالي! لالي لالي!
لقد حمل الصقر أليفي بعيداً" (٣)

سأله إرلند : "أين تعلمت هذه الأغنية ؟"

قال غونولف : "أوه... كان بعض الصبية يغنونها خارج النُزُل الذي نزلت به في كانتربورغ . وفكرت في محاولة ترجمتها إلى لغتنا النرويجية . ولكنها ليست جيدة جداً بالنرويجية ." جلس وهو يعزف نتفاً من اللحن على الأوتار .

"حسناً يا أخي... لقد تجاوز الوقت منتصف الليل بكثير . وعلى الأرجح فإن كريستين في حاجة إلى الخلود إلى الفراش الآن... هل أنت متعبة يا زوجتي ؟"

"لا أعرف... أعتقد أنه من الأفضل الآن ألاّ أضطجع في السرير هنا..."

"هل أنت مريضة ؟" سألاها كلاهما وهما ينحنيان عليها .

"لا أعرف" ، قالت ، ثم ضغطت بيديها على وركيها . "لديّ إحساس غريب جداً في ظهري..."

قفز إرلند ومضى نحو الباب . تبعه غونولف :

"من سوء الحظ أنك لم تحضر النساء قبل ذلك إلى هنا ، أي النساء اللواتي سيساعدنها . هل حصل الأمر قبل توقعها له بكثير... ؟"

احمرّ وجه إرلند كثيراً .

"تعتقد كريستين أنها لن تحتاج إلاّ إلى خادماتها... لقد سبق لهنّ وولدن أطفالاً ، البعض منهن..." ثم حاول أن يضحك .

حدّق غونولف إليه : "هل فقدت رشدك ؟ أليس لدى كل زوجة فلاح نساء ماهرات وزوجات جيران[٤] لمساعدتها حين الوضع... وهل ستزحف زوجتك وتخفي نفسها في حفرة ، كما تفعل القطة عند الوضع ؟ كلا يا أخي... سأقدّرك كثيراً كرجل لو جلبت أفضل القابلات في الريف لأجل كريستين..."

طأطأ إرلند برأسه وقد احمرّ خجلاً :

"ما تقوله صحيح يا أخي . سأركب بنفسي إلى راسفولد... علي أن أرسل رجالاً إلى ضيع أخرى . هل لك أن تبقى هنا مع كريستين!"

سألت كريستين خائفة : "هل أنت راحل ؟" ، وذلك حين رأته يرتدي عباءة الركوب خاصته .

عبر نحوها ورمى بذراعيه من حولها.

"سأذهب لأحضر أفضل القابلات في الريف ، يا كريستيني . سيبقى

غونولف إلى جانبك ، بينما ستجهز لك الخادمات القاعة الصغيرة" ، قال لها وهو يقبلها .

رجته قائلة : "هل يمكنك أن ترسل شخصاً يحضر لي أودفينا أندونسداتر ؟ ولكن ليس قبل الفجر . لا أريدها أن توقظ من النوم لأجلي... لديها أعمال كثيرة ، كما أعرف..."

سأل غونولف إرلند من تكون أودفينا تلك .

قال الكاهن : "لا يبدو الأمر لي ملائماً . زوجة واحد من مستأجريك..."

قال إرلند : "سيكون الأمر لكريستين كما تشاء ." وحين خرج الكاهن معه ووقف هو ينتظر حصانه ، روى للآخر كيف تعرفت كريستين على زوجة المزارع . عضّ غونولف شفته ووقف متأملاً بعمق .

•

ساد الضجيج والاضطراب في الضيعة كلها الآن ، فهناك رجال يركبون جيادهم مبتعدين في الليل ، وخادمات يهرعن بالدخول للسؤال عن حال سيدتهن . قالت كريستين إنه لم يكن هناك ما يقلق بعد ، ولكن عليهن أن يجهّزن كل شيء في القاعة الصغيرة . وسترسل لهن في الوقت الملائم لتطلب إدخالها إلى تلك القاعة .

ثم تُركت لوحدها مجدداً مع الكاهن . حاولت أن تتكلم معه على نحو عادي ومرح كما في السابق .

قال بابتسامة صغيرة : "أنت لست خائفة ."

"كلا ، بل خائفة!" نظرت إلى عينيه... كانت عيناها داكنتين وخائفتين .

"أتعرف يا أخا زوجي إن كان ولدا إرلند الآخران قد ولدا هنا في هوسابي ؟"

قال الكاهن بسرعة : "لا ، لقد ولد الصبي في هونهالس والفتاة الصغيرة في ستريند إلى الشمال... في مزرعة كان يمتلكها ذات مرة هناك... هل الأمر وما فيه أنك تنزعجين عندما تتذكرين أن تلك المرأة عاشت هنا مع إرلند سابقاً ؟"

قالت كريستين : "أجل" .

"من الصعب عليك الحكم بعدل على تصرفات إرلند في قضية إلين هذه" ، قال الكاهن بصوت جدّي . "لم يكن أمراً سهلاً على إرلند أن يتحكم بنفسه... لم يكن من السهل على إرلند أبداً أن يعرف ما هو الصواب . لأنه منذ أن كنا صغاراً ، فإن أمنا كانت تعتبر أي شيء يقوم به إرلند صواباً ، ويعتبره أبونا خطأ . أجل لا شك أنه حدثك عن أمنا ، حتى أنك تعرفين هذا كله..."

"بقدر ما أتذكر ، فإنه ذكرها مرتين أو ثلاثاً ، قالت كريستين . "و لكني لاحظت جيداً أنه كان يحبها ."

قال غونولف برقة :

"بكل تأكيد لم يكن هناك قط مثل هذا الحب بين أم وابنها . كانت أمي أصغر سناً بكثير من أبي . ثم جرت تلك الواقعة المنحوسة لأختها آشيلد... مات بارد ، عمّنا ، أخو أبونا ، وقيل... أجل ، أجل ، لابدّ أنك تعرفين ذلك ؟ لقد اعتقد أبي بأسوأ الأمور ، وقال ذلك لأمي... وقد رمى إرلند أبانا بسكين ذات مرة ، حين كان مجرد غلام بعد... وقد انقض على رقبة أبيه أكثر من مرة لأجل خاطر أمّنا ، حين كان فتى...

"و حين مرضت أمنا ، ابتعد هو عن إلين أورمسداتر . أصيبت أمنا

بقروح وتقرّحات على جلدها ، وقال أبي إنها مصابة بالجذام . وقد أبعدها عن البيت ، وكان سيجبرها على الإقامة كشخص من العوام في دير للراهبات في القسم المخصص للمرضى* . ولكن إرلند اصطحب أمنا إلى أوسلو... ومن هناك مضيا إلى آشيلد الماهرة في "الحكمة" ، وقد قالت آشيلد وكذلك حكيمة الملك الفرنسية أيضاً أنها ليست مصابة بالجذام . رحّب الملك هاكون بإرلند وطلب إليه أن يجرّب بركة قبر آيريك فالدمارسون المقدس... جدّ الملك لأمه . لقد وجد الكثيرون الشفاء هناك من الأمراض الجلدية .

"انطلق إرلند إلى الدانمارك مع أمنا ، ولكنها توفيت على متن سفينة إلى الجنوب من ستاد . وحين عاد إرلند إلى البيت مع جثمانها ، أجل... عليك أن تتذكري أن أبانا كان قد بلغ من العمر عتيّاً ، وأن إرلند كان ابناً غير بارّ به طوال حياته - حين وصل إرلند إلى نيداروس مع جثمان أمي - كان أبونا في بيتنا في البلدة آنئذ ، ورفض أن يسمح لإرلند بالدخول إلى البيت... قبل أن يتأكد من أن الفتى لم يصب بالعدوى . ركب إرلند حصاناً وانطلق به ، ولم يتوقف حتى وصل إلى المزرعة التي كانت فيها إلين مع ابنها . وبعد ذلك تشبث بها ، رغم كل شيء ، رغم أنه كان هو نفسه متعباً منها . وهكذا حدث أنه جلبها إلى هوسابي وجعلها سيدة على المنزل ، حين أصبح هو نفسه سيداً على المنزل هنا . كانت ذات سطوة عليه ، حتى أنها قالت إنه لو تخلى عنها بعد هذا ، فإنه يستحق أن يموت بالجذام... ولكن حان الوقت الآن لتعتني بك النساء يا كريستين..." ، قال وهو ينظر إلى وجهها الشاب ، الذي أصبح رمادياً ومتخشباً من الرعب والعذاب . ولكنه حين اقترب من الباب ، صاحت به بصوت مرتفع :

* انظر الهامش رقم (١٢) من الجزء الأول من هذه الثلاثية "إكليل العروس"

"لا ، لا ، لا تبتعد عني..."

قال الكاهن ليواسيها : "سينتهي الأمر بسرعة طالما أنك مريضة إلى هذا الحد الآن ."

أمسكت بذراعه بقوة : "ليس الأمر كذلك يا غونولف..." وقد بدا له أنه لم يسبق له أن رأى مثل ذلك الرعب في وجه بشري .

"كريستين... تذكري... عليك أن تتذكري أن هذا ليس أسوأ بالنسبة إليك ممّا هو للنساء الأخريات ."

"أجل . أجل ." ضغطت بوجهها على ذراع الكاهن . "فالآن أعرف أن إلين وطفليها يجب أن يكونوا جالسين في مكاني . فهو قد عاهدها بإيمانه ومعتقده على الزواج قبل أن أصبح أنا عشيقته..."

قال غونولف بهدوء : "أتعرفين ذلك ؟ لم يكن إرلند نفسه يعرف ما يفعله في ذلك الحين . ولكنك تعرفين أنه لم يكن قادراً على الحفاظ على عهده ذاك... فالأسقف لم يمنح موافقته أبداً على زواجهما . لا تحسبي زواجك غير صالح . أنت زوجة إرلند الشرعية..."

"أوه ، لقد رميت بعيداً بكل حق في أن أطأ الأرض قبل فترة طويلة من زواجه مني . وكان الأمر أسوأ ممّا عرفت... أوه ، أتمنى لو متّ ، ولو أن هذا الطفل ما كان ليولد أبداً... لا أجرؤ على رؤية ما أحمله في داخلي..."

"ليسامحك الرب يا كريستين... أنت لا تعرفين ما تتلفظين به! هل تريدين أن يموت طفلك دون أن يولد ودون أن يُعمّد... ؟"

"أجل ، لأنه مهما حدث ، فإن ما أحمله تحت قلبي يجب أن يكون ملكاً للشيطان . لا يمكن إنقاذه . أوه ، لو أني شربت فحسب الشراب الذي

عرضته عليّ إلين... لربما كان في ذلك بعض التكفير عن كل الذنوب التي ارتكبناها إرلند وأنا... ولم يكن هذا الطفل ليولد أبداً... أوه يا غونولف ، طوال هذا الوقت كنت أعرف ذلك... أنه حين سأرى الشيء الذي غذيته في داخلي ، عندها سأعرف تماماً أنه كان الأجدر بي أن أشرب شراب الجذام الذي عرضته عليّ ، لا أن أدفعها إلى الموت ، تلك التي ربط إرلند نفسه إليها بعهد..."

قال الكاهن : "يا كريستين ، أنت تتكلمين عمّا لا تعرفين . لم يكن أنت من دفع تلك المرأة التعيسة إلى حتفها . لم يكن إرلند قادراً على الحفاظ على عهده الذي منحها إياه حين كان غرّاً ولا يعرف إلاّ القليل عن القانون أو الحق . ما كان يمكنه أبداً أن يعيش معها إلاّ تحت ظل الخطيئة . وهي تركت نفسها تضل عن الطريق القويم من قبل رجل آخر أيضاً ، وكان إرلند سيسمح لها بالزواج من ذلك الرجل الآخر حين سمع بذلك . لم يكن انتحارها من فعلك أنت..."

"و هل عرفت كيف انتحرت ؟" كانت كريستين يائسة جداً الآن إلى درجة أنها راحت تتحدث بهدوء تام . "كنا في هاوغن معاً ، إرلند وأنا ، وجاءت هي إلى هناك . كان معها قرن ، وأرادت مني أن أشاركها الشراب... كانت قد أحضرته لأجل إرلند ، كما أرى الآن ، ولكنها حين وجدتني هناك معه ، كانت تريدني أن أشرب منه... عرفت أنه كانت هناك خيانة... رأيت أنها لم تشرب أي قطرة هي نفسها حين وضعت شفتيها على القرن... كنت سأشرب عن طيب خاطر... ما كنت مهتمة بأن أعيش أو أموت حين عرفت أنها كانت معه في هوسابي طوال ذلك الوقت . ثم دخل إرلند... هدّدها بخنجره ، وذلك ليجعلها تشرب أولاً . توسلت إليه ورجته ، ولكنه لم يطلق

سراحها . ثم ركبني الشيطان... وأخذت القرن... "واحدة منا نحن عشيقتيك..." هكذا قلت له... وقد حثثت إرلند على المتابعة... "لا يمكنك أن تحتفظ بنا كلتينا" ، هذا ما قلته له . وهكذا حدث أنها ذبحت نفسها بخنجر إرلند... ولكن بيورن وآشيلد وجدا خطة لإخفاء حقيقة الأمر..."

"إذن قدمت الخالة آشيلد هذه المشورة!" قال غونولف بحزن . "أفهم الآن أنها قد ضللتك للوصول إلى يدي إرلند..."

قالت كريستين بقوة : "لا . لقد توسلت إلينا الليدي آشيلد... توسلت إلى إرلند وإليّ ، على نحو لم أكن أعرف معه كيف أستطيع مقاومتها... أن علينا أن نتصرّف على نحو مشرّف بقدر ما كان ذلك ممكناً... وأن أركع عند قدمي والدي وأطلب منه السماح عن أخطائنا . ولكني لم أجرؤ على ذلك . تظاهرت بأني كنت أخشى من أن يقتل أبي إرلند... أوه ، رغم أني كنت أعرف جيداً أن أبي ما كان ليؤذي شخصاً سلم نفسه وأمره إليه . تظاهرت بأني كنت أخشى أن أسبّب له حزناً إلى حد أنه لن يرفع معه رأسه عالياً مجدداً . أوه ، ولكني أثبتّ منذ ذلك الحين ، أني لا أخشى من أن أسبب الحزن لأبي... لا تستطيع أن تصدق يا غونولف ، كم أن أبي إنسان طيب... لا أحد يستطيع أن يعرف إلا إذا كان يعرف أبي ، وكم كان طيباً معي طوال حياتي . لقد أحبّني أبي كثيراً ودائماً . لم أستطع أن أتحمل أن يعرف أبي أني تصرفت على هذا النحو المخزي ، وأنه بينما كان هو يظنني جالسة بين الراهبات في أوسلو ، وأتعلم كل ما هو صالح وصادق... أجل... لقد كنت أرتدي ملابس المبتدئات من الراهبات حين كنت أنام مع إرلند في الحظائر والعليّات في المدينة..."

رفعت نظرها إلى غونولف . كان وجهه ممتقعاً وقاسياً كالصخر .

"أترى الآن سبب خوفي ؟ هي التي احتضنته حين وصل ملوثاً بالجذام..."

سألها الكاهن بصوت هادئ : "أما كنت لتفعلي مثل ذلك ؟"

"أجل ، أجل ، أجل ." طار ظلّ من ابتسامة مجنونة من الأيام الماضية فوق وجه المرأة المنهكة .

قال غونولف : "و لكن إرلند لم يكن ملوثاً . لم يعتقد سوى أبي بأن أمي ماتت بالجذام ."

"و لكني مجذومة لا شك في نظر الرب" ، قالت كريستين . وضعت وجهها على ذراع الكاهن التي كانت تتشبث بها . "أنا الآن ملطخة بكل الخطايا..."

قال الكاهن برقة وهو يضع يده الأخرى على قبعتها الكتانية : "يا أختي ، لا يمكنك أن تكوني خاطئة إلى ذلك الحد ، أنت أيتها الشابة الصغيرة ، لدرجة أنك قد نسيت أن الرب الذي يستطيع بكل تأكيد أن يطهّر اللحم من الجذام ، يستطيع بكل تأكيد أن يطهّر روحك من الخطيئة..."

"أوه ، لا أعرف" ، بكت ووجهها لا زال مدفوناً في ذراعه . "لا أعرف... وأنا لست نادمة على ذلك أيضاً ، يا غونولف . أنا خائفة ، ومع ذلك... فقد كنت خائفة حين وقفت أمام باب الكنيسة مع إرلند وقام الكاهن بتزويجنا... وكنت خائفة حين ذهبت معه إلى قداس العروس... وعلى شعري المسدل تاج ذهبي ، فأنا لم أكن أجرؤ على التحدث عن عاري إلى أبي...و كل خطاياي لم يتم التكفير عنها ، أجل ، لم أجرؤ على الاعتراف بالحقيقة إلى كاهن أبرشيتي . ولكن حين جئت إلى هوسابي هنا في الشتاء ، ووجدت نفسي أصبح أكثر دنساً مع كل يوم يمرّ... عندها أصبحت أشد خوفاً ، لأن إرلند لم

يعد يعاملني كما كان يفعل في السابق... وفكرت في ذلك الزمن الذي كان يأتي لزيارتي في سريري في سكوغ ليلاً..."

"كريستين..." . حاول الكاهن أن يرفع وجهها . "لا يمكن التفكير في مثل هذه الأمور الآن! فكري فقط في أن الرب يرى أساك وتوبتك الآن . التفتي بفكرك إلى العذراء الرؤوم مريم التي تكنّ العطف لكل من هم حزانى..."

"و لكن ألم تفهم ؟... لقد دفعت بامرأة أخرى إلى الانتحار..."

"كريستين" ، قال الكاهن بحزم . "أتظنين من خلال غرورك الشرير أن خطيئتك تلك كبيرة إلى حد أن رحمة الله ليست أكبر منها ؟"

ثم ربت وربت على قبعتها الكتانية .

"ألا تعرفين يا أختي حكاية الشيطان حين أراد أن يغوي القديس مارتين ؟ أ لم يسأل الشيطان إن كان القديس مارتين يجرؤ على تصديق وعده حين وعد كل الخاطئين الذين اعترفوا له وأحلّهم من خطاياهم ؟ ولكن الأسقف أجاب : «أتجرأ أن أعدك أنت أيضا بغفران الرب» ، في الساعة التي تتوسلين فيها مثل هذا الغفران... هذا إذا ما رميت بغرورك جانباً وآمنت بأن محبة الرب أكبر من حقدك..."

وقف غونولف قليلاً ، وهو لا يزال يربت على رأس المرأة الباكية . وقد فكر في تلك الأثناء – وفمه شاحب الشفتين ومزموم بشدة – هل عامل إرلند هذه العروس الشابة على هذه الشاكلة!

كانت أودفينا أنونسداتر أول امرأة تصل إلى المنزل . وجدت المرأة التي على وشك الولادة في القاعة الصغيرة . كان غونولف جالساً إلى القرب منها واثنتان من الخادمات منهمكتان في العمل ضمن الغرفة .

حيّت أودفينا الكاهن بإجلال ، ولكن كريستين نهضت ومضت إليها بيد ممدودة :

"شكراً يا أودفينا على قدومك... أعرف أنه ليس أمراً سهلاً على ذويك في البيت أن يستغنوا عنك... ؟"

نظر غونولف بدقة إلى المرأة . والآن نهض هو أيضاً :

"كان أمراً رائعاً منك أن تحضري بهذه السرعة . هناك حاجة إلى أن يكون مع زوجة أخي شخص تستطيع الوثوق فيه... إنها غريبة في هذا الريف ، شابة وغريبة..."

همست أودفينا : "يا للمسيح ، إنها بيضاء من شدة شحوبها كقبعتها الكتانية! أتظن ياسيدي أن عليّ أن أسقيها قليلاً من الشراب المنوّم ؟... أظن أن عليها أن تنال بعض الراحة قبل أن يشتد المخاض عليها ."

بدأت تحضر الشراب بانهماك إنما بهدوء . تحسست المضجع الذي حضرته الخادمتان على الأرض وأمرتهما أن تحضرا المزيد من الوسائد والقش . ثم وضعت وعائين حجريين صغيرين فيهما بعض الأعشاب على النار . بعد ذلك راحت تفك الأحزمة والعقد في ثوب كريستين ، وسحبت أخيراً كل الدبابيس من شعر المرأة المريضة .

قالت حين تدفق الطوفان من الخصل الذهبية البنية الحريرية حول الوجه الأبيض الشاحب : "لم يسبق لي أن رأيت أجمل من هذا الشعر ." لم تستطع مغالبة الضحك قليلاً . "لا أظن أنه فقد شيئاً من قوته أو لمعانه ، حتى لو أنك تركته مكشوفاً فترة أطول قليلاً ممّا كان واجباً..."

جعلت كريستين تضطجع برقة بين الوسائد على الأرض وغطتها جيداً بالبسط .

"اشربي هذا الآن . لن تشعري أن الآلام شديدة جداً . وحاولي النوم قليلاً بين النوبة والأخرى .

كان قد حان الوقت لذهاب غونولف . اقترب من كريستين وانحنى فوقها .

"ستصلي من أجلي يا غونولف" ، طلبت إليه متوسلة .

"سأصلي لأجلك حتى أرى طفلك على ذراعك... وبعد ذلك أيضاً" ، قال ، ثم وضع يدها مجدداً تحت الغطاء .

اضطجعت كريستين ونامت . أحست أنها بخير تقريباً . كانت الآلام الثاقبة عبر خاصرتها تأتي وتذهب ثم تأتي ثانية... ولكنها كانت مختلفة عمّا كانت تحس به سابقاً ، وفي كل مرة كان يزول فيها الألم كانت تتساءل إن لم يكن ذاك كله يجري في خيالها تقريباً . وبعد العذاب والرعب اللذين عانت منهما في ساعات الصباح الأولى أحست كأنها قد تجاوزت بسعادة أسوأ المخاوف والآلام . كانت أودفينا تتحرك برقة وتعلق ملابس الوليد ، حتى أن رائحة عطرة راحت تتسلل إلى الغرفة . وأخيراً راحت كريستين تنام بنصف إغفاءة بين نوبات الألم وتحلم أنها في بيت ذويها في غرفة تخمير الجعة في يورونداغارد ، وأنها كانت تساعد أمها في صباغة شبكة كبيرة من القماش . لا شك أن هذا بسبب البخار المتصاعد من قدر لحاء الدردار والقرّاص .

ثم وصلت القابلات من السيدات (من رتبة ليدي) الواحدة في إثر الأخرى... سيدات من ضيع أبرشيتهم ومن بيرغسي . انسحبت أودفينا لتنضم إلى الخادمات . ومع دنو المساء ، أحست كريستين بأن آلامها بدأت تتعاظم . قالت السيدات إن عليها أن تتمشى في أنحاء الغرفة طالما كانت

قادرة على القيام بذلك . كان ذلك عذاباً لها...فقد كانت الغرفة مليئة بالنساء إلى حد الاختناق الآن ، وكان عليها أن تخطو كمهرة معروضة للبيع . وبين النوبات أيضاً ، كان عليها أن تدع النساء الغريبات يضغطن ويتحسسن جسمها بأيديهن . ثم كن يتحادثن معاً . فإن الليدي غونا أوف راسفولد ، التي كانت قيّمة على كل الأمور في الغرفة ، قالت إن الوقت قد حان لتضطجع على الأرض . قسمت الليدي النساء إلى فئتين ، واحدة تنام بينما تستيقظ الأخرى وتراقب : "أجل ، لن يمرّ الأمر بسرعة... ولكن يا كريستين اصرخي حين تشعرين بألم شديد... لا تأبهي بالنائمات . نحن كلنا هنا لأمر واحد فحسب هو مساعدتك يا طفلتي المسكينة!" هذا ما قالته بلطف وحنان وهي تربت على خد الفتاة .

و لكن كريستين بقيت مضطجعة وهي تعض شفتيها وتعصر حواف الغطاء بيديها المتعرقتين . كان الجو حاراً على نحو خانق... ولكنهن قلن إنه يجب أن يكون كذلك . وبعد كل نوبة ألم ، كان العرق يتصبب منها .

بين النوبات كانت تفكر بإطعام كل هؤلاء النسوة . كانت راغبة جداً في أن يروا أن منزلها كان في حالة جيدة من النظام . وكانت قد أمرت توربيورغ الطباخة ، بأن تصب المخيض في الماء الذي سيغلى فيه السمك الطازج . لو أن غونولف لن يعتبر هذا فحسب انتهاكاً للصوم . فقد كان السيرا آيريك قد قال إنه ليس انتهاكاً ، فالمخيض ليس نوعاً من الأغذية اللبنية ، كما أن مرق السمك كان يُرمى به بعيداً . أما السمك المجفف الذي أحضره إرلند إلى المنزل في الخريف الماضي فلا يجب لمسه بأي حال... فهو فاسد ومليء بالديدان .

يا مريم ، يا مريمي المباركة... هل سيطول الأمر ، كما تعتقدين ، قبل أن تساعديني ؟... أوه... الآن الألم قاس ، قاس جداً... قاس جداً...

عليها أن تحاول الصمود لفترة أطول قليلاً الآن ، قبل أن تستلم وتصرخ...

كانت أودفينا جالسة عند الموقد ، وهي تراقب أوعية الماء الحار . تمنت كريستين لو أنها تجرؤ على مناداتها لتأتي إليها وتمسك بيدها . لم تكن تعرف ما هي مستعدة الآن للتخلي عنه مقابل أن تمسكها يد ودودة تعرفها من قبل . ولكنها خجلت أن تطلب ذلك...

خلال فترة ما قبل الظهر التالية كان هناك نوع من الهدوء المضطرب قابعاً فوق هوسابي . كانت تلك هي عشيّة قداس مريم ، وكان يتوجب أن تكون كل الأعمال قد أُنجزت مع صلاة العصر . ولكن الرجال كانوا مذهولين وحزينين ، بينما الخادمات الخائفات يندفعن في الأعمال المنزلية بإهمال . كان خدم المنزل يحبون سيدتهم الشابة ، ولم يكن مخاضها سهلاً كما قيل .

وقف إرلند خارجاً في الساحة يحادث حدّاده . حاول أن يبقي أفكاره مركزة على ما كان الرجل يقوله . ثم اقتربت منه الليدي غونّا مسرعة :

"لا نستطيع تدبر أمر زوجتك يا إرلند... بعد أن جرّبنا كل الوسائل . عليك أن تأتي... وربما سيكون الأمر أسهل لو وُضعت هي في حضنك . ادخل وارتد معطفاً قصيراً ، ولكن أسرع . إنها منهكة جداً تلك الشابة المسكينة ."

تضرج وجه إرلند . تذكر ما كان قد سمعه ، من أن المرأة التي تعسّر مخاضها وكانت قد حبلت سراً ، فإنها لو وضعت على ركبة الأب فقد يسهل ذلك الأمر عليها .

كانت كريستين مضطجعة على الأرض تحت بعض البطانيات بينما تجلس امرأتان إلى القرب منها . وحين دخل إرلند ، رأى أنها انكمشت

ودفنت رأسها في حجر إحدى المرأتين وراحت تدوره هنا وهناك... ولكن لم يصدر أي صوت أنين عنها .

حين انتهت نوبة الألم ، رفعت بصرها بعينين مجنونتين فزعتين . كانت شفتاها البنيتان المشققتان فاغرتين . كان كل أثر للشباب والجمال قد غادر الوجه المتورم الأحمر الملتهب... حتى شعرها كان قد أصبح متشابكاً وقد تحول إلى كومة قذرة علقت فيها قطع من القش والصوف من جلود الخراف . نظرت إلى إرلند كأنها لم تعرفه أولاً . ولكنها حين فهمت لماذا أرسلت النساء في طلبه ، هزّت رأسها بقوة :

"ليس من عادتنا في ناحيتنا... أن يحضر الرجال مخاض النساء..."

قال إرلند برقة : "تُمارس هذه العادة هنا شمال دوفر إن كان من شأنها أن تخفّف من آلامك قليلاً يا كريستيني . عليك قبول ذلك ."

"أوه...!" وحين ركع إلى جانبها ، رمت بذراعيها من حول خصره وضمته بقوة . ناضلت ضد نوبة الألم دون صرخة واحدة وقد جثمت مرتجفة .

قالت بسرعة لاهثة الأنفاس بعد أن مرت نوبة الألم : "هل يمكنني أن أقول كلمتين لزوجي على انفراد ؟" انسحبت النسوة إلى الخلف .

"هل عاهدتها وهي في المخاض... لقد قالت إنك وعدتها بالزواج حين تصبح أرملة... في تلك الليلة التي ولد فيها أورم ؟" همست كريستين .

لهث إرلند وكأنما تلقى ضربة فوق القلب . ثم هزّ رأسه بقوة :

"كنت في القلعة في تلك الليلة... كان فصيلي مكلفاً بالحراسة . حدث ذلك حين عدت إلى مكان سكننا في الصباح ووضعوا الصبي بين ذراعيّ... هل كنت تضطجعين هنا وتفكرين بهذا يا كريستين ؟"

"أجل..." ومن جديد تشبثت به ، بينما راحت موجة من الألم تجتاحها . جفّف إرلند العرق الذي كان يتصبّب فوق وجهها .

سألها حين هدأت مجدداً : " والآن بعد أن عرفت هذا ، ألا تريدين أن أتصرف معك كما تقول الليدي غونا ؟"

إلاّ أن كريستين هزت رأسها مجدداً . وأخيراً اضطرت النساء إلى ترك إرلند يرحل .

و لكن بهذا بدا وكأن قدرتها على الصمود قد تحطمت . صرخت عالياً في رعب مجنون من الآلام التي كانت تشعر بها قادمة ، وناحت مصليّة تطلب النجدة . ومع ذلك حين تحدثت النساء عن إدخال الزوج مجدداً ، صرخت : لا... فهي تفضل بالأحرى أن تُعذّب حتى الموت...

•

ذهب غونولف ورجل الدين الذي كان معه إلى الكنيسة لإقامة صلاة المساء . وقد حضر كل شخص موجود في الضيعة ولم يكن مع المرأة التي في المخاض معهما إلى الكنيسة . ولكن تسلّل إرلند خارجاً من الكنيسة قبل نهاية الصلاة ، واتجه جنوباً نحو المنازل .

في الغرب فوق قمم الجبال على الجانب الأبعد من "ديل" ، كانت السماء حمراء مصفرّة... كان الغسق قد بدأ يهبط في المساء الربيعي اللطيف . كانت النجوم تظهر هنا وهناك ، بيضاء في السماء ذات اللون الفاتح . وكان سديم رقيق ينجرف فوق الغابة عند البحيرة في الأسفل... كانت هناك بقع عارية حيث كانت الحقول تواجه الشمس ، وكانت رائحة العفونة والثلج الذائب في الجو .

كانت القاعة الصغيرة تقع في أقصى الغرب من المنازل ، خارجاً إلى حيث تهبط الأرض إلى الوادي . مضى إرلند إليها ووقف بعض الوقت خلف جدارها . كانت الأخشاب لا تزال دافئة من الشمس ، حين اتكأ عليها . أوه ، يا لصرخاتها...! لقد سمع ذات مرة صوت عجلة صغيرة وقعت في قبضة دب... كان ذلك هناك في الأعلى عند سايترهم ، حين كان فتى غراً بعد . كان هو وراعي البقر آربيورن قد ركضا جنوباً عبر الغابات . تذكر الكتلة الشعثاء التي انتصبت وتحولت إلى دب ذي فم حار أحمر فاغر . تحطم رمح آربيورن بين مخالب الدب... ثم اختطف رمح إرلند منه ، فقد كان واقفاً وقد شلّه الخوف . وكانت العجلة الصغيرة ممددة هناك وهي ما زالت حية رغم أن ضرعها وفخذيها كانا قد التُهما...

يا كريستيني... أوه يا كريستيني...! أيها الرب . لأجل أمك المباركة ، الرحمة...

عاد هارباً إلى الكنيسة .

●

دخلت الخادمات إلى القاعة حاملات العشاء... لم تكن المائدة قد جُهّزت ، ولكنهن وضعن الطعام عند الموقد . أخذ الرجال الخبز والسمك لتناولهما فوق المقاعد ، وجلسوا صامتين في أماكنهم . أكلوا قليلاً ، ولكن لم يبد على أي منهم أن له شهية للطعام . لم يحضر أحد لأخذ الأطباق بعد الوجبة ، ولم ينهض أحد من الرجال ليذهب إلى النوم . جلسوا ، يحدقون إلى نار الموقد ، دون أن يتبادلوا أطراف الحديث .

كان إرلند قد أخفى نفسه في الزاوية عند السرير... لم يستطع أن يتحمل أن يرى أحد وجهه .

كان الماستر غونولف قد أوقد مصباحاً يدوياً ووضعه على ذراع الكرسي العالي . جلس على المقعد تحته وكتاب بين يديه... وقد جلس هناك وشفته تتحرك دون صوت ودون توقف .

نهض أولف هالدورسون ومضى نحو الموقد وأخذ شريحة من الخبز الطري ، ثم بحث قليلاً بين قضبان الحطب والتقط واحداً منها . ذهب إلى زاوية قرب الباب ، حيث كان "آن" العجوز جالساً . شغل الاثنان نفسيهما بالخبز ، وهما مختبئان خلف عباءة أولف ، وقام آن بقصّ وحفر العصا . كان الرجال الآخرون يرنون إليهما بين الحين والآخر . في هذه الأثناء نهض أولف وآن وغادرا القاعة .

تابعهما غونولف بنظره ، دون أن يقول شيئاً . ثم تابع صلواته .

سقط أحد الفتيان عن المقعد حيث كان نائماً وتدحرج على الأرض . نهض ونظر حوله في حيرة . ثم تنهّد قليلاً وجلس مجدداً على المقعد .

دخل أولف هالدورسون وآن مجدداً بهدوء وذهبا إلى مكانيهما حيث كانا جالسين من قبل . نظر إليهما الرجال ، ولكن لم يقل أحد شيئاً .

و فجأة قفز إرلند . عبر القاعة نحو جماعته . كان وجهه رمادياً كالطين وعيناه مجوفتين .

قال : "أليس بينكم من يعرف طريقة ما ؟" همس : "أنت يا آن ؟"

همس أولف : "لم تنفع" .

قال آن : "أعتقد أنه مقدّر عليها ألا تنجب هذا الطفل" ، وذلك وهو يفرك أنفه . "لذلك لن تفيد الرقى ولا النذور . من المؤلم لك يا إرلند أن تخسر مثل هذه الزوجة الشابة على هذا النحو السريع ."

قال إرلند محطماً يائساً : "أوه ، لا تتحدث عنها كأنه سبق لها وماتت ." عاد إلى زاويته ورمى بنفسه أرضاً ورأسه عند نهاية السرير .

خرج رجل ثم عاد ودخل مجدداً . قال : "لقد بزغ القمر . سرعان ما سيحلّ الصباح" .

•

بعد فترة قصيرة ، دخلت الليدي غونا إلى القاعة . انهارت عند مقعد الشحاذين عند الباب... كان شعرها الأشيب بارزاً من كل الجوانب . كان غطاء رأسها قد انزلق إلى كتفيها .

نهض الرجال... واقتربوا منها ببطء .

قالت باكية : "على أحدكم أن يدخل إلى هنا ويمسك بها . لم نعد نقدر على ذلك . عليك أن تذهب إليها يا غونولف... لا أحد يعلم كيف سينتهي الأمر..."

نهض غونولف وأقحم كتاب الصلوات في الجيب الذي عند حزامه .

قالت الليدي : "عليك أن تأتي أيضاً يا إرلند" .

•

قابله البكاء القاسي الأبحّ عند الباب... توقف إرلند مرتجفاً . لمح وجه كريستين المشوه الذي لا سبيل إلى معرفته في وسط مجموعة من النساء الباكيات... كانت على ركبتيها ، وكنّ يمسكن بها .

قرب الباب كانت بعض الخادمات قد رمين بأنفسهنّ أرضاً ووجوههن مخفية في المقاعد . كنّ يصلين بصوت مرتفع ودون توقف . رمى بنفسه أرضاً إلى القرب منهنّ وأخفى وجهه بين ذراعيه . كانت الصرخات تتوالى منها ، وفي كل مرة كان يبدو له أن وخزة ثلجية من رعب لا يصدّق كانت تخترق جسده . لا يمكن أن يكون...

ثم تجرأ ونظر باتجاهها . كان غونولف جالساً الآن أمامها فوق كرسي واطئ ، ممسكاً بها من تحت ذراعيها . كانت الليدي غونا تركع إلى جوارها وتضع ذراعيها حول خصر كريستين ، ولكن كريستين كانت تناضل ، في رعب مميت ، لتبعد المرأة الأخرى عنها .

"أوه كلا... أوه ، كلا... اتركيني... لا أستطيع الاحتمال... ساعدني يا ربي يا ربي..."

كان الكاهن يقول في كل مرة : "سيساعدك الرب الآن يا كريستين ." كانت هناك امرأة واقفة عن قرب وهي تحمل وعاء من الماء ، وبعد كل نوبة ألم كانت تأخذ قطعة قماش مبللة وتمسح وجه المرأة المتألمة... العرق الذي كان ينزّ من جذور شعرها والزبد الذي كان يخرج من بين شفتيها .

ثم سقط رأسها إلى الأمام بين ذراعي غونولف ، ونامت للحظة... ولكن العذابات أخرجتها من نومها مجدداً وعلى الفور . وتابع الكاهن القول :

"الآن يا كريستين... سرعان ما سيأتيك العون..."

ما عاد أحد يفكر بالزمن . ولكن عبر فتحة الدخان كان الفجر قد بدأ يبتسم بلون رمادي .

ثم ، وبعد صرخة جنونية من الألم ، حلّ هدوء مفاجئ مطلق . سمع

إرلند النساء يعملن بنشاط واهتياج... كان يودّ أن يرفع عينيه ليرى ، ولكنه سمع شخصاً يبكي بصوت مرتفع ، فانكمش على نفسه مجدداً... لم يجرؤ على أن يعرف...

ثم صرخت كريستين مجدداً... كانت صرخة مجنونة زاعقة نادبة ، لا تشبه الصرخات الحيوانية اللاإنسانية التي صدرت من قبل . أجفل إرلند .

وقف غونولف وقد أحنى جسده ، ممسكاً بكريستين التي كانت لا تزال راكعة . كانت تنظر في رعب مميت إلى شيء ما كانت الليدي غونا تحمله في جلد خروف... كتلة فجة ذات لون أحمر داكن ، لا تشبه سوى أحشاء حيوان ذبيح .

شدّها الكاهن إليه :

"يا كريستيني... لقد أنجبت ابناً سليماً وجميلاً يستحق أن تشكر الرب عليه أي أم تلده... وهو يتنفس! " قال بقوة للمرأة الباكية . "إنه يتنفس... لن يكون الرب قاسياً إلى حد لا يصغي فيه إلينا..."

و حتى خلال كلام الكاهن مرّت الصورة بذهنها . عبر رأس الأم المنهكة المنذهلة لمعت رؤيا لبرعم رأته ذات مرة في حديقة الدير... شيء ما انبثقت منه بتلات حريرية حمراء متغضنة... ثم بسطت نفسها في شكل زهرة .

تركت كتلة اللحم التي لا شكل لها... وصلت منها أصوات... تمطمطت وتحولت إلى طفل بلون النبيذ الأحمر صغير تماماً له شبه بالإنسان... كانت له ذراعان وساقان ويدان وقدمان ، مع أصابع يدين وقدمين كاملتي الشكل... كان يتحرك ويتنفس قليلاً...

صرخت عالياً بصوت أبح ضعيف : "إنه صغير جداً ، صغير جداً ، صغير

جداً..." ، وهي دون حول بين ضحك وبكاء . انفجرت النساء من حولها ضاحكات وجففن لها دموعها ، وسلمها غونولف إلى أذرعتهن .

قال الكاهن : "فليوضع في حوض حتى يزعق على نحو أفضل" ، وهو يلحق بالنساء اللواتي حملن الوليد بعيداً نحو الموقد .

●

حين أفاقت كريستين من إغمائها الطويل ، كانت متمددة في سريرها . كانت إحداهن قد خلعت عنها ملابسها الكريهة التي تشربت بالعرق وكان إحساس مبارك بالدفء والإبلال يتسلّل إلى جسدها... كانت أكياسٌ صغيرة من عصيدة القرّاص قد وضعت عليها وقد لفّت جسدها بالبطانيات وقطع الفرو التي سبق تسخينها .

طلبت إليها إحداهن السكوت حين حاولت النطق . كان هناك هدوء كبير في الغرفة . وعبر الهدوء وصل إليها صوت لم تستطع إلاّ بالكاد تذكره :

"... نيكولاوس ، باسم الأب والابن والروح القدس..."

كان هناك صوت سيلان ماء .

نهضت كريستين قليلاً على مرفقها ونظرت . هناك عند الموقد وقف كاهن في ملابس بيضاء ، ورفع أولف هالدورسون طفلاً عارياً باسطاً ذراعيه وقدميه من القدر النحاسي ، وقدّمه إلى العرّابة ، ثم أخذ منها الشمعة المتقدة .

لقد أنجبت طفلها... كان هو ذاك الذي يزعق الآن حتى ليغطي زعيقه

كلمات الكاهن . ولكنها كانت متعبة جداً... ما كانت لتهتم إلاّ قليلاً ، ولم ترغب سوى في النوم...

ثم سمعت صوت إرلند ، قائلاً بسرعة وخوف :

"رأسه ، رأسه غريب جداً ."

قالت امرأة بهدوء : "إنه متورم . لا شيء غريب في هذا... كان عليه أن يناضل بقوة ، هذا الصبي ، لأجل حياته ."

صرخت كريستين بشيء ما . كأنما استيقظت مباشرة في لبّ قلبها... هذا كان ابنها ، وقد ناضل لأجل حياته كما فعلت هي .

التفت غونولف بسرعة ، ضاحكاً... ثم التقط الرزمة الصغيرة من الأقمطة من حضن الليدي غونا وحملها إلى السرير . وضع السرير بين ذراعي أمه . فركت وجهها على اللحم الصغير من الوجه الأحمر الناعم كالحرير ضمن الملابس القطنية وقد أشعرها الحنان والمتعة بالغثيان .

وقعت عينيها على إرلند . عرفت أنها رأته مرة من قبل بوجه رمادي منهك كهذا... لا تتذكر متى ، فقد كانت تحس إحساساً غريباً وكان في رأسها دوار... ولكنها عرفت أنه لأمر جيد أنها لا تحتاج إلى أن تتذكر . وكان أمراً حسناً أن تراه يقف هكذا قرب أخيه... وكان الكاهن قد وضع يداً فوق كتفه . هبط إحساس بسلام وطمأنينة لا حدود لهما فوقها ، وهي تنظر إلى الرجل طويل القامة في الثوب الكهنوتي والبطرشيل . كان الوجه المستدير النحيل تحت الحلقة السوداء من الشعر قوياً جداً ، ولكن ابتسامته كانت جميلة ولطيفة .

أقحم إرلند خنجره عميقاً في عمود الجدار الخشبي خلف الأم والطفل .

قال الكاهن ضاحكاً : "لا حاجة إلى ذلك الآن طالما أن الصبي قد عُمّد ."

راحت كريستين تفكر على نحو ما بما قاله لها ذات مرة الأخ إدفين . قال إن الطفل المعمّد حديثاً مقدس بمقدار الملائكة في السماء . إنه مغسول تماماً من أخطاء والديه وهو لم يرتكب أي خطيئة بعد . وبخجل وحذر قبّلت الوجه الصغير .

اقتربت منهما الليدي غونا . كانت منهكة ومتعبة ، وغاضبة من الأب الذي لم ينتبه إلى أن عليه أن يتلفظ بكلمة شكر للسيدات اللواتي قدمن يد المساعدة . وقد أخذ الكاهن الطفل منها وحمله إلى أمه... كان عليها هي أن تفعل ذلك ، فهي التي ولّدت المرأة ، وعلاوة على ذلك ، فقد كانت عرّابة الصبي .

قالت بغضب : "لم تقم حتى الآن بتحية ابنك يا إرلند ولا حملته بين ذراعيك ."

رفع إرلند الطفل من بين ذراعي أمه ، وغمره بوجهه للحظة .

"أشك في أني سأحبك من كل قلبي يا «ناكفه» قبل أن أنسى أنك عذبت أمك على ذلك النحو شديد القسوة" ، قال هذا ووضع الطفل مجدداً قرب أمه .

قالت السيدة العجوز بغضب : "أجل ، ضع اللوم عليه في ذلك . ضحك الماستر غونولف ثم ضحكت الليدي غونا أيضاً . كانت ستأخذ الطفل وتضعه في المهد ، ولكن كريستين رجتها بقوة أن تبقيه معها لفترة أطول . وسرعان ما نامت وابنها إلى القرب منها... وقد عرفت على نحو غير جليّ أن إرلند لمسها ، بحذر ، وكأنه يخشى أن يؤذيها من لمسة واحدة ، ثم نامت مجدداً .

٥

في اليوم العاشر بعد ولادة الطفل ، قال الماستر غونولف لأخيه حين كانا لوحدهما في القاعة صباحاً :

"أعتقد أن الوقت قد حان الآن يا إرلند لترسل الأنباء إلى أسرة زوجتك لتخبرها بما جرى ."

أجاب إرلند : "لا أرى داعياً لمثل هذه السرعة . لن يكونوا شديدي السرور في يوروندغارد حين سيسمعون أنه قد سبق وأصبح لدينا صبي في المنزل" .

قال غونولف : "هل تستطيع أن تصدق أن أم كريستين لم تكن تعرف في الخريف بأن ابنتها كانت متوعكة ؟ وأنها إن كانت تعرف فلا بدّ أنها تعاني من الخوف الآن ؟"

لم يجب إرلند .

و لكن بعد وقت قصير من ذلك ، وحين كان غونولف جالساً في القاعة الصغيرة ، دخل إرلند . كان يرتدي قبعة من الجلد ومعطفاً خارجياً قصيراً وسميكاً من النسيج الصوفي الخشن ، وبنطالاً طويلاً وجزمة متينة . انحنى فوق زوجته وربت على خدّها :

"قولي لي يا كريستين... هل تريدين مني أن أحمل أي تحيات منك إلى يوروندغارد ؟... فأنا متجه جنوباً الآن لأنبئهم بنبأ ابننا ."

تضرج وجه كريستين بشدة... بدت خائفة وسعيدة معاً .

قال إرلند بجدية : "هذا لا يزيد عمّا يحق لأبيك أن يطلبه مني ، أي أن أحمل بنفسي هذه الأنباء ."

بقيت كريستين صامتة لفترة .

قالت برقة : "قل لهم في البيت أني كنت أتوق كل يوم ، منذ أن غادرت بيتي ، إلى أن أنحني على قدمي أبي وأمي وأتوسل إليهما أن يغفرا لي ."

و سرعان ما غادرها إرلند . لم تفكر كريستين في سؤاله عن طريقة سفره . ولكن غونولف خرج مع أخيه إلى الساحة . خارج باب القاعة كانت أدوات تزلج إرلند وعصاه ذات الرأس الرمحي .

قال غونولف : "هل ستتزلج إلى هناك ؟ من سيذهب معك ؟"

قال إرلند ضاحكاً : "لا أحد . عليك أن تعرف ذلك أفضل من الجميع يا غونولف ، أنه ليس بالأمر السهل على أي شخص أن يتحمل التزلج بصحبتي ."

قال الكاهن : "أعتقد أن في هذا حماقة وطيشاً . هناك الكثير من الذئاب في غابات هويلاند في هذا العام ، كما يقولون..."

ضحك إرلند فحسب وبدأ يثبت أدوات التزلج .

"سأكون قد صعدت إلى سايترات غييتسكار ، على ما أعتقد ، قبل

حلول الظلام... سبق للنهار وأصبح طويلاً . في مساء اليوم الثالث سأكون في يوروندغارد..."

"ليس مستحسناً المتابعة من غييتسكار على الطريق المألوفة... كما أن هناك جيوباً ضبابية سيئة عليك المرور عبرها . كما أنك تعرف أن هذه السايترات أماكن مشؤومة في فصل الشتاء ."

قال الآخر وهو لا يزال يضحك : "إذن فلتعطني حجر الصوان والفولاذ خاصتك ، هذا إذا كنت سأسقط خاصتي صدفة... على امرأة جنية لو طلبت هذه مني مجاملة لا تلائم شخصاً متزوجاً . هيا يا أخي ، ألا ترى أني أنفذ أوامرك... أنا ذاهب إلى والد كريستين لأرجوه أن يطالبني بأي ترضية يراها عادلة وملائمة... أما طريقة سفري فعليك أن تتركها لي ."

وبهذه الكلمات اضطر الماستر غونولف إلى أن يكون راضياً . ولكنه حذّر من في المنزل بصرامة أن عليهم ألاّ يبلّغوا كريستين بأن إرلند قد غادر وحيداً .

•

كانت السماء الجنوبية تمتد بلون أصفر شاحب فوق اللون الأزرق الداكن لحقول الثلج الجبلية ، وذلك في المساء الذي اندفع فيه إرلند عبر ساحة كنيسة "سيل" ، والقشرة الثلجية تتحطم وتهسهس تحت مزلجته . في الأعلى كان الهلال يسير وقد التمع بلون أبيض ضبابي في غسق المساء .

في يوروندغارد كان دخان داكن يلتفّ صاعداً من فتحة الدخان نحو السماء الصافية الشاحبة . سمع رنّة ضربات الفأس المنتظمة والباردة عبر الهدوء .

من البوابة اندفعت مجموعة من كلاب المزرعة وهي تنبح على القادم الجديد . في داخل الساحة كان قطيع من الماعز المشعث يشق طريقه ، داكناً في الغسق الصافي... كانت العنزات تنهش في كومة من أغصان الصنوبر في وسط الساحة . كان ثلاثة أطفال صغار في ملابس شتائية يركضون فيما بينها .

أثر هذا السلام المألوف لهذا المكان على إرلند على نحو غريب . وقف بقلق وانتظر لافرانس ، الذي خرج ليقابل الشخص الغريب... كان واقفاً عند كوخ الحطب يحادث رجلاً كان يصنع أعواداً للسياج . توقف في مكانه حين لاحظ أن القادم كان صهره... وأقحم الرمح الذي كان يحمله بقوة في الثلج .

سأله بصوت خفيض : " أهو أنت ؟ لوحدك... ؟ هل هناك... هل من شيء... ؟ كيف جئت على هذه الشاكلة ؟" أضاف خلال لحظة .

لملم إرلند نفسه ونظر إلى حميّه وجهاً لوجه : "هذا ما جرى . لقد ظننت أن أقل ما أستطيع فعله هو أن أحضر بنفسي لأحمل لكم الأنباء : لقد ولدت كريستين صبياً في يوم قداس مريم صباحاً... أجل ، هي في صحة جيدة الآن" ، أضاف بسرعة .

وقف لافرانس بهدوء لحظة . ضغط أسنانه بشدة على شفته السفلى... اهتزت ذقنه وارتجف قليلاً .

قال أخيراً : "يا لها من أنباء!"

كانت رامبورغ الصغيرة قد وصلت ووقفت قرب أبيها . رفعت نظرها وقد تضرج وجهها .

"اصمتي" ، قال لافرانس بقسوة ، رغم أن الفتاة الصغيرة لم تقل كلمة واحدة ، بل احمرت خجلاً فحسب . "لا تقفي هنا... اذهبي..."

لم يقل المزيد . وقف إرلند منحنياً إلى الأمام ، متكئاً على عصاه التي كان يقبض عليها بيده اليسرى . كان ينظر إلى الثلج . أما يده اليمنى فكانت مقحمة في صدره . أشار لافرانس :

"هل أنت جريح ؟"

قال إرلند : "قليلاً . لقد اصطدمت ببعض الصخور الجرداء في العتمة الليلة الماضية ."

أمسك لافرانس برسغه وتحسسها بحذر : "لا عظام مكسورة على ما أظن . عليك أن تبلّغ أمها بنفسك..." مضى نحو القاعة حين خرجت راغنفريد إلى الساحة . لاحقت زوجها بعينيها في استغراب ، ثم ميّزت إرلند وذهبت نحوه بسرعة .

أصغت دون كلمة واحدة منها ، بينما كان على إرلند للمرة الثانية أن يروي أنباءه . ولكن عينيها اخضلتا بالدموع حين قال في النهاية :

"أعتقد أنك كنت قد لاحظت على الأرجح حالها قبل أن نغادركم في الخريف الماضي... وأنك لابدّ قلقة عليها..."

قالت بصوت مرتجف : "هذا لطف منك يا إرلند ، أن تفكر بهذا . الواقع أني كنت خائفة عليها كل يوم منذ أن أخذتها منّا" .

عاد لافرانس :

"هذا دهن الثعلب... أرى خدّك متجمداً يا صهري . عليك أن تقبع لفترة في الغرفة الخارجية بينما تضمده لك راغنفريد بهذا ويزول التجمّد... كيف حال قدميك ؟... عليك أن تخلع جزمتك حتى نرى..."

•

حين دخلت جماعة البيت للعشاء ، أبلغهم لافرانس بالأنباء ، وطلب إحضار جعة قوية لهم ليحتفلوا . ولكن لم يَسُدْ جوُّ احتفالي خلال تناول الجعة... كان السيد نفسه قد جلس مع كوب ماء . وقد توسل إلى إرلند أن يغفر له ذلك... فقد كان قد أخذ على نفسه عهداً منذ أن كان غلاماً بألاّ يشرب سوى الماء خلال فترة الصوم . وهكذا جلس الناس بجدية نوعاً ما ، وراحوا يتبادلون الحديث بتمهّل وهم يحتسون الجعة . كان الأطفال يقتربون من لافرانس بين الحين والآخر... فكان يحيطهم بذراعه حين يقتربون من ركبته ، ولكنه كان يجيبهم بذهن غائب حين يخاطبونه . وقد ردت رامبورغ باختصار وحدّة حين حاول إرلند أن يداعبها... فقد كانت مصممة على ما يبدو على إظهار عدم محبتها لزوج أختها . كانت في شتائها الثامن الآن ، حيوية وجميلة ، ولكنها لا تشبه أختيها إطلاقاً .

سأل إرلند من يكون الطفلان الآخران . أجاب لافرانس بأن الصبي كان هافارد تروندسون ، أصغر الأولاد في ضيعة سوندبو . كان يشعر بالملل هناك بين الراشدين من أخوته وأخواته . وفي عيد الميلاد الماضي أبدى رغبته لعمته راغنفريد في القدوم معها . أما الفتاة الصغيرة فكانت هلغا رولفسداتر من بلاكارسارف... فما كان ممكناً للأقرباء سوى أن يصطحبوا أطفال (رولف) معهم إلى بيوتهم بعد جنازة (أمهم)... إذ كان أمراً مثيراً للشفقة أن يروا أباهم في تلك الحال التي صار عليها . بالنسبة إلى رامبورغ فقد كانت سعيدة بالحصول على هذا الأخ والأخت بالتربية . قال لافرانس : "بدأنا نشيخ راغنفريد وأنا ، وهذه الصغيرة أكثر مرحاً وحبّاً باللعب ممّا كانت عليه كريستين"... ثم ربت على شعر ابنته المجعّد .

مضى إرلند ليجلس إلى قرب حماته ، فسألته عن نفاس كريستين .

لاحظ أن لافرانس كان يصغي إلى ما يقولانه . ولكنه سرعان ما نهض ، وعبر الغرفة ، وارتدى قبعته وعباءته . كان ينوي الذهاب إلى منزل الكاهن كما قال... وهناك سيطلب من سيرا آيريك القدوم لمشاركتهم الشراب .

•

مضى لافرانس على الممر المطروق جيداً عبر الحقول إلى روموندغارد . كان القمر يغطس وراء الجبال الآن... ولكن آلاف النجوم راحت تومض فوق الجبال البيضاء . كان يأمل أن يكون الكاهن في البيت ، فما عاد يتحمل البقاء وحيداً مع الآخرين .

و لكنه حين وصل إلى ما بين الأسيجة قرب المزرعة ، رأى شمعة صغيرة تقترب منه . كان أودون العجوز يحملها... حين لاحظ وجود شخص ما على طريقه ، رنّ بجرسه الفضي الصغير . ارتمى لافرانس بيورغولفسون على ركبتيه في كومة الثلج قرب الممر .

مرّ أودون حاملاً الشمعة والجرس الذي كان لا يزال يرن بلطف . من خلفه جاء سيرا آيريك على ظهر حصانه . رفع حُقّ القربان المقدس في يديه حين اقترب من الرجل الراكع... ولم ينظر يميناً أو يساراً ، بل مرّ راكباً حصانه بهدوء ، بينما انحنى لافرانس ورفع يديه إلى الأعلى محيّياً (صورة) المخلّص .

... كان ذاك هو ابن آينار هنوفا ، ذاك الرجل الذي كان برفقة الكاهن... إذن كان الرجل العجوز يقترب من نهايته الآن...!

أجل ، أجل ، راح لافرانس يتلو الصلوات على الشخص المحتضر قبل

أن ينهض من الثلج ويعود إلى البيت . ومع ذلك ، فإن هذا اللقاء مع الرب في الليل قد شدّ من عزيمته ومنحه السلوان كثيراً .

•

حين ذهبوا ليرتاحوا ، سأل زوجته :

"ألم تكوني عارفة بهذا... أن الأمر كان على هذا النحو مع كريستين ؟"

سألت راغنفريد :

"أولم تكن أنت عارفاً ؟"

"لا" ، أجاب زوجها باختصار شديد ؛ ففهمت أن هذا الأمر كان يجول في فكره في بعض الأحيان .

"صحيح أني كنت خائفة لفترة خلال الصيف الأخير" ، قالت الأم مترددة . "لقد لاحظت أنها كانت قد فقدت شهيتها للطعام . ولكن مع مرور الوقت ، ظننت أني كنت قد خُدعت بذلك . لقد بدت مرحة طوال الوقت الذي كنا نستعدّ خلاله للزفاف..."

"أجل كان لديها سبب جيد لتكون كذلك" ، قال الأب ببعض التجهّم . "و لكن ألاّ تقول لك شيئاً... أنت أمها..."

"أجل تستطيع أنت أن تتذكر ذلك ، لأنها ارتكبت خطأ الآن" ، أجابت راغنفريد بمرارة . "أنت تعرف جيداً أن كريستين ما كانت قد اعتادت اللجوء إليّ أبداً..."

توقف لافرانس عن الكلام . خلال فترة قصيرة طلب من زوجته أن تنام

جيداً ، ثم اضطجع بهدوء إلى جوارها . شعر أن النوم ما كان سيعرف طريقه إليه قبل مرور فترة طويلة .

كريستين... كريستين... فتاته الصغيرة...

... لم يكن قد تطرق بكلمة واحدة إلى اعتراف راغنفريد له في ليلة الزفاف تلك . ولم تكن هي قادرة على التفكير بأنه قد جعلها تشعر بأنه يفكر في ذلك . لم يكن قد تغيّر في سلوكه معها... بل أنه قد أخذ يبذل جهده لإظهار المزيد من الود والحب . ولكن لم تكن هذه هي المرة الأولى في هذا الشتاء التي يلاحظ فيها هذه المرارة في راغنفريد ، أو يراها تبحث عن إهانة مستترة في كلماته البريئة . لم يفهم هو السبب ولم يعرف علاجاً لذلك ، فكان عليه أن يترك الأمور على حالها .

"أبانا الذي في السماوات"... صلّى لافرانس لأجل كريستين وطفلها . ثم صلى لأجل زوجته ولنفسه . وأخيراً صلّى ليتحلّى بالقوة على تحمل إرلند نيكولاوسون بصبر في الروح ، طالما كان مضطراً لإبقاء صهره في ضيعته .

•

لم يدع لافرانس صهره يغادر إلى موطنه قبل أن يطمئن على رسغه . كما أنه رفض فكرة عودة إرلند وحيداً .

قال إرلند في أحد الأيام : "ستكون كريستين شديدة السرور لو رافقتني إلى هناك" .

صمت لافرانس لفترة . ثم ذكر حججاً وعوائق كثيرة . لن تقبل راغنفريد أن تُترك وحيدة هنا في الضيعة . ولو سافر تلك المسافة البعيدة

شمالاً ، فهو لا يأمل إلاّ بالكاد أن يعود لأجل البذار الربيعي . ولكنه انطلق مع إرلند في النهاية . لم يصطحب معه أحداً... سيعود بالسفينة إلى رامسدال . ثم سيستأجر أحصنة توصله إلى "ديل"... كان لديه معارف في كل مكان على طول الطريق .

•

لم يتبادلا أطراف الحديث كثيراً على الطريق ، ولكنهما سافرا في حال من الوفاق . كان أمراً مجهداً للافرانس أن يواكب إرلند ، فهو ما كان ليرضى أن يعترف بأن الآخر كان سريعاً جداً بالنسبة إليه . إلاّ أن إرلند سرعان ما لاحظ ذلك ، وراح يوائم سرعته مع سرعة حميه . كان يبذل قصارى جهده لإرضاء حميه... فكان يمارس الأسلوب المذعن الهادئ حين كان يرغب في كسب ودّ أي شخص .

في الليلة الثالثة أويا إلى كوخ حجري . كان الطقس سيئاً وضبابياً ، ولكن بدا أن إرلند يعرف الطريق بكل ثقة وعلى الدوام . لاحظ لافرانس أن لإرلند عيناً واثقة رائعة لكل الإشارات والعلامات في الهواء وعلى الأرض ، وكذلك لطبيعة الحيوانات وأساليبها... وكان دائماً على علم بمكان تواجده . كان كل ما تعلّمه هو بنفسه ، وهو الذي كان معتاداً على الجبال ، عن طريق النظر والملاحظة والتذكر ، معروفاً على ما يبدو للآخر وكأنه يعرفه عن ظهر قلب . كان إرلند يضحك هو نفسه على ذلك... لقد كان يشعر بذلك كله على أنه في داخله .

وجدا الكوخ في العتمة الحالكة ، في الساعة نفسها التي تنبأ بها إرلند . فكر لافرانس في نفسه بليلة كهذه حين كان قد صنع فراشاً لنفسه في

الثلج على مرمى قوس من مخيم جياده . كان الثلج قد تكوم عالياً من حول الكوخ ، لذلك اضطرا إلى الدخول عنوة عبر فتحة الدخان . غطى إرلند الفتحة بفروة حصان وجدها في الكوخ ، وثبتها بشرائح خشبية ضغطها تحت الروافد . كشط الثلج الذي كان تغلغل إلى الداخل بزلاجته ، ونجح في إشعال نار في الموقد بالحطب المتجمد الموجود هناك . ثم سحب من تحت المقعد ثلاثة أو أربعة طيور من نوع الترمجان كان قد خبأها هناك خلال رحلته جنوباً... وغطاها بالطين الذي أخذه من الأرضية قرب الموقد حيث ذاب الصقيع عنها هناك ، ثم رمى بالكل على الحجر المتقد .

تمدّد لافرانس على المقعد الترابي حيث كان إرلند قد صنع أريكة له على أفضل ما يستطيع بواسطة حقائبهما وعباءتيهما .

قال ضاحكاً : "هذا هو أسلوب الجنود في التعامل مع الطيور المسروقة ."

"أجل ، فقد تعلمت بعض الأمور حين كنت أخدم مع الكونت" ، قال إرلند باللهجة نفسها .

كان نشيطاً ومليئاً بالحياة مثلما كان هادئاً بل وكسولاً تقريباً في بعض الأحيان كما رآه حموه في معظم الأوقات . وقد بدأ يروي حكايات ، وهو جالس على الأرض أمام الآخر ، عن السنوات التي قضاها في خدمة الكونت ياكوب أوف هالاند . كان قائداً لفصيل في القلعة ، وقد قاد ثلاثة سفن صغيرة لحماية الشاطئ . كانت عينا إرلند أشبه بعيون الأطفال الآن... لم يكن يتبجح ، إلاّ أنه ترك العنان للسانه . كان لافرانس ينظر إليه وهو مضطجع .

كان قد صلى للرب ليمنحه الصبر على صهره هذا... والآن كاد يكون غاضباً من نفسه لأنه أحبّ إرلند أكثر ممّا كان ينوي . كما تذكر أيضاً أنه

في تلك الليلة التي احترقت فيها الكنيسة ، كان قد أحب صهره جيداً . لم يكن إرلند يفتقر إلى الرجولة في جسمه الطويل . مرت وخزة ألم في قلب لافرانس... كانت من الإشفاق على إرلند ، فقد كان هذا مهيئاً لأمور أفضل من مجرد خداع النساء . ولكن كما كانت عليه الأمور ، فإنه لم يخرج سوى ببعض المزحات الصبيانية . ولو أن الأمور جرت على نحو يقوم معه أحد الزعماء بأخذ هذا الرجل من يده وجعله يقوم بعمل ما... ولكن الزمن لم يسمح بذلك ، والعالم الآن يجعل كل امرئ مضطراً إلى الوثوق بحكمه الخاص في أمور كثيرة... خاصة رجلاً في مكان إرلند وضعت في يديه ليس مصلحته الخاصة ، بل مصلحة أناس كثيرين آخرين... وهكذا كان زوج كريستين...

نظر إرلند إلى حميّه . أصبح هو أيضاً جدياً . ثم قال :

"هناك أمر واحد أود أن أتوسله منك... قبل أن تصل إلى منزلي... أن تقول لي ما الذي يثقل على قلبك" .

بقي لافرانس صامتاً .

قال إرلند كما في السابق : "أنت تعرف جيداً أني سأرضخ لك بأي أسلوب ترغبه ، ومستعد لتقديم أي ترضية قد تعتبرها عقاباً ملائماً لي ."

نظر لافرانس إلى وجه الشاب ثم ابتسم ابتسامة غريبة :

"قد يكون ذلك أمراً صعباً يا إرلند... صعباً عليّ قوله وصعباً عليك فعله... ولكن على الأقل عليك أن تقدم هدايا ملائمة إلى الكنيسة في سوندبو والكهنة الذين خدعتهم مع الأشخاص الآخرين" ، قال بقوة . "لن أتحدث عن ذلك بعد الآن . لا تستطيع إلقاء اللوم على شبابك أيضاً . لكان أشرف لك يا إرلند لو أنك اعترفت وخضعت قبل أن أقيم حفل زفافك..."

قال إرلند : "أجل . ولكني لم أعرف أن الأمور ستؤول إلى كشف الخطأ الذي ارتكبته في حقك ."

انتصب لافرانس في جلسته .

"ألم تكن تعرف حين تزوجت أن كريستين... ؟"

قال إرلند بنظرة خجلة : "لا . لم أعرف إلا بعد زفافنا بشهرين تقريباً ."

نظر إليه لافرانس متعجباً ، ولكنه لم يقل شيئاً . ثم استأنف إرلند الكلام بتردّد وضعف :

"أنا سعيد أنك حضرت معي يا عمي . كانت كريستين طوال هذا الشتاء كئيبة جداً... لم تكن مهتمة حتى بمخاطبتي بكلمة واحدة . وقد ظننت في مرات عديدة أنها لم تكن تجد السعادة لا معي ولا في هوسابي ."

أجاب لافرانس بلهجة فيها بعض البرود :

"أعتقد أن هذا ينطبق على كل الزوجات الشابات . والآن هي في حال جيدة ثانية ، ودون شك سرعان ما تعودان مجدّداً إلى التمتع بصداقة وثيقة كما كنتما سابقاً" ، هذا ما أضافه وهو يبتسم بسخرية .

و لكن إرلند جلس مجدداً وراح يحدق إلى كومة الجمر . لقد خطر له على نحو أكيد جداً ، وعلى نحو فجائي... رغم أنه أحس بذلك عندما شاهد الوجه الطفولي الصغير الأحمر لأول مرة على كتف كريستين الأبيض... لن تكون الأمور بينهما مرة أخرى كما كانت ذات مرة .

•

حين دخل والدها إلى القاعة الصغيرة حيث كانت كريستين مستلقية ، جلست في سريرها ومدّت يديها إليه . رمت بذراعيها من حوله وبكت وبكت على نحو مؤلم إلى حد أن لافرانس شعر بالخوف .

كانت قد غادرت الفراش لفترة من الزمن ، ولكنها حين علمت أن إرلند مضى جنوباً عبر الجبال لوحده ، وحين مرّ الوقت ولم يعد ، بدأت تشعر بخوف شديد فعادت لتستلقي في الفراش مجدداً .

كان واضحاً أنها لا تزال ضعيفة الجسم... كانت تبكي لأتفه الأمور... وصل الكاهن الجديد سيرا آيليف سيركسون إلى الضيعة خلال غياب إرلند . وكان قد قرّر الذهاب بين الحين والآخر والجلوس إلى قرب سيدة المنزل ليقرأ لها... ولكنها كانت تنخرط بالبكاء عند أقل ذكر لأي أمر ودون سبب ، حتى أنّه ما عاد يعرف إلا بالكاد ما كان عليه أن يُسمعها .

•

في أحد الأيام حين جلس أبوها معها ، كانت كريستين قد صمّمت على تبديل قماط الطفل بنفسها ، حتى يرى هو فعلاً كم كان وسيماً حسن الشكل . وبينما راح الطفل يحرك أطرافه بين الأقمطة على غطاء السرير أمام أمه ، سأل لافرانس : "ما هي تلك العلامة على صدره ؟"

فوق قلب الصبي مباشرة كانت هناك بقع صغيرة بلون الدم... كانت تبدو وكأن يداً مدمّاة قد لمسته في ذلك الموضع . لقد انزعجت كريستين أيضاً حين رأت هذه العلامة لأول مرة . ولكنها حاولت أن تجد العزاء في السبب التالي الذي ستذكره لوالدها :

إنها مجرد علامة النار على ما يبدو... لقد التقطتها بصدري حين رأيت الكنيسة تحترق ."

أجفل أبوها . أجل... صحيح أنه لم يكن يعرف مدى طول المدة التي أخفت فيها سرها أو مدى ما أخفته . ولم يستطع أن يفهم أنه كان ممكناً لها - هي ابنته - أن تخفي عنه هو كل ذلك...

●

قالت كريستين لأبيها مرات كثيرة : "أظن أنك لا تحب ابني كما يجب" ، وكان لافرانس يضحك ويقول : كلا ، بل يحبّه كما يجب . كان قد أحضر هدايا ثمينة أيضاً ليضعها في المهد وفي سرير المرأة النفساء . ولكن كريستين رأت أنه لم يكن هناك من يقدّر ابنها حق قدره... وخاصة إرلند . توسلت : "انظر إليه يا أبي ، ألا ترى أنه يضحك... هل سبق لك ورأيت طفلاً بجمال «ناكفه» يا أبي ؟"

كانت تطرح عليه هذا السؤال المرة تلو المرة .

في إحدى المرات أجابها لافرانس :

"هافارد أخوك... ابننا الثاني... كان طفلاً جميلاً جداً ."

و خلال وقت قصير سألت كريستين بصوت خفيض :

"أكان هو الذي عاش لفترة أطول بين كل أخوتي ؟"

"أجل ، لقد عاش حتى صار عمره شتاءين... كلا ، ليس عليك يا كريستين أن تبكي مجدداً" ، توسل إليها بلطف .

●

لم يكن لافرانس ولا غونولف نيكولاوسون يحبان أن يلقب الصبي بـ "ناكفه" . كان عُمِّد باسم نيكولاوس وكان إرلند يقول إن هذين الاسمين هما شيء واحد . ولكن غونولف قال : لا ، تروي الحكايات البطولية عن رجال كانوا يسمون باسم "ناكفه" في أيام الوثنية . ولكن ما كان هناك شيء يجعل إرلند يستخدم اسم أبيه ، وراحت كريستين تنادي الصبي بالاسم الذي سمعت إرلند يحيّي به ابنه للمرة الأولى .

•

لذلك كان في ذهن كريستين شخص واحد آخر عداها كان يفهم تماماً كم هو الطفل "ناكفه" نبيل وواعد . وكان هذا الشخص هو الكاهن الجديد ، السيرا آيليف... وفي هذه المسألة كان حكمه أقل صحة بالكاد من حكم الأم .

كان سيرا آيليف شخصاً قصيراً نحيل الأطراف بكرش صغيرة مستديرة ، وكان هذا يمنحه منظراً يدعو إلى الضحك نوعاً ما . كان حضوره لا يدعو إلى الانتباه... فالأشخاص الذين حادثوه أكثر من مرة واحدة لا يزالون يجدون صعوبة في تمييز الكاهن مرة أخرى ، فقد كان وجهه مألوفاً جداً . كان شعره وبشرته من اللون نفسه... مثل الرمل الأصفر المحمرّ... وكانت عيناه الزرقاوان بلون المياه غير جاحظتين . في مشيته كان هادئاً ومنكفئاً . ولكن الماستر غونولف قال إن سيرا آيليف كان على درجة عالية من المعرفة ، وأنه كان في وسعه أن ينال أعلى المناصب لو كان يتحلى ببعض الجرأة . ولكن علاوة على المعرفة كان يتحلّى بالطهارة في الحياة وبالتواضع وبالحب الورع للمسيح وكنيسته .

كان من منبت وضيع ، ورغم أنه لم يكن يكبر غونولف نيكولاوسون إلا قليلاً ، إلاّ أنه كان يبدو أقرب إلى رجل عجوز . كان غونولف على معرفة به منذ أن كانا يرتادان المدرسة معاً في نيداروس ، وكان يتحدث دائماً عن آيليف سيركسون بكثير من الحب . لم يعتبره إرلند مكسباً كبيراً ككاهن في هوسابي ، ولكن كريستين سرعان ما راحت تتطلع إليه بثقة وودّ .

كانت كريستين لا تزال تنام في القاعة الصغيرة مع الطفل ، حتى بعد أن تم دخولها الكنيسة . كان يوماً متعباً لكريستين ذلك اليوم... لقد قادها سيرا آيليف عبر باب الكنيسة ، ولكنه لم يجرؤ على مناولتها . كانت قد اعترفت له . ولكن فيما يخص الخطيئة التي ارتكبتها ، كشريكة في ذنب وفاة شخص آخر دون مباركة ، فعليها أن تنشد الغفران من الأسقف . في ذلك الصباح حين جلس غونولف معها وهي تعاني من عذاب الروح ، نصحها بأن عليها ، ما أن تتحرر من خطر الموت الجسدي ، أن تنشد شفاء روحها . لذلك ما أن تعود الصحة والقوة إليها على حد كاف ، فإن عليها أن تؤدي نذرها للقديس أولاف . فهو بعد تدخّله قد أنقذ ابنها وجعله يولد حياً وفي صحة جيدة وأن يُعمَّد فيطهّر ، لذلك عليها الآن أن تمشي حافية القدمين إلى قبره وأن تضع فوقه إكليل العذرية الذهبي ، الذي لم تصنه بل حملته دون وجه حق . وقد نصحها غونولف بتحضير نفسها لهذه الحجة بالحياة المنعزلة والصلوات والتلاوة والتأمل ، وكذلك بالصوم ، ولكن هذا سيكون محدوداً لأجل الطفل الذي ترضعه .

في مساء دخولها الكنيسة (بعد الانقطاع الذي تبع الولادة) ، وبينما هي جالسة في أسف ، دخل عليها غونولف وأعطاها سبحة . قال إنه في الدول الأجنبية لم تكن من عادة الرهبان والكهنة فحسب استخدام السبحات

للمساعدة في الممارسات الدينية . وكانت تلك السبحة جميلة جداً . كانت حباتها من نوع من الخشب الأصفر الهندي ، ولها رائحة حلوة ورقيقة حتى أنها كانت ملائمة جداً لتذكّر المرء بماهية الصلاة الجيدة... تضحية القلب والتوق للمساعدة على العيش بورع أمام الرب . كانت بعض الحبات من العنبر والذهب ، أما الصليب فكان من المينا الرائعة .

•

في هذا الربيع انشغل إرلند نيكولاوسون كثيراً بتنظيم ضيعته . في هذا العام تم إصلاح كل الأسيجة ونصبت البوابات في الوقت الملائم كما جرت أعمال الفلاحة والبذار الربيعي في وقت مبكر وعلى نحو ملائم ، كما اشترى إرلند بعض القطعان ذات القرون . كان قد اضطر إلى ذبح كثير من حيواناته في السنة الجديدة ، ولم تكن تلك خسارة كبيرة ، فقد كان كثير منها عجوزاً وبائساً . كما كان قد أحضر عمالاً مختصين بحرق القار وتقشير لحاء شجر البتولا . ثم جرى إصلاح المنازل والأبنية وترميم السقوف . لم يسبق لهوسابي أن عرفت مثل هذا الترتيب والنظام كما قالت الناس ، منذ أن كان السير نيكولاوس العجوز في كامل عنفوانه . أجل ، كما كان معروفاً أيضاً أن السيد كان يستمع إلى نصيحة حميه ويتلقى المساعدة منه . ومضى إرلند معه ومع أخيه الكاهن ، وراح يزور الأصدقاء والأقرباء في الريف المجاور على نحو ملائم ، مع بعض الخدم النشيطين المناسبين . في الأيام الخالية كان من عادة إرلند أن يتجول على ظهور الجياد مع مجموعة كاملة من الرجال العنيدين المتهورين . وهكذا تحول حديث الريف ، الذي كان لفترة طويلة يدور حول حياة إرلند نيكولاوسون الشريرة المخزية ، وعن الأعمال الزراعية

السيئة والمدمرة في هوسابي ، تحول الآن إلى نكات ذات مغزى إيجابي . أصبح الناس يبتسمون قائلين بأن الزوجة الشابة التي حظي بها إرلند قد جلبت الكثير من التغيير خلال ستة أشهر .

قبل قداس بوتولف ، انطلق لافرانس بيورغولفسون نحو نيداروس في صحبة الماستر غونولف . كان سيحلّ ضيفاً على الكاهن لبضعة أيام ، وذلك خلال زيارته لضريح القديس أولاف والكنائس الأخرى في المدينة ، وذلك قبل انطلاقه جنوباً إلى بيته مجدداً . وقد ودّع ابنته وزوجها بكل حب وودّ .



٦

كان على كريستين أن تنطلق في مشوارها مشياً على الأقدام إلى نيداروس بعد ثلاثة أيام من قداس سلييمن (٨ تموز / يوليو)... وفي وقت متأخر من ذلك الشهر ستكون المدينة في حالة من الاضطراب والازدحام استعداداً لاحتفال قداس أولاف (٢٩ تموز / يوليو) أما الأسقف فلن يكون في البلدة في وقت أبكر .

في الليلة الماضية كان الماستر غونولف قد وصل إلى هوسابي ، وقد رافق في وقت مبكر من الصباح سيرا آيليف إلى الكنيسة لأجل صلاة الصباح . كان العشب أشبه بغطاء سرير من الفراء الرمادي لكثافة الندى فوقه ، بينما راحت كريستين تسير إلى الكنيسة . ولكن نور الشمس كان ذهبياً على الغابات التي كانت تعلو حافة الجبل ، وراح طائر الوقواق يصيح من جانب الجبل... بدا وكأنها ستحظى بطقس جميل خلال حجّها .

لم يكن من أحد في الكنيسة عدا إرلند وزوجته والكاهنين في مكان الجوقة الذي أنير . نظر إرلند إلى قدمي كريستين الحافيتين . لا بدّ أن الأرض باردة جليدية بالنسبة إليها وهي واقفة عليها . كان عليها أن تمشي

مسافة العشرين ميلاً دون أي رفيق عدا صلواتها . حاول أن يرفع قلبه إلى الرب ، كما لم يحاول منذ سنوات كثيرة .

كانت ترتدي ثوباً طويلاً رمادياً ، وتلفّ حبلاً حول خصرها . تحت ثوبها ، كما كان يعرف هو ، لبست شلحة من قماش الأكياس . وكانت قماشة من الصوف الخشن غير المصبوغ تغطي شعرها بعد أن ربطته بشدة .

حين نزلا من الكنيسة وخرجا إلى نور شمس الصباح ، قابلتهما خادمة تحمل الطفل . جلست كريستين على بعض جذوع الحطب . وقد جلست بعد أن أدارت ظهرها إلى زوجها وأرضعت الطفل حتى شبع ، حتى يكون شبعاناً تماماً عند الانطلاق . وقف إرلند ، دون حراك ، وقد ترك مسافة صغيرة بينهما... كان شاحباً وبارداً في مواجهة الانفعال .

خرج الكاهنان بعد فترة قصيرة... كانا قد خلعا رداءيهما في المَوْهِف . توقفا قرب كريستين . ثم مضى سيرا آيليف نحو الضيعة ، ولكن غونولف مكث وساعدها على ربط الطفل بأمان على ظهرها . في كيس معلق من عنقها كانت قد وضعت الإكليل الذهبي والنقود وبعض الخبز والملح . أمسكت عصاها بيدها وانحنت أمام الكاهن انحناءة عميقة ثم بدأت تمشي بهدوء شمالاً على الطريق المؤدي إلى الغابات .

•

تُرك إرلند واقفاً... شاحب الوجه كالأموات . وفجأة بدأ يركض . إلى شمال الكنيسة كانت بعض الأكمات الصغيرة المغطاة بالقليل من الأعشاب وأشجار العرعر والبتولا المقصوصة قصاً قصيراً جداً... كان الماعز معتاداً على الرعي هناك . ركض إرلند صاعداً الأكمات... من هناك استطاع رؤيتها وقد ابتعدت على الطريق مسافة قصيرة... ثم ابتلعتها الغابات .

لحق غونولف أخاه ببطء . بدا الكاهن طويلاً وداكناً في نور الصباح اللامع . كان هو أيضاً شديد الشحوب .

وقف إرلند بفم فاغر ، والدموع تسيل فوق خدّيه الشاحبين . وفجأة سقط على ركبتيه... ثم رمى بنفسه أرضاً على العشب القصير ، وتمدد هناك وهو ينوح وينوح ويمزق نباتات الخلنج بأصابعه السمراء الطويلة .

وقف غونولف دون حراك . نظر إلى الرجل الباكي... ثم نحو الغابات حيث اختفت المرأة .

رفع إرلند رأسه قليلاً .

"يا غونولف ، أكان ضرورياً أن تفرض هذا عليها ؟ أكان ضرورياً ؟" هكذا سأله مجدداً . "أما كان ممكناً لك أن تحلّها من نذرها ؟"

لم يجب الآخر . ثم تابع يقول :

"أولم أعترف وأكفّر ؟" جلس في مكانه . "لقد اشتريت لها ثلاثين يوماً من القداسات وصلوات المساء وقداساً سنوياً في يوم وفاتها وإلى الأبد وقبراً في أرض مقدسة... وقد اعترفت بالخطيئة للأسقف «هلغه» وحججت إلى «الدم المقدس» في «شفيرين»... أولم يساعد هذا كله كريستين قليلاً ؟"

قال الكاهن بهدوء : "لو فعلت هذا ، ووضعت أمام الرب قلباً نادماً ونلت غفرانه... فإن عليك أن تعرف تماماً أن العلامات التي خلّفتها خطاياك هنا على الأرض ، لا بد لها حتى تمحى بدلاً من أن تكافح سنة بعد سنة . إن ما ارتكبته بحق هذه المرأة التي أصبحت زوجتك الآن ، حين هبطت بها إلى حضيض الحياة القذرة ثم إلى القتل... لا يمكن لك أن ترفعه عن كاهلها ، إنما

الرب هو القادر على ذلك . صلّ له حتى يحميها في هذه الرحلة ، حيث لا تستطيع مرافقتها وحراستها . ولا تنس ، طالما أنكما على قيد الحياة ، أنك شاهدت زوجتك تغادر منزلك على هذا النحو... وذلك بسبب خطاياك أنت أكثر من خطاياها هي ."

قال إرلند بعد برهة :

"لقد أقسمت بالرب وإيماني المسيحي ، قبل أن أسلبها شرفها ، أني لن أتخذ غيرها زوجة لي . وقد وعدت هي بأنها لن تتخذ غيري زوجاً لها ، طالما بقينا أحياء على هذه الأرض . لقد قلت أنت نفسك يا غونولف إن من أقسما على هذا النحو فهما زوجان أمام الرب . وإن أياً منهما لو تزوج من شخص آخر لاحقاً فسيكون في حالة زنا في عيني الرب . فإن كان هذا صحيحاً فإن حياة كريستين معي ليست بالدنسة على ما أعتقد..."

"لا تكمن الخطيئة في أنك تعيش معها" ، قال الكاهن بعد برهة . "لو كان ذلك ممكناً دون انتهاك لقوانين أخرى... ولكنك قدت تلك الطفلة إلى تمرد آثم ضد كل من جعلهم الرب مسؤولين عنها... وأخيراً وضعت عليها وزر دم . كما سبق أن قلت لي هذا أيضاً ، في تلك المرة حين تحدثنا في القضية : لذلك رسمت الكنيسة قوانين تتعلق بالزواج ، والتي تنص على أن إشعارات الزواج يجب أن تنشر على الناس ، وأن علينا نحن الكهنة ألاّ نزوج رجلاً وفتاة ضد إرادة أقربائهما ." جلس وشبّك إحدى ركبتيه بيديه ، وحدّق عبر الريف اللامع من الصيف ، والبحيرة الصغيرة تومض بلون أزرق في قعر الوادي . "كان عليك أن تعرف المسألة بنفسك يا إرلند... لقد بذرت من حولك غابة من العوسج والقرّاص... كيف يمكنك أن تجذب فتاة شابة إلى جانبك ولا تتوقع منها أن تكون ممزقة وجريحة ونازفة..."

"لقد وقفت إلى جانبي أكثر من مرة يا أخي في زمن قضيتي مع إلين" ، قال إرلند بصوت خفيض . " وقد كنتُ دائماً ممتنّاً لك..."

قال غونولف بصوت مرتجف : "لا أظنّ إلاّ بالكاد أني كنت سأفعل ما فعلته لو عرفت أنك سترتكب تلك الفعلة مع عذراء شابة طاهرة... طفلة بالمقارنة مع عمرك" .

لم يجب إرلند . سأله غونولف بصوت خفيض :

"في تلك المرة في أوسلو... ألم يخطر لك أن تفكر بما كان سيحلّ بكريستين لو حملت... وهي تسكن في دير للراهبات ؟... وكانت هي مخطوبة لرجل آخر... وأبوها رجل معتزّ بنفسه وغيور على شرفه... كما أن أقرباءها كلهم من علية القوم ، غير معتادين على العار... ؟"

"يمكنك أن تصدق جيداً أني فكرت في ذلك..." كان إرلند قد التفت برأسه جانباً . "لقد وعدني مونان بالوقوف إلى جانبها... وقد قلت لها ذلك..."

"مونان! كيف استطعت أن تكلم شخصاً كمونان عن شرف كريستين ؟"

قال إرلند بعد وقت قصير : "إنه ليس بالرجل الذي تحسبه إياه ."

"و ماذا عن زوجته ، قريبتنا ، الليدي كاترين ؟ لم تكن تقصد أنت ، على ما أعتقد ، أن عليه أن يحملها إلى واحد من تلك الأماكن خاصته حيث يحتفظ بعشيقاته... ؟"

ضرب إرلند الأرض بقبضته حتى أدمى براجمه :

"أجل ، إن اعتراف زوجتي لأخي أمر دبره الشيطان ضدي كرجل ."

قال الكاهن : "لم تعترف لي . ولست كاهن أبرشيتها . لقد شكت لي

عذابها المرير وخوفها... وقد بذلت جهدي لأساعدها وأمنحها المشورة والراحة على أفضل نحو ."

"حسناً" ، رفع إرلند وجهه ونظر إلى أخيه . "أعرف ذلك بنفسي... ما كان يجب أن أفعل ما فعلت... أي أن أجعلها تأتي إلى منزل برينهيلد..."

جلس الكاهن صامتاً للحظة .

"في منزل برينهيلد فلوغا... ؟"

"أجل . ألم تحكِ لك هي عن هذا حين حكت البقية ؟"

"كان من شأنه أن يكون أمراً صعباً على كريستين ، على ما أعتقد ، أن تروي مثل هذه الأمور عن زوجها خلال الاعتراف" ، قال الكاهن بعد برهة . "أعتقد أنها تفضل الموت بالأحرى على أن تحكي عن هذا الأمر في مكان آخر ." جلس لفترة قصيرة ، ثم قال بقوة وقسوة :

"إن كان الأمر كذلك يا إرلند ، أنك اعتبرت نفسك زوجها أمام الرب ، وأنت الذي عليك حمايتها وحراستها ، فإن أفعالك تبدو لي بكل تأكيد على أنها أسوأ في نظري . لقد ضلّلتها عن الطريق القويم نحو البساتين ومخازن التبن ، كما قدت خطواتها إلى بيت عاهرة... وأخيراً أحضرتها إلى بيورن غونارسون والليدي آشيلد..."

"لن أسمح لك بالكلام على هذا النحو عن خالتي آشيلد" ،

"لقد قلت أنت نفسك قبل الآن إنك تعتقد أنها مذنبة بقتل عمّنا... هي وذاك الرجل بيورن..."

"لا أكترث بهذا كله" ، قال إرلند بقوة . "الخالة آشيلد عزيزة عليّ ."

قال الكاهن : "أجل ، أفهم ذلك" . ارتسمت على فمه ابتسامة ازدراء ملتوية صغيرة . "بما أنك لم تنكر عليها أن تقابل لافرانس بيورغولفسون بعد أن حملت ابنته وانطلقت بها بعيداً . سيبدو بالفعل يا إرلند أنك تعتبر أن صداقتك يمكن أن تشترى بثمن بخس..."

"يا للمسيح!" أخفى إرلند وجهه في يديه ، ولكن الكاهن تابع قائلاً :

"أرأيت عذاب الروح عند زوجتك ، وهي ترتجف من هول خطاياها ، في حالة من البؤس واليأس... وهي جالسة هناك على وشك أن تضع ابنك ، والموت واقف عند بابها... وهي بحد ذاتها مجرد طفلة ، وشديدة التعاسة..."

ارتجف إرلند : "أعرف ، أعرف! . أعرف أنها كانت تفكر في الأمر خلال الوضع ، في عذابها . لأجل المسيح يا غونولف ، اصمت الآن... فأنا أخوك على أي حال!"

و لكن الكاهن تابع دون رحمة :

"لو كنت رجلاً مثلك وليس كاهناً... وضلّلت فتاة شابة وطيبة كهذه... لكنت حرّرت نفسي من الأخرى... فليساعدني الرب ، بل كنت سأفعل ما فعلته الخالة آشيلد بزوجها ولاحترقت في جهنم لأجل ذلك إلى النهاية ، مفضلاً ذلك على جعلها تعاني مثل هذه الأمور التي أنزلتها على رأس حبيبتك البريئة..."

ظل إرلند جالساً وهو يرتجف .

قال بصوت خفيض : "تسمّي نفسك كاهنا . أ أنت كاهن جيد إلى حد أنك لم ترتكب خطيئة أبداً... مع امرأة ؟"

لم ينظر غونولف إلى أخيه . تضرج وجهه :

"لا يحق لك أن تطرح مثل هذه الأسئلة... ومع ذلك سأجيب عليك . يعرف ذاك الذي مات على الصليب كم أنا في حاجة مريرة إلى رحمته . ولكني أقول لك يا إرلند... لو لم يكن لديه فوق هذه الأرض كلها خادم واحد طاهر نقي من الخطيئة ، ولو لم يكن في كنيسته المقدسة كاهن واحد أكثر إخلاصاً وشرفاً منّي ، أنا الخائن البائس لربي... إلاّ أن ما يُدرّس في هذه الكنيسة هو قوانين الرب ووصاياه . لا يمكن أبداً لكلمته أن تلوث بفم كاهن غير طاهر ، فهي لن تحرق شفاهنا وتأكلها... ولكنك لن تستطيع أن تفهم هذا . أنت تعرف هذا كما أعرفه أنا ويعرفه كل عبد للشيطان افتداه (هو) بدمه : لا يمكن لقانون الرب أن يهتز ولا لشرفه أن يُمس . كما أن شمسه قوية سواء سطعت على البحر المقفر والجبل الرمادي المقفر أو على هذه الأرض الجميلة والخصبة..."

كان إرلند قد أخفى وجهه بين يديه . جلس صامتاً لفترة طويلة ، وحين تكلم كان صوته جافاً وقاسياً :

"سواء كنت كاهناً أم لا... بما أنك لا تعيش حياة القديسين المطلقة... ألا تفهم... ؟ هل كنت قادراً على أن تفعل بامرأة نامت بين ذراعيك وولدت لك طفلين... هل كنت قادراً على أن تفعل بها ما فعلته آشيلد بزوجها ؟"

صمت الكاهن لفترة قصيرة . ثم قال ببعض السخرية :

"ما كنت ميّالاً إلى الحكم على الخالة آشيلد بهذه القسوة..."

"لا يمكن للأمر أن يكون بالنسبة إلى الرجل ما هو إلى المرأة . أتذكر آخر مرة كانا فيها هنا في هوسابي ، وكان السير بيورن معهما . كنا جالسين قرب الموقد ، أمي وآشيلد ، وكان السير بيورن يعزف على قيثارته ويغني لهما... كنت واقفاً قرب ركبته . ثم ناداها «بارد»... كان في الفراش وكان

يريد منها أن تذهب لترتاح على الفور... لقد استخدم كلمات شديدة البذاءة قليلة الاحتشام... نهضت الخالة آشيلد وكذلك السير بيورن . ثم غادر هو القاعة ، ولكنهما تبادلا النظرات أولاً... أجل ، لاحقاً فكرت حين كبرت إلى الحد الكافي لأفهم... قد يكون الأمر صحيحاً... كنت قد طلبت الإذن لأدل السير بيورن على الطريق إلى المبنى الذي كان سينام فيه ، ولكني لم أجرؤ ، كما لم أجرؤ على النوم في القاعة . ركضت خارجاً ونمت قرب الرجال في غرفة الخدم . وحق المسيح يا غونولف... لا يمكن أن يكون الأمر بالنسبة إلى آشيلد كما هو بالنسبة إلى رجل في تلك الليلة...

"لا يا غونولف... أن أقتل امرأة قامت بـ... إلا أني اكتشفت أنها كانت مع رجل آخر..."

و لكن هل فعل ذلك الشيء نفسه يا ترى ؟ لم يستطع غونولف أن يقول هذا لأخيه . لذلك سأله ببرودة :

"ألم يكن صحيحاً أيضاً أن إلين قد خانتك ؟"

"غير صحيح ؟" التفت إرلند إلى أخيه فجأة وقد اشتعل غضباً ." "أتعني أنه كان عليّ أن ألومها لأنها سلمت نفسها إلى غيسور... بعد أن أوضحتُ لها مرة إثر أخرى أن ما بيننا كان قد انتهى ؟"

أحنى غونولف رأسه .

"لا ، الأحرى أنك على حق" ، قال منهكاً ، بصوت خفيض . ولكن رغم سماعه بهذه الموافقة من إرلند استثار إرلند فجأة ورفع رأسه ونظر إلى الكاهن :

"أنت رفيق جداً بكريستين يا غونولف . لكم هو غريب منك تعلّقك

بمرافقتها طوال فصل الربيع... أكثر تقريباً ممّا هو لائق بأخ وكاهن . لقد بدا الأمر وكأنك – تقريباً – تضنّ بها عليّ... ولولا أنها كانت في تلك الحالة التي هي عليها حين تقابلتما للمرة الأولى ، لكان الناس سيظنون..."

نظر غونولف إليه . قفز إرلند تحت نظرة أخيه وقد فقد توازنه ، ونهض غونولف أيضاً . لم يسحب نظرته فضربه إرلند بقبضته . أمسك الكاهن برسغه . حاول إرلند أن يتشابك مع أخيه ، ولكن غونولف توقف دون حراك وهو يصده عنه .

هدأ إرلند فوراً . "كان عليّ أن أتذكر أنك كاهن" ، قال بصوت خفيض . قال غونولف بابتسامة صغيرة : "أنت تعرف أنه من هذه الناحية لا حاجة بك للندم ." وقف إرلند وهو يفرك رسغه .

"أجل ، كانت لديك دائماً قوة الشيطان في يديك..."

"هذا أشبه بأيام كنا صغاراً" ، جاء صوت غونولف رقيقاً وخفيضاً على نحو غريب . "غالباً ما فكرت بتلك السنوات كلها التي كنت فيها بعيداً عن البيت... أيام كنا صغاراً . غالباً ما كنا نتخاصم في تلك الأيام ، ولكن ذلك ما كان يدوم طويلاً يا إرلند ."

قال الآخر بأسف الآن : "و لكن الآن يا غونولف ، لا يمكن أن يكون الأمر الآن كما كان حين كنا صغاراً ."

أجاب الكاهن بهدوء : "لا . لا يمكن ذلك على ما يبدو..."

وقفا صامتين لفترة طويلة . وأخيراً قال غونولف :

"سأتركك الآن يا إرلند . سأهبط إلى آيليف ، وأودّعه ثم سأنطلق في طريقي . أجل ، سأذهب إلى ذلك الكاهن في أوركدال ، ولن أذهب إلى نيداروس وهي هناك ." ابتسم قليلاً .

"يا غونولف! لم أعن ذلك... لا ترحل عني هكذا..."

وقف غونولف صامتاً . سحب نفساً أو نفسين عميقين ، ثم قال :

"هناك أمر واحد أريدك أن تعرفه عني يا إرلند... بما أنك تعرف أنه لديّ معرفة بكل ما يتعلق بك . اجلس ."

"جلس الكاهن على الأرض كما سبق . تمدّد إرلند على الأرض ، ثم نظر ، ويده تحت ذقنه ، إلى وجه أخيه المتيبّس والمتوتر على نحو غريب . ابتسم قليلاً :

"ما الأمر يا غونولف... هل تريد أن تعترف لي ؟"

قال أخوه برقة : "أجل ." ومع ذلك ظل جالساً بصمت لفترة طويلة . رأى إرلند شفتيه تتحركان مرة واحدة ، ثم قبض على ركبتيه بقوة بيديه :

"ما الأمر ؟" التمعت ابتسامة فوق وجه إرلند . "طبعاً لا يمكن للأمر أن يكون هكذا...أن سيدة جميلة ما... بعيداً هناك في البلاد الجنوبية..."

قال الكاهن : "لا ." أصبح صوته أبحّ خشناً : "لا يتعلق الأمر بالحب...

"أتعرف يا إرلند ، كيف عاهدت نفسي أن أصبح كاهناً ؟"

"أجل ، حين مات أخوتنا ، وكان (أبوانا) يخشيان أن يخسرانا أيضاً..."

قال غونولف : "لا . لقد ظنوا أن مونان قد تعافى مجدداً ولم يكن "غاوته" قد التقط العدوى... فهو لم يمت إلا في الشتاء التالي . ولكن كنت أنت في الفراش تختنق حتى تكاد تموت ، فنذرتني أمي لخدمة القديس أولاف لو أنقذ هو حياتك..."

سأله إرلند بعد برهة : "و من قال لك ذلك ؟"

"إنغريد ، أمي بالتبنّي" .

"أجل هذا صحيح بالفعل أني كنت هدية غريبة للقديس أولاف" ، قال إرلند ضاحكاً ضحكة صغيرة . "لقد كنتُ هدية غير ملائمة له... ولكنك قلت أنت نفسك يا غونولف ، إنك كنت راضياً تماماً أنك أصبحت كاهناً منذ طفولتك..."

قال الكاهن : "أجل . ولكن الأمر لم يكن كذلك على الدوام . أتذكر جيداً ذلك اليوم الذي غادرتَ فيه هوسابي برفقة مونان باردسون لتنضم إلى الملك ، قريبنا ، وتصبح من رجاله . رقص حصانك تحتك . التمع درعك الجديد وبرق . لم أحمل درعاً أبداً... أنت وسيم يا أخي - كنت في السادسة عشرة فحسب . وكنت قد رأيت على نحو مسبق ، منذ زمن بعيد ، أنك كنت محبوباً جداً من السيدات والآنسات..."

قال إرلند : "لم يدم ذلك المجد طويلاً . لقد تعلمت تقليم أظافري ، وكيف أقسم بالمسيح عند كل كلمة ثانية ، واستخدم خنجري لأصدّ به الضربات بينما أضرب بسيفي . ثم أُرسلتُ شمالاً وقابلتُها... وقد لاحقني الحراس بالعار وأغلق أبي أبوابه في وجهي..."

"ثم هربت من البلاد مع سيدة جميلة" ، قال غونولف بهدوء كما من قبل . "و سمعنا في البيت أنك أصبحت قائداً لقلعة الكونت ياكوب ."

"أجل ، لم تكن تلك قضية كبرى كما بدت هنا في البيت" ، قال إرلند ضاحكاً .

"لم تكن على علاقة طيبة مع أبينا... أما أنا فلم يكن هو يأبه بما فيه الكفاية بأن يكون على علاقة طيبة معي . كانت أمي تحبني ، أعرف ذلك... ولكنها لم تكن تقدرني إلاّ قليلاً بالمقارنة معك... وقد لاحظت هذا على أفضل نحو حين هربت من البلاد . كنت يا أخي الشخص الوحيد الذي يحبني عن

حق . والرب يعرف أنك كنت أعزّ صديق لي على الأرض . ولكن في تلك الأيام حين كنت شاباً وأحمق ، فقد مرّت أوقات اعتبرتُ فيها أنك قد مُنحتَ أكثر مني بكثير . كان هذا ما أريد أن أقوله لك يا إرلند ."

بقي إرلند مستلقياً ووجهه نحو جانب الجبل .

رجاه قائلاً : "لا تتركنا يا غونولف" .

قال الكاهن : "أجل . أنا ذاهب . لقد تبادلنا الكثير من الكلام الآن . فليسمح الرب ومريم العذراء بأن نلتقي ثانية في وقت أفضل . وداعاً يا إرلند..."

قال إرلند دون أن يرفع بصره : "وداعاً" .

حين عاد غونولف بعد ساعات من بيت الكاهن ، ليستعدّ لرحلته ، رأى رجلاً يركب حصاناً يتجه عبر الحقول نحو الغابات الجنوبية . كان يحمل قوساً معلقاً على ظهره ، وكانت ثلاثة كلاب تعدو إلى جانب حصانه . كان ذلك هو إرلند .

•

في هذه الأثناء كانت كريستين تمضي مسرعة في طريقها ، وذلك عبر ممر الغابة بين الجبال . كانت الشمس عالية في السماء الآن ، وراحت قمم أشجار الصنوبر تومض أمام سماء الصيف ، ولكن ضمن الغابات كانت برودة وعذوبة الصباح ما زالتا متلبثتين . كان الهواء مترعاً برائحة أبر الصنوبر والتربة الخثّية المنعشة وبعطر زهور نبات الليّنة المنتشرة على كل الهضاب الصغيرة بأجراسها الوردية الصغيرة . وكان الممر العشبي رطباً وطرياً ومريحاً

لقدميها . مشت كريستين ، وهي تردّد صلواتها ، وكانت ترفع بصرها بين الحين والآخر إلى غيوم الطقس اللطيف البيضاء التي راحت تسبح في الزرقة فوق قمم الأشجار .

لم تستطع طوال الوقت سوى أن تفكر في الأخ إدفين . لقد سار هو على هذا النحو دائماً ، سنة بعد سنة ، من بداية الربيع إلى أعماق الشتاء . عبر الممرات الجبلية ، تحت السموات السوداء وحقول الثلج البيضاء . كان يرتاح في السايترات ويشرب من الجداول ويأكل الخبز الذي تحمله إليه فتيات السايتر وقطعان الخيل... ثم كان يودّع الناس ويدعو الرب ليمنح السلام والبركة على الناس والحيوانات . إلى الأسفل عبر الغابات المتنهّدة على جوانب الجبال التي كان يمر بها ، ونزولاً إلى "ديل" ، كان يتجول ، طويلاً محني الكتفين برأس يميل إلى الأمام ، وذلك على امتداد الطرقات عبر المزارع المحروثة جيداً والمساكن... وفي كل مكان ، وأنّى كان يمرّ ، كانت توسطاته المترعة بالحب لكل الناس تترك طقساً نيّراً وراءه .

لم تقابل أي كائن حيّ ، باستثناء بعض الأبقار أحياناً... كانت هناك سايترات فوق قمم الهضاب . ولكن الممر كان مطروقاً على نحو جيد ، وفوق الأراضي المستنقعية وضعت جسور خشبية . لم تكن كريستين خائفة... أحست وكأن الراهب كان يمشي غير مرئي إلى جانبها . أيها الأخ إدفين ، إن كنت فعلاً قديساً مباركاً ، ولو كنت تقف أمام وجه الرب ، صلّ لأجلي الآن!

يا يسوع المسيح ، يا مريم المباركة ، أيها القديس أولاف... كانت تتوق إلى الوصول إلى مكان حجّتها...و كانت تتوق إلى أن ترمي عن كاهلها عبء الخطايا الخفية منذ سنين ، عبء القداديس والواجبات التي سرقتها

على نحو غير شرعي خلال فترة عصيانها ولا توبتها... كانت تتوق إلى أن تصبح طليقة وطاهرة ، ولكن على نحو أشد حدة من التوق الذي كانت تحس به لتتخلص من عبئها في الربيع قبل أن يولد الصبي...

كان ينام بعمق وأمان على ظهر أمه . لم يستيقظ حتى كانت قد عبرت الغابات ونزلت إلى مزارع عصفور الثلج ، واستطاعت أن ترى إلى ما وراء لسان بودفيك وسالتنز من الزقاق البحري . جلست في مرعى بعيداً عن الممر وأنزلت الرزمة والطفل فيها إلى حضنها ، ثم فتحت صدر ثوبها . كان أمراً عذباً أن تشعر به على صدرها ، وأمراً عذباً أن تجلس لبعض الوقت . سرت عذوبة مباركة عبر كل جسدها وهي تشعر بالثديين القاسيين كالحجر والمتورمين بالحليب يصبحان طريين وهو يرضع .

كان الريف ساكناً من حولها ، يتدفأ تحت الشمس ، مع مروج خضراء وحقول قمح لامعة بين غابات سوداء . هنا وهناك كانت نفحة دخان صغيرة تصعد فوق أسقف المنازل . في بعض الأماكن كان حصاد التبن قد بدأ .

حصلت على الإذن لتعبر من سالتنس-ساند إلى ستاين بالقارب . وبعد العبور ، كان عليها أن تدخل منطقة مجهولة تماماً . كان الطريق الذي عليها اتباعه عبر" البابنز " يؤدي إلى درب بين مزارع ، ثم وصلت إلى الغابات مجدداً ، ولكنها ما كانت تبتعد هنا كثيراً عن أنظار مساكن البشر . كانت تمرّ من هناك منهكة . ولكنها فكرت بأبويها : ألم يمشيا حافيي القدمين من يوروندغارد إلى سيل ، عبر دوفر ثم نزولاً إلى نيداروس ، حاملين أولفهيلد بينهما على محفة ؟ لم يكن عليها أن تفكر في مدى ثقل "ناكفه" على ظهرها .

الأسوأ كانت الحكة الرهيبة في رأسها من القلنسوة الصوفية الخشنة

المشبعة بالعرق . ومن حول خصرها ، حيث كان الحبل يضغط الملابس على جسدها ، كانت شلحتها تنهش من لحمها حتى أن أماكن كثيرة من لحمها أصبحت تؤلمها .

بدأ عابرو سبيل آخرون يعبرون الطريق . بين الحين والآخر كان الناس يمرون بها على ظهور الجياد ، يتجهون بهذا الاتجاه أو الآخر . أدركت عربة فلاح متجه إلى المدينة محملا البضائع... كانت العجلات الثقيلة الصلدة تصطدم وترتطم بالجذور والحجارة ، فتصرّ وتصرف . كان هناك رجلان يجران حيواناً إلى المسلخ . نظرا قليلاً إلى الحاجّة الشابة ، لأجل جمالها... إلاّ أن عابري السبيل من أمثالها كانوا مشهداً مألوفاً في هذا الريف . في أحد الأماكن كان بعض الرجال مشغولين بإنشاء منزل على مسافة قصيرة من الطريق . نادوا عليها ، ولحق بها رجل عجوز راكضاً وعرض عليها جرعة من الجعة . حيته كريستين بانحناءة ، شربت ثم شكرته بكلمات تشبه ما كان الفقراء يقولونه لها حين كانت تقدم لهم الحسنات .

سيكون عليها أن ترتاح مجدداً عمّا قريب . وجدت منحدراً أخضر صغيراً قرب الطريق مع جدول يمرّ إلى القرب منه . وضعت كريستين الطفل في العشب ، فاستيقظ وراح يبكي على نحو مثير للشفقة ، فأسرعت تقول بذهن تائه الصلوات التي كان عليها أن تقولها . ثم وضعت "ناكفه" في حضنها وفكت قماطه . كان قد لوث ملابسه ولم يكن معها سوى القليل من الغيارات . لذلك غسلت الملابس ووضعتها فوق صخرة ملساء دافئة لتجفّ في الشمس . أما الملابس الخارجية فلفّتها من حول الصبي . وقد أحبّ هو هذا كثيراً ، فقد كان قادراً على أن يركل برجليه ويبسط ذراعيه وساقيه وهو يرضع من ثدي أمه . نظرت كريستين بمتعة إلى أعضائه البيضاء الوردية وضغطت إحدى يديه بين ثدييها وهي ترضعه .

مرّ فارسان إلى القرب منها خبباً . رفعت كريستين نظرها... كان سيداً وتابعه ، ولكن السيد لجم حصانه فجأة وقفز من على سرجه ورجع يمشي على قدميه إلى حيث كانت هي جالسة . كان ذاك هو سايمون أندرسون .

سألها : "ربما كنت تفضّلين ألاّ أحييك ؟" وقف ممسكاً بحصانه وهو ينظر إليها . كان يرتدي ملابس السفر ، سترة طويلة ضيقة دون كمّين فوق جاكيت من الكتان بلون أزرق فاتح... وقبعة حريرية على رأسه ، بينما كان وجهه أحمر لامعاً من العرق . "من الغريب أن أراك ، ولكن ربما لا تريدين أن تخاطبيني... ؟"

"لا شك أنك تعرف... كيف حالك يا سايمون ؟" جذبت كريستين قدمها العارية إلى ما تحت تنورتها ، وحاولت أن تبعد الطفل عن ثديها . ولكن الصبي صرخ وغصّ وراح يتخبّط حتى أجبرها على أن تضعه على صدرها مجدداً . جمّعت ثوبها فوق صدرها بقدر ما استطاعت ، وجلست بعينين مسدلتين .

سألها سايمون وهو يشير إلى الطفل : "هل هو طفلك ؟" كلا ، كان سؤالاً أحمق!" قال ضاحكاً . "إنه صبي كما أعتقد ؟ إن إرلند نيكولاوسون شخص محظوظ ." كان قد ربط حصانه إلى شجرة ، وجلس الآن على حجر على مسافة قصيرة من كريستين . جذب سيفه إلى الأمام بين ركبتيه ، وجلس وقد وضع يديه فوق مقبض السيف ، وراح يقلّب التراب بنهاية الغمد .

قالت كريستين حتى تتلفظ بأي شيء : "لم أكن أتوقع مقابلتك هنا ، شمال دوفر ، يا سايمون ."

قال سايمون : "كلا . لم تكن لي مهمات في هذا الجزء من البلاد سابقاً ."

تذكرت كريستين أنها سمعت - خلال الاحتفال الذي جرى في مناسبة وصولها إلى بيتها الجديد - أن الابن الأصغر لآرن غيافالدسون أوف رونهايم سيتزوج من الابنة الصغرى لأندرس دار . سألته إن كان في رانهايم .

قال سايمون : "تعرفين إذن . أجل ، لقد عُرف الأمر على نحو مسبق في هذا الريف كما أرى ."

قال كريستين : "أجل ، أن غيافالد سيتزوج من سيغريد ؟"

رفع سايمون بصره بحدة وضغط شفتيه معاً :

"أرى أنك لا تعرفين الأمر بعد ."

قالت كريستين : "لم أغادر ساحة هوسابي طوال الشتاء . ولم أر سوى قلة من الناس . لقد سمعت كلاماً عن هذا الزفاف..."

"أجل... ستسمعين الأمر من شفتيّ أنا ، كما أعتقد... لا بدّ أن الأمر قد وصل إلى هنا ." جلس صامتاً لبرهة - "لقد مات غيافالد قبل ثلاثة أيام من ليلة الشتاء (١٤ تشرين الأول / أكتوبر أو بداية نصف السنة الشتوية)... لقد سقط هو وحصانه وكسر ظهره . أتذكرين ، قبل أن تصلي إلى دايفرين ، حيث الطريق تتجه شرقاً إلى النهر ، والأرض تصبح شديدة التحدّر... ولكن لا ، لن تتذكري إلاّ بالكاد . كنا في طريقنا إلى حفل خطوبتهما . لقد وصل آرن وأبناؤه بحراً إلى أوسلو..." توقف سايمون عن الكلام فجأة .

سألته كريستين بخجل وخوف : "أكانت سيغريد تحب غيافالد وكانت سعيدة بأنها ستتزوج منه ؟ على الأرجح ؟"

قال سايمون : "أجل . وقد ولدت له ابناً... في يوم قداس الرسل في الربيع الماضي..."

"أوه ، سايمون!"

سيغريد أندرسداتر ذات الخصلات البنية من حول وجهها الصغير المدوّر! حين كانت تضحك كانت تظهر غمازات صغيرة في وجنتيها . غمازات وأسنان بيضاء صغيرة طفولية... كانت لسايمون هذه الملامح نفسها . تذكرت كريستين أنها حين كانت تمر بحالات لا تتعاطف فيها مع خطيبها ، كانت هذه الملامح تبدو لها لا رجولية... وخاصة بعد أن عرفت إرلند . كانا متشابهين جداً ، سيغريد وسايمون . ولكن لأنها كانت ممتلئة وضاحكة فقد جعلها ذلك أجمل . كانت في الرابعة عشرة من عمرها في ذلك الحين... لم يسبق لكريستين أن سمعت ضحكة أشد مرحاً من ضحكتها . كان سايمون دائم الإغاظة والمزاح مع أخته الصغرى . شعرت كريستين أن هذه كانت أعزّ الجميع على قلبه .

قال سايمون : "تعرفين أن سيغريد كانت الأغلى عند أبي ، لذلك كان أميل إلى أن يترك لها الفرصة هي وغيافالد حتى يريا إن كانا يحبان واحدهما الآخر... أعتقد أنهما فعلا ذلك أكثر من المطلوب... كانا يندفعان الواحد نحو الآخر كلما كانا يتقابلان ، ويتبادلان النظرات ويضحكان... جرى هذا في الصيف الماضي في دايفرين . ولكنهما كانا صغيرين جداً... ما كان أحد ليشك في أن يحدث مثل هذا الأمر . أما آستريد – تعرفين أنها كانت مخطوبة حين كنا أنت وأنا ـ أجل ، لم تعارض ذلك . إن تورغريم كما تعرفين صاحب ثروة كبيرة ، وهو لطيف أيضاً على نحو ما – ولكن لا شيء ولا إنسان يمكنه أن يرضيه ، كما يعتقد دائماً أنه يعاني من كل الأوصاب والأمراض التي يسمع بها الناس . لذلك كنا سعيدين ، جميعاً ، أن سيغريد كانت سعيدة جداً بالزواج الذي كان يهيأ لها...

"و حين أحضرنا غيافالد إلى البيت على هذا النحو ، فإن هالفريد

زوجتي ، قد رتبت الأمر بحيث تجعلها تذهب معنا إلى ماندفيك . ثم ، في وقت لاحق ، تبين أن غيافالد لم يكن قد تركها...وحيدة..."

صمتنا لفترة وجيزة . ثم قالت كريستين برقة :

"لم تكن هذه إذن بالرحلة الممتعة لك يا سايمون ؟"

ضحك قليلاً : "أوه ، لا . ولكن سرعان ما سوف أعتاد على الركوب للانطلاق في مهمات حزينة ، يا كريستين . وبالنسبة لهذه المهمة ، فأنت ترين أني كنت الأنسب... فليس لدى أبي القوة كما أن سيغريد والصبي معي في ماندفيك . والآن بعد أن رتبنا الأمور ليحلّ هذا الصبي محل أبيه بين آل رانهايم ، ولقد لاحظت أنه سيكون موضع ترحيب منهم ، ذلك الصبي الصغير المسكين ، وذلك حين سيرسل إلى هناك في الوقت الحاضر..."

سألته كريستين وهي تلتقط أنفاسها : "و ماذا عن أختك ؟ أين ستكون ؟"

نظر سايمون إلى الأرض .

"سيبقيها أبي في البيت في دايفرين الآن" ، قال بصوت خفيض .

"سايمون! أوه ، كيف يسمح قلبك بهذا ؟"

أجاب دون أن يرفع بصره : "لا شك أنك ترين كم أنه كسب كبير للصبي أن يكون مع أهل أبيه ، وهذا هو الأمر الأهم . سيسرنا هالفريد وأنا أن يكون كلاهما معنا في بيتنا . فليس كهالفريد أخت مخلصة ومحبة لسيغريد . ولا حتى أبي... رغم أن هذا الأمر قد حطّمه . ولكن ألا ترين ما حصل ؟ كان من شأن الأمر أن يكون مخالفاً للعدالة لو أن أياً منّا قد عارض منح الصبي البريء اسم أبيه وإرثه ."

ترك طفل كريستين ثديها . وبسرعة غطت الأم ثديها بثوبها ، ثم ضمت الصغير إليها ، وهي ترتجف . غصّ برضا مرتين ثم تقيأ قليلاً على نفسه ويدي أمه .

نظر سايمون إلى الاثنين ، ثم قال بابتسامة من نوع ما :

"كنت أفضل حظاً من أختي يا كريستسن " .

قالت كريستين برقة : "أجل ، لا شك أنه يبدو لك مصيراً صالحاً أني أدعى زوجة وأن ابني شرعي المولد . لأني لو تركت مع ابن زنا لا أب له ، لكنت قد تلقيت ما أستحق عن عدل..."

قال سايمون : "لكنت اعتبرت ذلك أسوأ نبأ يمكن أن أسمعه . لا أتمنى لك سوى الخير يا كريستين" . وقد قال العبارة الأخيرة بصوت أخفض .

سرعان ما سألها عن الطريق . كان قد سافر شمالاً بالسفينة من تونسبرغ ، كما قال . "عليّ أن ألحق بتابعي الآن..."

سألت كريستين : "هل «فين» هو تابعك ؟"

"لا . «فين» متزوج الآن . لم يعد يعمل لديّ ، ألا زلت تذكرينه ؟" سأل سايمون وقد امتزج صوته ببعض السرور .

سألت كريستين وهي تنظر إلى ناكفه : "هل هو جميل ابن سيغريد ؟"

أجاب سايمون : "سمعتهم يقولون ذلك . في نظري يبدو لي أي طفل بين ذراعي أمه شبيهاً بأي طفل آخر" .

قالت كريستين : "إذن أعتقد أنك لم ترزق بأطفال ؟" ولم تستطع أن تغالب ابتسامة .

أجاب باختصار : "لا ." ثم ودعها وانطلق في طريقه .

•

حين انطلقت كريستين مجدداً في طريقها ، لم تعد تحمل الطفل على ظهرها . بل حملته بين ذراعيها ، وهي تضغط بوجهه على نحرها . ما عادت تستطيع التفكير بأي شيء عدا سيغريد أندرسداتر .

و لكن أباها هي ما كان سيفعل ذلك . أن يقوم لافرانس بيورغولفسون بركوب حصانه وأن يذهب ليتوسل حصة حفيده المولود ولادة خسيسة من أهل أبيه!... ما كان سيفعلها أبداً . ولم يكن قلبه ليسمح له أن يأخذ طفلها الرضيع منها... أن ينتزعه من ذراعي أمه ، بعيداً عن ثديها ، وحليبها لا زال على شفتيه البريئتين . ناكفه ابني أنا ، لا ، ما كان قلبه سيسمح له بذلك... ولو كان ذلك عادلاً عشرة أضعاف ما كان أبي ليفعل ذلك أبداً...

و لكنها لم تستطع أن تبعد صورة ما عن ذهنها . مجموعة من الفرسان تختفي شمالاً عبر الوادي ، حيث يضيق "ديل" وتحتشد الجبال ، سوداء من أحراج الصنوبر . هبات باردة تأتي من النهر الذي يندفع هادراً عبر الصخور الكبيرة ، الخضراء الجليدية ، المزبدة ، مع برك سوداء هنا وهناك . إن من يسقط هناك سيتدحرج من صخرة إلى أخرى ويتهشم جسده فوراً... يا للمسيح ، يا لمريم...

ثم شاهدت الحقول في بيت أهلها في يورونغارد في ليلة صيف صافية... ورأت نفسها تعدو هابطة الممر المؤدي إلى المرجة الصغيرة ضمن أجمة أشجار جار الماء... حيث اعتادوا غسل ملابسهم . كان النهر يجري هادراً بقوة ورتابة بين الصخور الكبيرة بحوضه المنحدر... أيها الرب يسوع ، لا أستطيع أن أفعل أي شيء آخر...

أوه ، ولكن أبي ما كان ليسمح له قلبه بذلك . حتى لو كان الأمر منافياً للعدل . حين كنت أصلي على ركبتيَ العاريتين المثنيتين : يا أبي ، عليك ألاّ تأخذ ابني مني...

•

وقفت كريستين فوق فيغينسبريكا وشاهدت المدينة تمتدّ تحتها تحت نور الشمس الذهبي . إلى ما وراء منحنيات النهر العريضة اللامعة كانت منازل بنية ذات أسقف خضراء مكسوة بالأعشاب ذات جملونات مدبّبة ، وكنائس ذات أسقف خشبية عالية وكنائس ذات أسقف رصاصية تلمع على نحو باهت . ولكن فوق الأرض الخضراء ، فوق المدينة الجميلة ، كانت "كنيسة المسيح "(٥) تبرز هائلة وتلتمع على نحو رائع ، وكأن كل شيء آخر كان منبطحاً عند قدميها . ومع شمس المساء التي تلمع فوق صدرها وعلى زجاج نوافذها المومضة ، والأبراج والقمم التي تصيب بالدوار ودواراتها الذهبية ، كانت الكنيسة تنتصب مشيرة إلى السماء الصيفية اللامعة .

من حولها كان الريف أخضر بلون الصيف ، يحوي ضياعاً عظيمة ذات سكان ورعين على منحدراته . في الخارج مجدداً كان الزقاق البحري يمتدّ واسعاً ولامعاً ، مع ظلال تنجرف فوقه من غيوم الصيف الكبيرة التي كانت تبرز فوق الجبال الزرقاء المومضة إلى البعيد . كانت جزيرة الدير ، الواطئة بين مويجات متلاطمة ، تبدو كإكليل أخضر ذي أزهار بيضاء هي أبنيته الحجرية . كانت هناك صواري سفن كثيرة في المرسى ، منازل جميلة جداً وكثيرة جداً...

رمت المرأة الشابة بنفسها ، وقد أنهكت تماماً وهطلت دموعها ، أمام

الصليب المنصوب على جانب الطريق ، كما كان آلاف الحجاج قد فعلوا قبلها ، وهم يحمدون الرب لأن هناك أيد تقدّم المساعدة للأرواح البشرية في رحلتها عبر هذا العالم الجميل والخطير .

•

كانت الأجراس تدق لأجل صلاة المساء في الكنائس والأديرة حين دخلت كريستين ساحة كنيسة المسيح . تجرأت فرفعت بصرها لبرهة إلى واجهة الكنيسة الغربية ، ثم وقد غشاها العمى ، أسدلت عيناها .

لم يقم البشر بقوتهم الذاتية بإنجاز هذا العمل... لقد عملت روح الرب عملها في أوستاين المقدس وكذلك فيمن شيّدوا هذا الصرح من بعده . ليأت ملكوتك . لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض... الآن فهمت معنى الكلمات . إنه انعكاس لمجد ملكوت الرب شاهد في هذه الحجارة على أن إرادة الرب كانت عادلة . ارتعدت كريستين . أجل ، إن الرب حريّ بأن يتقلّب غضباً من كل ما هو فاسد... من الخطيئة والعار والدنس .

في دهاليز المسكن السماوي يقف رجال ونساء مقدسون وجميلون إلى حد أنها لم تجرؤ على النظر إليهم . كانت حوالق جميلة لا تذوي من الأبدية تلتف بصمت صاعدة إلى السماء : تورق على البرج أو الطربال وتزهر على كؤوس القربان الحجرية . فوق الباب المتوسط كان المسيح معلقاً على صليبه ، بينما مريم ويوحنا المعمدان يقفان إلى جانبه ، وهم بلون أبيض كأنهم منحوتون من الثلج وكان الذهب يتلألأ فوق اللون الأبيض .

دارت ثلاث مرات من حول الكنيسة وهي تصلي . الأسوار الضخمة القوية ذات الغنى المذهل بالأعمدة والأقواس والنوافذ ، ولمحات إلى

المنحدرات الهائلة للسقف ، البرج ، يذهب الطربال عالياً في الفراغ السماوي : غرقت كريستين تحت عبء خطيئتها .

ارتجفت حين قبّلت الحجر المنحوت للبوابة . وفي ومضة كالبرق رأت الخشب المحفور الداكن حول باب الكنيسة في موطنها حيث كانت تقبّله بشفتيها الطفوليتين بعد أبيها وأمها...

رشّت الماء المقدس على الطفل وعلى نفسها... وفكرت في ذلك الزمن حين اعتاد أبوها ممارسة هذا الطقس حين كانت صغيرة . ثم تقدمت نحو الكنيسة وقد ضمت الطفل بقوة بين ذراعيها .

مرت عبر غابة : الأعمدة كانت مغضنة مثل أشجار قديمة ، وعبر الغابة كان النور يتدفق متعدد الألوان وواضحاً كأغنية ، من النوافذ المزينة بالصور . فوقها عالياً كانت وحوش وكائنات بشرية تلعب بين الأوراق الحجرية المنحوتة ، وكانت الملائكة تلهو... وكانت الأقواس ترتفع عالياً عالياً على نحو مثير للدوار وتحمل الكنيسة عالياً نحو الرب . سقطت كريستين على ركبتيها عند أحد الأعمدة . لقد اخترقها الغناء شأن نور قوي جداً . وهاهي ترى الآن كيف كانت تتمدّد في التراب...

أبانا . نؤمن بإله واحد . السلام عليك يا مريم ، الكثير من الشكر . كانت قد تعلمت صلاتها بترددادها بعد أبيها وأمها قبل أن تفهم منها كلمة واحدة... منذ زمن لا تستطيع تذكره . يا يسوع المسيح! هل هناك امرأة تحمل من الخطايا مثل ما تحمل هي... ؟

عالياً تحت قوس النصر المرفوع فوق الناس ، علق المسيح المصلوب . أما العذراء البتول التي كانت أمه فوقفت تحدق في ألم مهلك إلى ابنها البريء ، وهو يعاني موتاً مترعاً بالعذاب وكأنه فاعل للشر .

و هنا ركعت هي ، وثمرة الخطيئة بين ذراعيها . ضمت الطفل إليها... كان نضراً كثمرة تفاح ، أحمر وأبيض كوردة... كان مستيقظاً الآن ، وراح يتطلع إليها بعينين حلوتين صافيتين...

لقد حملت به بالخطيئة . حملتها تحت قلبها القاسي الشرير . ثم سُحب من جسدها الذي لوثته الخطيئة ، جميلاً جداً وصحيحاً جداً ، رائعاً ونضراً ونقياً إلى حد لا يوصف . كانت الرحمة التي لا تستحقها قد حطمت قلبها . ركعت وقد دمرها الندم ، ونبع البكاء من روحها كما يتدفق الدم من جرح الموت .

ناكفه... ناكفه... يا بنيّ... يحلّ الرب خطايا الآباء على الأبناء . ألم أكن أعرف ذلك ؟... أجل ، عرفت ذلك . ولكن لم تكن هناك رحمة في قلبي للحياة البريئة التي قد تستيقظ في رحمي... لتكون ملعونة ومدانة بالعذاب بسبب خطيئتي...

هل تبتُ عن خطيئتي حين حملتك في داخلي يا ابني الحبيب ، الحبيب ؟ أوه ، كلا ، لم تكن تلك توبة... كان قلبي قاسياً من الغضب والأفكار الشريرة في الساعة التي شعرت فيها بك تتحرك ، صغيراً جداً وعاجزاً جداً...أيها الكائن الرائع سيطر عليّ . يا أيتها الروح الممجدة السلام عليّ..هكذا غنت ، ملكة كل النساء حين اختيرت لتحمله هو الذي كان سيموت لأجل خطايانا... لم أتذكره هو القادر على أن يحمل عبء خطيئتي وخطينة طفلي... أوه ، كلا ، لم تكن تلك توبة ،ولكني تظاهرت بالدناءة والبؤس وتوسلت وتوسلت أن تُخرق أوامر الصلاح والاستقامة ، لأني لم أكن قادرة على تحمل الأمر لو كان الرب سيدعم قانونه ويعاقبني حسب كتابه الذي عرفته طوال حياتي...

أوه ، أجل ، الآن عرفت الأمر . لقد ظنت أن الرب كان واحداً كأبيها وأن القديس أولاف كان كأبيها . كانت تظن طوال الوقت ، عميقاً في قلبها ، أنه حين سيصبح عقابها أثقل من أن تتحمله ، عندها ستواجه ، ليس العدالة ، بل التعاطف...

كانت تبكي لذلك لم تستطع أن تنهض حين نهض الناس خلال الصلاة . بقيت على الأرض وقد تكومت فوق طفلها . إلى القرب منها كان أشخاص آخرون لم يستطيعوا النهوض... فلاحتان في ملابس لائقة مع صبي صغير بينهما .

نظرت ناحية الكورس . خلف الأبواب المذهبة ذات القضبان كان ضريح القديس أولاف يتلألأ في العتمة ، عالياً خلف المذبح . سرت فيها قشعريرة باردة كالثلج . هناك كان جسده المقدس راقداً ينتظر يوم البعث . يوم سيرتفع الغطاء ويقوم هو . وبفأسه في يده سيمشي في هذه الكنيسة الهائلة . ومن الأرضية المرصوفة ، ومن التراب في الخارج ، ومن كل مقبرة في أرض النرويج ، ستقوم هياكل الموتى الصفراء... ستُكسى الهياكل لحماً وسيحتشد الجميع حول ملكهم . أولئك الذين ناضلوا حتى يسيروا على خطاه المعلّمة بالدم ، وأولئك الذين سعوا إليه حتى يساعدهم بأعباء الخطيئة والأسف والمرض التي حلت عليهم هنا في هذه الحياة وعلى أولادهم . وهاهم الآن يتحلقون من حول سيدهم ويتوسلون إليه حتى يوصل طلباتهم إلى الرب . أيها الرب أصغ إلى صلواتي لأجل هذا الشعب الذي أحمل له الكثير من الود حتى أني لأفضل أن أخرج عن القانون وأعاني من الفاقة والكره والموت ، على أن يترعرع رجل أو امرأة في النرويج ولا يعرفان أنك قد متّ لتخلّص كل الخاطئين . أيها الرب ، أنت الذي أمرتنا بالخروج وجعل كل الشعوب من

تابعيك... بدمي كتبت أنا أولاف هارالدسون إنجيلك بلسان النرويجيين ، لأجل هؤلاء الأحرار الفقراء من شعبي...

أغمضت كريستين عينيها ، وهي تشعر بالغثيان والدوار . كان وجه الملك أمامها : عيناها المشعتان شاهدتا قاع روحها... ارتجفت تحت نظرة القديس أولاف .

هل فهمت الآن يا كريستين أنك في حاجة إلى العون ؟

أجل يا سيدي ومليكي ، الآن فهمت ذلك . إن حاجتي ماسة لعونك لي ، حتى لا أبتعد عن الرب مجدداً . كن معي ، أنت يا زعيم شعبه ، حين أتقدم بصلواتي ، وأتوسل إليك أن أُمنح الرحمة . يا أولاف المقدس ، صلّ لأجلي .

قلباً نقياً اخلق فيّ يا الله وروحاً مستقيماً جدد في داخلي .

لا تطرحني من قدام وجهك

حررني من الوباء ، ايها الرب ، أيها الرب امنحني السلام...

●

انتهت الصلاة . كان الناس يغادرون الكنيسة . نهضت الفلاحتان اللتان ركعتا إلى القرب من كريستين . ولكن الصبي الذي كان بينهما لم ينهض . بدأ يتحرك فوق الأرضية بضغط براجم قبضتيه على الألواح الحجرية ثم بقذف نفسه إلى الأمام مثل غراب صغير لم ينبت ريشه بعد . كانت له ساقان ضئيلتان ملويتان تحت جسده . سارت المرأتان بحيث تخفيانه عن الأنظار على أفضل نحو تستطيعانه تحت ملابسهما .

حين ابتعدتا عن النظر ، رمت كريستين بنفسها أرضاً وقبّلت أرض الكنيسة حيث مرتا إلى القرب منها .

وقفت ، وهي في حالة الشك وضائعة ، قرب المدخل إلى الكورس ، حين خرج كاهن شاب من الباب ذي القضبان المشبكة . توقف أمام الشابة ذات العينين المحمرتين ، وأبلغته كريستين بمهمتها ، بقدر ما تستطيع من الدقة . في البداية لم يفهمها إلا بالكاد . ثم أخرجت الإكليل الذهبي وقدمته إليه .

"أوه ، أنت كريستين لافرانسداتر ، زوجة إرلند من هوسابي... ؟" نظر إليها ببعض العجب . كان وجهها متورّماً من البكاء . "أجل ، أجل ، لقد تحدث أخو زوجك الماستر غونولف عن ذلك ، أجل ."

قادها إلى المَوْهِف ، وأخذ منها الإكليل ، ثم فكّ القماش الكتاني من حوله ونظر إليه . ثم ابتسم قليلاً .

"أجل ، ستفهمين على ما أعتقد... لا بدّ من وجود شهود وما شابه... لا يمكنك التخلّي عن مثل هذا الشيء الثمين ، أيتها السيدة ، وكأنه كسرة خبز مغطاة بالزبدة... ولكن يمكنني أن آخذه كعهدة في هذه الأثناء... هذا أشبه برغبتك في عدم اختيار حمله خلال تجوالك في المدينة... أوه ، اطلب إلى الكاهن آرن أن يتفضل ويأتي إلى هنا" ، قال إلى أحد خدم الكنيسة .

"أعتقد أن زوجك يجب أن يكون معك حقاً . ولكن ربما وصلت رسالة منه إلى غونولف...

"عليك أن تتقدمي إلى الأسقف نفسه... أليس الأمر كذلك ؟ أو إلى هاوك توماسون الذي هوالكاهن المسؤول .لا أعرف إن كان غونولف قد تكلم مع

اللورد آيليف... ولكن عليك الحضور إلى هنا عند صلاة الصباح غداً ، وتستطيعين أن تطلبيني بعد الصلاة . اسمي بال أسلاكسون . أما هو" ، وهنا أشار إلى الطفل ، فعليك أن تتركيه في النزل . ستنامين في منزل الأخوات في باكه ، هذا ما أتذكر أن أخا زوجك قد قاله ."

دخل كاهن آخر وتبادل الاثنان أطراف الحديث لبعض الوقت . فتح الأول خزانة صغيرة في الجدار ، وأخرج ميزاناً ثم وزن الإكليل ، بينما راح الآخر يكتب في سجل . ثم وضعا الإكليل في الخزانة وأقفلاها .

كان كانون بال على وشك أن يقودها إلى الخارج... ولكنه سألها أولاً إن كانت ترغب في أن يرفع لها ابنها إلى ضريح القديس أولاف .

حمل ابنها بالرشاقة الواثقة إنما غير المبالية لكاهن اعتاد على حمل الأطفال خلال العماد . دخلت كريستين معه إلى الكنيسة ، وسألها إن كانت هي راغبة أيضاً في تقبيل الضريح .

فكرت كريستين في أنها لا تجرؤ ، ولكنها لحقت بالكاهن صاعدة الدرج المؤدي إلى المصطبة العالية حيث كان الضريح . وقد مرّ أمام عينيها نور هائل مبهر حين قرّبت شفتيها من الضريح .

نظر إليها الكاهن للحظة وقد اعتراه الخوف من أن تقع مغشياً عليها . ولكنها نهضت مجدداً على قدميها . ثم جعل هو جبين الطفل يلمس الضريح المقدس .

مضى كانون بال معها إلى باب الكنيسة وسألها إن كانت واثقة من قدرتها على أن تجد طريقها إلى الممرّ . ثم تمنى لها ليلة طيبة... كان يتكلم طوال الوقت بأسلوب ناعم جاف مثل أي رجل بلاط شاب مهذب .

كان المطر قد بدأ بالهطول قليلاً ، وبدأت روائح عذبة تهبّ على نحو منعش من الحدائق ومن الممرّ الذي كان نضراً وأخضر كفسحة ريفية ، باستثناء المساحات الضيقة الطويلة العارية من وطء أقدام الناس .

حمت كريستين الطفل من المطر بقدر ما استطاعت . كان ثقيلاً جداً الآن ، ثقيلاً إلى حد أن ذراعيها أصيبا بالخدر من حمله . وكان يتذمر ويبكي دون توقف... لا شك أنه جاع مجدداً .

كانت أمه منهكة إلى أقصى حد... من المشي طوال اليوم ومن كل البكاء وشدة انفعالها في الكنيسة . شعرت بالبرد ، وراح المطر يشتد وبدأت أوراق الشجر تومض وترتجف تحت حبات المطر المطرطشة . شقت طريقها عبر الممرات ثم خرجت إلى فسحة سماوية حيث استطاعت أن ترى إلى الأمام حيث كان النهر عريضاً رمادي اللون ، كما كان سطحه مثقباً كالمنخل من المطر المتساقط .

لم يكن هناك زورق للعبور . تكلمت كريستين مع رجلين كانا يحتميان تحت أرضية مستودع كان قد بني على دعامات عند حافة النهر . قالوا لها إن عليها الذهاب إلى مكان الرسو... كان للراهبات منزل هناك كما يوجد رجل مسؤول عن زورق العبور .

جرّت كريستين قدميها عابرة مرة أخرى المكان المفتوح ، وقد تقرحت قدماها وتبللتا وتعبتا . وصلت إلى كنيسة حجرية صغيرة داخل سياج . كان ناكفه يزعق بجنون ، فلم تستطع دخول الكنيسة . ولكن صوت الغناء وصلها عبر فتحات النوافذ غير المطلية ، وعرفت الترنيمة التجاوبية :

"استبشري يا ملكة السماوات فذاك الذي حملت قد صعد كما قال . هللويا .

كانت تلك الأغنية التي كانت راهبات دير المينوريت يغنينها بعد آخر الصلوات . كان الأخ إدفين قد علّمها هذه الترنيمة الموجهة إلى أم الرب خلال سهرها على فراشه في تلك الليالي التي قضاها في بيت أهلها يعاني من الداء العضال في يوروندغارد . تسللت إلى ساحة الكنيسة ، ووقفت قرب الجدار وطفلها على ذراعها ، وراحت ترددها بصوت خفيض لنفسها .

لاشيء تفعلينه يا كريستين يمكنه أن يجعل أباك يكرهك . لذلك عليك ألاّ تسببي له المزيد من الحزن...

حتى ويداك مسمرتان على الصليب ، يا رب السماء الغالي... ومهما كانت أي روح قد ضلّت بعيداً عن الطريق القويم ، إلاّ أن يديك المسمّرتين كانتا تمتدان إليها بتوق . ما كانت هناك حاجة إلى أي شيء عدا هذا : أن على الأرواح الخاطئة أن تلتفت إلى تينك الذراعين المفتوحتين ، بحرية ، كما يتوجه الطفل إلى أبيه ، وليس كما يجبر الأرقاء الآبقون على العودة إلى سيدهم القاسي . لقد فهمت الآن كم كانت الخطيئة كريهة . شعرت مجدداً بذلك الألم في صدرها ، وكأن قلبها كان سينفطر من الندامة والعار بسبب عدم استحقاقها للرحمة التي حلّت عليها...

إلى القرب من جدار الكنيسة كان ملتجأ صغير من المطر . جلست على شاهدة قبر وبدأت تطعم الطفل الجائع . بين الحين والآخر كانت تنحني وتقبل الرأس الصغير المغطى .

لا بدّ أنها أغفت . لمس شخص ما كتفها . كان راهب وأخ من الخدم يحمل رفش حفار القبور في يده يقفان أمامها . كان الراهب حافي القدمين يسألها إن كانت تريد مأوى لليلتها .

التمعت الفكرة في رأسها... فهي ستفضل البقاء هنا الليلة مع المينوريت ، أخوة الأخ إدفين . وكان الطريق بعيداً إلى باكه... وكانت هي منهكة جداً . ثم طلب الراهب من الأخ الخادم أن يوصل هذه المرأة إلى نزل النساء... «وأعطها بعض غسول لأجل قدميها فهما مقرحتان كم أرى» .

كان المكان خانقاً ومظلماً في نزل النساء : كان يقع خارج السياج ، قرب الممر . جلب لها الأخ الخادم الماء لتغتسل به والقليل من الطعام ، فجلست قرب الموقد وحاولت أن تهدئ الطفل . كان واضحاً أن ناكفه كان يشعر في غذائه أن أمه كانت منهكة وقد صامت ذلك النهار . راح يبكي وينّ بين الحين والآخر خلال رضاعته من ثدييها المنهكين . شربت كريستين بعض الحليب الذي أحضره الأخ الخادم إليها . حاولت أن تلفظ الحليب من فمها إلى فم الطفل... ولكن الوغد الصغير تذمّر بصخب احتجاجاً على هذا الأسلوب الجديد من تناول الطعام ، فضحك الرجل العجوز وهزّ رأسه . عليها أن تشربه بنفسها ، كما قال ، وعندها سرعان ما سيحصل الصبي على الفائدة منه...

و أخيراً مضى بعيداً . زحفت كريستين إلى واحدة من الأسرة الصندوقية العليا تحت السقف . ومنه كانت قادرة على الوصول إلى السقف لفتح شباك فيه... وكانت هناك حاجة إلى ذلك ، فقد كانت رائحة مغثية تنتشر في المنزل . فتحت كريستين الشباك : دخل هواء الليلة الصيفية الباردة الصافية وأحاط بها . جلست في السرير القصير ورأسها وكتفها مستند إلى خشب الجدار... كان هناك عدد قليل جداً من الوسائد في السرير . نام الصبي في حضنها . كانت تريد أن تغلق الشباك خلال فترة قصيرة ، ولكنها نامت دون أن تعي ذلك .

استيقظت بعد فترة في الليل . كان القمر الصيفي يشع إلى الداخل ، شاحباً وأصفر كالعسل ، فوق الطفل وفوقها ، وأنار الجدار المقابل لهما . وقد أدركت وجود شكل بشري في وسط شعاع القمر ، وهو يحلّق بين الأرضية وشجرة السقف .

كان يرتدي رداء الرهبان الرمادي : كان طويلاً أحدب الظهر . والآن التفت بوجهه العجوز ذي الأخاديد نحوها . كان الأخ إدفين . ابتسم وكانت ابتسامته رقيقة إلى حد لا يوصف : مرحة على نحو فظّ قليلاً ، كما كان شأنه حين كان حياً يسعى على هذه الأرض .

لم تتعجب كريستين إطلاقاً . نظرت إليه بتواضع وسعادة وأمل ، وانتظرت ما سيقوله أو يفعله .

ضحك الراهب ومدّ إليها قفازاً عتيقاً ثقيلاً من الفرو... ثم علّقه على شعاع القمر وتركه معلقاً هناك . ثم ابتسم مجدداً وأومأ إليها برأسه وتلاشى .

القسم الثاني

هوســابي

١

في أوائل السنة الجديدة ، وصل إلى هوسابي بعض الضيوف غير المتوقعين : لافرانس بيورغولفسون وسميد غودلايكسون العجوز من دوفر ومعهما سيدان لم تعرفهما كريستين . وتعجب إرلند كثيراً إذ رأى حماه قادماً في صحبتهما : فقد كانا السير إرلينغ فيدكونسون أوف جيسكه وهاتفور غراوت أوف غودري… لم يكن إرلند يحسب أن لافرانس يعرف هذين الرجلين . ولكن السير إرلينغ أوضح الأمر ، فحكى كيف التقوا جميعاً في "نس أوف رامسدال" ، حيث جلس لافرانس وسميد في "محكمة الستة"[٦] الذي حلّ أخيراً النزاع بين ورثة السير يون هاوكسون المتنازعين . كان هو ولافرانس قد انخرطا في الحديث عن إرلند وخطر للسير إرلينغ أنه طالما كان منطلقاً نحو نيداروس في مهمة ، فسوف يود زيارة سكان هوسابي ، إذا انضم إليه لافرانس وأبحر شمالاً معه . قال سميد غودلايكسون ضاحكاً ، إنه قد أخفى نفسه ليصطحبهما :

"كنت راغباً في الحضور لمشاهدة كريستين مجدداً… أجمل وردة في نوردال . ثم فكرت في أن قريبتي ، راغنفريد ، ستكون ممتنة لي لو راقبت زوجها عن كثب ، لألاحظ ما هي الخطط الهامة التي يحضّرها مع رجال حكماء

وأقوياء مثل هؤلاء . لدى أبوك خطط أخرى لهذا الشتاء يا كريستين ، عدا القيام بجولات على الضياع معنا ، وتعاطي الشراب من عيد الميلاد حتى حلول الصيام . لقد كان علينا الآن أن نبقى في بيوتنا في سلام وهدوء طوال هذه السنين وأن يرعى كل منا شؤونه بنفسه . ولكن لافرانس جعل كل رجال الملك في ديل يمتطون جيادهم معاً إلى أوسلو في منتصف الشتاء شديد القسوة... والآن علينا أن نشاور اللوردات الكبار في مجلس الملك لمصلحة الملك... إنهم لا يديرون دفة الأمور جيداً في مصلحة الولد القاصر ، كما يقول لافرانس..." (٧) .

بدا السير إرلينغ قلقاً على نحو ما . رفع إرلند حاجبيه .

"أ أنت من مؤيدي هذه الخطة يا عماه... الدعوة إلى الاجتماع الكبير لرجال الملك ؟"

قال لافرانس : "لا ، لا . ولكني ذاهب إلى الاجتماع أسوة ببقية رجال الملك في ديل ، بما أننا قد دعينا إلى هناك..."

و لكن سميد غودلايكسون استأنف حكايته مجدداً : "كان لافرانس هو من أقنعه... ولم يكن هرستاين أوف كروكه وتروند غييسلينغ وغوتورم سنايس وآخرون راغبين في الذهاب...

سأل لافرانس : "و لكن أليس من عادتكم في هذه الأنحاء دعوة الغرباء إلى منزلكم ؟ هيا بنا الآن لنرى إن كانت كريستين تخمر جعة جيدة شأن أمها!"...

نظر إرلند نظرة ارتياب وتعجبت كريستين كثيراً .

سألته بعد فترة قصيرة حين كان معها في القاعة الصغيرة ، حيث جلبت الطفل ليكون بعيداً عن الغرباء : "ما الحكاية يا أبي ؟"

جلس لافرانس وراح يرقّص حفيده على ركبتيه . كان ناكفه في الشهر العاشر من عمره الآن ، طفلاً كبير الحجم وجميلاً . كان قد سبق له منذ فترة عيد الميلاد أن ألبس جاكيتة قصيرة وبنطالاً ضيقاً .

"لم يسبق لي أن عرفتك يا أبي تتدخل في قضايا كهذه" ، تابعت كريستين كلامها . «لم يسبق أن سمعتك تقول إنه لصالح البلاد في السلام والحرب ، ولصالح رعاياه فإن على الملك بالأحرى أن يدخل الكهنوت وكذلك الرجال الذين دعاهم إلى جانبه . يقول إرلند إن هذه المغامرة من عمل النبلاء في الجنوب... فهم سينحّون جانباً الليدي انجبورغ والرجال الذين عيّنهم لها والدها كمستشارين... ثم يستولون مجدداً لأنفسهم على أكبر قدر من السلطة كما كان عليه الحال حين كان الملك هاكون وأخوه طفلين . ولكن أنت نفسك كنت معتاداً على القول إن المملكة قد عانت ضرراً كبيراً من حكمهم..."

همس لها لافرانس أن تبعد مربّية الطفل . وحين أصبحا وحيدين سألها :

"من أين وصلت هذه الأنباء إلى إرلند ؟... هل هي من مونان ؟"

حكت له كريستين أن أورم قد جلب معه رسالة من السير مونان حين عاد إلى البيت في الخريف . لم تقل له إنها قرأتها بنفسها لإرلند... فلم يكن هذا ماهراً جداً في القراءة . ولكن في الرسالة كان مونان يشتكي بمرارة من أن كل رجل في النرويج يحمل شعاراً على ترسه راح يعتبر الآن أنه يفهم كيف يحكم المملكة أفضل من الرجال الذين وقفوا إلى جانب الملك هاكون حين كان حياً . وهم يعتقدون أنهم يعرفون على نحو أفضل ما كان في مصلحة الملك الطفل ممّا تعرفه تلك السيدة ذات النسب الرفيع ، أي أم الملك . وقد

حذّر إرلند من أن هناك دلائل على أن النبلاء النرويجيين يريدون أن يحاكوا ما فعله السويديون في "سكارا" في الصيف... وهم يجهزون الخطط ضد الليدي انجبيورغ ومستشاريها العجائز المجربين... وعلى أقرباء الملكة أن يكونوا مستعدين ، وعلى إرلند الذهاب جنوباً لمقابلة مونان في هامار .

قال لافرانس وهو يدفع بإصبعه تحت ذقن ناكفه السمين : "أولم يقل أيضاً أني كنت واحداً من الرجال الذين عارضوا نداء حمل السلاح غير القانوني الذي جلبه معه مونان إلى ديل... باسم ملكنا ؟"

قالت كريستين : "أنت! هل قابلت مونان باردسون في الخريف ؟"

أجاب لافرانس : "لقد فعلت ذلك . ولم نتفاهم معاً ."

سألته كريستين : "و هل تكلمتما عني ؟"

قال أبوها ضاحكاً بعض الشيء : "لا يا كريستين الصغيرة . لا أستطيع أن أتذكر أن اسمك ذكر خلال تلك اللقاء... هل تعرفين إن كان زوجك ينوي الاتجاه جنوباً لمقابلة مونان باردسون ؟"

قالت كريستين : "أعتقد ذلك . لقد أملى إرلند رسالة على سيرا آيليف منذ فترة ليست بالطويلة... وقد تحدث فيهاعن السفر جنوباً خلال وقت قصير ."

جلس لافرانس صامتاً لبعض الوقت ، وهو ينظر إلى الطفل الذي كان يتحسس بأصابعه غمد خنجره ويحاول أن يعض الحجر البلوري الذي يزيّنه .

سألت كريستين : "هل صحيح أنهم سيستولون على حكم المملكة من الليدي انجبيورغ ؟"

أجاب أبوها وهو لا يزال يبتسم : "الليدي في عمرك أو حوالي ذلك .

ولن يأخذ أحد من أم الملك الشرف أو السلطة اللذين تمتعت بهما حين ولدت . ولكن الأسقف وبعض أصدقاء وأقرباء ملكنا الراحل ، قد دعوا إلى اجتماع للتشاور حول كيفية تدبير الحماية المثلى لسلطة وشرف الليدي وصالح شعب هذه البلاد ."

قالت كريستين بصوت خفيض :

"أرى جيداً يا أبي أنك لم تأت إلى هوسابي هذه المرة لمجرد أن ترى ناكفه وتراني ."

قال لافرانس : "ليس لأجل ذلك فحسب . وأستطيع أن أرى يا ابنتي أنك لا تحبين هذا!"

وضع يديه فوق وجهها وتلمّسه صعوداً ونزولاً . كان من عادته أن يفعل ذلك ، منذ أن كانت فتاة صغيرة ، وذلك كلما كان يعنّفها أو يغيظها .

•

في هذه الأثناء سهر السير إرلينغ وإرلند في مخزن السلاح... هذا ما كان يسمى المخزن الكبير إلى شمال شرق الساحة قرب البوابة الرئيسية . كان عالياً كبرج ، ومؤلفاً من ثلاثة طوابق ، وفي الطابق الأعلى كانت حجرة ذات جدران مزوّدة بفتحات للرمي ، وهناك كانت تحفظ كل الأسلحة غير المستخدمة يومياً في الضيعة . كان الملك سكوله هو من شيّد هذا البناء .

كان السير إرلينغ وإرلند يرتديان عباءتيهما المصنوعتين من الفرو ، فالبرد قارس في الغرفة . راح الضيف يتجول وهو يتفحص بعينيه الكثير من الأسلحة والدروع الممتازة التي ورثها إرلند من جده لأمه : غاوته إرلندسون .

كان إرلينغ فيدكونسون رجلاً قصيراً إلى حد ما ، ذا بنيان ليس بالثقيل ، وإن كان ممتلئ الجسم ، إلا أنه كان خفيف الحركة رشيقها . لم يكن ذا وجه جميل ، رغم أن ملامحه كانت ذات شكل حسن ، إلا أن شعره كان ذا لون أحمر فاتح وكان أبيض رمش العينين والحاجبين... أما عيناه فكانتا زرقاوين فاتحتين جداً . لقد كان السير إرلينغ يُعتبر ، على أي حال ، رجلاً وسيماً لأنه كان من المعروف عنه أنه أغنى فارس في النرويج . ولكن كان أمراً صحيحاً أنه كان ذا أسلوب هادئ رابح . كان ذا فهم ممتاز ، متعلّماً وغنياً في المعرفة ، وبما أنه لم يكن يبذل جهداً لعرض معرفته ، بل كان دائم الاستعداد للإصغاء إلى الآخرين ، فقد حصل أيضاً على الشهرة كونه واحداً من أحكم الرجال في البلاد . كان في عمر إرلند نيكولاوسون تقريباً ، وكانا على صلة قربى ، رغم أنها قرابة بعيدة ، وذلك من خلال قرابتهما لآل ستوفرايم . كانا يعرفان الواحد الآخر منذ زمن طويل ، ولكن لم تجمعهما الصداقة الوثيقة يوماً .

جلس إرلند فوق صندوق كبير ، وراح يتحدث عن السفينة التي بناها في الصيف الماضي . كانت ذات اثنين وثلاثين مجذافاً ، وقد عبّر عن رأيه في أنها ستكون سريعة وسهلة القيادة . كان قد جلب اثنين من صانعي السفن من نوردلاند وقد أشرف بنفسه على العمل معهما .

قال : "السفن هي بين الأشياء القليلة التي أعرف عنها قليلاً يا إرلينغ ، وسترى أن مراقبة « مارغيغرن » وهي تخوض عباب البحر سيكون أمراً مبهجاً للنظر..."

"مارغيغرن (غولة البحر)... ياله من اسم مخيف وثني منحته لسفينتك يا قريبي" ، قال السير إرلينغ ضاحكاً ضحكة صغيرة . "هل تعني أن تبحر بها جنوباً إذن ؟"

"أنت ورع شأن زوجتي... هي تقول أيضاً إنه اسم وثني . أجل ، إنها لا تحب السفينة أيضاً . فهي قد تربت في الداخل... لا تستطيع تحمل البحر ."

"أجل تبدو ورعة وجميلة ولبقة سيدتك" ، قال السير إرلينغ ، بتهذيب . "كما يتوقع المرء بعد أن يرى أهلها ."

ضحك إرلند قليلاً : "أجل . لا يمرّ يوم لا تحضر فيه قداساً . أما سيرا آيليف كاهننا الذي رأيت ، فيقرأ لنا بصوت مرتفع من الكتب المقدسة... هذا ما يفضله هو ، بعد الجعة والأطباق اللذيذة ، أن يقرأ بصوت مرتفع . ويأتي الناس الفقراء إلى هنا إلى كريستين للمشورة والمساعدة... ويكونون سعداء بتقبيل حاشية ثوبها ، كما أعتقد... أما رجالي فلم أعد أعرفهم . إنها واحدة من أحب السيدات اللواتي سبق ذكرهن في الملاحم المقدسة التي كان الملك هاكون يرغمنا على الجلوس والاستماع إلى الكاهن وهو يقرأها بصوت مرتفع... أتذكر ؟... حين كنا وصيفين معاً . لقد تغيّر الكثير في هوسابي منذ أن كنت ضيفي لآخر مرة ، يا إرلينغ... وأتعجب بالفعل أن تحضر إليّ والأمور على ما كانت عليه عندئذٍ" ، قال بعد قليل .

قال إرلينغ فيدكونسون بابتسامة لاءمته كثيراً : "لقد تحدثت عن أيام كنا وصيفين معاً . لقد كنا صديقين آنئذ ، أليس كذلك ؟ في تلك الأيام كنا جميعاً يا إرلند نعتقد أنك ستحقق الكثير في بلادنا هذه..."

و لكن إرلند ضحك فحسب : "أجل ، وهكذا كنت أعتقد أنا" .

"ألا تستطيع أن تبحر جنوباً معي يا إرلند ؟" سأله السير إرلينغ .

أجاب الآخر : "هدفي أن أسافر براً ."

قال السير إرلينغ : "رحلة متعبة لك... عبر الجبال في وسط الشتاء . سيكون أمراً ممتعاً لو أنك تصاحبني أنا وهافتور ."

أجاب إرلند : "لقد أعطيت وعداً لأشخاص آخرين بأن أصحبهم ."

"لا شك أنك ستذهب مع حميك... أجل... هذا سبب معقول ."

"لا ، ليس الأمر كذلك... لا أعرف إلا القليل عن هؤلاء الرجال من ديل الذين يرافقهم" . جلس إرلند صامتاً لفترة قصيرة . "لا ، لقد وعدت مونان بأن أزوره في ستينج" ، قال ذلك بسرعة .

أجاب الآخر : "وفّر على نفسك الجهد . لقد نزل مونان جنوباً إلى أملاكه في هيسينغ ، ولن يصعد شمالاً إلا بعد وقت طويل . هل مرّ وقت طويل على وصول رسالة منه ؟"

"كان ذلك في موسم قداس ميكائيل... لقد كتب إليّ من رينغابو" .

"اجل... ولكنك تعرف ما حدث في ديل في هذا الخريف الأخير ؟ سأل إرلينغ . "ألا تعرف ؟ لا شك أنك تعرف أنه ذهب بنفسه إلى الأوصياء على العرش" ، في "ميوس" وفي "ديل" ، مع رسائل تقول إن المزارعين يجب أن يدفعوا مكوساً كاملة من الجياد والمؤن... حصان واحد عن كل ستة مزارعين... كما أن على النبلاء والملاكين الأحرار أن يرسلوا جياداً ، ولكنهم يستطيعون البقاء في بيوتهم ؟ ألم تسمع بهذا ؟ وأن رجال الديل الشمالي رفضوا تقديم المكوس حين جاء مونان مع آيريك توب إلى المجلس في فاغه ؟ وعلاوة على ذلك فإن لافرانس بيورغولفسون هو الذي قاد المعارضين... لقد تحدى آيريك إن كانت أي مكوس قانونية متبقية وذلك لتحصيلها بالطريقة القانونية ، ولكنه سماها كبحاً متعالياً للناس لجعلهم يدفعون ضرائب حرب من مزارعين وذلك لمجرد مساعدة رجل دانمركي على شن حرب على الملك الدانمركي . وإذا ما نادانا ملكنا للخدمة بواسطة رجال الملك ، قال لافرانس ، فإن عليه أن يجدهم مستعدين بما فيه الكفاية

ليأتوا إلى مكان اللقاء بأسلحة وجياد جاهزة ورجال مسلحين ، ولكنه لم يرسل من يوروندغارد ولا حتى تيس واحد له رسن من الخيش ، إلا إذا أراد الملك أن يركبه بنفسه إلى مكان تحشد الجيش . كلا ، والآن ، أ أنت لا تعرف هذا ؟ يقول سميد غودلايكسون إن لافرانس وعد مزارعيه بأنه سيدفع عنهم غرامات المكوس(٨) ، إن دعت الحاجة..."

جلس إرلند متعجباً :

"هل فعل لافرانس ذلك ؟ لم يسبق لي أن سمعت أن والد زوجتي يتدخل في أي شيء عدا ما يخص أملاكه أو أصدقاءه..."

قال السير إرلينغ : "إنه لا يفعل ذلك غالباً ، ولكن بقدر ما رأيت حين كنت في «نس» معه ، أنه حين يعبر لافرانس بيورغولفسون عن رأيه في مسألة ما ، فإنه لا ينقصه الأتباع الكثيرون... فهو لا يتكلم إلاّ عما يعرفه جيداً حتى أن كلمته لا يمكن أن تردّ إلا بالكاد . والآن فيما يتعلق بهذه المؤن ، يقال إنه تبادل الرسائل مع أقربائه في السويد... كما تعرف فإن الليدي رامبورغ ، جدته لأبيه ، وكذلك جد السير إرنغيزل كانا ولدي عمومة ، لذا فإن أقرباءه هناك كثيرون ومبجّلون . ورغم أنه رجل هادئ ، حموك هذا ، إلا أن سلطته في الريف ليست بالقليلة حيث يعرفه الناس... رغم أنه لا يستخدمها غالباً ."

"أجل ، إذن فأنا أفهم لماذا تنشد رفقته يا إرلينغ" ، قال إرلند ضاحكاً . "لقد تعجبت من أنكما قد أصبحتما صديقين حميمين إلى هذا الحد ."

أجاب إرلينغ دون أن يتأثر : "أتستغرب ذلك ؟ إن رجلاً لا يسعده أن يسمي لافرانس أوف يوروندغارد صديقاً له هو رجل غريب حتماً . أنت يا قريبي سيكون وضعك أفضل لو أصغيت إليه بدلاً عن الإصغاء إلى مونان" .

"لقد كان مونان أشبه بأخ كبير لي منذ أن غادرت منزلي" ، قال إرلند ببعض الحماسة . "لم يسبق له أن تخلى عني في الشدة . وإذا ما عانى هو الآن من الشدة..."

قال إرلينغ فيدكونسون بهدوء كما من قبل : "سيكون مونان في أمان كاف . الرسائل التي حملها وتجول بها كانت مختومة بخاتم النرويج الكبير... على نحو لا قانوني ، ولكن لا علاقة له بهذا . صحيح أن هناك المزيد... هذا ما هو متهم به ، وقد صادق عليه بخاتمه ، حين شهد زواج الليدي يوفينا... ولكن لا يمكن إلقاء الضوء على هذا دون التطرق إلى أمر لا نريد التطرق إليه... والحقيقة يا إرلند... أعتقد أن مونان يستطيع إنقاذ نفسه دون مساعدتك... ولكنك قد تؤذي نفسك..."

قال إرلند : "إنك تهدف إلى الليدي انجبيورغ ، كما أرى . لقد وعدت قريبتنا بأن أخدمها هنا وفي البلدان الأجنبية ."

أجاب إرلينغ : "و حتى أنا وعدت بذلك . وأنوي المحافظة على ذلك الوعد... وكذلك أعتقد أن كل النرويجيين خدموا وأحبوا سيدنا وقريبنا الملك هاكون . وأفضل خدمة يمكن أن نقدمها لها هو أن نبعدها عن هؤلاء المستشارين الذين يعطون هذه السيدة الشابة جداً نصائح تؤدي إلى أذيتها هي وابنها ."

سأله إرلند بصوت خفيض : "أتعتقد أنك تستطيع فعل ذلك ؟"

قال إرلينغ فيدكونسون بحزم : "أجل . أعتقد ذلك . وأعتقد أن كل من لا يستمع إلى الحديث الشرير الفالت يصدق ذلك أيضاً . وأن علينا نحن ، أقرباء الليدي ، أن نكون آخر من يفعل ذلك ."

رفعت خادمة الباب الأفقي في الأرضية ، وسألت إن كان يلائمهما أن تأمر السيدة الآن بحمل العشاء إلى القاعة...

•

بينما كان سكان المنزل لا يزالون جالسين إلى المائدة ، ظل الحديث يدور حول هذه القضايا الهامة التي كانت موضع البحث . لاحظت كريستين أن كلاً من أبيها والسير إرلينغ كانا يحاولان إعاقة ذلك . راحا يتجهان بالحديث نحو صفقات الزواج والوفيات والنزاع بين الورثة ، والتجارة في المزارع . كانت قلقة ، رغم أنها ما كانت تعلم السبب في ذلك . كانت لديهم مهمة قيّمة لإرلند ، كما استطاعت أن تلاحظ . ورغم أنها ما كانت لتعترف لنفسها بذلك ، فقد كانت تعرف زوجها جيداً الآن حتى أنها لتشعر ، أنه مع عناده ، فقد يكون من السهل جعله يغيّر موقفه من قبل شخص لديه يد ثابتة في قفاز ناعم ، كما يقول المثل .

بعد الوجبة ، انتقل الرجال إلى المدفأة وجلسوا هناك يحتسون الشراب . استقرت كريستين على المقعد الطويل ، ووضعت إطار التطريز في حجرها ، وبدأت تضفر الحواشي . بعد وقت قصير اقترب منها هافتور غراوت ووضع وسادة على الأرض ، وجلس عليها عند قدميها . كان قد وجد سيتار إرلند ، فوضعه على ركبته وجلس وهو يداعب الأوتار ويهذر كالأطفال . كان هافتور شاباً هادئاً ذا شعر أصفر مجعّد ووجه جميل جداً إنما مغطى بالنمش إلى أبعد الحدود . وسرعان ما لاحظت كريستين أنه مهذار جداً . كان قد تزوج للتو من امرأة غنية . ولكنه كان يشعر بالملل في بيته وأملاكه ، كما قال . لذلك كان ذاهباً الآن إلى اجتماع رجال الملك .

"و لكن ليس من المعقول أن يبقى إرلند نيكولاوسون في البيت" ، قال ثم وضع رأسه على حجر كريستين . أزاحت نفسها جانباً وضحكت وقالت إنها لم تكن مخطئة فإن زوجها كان ينوي الرحيل جنوباً... "مهما يكن السبب" ، قالت بلهجة بريئة . "هناك الكثير من القلاقل في البلاد في هذه الأيام . وليس بالأمر السهل على امرأة بسيطة أن تحكم على مثل هذه الأمور" .

أجاب هاتفورد : "و لكن اللوم في هذا يقع على بساطة امرأة ما" ، أجاب هافتور ضاحكاً ، وهو يقترب منها مجدداً . "أجل ، هكذا يقول على الأقل إرلينغ ولافرانس بيورغولفسون... وسيسرني أن أعرف ما يعنيانه بذلك . ما رأيك يا سيدة كريستين ؟ الليدي انجبيورغ امرأة طيبة بسيطة... وربما تجلس الآن ، كما تفعلين ، وتضفر الحرير بأصابعها البيضاء كالثلج وهي تفكر : سيكون أمراً يدل على قسوة القلب أن ننكر على الخادم الأمين لزوجها الراحل مجرد مساعدة صغيرة ليحسّن أحواله..."

تقدم إرلند وجلس قرب زوجته . اضطر هافتور إلى الابتعاد قليلاً ليتيح له ذلك .

"إنها لحكايات تافهة تلك التي تتداولها النساء في مساكنهن حين يكون أزواجهن حمقى بما فيه الكفاية لاصطحابهن إلى الاجتماعات..."

قال هافتور : "يقول الناس في المكان الذي أنتمي إليه إنه لا دخان بلا نار..."

قال لافرانس : "أجل ، لدينا مثل هذا القول المأثور أيضاً" . كان هو وإرلينغ قد انضما إليهم الآن . "ولكني خدعت يا هافتور في الشتاء الماضي حين أضأت قنديلي بقطعة من روث حصان طازج ." جلس على حافة

المائدة . وعلى الفور أحضر السير إرلينغ كوب لافرانس وقدمه إليه مع انحناءة ، ثم جلس إلى القرب منه على المقعد .

قال إرلند : "ليس ممكناً يا هافتور أنك تستطيع أن تعرف ، وأنت بعيد هناك في الشمال في هالو غالاند ما الذي تعرفه الليدي انجبيورغ ومستشاروها عن أهداف وخطط الدانمركيين . لا أعرف إن لم تكن أنت يا ترى قصير النظر حين عارضت نداء الملك لأجل المساعدة . إنه السير كنوت... أجل يمكننا أن نسميه باسمه ، فهو الذي في أذهاننا... لم يبد لي أنه الرجل الذي يسمح لنفسه أن يضبط وهو يغفو على كرسيه . أنتم تقطنون في مكان بعيد جداً عن القدور الكبيرة حتى تستطيعوا أن تشموا ما يُطبخ فيها . والأفضل في رأيي أن يكون المرء واعياً قبل أن يسبق السيف العذل..."

قال السير إرلينغ : "أجل . يكاد المرء يقول إنهم يطبخون لنا الآن في ضيعة جارنا... سرعان ما سنصبح نحن النرويجيين أشبه بأشخاص يتعيّشون على حصة صغيرة من ورثتهم . سيرسلون إلى بابنا العصيدة التي طبخت في السويد... وكلها إن كان لديك لحم! أعتقد أنه كان خطأ من سيدنا... الملك هاكون... لأنه كما كان عليه الحال ، فقد نقل المطبخ إلى ضاحية المزرعة ، حين جعل أوسلو أول مدينة في البلاد . كانت من قبل في منتصف طريق المزرعة ، إذا حافظنا على هذه الصيغة من الكلام... بيرغن أو نيداروس... ولكن لا يوجد الآن من يحكم في تلك الأنحاء سوى الأسقف ورجال الكنيسة... أجل ، ما رأيك يا إرلند... أنت «التروندي» الذي كل متاعه وكل أملاكه الخاضعة له في تروندهايم هنا... ؟"

"أجل ، ودم الرب يا إرلينغ... إن كنت تقصد هذا... فلنحمل القدر إلى البيت ونعلقه في المصطلى الملائم مرة أخرى..."

قال هافتور : "أجل . لقد رضينا طويلاً هنا في الشمال برائحة الشياط وبجرعة من المرق البارد...

قاطع لافرانس قائلاً : "هكذا هي الحال يا إرلند... لم ألتزم بأن أكون الناطق باسم سكان الريف في موطني ، ولكني أحتفظ برسائل من قريبي السير إرنغيزل . لذلك لم أعرف أياً من الرجال الذين يحق لهم الحكم سواء في أراضي ملك الدانمارك أوأراضي ملكنا ممن يفكرون في تعكير صفو السلام والصداقة بين هذين البلدين ."

قال إرلند : "إن كنت تعرف من يحكم في الدانمارك الآن يا عمي ، فأنا أعلم أنك تعرف أكثر من الرجال الآخرين ."

"أعرف أمراً واحداً . هناك رجل واحد لا يراه أحد وهو يحكم ، لا هنا ولا في السويد ولا حتى في الدانمارك . وكان هذا هو معنى أفعال السويديين في سكارا في الصيف الماضي ، وهو معنى الاجتماع الذي سنعقده الآن في أوسلو... أي أن نوضح للجميع ممن لم يفهموا بعد أنه حول هذا الموضوع يتفق الرجال الحكماء كلهم ."

كانوا قد شربوا الكثير الآن حتى أن أصواتهم أضحت عالية... الجميع عدا سميد غودلايكسون العجوز الذي كان جالساً في كرسيه وقد نكس رأسه قرب الموقد . صاح إرلند :

"أجل ، أنتم أيها الناس حكماء جداً حتى أن الشيطان نفسه لا يستطيع خداعكم . لا عجب أن تخشوا كنوت بورس . لا تستطيعون فهمه أنتم أيها الارستقراطيون الطيبون... فليس هو بالرجل الذي يجلس لامبالياً مراقباً الأيام وهي تمر والعشب ينمو كما يريد الرب . سيسرني أن أقابل مجدداً ذلك الفارس : لقد عرفته حين كنت في هالاند . وما كنت لأعترض على ذلك لو كنت في مكان كنوت بورس ."

قال هافتور غراوت : "ما كنت لأجرؤ على قول كل هذا من حيث تستطيع زوجتي سماعي ."

و لكن إرلينغ فيدكونسون كان الآن أيضاً قد شرب الكثير . حاول أن يحافظ على أسلوبه المهذب ولكن الأمر أفلت من يده :

قال ضاحكاً ضحكة مجلجلة : "أنت! أنت يا قريبي!... كلا يا إرلند!" وضرب الآخر على كتفه وضحك وضحك .

قال لافرانس بفظاظة : "كلا يا إرلند . ستكون هناك حاجة أكبر إلى ما هو متعلق بخداع السيدات الجميلات . لو كان هناك في كنوت بورس ما هو أكثر من لعب دور الثعلب في حظيرة الإوز ، لاعتقدت أننا نبلاء النرويج أكسل من أن نخرج من منازلنا لصيده... حتى لو كانت الإوزة أُمّ ملكنا . ولكن أياً يكن الشخص الذي يستطيع السير كنوت خداعه ليلعب دور الأحمق لأجله ، فإنه هو نفسه لن يمارس أي حيل ليس فيها مغزى . إن لديه هدفاً ، وكونوا على ثقة أنه لا يزيح عينيه عنه..."

توقف الكلام . ثم قال إرلند وعيناه تومضان :

"إذن أتمنى لو أن السير كنوت كان نرويجياً ."

جلس الآخرون صامتين لفترة قصيرة . تجرع السير إرلينغ جرعة من كوبه ثم قال :

"لا سمح الله... لو كان بيننا رجل كهذا في النرويج ، فإني أخشى أنه سرعان ما سينتهي السلام في هذا البلد ."

قال إرلند باحتقار : "سلام في هذا البلد!"

"أجل سلام في هذا البلد" ، أجاب إرلينغ فيدكونسون . "تذكر يا

إرلند... إن من يملك هذه البلاد ويعيش فيها ليس نحن الفرسان فحسب . ربما سيبدو لك الأمر كنوع من التسلية لو برز هنا رجل تواق إلى المغامرة والسلطة شأن كنوت بورس . لذلك في الأيام الغابرة حين كان رجل يتمرد في بلادنا ، كان سهلاً عليه أن يجد أتباعاً بين النبلاء . فهم إما ستكون لهم اليد العليا ويكسبون الألقاب والإقطاعات ، أو أن أقرباءهم يكسبون كما يُمنحون هم العفو مدى الحياة والأموال : أجل ، يذكر السجل من خسروا حياتهم ، ولكن القسم الأكبر فروا بجلودهم ، سواء سارت الأمور على هذا النحو أو خلافه... القسم الأكبر من آبائنا ، عليك الانتباه . ولكن جمهرة المزارعين والعاديين وسكان البلدات ، يا إرلند... العمال الذين تنتزع منهم الضرائب مرتين زيادة في العام الواحد ، وقد يكونون مرحين مع ذلك ، في كل مرة تمرّ فصيلة من الجند عبر الريف دون أن تحرق مزارعهم وتنحر ماشيتهم... كان على العامة أن يعانوا أعباء وضغوطاً لا يمكن احتمالها... على ما أعتقد ، وشكراً للرب والقديس أولاف لوجود الملك هاكون العجوز والملك ماغنوس وأبنائه الذين دعموا القوانين وضمنوا السلام"...

"أجل ، أعتقد جازماً أنك تؤمن بأن الأمر هكذا"... عاد إرلند برأسه إلى الخلف . جلس لافرانس وهو ينظر إلى الرجل الأصغر سناً منه... كان إرلند مستيقظاً بما فيه الكفاية الآن . كان وجهه الأسمر القوي قد احمرّ الآن وبدت حنجرته وكأنها قد انتفخت متحولة إلى قوس في العنق الرشيق الأسمر . ثم نظر لافرانس إلى ابنته . كانت كريستين قد تركت عملها يسقط على حجرها وكانت تتابع حديث الرجال باهتمام .

"هل أنت واثق أن الفلاحين والعامة يفكرون على هذا النحو ويمتدحون إلى هذا الحد النظام الجديد للأمور ؟ صحيح أنهم عانوا من أوقات صعبة في

الغالب... في الأيام الماضية حين كان الملوك والملوك المتنافسون يتحاربون الواحد مع الآخر في طول البلاد وعرضها . أعرف أنهم لا زالوا يتذكرون حتى الآن تلك الأزمان حين كانوا يضطرون إلى الرحيل إلى الجبال مع قطعانهم وزوجاتهم وأطفالهم ، بينما كانت مزارعهم تحترق في كل الأودية . لقد سمعتهم يتحدثون عن ذلك . ولكني أعرف أنهم يتذكرون أمراً آخر أيضاً : أن آباءهم كانوا في عداد تلك الجيوش . لم نلعب نحن لوحدنا لعبة السلطة يا إرلينغ ، بل لعبها أبناء الفلاحين أيضاً... وقد أخذوا منا أراضينا مرة أخرى . لا يحدث تحت سيادة القانون في البلاد أن يقوم ابن عاهرة من سكيدان (تسمى البلدة الآن سكيين) ، والذي لا يعرف اسم أبيه ، بكسب أرملة بارون كزوجة له مع أراضيها ومتاعها ، كما فعل "رايدر دار"... لقد اعتبرتَ ابنه زوجاً ملائماً لابنتكَ يا لافرانس ، والآن تزوج هذا الابن ابنة أخ زوجتك ، يا إرلينغ! ولكن القانون والعدالة يسودان الآن... ولا أعرف كيف حدث ذلك ، ولكني أعرف أن الأمر على هذا النحو... إن أراضي الفلاحين تصبح في حوزتنا على نحو متزايد ، وأنه بالقانون... المزيد من القانون والحكم الصحيح ، فإن الأمر سيجري على نحو أسرع ، وسرعان ما تنزلق سلطتهم في شؤون المملكة وشؤونهم من أيديهم . ويا إرلينغ ، يعرف الفلاحون من العامة هذا أيضاً! أوه كلا! لا تكونوا واثقين جداً أيها السادة الطيبون ، من أن العامة سيتوقون إلى ذلك الزمن الذي كانوافيه معرضين لخسارة مزارعهم بالحريق أو بالسلب والنهب... ولكنهم قد يكسبون أيضاً بالسلاح أكثر مما يكسبونه بالقانون ."

أومأ لافرانس برأسه :

"هناك بعض الحقيقة فيما يقوله إرلند" ، قال بصوت خفيض .

و لكن إرلينغ فيدكونسون نهض :

"أستطيع تصديق ذلك فعلاً... أن العامة تتذكر القليل من الرجال الذين خرجوا من العدم وأصبحوا أصحاب قوة وسيادة في زمن السيف ، أكثر من تذكرها الكثير من الرجال الذين ذلوا بعد عزّ ليعيشوا في فقر وبؤس . ومع ذلك ، فإن هؤلاء الأوائل هم الذين تحولوا إلى سادة قساة لصغار الناس... وأعتقد أن المثل السائر قيل عنهم : ظلم ذوي القربى أشد . إن لم يولد المرء سيداً ، يتحول إلى سيد قاس... ولكنه لو نشأ في طفولته بين الخدم من رجال ونساء ، فسيكون أسهل عليه أن يفهم أننا دون العامة عاجزون كالأطفال طوال أيامنا ، وأنه ليس لأجل خاطر حب الرب فحسب ، بل لأجل خاطرنا نحن أيضاً ، بأن علينا أن نعاملهم بدورنا بمعرفة وأن نحميهم بفروسيتنا . لم يسبق لمملكة أن وقفت على قدميها إلا كان فيها رجال كبار يتمتعون بالقوة والإرادة على استخدام قوتهم لضمان حقوق الناس ذوي المرتبة الأدنى..."

قال إرلند ضاحكاً : "تستطيع أن تبزّ أخي بالوعظ تحت الرهان ، ولكني أعتقد أن هؤلاء التروندييين العنيدين كانوا يحبوننا أكثر نحو كبار القوم في الأيام السالفة حين كنا نقود أبناءهم إلى المعارك والغزوات ، ونجعل دماءنا تسيل فوق أخشاب ظهور المراكب ممتزجة بدمائهم ، خواتم مقطعة إلى شطرين ، ونشارك خدم منازلنا في الغنيمة... أجل ، ترين يا كريستين أني أنام أحياناً وقد تركت أذناً واحدة مفتوحة حين يقرأ سيرا آيليف من كتبه العظيمة ."

قال لافرانس بيورغولفسون : "المال الذي يُكسب دون وجه حق لا يصل إلى الوريث الثالث . هل سمعت بهذا يا إرلند ؟"

قهقه إرلند : "طبعاً سمعت به ولكني لم أره بعيني..."

قال إرلينغ فيدكونسون :

"هكذا هي الأمور يا إرلند . أن القلة القليلة تولد مهيأة لتكون من السادة ، ولكن الجميع يولدون ليخدموا . السيد الحق هو خادم خدمه..."

شبك إرلند يديه خلف كتفه وتمطى مبتسماً :

"لم يسبق لي أن فكرت في هذا . ولا أعتبر أن المزارعين المستأجرين عندي لديهم أي خدمة يشكرونني عنها . ومع ذلك ، ورغم أن الأمر قد يبدو غريباً ، فإني أعتقد أنهم يحبونني جيداً... فرك خده بقطيطة كريستين السوداء التي قفزت إلى كتفه وقوست ظهرها وراحت تتمشى وهي تهرّ فوق عنقه . "ولكن زوجتي هنا... أكثر السيدات خدمة للجميع... رغم أنك لست مضطراً في الواقع إلى تصديق ذلك... حيث أن صفائحنا وأباريقنا فارغة ، يا كريستيني!"

نهض أورم الذي كان يجلس صامتاً خلال حديث الرجال على الفور وخرج .

قال هافتور مبتسماً : "لقد تعبت السيدة حتى غفت ، والخطأ يقع عليك... كان الأجدر بك أن تتركها في سلام لتحادثني وأنا الذي أعرف كيف أحادث السيدات ."

"أجل هذا الكلام قد طال كثيراً بالنسبة إليك ، كما أخشى يا سيدتي" ، بدأ سير إرلينغ الكلام معتذراً ، ولكن كريستين أجابت مع ابتسامة :

"الأمر هكذا بالفعل يا سيدي أني لم أفهم كل ما قيل هذه الليلة ، ولكني أتذكره جيداً وسوف أتمتع بوقت جيد حين أعود للتفكير فيه لاحقاً..."

عاد أورم مع بعض الخادمات وهن يحملن المزيد من الشراب . جال على الحضور يملأ الأقداح . نظر لافرانس بأسف إلى الغلام الوسيم . لقد حاول أن يحادث أورم إرلندسون ، ولكن الصبي كان لا يتلفظ سوى بكلمات قليلة ، رغم أن سلوكه كان مهذباً وملائماً .

همست إحدى الخادمات إلى كريستين بأن ناكفه قد استيقظ في القاعة الصغيرة وكان يزعق على نحو رهيب . عند هذا تمنت السيدة لضيوفها ليلة طيبة وغادرت القاعة مع خادماتها .

التفت الرجال إلى أقداح الجعة مجدداً . تبادل السير إرلينغ ولافرانس النظرات الآن بين الحين والآخر ، وأخيراً قال الفارس :

"هناك مسألة أود أن أكلمك فيها يا إرلند . لا شك أن رسوم السفن ستفرض على الأراضي حول الزقاق البحري هنا ومن'مور'... الناس في الشمال يخشون من أن الروس سيحضرون مجدداً بجيش قوي في الصيف وأنهم دون مساعدة لن يكونوا أكفاء لحماية الأرض . هذا النزاع الروسي هو المكسب الأول الذي أخذناه من مشاركتنا السويد في ملك واحد... ولن يكون من العدل أن يترك سكان هالوغالاندر يتمتعون بكل ذلك لوحدهم . والآن حدث أن آرن غيافالدسون قد أصبح عجوزاً ومريضاً جداً... وقد جرت أحاديث عن تسميتك رئيساً لكل السفن على هذا الجانب من الزقاق البحري . ما رأيك بذلك ؟..."

ضرب إرلند قبضته في كف اليد الأخرى... التمع وجهه كله : "ما هو رأيي...!"

قال إرلينغ كأنما ليجعله يصحو : "لن يكون ممكناً إلا بالكاد تجميع أي قوة كبيرة . ولكننا فكرنا في أنك لو أردت ، فسيكون جيداً أن تضع الأمور

في نصابها مع الأوصياء في الجوار... أنت تعرف هذه المنطقة جيداً... وكان يقال بين لوردات المجلس إنك قد تكون على الأرجح الأنسب للقيام بهذه المسألة . هناك من لا يزال يتذكر أنك قد ربحت الكثير من الشرف حين كنت وصياً على شاطئ هالاند تحت وصاية الكونت ياكوب... أتذكر أني سمعته يقول للملك هاكون إنه ليس أمراً حكيماً التعامل على هذا النحو القاسي مع شاب لطيف... قال إنك تحمل في شخصك ما يؤهلك لتكون خادماً موثوقاً للملك .

طقطق إرلند بأصابعه . "كلا ، لا تقل لي إنك ستصبح ملكاً يا إرلينغ فيدكونسون! هل هذه هي الخطة التي تحضر لها ، أن تصبح الملك إرلينغ ؟" قالها مقهقهاً .

قال إرلينغ بنزق :

"كلا يا إرلند ، ألا ترى أني أتكلم بكل ذلك الحزن ؟..."

"فليكن الرب في عوننا... هل كنت تمزح من قبل ؟ ظننتك تتكلم بحزن كاف طوال الليل... أجل ، أجل ، فلنتكلم في حزن ، إذن أيها الأقرباء... احك لي كل ما يتعلق بهذه المسألة ."

•

كانت كريستين نائمة والطفل عند صدرها حين هبط إرلند إلى القاعة الصغيرة . أضاء قضيب جذر تنوب من الجمرات في الموقد ، ثم نظر إلى الاثنين لبعض الوقت بنوره .

كانت جميلة جداً... وكان الطفل جميلاً جداً أيضاً ، ابنهما . كانت

دائمة شديدة النعاس في الأمسيات في هذه الأيام ، كريستين... ففي اللحظة التي تضطجع فيها وتقرب ابنها منها ، كانا كلاهما ينامان على الفور . ضحك إرلند قليلاً ورمى بالقضيب إلى الموقد . ثم خلع ملابسه ببطء .

شمالاً في الربيع مع (السفينة) "مارغيغرن" وثلاث أو أربع سفن حربية . هافتور غراوت مع ثلاث سفن من هالوغالاند... ولكن هافتور كان جديداً وغير مجرّب في مثل هذا العمل ، ربما يستطيع أن يديره كما هو ملائم له . أجل ، رأى جيداً أنه سيجعل الأمور تجري كما يريد هناك في الشمال . ولم يكن هافتور يبدو جباناً أو دون حماسة . مطّ إرلند جسمه وابتسم في العتمة . كان قد فكر في استخدام طاقم للسفينة "مارغيغرن" من مور ، خارج الزقاق البحري . ولكن هذا الجانب من البلاد وبيرغسي أيضاً يزدحمان بشبان جريئين أقوياء... كان قادراً على اختيار أفضل الرجال...

مرّ على زواجه أكثر قليلاً من عام . الحمل ثم الكفارة والصوم ، والآن الطفل أولاً والطفل أخيراً ، في الليل والنهار . ومع ذلك... كانت كريستين الشابة الحلوة لا تزال... حين كان قادراً على جعلها تنسى الكهنة الثرثارين وإرضاعها النهم للطفل لفترة قصيرة...

قبل كتفها ، ولكنها لم تنتبه . يا للطفلة المسكينة ، دعها نائمة... لديه الكثير ليفكر فيه هذه الليلة . التفت إرلند مبتعداً عنها وحدق إلى الغرفة إلى الشرارة المتقدة الصغيرة في الموقد . أجل ، ربما كان عليه أن ينهض ويغطي الجمرات... ولكنه لم يكن راغباً في ذلك...

بدأت ذكريات شبابه تتوارد على خاطره في نتف ولمحات . مقدم السفينة المرتعش يقف كأنه ينتظر برهة الموجة القادمة... والبحر كان الذي يغسل متن السفينة . الصخب القوي للعاصفة والأمواج . كانت السفينة كلها

تئنّ تحت ضغط البحار... رأس الصارية ينحني فوق الغيوم الطائرة . كان ذلك في مكان ما بعيداً عن شاطئ هالاند... كان إرلند مضطجعاً وهو مستغرق في التفكير... شعر بالدموع تملأ عينيه . لم يكن يعرف هو نفسه كم كانت سنوات البطالة تلك قد أغضبته .

•

في صباح اليوم التالي وقف لافرانس بيورغولفسون والسير إرلينغ عند النهاية العلوية للساحة ، وهما ينظران إلى بعض جياد إرلند التي كانت تعدو حرة خارج السياج .

قال لافرانس : "أعتقد أنه إذا ما ظهر إرلند في هذا الاجتماع وهو بمثل هذه المرتبة والمحتد الكريم ، بما أنه قريب الملك وأم الملك... أنه سيتقدم لا بد ليكون بين الأوائل . لا أعرف الآن يا سير إرلينغ ، إن كنت تظن أنه باستطاعتك أن تتأكد من أن حكمه في مثل هذه الأمور لن يؤدى به بالأحرى إلى الجانب الآخر . إذا ما حاول إيفار أوغموندسون أن يتحرك حركة مضادة... فإن إرلند لديه روابط وثيقة أيضاً مع الرجال الذين سيتبعون السير إيفار..."

قال إرلينغ فيدكونسون : "لا أظن أن السير إيفار سيفعل أي شيء . أما مونان" -هنا ارتجفت شفته قليلاً- "فسوف يكون حكيماً بما فيه الكفاية ، كما أعتقد ، ليبقى بعيداً... إنه يعرف أنه من الأفضل توضيح الأمر لجميع الرجال عن مدى قيمة أو لا قيمة مونان باردسون ." ضحكا كلاهما . "ثم هناك أمر يجب أن نفكر فيه... أجل ، أنت تعرف أفضل مني يا لافرانس لاغماندسون (انظر الحاشية رقم /٣/ من الجزء الأول من هذه الثلاثية) ،

أنت الذي لديك أنسباء وأقرباء هناك ، أن اللوردات السويديين لا يطيقون أن ينظروا إلى فرساننا على أنهم مساوون لهم . قد تدعو الحاجة إذن إلى ألاّ نترك أي رجل يغيب بين أولئك الأغنى وأصحاب المحتد الأصيل... لا نستطيع أن نسمح بأن نترك رجلاً كإرلند يقعد في البيت يداعب زوجته ويعتني بمزارعه... سواء اعتنى بها على نحو جيد أو سيىء" ، أضاف ذلك وهو يرى نظرة لافرانس .

ابتسم لافرانس قليلاً .

"و لكن لو اعتبرت أمر الضغط على إرلند حتى يكون في صفنّا أمراً غير حكيم ، فسوف أتخلى عنه ."

قال لافرانس : "أعتقد يا سيدي العزيز أن إرلند سيقدم خدمة أفضل هنا ، في موطنه . وكما قلت بنفسك... لا ننظر إلى هذه المكوس بارتياح في الأبرشيات جنوب نامدالسيد والتي يعتبر أهلها أنه ليس عليهم أن يخشوا شيئاً من الروس . وقد يكون إرلند الشخص الملائم لتغيير أفكار الناس حول هذه القضية على نحو ما..."

"أجل ، إذا لم تستطع إبقاءه ."

"لا أستطيع فعل ذلك إطلاقاً ، ما أن يقابل طيور السرب ممّن اعتاد الطيران معهم... صهري وأنا مختلفان إلى حد كبير . "

اقترب إرلند منهما :

"هل كسبتما الكثير في القداس حتى لم تعد لديكما حاجة إلى الإفطار ؟"

"لم أسمع شيئاً عن الإفطار... أنا جائع كذئب... وعطشان..." رَبَتَ

لافرانس على حصان أبيض قذر كان يداعبه وهو واقف هناك . "الرجل الذي يعتني بجياد مزرعتك يا صهري ، كان من شأني أن أطرده من هذا المكان قبل جلوسي إلى المائدة ، لو كان يعمل لديّ ."

قال إرلند : "لا أجرؤ على ذلك لخشيتي من كريستين . إحدى خادماتها حامل منه..."

"كلا ، ولكن أتظن هذا مسألة هامة في هذا الريف" ، قال لافرانس وهو يرفع حاجبيه قليلاً . "حتى أنك تظن أنك لا تستطيع الاستغناء عنه بسبب ذلك... ؟"

قال إرلند ضاحكاً : "كلا ، ولكنك ترى أن كريستين والكاهن يريدان تزويجهما... وسيريدان مني أن أجعله يكسب قوته وقوتها . والفتاة نفسها لا تريد ، ووليّ أمرها لا يريد ، و«تور» نفسه غير راغب كثيراً... ولكنهم لن يدعوني أطرده . إنها تخشى أنه سيغادر الأبرشية . وهناك أيضاً أولف هالدورسون الذي يشرف عليه... حين يكون أولف في البيت..."

ذهب إرلينغ فيدكونسون ليقابل سميد غودلايكسون . قال لافرانس لصهره :

"أعتقد أن كريستين تبدو شاحبة في النهار..."

قال إرلند بحماسة : "أجل . ألا تستطيع أن تكلمها ، يا عمي ؟... إن ابنها ذاك يمتص منها حتى نقي عظامها . وأعتقد أنها ستبقيه على صدرها حتى يأتي الصوم الثالث مثل أي فلاحة...

قال لافرانس بابتسامة صغيرة : "أجل ، إنها تحبّ ابنها كثيراً ."

هزّ إرلند رأسه : "أجل . إنهما يجلسان لثلاث ساعات... هي وسيرا

آيليف... ويتحدثان عن الأمر لو ظهر احمرار على جلده هنا أو هناك . وعند كل سن ينبت له يبدو لهما الأمر وكأن معجزة حدثت . كل ما أعرفه أن الأطفال تنبت لهم الأسنان ، وأعتقد أنها كانت أعجوبة أكبر لو لم ينبت لناكفه أي سن ."

٢

في السنة التالية ، وفي إحدى الأمسيات في نهاية الاحتفال بموسم عيد الميلاد ، وصلت كريستين لافرانسداتر وأورم إرلندسون دون سابق إنذار إلى منزل الماستر غونولف في المدينة .

كانت الريح قد عصفت وهطل المطر المتجمد طوال النهار ومنذ ما قبل الظهر ، والآن في أواخر المساء كانت عاصفة ثلجية قد بدأت . كان الاثنان قد غطيا بطبقة سميكة من الثلج حين دخلا إلى الغرفة حيث كان الكاهن جالساً إلى مائدة العشاء مع أهل بيته .

سأل غونولف بشيء من الخوف إن كان هناك ما هو على غير ما يرام في الضيعة . ولكن كريستين هزت رأسها . كان إرلند قد غادر البيت ليذهب إلى احتفال في غلمين ، هذا ما أجابت الكاهن به حين سألها . ولكنها كانت منهكة جداً ، فلم تستطع الذهاب معه .

فكر الكاهن كيف أنها قطعت الطريق كله على حصانها لتصل المدينة... كان حصانها وحصان أورم منهكين تماماً ، ففي آخر الطريق ما عاد بهما من قوة كافية ليشقّا طريقهما عبر الثلج الهاطل . أرسل غونولف المرأتين اللتين

تقطنان معه في المنزل مع كريستين... كان عليهما أن تحصلا على ثياب جافة لها . كانتا أمه بالتبنّي وأختها... ولم تكن هناك نساء أخريات في منزل الكاهن . وقام هو بالاعتناء بابن أخيه . في هذه الأثناء كان أورم يتكلم :

"كريستين مريضة ، على ما أعتقد . لقد قلت ذلك لأبي ، ولكنه غضب مني..."

لم تكن كريستين على ما يرام في هذه الأيام الأخيرة ، كما قال الصبي . لم يكن يعرف حقيقة الأمر . لم يكن قادراً على تذكر ما إذا كانت هي أو هو من فكر أولاً بالقدوم إلى هنا... أوه ، أجل ، كانت هي أول من تكلم عن مدى توقها للوصول إلى "كنيسة المسيح" ، فقال لها إن كان الأمر كذلك فسوف يرافقها . لهذا حدث في هذا الصباح ، مباشرة بعد أن غادر أبوه على حصانه ، أن قالت كريستين إن عليهما أن يذهبا الآن . كان أورم قد تركها تقوم بما ترغب فيه رغم أنه لاحظ أن الطقس كان منذراً بالسوء... ولكنه لم يحبب النظرة في عينيها .

فكر غونولف في أنه لم يحببها هو أيضاً حين شاهد كريستين تدخل الآن . بدت نحيلة إلى حد مؤلم في ثوب إنغريد الأسود . كان وجهها شاحباً بلون الليف ، وعيناها غائرتين ، مع حلقات سوداء زرقاء تحتهما... كانت نظراتها داكنة وغريبة .

كان قد مر أكثر من ثلاثة أشهر منذ أن رآها لآخر مرة... حين كان في هوسابي لاحتفال العماد . كانت تبدو في صحة جيدة في ذلك الحين ، وهي في سريرها في فترة ما بعد المخاض ، وقالت إنها تشعر بالقوة... كانت ولادة سهلة . لذلك عارض هو فكرة إعطاء الطفل إلى مرضعة ، وهي الفكرة التي طرحتها راغنفريد إيفارسداتر وإرلند... بينما راحت كريستين تبكي وترجو

أن يدعوها ترضع بيورغولف بنفسها... لقد سمي الابن الثاني باسم والد لافرانس (جد كريستين) .

لذلك سأل الكاهن أولاً عن حال بيورغولف... فقد كان يعرف أيضاً أن كريستين لم تكن تحب المرضعة التي أعطي الطفل إليها . ولكنها قالت إنه في أحسن حال وأن "فريدا" مغرمة به ، وكانت تعتني به على نحو أفضل ممّا توقعه أي شخص . وماذا عن نيكولاوس ؟ سأل العم . هل لا زال وسيماً ممتلئاً صحة كما كان دائماً ؟ وارتسمت ابتسامة صغيرة على وجه الأم . كان ناكفه يزداد وسامة كل يوم . لا ، لم يكن كثير الكلام ، ولكنه كان سابقاً لعمره في كل أمر آخر ، وكان ضخماً... ما كان أحد ليصدق أنه في شتائه الثاني... وقد قالت "الليدي غونا" هذا الكلام أيضاً .

ثم جلست كالضائعة مجدداً . نظر الماستر غونولف إلى الاثنين : زوجة أخيه وابن أخيه ، وكانا يحيطان به . لقد بدا عليهما التعب والأسى ، فحزن من كل قلبه لرؤيتهما على هذه الشاكلة .

لقد بدا أورم كئيباً . كان عمر الغلام الآن خمسة عشر عاماً . كان يجدر به أن يبدو الأوسم بين الشبان لولا أن الإعياء والمرض كانا ظاهرين عليه . كان بطول أبيه تقريباً ، ولكنه كان نحيلاً ضيق المنكبين ، كما كان وجهه أشبه بوجه إرلند ، ولكن لون عينيه الزرقاوين كان أغمق من لون عيني أبيه ، كما كان الفم الذي بدأ الشارب يخطه أصغر وأكثر ليونة من فم أبيه ، وكلما كان مغلقاً كانت تغضينة سمراء ضيقة تظهر تحت شعره الأسود المجعد ممّا يجعله يبدو تعيساً على نحو غريب وهو جالس هناك ، وقد انحنى قليلاً فوق طعامه .

لم تكن كريستين قد جلست مع أخي زوجها على مائدته في منزله من

قبل . في السنة الماضية ، كانت مع إرلند في المدينة لأجل موسم الربيع(٩) ، ثم نزلا في هذا المنزل ، الذي ورثه غونولف عن أبيه... ولكن الكاهن نفسه كان يعيش في ذلك الحين في منزل "الأخوة المصلوبين" ، ككاهن لإحدى الفرق . والآن كان الماستر غونولف راعياً لأبرشية ستاين . ولكن كان معه قسيس يعمل تحت أمرته ، وكان هو يشرف على أعمال إعداد الكتب للكنائس التابعة للأسقفية ، بينما كان قائد جوقة المرتلين ، آيريك فينسون ، مريضاً . وهكذا كان يعيش في هذه الأثناء في منزله الخاص .

لم تكن القاعة مخالفة في شكلها للغرف التي اعتادت كريستين رؤيتها . كان منزلاً خشبياً ، ولكن في وسط جدار الجمالون الشرقي بنى غونولف مدفأة حجرية كبيرة ، مثل تلك التي رآها في البلاد الجنوبية ، وكانت نار الحطب مشتعلة بين منصبين من الحديد الصب . كانت المائدة تقف على امتداد أحد الجدران الطويلة ، وعلى الجدار المقابل كانت مقاعد ذات مكاتب خاصة بالكتابة . وأمام صورة لمريم العذراء كان هناك مصباح منار من معدن أصفر ، وإلى القرب منها كانت إطارات مملوءة بالكتب .

بدت الغرفة غريبة لها وبدا أخو زوجها غريباً ، وقد رأته الآن جالساً هناك إلى مائدته وأهل بيته ، مع رجال دين وخدم ونظرة غريبة نصف كاهنية . كان هناك بعض الفقراء أيضاً... رجال عجائز وصبي صغير بأهداب رقيقة كالغشاء تلتصق بشدة بالمحجرين الفارغين . على مقعد النساء جلست مع الخادمتين العجوزين فتاة في حضنها طفل في الثانية . كانت تلتهم وجبتها بجوع وتملأ فم الطفل بالطعام حتى كاد خداه ينفجران .

لقد كان كل كهنة "كنيسة المسيح" يطعمون الفقراء في المساء . ولكن كريستين كانت قد سمعت أن الشحاذين الذين يلجأون إلى غونولف

نيكولاوسون كانوا أقل عدداً من أولئك اللاجئين إلى الكهنة الآخرين . رغم أنه كان يجعلهم -أو بسبب ذلك- يجلسون إلى مائدته في قاعة منزله ويرحب بكل شحاذ كضيف موقر . كانوا يمنحون الطعام من طبقه الخاص والشراب من براميله الخاصة . لذلك كانوا يأتون إليه حين يحسون بالحاجة إلى وجبة من اللحم... إلا أنهم كانوا يفضلون الذهاب إلى الكهنة الآخرين حيث تقدم لهم العصيدة والقليل من الجعة في المطبخ .

و ما أن تلا رجل الدين الصلاة بعد الوجبة حتى استعد الفقراء للرحيل . تحدث إليهم غونولف بمودة واحداً واحداً ، وسألهم إن كانوا يودون المبيت عنده ليلاً ، أو إن كانوا يرغبون بأي شيء آخر ، ولكن الصبي الأعمى لم يغادر . طلب الكاهن على وجه الخصوص من الفتاة التي معها طفل أن تبقى وألا تخرج بالصغير ليلاً ، ولكنها همهمت بعذر ما وغادرت مسرعة . طلب غونولف من الخادم أن يمنح آرنستاين الأعمى الجعة وسريراً جيداً في منزل الضيافة . ثم نهض ورمى من حوله عباءة ذات قلنسوة : "اعتقد أنكما متعبان ، يا أورم وكريستين ، وتودان أن ترتاحا . ستعتني بكما أودهيلد... والأرجح أن تكونا قد نمتما حين أعود من الكنيسة ."

و لكن كريستين رجته أن يصطحبها معه . "لهذا السبب أنا هنا" ، قالت وهي تثبت عينين يائستين على غونولف . طلب من إنغريد أن تعيرها عباءة جافة ومضت هي وأورم مع المجموعة الصغيرة التي لحقت به انطلاقاً من المنزل .

بدا رنين الأجراس وكأنه فوق رؤوسهم مباشرة في سماء الليل السوداء... لم تكن الكنيسة بعيدة سوى بضع خطوات . مشوا وهم يجرون

أقدامهم بثقل عبر الثلج العميق الرطب . كان الطقس هادئاً الآن... بين الحين والآخر كانت رقاقات صغيرة من الثلج تهطل وهي تلتمع في العتمة .

●

حاولت كريستين وهي في حالة إجهاد مميت أن تتكئ على العمود الذي كانت إلى القرب منه . ولكن الحجر أشعرها بالبرد في كل أنحاء جسدها . وقفت في الكنيسة المعتمة ونظرت نحو أنوار مكان الجوقة . لم تستطع أن ترى غونولف هناك في الأعلى . ولكنها عرفت أنه كان جالساً هناك بين الكهنة ، وشمعته قرب كتابه... لا ، على أي حال فقد كانت واثقة أنها لا تستطيع أن تكلمه...

كان يبدو الأمر الليلة وكأنها ما كانت لتجد العون في أي مكان . لقد قرّعها سيرا آيليف في البيت لأنها كانت تؤاخذ نفسها بشدة على الخطايا اليومية... قال إن ذلك هو وهم الاعتداد الروحي بالنفس : فلتكن نشيطة في الصلاة وأعمال الخير ولن يكون لديها متسع من الوقت للتفكير كثيراً في مثل هذه الأمور . "ليس الشيطان ذلك الأحمق الكبير إلى حد أنه لن يرى أن روحك لابد ستنجو منه في النهاية ، ولن يعود هو ليهتم بإغوائك كثيراً..."

أوه ، كلا! لم يبد على الشيطان أنه واثق إلى ذلك الحد من أنه لابدّ فاقد روحها... ولكن حين مكثت هنا سابقاً وقد سحقتها خطاياها وقساوة قلبها وحياتها الدنسة وعمى روحها... عندها أحست أن الملك الذي تحول قديساً قد حماها تحت حاشية عباءته . لقد أحست بقبضة يده القوية الدافئة على يدها ، وقد أشار لها بيده إلى النور الذي هو مصدر كل القوة والقداسة . لقد وجه القديس أولاف عينيها نحو المسيح على صليبه... انظري يا

كريستين كرم الرب المحب... أجل ، لقد بدأت تفهم حب الرب بمعاناته الطويلة... ولكن منذ ذلك الحين عادت لتلتفت بعيداً عن النور وتغلق قلبها أمامه ، والآن لم يعد في روحها سوى القلق والغضب والخوف .

كانت بائسة بائسة . لقد رأت الأمر بنفسها : إن امرأة مثلها كانت في حاجة إلى محن قاسية قبل أن تشفى من روحها غير المحبّة . ومع ذلك كانت هي شديدة التمرّد حتى أن قلبها كان لا بد سيتحطم تحت ضغط المحن التي حلت بها . كانت محناً صغيرة جداً... ولكنها كثيرة... وكانت هي شديدة التمرد .

لمحت شكل ابن زوجها الطويل الرشيق عند الناحية التي يجلس فيها الرجال...

لم تستطع السيطرة على نفسها . كانت تحب أورم كأنه ابن لها ، ولكنها لم تستطع أن تحب مارغريت . لقد ناضلت وناضلت محاولة أن تجبر نفسها على أن تحب الطفلة منذ ذلك اليوم في الشتاء الماضي حين جلبها أولف هالدورسون إلى البيت في هوسابي . وقد اعتبرت هي الأمر شيئاً مخيفاً... هل يمكنها أن تشعر بالكره والغضب تجاه فتاة صغيرة في التاسعة من عمرها! وكانت تعرف جيداً أن ذلك يعود جزئياً إلى أن الطفلة كانت تشبه أمها إلى حد غريب... ولم تقدر أن تفهم إرلند الذي كان يظهر كل الفخر في أن ابنته الصغيرة ذات العينين البنيتين كانت جميلة جداً . لم تكن الفتاة لتوقظ أبداً ذكريات مقلقة في أبيها . لكأنما كان إرلند قد نسي كل ما يتعلق بأم هذين الطفلين . ولكن لم يكن كرهها لمارغريت يعود إلى أنها تشبه أمها . ما كانت مارغريت تتحمل أن يعلّمها أحد شيئاً . كانت متعالية وقاسية في معاملتها للخدم . كما كانت غير صادقة ، أما أبوها فكانت

تتملّقه . لم تكن تحبه كما يحبه أورم ، بل كانت تتعلق بإرلند وتمطره بالقبلات والمداعبات لتنال شيئاً ما منه . وكان إرلند يغرقها بالهدايا ويلبي لها كل طلباتها . ولم يكن أورم يحب أخته أيضاً ، وقد لاحظت هي ذلك...

كان أمراً مؤلماً لها أن تشعر أنها قاسية عديمة الشفقة إلى حد أنها لم تكن قادرة على النظر إلى أفعال مارغريت دون غضب وأحكام قاسية . ولكن كان الألم أشد لرؤيتها وسماعها المشاحنات التي لا نهاية لها بين إرلند وابنه البكر . وكان الألم أشد لأنها كانت ترى أن إرلند كان في أعماق قلبه يحب الصبي حباً جماً... ولكنه كان ظالماً وقاسياً تجاه أورم لأنه كان حائراً لا يعرف ما يفعله بابنه أو كيف يضمن له مستقبله . لقد منح طفليه غير الشرعيين أراضي وأمتعة... ولكن لم يكن يبدو أمراً معقولاً أن يصبح أورم مزارعاً . وكان إرلند يصاب باليأس كلما رأى كم كان ابنه ضعيفاً ورقيقاً ، فكان يناديه بالفاسد ، ويحاول أن يقسّيه ، ويمرّنه ساعات طوالاً ، ويجعله يستخدم الأسلحة الثقيلة التي ما كان ممكناً للصبي أن يتقن استعمالها . كما كان يجبره على الشرب حتى الغثيان في الأمسيات ، ويعيده نصف ميت من رحلات صيد خطرة ومنهكة . وخلال هذا كله كانت كريستين قادرة على رؤية الألم في قلب إرلند ، فغالباً ما كان حزيناً إلى حد الجنون ، لأن ابنه المرهف والوسيم كان ملائماً لمكان واحد فحسب... وكان مولده يمنعه من الوصول إليه . وهكذا بدأت كريستين تفهم كم كان صبر إرلند نافذاً حين يكون خائفاً على شخص عزيز جداً عليه أو يشعر بالشفقة عليه .

كما لاحظت أن أورم يفهم ذلك أيضاً . ولاحظت أن قلب الصبي كان ممزقاً بين حبه لأبيه والاعتزاز به... والاحتقار للاعقلانية الرجل حين كان إرلند يجعل الصبي يقاسي بسبب المشاكل الكامنة أمامهما والتي يلام هو

عليها وليس الصبي . ولكن أورم كان قد أصبح على علاقة وثيقة بزوجة أبيه الشابة... لكأنما كان يتنفس معها بحرية ويشعر أن مزاجه أفضل . حين يكون وحيداً معها ، كان يمازحها ويضاحكها بأسلوبه الهادئ . ولكن إرلند لم يحبب هذا ، وكأنه كان يخشى أن هذين قد يحكمان على تصرفه .

أوه كلا ، لم يكن الأمر سهلاً على إرلند... ولا عجب أنه كان غاضباً ومتسرعاً في كل ما يتعلق بالطفلين . ومع ذلك...

كانت تجفل في ألم كلما فكرت بالموضوع .

كانت الضيعة ملأى بالضيوف في الأسبوع الذي مضى . والآن حين جاءت مارغريت إلى البيت ، جعل إرلند العلية في النهاية السفلى من القاعة ، فوق الغرفة الخارجية والمختلى ، غرفة للنوم... حيث سريرها العذري كما قال...و كانت تنام هناك ، مع الخادمة التي خصصها لها والدها لترعاها وتخدمها . كانت "فريدا" تنام هناك أيضاً ، مع بيورغولف . ولكن الآن مع هذا الحشد من الضيوف في موسم عيد الميلاد ، جعلت كريستين هذه العلية غرفة نوم للشبان ، وكان على الخادمتين والطفل الرضيع أن يناموا في منزل الخادمات . ولكن بما أنها فكرت أن إرلند قد لا يحب فكرة إرسال مارغريت لتنام مع الخادمات ، فقد جهزت لها سريراً على واحد من المقاعد في القاعة ، حيث تنام السيدات والفتيات . كانت مارغريت تكره كثيراً الاستيقاظ صباحاً . وكانت كريستين قد أيقظتها هذا الصباح مرات كثيرة ، ولكنها تقلبت في السرير وبقيت نائمة بعد أن نهضت كل الأخريات . أرادت كريستين أن تفرغ القاعة وتجهزها... فعلى الضيوف أن يتناولوا وجبة الإفطار... وأخيراً نفد صبرها . سحبت الوسائد من تحت رأس مارغريت ، ثم الأغطية من عليها . ولكن حين رأت الطفلة وقد اضطجعت عارية فوق البساط

المصنوع من الفرو ، رمت فوقها العباءة التي كانت على كتفيها . كانت تلك قطعة من الصوف الخشن غير المصبوغ... وكانت ترتديها فقط حين تمضي إلى المطبخ والمخازن لتفقد خدمة الطعام .

دخل إرلند في تلك اللحظة... كان قد نام في واحدة من عليات المخازن مع رجال آخرين ، فقد كانت الليدي غونا تنام مع كريستين في السرير الكبير . حين شاهد ما حدث جن جنونه . أمسك بذراع كريستين بقوة إلى حد أن آثار أصابعه ما زالت بادية على لحمها .

"أتظنين أن ابنتي هذه يلائمها النوم بين القش والصوف الخشن ؟ مارغريت هي ابنتي كما ترين ، حتى لو لم تكن ابنتك... إن ما لا يلائم ولديك لا يلائمها أيضاً . ولكن بما أنك قد حقّرت هذه الطفلة البريئة أمام هؤلاء النسوة ، فعليك أن تسوّي الأمر أمامهن أيضاً... غطي مارغريت مجدداً بما سحبته عنها...!"

صحيح أن إرلند كان قد شرب كثيراً في الليلة الماضية ، وأنه حين يفعل ذلك يكون ذا مزاج معكر في الصباح التالي . وربما ظن أنه جرى حديث ما بين النساء حين شاهدن طفلي إلين . وكان هو حساساً وسريع الغضب في كل ما يتعلق بطريقة معاملتهما... ومع ذلك...

لقد حاولت أن تكلّم سيرا آيليف عن الموضوع . ولكنه لم يكن قادراً على مساعدتها في هذا الخصوص . كان غونولف قد قال إن الخطايا التي اعترفت بها وكفّرت عنها ، قبل أن يصبح آيليف سيركسون أب الاعتراف لأبيها ، هي خطايا ليس عليها ذكرها له ما لم تر أنّ عليه أن يعرفها حتى يستطيع أن يقدم لها النصح فيما يتعلق بشؤونها ويكون قادراً على الحكم عليها . لذلك كان هناك الكثير مما لم تحكه له قط ، ورغم أنها أحست أنها

أصبحت في نظر سيرا آيليف امرأة أصلح مما كانت عليه . ومع ذلك كان أمراً مواسياً لها أن تنال صداقة هذا الرجل الطيب نقي القلب . كان إرلند يسخر منها ، ولكنها كانت تحصل على الكثير من السلوان من سيرا آيليف . كانت تستطيع معه أن تتحدث بقدر ما تريد عن أولادها . كل الأمور الصغيرة التي كانت تنهك إرلند حتى الموت ، كان الكاهن مستعداً أن يناقشها معها . كان له أسلوبه الخاص مع الأطفال الصغار ومهارة جيدة بالتعامل مع مشاكلهم الصغيرة وأمراضهم . كان إرلند يضحك منها حين كانت تذهب إلى المطبخ وتطهو أطباقاً لذيذة ترسلها إلى منزل الكاهن... فقد كان سيرا آيليف مغرماً بالطعام والشراب الجيدين ، وكانت تستمتع بإشغال نفسها بهذه الأمور وأن تجرب أن تمارس ما علمتها إياه أمها أو ما شاهدته في الدير . لم يكن إرلند يهتم بما يأكله ، إذا كان يحصل على اللحم في كل الأوقات ، حين لا يكون هناك صوم . ولكن سيرا آيليف كان يأتي ويتكلم ويشكرها ويمدح مهارتها حين كانت ترسل له سفوداً من طيور الترمجان ملفوفة بلحم الخنزير الطيب أو طبقاً من ألسنة الرئة مع النبيذ الفرنسي والعسل . وقد كان يمنحها المشورة حول حديقتها ، ويجلب لها شتلات من تاوترا حيث كان أخوه يقيم كراهب ، ومن "دير أولاف" حيث كان رئيس الدير صديقاً حميماً له . ثم كان يقرأ لها ، وكان قادراً على أن يحكي لها الكثير من الأمور عن الحياة هناك في العالم الخارجي الفسيح .

و لكن بسبب كونه طيباً وبسيط القلب إلى ذلك الحد ، فقد كان أمراً صعباً أن تحدثه هي عن الشر الذي كان في قلبها . وحين اعترفت له كم كانت غاضبة على إرلند بسبب سلوكه مع مارغريت ، فقد أكد لها أن واجبها يحتم عليها أن تتحمل زوجها . ولكن بدا عليه كأنه يعتبر أن إرلند وحده المخطىء لأنه كلم زوجته على هذا النحو غير العادل . وذلك تحت سمع

أشخاص غرباء . وقد فكرت كريستين بالفعل بشيء مشابه . ولكن في أعماق قلبها كانت تحس أنها تشترك معه في الذنب . لم تقدر على توضيح المسألة ، ولكنها كانت تقلقها جداً .

رفعت كريستين بصرها إلى الضريح المتلألئ على نحو باهت بلونه الذهبي في الغسق خلف المذبح العالي . لقد بدت واثقة جداً أنها حين تقف هنا مرة أخرى ، فلا بد أن يحدث لها شيء ما... شيء يخلص روحها . ومن جديد تهفجر نبع حيّ في قلبها وغسل كل القلق والخوف والمرارة والشك التي كانت تملؤه .

و لكن في هذه الليلة لم يكن هناك أحد حليم معها . ألم يسبق لك يا كريستين أن تعلمت ذات مرة... بأن تطرحي اعتقادك بأنك أقوم أخلاقاً من الآخرين تحت عدالة الرب ، وأن تكبحي رغبتك الوثنية والأنانية تحت نور الحب ؟ هذا ما لم تتعلميه يا كريستين...

و لكن في المرة الماضية حين ركعت هناك كان ناكفه بين ذراعيها . كان فمه الصغير على ثديها يبعث الدفء في قلبها حتى أنه أصبح ليناً كالشمع الطري وطيّعاً ليعيد الحب الرباني تشكيله . وهي لا تزال تحظى بناكفه... كان يبدو في أنحاء القاعة في البيت ، جميلاً وعذباً حتى أن صدرها كان يؤلمها لمجرد أن تفكر فيه . كان شعره الناعم المجعد قد بدأ يصبح داكن اللون... سيكون ذا شعر أسود كأبيه . وكان مليئاً بالحيوية والعبث الطفولي... كانت تصنع له دمى على شكل حيوانات من قطع أبسطة الفراء القديمة ، وكان يرميها بعيداً ثم يعدو خلفها مسابقاً الكلاب الصغيرة . وكان هذا غالباً ما ينتهي بالدب في الموقد محترقاً بالكثير من الدخان والرائحة الخبيثة ، بينما كان ناكفه يقف وهو يعوي ويقفز ويضرب الأرض بقدمه ثم

يدفن رأسه في حجرها... إذ كانت كل مغامراته تنتهي هناك حتى الآن . كانت الخادمات يتنافسن على كسب مودته ، ويمسك به الرجال ويرمون به إلى السقف كلما دخلوا القاعة . وكلما كان الصبي يرى أولف هالدورسون كان يعدو نحوه على الفور ويتشبث بساقه... كان أولف يخرجه إلى المزرعة بين الحين والآخر . كان إرلند يطقطق بأصابعه نحو ابنه ثم يضعه على كتفه للحظة... ولكن أباه كان أقل الناس في هوسابي اهتماماً به . ورغم أن إرلند كان مولعاً بناكفه ، إلا أنه كان سعيداً لأنه أضحى لديه ابنان شرعيان الآن .

كان قلب الأم يتفتت في داخلها :

لقد أخذوا بيورغولف منها . كان يتذمر الآن حين تحمله ، وتقوم فريدا على الفور بتلقيمه ثديها... إذ كانت المرضعة تغار عليه الآن . ولكنها لن تتخلى عن الطفل الجديد . كانت أمها وإرلند قد قالا إن عليها أن توفر قوتها في الوقت الحاضر ، وهكذا أخذ منها وليدها وأعطي إلى امرأة أخرى . لكأنها أحست بنوع من المتعة الثأرية في فكرة أن كل ما نتج عن هذا كان أنها تتطلع الآن إلى إنجاب طفل ثالث قبل أن يصبح بيورغولف في الشهر الحادي عشر من عمره .

لم تجرؤ على النطق بذلك أمام سيرا آيليف ، فربما سيظن فحسب أنها غاضبة لأن عليها أن تمرّ بكل هذه المحنة مجدداً . ولكن الأمر لم يكن كذلك .

من حجتها كانت قد عادت إلى البيت برعب عميق في روحها... لن تدع هذا الجنون يسيطر عليها مرة أخرى . طوال فترة الصيف كانت قد جلست لوحدها مع الطفل في القاعة القديمة وهي تزن في ذهنها كلمات الأسقف

وأقوال غونولف ، حول أن تكون نشيطة في الصلوات والكفارة ، وأن تكون دؤوبة في العمل على ترميم أوضاع الضيعة المهملة وأن تكسب محبة الخدم بالكرم وبالتفكير في مصلحتهم ، وتكون تواقة إلى المساعدة وخدمة الجميع ممن هم حولها بكل ما تستطيعه يداها وسلطتها . كان سلام هادئ لذيذ قد حلّ عليها . كانت تتماسك بأفكارها التي تدور حول أبيها ، والصلوات للقديسين والقديسات الذين كان سيرا آيليف يقرأ لها عنهم ، والتأمل في شجاعتهم وثباتهم . وكانت تتذكر بقلب مرهف من السعادة والامتنان الأخ إدفين ، حين ظهر لها تحت نور القمر في تلك الليلة . لقد فهمت رسالته جيداً حين ابتسم لها بكل رقة وعلق قفازه على عمود نور القمر . لو كان لديها ما يكفي من الإيمان لأصبحت امرأة صالحة .

حين كانت السنة الأولى من الزواج على وشك الانتهاء ، كان عليها أن تنتقل عائدة إلى زوجها . واست نفسها ، حين شعرت بأنها غير واثقة من نفسها... لقد أمرها الأسقف نفسه أنها في حياتها المشتركة مع زوجها يجب أن تظهر قلبها الجديد . وبالفعل فقد ناضلت بكل عناية تواقة لتحفظ له سعادته وشرفه . كان إرلند نفسه قد قال ذلك : "لقد تبين يا كريستين على أي حال ، أنك أعدت الشرف إلى هوسابي ." لقد أظهر لها الناس الكثير من اللطف والاحترام : بدا الجميع تواقين إلى نسيان أنها بدأت حياتها الزوجية على نحو مبالغ في تسرعه . وحين كانت ربات البيوت يجتمعن معاً ، كانت تستشار . لقد كن يمدحن ترتيبها لأمور منزلها . لقد طلب إليها أن تكون إشبينة للعروسات وتساعد في الولادات في الضيعات الكبيرة ، ولم تجعلها أي واحدة منهن تشعر أنها كانت صغيرة السن دون خبرة ، أو جديدة على المنطقة . كان الخدم يجلسون في القاعة خلال المساء كله ، كما في

يورونـدغارد حتى... وكان لدى كل واحد شيئاً يسأل عنه سيدته . لقد اكتشفت فجأة ، في توهج من الفرح ، كم كان الناس طيبين معها وأن إرلند كان فخوراً بها...

ثم ذهب إرلند ليعمل في الإشراف على مكوس السفن من الموانئ إلى الجنوب من الزقاق البحري . راح يسافر في أنحاء البلاد ، راكباً جواده أو مبحراً ، وكان مشغولاً بالناس الذين كانوا يحضرون إليه ، والرسائل التي كان يتوجب إرسالها . كان شاباً وسعيداً ووسيماً إلى حد كبير... وقد بدا الآن وكأن المزاج الكسول الكئيب الذي غالباً ما كانت تراه فيه في الأيام الماضية قد زال عنه . كان يتلألأ وقد عاد للاستيقاظ كالصباح . لم يكن لديه سوى القليل من وقت الفراغ الآن... ولكنها بدأت تشعر مجدداً بالدوار والجنون حين كان يقترب منها بوجهه المبتسم وعينيه المحبتين للمغامرة .

كانت تضحك معه على الرسالة التي وصلت من مونان باردسون . لم يكن الفارس حاضراً اجتماع رجال الملك ، ولكنه راح يسخر من المسألة كلها وخاصة تعيين إرلينغ فيدكونسون وصياً على العرش . لقد بدا – كما قال مونان – أن مهمته الأولى كانت إضفاء ألقاب جديدة على نفسه : كان يريد من الناس أن يلقبوه بـ "الوكيل السامي" كما كان يقال . كتب مونان عن أبيها أيضاً :

"زحف ذئب الجبال من «سيل» تحت صخرة وجلس صامتاً . أي أن حماك اتخذ له سكناً مع كهنة كنيسة القديس لاورنتيوس ولم يرفع صوته المعسّل في المفاوضات . هناك في حوزته رسائل مختومة بخاتم السير إرنغيزل والسير كارل تورسون ، وإن لم تكن هذه الرسائل قد اهترأت الآن ، فلا بدّ أن الورق أقسى من نعل حذاء الشيطان . وعليك أن تعرف ما

يلي أيضاً : أن لافرانس منح ثمانية ماركات من الفضة الصافية إلى دير نونسيتر . لا بدّ أن الرجل قد وضع في ذهنه أن كريستين عانت من حياة متعبة جداً هناك من حيث الحقوق التي كان عليها..."

لقد أحست بالفعل بوخزة من العار والألم ، ولكنها لم تستطع مغالبة الضحك مع إرلند . كان الشتاء والربيع قد مرّا عليها في دوامة من المرح والسعادة . بين الحين والآخر كانت تهب عاصفة بشأن أورم : لم يكن إرلند يعرف إن كان عليه أن يصطحب الغلام معه شمالاً . وقد انتهى الأمر بانفجار في فترة عيد الفصح . في تلك الليلة بكى إرلند بين ذراعيها . لم يكن يجرؤ على اصطحاب ابنه معه على سطح السفينة . كان يخشى أن أورم لن يكون كفؤاً في الحرب . قد هدأت هي من روعه وروعها وروع الغلام... ربما سيصبح الغلام أقوى مع تقدمه في السن .

في اليوم الذي مضت فيه مع إرلند إلى المرفأ في بيرغسي ، لم تستطع أن تشعر بأي خوف أو أسف على فراقه . كانت ثملة ، كما جرى ، به وبسعادته الفائضة .

لم تكن تعرف هي في ذلك الحين أنه سبق لها وحملت مجدداً . ظنت حين شعرت بالغثيان أن الأمر يتعلق بالاهتياج المصاحب لرحيل إرلند ، مع الأوقات الصاخبة وحفلات الشراب في البيت ، وأنها كانت مرهقة من إرضاع ناكفه . وحين أحست بالحياة الجديدة تتحرك في داخلها ، فقد عرفت... كانت تتطلع بتوق إلى الشتاء ، إلى الذهاب إلى المدينة والريف مع زوجها الوسيم الشجاع... بينما هي أيضاً كانت جميلة وشابة . كانت متأكدة تماماً أن إرلند في حربه الروسية سيبرهن على أنه ملائم لأمور أخرى عدا تلويث اسمه وسمعته وأمواله . كانت تفكر في فطام الطفل في الخريف... كان أمراً

مزعجاً اصطحابه مع مرضعته إلى أي مكان تذهب إليه . والآن... لا ، لم تكن سعيدة ، وقد قالت هذا للسير آيليف . ثم قام الكاهن بتعنيفها على نحو حاد بسبب روحها غير المحبّة والدنيوية . وقد أمضت الصيف كله وهي تحاول أن تكون سعيدة وتشكر الرب على الطفل الجديد الذي كانت تحمله ، وبسبب الأنباء الطيبة التي وصلتها عن المآثر التي كان إرلند يقوم بها في الشمال .

ثم عاد إلى البيت قبل قداس ميكائيل . كانت قد لاحظت جيداً أنه لم يكن في سعادة مفرطة حين رأى حالتها . وفي تلك الليلة قال لها :

"ظننت أنك ما أن تصبحي ملكي... فسيكون الأمر أشبه بتذوق فرحة موسم عيد الميلاد كل يوم . ولكن يبدو وكأن معظم الوقت سيكون صياماً طويلاً ."

و كلما تذكرت هذا الكلام ، كانت موجة من الدم تطغى على وجهها ، وكانت حارة كحرارة ذلك المساء حين نأت عنه ، وقد احمر وجهها وجفت دموعها . حاول إرلند أن يعوضها بالحب واللطف . ولكنها لم تستطع نسيان الأمر . كانت النار التي تشتعل في داخلها لا يمكن أن تطفئها كل دموع كفارتها ، كما كان ألمها على خطيئتها لا يمكن تخفيفه... كأنما كان إرلند قد داس بقدمه عليها حين تلفظ بتلك الكلمات .

•

في وقت متأخر من الليل ، جلسوا قرب المدفأة في قاعة غونولف ، هو وكريستين وأورم . كانت قارورة من النبيذ مع بعض الأقداح الصغيرة موضوعة على حافة المدفأة . كان الماستر غونولف قد سأل ضيفيه أكثر من مرة إن لم يكونا راغبين في الراحة الآن . ولكن كريستين رجته أن يسمح لها بالبقاء .

سألته : "أتذكر يا أخا زوجي حين حكيت لك مرة أن كاهننا في البيت قد أشار عليّ بأن أهب نفسي للدير ، إذا لم يوافق أبي على زواجي من إرلند ؟"

نظر غونولف بسرعة نحو أورم . ولكن كريستين قالت بابتسامة صغيرة شاحبة :

"أتظن أن هذا الغلام اليافع لا يعرف أني ضعيفة وخاطئة ؟"

أجاب غونولف برقة :

"هل كنت تشعرين بنداء يُوجه إليك لتعيشي في الدير يا كريستين في ذلك الحين ؟"

"لا شك أن الرب كان سيفتح لي عينيّ ما أن أدخل في خدمته ."

"ربما اعتبر هو أن عينيك في حاجة إلى فتح لتفهمي أن عليك أن تكوني في خدمته أينما تكونين . لا شك أن الزوج والأولاد وخدم المنزل في هوسابي في حاجة إلى خادمة من خادمات الرب موثوقة وصبورة لتكون بينهم وترعى مصالحهم...

"و لا شك أن الفتاة التي تتزوج العريس الذي يختاره لها المسيح هي التي تحظى بأفضل زواج ، على ألاّ تستسلم إلى سلطة رجل خاطئ . ولكن الطفل الذي سبق له وأخطأ..."

همست كريستين : "أفضل أن تأتي إلى الرب وأنت تلبسين إكليل العروس" ، هذا ما قاله لي الأخ إدفين ريكاردسون ، الذي حكيت لك عنه مراراً . أتظن ذلك أيضاً ؟"

أومأ غونولف نيكولاوسون برأسه :

"...رغم أن نساء كثيرات قد ارتقين من حياة الخطيئة بقوة وثبات حتى أننا نصلي بأمان الآن لأجل أن يتشفعن لنا ، ولكن هذا حدث على الأغلب في الأزمان الماضية ، حين كانت المرأة تهدد بالتعذيب والإعدام حرقاً والكلابات المتقدة إذا ما اعترفت بأنها مسيحية . لقد سبق لي يا كريستين وفكرت مراراً في أنه كان أسهل آنئذ أن يتحرر المرء من وثاق الخطيئة ، حين كان ذلك ممكناً فعله بالقوة والعزم بليّة واحدة . ورغم أن البشرية فاسدة جداً –ولكن الشجاعة ما زالت تسكن على نحو طبيعي في كثير من القلوب– والشجاعة هي التي غالباً ما تدفع روحاً ما إلى أن تنشد الرب . وهكذا فإن التعذيب حث كثيراً من الأرواح على الصمود كما أرهب الكثير فارتدوا . ولكن طفلة ضالة انتزعت من شهوات الجسد قبل أن تتعلم فهم ما تجلبه هذه على روحها ، قد أحضرت إلى جماعة من الأخوات مع عذراوات متدينات تخلين عن أرواحهن لأجل أن يحرسن ويصلين لأولئك الذين ينامون خارجاً في هذا العالم..."

ثم أردف فجأة وهو ينهض : "لو أن الصيف يأتي سريعاً!" نظر إليه الاثنان الآخران في استغراب .

"أجل... لقد خطر لي نداء طائر الوقواق من الجبال في هوسابي في الصباح . كنا غالباً ما نسمعه من الغابات البعيدة حول باي... كان صوته عذباً جداً من حول البحيرة في هدوء الصباح . ألا تظنين أن هوسابي مكان جميل يا كريستين ؟"

قال أورم إرلندسون بصوت خفيض : "الوقواق الشرقي وقواق الحزن . أعتقد أن هوسابي أجمل مكان في العالم ."

وضع الكاهن يديه على كتفي ابن أخيه الضيقين لحظة :

"و هذا ما كنت أظنه يا قريبي . وكان ذاك بيت أبي أيضاً . ليس الابن الأصغر أقرب إلى الميراث منك يا أورم العزيز ."

"حين كان أبي يعيش مع أمي ، كنت أنت الوريث الأقرب" ، قال الغلام برقة كما من قبل .

قالت كريستين بحزن : "لا يمكننا أن نفعل شيئاً أنا وابناي يا أورم ."

فأجاب بهدوء : "أعتقد أنك لاحظت جيداً أيضاً أني لا أحمل لكم أي ضغينة ."

قالت كريستين بعد برهة : "إنها لأرض واسعة مفتوحة . ويستطيع المرء أن يرى إلى البعيد من هوسابي... والسماء واسعة جداً . أما في موطني ، فإنها تقبع كسقف فوق قمم الجبال . "تكمن «ديل» في مكان منخفض كالمأوى ، أجوف وأخضر ونضر . حجم العالم ملائم جداً... ليس كبيراً جداً ولا ضيقاً جداً ." تنهدت وحركت يديها في حضنها .

"أكان بيته هناك ذاك الرجل الذي كان أبوك راغباً في تزويجك إياه ؟" سأل الكاهن ، وأومأت المرأة برأسها .

"هل سبق لك وندمت لأنك لم تتزوجيه ؟" سأل مجدداً فهزت رأسها .

عبر غونولف الغرفة وتناول كتاباً من المكتبة . جلس مجدداً قرب النار وفتح الكتاب ذا المشبك وقلب صفحاته . لم يكن يقرأ فيه بل جلس والكتاب في حضنه .

"حين تحدى آدم وحواء إرادة الرب ، شعرا في جسديهما بقوة تتحدى إرادتهما . لقد خلقهما الرب ، رجلاً وامرأة ، شابين وسيمين ، لذلك كان عليها أن يعيشا كزوج وزوجة ، وأن ينجبا شركاء في ميراث عطايا الرب

الكريمة ، جمال جنة الفردوس ، شجرة الحياة والبركة الأبدية . لم يكن عليهما أن يخجلا من جسديهما ، لأنهما طالما كانا مطيعين للرب ، طالما كان جسداهما بالكامل وأعضاؤهما تحت سيطرة إرادتهما ، حتى اليدين والقدمين ."

ضغطت كريستين يديها وقد تضرج وجهها تحت صدرها على شكل صليب . انحنى الكاهن نحوها قليلاً . أحست بعينيه الصفراوين القويتين فوق وجهها المنحني .

"لقد تخلت حواء عما هو ملك للرب ، وقام زوجها بتلقي ذلك ، حين أعطته ما كان عن حق ملكاً لأبيهما وخالقهما . كانا يودان أن يصبحا شبيهين له... ولكنهما لاحظا الآن أنهما يشبهانه أولاً في هذا : كما خانا سيادته في العالم الكبير ، فإن سيادتهما كانت الآن على العالم الصغير ، بيت الروح المصنوع من اللحم قد خان . كما خانا الرب إلههما ، فإن الجسد الآن يخدع سيده ، الروح .

"ثم بدا هذان الجسدان لهما بشعين وكريهين حتى أنهما صنعا ملابس ليغطياهما . في البداية مجرد مئزر قصير من أوراق التين . ولكنهما راحا يعرفان المزيد ثم المزيد عن جوهر طبيعتهما الشهوانية ، فراحا يصعدان بالملابس أعلى فأعلى ، فوق قلبيهما وظهريهما اللذين يأبيان الانحناء . وحتى هذه الأيام الحاضرة حين يرتدي الناس الفولاذ ليغطوا به حتى مفاصل أصابع أيديهم وأرجلهم ، ويخفون وجوههم خلف قضبان الخوذة... فإن النزاع والخيانة ينتشران في العالم خارجاً ."

توسلت كريستين : "ساعدني يا غونولف ." كانت شاحبة حتى في لون شفتيها . "لا أعرف إرادتي ."

"قولي إذن : إرادتك أيها الرب ستتم ." ، أجاب الكاهن برقة . "أتعرفين أن إرادته هي أن تفتحي قلبك لحبه ، وأن عليك أن تحبيه من كل روحك ."

التفتت كريستين فجأة نحو أخي زوجها :

"ألا تعرف كم أحب إرلند وطفليّ..."

"يا أختي... كل حب آخر هو مجرد صورة للسماء في برك الماء على طريق موحلة . لا بد أن تتلوثي بالوحل إن كان عليك أن تمرّي بها . ولكن لو كنت تفكرين أن هذا انعكاس للنور في مرآة من بيت آخر ، عندها ستفرحين من جماله ، وسوف تحرصين على عدم تدميرها بتحريك الوحل في الأسفل..."

"أجل ، ولكنك يا غونولف كاهن... لقد عاهدت الرب على أن تهرب من... هذه الأشراك..."

"و أنت أيضاً يا كريستين... حين وعدت بالتخلي عن الشيطان وكل أفعاله . يبدأ الشيطان في الرغبة الحلوة ، وينتهي بهم أولئك الذين يلسعون ويعضّون الواحد الآخر مثل الضفدعة والأفعى السامة . كان هذا ما تعلمته حواء... أنه حين ستعطي هي إلى زوجها ونسلها ما هو ملك للرب ، عندها لن تحصد سوى الخروج على القانون وخطيئة الدم والموت ، التي دخلت هذا العالم حين ذبح الأخ أخاه في ذلك الحقل الصغير الأول حيث الأشواك والعوسج ينموان على أكوام الحجارة بين القطع الصغيرة من الأراضي..."

قالت كريستين كما من قبل : "أجل ولكنك كاهن . ليس عليك أن تكافح كل يوم لتتفق مع شخص آخر في إرادتك..." انفجرت باكية..."لتكون صبوراً..."

قال الكاهن بابتسامة صغيرة :

"في تلك المسألة هناك نزاع بين الروح والجسد في كل ابن أم . لذلك هناك قداس عروس وزواج ، حتى يجد الرجل والمرأة المساعدة على العيش ، زوجين ووالدين وأطفالاً ورفاق بيت ، كرفاق سفر موثوقين معاونين في الرحلة نحو دار السلام ."

قالت كريستين بصوت خفيض :

"أعتقد أنه من الأسهل على المرء أن يرقب ويصلي لأجل أولئك الذين ينامون في الخارج في الكفاح ضد خطايا الذات..."

قال الكاهن بحدة : "أجل الأمر كذلك . ولكن هل تظنين يا كريستين أن هناك رجلاً ورعاً واحداً لم يكن عليه أن يدافع عن نفسه ضد العدو ، في الوقت نفسه الذي كان يكافح فيه ليحمي الحملان من الذئب... ؟"

قالت كريستين بصوت خفيض وبخجل :

"لقد كنت أظن... أن أولئك الذين ينتقلون من مكان مقدس إلى مكان مقدس ويسيطرون على كل الصلوات وكلمات القوة..."

انحنى غونولف نحو الأمام ، أصلح النار ، وبقي جالساً ومرفقاه على ركبتيه .

"منذ ست سنوات ، في حوالي هذا الوقت من السنة ، وصلنا إلى روما ، آيليف وأنا وكاهنان سكوتلانديان تعرفنا عليهما في أفينيون . كنا نمشي على أقدامنا طوال النهار...

"وصلنا إلى المدينة فبل الصوم مباشرة . في ذلك الحين ، كان الناس في الأراضي الجنوبية يقيمون احتفالات وولائم كبيرة... ويسمونها كرنفالاً . ثم

يجري النبيذ ، الأحمر والأبيض ، كالنهر في الحانات ، ويرقص الناس ليلاً خارج البيوت . كان الفصل ربيعاً في إيطاليا ، وكانت الزهور قد تفتحت في المروج والحدائق ، والنساء قد زينّ أنفسهن بها ، كما كنّ يرمين الورود والبنفسج على المارة في الشوارع... كن يجلسن في النوافذ ، وقد علقن البسط المصنوعة من الحرير والبروكار المذهب من العتبات فوق حجارة الأسوار . فكل المنازل مبنية من الحجارة هناك ، كما أن الفرسان يبنون قلاعهم وحصونهم في وسط المدن . وكأنه لا قانون مديني ولا سلام أسواق في تلك المدينة... فهم وخدمهم يتبارزون في الشوارع حتى تسيل الدماء...

"كانت هناك قلعة كبيرة في الشارع الذي كنت أقطن فيه ، وكان السيد الذي يحكمها يسمى إرمس مالافولتي . كانت القلعة تظلل كامل الزقاق الضيق الذي كنا نقطن فيه ، وكانت حجرتنا معتمة وباردة كزنزانة في حصن حجري . وغالباً ما كنا نضطر لدى خروجنا إلى أن نلتصق بالجدار بينما كان السيد ماراً مع أجراس فضية على ملابسه ومجموعة كاملة من التابعين المسلحين ، بينما كانت القاذورات والعفن تتناثر من تحت حافر الجياد... ففي تلك البلاد كان الناس يرمون بالقاذورات وبقايا الكناسة خارج الأبواب . كانت الشوارع باردة ومعتمة وضيقة مثل الجروف الصخرية... لا تشبه إلا قليلاً الطرق الخضراء لبلداتنا . في تلك الشوارع يُقيمون سباقات في فترة الكرنفال : يجعلون الجياد العربية البرية تسابق الواحد الآخر..."

توقف الكاهن قليلاً ، ثم مضى يقول :

"كان للسير إرمس هذا قريبة تقطن في منزله . كان اسمها إيزوتا ، ومن شأنها أن تكون إزولد الجميلة نفسها . كانت بشرتها وشعرها بلون العسل ، ولكن عينيها كانتا سوداوين على ما أعتقد . كنت أراها بين الحين والآخر في النافذة...

"و لكن في خارج المدينة كانت الأرض أكثر قفراً من النجود الأكثر بؤساً في بلادنا ، حيث لا يسكن سوى الذئاب والرنة ، ويزعق النسر . ومع ذلك فإن هناك بلدات وقلاعاً في الجبال المجاورة ، وفي النجود الخضراء يمكن للمرء أن يرى في كل مكان آثاراً لأناس كانوا يقطنون هناك لا بدّ في الأيام الغابرة . وكانت هناك قطعان ضخمة من الغنم والثيران البيضاء ترعى فيها . كان الرعاة المسلحون برماح طويلة يلاحقونها على ظهور الجياد ، وهؤلاء أشخاص خطرون على عابري الطرقات ، فهم يقتلونهم ويسرقونهم ويرمون بجثثهم في حفر في الأرض...

"و لكن في السهول الخضراء كنائس للحج" .

صمت الماستر غونولف لفترة :

"ربما تبدو تلك الأرض مقفرة على نحو لا يصدق لأن المدينة تقع في وسطها ، هي التي كانت ملكة لكل العالم الوثني واختيرت لتكون عروس المسيح . فالآن تخلى الحرس عن المدينة ، وفي وسط دوامة الاحتفال والقصف تبدو المدينة كزوجة مهجورة . كان السفهاء قد استقروا في القلعة ، حين لم يكن الزوج في بيته ، وقد أغروا السيدة بالعبث معهم في شهواتهم ونزاعهم وسفكهم للدماء...[١٠] .

"و لكن تحت الأرض هناك كنوز أغلى من كل تلك التي يشع عليها نور الشمس . هناك قبور الشهداء المقدسين ، المنحوتة في الصخور... وهناك الكثير ممّا يشعر المرء بالدوار لو فكّر فيه . وحين يتذكر المرء عددها الهائل ، وشهود العذاب الذين عانوا من الموت لأجل قضية المسيح ، فقد يعتقد المرء أن كل ذرة غبار تثور من سنابك خيل السفهاء يجب أن تكون مقدسة وتستحق العبادة"...

سحب الكاهن سلسلة رقيقة من تحت ملابسه ، وفتح الصليب الفضي الصغير المعلق فيها . وفي داخلها كان شيء أسود يبدو أشبه بالصوفان وعظمة خضراء صغيرة .

"في إحدى المرات نزلنا في هذه الممرات طوال النهار ، وكنا قد تلونا صلواتنا في كهوف ومصليات ، حيث كان التلاميذ الأوائل للقديس بطرس والقديس بولص يجتمعون لإقامة القداس . ثم منحنا الرهبان الذين كانوا يملكون الكنيسة التي مضينا إليها ، هذه التذكارات المقدسة . إنها قطعة صغيرة من إسفنجة كانت العذارى المقدسات يمسحن بها دم الشهداء ، حتى لا يضيع سدى . وهذه برجمة أصبع رجل مقدس لا يعرف اسمه إلاّ الله . ثم عاهدنا نحن الأربعة أحدنا الآخر بأننا سنقوم كل يوم بمناجاة هذا الشخص المقدس الذي لا يعرف الرجال قدره ، وقد أشهدنا هذا الشهيد المجهول على أننا لن ننسى أبداً كم كنا غير جديرين بأن يكافئنا الرب أو يحترمنا الناس ، وأن نتذكر دائماً أن لا شيء في العالم يستحق أن يرغب فيه المرء سوى رحمة الرب"...

قبلت كريستين الصليب باحترام وأعطته إلى أورم الذي فعل كما فعلت . ثم قال غونولف فجأة :

"سأعطيك هذا التذكار المقدس يا قريبي" .

ركع أورم على ركبة واحدة وقبل يد عمه . علق غونولف الصليب حول عنق الغلام .

"ألا تود رؤية هذه الأماكن يا أورم ؟"

ابتسم الغلام ابتسامة جعلت وجهه يشع :

"أجل... وأعرف الآن أنني سأذهب إلى هناك في يوم من الأيام ."

سأل غونولف : "هل فكرت في أن تصبح كاهناً ؟"

أجاب الغلام : "أجل . حين شتم أبي ذراعي الضعيفين هذين . ولكن لا أدري إن كان يوافق على أن أصبح كاهناً . ثم هناك ذاك الأمر الذي تعرفه" ، قال برقة .

قال الكاهن بهدوء : "فيما يخص مولدك يمكن الحصول على تحلّة على ما أعتقد . ربما سنسافر معاً يا أورم جنوباً أنت وأنا..."

قال أورم برقة : "احك لنا المزيد يا عماه ."

" أجل سأفعل ذلك ." أمسك غونولف بذراعي الكرسي بيديه ونظر إلى النار . "خلال تجوالي هناك ، دون أن أرى سوى تذكارات شهود الدم ، تذكرت صنوف العذاب التي لا يمكن احتمالها التي عانوها لأجل اسم المسيح ، فقد راودني إغراء مؤلم . فكرت كيف علق الرب على الصليب بالمسامير ست ساعات . ولكن شهوده عذبوا عذاباً لا يحتمل لأيام كثيرة... رأت النساء أولادهن وهم يعذبون حتى الموت أمام أعينهن ، الفتيات الصغيرات الرقيقات نزع لحمهن عن عظامهن بأمشاط حديدية ، غلمان صغار رمي بهم إلى مخالب الوحوش وقرون الثيران الهائجة... ثم بدا لي وكأن كثيراً من هؤلاء قد تحملوا أكثر ممّا تحمل المسيح نفسه...

"فكرت في هذا حتى ظننت أن قلبي وعقلي سينشطران . ولكن النور الذي توسلته وصليت لأجله جاءني أخيراً . وقد فهمت أنه كما عانى هؤلاء ، فإن علينا جميعاً أن تكون لدينا القوة على المعاناة . من هو الأحمق إلى حد أنه لن يتحمل عن رغبة الآلام والعذاب ، حين يكون هذا هو الدرب المؤدي

إلى عريس مخلص ووفيّ ، ينتظر بذراعين ممدودتين وصدر دام ومتحرّق للحب ؟

"إنه الرب الذي أحب البشرية . لذلك مات ، كما مات العريس الذي مضى لينقذ عروسه من أيدي اللصوص . فقام هؤلاء بتوثيقه وتعذيبه حتى الموت ، بينما يرى محبوبته الغالية تحتفل مع قاتليه ، وتمازحهم وتسخر من عذابه وحبه الوفي..."

دفن غونولف نيكولاوسون وجهه في يديه :

"ثم فهمت أن هذا الحب القوي يدعم كل أمور الدنيا عالياً... حتى نيران جهنم . فلو شاء الرب ، لأخذ الروح عنوة... سنكون مجرد ذرات لا حول لها بين يديه . ولكنه يحبنا كما يحب العريس عروسه ، وهو لن يجبرها بالقوة ، ولكنها إن لم تستسلم له بإرادتها ، فعليه أن يعاني من هجرها له وتخليها عنه . ولكني فكرت أيضاً أنه ليست هناك روح يمكن أن تضيع في الأبدية كلها . فكل روح يجب أن ترغب بهذا الحب ، على ما أعتقد ، ولكنه يبدو حباً غالي الثمن جداً إذ أن علينا لقاءه أن نتخلى عن كل المتع الأخرى . ولكن حين تذهب النار بكل الإرادة المتكبرة والمتمردة ، عندها أخيراً فإن الرغبة في الرب ستبقى في الروح دون أن تهلك ، حتى لو كان حجمها حجم مسمار واحد في منزل ، إنه المسمار الحديدي الذي يبقى في رماد منزل احترق بكامله..."

"غونولف..." نهضت كريستين نصف نهضة... "أنا خائفة..."

رفع غونولف نظره إليها بوجه شاحب وعينين متوهجتين :

" أنا أيضاً كنت خائفاً . لأني فهمت أن هذا العذاب في سبيل حب الرب

لا يمكن أن تكون له نهاية طالما كان الرجل والمرأة قد ولدا على هذه الأرض وعلى الرب أن يخشى من ضياع روحيهما... طالما يمنح هو يومياً وكل ساعة جسده ودمه على ألف مذبح... وهناك أناس يزدرون التقدمة...

"و قد كنت خائفاً من التفكير بنفسي ، أن أكون غير طاهر وأنا أخدم على مذبحه ، وأن أتلو القداس بشفاه غير طاهرة ، وأن أرفعه بيدين غير طاهرتين... وقد حسبت نفسي أشبه حتى بالرجل الذي أوصل حبيبته إلى منزل العار وخانها..."

أمسك بكريستين بين ذراعيه وهي توشك على الوقوع ، وحمل هو وأورم المرأة المترنحة إلى السرير .

خلال وقت قصير فتحت عينيها... جلست منتصبة وغطت وجهها بيديها . انفجرت في نحيب جنوني :

"لا أستطيع ، لا أستطيع... غونولف ، حين تتكلم ، أرى أني لن أستطيع أبداً..."

أمسك غونولف بيدها ، ولكنها التفتت بوجهها بعيداً عن وجه الرجل الشاحب الطائش :

"كريستين ، لا يمكنك أن تقنعي بأي حب أقل من الحب الذي بين الرب والروح...

"كريستين ، انظري من حولك... لتري ما هو العالم . لقد أنجبت طفلين... ألم تفكري أبداً بهذا : أن كل طفل يولد يُعمد بالدم ، وأن كل إنسان يولد إلى هذا العالم يسحب معه مع أول أنفاسه رائحة الدم ؟ ألا تعتقدين أنك ، أنت الأم ، عليك أن تثبّتي نيتك على هذا : أن أبناءك لن

يرتدوا إلى ذلك العهد المعمودي الأول ، بل يتمسكون بالحلف الآخر الذي عقدوه مع الرب حين طهرهم بمياه جرن المعمودية... ؟"

بكت وبكت .

قالت ثانية : "أنا خائفة منك . يا غونولف ، حين تتكلم على هذا النحو ، أرى جيداً أني لن أجد طريقي إلى السلام ."

قال الكاهن برقة : "سيجدك الرب . اهدئي ولا تهربي من الرب الذي بحث عنك قبل أن تتشكلي في رحم أمك ."

جلس هناك لفترة قرب السرير . ثم سألها بهدوء ورباطة جأش إن كان عليه أن يوقظ إنغريد ويطلب منها أن تأتي لتساعدها على خلع ملابسها . هزت كريستين رأسها .

ثم رسم إشارة الصليب فوقها ثلاث مرات ، وبعد أن تمنى لأورم ليلة سعيدة ، ذهب إلى حجرته حيث ينام .

خلع أورم وكريستين ملابسهما . بدا الغلام غارقاً في أفكار لا غور لها . وحين اضطجعت كريستين ، تقدم منها . نظر إلى وجهها المنقط بنقاط رمادية اللون وسألها إن كانت تريده أن يجلس إلى القرب منها حتى تنام .

"أوه ، أجل... أوه ، كلا يا أورم . لا بدّ أنك منهك ، أنت صغير السن . لا بد أن الليل قد ولّى معظمه..."

و مع ذلك ظل أورم واقفاً لفترة قصيرة أخرى .

قال فجأة : "ألا يبدو غريباً لك أن أبي وعمي غونولف... رغم كل اختلافهما الواحد عن الآخر ، إلاّ أنهما متشابهان نوعاً ما أيضاً..."

تمددت كريستين وهي تفكر :

"أجل ، ربما يكون الأمر كذلك... إنهما لا يشبهان الرجال الآخرين ."

و سرعان ما نامت ومضى أورم إلى السرير الآخر . خلع ملابسه بالكامل وزحف إلى السرير . كان من تحته شرشف كتاني ، وغطاء كتاني على الوسائد . تمدّد الغلام بسهولة على المضجع البارد الناعم . راح قلبه يدق ، وقد أثارته فكرة هذه المغامرات الجديدة التي وعدته بها كلمات عمه . الصلوات والصوم وكل الفروض التي مارسها لأنه لُقن إياها... لقد أصبحت كلها فجأة أسلحة في حرب خيّرة كان يتوق إليها . ربما سيصبح راهباً -أو كاهناً- إن لم يستطع أن يكسب تحلّة بسبب ولادته من علاقة زنا .

●

كان سرير غونولف مضجعاً خشبياً مع شرشف من الجلد مفروش فوق القليل من القش ، ووسادة صغيرة واحدة... لذلك كان مضطراً للاضطجاع وهو ممدد باستقامة . خلع الكاهن رداءه ، وتمدد في ملابسه الداخلية ، ثم سحب الغطاء الرقيق المصنوع من الصوف الخشن فوقه . وقد ترك الفتيلة المضاءة الصغيرة الملفوفة حول قضيب معدني ، مضاءة .

كانت كلماته قد تركته محطماً من القلق والخوف . كان ضعيفاً من التوق لتلك الأيام التي مضت... ألن يجد ثانية يا ترى السعادة الزفافية للقلب التي ملأت كيانه الكامل والتي انطلقت في روما ؟

●

لقد حدث حين عاد إلى النرويج أن اعتراه قلق شديد .

كان هناك كثير من الأمور التي من شأنها بث القلق في نفسه . كانت هناك ثروته . الميراث الكبير من أجداده... والرتبة الكنسية الغنية . كان هناك الدرب الذي رآه ممتداً أمامه . مكانه بين كهنة الكاتدرائية... كان يعرف أن المنصب كان مخصصاً له . لو تخلى عن كل ممتلكاته ، لأجل أن يدخل دير "الأخوة الواعظين" ، وينذر النذور ، ثم يضع نفسه تحت إمرة الحكم -كانت تلك هي الحياة التي يرغب فيها- ولكن ليس من كل قلبه .

...ثم كان هو قد وصل إلى سن مناسبة وأصبح متمرساً بما فيه الكفاية للقتال... كان هناك أناس في مملكة النرويج ممن يعيشون ويموتون في حالة من الوثنية المطلقة ، أو تضلّلهم مبادئ مزيفة يطرحها الروس تحت اسم الدين المسيحي . وكان هناك اللابلانديون (سكان المناطق الشمالية القصوى من النرويج والسويد وفنلندا - المترجم) والشعوب الأخرى نصف الهمجية التي لم يكن قادراً على التفكير فيها... ألم يكن الأمر أشبه بأن الرب قد أيقظ فيه هذا التوق للسفر شمالاً إلى أراضيها ليوصل إليهم "كلمة" الرب و"نور"ه... ؟

... ولكنه رمى بفكرة البعثة التبشيرية بعيداً عن خاطره ، على أساس أن عليه أن يطيع الأسقف . كان اللورد آيليف ينصحه بألاّ يقوم بها . كان اللورد آيليف قد أصغى إليه وتحدث معه مظهراً له بوضوح أنه إنما يحدث ابن صديقه القديم السير نيكولاوس أوف هوسابي . "و لكنك غير ممكن ضبطك ضمن حدود ، أنت الذي تنتمي إلى نسل بنات سكوغهايم - غاوته القديم ، وسواء كان الأمر جيداً أو رديئاً ، طالما أنك صممت على القيام بالأمر ." قال إن إنقاذ شعب اللابلانديين أمر يتمناه من كل قلبه هو أيضاً... ولكنهم لم

يكونوا في حاجة إلى معلّم يكتب وينطق باللاتينية كما يكتب وينطق بلغته الأم ، متبحّر في "القانون" شأنه في الحساب واللوغاريتم . لا شك أن تلقى علوماً وعليه استخدامها . "و في رأيي أنه ليس بالأمر الأكيد أن تكون لديك موهبة التحدث إلى شعوب فقيرة وبسيطة هناك في الشمال ."

آه ، ولكن في ذلك الربيع العذب بدا له عمله وكأنه لا ينال من الاحترام أكثر من ذلك العلم الذي تتلقاه كل فتاة صغيرة من أمها -أن تغزل وتخمر الجعة وتخبز وتحلب البقرة- العلم الذي يحتاجه كل طفل ليقوم بعمله في هذه الدنيا .

•

نهض غونولف . عند نهاية أحد جدران الحجرة كان قد علق صليب كبير الحجم ، وأمامه كان حجر كبير مسطح على الأرض .

ركع على الحجر ومدّ ذراعيه خارجاً . كان قد عوّد جسده على احتمال هذه الوضعية ، لذلك كان قادراً على الركوع على هذا النحو ساعة كاملة جامداً كالصخر . وبعينين مثبتتين على الصليب كان ينتظر السلوان الذي يصله حين كان قادراً على أن ينسى نفسه تماماً خلال تأمّله للصليب .

و لكن أول فكرة انتابته كانت هذه : هل كانت لديه الإرادة لمفارقة هذا الصليب ؟ كان للقديس فرانسيسكوس وأخوته صلبان صنعوها بأنفسهم من أغصان الشجر . عليه أن يتخلى عن هذا الصليب الذي يمثل المسيح مصلوباً... إلى الكنيسة في هوسابي ربما . فالفلاحون والأطفال والنساء الذين

يأتون إلى هناك لأجل القداس... سيغذون أبصارهم بصورة مرئية لرقة "المخلّص" الجميلة في "آلامه" . الأرواح البسيطة كروح كريستين... أما هو فلا يحتاج إليه .

كان يركع الليلة إثر الليلة بحواس مغلقة وأطراف مخدّرة حتى يبصر الرؤيا . الجبل بالصلبان الثلاثة أمام السماء . هناك صليب في الوسط كان مخصصاً لحمل جسد "سيد الأرض والسماء" ، وكان يهتز ويرتجف ، وينحني كما الشجرة أمام العاصفة ، خائفاً من أن يحمل كل ذلك الحمل الثمين ، التضحية لأجل خطايا العالم كله . كان "سيد خيام العاصفة" محبوساً فيه ، وحين يميل الفارس بفرسه ، فإنها تحمل "قائد قلعة السماء" إلى المعركة . ثم كانت تتجلى له الأعجوبة التي كانت المفتاح نحو المزيد من الأعاجيب الأعمق فالأعمق . الدم الذي كان يسيل على الصليب ليغفر كل الخطايا ويبعد كل الأحزان ، كان هو المعجزة المرئية . وبهذه الأعجوبة الأولى كان ممكناً لعين الروح أن تفتح لترى الأسرار الأعمق ؛ الرب الذي هبط إلى الأرض وأصبح "ابن العذراء" و"أخا البشر" ، الذي أغار على جهنم وانطلق بغنيمته من الأرواح حراً نحو بحر النور المعشي ، من حيث بدأ العالم ومن حيث رفع . ونحو هذه الأعماق السحيقة الأبدية من النور كانت أفكاره تنسحب ، وهناك تمرّ عبر النور وتختفي ، كسرب من الطيور الذي يمرّ إلى مجد سماء المساء .

●

لم يتحرك غونولف حتى دقت أجراس الكنيسة لأجل صلاة الصباح . كان كل شيء هادئاً حين مرّ عبر القاعة... كانا نائمين : كريستين وأورم .

في الساحة المعتمة في الخارج تمهّل الكاهن قليلاً . ولكن لم يأت أحد

من أهل البيت ليرافقه إلى الكنيسة . ما كان يطلب منهم الذهاب معه للعبادة أكثر من مرتين في اليوم . ولكن إنغريد ، أمه بالتبني ، غالباً ما كانت ترافقه إلى صلاة الصباح . في هذا الصباح بدا أنها كانت نائمة أيضاً . أجل ، لقد سهرت ليلة أمس .

•

طوال ذلك النهار لم يتبادل الأقرباء الثلاثة سوى القليل من الكلام ، وكان ذلك حول أمور صغيرة . وبدا غونولف منهكاً ، ولكنه راح يتكلم ممازحاً حول هذا الأمر أو ذاك . "لقد كنا حمقى مساء البارحة... لقد جلسنا هناك في حالة من الحزن الشديد كثلاثة أطفال يتامى" ، قال في إحدى المرات . ثم روى كثيراً من الحوادث الصغيرة المرحة التي حدثت هنا في نيداروس - مع الحجاج ومن شابههم من الناس- والتي كان الكهنة يتندرون بها فيما بينهم . لقد وصل رجل عجوز من هيرييدال حاملاً معه مهمات عن كل سكان أبرشيته ، وقد خلط الصلوات ببعضها... ستجري الأمور بشكل سيىء في الأبرشية ، كما خطر له لاحقاً ، لو كان القديس أولاف سيصدقه في كل ما قاله!

•

في وقت متأخر من المساء وصل إرلند ، مبلّلاً بالكامل... كان قد أبحر نحو المدينة والعاصفة تهب مجدداً . كان غاضباً وقد هاجم أورم على الفور بكلمات مجنونة . أصغى غونولف في صمت ، ثم قال : "حين تتكلم على هذا النحو مع أورم يا إرلند ، فأنت أشبه بأبينا ، حين كان يكلمك..."

صمت إرلند على الفور . ثم التفت قائلاً :

"حسناً أعتقد أني لم أكن أتصرف على هذا النحو الأحمق قط حين كنت غلاماً... الخروج من الضيعة ، امرأة مريضة وغلام مجرد جرو ، في عاصفة ثلجية! ليس لدى أورم من الرجولة ما يكفيه للتفاخر به ، سوى أنه لا يخشى أباه كما ترى!"

قال أخوه مبتسماً : " وأنت لم تكن تخشى أباك أيضاً . "

وقف أورم أمام أبيه دون أن يقول شيئاً ومحاولاً أن يبدو غير مبال .

قال إرلند : "أجل ، يمكنك الذهاب ." ثم أردف : "أنا قرفان من كل الحالة في هوسابي . ولكني أعرف شيئاً واحداً : في الصيف القادم سيسافر أورم معي شمالاً... وعندها أعتقد أننا سنربّي حَمَلَ كريستين المدلل هذا . وهو ليس بالأخرق أيضاً ." ثم مضى نحو أخيه بتوق . "إنه يطلق النار بذراع ثابتة... وليس هو بالجبان... ولكنه غالباً مشاكس وكئيب ، وكأنما لا نقي في عظامه..."

قال الكاهن : "أجل ، إن كنت توبخ ابنك دائماً كما فعلت الآن ، فلا عجب أنه كئيب ."

غيّر إرلند من لهجته وضحك قائلاً :

"فيما يخصّ تلك المسألة ، فقد كنت أعاني غالباً من أمور أسوأ من أبي... والرب يعلم أني كنت نكد المزاج بسبب ذلك . ولكن لننس ذلك الأمر... فالآن بعد أن حضرت إلى هنا ، هيا نحتفل بعيد الميلاد ، طالما نحن في عيد الميلاد . أين كريستين ؟... ما الذي كانت تريد أن تحدثك به مجدداً ؟"

قال الكاهن : "لا أعتقد أنه كان لديها ما تريد أن تكلمني بشأنه . لقد كانت مصممة على أن تحضر قداس عيد الميلاد هنا ."

قال إرلند : "كان يمكنها تدبر أمرها مع القداس الذي تسمعه في البيت ، على ما أعتقد . ولكن من المؤسف لها أن يذوي شبابها منها ." ضرب يداً بأخرى . "لا أرى كيف يمكن للرب أن يفكر أننا في حاجة إلى ابن جديد كل عام..."

رفع غونولف بصره إلى أخيه :

"ماذا...! كلا ، لا أعرف ما قد يعتبره الرب أمراً أنت في حاجة إليه . ولكن ما تحتاج إليه كريستين على ما أعتقد هو أن تكون لطيفاً معها الآن..."

"أجل ، لا شك في ذلك" ، قال إرلند بصوت خفيض .

●

في صباح اليوم التالي ذهب إرلند لحضور القداس النهاري مع زوجته . مضيا إلى كنيسة القديس غريغوري . كان إرلند يحضر القداس هناك دائماً حين يتواجد في المدينة . سار الاثنان معاً لوحدهما . وهناك في الشارع كان الثلج مكوماً ، ثقيلاً ورطباً . قاد إرلند زوجته من يدها بلطف وكياسة . لم يكن قد تلفظ بكلمة واحدة حول هربها من المنزل ، وكان ودوداً مع أورم بعد العاصفة الأولى .

سارت كريستين بهدوء وشحوب ، وبرأس محنيّ قليلاً . كانت العباءة السوداء الطويلة المصنوعة من الفرو ذات المشبك الفضي تبدو ثقيلة على جسدها الرقيق الهش .

"هل تريدين مني أن أصطحبك إلى البيت... ونترك أورم يبحر مع السفينة ؟" قال لها لمجرد أن يتكلم . "ربما لا تهتمين أبداً بعبور الزقاق البحري ؟"

"لا... أنت تعرف أني لا أحب السفن..."

كان الطقس هادئاً لطيفاً الآن... بين لحظة وأخرى كان حمل من الثلج الثقيل الرطب يسقط على الشارع . كانت السماء واطئة ورمادية داكنة فوق المدينة البيضاء . وكانت هناك مسحة خضراء رمادية مائية فوق الثلج ، أما جدران المنازل الخشبية والحواجز وجذوع الأشجار فكانت تبدو سوداء في الهواء الرطب . لم يسبق لها أن رأت العالم بارداً وشاحباً وكئيباً على هذا النحو... هكذا فكرت كريستين .

٣

جلست كريستين وغاوته على حضنها ، وهي تحدق إلى التل الصغير شمال الضيعة . كان المساء جميلاً جداً والبحيرة تقع إلى الأسفل لامعة وهادئة ، تعكس الهضاب والمزارع في "باي" ، والغيوم الذهبية في السماء . كان المطر قد هطل سابقاً في النهار ، ورائحة الأوراق والأرض قد تصاعدت . لا بد أن العشب على المروج في الأسفل كان قد وصل طوله إلى الركبة الآن ، والحقول قد اختبأت تحت رماح من القمح .

كانت الأصوات قادمة من البعيد هذا المساء . وقد راحت النايات والطبول والكمانات تصدح الآن مجدداً ، هناك على المرج عند "فينيار" ، وكانت الأصوات تصل إلى هنا عذبة على الآذان .

كان الوقواق يصمت لفترات طويلة ، ثم يرسل نداءه مرة أخرى من البعيد من الغابات الجنوبية . وفي كل البساتين المجاورة للضيعة كانت الطيور تغرد وتغني... ولكن في ألحان متناثرة رقيقة ، فقد كانت الشمس لا تزال عالية .

وصل القطيع والأجراس تدق والأبقار تخور ، عائداً من المرعى فوق بوابة الساحة .

"أترى ، أترى... سينال غاوته حليبه على الفور..." كلمته بلغة طفولية وهي ترفعه . وضع الصبي ، كعادته ، رأسه الثقيل على كتف أمه . بين الحين والآخر كان يلتصق بها أكثر... وكانت كريستين تفهم ذلك على أنه يتقبل تدليلها وهذرها .

سارت نحو الأبنية . أمام باب القاعة ، كان ناكفه وبيورغولف يجريان في أنحاء المكان ، ويحاولان أن ينزلا القطة من السقف حيث هربت منهما . ولكن خلال لحظة كانا قد عادا مجدداً ليلعبا بالخنجر المكسور الذي كانا يمتلكانه معاً ، فراحا ينبشان على نحو أعمق في الحفرة التي كانا قد حفراها في أرض الغرفة الخارجية .

وصلت داغرون إلى القاعة حاملة حليب الماعز في دلو خشبي ، وراحت السيدة تسقي غاوته مغرفة إثر أخرى من الحليب الدافئ . كان الصبي ينخر بغضب كلما كلمته الخادمة ، فيروح يضربها ثم يخفي نفسه في صدر أمه حين كانت المرأة تمسك به .

قالت راعية الأبقار : "أعتقد أنه يتحسن" .

رفعت كريستين الوجه الصغير بيدها... كان أصفر شاحباً مثل الشمع ، والعينان منهكتين دائماً . كان لغاوته رأس كبير ثقيل ونحيل ، وأطراف لا قوة فيها . سيبلغ عمره السنتين بعد أسبوع من "قداس لورنس" ، ولكنه لم يكن حتى الآن قادراً على المشي ، وقد نبتت له خمس أسنان فقط ، كما كان غير قادر على النطق بكلمة واحدة .

قال سيرا آيليف إن ما يعاني منه ليس كساح الأطفال ، إذ لم ينفع معه لا الثوب الكهنوتي الأبيض ولا كتب المذبح . كان كلما دخل الكاهن إليهم يحاول أن يجد دواء لهذا المرض الذي حل بغاوته . كانت تعرف أنه يذكره

في كل صلواته . ولكن بالنسبة إليها ما كان قادراً سوى أن يقول إن عليها أن تنحني في صمت أمام إرادة الرب . وأن عليها أن تسقيه الكثير من حليب الماعز...

يا للطفل الصغير المسكين ، طفلها ذاك! ضمت كريستين الطفل وقبلته بعد أن ذهبت المرأة . كان جميلاً وجميلاً جداً! فكرت في أنه يشبه أقرباء أبيها... وكانت عيناه رماديتين داكنتين وشعره أبيض كتانياً ، كثيفاً وناعماً كالحرير .

و الآن بدأ يئنّ مجدداً . نهضت كريستين ومشت من حول الغرفة حاملة إياه . رغم كونه صغيراً ونحيلاً ، إلا أنه كان يصبح ثقيلاً بعد فترة من حمله... ولكن غاوته لن يكون راضياً في أي مكان سوى ذراعي أمه . لذلك حملته وراحت تمشي به جيئة وذهاباً في القاعة المعتمة ، وهي تدندن له خلال سيرها .

دخل أحدهم راكباً على جواد إلى الساحة ، وتردد صوت أولف هالدورسون عالياً من جدران المنزل . خرجت كريستين إلى بوابة الغرفة الخارجية ، والطفل بين ذراعيها .

"عليك أن تنزل السرج عن حصانك الليلة يا أولف ، على ما أعتقد... إنهم في حفلة الرقص... كل الرجال . عار عليك لو شعرت بالانزعاج ، ولكن عليك أن تنسى الأمر..."

همهم أولف بنزق وهو ينزل السرج عن حصانه . التصق به ناكفه وبيورغولف خلال هذه الفترة ، وراحا يرجوانه أن يركبهما على الجواد حتى مدخل الحديقة .

"كلا ، عليك أن تبقى هنا مع غاوته يا ناكفه... العب مع أخيك ولا تجعله يبكي بينما أنا في المطبخ..."

بدا الصبي مكتئباً ، ولكن خلال لحظة كان قد ركع على أطرافه الأربعة ، وهو ينطح الطفل الصغير ويخور له ، بعد أن وضعته كريستين على وسادة عند الباب . انحنت الأم وداعبت شعر ناكفه . كان جيداً جداً في معاملته لأخويه الصغيرين .

•

حين عادت كريستين إلى القاعة حاملة الطبق الكبير على ذراعيها ، كان أولف هالدورسون جالساً على المقعد يداعب الأطفال . كان غاوته سعيداً مع أولف ، حين تكون أمه بعيدة عن الأنظار... ولكنه راح يئن الآن على الفور وراح يمد يديه إليها . وضعت كريستين الطبق وحملت غاوته بين ذراعيها .

نفخ أولف الرغوة عن سطح الجعة المخمرة حديثاً ، وشرب منها ، وبدأ يأكل من الصحون الصغيرة التي كانت على الطبق .

"هل كل خادماتك في الخارج الليلة ؟"

قالت كريستين :

"هناك كمانات وطبول ونايات... مجموعة من الرجال المرحين وصلت من أوركدال من العرس هناك . أنت تعرف ما حدث حين سمعن بذلك... فهن مجرد فتيات صغيرات على أي حال..."

"إنك لتتركينهن يتسكعن ويمرحن كما يشأن يا كريستين . قد يظن المرء أنك تخشين من أنه سيكون من الصعب عليك أن تجدي مرضعة هذا الخريف هنا..."

و دون تفكير ، مسدت كريستين ثوبها من حول خصرها النحيل . كان وجهها قد تضرج بحمرة قانية من كلام الرجل . ضحك أولف ضحكة قصيرة قاسية :

"و لكنك لو تابعت التحرك وأنت تجرّين غاوته معك ، سيمضي بك الوقت كما في العام السابق ، على ما أعتقد... تعال إلى هنا إلى أبيك بالتربية يا بني وسوف تأكل من طبق واحد معي"...

لم تجب كريستين . وضعت أبناءها الثلاثة على المقعد في صف واحد عند الجدار الآخر ، وجلبت وعاء من عصيدة الحليب ، ولنفسها كرسياً صغيراً . وقد جلست هناك وراحت تطعمهم ، رغم أن ناكفه وبيورغولف راحا يتذمران... كانا يريدان الملاعق ليأكلا لوحدهما . كان أحدهما في سن الرابعة الآن والآخر قريباً من الثالثة .

سأل أولف : "أين إرلند ؟"

"كانت مارغريت راغبة في الذهاب إلى الرقص ، لذلك مضى معها ."

قال أولف : "إنه لأمر جيد على الأقل أن يكون لديه ما يكفي من العقل ليراقب ابنته ."

و من جديد لم تقل الزوجة شيئاً . خلعت ملابس الأطفال عنهم ووضعتهم في الفراش ، غاوته في المهد والآخران في سريرها بالذات . كان إرلند قد وافق على أن يناما هناك منذ أن تحسنت صحتها بعد مرضها الكبير في العام الذي سبق .

حين شبع أولف ، تمدد فوق المقعد . جذبت كريستين الكرسي نحو المهد ، وأحضرت سلة من الغزل الصوفي وبدأت تلف كرات من الصوف لأجل الحياكة ، بينما راحت تهز المهد برقة بقدمها .

"ألن تذهب لترتاح ؟" سألته مرة دون أن تلتفت برأسها . "لا بد أنك منهك يا أولف ؟"

نهض الرجل ، وضع بعض الحطب في النار واقترب من سيدته . جلس على المقعد مقابلها . لاحظت كريستين أنه لم يكن شديد الإرهاق من المعيشة القاسية كما كانت عادته حين يكون قد قضى بضعة أيام في نيداروس .

قال وهو ينحني نحو الأمام ومرفقاه فوق ركبتيه وهو يحدق إليها : "أنت لم تسأليني عن الأنباء القادمة من المدينة يا كريستين ؟"

بدأ قلبها يدق من الخوف... فهمت من نظرات الرجل وجلسته أنه لا بد من وجود أنباء غير جيدة . ولكنها أجابت بابتسامة هادئة ولطيفة :

"عليك أن تحكي لي يا أولف . هل سمعت بشيء ؟"

"أوه... أجل..." ولكنه أحضر حقيبته أولاً وأخرج منها ما جلبه لها من البلدة . شكرته كريستين :

"أرى أنك سمعت أنباء في البلدة ؟" سألت بعد مهلة قصيرة .

نظر أولف إلى سيدته الشابة ، ثم التفتت عيناه إلى الطفل الشاحب النائم في المهد .

سألها بصوت خفيض وهو يلمس الشعر بلطف حيث هو داكن ورطب : "هل يتعرق إلى هذا الحد من رأسه دائماً ؟ يا كريستين ، حين تزوجت من إرلند... فإن الرسالة التي كتبت حول التصرف بممتلكاتك... ألم تنص على أن عليك أن تتعاملي حسب رغبتك بالهدية الإضافية وهدية صباحيتك ؟"

بدأ قلب كريستين يدق بقوة أكبر ، ولكن تكلمت بهدوء :

"أجل ، وهكذا هي الحال يا أولف ، أي أن إرلند يطلب دائماً مشورتي ويأخذ موافقتي على كل المعاملات المتعلقة بهذه الأراضي . هل تعني تلك المزارع في فيردالين التي باعها إلى فيغلايك أوف لينغ ؟"

قال أولف : "أجل ، والآن اشترى «هوغركن» (الشجاع) من فيغلايك ، حتى تكون له سفينتان الآن ، كما يبدو... وما الذي ستحصلين عليه يا كريستين ؟"

قالت : "حصة إرلند من سكييرفاستاد ، نصف "هد" [11] في أولفكلستاد ، وما يملكه في آرهامر . لابدّ أنك لم تصدق أن إرلند باع هذه الأراضي دون رغبتي ودون أن يعوّض علي ما يساوي قيمتها ؟"

"هه ." بقي أولف صامتاً لفترة وجيزة . "و مع ذلك فإن دخلك سيصبح أقل يا كريستين . فبالنسبة إلى سكييرفاستاد ، قام إرلند بالحصول على التبن من هناك في الشتاء الماضي وأعفى المزارع الذي فيها من إيجار ثلاث سنوات..."

"لم يكن خطأ إرلند أننا لم نحصل على تبن جاف في العام الماضي . أعرف يا أولف أنك فعلت كل ما استطعت... ولكن مع كل البؤس الذي شهدناه هنا في الصيف الماضي..."

"أما عن آرهامر ، فقد باع أكثر من نصفها إلى الأخوات من دير راين ، في ذلك الحين عندما استعد للهرب من البلاد برفقتك ." ضحك أولف قليلاً... أو "رهنها"... إنه الأمر نفسه بالنسبة لإرلند . بعد أن تحرر من مكوس الملك... أي كل العبء الذي وقع على كاهل أودون الذي يحتفظ بالمزرعة التي ستسمى الآن ملكاً لك!"

"ألا يستطيع أن يؤجر الأرض التي أصبحت للدير ؟" سألت كريستين .

قال أولف : "لقد استأجرها المستأجر لدى الأخوات في المزرعة المجاورة . إنها لمهمة صعبة وغير مضمونة للمستأجرين أن يكونوا منصفين حين تُقسم المزارع شأن ما يفعله إرلند ."

صمتت كريستين . كانت تعرف جيداً أن ما يقوله صحيح .

قال أولف مجدداً : "إنه عمل سريع مع إرلند . إن ممتلكاته تتضاءل بينما تكبر أسرته .

و حين لم تجب المرأة ، تكلم ثانية :

"سرعان ما تنجبين أولاداً كثراً يا كريستين لافرانسداتر ."

أجابت بصوت مرتجف قليلاً : "و لكني لا أستطيع الاستغناء عن أحد ."

"لا تخافي على غاوته... سيصبح قوياً ، أضمنه لك" ، قال أولف بصوت خفيض .

"لا بدّ أنها إرادة الرب... ولكنه انتظار طويل" .

سمع المعاناة الخفية في صوت الأم... بدت نظرة غريبة تدل على العجز وكأنها تطغى على الرجل الأسمر المليء الجسم .

"هذا لا يفيد كثيراً يا كريستين... لقد تجاوزت عن الكثير هنا في هوسابي ، ولكن لو أن إرلند سيبحر مجدداً مع سفينتين ، فإني أعتقد أنه لن يعم سلام كثير في الشمال ، كما أن زوجك ليس بالحاذق كثيراً بحيث يعرف كيف يدير لصالحه ما كسبه في هذين العامين . لقد كانا عامين رديئين... وكنت خلالهما مريضة . لو سارت الأمور على هذا المنوال ، فسوف تتحطم

شجاعتك في النهاية ، أنت الزوجة الشابة . لقد ساعدتك بقدر ما أستطيع في الضيعة هنا... ولكن هذا الأمر الآخر... افتقار إرلند إلى الحكمة..."

قاطعته قائلة : "أجل ، الرب يعرف أنك فعلت ذلك... لقد كنت أخلص الأقرباء إلينا ، أيها الصديق أولف ، ولن أستطيع أبداً أن أشكرك أو أرد لك الجميل على النحو الملائم..."

نهض أولف ، أشعل شمعة عند الموقد ، وضعها على حامل الشمعة على المائدة ، ثم وقف هناك وظهره نحو السيدة . تركت كريستين يديها تغرقان في حجرها... والآن بدأت تلف الصوف من جديد وتهز المهد .

سألها أولف برقة : "ألا تستطيعين أن ترسلي رسالة إلى أهلك ، حتى يأتي لافرانس هذا الخريف أيضاً حين ستحضر أمك ؟"

"لم أكن أنوي إقلاق أمي في هذا الخريف . لقد بدأت تشيخ... ويحدث غالباً أني أكون في النفاس حتى أني لا أود أن أطلب منها أن تأتي كل مرة..." ثم ابتسمت ابتسامة مفحمة .

أجاب أولف : "بل افعلي ذلك هذه المرة . وتوسلي إلى أبيك ليصاحبها... حتى تطلبي نصيحته في مثل هذه المسائل..."

"في هذه المسألة لن أطلب رأي أبي" ، قالت بهدوء وحزم .

"إذن ما رأيك لو تشاوري غونولف ؟ " سألها أولف بعد وهلة . "ألا تستطيعين أن تخاطبيه ؟"

قالت كريستين كما من قبل : "لن يكون أمراً ملائماً أن أزعجه بمثل هذه الأمور الآن ."

"أتعنين لأنه التجأ إلى دير ؟" ضحك أولف ساخراً ." لم ألاحظ أبداً أن

الرهبان يعرفون في مسائل البضاعة والتجارة أقل من الناس الآخرين . إن كنت لا تريدين أن تشاوري أحداً يا كريستين ، فعليك إذن أن تكلمي إرلند بنفسك" . قال حين لم تجبه : " فكري بأبنائك يا كريستين!"

جلست كريستين لفترة طويلة في صمت .

قالت أخيراً : "أنت طيب جداً مع أولادنا يا أولف . أعتقد أنه الأجدر بك أن تتزوج ويكون لك عائلة خاصة بك تهتم بها ، فذاك أفضل من أن تبذل اهتمامك هنا... وتزعج نفسك بهموم إرلند... وهمومي ."

التفت أولف نحو المرأة . وقف ويداه تمسكان بحافة المائدة خلفه ونظر إلى كريستين لافرانسداتر . إنها لا تزال معتدلة القوام ورشيقة وجميلة مثلما كانت دائماً ، وهي جالسة هناك . كان ثوبها من الصوف الداكن المصبوغ في البيت ، ولكن الغطاء الكتاني الذي كان يحيط بوجهها الهادئ الشاحب كان جميلاً ورقيقاً . أما الحزام الذي كانت تتدلى منه حزمة المفاتيح فكان محلى بورود فضية صغيرة . على صدرها كانت تلتمع سلسلتان تحملان صلباناً . كانت السلسلة الكبيرة ذات الحلقات المذهبة تصل إلى خصرها... هدية من أبيها . فوقها كانت سلسلة فضية رقيقة ذات صليب صغير وقد تركها لها أورم وقال لهم أن يطلبوا منها أن ترتديها على الدوام .

حتى الآن هاهي تنهض بعد كل ولادة جميلة كما كانت دائماً... ولكن أهدأ بقليل ، والعبء على كتفيها الشابتين أثقل قليلاً . إنها أكثر نحولاً في الوجنتين ، والعينان أدكن قليلاً وأكثر حزناً تحت الجبين الأبيض العريض ، والفم أقل امتلاء واحمراراً . ولكن كأنما كان جمالها سيذوي قبل مرور سنوات كثيرة لو استمرت الحال على ما هي عليه...

"ألا تعتقد يا أولف أنك ستكون أسعد لو كنت تعيش في مزرعتك

الخاصة ؟" تابعت الكلام ثانية . "لقد اشتريت ما قيمته عشرون ماركاً من أرض سيكولدفيركستاد ، كما قال إرلند... وأنت تملك نصف المزرعة تقريباً الآن . وإيزاك لديه ابنة واحدة... «آيسه» ، وهي امرأة جميلة ولطيفة ومتميزة... ويبدو أنها تحبك..."

"و لكنني لا أريدها إن كان علي أن أتزوجها" ، قال الرجل بفظاظة مع ضحكة قاسية . "إن آيسه إيزاكسداتر أفضل بكثير..." تغير صوته . " لم أعرف أبداً غير أبي بالتربية يا كريستين... وأعتقد أن قدري هو ألاّ أرزق إلاّ بأولاد بالتربية..."

"كلا ، سأصلي لمريم العذراء أن يكون حظك أفضل من هذا يا قريبي ."

"لم أعد شاباً إلى هذا الحد أيضاً . عمري خمسة وثلاثون شتاء يا كريستين ." ضحك . "أكاد أكون في عمر والدك ."

"لو كنت أبي لكان عليك أن تكون ارتكبت الخطيئة في عمر مبكر جداً" ، أجابت كريستين وهي تحاول التكلم بخفة ومرح .

سألها أولف بعد قليل : " "ألا تريدين أن تؤوي إلى فراشك ؟"

"أجل ، خلال وقت قصير... ولكن لا بدّ أنك متعب يا أولف... عليك أن تذهب لتنال قسطاً من الراحة ."

تمنى لها الرجل ليلة سعيدة بهدوء ثم خرج .

•

أخذت كريستين الشمعة من على المائدة ، ونظرت على نورها إلى الصبيين النائمين في السرير . لم تكن هناك مادة على رموش بيورغولف...

شكراً للرب على ذلك . كان الطقس جميلاً في المدة الأخيرة . ما أن تهب الريح بقوة أو يصبح الطقس قاسياً ويكون على الأطفال أن يلعبوا في داخل البيت قرب نار الموقد ، كانت عيناه تلتهبان . وقفت لفترة طويلة تنظر إليهما . ثم انحنت فوق غاوته في المهد .

كان ثلاثتهم نضرين وفي صحة جيدة كالطيور الصغيرة ، كل أبنائها الثلاثة الصغار... حتى وصل المرض إلى الريف في الصيف الماضي . سماه الناس الحمى القرمزية... كان المرض يقتل الأطفال في كل البيوت المحيطة بالزقاق البحري ، حتى أنه كان أمراً مثيراً للشفقة أن ترى أو تسمع ما يحكى عنه . لقد مُنحت بركة الاحتفاظ بأولادها جميعاً... كل أولادها...

لقد جلست خمسة أيام وخمس ليال قرب السرير الجنوبي ، حيث كانوا ينامون ثلاثتهم وبقع حمراء تغطي كل بشرتهم ، وعيونهم المريضة تتأذى من النور... أما أجسامهم الصغيرة فكانت حارة كالنار . كانت تجلس ويدها تحت غطاء السرير تربت على باطن قدمي بيورغولف ، وتغني وتغني ، حتى أصبح صوتها الرشيق همساً أبح :

"حدوة ، حدوة ، لحصان الحارس...
كيف يمكن أن نحدوه على أفضل نحو عند الحاجة ؟
حدوة حديدية ملائمة لحصان الحارس .

حدوة ، حدوة ، لحصان إيرلي...
كيف يمكن أن نحدوه على أفضل نحو عند الحاجة ؟
حدوة فضية ملائمة لحصان إيرلي .

حدوة ، حدوة ، لحصان الملك ،
كيف يمكن أن نحدوه على أفضل نحو عند الحاجة ؟
حدوة ذهبية ملائمة لحصان الملك .

كان بيورغولف أقلهم مرضاً وأكثرهم قلقاً . لو توقفت عن الغناء للحظة ، كان يرمي بالغطاء بعيداً عنه فوراً . كان غاوته في الشهر العاشر من عمره فحسب... وكان مريضاً إلى حد الموت ، فاعتبرت أنه لن يعيش . كان ينام على صدرها ، ملفوفاً بالأقمشة والفراء ، دون قدرة على الرضاعة . كانت تحمله بذراع واحدة وتربت على باطن قدم بيورغولف باليد الأخرى .

بين الحين والآخر ، حين كان يحدث أن ينام الثلاثة جميعاً لفترة قصيرة ، كانت تتمدد أمام السرير إلى القرب منهم بكامل ملابسها . كان إرلند يأتي ويذهب ، وينظر بعجز إلى أبنائه الثلاثة . كان يحاول أن يغني لهم ، ولكنهم ما كانوا يهتمون أبداً بصوت أبيهم الرخيم... كانوا يريدون من أمهم أن تغني ، رغم أن صوتها لم يكن صالحاً للغناء .

كانت الخادمات يحمن من حولها ويردن من سيدتهن أن ترتاح ، وكان الرجال يأتون ويسألون عن الأنباء . حاول أورم أن يبعث جواً من المرح بين أخوته الصغار . أما مارغريت فأرسلها إرلند بعيداً إلى أوستردال بموجب نصيحة كريستين . أما أورم فكان مصمماً على البقاء... علاوة على أنه كان قد كبر الآن . كان سيرا آيليف يجلس إلى قرب سرير الأطفال حين لا يزور مرضاه الآخرين . لقد ذوب الجهد الكثير والحزن الكثير كل الدهن الذي كان قد اكتسبه الكاهن في هوسابي... كان يصعب عليه أن يرى الكثير من الأطفال الصغار الوسيمين يموتون . وقد مات بعض الكبار أيضاً .

في مساء اليوم السادس كان الأطفال في حال أفضل بكثير حتى أن

كريستين وعدت زوجها أنها في تلك الليلة ستخلع ملابسها وتذهب إلى سريرها... وقد عرض إرلند أن يسهر على الأطفال مع الخادمات ويناديها إن دعت الحاجة . ولكن عند مائدة العشاء رأت وجه أورم أحمر نارياً... وكانت عيناه تلتمعان من الحمى . قال إنه على ما يرام... ولكنه نهض فجأة من المائدة وخرج . حين لحق به إرلند وكريستين ، وجداه يتقيأ في الساحة .

رمى إرلند بذراعيه من حوله :

"أورم... يا بنيّ... أأنت مريض ؟"

"رأسي يؤلمني كثيراً" ، أنّ الغلام ثم ترك رأسه يتكئ ثقيلاً على كتف أبيه .

في تلك الليلة سهرا على أورم . كان يهمهم معظم الليل من حمى الدماغ... كان يصرخ عالياً ويعارك الهواء بذراعيه الطويلتين... بدا وكأنه يرى رؤى بشعة . وما كان يقوله لم يستطيعا فهمه .

و في الصباح انهارت كريستين . لقد ثبت أنها حامل مجدداً وقد أجهضت هذه المرة ، وغرقت لاحقاً في سبات ، كأنها نصف ميتة ، ثم أصيبت بحمى قوية . كان أورم قد مات ، ودفن منذ أسبوعين ، قبل أن تعرف بموت ابن زوجها .

كانت ضعيفة جداً آنذاك حتى أنه لم يكن فيها من القوة ما يكفي لتشعر بالأسى . كانت شاحبة وضعيفة إلى حد أنه ما كان هناك شيء يمكنه أن يؤثر فيها بحدة... كان يبدو لها أنها في حال جيدة طالما كانت مضطجعة هناك نصف ميتة . مرّ عليها وقت رهيب حين كانت النسوة لا يجرؤن إلاّ بالكاد على لمسها للقيام بما هو مطلوب لأجل النظافة... ولكن ذلك كله بدا

كأنه جزء من تهويماتها المحمومة . كان جيداً الآن أن تتمدد ويُعتنى بها . من حول سريرها كانت قد علقت أكاليل عديدة طيبة الرائحة من زهور الجبال لإبعاد الذباب... كان الناس قد أرسلوها من السايترات ، وكانت لها رائحة عذبة جداً ، وخاصة حين يكون هناك مطر في الجو . أحضر لها إرلند أطفالهما ذات يوم... رأت أن المرض قد أذواهم ، وأن غاوته لم يعد يميزها ، ولكن حتى هذا لم يكن قادراً على إيلامها بعد . كانت تشعر فحسب أن إرلند كان دائماً إلى جوارها .

كان يذهب لحضور القداس كل يوم ، وكان يركع طويلاً ليصلي قرب أورم . كان فناء الكنيسة ومدفنها قريبين من كنيسة الأبرشية في فينيار ، ولكن بعض الأطفال الصغار من الأسرة كانوا قد دفنوا في المعبد الذي في هوسابي... شقيقا إرلند وابنة صغيرة لمونان بيشوبسون . كثيراً ما كانت كريستين تشعر بالشفقة على هؤلاء الصغار الراقدين لوحدهم تحت الصفائح الحجرية . والآن وجد أورم إرلندسون مكان راحته الأخير بين هؤلاء الأطفال .

حين كان الآخرون لا يزالون يخشون على حياة كريستين بدأت مجموعة من الشحاذين من نيداروس تأتي عبر الأبرشية مع اقتراب عيد القديس أولاف... كانوا على الأغلب أولئك المتسولين أنفسهم ، رجالاً ونساء ، ممن اعتادوا القدوم إلى هناك كل عام... كان الحجاج دائماً كرماء معهم ، فقد كان يعتقد أن شفاعة الفقراء تفيد كثيراً . كما كانوا قد اعتادوا الحضور عبر "سكاوم" خلال فترة وجود كريستين سيدة هوسابي ، فقد كانوا يعرفون أنهم سيمنحون المأوى الليلي والطعام الكثير والصدقات قبل أن يتابعوا طريقهم . في هذه المرة كان الخدم على وشك طردهم ، بما

أن السيدة كانت على فراش المرض . ولكن حين سمع إرلند ، الذي كان بعيداً عن المنزل في الشمال في آخر صيفين ، أن زوجته اعتادت أن تعامل الشحاذين بودّ ، فقد أمر أن يُمنحوا المأوى والطعام كما كان من شأن كريستين أن تقدمهما لهم . وفي الصباح ذهب بنفسه وساعد على صب الشراب لهم ودار عليهم بالطعام ، وقدّم لهم الصدقات بنفسه ، بينما كان يرجوهم بضِعة أن يصلوا لزوجته . وقد بكى الكثير من الشحاذين حين سمعوا أن الشابة الكريمة كانت مريضة على شفا الموت .

كان السيرا آيليف قد حكى لها هذا كله حين تحسنت حالتها . ولكن لم تعد إليها قوتها ولا استعادت حزمة مفاتيحها مرة أخرى إلا مع اقتراب موسم عيد الميلاد .

كان إرلند قد أرسل من يبلغ والديها حالما وقعت فريسة المرض ، ولكنهما كانا قد رحلا جنوباً لحضور زفاف في سكوغ . وفي وقت لاحق حضرا إلى هوسابي . كانت في حال أحسن آنئذ ، إنما منهكة جداً حتى أنها لم تكن قادرة على التكلم كثيراً معهما . كانت لا تسرّ على أفضل نحو إلا بوجود إرلند إلى القرب من سريرها .

كانت تزحف لتحتمي تحت خيمة صحته وقوته وهي في ضعفها وقشعريرتها وشحوبها . كانت نار دمها القديمة قد خبت ، إلى حد أنها لم تعد تتذكر كيف يمكن للمرء أن يعيش على ذاك النحو . ولكن ذهب مع هذا أيضاً قلق ومرارة السنين الأخيرة . بدا لها أنها كانت سعيدة الآن... حتى لو كان الحزن على أورم يقبع ثقيلاً عليهما كليهما ، ورغم أن إرلند لم يكن يعرف كم كانت خائفة على غاوته الصغير ، ولكنها كانت على أي حال سعيدة معه الآن . لقد فهمت كم كان يخشى أن يفقدها...

كان أمراً لطيفاً وقاسياً آنئذ أن تضطر أن تخاطبه... أن تتحدث عن أمور قد تحطم السلام والرضا اللذين كانا بينهما .

•

كانت واقفة في الخارج أمام باب القاعة في ليلة الصيف اللامعة حين عاد أهل المنزل من حفلة الرقص . كانت مارغريت تتعلق بذراع أبيها وقد ارتدت ملابسها وتزينت كمن تذهب لحضور احتفال بالزفاف وليس احتفالاً راقصاً على مرج الكنيسة ، حيث كانت كل أنواع البشر تجتمع هناك . ولكن زوجة الأب كانت قد تخلّت عن أي تدخل في شؤون تربية الفتاة . كان على إرلند أن يوجّه ابنته كما يريد .

كانا ظمآنين إرلند ومارغريت ، وذهبت كريستين لتحضر لهما الجعة . جلست الفتاة تثرثر في هذه الأثناء... فقد كانت قد أصبحت على وفاق مع زوجة أبيها الآن بعد توقف كريستين عن محاولة تعليمها . كان إرلند يضحك من ثرثرة ابنته عن حفلة الرقص . ولكن مارغريت وخادمتها صعدتا أخيراً إلى علية النوم .

ظل الرجل يذرع القاعة جيئة وذهاباً... ثم تمطمط وتثاءب ، ولكنه قال إنه غير متعب . مرّر أصابعه عبر شعره الأسود الطويل .

"لم يكن هناك وقت كاف حين خرجنا من الحمام -بسبب حفلة الرقص هذه- وأعتقد أن عليك أن تقصّي لي شعري يا كريستين... لا أستطيع الاستمرار بهذا الشعر الطويل في الأيام المقدسة..."

أجابت كريستين بأن الظلام لا زال مخيماً ، ولكن إرلند ضحك وأشار إلى فتحة الدخان قائلاً إن الفجر قد أطل مجدداً . وهكذا أضاءت الشمعة

مجدداً ، وطلبت منه الجلوس ، ثم نشرت قماشة على كتفيه . وبينما راحت تقص له شعره ، كان يتحرك متدغدغاً ويضحك حين يقترب المقص من عنقه .

لملمت الشعر المقصوص بعناية وأحرقته بنار المدفأة ، ثم هزت القماشة أيضاً فوق النار . ثم مشطت شعر إرلند من قمة رأسه إلى الأسفل وراحت تستخدم المقص هنا وهناك حيث لم تكن نهايات الشعر مستقيمة .

أمسك إرلند بيديها وهي واقفة خلفه ، ثم أحاط بهما عنقه ، ونظر إليها بوجه مبتسم ، مرفوع إلى الخلف .

قال مجدداً : "أنت منهكة" ، ثم أفلت يديها وهو ينهض بتنهيدة صغيرة .

•

أبحر إرلند إلى بيورغفين حين كان منتصف الصيف قد مرّ . وقد تذمر كثيراً لأن زوجته كانت غير قادرة مجدداً على أن ترافقه... لقد ابتسمت منهكة . وعلى أي حال فإنها ما كانت تستطيع ترك غاوته في مثل تلك الحالة التي كان بها .

و هكذا جرى أن بقيت كريستين لوحدها في هوسابي مجدداً . على الأقل فإنها في هذا العام ما كانت تنتظر أن تلد الطفل قبل قداس ماثيوس (٢١ أيلول / سبتمبر) . وقد كان صعباً عليها صعوبة مضاعفة وعلى السيدات اللواتي كن يحضرن لرعايتها في موسم الحصاد حيث تكثر الأعمال والنشاطات .

لقد تساءلت إن لم تكن الأمور ستبقى هكذا إلى الأبد . لم تكن الأوقات الآن كما كانت وهي بعد فتاة صغيرة . لقد كانت قد سمعت عن

الحرب الدانمركية من أبيها وهي تتذكر ذلك الوقت حين كان بعيداً عن البيت في الحرب ضد الدوق آيريك . وقد رجع من تلك الحرب حاملاً تلك الندوب الكبيرة على جسمه . ولكن رغم كل شيء ، ففي موطنها في "ديل" كانوا بعيدين كما بدا لهم عن الحرب... فهي لن تصل إلى هناك أبداً... هكذا كانت تشعر هي وهكذا كان الناس جميعاً يظنون . كانت أغلب ذكرياتها عن السلام ، عن أبيها وهو يقطن في البيت ويدير أملاكه ، ويعتني بهم ويهتم بأمورهم جميعاً .

في هذه الأيام كانت هناك قلاقل مستمرة : كان الناس كلهم يتحدثون عن النزاع والرسوم الحربية وحكومة المملكة . في ذهن كريستين كان هذا كله مرتبطاً بصورة البحر والشاطئ ، كما رأتهما في تلك المرة الوحيدة حين وصلت إلى هنا شمالاً في المرة الأولى . على امتداد الشاطئ كانوا يأتون مبحرين أولئك الرجال برؤوس مليئة بالمشاورات والخطط والخطط المضادة والتأملات والأسياد الروحيين والعامة من الشعب . كان إرلند ينتمي إلى هؤلاء بموجب مولده النبيل وثروته . ولكنها أحست أنه كان يقف ضمن دائرتهم إنما جزئياً .

لقد تأملت كثيراً في سبب وقوفه على هذا النحو ، بين بين . ما كان رأي زملائه به في حقيقة الأمر ؟

حين كان هو مجرد الرجل الذي تحب ، لم تكن تسأل مثل هذه الأسئلة . لقد رأت بالفعل أنه كان نزقاً وعنيفاً ، متهوراً ودائم الاستعداد لارتكاب عمل طائش . ولكنها كانت تجد أعذاراً لكل ذلك... ما كانت تزعج نفسها بالتفكير فيما يمكن لمزاجه أن يسببه لهما كليهما . ما أن يحصلا كلاهما على الموافقة على الزواج ، حتى يتغير كل شيء... هكذا كانت تعزي

نفسها . أحياناً كانت تشعر على نحو غامض أنها لم تبدأ بالتفكير بمن هو إرلند ، ذاك الذي يسميه الناس بالمستهتر واللاحكيم ، والشخص الذي لا يمكن الوثوق به... إلا في تلك الساعة حين عرفت أنهما قد منحا الحياة لطفل...

كانت تثق به . تذكرت عليّة برينهيلد . تذكرت كيف كان الرابط بينه وبين تلك الأخرى قد انقطع في النهاية . تذكرت معاملاته بعد أن أصبحت خطيبته الشرعية . ولكنه بقي مخلصاً لها رغم كل الصدود والإذلال ، وقد لاحظت الآن أيضاً أنه لم يكن مستعداً للتخلي عنها لقاء كل ذهب الدنيا...

لم تستطع أن تغالب التفكير في هافتور أوف غودوي . فكلما التقت به كان يحوم من حولها بتودد عابث ، ولكنها لم تكن تكترث بهذا . لقد اعتبرت ذلك أسلوبه الخاص بالمزاح . ما كانت قادرة على تصديق أي شيء آخر حتى الآن . كانت قد أحبت الشاب الوسيم المزوح... أجل وهي لا تزال تحبّه . ولكن أن يظن أي شخص في أن هذه الأمور مجرد مزحة... لا ، لم تستطع أن تفهم ذلك .

كانت قد قابلت هافتور غراوت ثانية في المآدب الملكية في نيداروس ، وقد حام من حولها هناك أيضاً حسب عادته . في إحدى الأمسيات جعلها تذهب معه إلى إحدى العليّات ، وقد اضطجعت معه على سرير مرتب كان موجوداً هناك . في موطنها في "ديل" ما كانت لتفكر بأي أمر من هذا النوع... لم يكن معتاداً في الاحتفالات أن يتسلل الرجال والنساء إلى أماكن جانبية ، لوحدهما ، اثنين اثنين . ولكن كان الجميع هنا معتادين على ذلك ، ولم يبد لهم هذا الأمر مشيناً... كان يقال إنها عادة يمارسها الفرسان والسيدات في البلاد الأجنبية . حين دخلا لأول مرة فإن الليدي إلين ، زوجة سير إرلينغ ،

تمددت على السرير الآخر مع فارس سويدي . سمعتهما يتحدثان عن ألم الأذن الذي يعاني الملك منه... وقد بدا السويدي مسروراً حين أومأت له الليدي إلين بالنهوض للعودة إلى القاعة .

حين فهمت أن هافتور كان جاداً وحزيناً فيما طلبه منها وهما مضطجعان هناك يتبادلان الحديث ، فقد أصيبت بالحيرة إلى حد أنها بدت غير قادرة على أن تكون خائفة ولا أن تغضب إلى حد كبير . ألم يكونا كلاهما متزوجين ، أولم يكن لهما كليهما أطفال رزقا بهم من قرينيهما ؟ شعرت أنها لم تكن تستطيع أن تصدق تصديقاً كاملاً من قبل أن مثل هذه الأمور يمكن أن تحدث . وحتى بعد أن جرى ما جرى لها... لا... كانت تعتقد أن هذا لا يجب أن يحدث . كان هافتور يضحك معها ويمازحها ويلاطفها... لم تستطع أن تقول إنه حاول أن يقودها إلى طريق الضلال ، فهو لم يكن جدياً بما فيه الكفاية . ومع ذلك بدا أنه كان سيجعلها ترتكب أسوأ خطيئة...

نزل من السرير في اللحظة التي طلبت منه الرحيل... أصبح خنوعاً جداً ، ولكنه بدا أشد حيرة منه خجلاً . وقد سألها غير مصدق إن كانت تحلم حقاً بأن المتزوجين لا يخونون أزواجهم أبداً... ؟ لا شك أنها تعرف أن قليلاً من الرجال مستعدون أن يقسموا بأنهم لم يسبق لهم أبداً أن احتفظوا بعشيقات . أما النساء فربما كان وضعهن أفضل ، ولكن الصحيح...

سألها : "أكنت تصدقين إذن أيضاً حين كنت شابة صغيرة كل ما يعظ به الكهنة عن الخطيئة ؟ أنا لا أفهم يا كريستين لافرانسداتر كيف استطاع إرلند إذن أن يفرض إرادته عليك ؟"

كان قد رفع نظره إلى وجهها... ولا بد أن عينيها قد نطقتا ، رغم أنها ما كانت لتحاور هافتور عن هذا الموضوع لقاء الكثير من الذهب . فقد قال بصوت شديد التعجب عالي النبرة :

"كنت أظن أن مثل هذا الأمر هو ما تتحدث عنه الأغاني والقصائد فحسب..."

لم تكن قد حكت لأحد عن هذا ، ولا حتى لإرلند الذي كان يحب هافتور جيداً . ولا شك أنه أمر مخيف أن يكون هناك أشخاص خفيفو العقل شأن هافتور غراوت... ولكن كأنما لم تكن تستطيع أن تشعر أن هذا الأمر يعنيها إطلاقاً . كما أنه لم يحاول أبداً أن يكون متحرراً معها منذ ذلك الحين... كان يجلس ويحدق فحسب حين يلتقيان ، وعيناه اللتان بزرقة البحر مشدوهتان من شدة التعجب .

لا ، لو كان إرلند خفيف العقل ، فإنه ليس خفيف العقل على هذا النحو . كما فكرت : هل كان هو غير حكيم ؟ لقد لاحظت أن الناس كانوا ينذهلون من الأمور التي يقولها ، وكانوا يتهامسون عليها لاحقاً . كان هناك غالباً الكثير من الحق والمنطق فيما يقوله إرلند نيكولاوسون . كان الأمر وما فيه أنه لم يكن يرى أبداً ما كان الناس الكبار الآخرين لا يدعونه يفلت من أنظارهم... ذلك الاحتراس الحذر الذي يراقب فيه واحدهم الآخر . كان إرلند يسميه الخداع ثم يضحك ضحكته المتهورة التي كانت تزعج الناس إلى حد ما ولكنها تجردهم على المدى الطويل من أسلحتهم . وكان هؤلاء أيضاً يضحكون عندئذ ، يربتون على كتفه ، ويقولون إنه قد يكون متوقد الذهن بما فيه الكفاية ، ولكنه كان بالتأكيد عكس ذلك .

ثم كان يبطل مفعول كلماته بالمزاح الداعر الوقح . وكان الناس يعانون الكثير من إرلند بسبب مزاحه هذا . كانت زوجته تشعر على نحو غامض - وكان هذا الشعور يجعلها تحس بالضعة- بالسبب الذي يجعل الناس يتحملون لسانه الفالت . كان إرلند يحجم ويستسلم في اللحظة التي يقابل

فيها شخصاً يتمسك برأيه الخاص... رغم أن هذا الرأي كان حماقة في نظر إرلند ، فإنه كان مستعداً مع ذلك للتخلي عن رأيه ، مهما تكن تلك المسألة ، لكنه كان يغطي تراجعه بالحديث الساخر حول ذاك الرجل . وكان الناس راضين جيداً إذ يعرفون أن إرلند كان يعاني من مثل هذا الجبن في العقل... رغم أنه كان متهوراً فيما يخص مصلحته ، وتواقاً للمغامرة ، ويعشق على نحو يائس كل خطر يمكن أن يجابه بقوة السلاح . وعلى أي حال ، فقد كانوا لا يشعرون بالحاجة إلى أن يقلقوا من جهة إرلند نيكولاوسون .

في العام الماضي حين كان الشتاء على وشك الانقضاء ، كان "الوصي السامي" في نيداروس ، وقد جلب الملك الطفل معه . كانت كريستين في المدينة لأجل الوليمة الضخمة في القصر . كانت قد جلست هادئة ومهيبة في غطاء رأسها الحريري ، وقد ارتدت ثوب زفافها الأحمر مع أثمن زينة لديها ، بين السيدات الأرفع مقاماً في البلاط الملكي . وبعينين يقظتين راحت تتابع تصرفات زوجها بين الرجال ، تراقب وتصغي وتتأمل... مثلما كانت تراقب وتصغي وتتأمل كلما مضت مع إرلند أو كلما لاحظت أن الناس كانت تتكلم عنه .

لقد فهمت أمراً ما ثم آخر . كان السير إرلينغ فيدكونسون راغباً في المخاطرة بكل شيء لأجل تثبيت حكم النرويج شمالاً نحو "البحر المتجمد" ، وعلى حماية هالوغالاند والاحتفاظ بها . ولكن المجلس الاستشاري ومجلس الفرسان كانا يخالفانه ولا يريان الموافقة على القيام بأي مشروع كبير لخدمة هذا الغرض . كان كبير الأساقفة نفسه وكهنته راغبين في الوقوف إلى جانبه ودعمه بالمال -كانت تعرف هذا من غونولف- ولكن كان رجال الكنيسة في كل أرجاء البلد ضده حتى لو كانت تلك حرباً ضد

أعداء الرب والهراطقة والوثنيين . كما كان العامة ضد الوصي السامي هنا في تروندهايم على الأقل ، إذ كانوا قد اعتادوا على عدم الاكتراث كثيراً بكلام كتب القانون وحقوق التاج ، ولم يكونوا راضين أن يقف السير إرلينغ بكل حدة في هذه المسائل مؤيداً رأي قريبه الملك هاكون طيب الذكر . ولكن لم يكن إرلند غير راغب في أن يكون موضع استغلال بسبب هذا الأمر ، فقد فهمت الآن أن الوصي السامي كان ينوي استغلال زوجها لمصلحته . بالنسبة إلى إرلند كان ما يقلقه هو المظهر الجدي المهيب لذلك الشخص ، وقد انتقم لنفسه بالسخرية قليلاً من قريبه صاحب السلطة .

ظنت كريستين أنها فهمت موقف إرلند من السير إرلينغ الآن . فقد كان الفارس يحمل نوعاً من المودة لإرلند منذ يفاعتهما وحتى الآن . ثم كان يظن في أنه لو استطاع أن يكسب إلى صفه سيد هوسابي كريم المحتد والشجاع ، الذي كان قد اكتسب بعض المهارة أيضاً في فن الحرب من خدمته مع الكونت ياكوب –والذي كان على الأقل يعرف عن الحرب أكثر من معظم زملائه ولكنه لا يفعل شيئاً عدا البقاء في البيت– فقد يخدم هذا مشاريعه ومصلحة إرلند . ولكن الرياح لم تجر كما كان يشتهي .

بقي إرلند صيفين كاملين في البحر حتى نهاية الخريف ، متخبطاً في البحار التي تغسل الشاطئ الشمالي الطويل ، ملاحقاً مراكب اللصوص بالسفن الأربعة الصغيرة التي كانت تحت إمرته . كان يصل للحصول على اللحم الطازج إلى مستوطنة نرويجية جديدة في أقصى الشمال في "تانا" ، في الوقت الذي كان سكان كاريليا منهمكين في نهبها... وبحفنة من الرجال الذين اصطحبوه إلى الشاطئ ، فقد أسر ثمانية عشر لصاً وشنقهم على جذع سقف الحظيرة نصف المحترقة . كما كان قد أباد عصبة من الروس الهاربين

إلى الجبال ، وأحرق بعض سفن العدو بين الجزر الصخرية الخارجية وقضى على أطقمها . لقد انتشرت شهرة سرعته وجرأته انتشار النار في الهشيم في الشمال . كان تروندر ورجاله القادمون من "موره" يحبون قائدهم لبسالته ومشاركته لهم في كل الأعمال الشاقة والصعوبات . كان يصادق الناس العاديين والأبناء الشبان من الضيع الكبيرة إلى الشمال في هالوغالاند ، حيث كان الناس قد اعتادوا سابقاً على التفكير في أن عليهم أن يحرسوا شواطئهم دون مساعدة من أحد .

و لكن ألا يستطيع إرلند أن يخدم مصالح الوصي السامي في خططه للقيام بحملة شمالية كبيرة . لاشك أن سكان تروندهايم كانوا يتفاخرون ببطولاته ضد الروس ، وحين يحين دورهم في الكلام ما كانوا يدعون أحداً ينسى أنه كان واحداً من أبناء ريفهم . أجل ، لقد تبين على نحو واضح أن هناك الكثير من الحماسة الجيدة القديمة في الشبان الساكنين حول الزقاق البحري هنا . ولكن ما كان يقوله إرلند أوف هوسابي وما كان يفعله لم تكن أموراً تلائم رجلاً ناضجاً حكيماً :

لقد لاحظت أن إرلند لا زال يعتبر واحداً من الشبان -رغم أنه كان أكبر بسنة من الوصي السامي . وقد فهمت أن هذا كان يلائم الكثير من الناس إذ كانت كلماته وأفعاله سينظر إليها على أنها أفعال وآراء شاب متهور . وهكذا كان محبوباً ومدللاً ومتفاخراً به . ولكنه ليس محسوباً كرجل وصل إلى كمال رجولته . وقد لاحظت هي كم كان هو راغباً في أن يكون جزءاً من هذا الأمر وكما يريد له رفاقه أن يكون .

كان مؤيداً للحرب الروسية . كما كان يتكلم عن السويديين الذين كانوا يتقاسمون معنا ملكنا ولكنهم يرفضون أن يعتبروا أفراد الطبقة العليا

والفرسان النرويجيين على أنهم نبلاء مساوون لهم . أو هل سُمع عن مثل هذا الأمر في أي بلد من البلدان ، كما راح يسأل ، طالما كان هذا العالم لا يزال موجوداً ، أي أن يكون شخص ما قد طلب رسوماً حربية من نبلاء إلا بشكل واحد : أن يركبوا أحصنتهم ويحملوا تروسهم إلى الميدان ؟... كانت كريستين تعرف أن هذا هو إلى حد كبير ما كان أبوها يقوله في المجلس في فاغ قبل بضع سنوات ، وكان قد ضغط على إرلند حين كان صهره كارهاً أن يفارق صحبة مونان باردسون ومستشاريه . كان إرلند يقول لا الآن... وقد ذكر أقرباء حميه الأقوياء ذوي السلطة في السويد... وكان يعرف جيداً كيف يقيّمنا هؤلاء النبلاء السويديون . إذا لم نبرهن على ما نستطيع فعله ، فسوف لا نستحق سوى أن يُنظر إلينا كمتقاعدين لدى السويديين...

أجل ، سيقول الناس إنه كان هناك بعض الصواب في هذا الأمر . ولكنهم كانوا يذكرون الوصي السامي مجدداً . كان لدى السير إرلينغ ما يفعله في الشمال . فالكارليون قد أحرقوا بياركو فوق رأس وكيله هناك في إحدى السنوات وراحوا يضايقون مزارعيه . ثم غيّر إرلند لهجته وبدا مرحاً مع الفارس : لم يكن إرلينغ فيدكونسون يفكر بمصالحه الخاصة ، فقد كان ضامناً لهذه . كان نبيلاً ورائعاً ومهيباً كفارس... وما كان ممكناً لهم أن يجدوا رجلاً أكثر ورعاً ليكون حجر الزاوية في إدارة شؤونهم . كان إرلينغ بحق الصليب ورعاً وموقراً مثل أروع حرف مذهّب في "كتاب القانون" . ضحك الناس ولم يتذكروا كثيراً مديح إرلند لشرف الوصي السامي حتى أنه شبهه بالحرف المذهّب في كتاب .

لا ، لم يأخذوا إرلند على محمل الجد... ولا حتى الآن بعد أن اكتسب الاحترام نوعاً ما . ولكن في تلك الأيام حين كان يعيش في حالة من الزنا مع

امرأة وحين رفض التخلي عنها رغم أمر الملك وحرمان الكنيسة ، أي حين كان شاباً وعنيداً ويائساً ، عندها كانوا ينظرون إليه بحزن ويديرون له ظهورهم غضباً من حياته التي يعيشها دون ورع ومجللاً بالعار . والآن كان هذا كله قد نسي وغفر له... وقد فهمت كريستين أنه كان هناك شيء من الامتنان لرغبة زوجها في الإذعان وأن يكون كما يريده الناس... فلقد عانى بمرارة ، كما كانت تعرف ، في تلك الأيام حين كان يعيش كمنبوذ هنا في بيته وبين رفاقه .

و لكن كان هناك أمر واحد فحسب -عليها أن تفكر بأبيها حين كان يغض النظر لقاء لا شيء عن دفع إيجار الأرض أو دين من الديون- وذلك بمجرد هزة من كتفيه . كان هذا واجباً بين واجباتنا كمسيحيين أن نتحمل أولئك الذين لا يستطيعون أداء دور الرجل . أهكذا نال إرلند الغفران على خطايا شبابه... ؟

و لكن إرلند دفع بالفعل ثمن هذه الأفعال حين كان يعيش مع إلين . لقد كفّر عن خَطِيئته حتى اليوم الذي قابلها فيه (كريستين) ولحقت هي به ، دون كره ، ليمارسا خطايا جديدة . هل كانت هي إذن من... ؟

لا ، لقد أصبحت خائفة من أفكارها بالذات .

و قد حاولت أن تبعد عن ذهنها كل الاهتمام بالأمور التي لا تستطيع التدخل فيها . كانت تفكر فحسب بتلك المسائل التي تستطيع أن تفيد فيها بعنايتها . وعليها أن تترك الباقي كله بين يدي الرب . لقد ساعدها الرب في كل الأمور التي كان ممكناً فيها لجهدها وآلامها أن تكون ذات فائدة . إن مزرعة البيت في هوسابي قد تحوّلت الآن إلى مزرعة جيدة كما كانت في الأيام الخالية... رغم سنوات القحط . لقد منحها الرب ثلاثة أبناء وسيمين

أصحاء... في كل عام كان يمنحها الحياة مجدداً حين يكون عليها أن تواجه الموت خلال المخاض . كان قد سمح لها أن تقوم من جديد بكامل صحتها بعد كل ولادة . لقد مُنحت نعمة الاحتفاظ بكل أولادها الصغار الأحياء في العام الماضي حين أودى المرض بكثير من الأطفال الصغار العذبين في المنطقة المحيطة بها . أما غاوته فسوف يتحسن حتماً ، كانت تؤمن بذلك حقاً .

لا شك أن الأمر هو كما قال إرلند... عليه أن ينفق بحرية كما كان يفعل وأن تحيط به كل الأشياء الثمينة . وإلاّ فلن يستطيع أن يلعب دوره أبداً بين أنداده أو أن يشق طريقه بنجاح إلى مثل تلك الحقوق والمنح تحت إمرة الملك كما يستحق هو بموجب حقوق محتده الرفيع . وعليها أن تصدق أنه كان يفهم في مثل تلك الأمور أفضل منها .

كان أمراً خالياً من الفطنة أن يظن المرء أن الأمور كانت في حال أفضل بالنسبة إليه على نحو ما في تلك الأيام حين كان يعيش تحت نير الخطايا مع تلك المرأة الأخرى... مما هي الآن معها . كانت اللمحة إثر اللمحة تمر أمام عينيها لوجهه كما كان في تلك الأيام ، وقد كان منهكاً من الحزن ونحيلاً من الانفعال . كلا ، كان حسناً كما هو الآن . إلا أنه كان نوعاً ما قليل الاكتراث والتفكير .

●

عاد إرلند إلى البيت في موسم عيد القديس ميكائيل . كان يأمل في أن يجد كريستين في السرير ، ولكنها كانت لا تزال مستيقظة ، وقد وصلت لاستقباله على الطريق . كانت ثقيلة الخطوات إلى حد مثير للشفقة هذه

المرة... ولكنها كانت تحمل غاوته على ذراعها كما هو دأبها أبداً ، أما الصبيان الأكبر سناً فكانا يجريان أمامها .

قفز إرلند من فوق جواده ووضع الصبيين فوقه . ثم أخذ الصغير من ذراع زوجته وكان يريد حمله . أضاء وجه كريستين الأبيض المتعب حين لم يبد غاوته أي علائم تدل على الخوف من أبيه... لا شك أنه عرفه مجدداً . لم تسأل زوجها عن أعماله . بل تحدثت فحسب عن أربع أسنان صغيرة نبتت لغاوته . لقد مرض بشدة حين راحت تنبت له .

ثم انفجر الصبي في البكاء... كان قد جرح فخذه بدبوس عنق أبيه . راح يناضل ليعود إلى أمه مجدداً ، وكانت تريد أن تستعيده رغم كل ما كان إرلند سيقوله .

و لم تسأل كريستين زوجها حتى المساء ، حين جلسا في القاعة وكان الأطفال قد ناموا ، عن إقامته في بيورغفين... وكأنها كانت أمراً لم تتذكره إلا الآن فحسب .

اختلس إرلند نظرة من زوجته . يا للحبيبة المسكينة... بدت شديدة البؤس . لذلك راح أولاً يذكر نتفاً من الأخبار . كان إرلينغ قد طلب إليه أن يوصل لها تحياته وأن يقدم لها هذا الخنجر من البرونز أخضر اللون المتآكل من صدأ النحاس . لقد وجدوه في كومة حجارة في غيسهكه ، ويقال إن مثل هذه الأشياء مفيدة إذا وضعت في المهد ، إن كان مرض غاوته هو كساح الأطفال .

لفت كريستين القماشة من حول الخنجر مجدداً ، ونهضت بصعوبة من كرسيها ، ثم مضت نحو المهد ، ووضعت الرزمة الصغيرة بين كل الأشياء الأخرى التي كانت هناك تحت الأغطية... فأس من الصوان وجد تحت الأرض ،

شحم القندس ، صليب صغير من المازريون (نبتة أرجوانية الزهر) ، فضة متوارثة ، فولاذ ناري ، وجذور السرخس والأرجوان .

رجاها بتودد : "استريحي الآن يا كريستيني ." اقترب منها وخلع عنها حذاءها وجوربها... وراح يحكي لها أخباره .

لقد عاد هاكون أوغموندسون ، والسلام مع الروس والكاريليين قد أنجز وتم التوقيع عليه . كان عليه الآن أن يسافر شمالاً مجدداً في مهمة هذا الخريف . فلم يكن أمراً مؤكداً الآن أن تهدأ الأمور بسرعة ، وكانت هناك حاجة إلى أن تحكم "فارغوي" (فاردو المعاصرة) من قبل شخص يعرف المنطقة والناس . أجل ، ستكون لديه كامل السلطة كحاكم باسم الملك هناك... وكانت القلعة في حاجة إلى تدعيم حتى يتم فرض سلام الملك في الأراضي الواقعة الآن ضمن علامات الحدود الجديدة .

نظر إرلند في قلق وترقب إلى وجه زوجته . بدت خائفة قليلاً... ولكنها لم تطرح الكثير من الأسئلة ، وكان واضحاً أنها لم تفهم كثيراً المعنى الكامل لأنبائه . لاحظ كم كانت منهكة... لذلك توقف عن الحديث حول هذه الأمور ، ولكنه بقي إلى القرب منها لفترة أخرى ، جالساً على حافة السرير .

كان يعرف هو نفسه ما كان قد التزم به . ضحك إرلند بهدوء لنفسه وهو يخلع ملابسه بتمهل . لن يكون الأمر مجرد جلوس ببطن يلفه حزام فضي ، وإقامة ولائم الجعة للأصدقاء والأقرباء ، وتقليم أظافرك أحسن تقليم ، بينما ترسل مأموريك ومساعديك إلى هنا وهناك في مهمات تخصك... وذلك حسب أسلوب حكام الملك في القلاع الواقعة في الجنوب . إذ أن قلعة فارغوي كانت معقلاً من نوع آخر .

إن على اللابلانديين والروس والكاريليين والنسل المختلط من كل هذه

الأجناس... عصابات الجن والسحرة والكلاب الوثنية وحملان الشيطان القذر المدللة... كل هؤلاء يجب أن يتعلموا كيف يدفعون ما عليهم مجدداً إلى المندوبين النرويجيين ، وأن يتركوا بسلام بيوت النرويجيين المتناثرة على مسافات شديدة البعد ، ربما بقدر المسافة من هنا إلى "موره" . السلام... ربما ستعرف الأرض هنا السلام لبعض الوقت الآن... خلال زمانه سيكون سلاماً يدوم خلال وجود الشيطان في القداس . ثم ستكون هناك أعماله المتهورة لتبقي الأمور عند حدها . وبما أن الربيع سيكون على الأبواب حين يبدأون بالمعاناة من الجنون من العتمة والعواصف والبرد والضجيج الجهنمي للبحر... سيصبح الطعام والزبدة والشراب أقل ، وسوف يتقاتلون على النساء ، والحياة على الجزيرة ستكون أكثر مما يستطيع اللحم والدم تحمله . لقد رأى شيئاً من هذا حين كان هناك مع غيسور غاله كشاب صغير . لن يكون ذلك سريراً من الورود .

كان "إنغولف بايت" الرجل المسؤول هناك الآن رجلاً جيداً بما فيه الكفاية . ولكن يجب أن يتسلّم الأمور هناك رجل من بين الفرسان... وحتى يتم هذا العمل ، ما كان هناك أحد يفهم أنها كانت نية الملك النرويجي في أن يبسط حكمه على البلاد . في تلك الأرض سيكون عالقاً كإبرة في بطانية . إن أقرب أبرشية نرويجية هي عند مالانغ في الجنوب ، ولا يعرف إلا الشيطان كم تبعد هذه .

كان إنغولف رجلاً جيداً... حين يكون هناك من يشرف عليه . سيمنح إنغولف إمرة "هوغركن" . أما "مارغيغرين" فكانت أفضل سفينة بينها كلها ، وقد برهن على ذلك حتى الآن . ضحك إرلند برقة وسعادة . لقد قال ذلك لكريستين كثيراً : لا بدّ أن تكون خادمة طيعة تلك التي ستجعله يتشبث بها .

●

أيقظته ضجة صادرة عن طفل يبكي في الظلام . سمع عند السرير على الجدار المقابل كريستين وهي تتحرك وتتحدث ملاطفة بصوت خفيض... كان بيورغولف هو الذي يبكي . أحياناً كان هذا الصبي يستيقظ في الليل ولا يستطيع فتح عينيه بسبب المادة المتجمعة بين الرموش... ثم تقوم أمه بترطيبها بلسانها . لقد بدا له الأمر بشعاً دائماً .

هدهدت كريستين الطفل برقة . أثارت حنقه نغمات صوتها الرقيقة .

تذكر إرلند ما كان يحلم به . كان يمشي في مكان ما على شاطئ صخري... كان البحر في حالة جزر وراح يقفز من صخرة إلى أخرى . كان البحر باهت اللون لامعاً ، يلعق الطحالب بعيداً... وكأنما كانت تلك ليلة صيف غائمة هادئة ، دون شمس . أمام النور الفضي عند فم الزقاق البحري رأى سفينة راسية ، سوداء ورشيقة ، وهي تهتز بنعومة على الأمواج . كانت هناك رائحة حلوة غير أرضية نابعة من البحر وطحالبه...

أحس بتوق شديد في قلبه . هاهو الآن في عتمة الليل ، مضطجعاً هناك في سرير الضيوف مع نغمات ممطوطة من تهويدة المرضعات راحت تثير أذنيه... لقد شعر الآن كم كان توقه كبيراً . بعيداً عن بيته والأطفال الذين كان المنزل يعج بهم ، بعيداً عن حديث الاقتصاد في النفقات وسكان المنزل والمستأجرين والأطفال... وبعيداً عن الشعور بالحزن عليها تلك التي تعاني من المرض والعلة ، والتي يجب أن يشفق عليها دائماً...

ضغط إرلند قبضتيه على قلبه . كأنما كان توقف عن النبض وهو قابع هناك يرتجف من الخوف في صدره . كان يتوق إلى مغادرتها! حين فكر فيما ستمر هي به ، وهي في تلك الحالة من الضعف والعجز كما هي الآن... فقد كان الأمر على وشك أن يجري في أي لحظة ، كما كان يعرف... كأنما كان مخنوقاً من الخوف . لو فقد كريستين... لم يكن يعرف كيف سيتحمل العيش دونها .

ولكنه ما كان قادراً أيضاً على تحمل العيش معها... ليس الآن . لا بد له من الابتعاد عن ذلك كله ، وأن يتنفس بحرية مجدداً... كأنما كانت حياته في خطر أيضاً .

أيها المسيح ، يا مخلّصي... أوه ، أي نوع من الرجال كان هو . لقد رأى الليلة الأمر بوضوح... كريستين حبيبته الحلوة العزيزة... لم يعرف أبداً المتعة الحقيقية القلبية معها ، إلا في تلك الأيام حين كان يضلّلها على طريق الخطيئة .

و كان يعتقد بكل ثقة أن اليوم الذي سيكسب فيه كريستين ويتزوجها أمام الرب والإنسان... أن ذلك اليوم سيمحو الشر بكامله من حياته حتى أنه سينسى أنه قد وجد على الإطلاق .

يبدو أنه من النوع الذي لا يستطيع احتمال ما هو خير ونقي إلى القرب منه . أما بالنسبة إلى كريستين... أجل ، بما أنها نجت من الخطيئة واللاطهارة بعد أن قادها إليهما ، فقد كانت ملاكاً من سماء الرب . رقيقة وموثوقة ، مهذبة ، دؤوبة وتستحق الشرف . لقد أعادت الشرف إلى هوسابي مجدداً . لقد أصبحت مجدداً ما كانت عليه في تلك الليلة الصيفية حين أوت روحها الشابة العذراء الطاهرة تحت عباءته هناك في حديقة الدير وكان قد فكر ، وهو يشعر بالجسد الشاب الرشيق إلى جانبه بأن الشيطان نفسه ما كان سيجد في قلبه القدرة على إيذاء هذه الطفلة أو أن يسبب لها الأسى...

جرت الدموع على وجه إرلند .

...إذن لا بدّ أن الأمر صحيح ، وأن ما كان يقوله له الكهنة من أن الخطيئة كانت تأكل روح الإنسان كالصدأ... فهو لم يعد يعرف الراحة أو

السلام هنا مع حبيبته الحلوة... وهاهو يتوق إلى أن يبتعد عنها وعن كل ما له علاقة بها...

كان قد بكى حتى كاد أن ينام حين لاحظ أنها قد نهضت من الفراش وكانت تمشي في أنحاء الغرفة وهي تهدهد وتناغي الطفل .

قفز إرلند من السرير متعثراً في العتمة بأحذية الأطفال التي على الأرض ، ووصل إلى زوجته وأخذ غاوته منها . صرخ الطفل عالياً وقالت كريستين بحزن :

"كنت قد جعلته يغفو تقريباً" .

هز الأب الطفل الزاعق ، ضربه على ظهره بضع مرات... وحين زعق الطفل بصوت أعلى أمره بالسكوت بصوت قاس إلى حد أن غاوته صمت فجأة من الرعب . لم يسبق له في حياته أن مرّ بمثل هذه التجربة...

"بحق الرب يا كريستين ، استخدمي ما تبقى لديك من فطنة" . بدا أن حدة عنفه قد جردته من كل قوة وهو واقف هنا في الغرفة المعتمة ، عارياً ، مرتجفاً ونصف مستيقظ ، مع طفل باك بين ذراعيه . "لا بد من وضع حد لهذا ، كما أقول لك... ولم كل تلك المربيات من حولك ؟... لا بد أن ينام الأطفال معهن . لا يمكنك الاستمرار هكذا ."

"ألا تستطيع أن تسمح لي أن يكون أطفالي معي فيما تبقى لي من وقت ؟" أجابت زوجته بصوت باك خفيض .

ما كان إرلند ليفهم ما تعنيه .

"فيما تبقى من وقت أنت في حاجة إلى الراحة . اضطجعي الآن يا كريستين ." هكذا رجاها بلهجة ألطف .

أخذ غاوته إلى سريره... هدهد للطفل قليلاً ثم تلمس في العتمة حتى وجد حزامه على درج السرير . راحت القشور الفضية التي تزينه ترن وتصلصل بينما راح الصبي يلعب بها .

سألته كريستين بخوف من سريرها : "هل الخنجر في الحزام ؟" وانطلق غاوته بنواح جديد حين سمع صوت أمه . أسكته إرلند مجدداً وجعل الحزام يصلصل ثانية... وأخيراً استسلم الطفل وهدأ .

يا للصغير البائس المسكين ، ربما ما كان المرء يتمنى له أن يعيش حتى يكبر... فقد كان أمراً غير أكيد أن غاوته يتمتع بكامل قواه العقلية .

أوه ، كلا ، كلا ، كلا... يا مريم العذراء المقدسة... لم يكن يعني ذلك... لم يكن يتمنى أن يموت ابنه الصغير . كلا ، كلا... حمل إرلند الطفل بين ذراعيه ووضع وجهه على الشعر الدافئ الأزغب .

أولادهما الوسيمون... ولكنه قد ملّ من سماع ذلك صبحاً ومساء ، من التعثر بهم كلما ذهب إلى البيت . أن يتمكن الثلاثة الصغار من أن يتواجدوا في كل الأماكن في آن واحد في ضيعة كبيرة كهذه كان أمراً يفوق فهمه . ولكنه تذكر غضبه الحارق من إلين لأنها كانت تزعج نفسها قليلاً بولديهما . لم يكن هو بالرجل العادل... فقد كان حانقاً الآن لأنه لم يعد يرى كريستين في أي مكان دون أطفال يحومون من حولها .

لم يعرف أبداً ، حين كان يحمل أبناءه المولودين حديثاً بين ذراعيه ، ما يعادل ذلك الشعور الذي انتابه لأول مرة حين وضعوا أورم بين ذراعيه . أوه يا أورم يا أورم ، يا بنيّ... كان منهكاً جداً من إلين حتى ذلك الحين... التي كان قد أمرضها العناد والغضب وحبها الذي لا تستطيع السيطرة عليه . كان قد لاحظ أنها كانت أكبر منه سناً بكثير . وكان قد بدأ يفهم ما سيكلفه

جنونه . ولكنه كان قد فكر هكذا : ما كان قادراً على التخلي عنها... بما أنها كانت قد خسرت كل شيء لأجله . كان مولد الصبي قد منحه ، كما فكر ، سبباً يدعوه إلى تحمل الأم على نحو أقوى . كان صغير السن إلى حد كبير حين أصبح أباً لأورم حتى أنه لم يفهم تماماً ما سيكون عليه وضع الطفل... مع أم هي زوجة رجل آخر .

غلبه البكاء مجدداً وضم غاوته إليه على نحو أوثق . أورم... لم يحبب أياً من أطفاله كما أحب أورم... كان يفتقده كثيراً ويندم بمرارة شديدة على كل كلمة قاسية ومتعجلة قالها له . ما كان ممكناً لأورم أن يعرف كم أحبه أبوه . كانت كل تصرفاته نابعة من مرارته ويأسه ، حين بدأ يرى بوضوح أن أورم لن يعتبر أبداً ابنه الشرعي ، كما لن يحق له أبداً أن يحمل درع أبيه وشارته . ومن الغيرة أيضاً وهو يرى ابنه يصبح على علاقة أوثق بزوجة أبيه من علاقته به ، وكذلك أن معاملة كريستين اللطيفة العادلة للشاب بدت له وكأنها تقريع .

ثم جاءت الأيام التي لا يحتمل تذكرها . كان أورم راقداً في العلية في قش الموتى ووصلت النساء وأبلغنه أنهن لا يعتقدن أن كريستين تستطيع أن تنجو من مرضها . ثم حفروا قبر أورم عند المصلى ، وسألوا إن كانوا سيوارون كريستين هناك أو هل سيأخذ جثمانها إلى كنيسة القديس غريغوري ليدفن حيث دفن أبوه وأمه .

أوه ولكن... عند هذا أمسك أنفاسه خوفاً . كانت وراءه حياته كلها ، المترعة بذكريات كان يهرب منها لأنه لم يكن قادراً على تحمّل التفكير بها . والآن رآها في هذه الليلة... ربما يستطيع أن ينسى نوعاً ما ، ضمن الزمالة اليومية مع رفاقه . ولكنه لم يكن قادراً على حماية نفسه منها حين

تحضر إليه في ساعة كهذه... ثم يبدو له وكأن تعويذة شريرة قد سرقت منه كل شجاعته .

•

تلك الأيام في هاوغن... كان غالباً ما ينجح تقريباً في نسيانها . لم يكن قد ذهب إلى هاوغن منذ تلك الليلة التي غادرها فيها مع بيورن . وهو لم ير بيورن وآشيلد منذ يوم زفافه . كان يخشى من مقابلة السير بيورن . والآن... فكر بما حكاه له السير مونان... كان يقال إنهما يتمشيان هناك... لقد أصبحت هاوغن مسكونة بالأشباح إلى حد أن المساكن كانت فارغة . ما كان هناك أحد ليسكن هناك الآن ، حتى لو مُنح المزرعة مجاناً .

كان بيورن غونارسون يتمتع بنوع من القسوة كان إرلند يعرف أنه ما كان يستطيع الوصول إليها . كانت يده ثابتة حين طعن زوجته (آشيلد)... في القلب تماماً ، كما قال مونان .

مع حلول الشتاء القادم سيكون قد مضى عامان على وفاة بيورن والليدي آشيلد . لم ير الناس دخاناً يخرج من منزلهما في هاوغن لمدة أسبوع . وأخيراً تجرأ بعض الرجال وذهبوا إلى هناك . كان السير بيورن متمدداً في السرير مذبوحاً من العنق . وكان يمسك بجسد زوجته بين ذراعيه . أمام السرير على الأرض كان خنجره الدامي .

لم يشك أحد بكيفية حصول ما حصل... ومع ذلك فإن مونان باردسون وأخاه رتّبا الأمور بحيث يتم دفن الاثنين في أرض مقدسة... وقد قيل إن اللصوص قد يكونون الفاعلين ، رغم أن الصندوق الذي يحوي متاع بيورن وآشيلد كان سليماً لم يمس . لم تكن الجثتان قد مستا من قبل الجرذان أو

الفئران... والحقيقة هي أن مثل هذه المخلوقات الضارة لم تكن موجودة في هاوغن... وكان الناس يفهمون هذه الأمارة على أنها برهان أكيد على مهارة الليدي في فن السحر .

لقد تأثر مونان باردسون كثيراً بنهاية أمه هذه . وقد انطلق مباشرة في رحلة حج إلى مقام القديس جيمس أوف كومبوستيلا .

تذكر إرلند ذلك الصباح بعد ليلة موت أمه مباشرة . لقد رموا المرساة داخل "مولدوي ساوند" ، ولكن الضباب الأبيض كان سميكاً إلى درجة أنهم ما كانوا قادرين على أن يلمحوا الجدار الصخري الذي كانوا قابعين تحته إلا للحظات قصيرة بين الفينة والأخرى . لكنه كان يعطي صدى مكبوتاً للأصوات الجوفاء مع تحرك الزورق بالمجاذيف نحو اليابسة مع الكاهن . وقف في المقدمة وراقبهم وهم يبتعدون عن السفينة . كل الأشياء التي اقترب منها كانت رطبة من الضباب . كانت الرطوبة تشكل حبات من الخرز على شعره وملابسه ، وجلس الكاهن الغريب وقندلفته في مقدمة المركبة وقد جثما رافعين أكتافهما فوق الأدوات المَقدسة الموضوعة في حضنهما . ظهرا كصقرين في طقس ماطر . كان صوت ضربات المجاذيف وصرير مساند المجذاف والصدى من الجرف الصخري يصل كله ضعيفاً بعد أن غاب الزورق في الضباب .

ثم نذر هو على نفسه أن يقوم برحلة حج . كانت لديه فكرة واحدة فحسب... أن عليه أن يرى مجدداً وجه أمه الجميل العذب كما كان في القديم... مع البشرة الناعمة الصقيلة ذات اللون الأسمر الفاتح . كانت تتشقق وينز منها قطرات صغيرة صافية من الرطوبة حين كانت تحاول أن تبتسم له...

هل كانت تلك غلطته في أن أباه قد قابل عودته بمثل هذا الأسلوب ؟ أو هل حوّله آنئذ إلى منبوذ مثله ؟ وبعد كل هذا رمى بعيداً بفكرة الحج من ذهنه ولم يعد يفكر بأمه بعدها . ورغم أن أمورها كانت رديئة على الأرض فربما وجدت السلام حيث هي الآن... ولكنه لم يعرف سوى القليل من السلام بعد أن التجأ إلى إلين مجدداً...

السلام... ولكنه لم يعرفه في حياته سوى مرة واحدة... في تلك الليلة حين جلس خلف السور الحجري باتجاه الغابات عند هوغفين ، وضم كريستين في حجره ، وهي تنام ذلك النوم الرقيق الآمن المتواصل الطفولي . ولم يستطع أن يمنع نفسه من مقاطعة هذا الهدوء لفترة طويلة . ولم يكن السلام هو الذي وجده معها منذ ذلك الحين... أو يجده الآن . رغم أنه رأى كل الآخرين في بيته قد وجدوا السلام مع زوجته الشابة .

كان توقه الوحيد الآن هو الذهاب إلى النضال مجدداً . كان يتوق بجنون إلى تلك الصخرة المقفرة النائية ، إلى البحر الهادر من حول تلك الرؤوس الشمالية ، إلى الشاطئ اللامتناهي ، والأزقة البحرية الهائلة حيث ستنتظره كل الخدع والمكائد ، إلى الناس الذين كانوا ينطقون بلغة لا يعرف منها إلا شذرات ، إلى أعمالهم السحرية وليونتهم وخدعهم الزلقة ، إلى الحرب والبحر وأغنية أسلحة رجاله وسلاحه...

و أخيراً أغفى ، ولكنه استقيظ مجدداً... ما الذي كان يحلم به ؟ أجل بالفتيات اللابلانديات السمراوات... شيء نسيه جزئياً وقد جرى له حين كان في الشمال مع غيسور... ليلة عاصفة جنّ فيها الجميع من الشراب .

و ها هو مضطجع هنا مع ابنه الصغير المريض بين ذراعيه ويحلم مثل تلك الأحلام... لقد أصبح يخشى نفسه حتى أنه لم يتجرأ على محاولة النوم بعد

ذلك . ولم يستطع تحمل أن يبقى متمدداً وهو مستيقظ . أجل ، لا بد أنه رجل بائس تعيس... كان متيبساً من الخوف ، حين تمدد دون تحرك وأحس بقلبه يدق في صدره ، بينما راح يتوق للفجر كي يحرره .

•

أقنع كريستين بالبقاء في سريرها في اليوم التالي ، فهو قد شعر أنه لن يتحمل أن يراها تجرجر نفسها في أنحاء المنزل... في مثل ذلك البؤس . جلس إلى القرب منها وعبث بيدها . كانت لها سابقاً أجمل ذراعين... رشيقتان إنما شديدتا الالتفاف حتى أن العظام الصغيرة الدقيقة عند المفاصل الرشيقة لم تكن تظهر . والآن كانت هذه بارزة مثل عقد على الذراعين النحيلتين اللتين كانت البشرة في الجانب السفلي منهما أكثر ميلاً في لونها إلى الزرقة منها إلى البياض .

في الخارج كانت الريح تعصف والمطر يهطل حتى بدأ الماء ينزل في جداول من منحدرات الجبال . في إحدى المرات ، خلال النهار ، وبينما هو نازل من غرفة الأسلحة ، سمع غاوته يزعق في مكان ما في الساحة . في الممر الضيق بين بنائين وجد أولاده الثلاثة الصغار جالسين في وسط المياه النازلة من الأسطح . كان ناكفه يمسك الصغير بشدة ، بينما راح بيورغولف يحاول أن يقحم دودة أرض حية في فمه... كان يده مليئة بالديدان الوردية اللون المتلوية .

قال ناكفه فخوراً بمعرفته مفتاح اللغز : "أمنا ستضع أختنا الصغيرة ، هذا هو السبب في مرضها" . شدّ إرلند أذن الصبي حتى جلس على ركبته :

"أجل... وحين تولد أختك هذه ، سأجعل عجوزي اللابلاندية ترمي

سحرها عليكم أنتم الثلاثة ، وسوف تتحولون إلى دببة بيضاء وتهيمون في الغابات . ولكن ابنتي الصغيرة سترث كل متاعي وأملاكي ."

زعق الأطفال ، ثم صعدوا إلى سرير أمهم... لم يفهم غاوته ما يحدث ، ولكنه زعق أيضاً وزحف ليبقى مع أخويه . عنّفت كريستين زوجها... مثل هذا المزاح غريب . ولكن ناكفه خرج مجدداً –و في موجة من الضحك والخوف اندفع نحو أبيه ، تعلق بحزامه وراح يعض له يديه ، مع زعقات وصرخات الفرح .

•

لم يحصل إرلند على البنت التي كان سيسعده الحصول عليها في هذه المرة أيضاً . لقد وضعت له كريستين صبيين كبيري الحجم ووسيمين ، ولكنهما كادا يكلفانها حياتها .

و قد عمد إرلند أحدهما باسم إيفار غييسلينغ والآخر باسم الملك سكوله . لم يكن اسم سكوله وارداً في سلالته... ولقد قالت الليدي راغنفريد إن أباها كان رجلاً سيئ الحظ ، وكان يفضل بالتالي أن يغفل اسمه . ولكن إرلند أقسم أن أياً من أبنائه لا يحمل اسماً أدعى إلى التفاخر من هذا الاسم ، وكان ذاك أصغر أبنائه .

و هكذا مضى الخريف الذي كان على إرلند فيه أن ينطلق شمالاً ما أن تكون كريستين قد مرت بأسوأ مراحل الخطر . وقد فكر في قلبه أن عليه أن يرحل قبل أن تنهض على قدميها من جديد . خمسة أبناء في خمس سنوات... كان هذا كافياً لأي رجل . وكان يكره أن يكون لديه سبب للخوف من أن تموت خلال الوضع بينما هو عالق في فارغوي .

لقد لاحظ أن كريستين كانت من الرأي نفسه نوعاً ما . لم تعد تهمهم بأن كان ينوي تركها وحيدة . كانت تعتبر كل طفل مع مجيئه كهدية ثمينة من الرب ، كما أن المتاعب التي يجلبها الطفل معه أمور عليها أن تتحملها دون تذمر . ولكن في هذه المرة وصلت الأمور إلى حد مخيف في قسوته حتى أن إرلند رأى وكأن قلبها كله قد انتزع منها . كانت تضطجع هناك ، بوجه أصفر كالطين ، وتنظر إلى كومتي القماط إلى القرب منها ، وعيناها ليستا سعيدتين كما كانتا حين نظرتا لأول مرة إلى الأبناء الآخرين .

مضى إرلند في ذهنه عبر الرحلة شمالاً بأكملها وهو جالس إلى القرب منها . ستكون رحلة قاسية ، في ذلك الوقت المتأخر جداً من فصل الخريف ، وغريبة ستكون مع حلول الليل الطويل هناك . ولكنه كان تواقاً للرحيل إلى حد لا يوصف . هذا الرعب الأخير على زوجته قد حطم كل المقاومة في روحه.. لقد استسلم مسلوب الإرادة إلى هذا التوق إلى الهروب من البيت .

٤

استلم إرلند نيكولاوسون منصب قائد قلعة فارغوي والقيّم على المستنقعات الشمالية لمدة سنتين تقريباً . وخلال هذه الفترة لم يصل جنوباً إلى أبعد من بياركوي ، وذلك لمرة واحدة حين عقد لقاء مع السير إرلينغ فيدكونسون هناك . في الصيف الثاني كان إرلند في الشمال . فقد توفي همينغ ألفسون أخيراً ، وعين إرلند حاكماً[١٢] على مقاطعة أوكدولا بدلاً عنه . وقد ذهب هافتور غراوت شمالاً ليتسلّم مكانه في فارغوي .

كان إرلند رجلاً سعيداً حين أبحر جنوباً بعد أيام من قداس مريم في الخريف . كان ذاك علاجاً لشرفه تمناه طوال هذه السنوات... أي أن يمنح منصب الحاكمية الذي كان لأبيه ذات مرة . ولا يعني هذا أنه كان يسعى إلى هذا الهدف بفطنة وذكاء . ولكن كان يبدو له دائماً أن هذا هو ما يحتاج إليه ، حتى يحلّ في المكان الذي ينتمي إليه عن حق... وذلك في نظره ونظر أقرانه . والآن لم يعد يهمه لو اعتبره الرجال غير مشابه للآخرين ، أي للنبلاء الذين يبقون في بيوتهم... فلم يعد هناك عيب في هذا اللاتشابه بعد الآن .

و كان يتوق للذهاب إلى بيته . كانت الأمور أهدأ في فينماركن مما

توقعها هو . حتى الشتاء الأول كان ممضاً له... لقد جلس هناك في القلعة متكاسلاً ، ولم يفعل أي شيء في ذلك الفصل لإصلاح وترميم التحصينات . كانت الأمور قد وضعت في نصابها قبل سبعة عشر عاماً ، ولكنها أصبحت الآن خراباً .

ثم جاء الربيع والصيف ، ومعهما الحياة والنشاط ، الاجتماعات هنا وهناك في الأزقة البحرية مع محصلي الضرائب النرويجيين ونصف النرويجيين وزعماء القبائل في الأراضي العالية . راح إرلند يطوف البحار والأزقة البحرية بسفينتيه ويسلي نفسه كأفخم ما تكون التسلية . في الجزيرة تم ترميم الأبنية وتدعيم التحصينات . ولكن في العام التالي لم يكن قد تبقى الكثير من العمل .

لا شك أن هافتور سيعتني بالأمر دون شك بحيث أن الهدوء لم يدم طويلاً . ضحك إرلند . كانا قد أبحرا معاً شرقا حتى تريانيما تقريباً ، ثم نال هافتور هناك امرأة لابلاندية روسية وعاد بها . كان إرلند قد كلّمه بجدية : عليه أن يتذكر أن هناك حاجة ماسة إلى أن يفهم الوثنيون أننا نحن السادة... ولهذه الغاية ، ومع وجود مجرد حفنة من الرجال لدينا ، فإن على المرء أن يحرص على عدم إثارة المشاكل دون داع . لا يجب التورط في نزاعات اللابلانديين ولو ذبحوا أحدهم الآخر . على المرء أن يتركهم يستمتعون بتلك السعادة في سلام . ولكن كن مستعداً دائماً للانقضاض كالصقر على الروس والكولبياغ وأي قوم آخرين مهما كانت الأسماء التي يدعون أنفسهم بها . وعليك ترك النساء في سلام... وهناك سبب واحد على الأقل هو أنهن ساحرات ، كل واحدة منهن... وهناك سبب آخر أيضاً... إنهن يعرضن أنفسهن... ولكن على الشاب غودوي أن يدير شؤونه كما يشاء . وسوف

يتعلم مع مرور الوقت . كان هافتور مرحاً لتحرره من مزارعه وزوجته ، والآن كان إرلند راغباً في العودة إلى بيته . كان لديه توق صحيح ومبارك لكريستين وهوسابي وريفه وكل أولاده... لكل الأشياء في بيته حيث كانت كريستين .

في لينغسفيورد سمع أنباء عن سفينة تحمل بعض الرهبان على متنها . وقد قيل إنهم "أخوة وعاظ" من نيداروس ، كانوا متجهين شمالاً ، وقد صمموا على زرع الدين الحقيقي بين الوثنيين والهراطقة من سكان المستنقعات .

أحس إرلند في داخله أن غونولف كان بينهم . وقد كان حدسه صحيحاً ، فبعد ثلاث ليال كان يجلس وحيداً مع أخيه في كوخ طيني في مزرعة نرويجية صغيرة تقع قرب الشاطئ حيث التقيا .

•

تأثر إرلند على نحو غريب . كان قد حضر القداس وتناول السر المقدس مع طاقمه... وكانت هذه هي المرة الوحيدة منذ أن وصل هنا إلى الشمال ، باستثناء تلك المرة حين كان في بياركوي . كانت الكنيسة في فارغوي دون كاهن باستثناء قندلفت تُرك في القلعة وكان يحاول جاهداً أن يذكّرهم بالأيام المقدسة ، وباستثناء ذلك لم تكن هناك سوى مؤونة ضئيلة لأرواح النرويجيين في تلك المناطق الشمالية . بل كان عليهم أن يواسوا أنفسهم بفكرة أنهم كانوا في حملة صليبية من نوع ما ، لذلك ما كانوا سيُحاسبون بشدة على خطاياهم .

جلس يحدث غونولف عن هذا ، وراح أخوه يصغي بابتسامة نائية غريبة

على شفتيه العريضتين الرقيقتين . بدا عليه وكأنه كان دائماً يمصّ شفته السفلية قليلاً ، كما قد يفعل شخص ما وهو يفكر بشدة بمسألة من المسائل ، وهو قريب من فهمها ، ولكنه لم يصل بعد إلى وضوح كامل في أفكاره .

كان الليل على وشك الانقضاء . وكان الآخرون في المزرعة ينامون في الكوخ . كان الأخوان على علم بأنهما الوحيدان اللذان لا يزالان مستيقظين . وقد كانا كلاهما متأثرين بغرابة جلوسهما هناك... وحدهما .

كان هدير البحر والعاصفة يصل إليهما مكتوماً ومخففاً بسبب الجدران الطينية . بين الحين والآخر كانت هبة ريح تقحم نفسها إلى الداخل فتجعل الجمرات في المدفأة تتوقد وتجعل لهب مصباح زيت الحوت يتراقص قليلاً . لم يكن هناك من أثاث في الكوخ . جلس الأخوان على المقعد الترابي الواطئ الذي كان يحيط بالجوانب الثلاثة من الغرفة ، وبينهما كان لوح غونولف الخاص بالكتابة ، وفيه قرن الحبر وريشة الكتابة ولفافة ورق . كان غونولف يكتب بين الحين والآخر ما يقوله أخوه عن أماكن اللقاء والمزارع المستوطنة وعلامات الإبحار وإشارات الطقس وكلمات باللغة اللابلاندية... وفق تدفق الكلمات في ذهن إرلند . كان غونولف آمر السفينة المسماة "سونيفا" ، فقد اختار "الأخوة الواعظون" اسم القديسة سونيفا لتكون القديسة الحامية لبعثتهم .

"أجل ، إن كنتم لن تلاقوا مصير سليمان نفسه" ، (انظر الهامش رقم ٨ من الجزء الأول من هذه الثلاثية) ، قال إرلند وابتسم غونولف مجدداً .

تابع إرلند يقول : "تسميني بالقَلِق ، ولكن ما يمكن أن أسميك أنت ؟ أولاً تذهب لتتجول في البلاد الجنوبية طوال تلك االسنوات ، وما أن تعود

إلى الوطن حتى تدير ظهرك للحياة والكهنوت وتنطلق لتعظ الشيطان وعفاريته كلها في مكان ناء في الشمال في فيليا . وأنت لا تعرف لغتهم ولا يفهمون هم لغتك . أعتقد أنك أكثر قلقاً مني ."

قال الراهب : "ليس لديّ أملاك ولا أسرة أُسأل عنها . لقد تحررت من كل رابط ، ولكنك مرتبط يا أخي ."

"أجل . إنه الرجل الحر الذي لا يملك شيئاً ."

أجاب غونولف :

"كل الأشياء التي يملكها المرء تقيده أكثر مما يقيدها هو ."

"كلا بحق الرب ، ليس الأمر هكذا على الإطلاق . صحيح أن كريستين تقيدني ، ولكن ليس في ذهني أن أجعل أراضيّ وأطفالي يتملكونني ."

قال غونولف بصوت خفيض : "لا تفكر على هذا النحو يا أخي . فقد تخسرهم بسهولة ."

"كلا ، لست أفكر في أن أصبح مثل كل أولئك الرجال الآخرين... أن أغرق حتى أذنيّ في وحل أراضيّ" ، قال إرلند ضاحكاً ، ومن جديد ابتسم أخوه مجدداً .

قال : "لم أر طفلين أجمل من إيفار وسكوله . أعتقد أنك كنت تبدو مثلهما حين كنت في سنهما... ولا عجب أن أمنا أحبتك كثيراً ."

وضع كل أخ يده على لوح الكتابة الذي كان بينهما . وحتى تحت النور الخافت لمصباح زيت الحوت ، فقد كان ممكناً ملاحظة عدم التشابه بين يدي هذين الرجلين . كانت يد الراهب خالية من الخواتم وكل الزينة ، بيضاء وقوية العصب ، أصغر وأدق صنعاً من يد الرجل الآخر ، وتبدو أقوى نوعاً

ما... رغم أن قبضة إرلند كانت قاسية كالقرن في الكف ، وذات ندبة زرقاء بيضاء من جرح بسهم شق اللحم الداكن من الرسغ حتى الكم . ولكن أصابع اليد الضيقة السمراء الملوحة بالشمس ، الجافة وذات العقد عند المفاصل فكانت كأغصان الشجر ومغطاة بالخواتم الذهبية والمطعمة بالأحجار الكريمة .

كان سيسعد إرلند أن يمسك بيد أخيه ، ولكنه خجل من فعل ذلك... لذلك استمر يشرب وهو يقلب وجهه اشمئزازاً من الجعة الرديئة .

سأله إرلند بعد برهة : "هل بدت لك كريستين في صحة جيدة وحال حسنة من جديد ؟"

"أجل ، كانت تزهو كوردة حين كنت في هوسابي في الصيف" ، قال الراهب مبتسماً قليلاً . ثم انتظر قليلاً وقال بجدية : "هناك شيء واحد أرجوه منك يا أخي... أن تفكر أكثر بصالح كريستين والأطفال مما فعلت حتى الآن . وأن تشاورها وتبتّ في الصفقات التي وافقت هي وسيرا آيليف عليها . إنهما ينتظران موافقتك لإبرامها ."

قال إرلند متردداً : "لا أحب كثيراً خططها هذه التي تتحدث عنها... كما أن وضعي الآن سيكون مختلفاً عما كان سابقاً..."

أجاب الراهب : "ستكون أملاكك أثمن حين تضمان عقاراتكما معاً . أعتقد أن آراء كريستين كانت حكيمة حين حكت لي عن القضية ."

قال إرلند : "أعتقد جازماً أنه لا توجد امرأة في أرض النرويج أكثر حرية منها في توجيه الأمور حسب إرادتها" .

أجاب الراهب : "في النهاية أنت الذي سيوجه الأمور . وأنت... توجه كريستين أيضاً كما تريد" ، أضاف بصوت خفيض .

ضحك إرلند برقة ، في حلقه ، ثم تمدد وتثاءب . ثم قال فجأة وهو صاح :

"لقد وجّهتها أنت أيضاً في بعض الأحيان يا أخي . وأتساءل إن لم تكن نصائحك قد كادت تفسد ودّنا ."

"أتعني الودّ بينك وبين زوجتك أو الود بيننا نحن الأخوين ؟" قال الراهب ببطء .

قال إرلند : "كلاهما ." وكأنها كانت فكرة خطرت له للتو . "ليس ضرورياً لامرأة عادية أن تكون متديّنة إلى هذا الحد" ، وقد قال هذا بلهجة أرق .

"لقد منحتها مشورتي حسب ما اعتقدت أنه الأفضل . كما هو الأفضل حقاً ." وهنا صحّح نفسه .

نظر إرلند إلى الراهب في الرداء الرمادي الأبيض الخشن الخاص "بالأخوة الواعظين" والقلنسوة السوداء مجذوبة نحو الخلف ، لذلك كانت تقبع في طيات كثيفة حول العنق وفوق الكتفين . كانت قمة رأسه حليقة الآن حتى أنه لم يعد بها سوى حاشية ضيقة من الشعر حول الوجه المستدير النحيل والشاحب... ولكن الشعر بدا سميكاً وأسود شأنه في أيام يفاعة غونولف .

"أجل ، لست أخي الآن ، على ما أعتقد ، أكثر من كونك أخاً لكل البشرية" ، قال إرلند وهو يتعجب من المرارة العميقة في صوته .

"ليس الأمر كذلك... رغم أنه يجب أن يكون كذلك ."

قال إرلند : "فليساعدني الرب إذن... أعتقد تقريباً أنك ستذهب لتقيم بين اللابلانديين بسبب ذلك" .

أحنى غونولف رأسه . كان هناك وميض في عينيه الصفراوين البنيتين .

"الأمر كذلك إلى حد ما" ، قال بصوت خفيض وبسرعة .

نشرا الجلود والسجاجيد التي جلباها معهما . كان البرد قارساً ومؤلماً في الكوخ بحيث لم يكن ممكناً خلع ملابسهما ، فتمنى أحدهما للآخر ليلة طيبة واضطجعا على المقعد الطيني الذي كان يرتفع قليلاً عن الأرض لتجنب الدخان الذي كان يحوم فوقه .

تمدد إرلند مفكراً بالأنباء التي وصلته من البيت . لم يكن قد سمع الكثير خلال السنتين الماضيتين : وصلته رسالتان من زوجته ، ولكنهما كانتا قديمتين جداً حين استلمهما . كان سيرا آيليف هو من كتبهما لها : فهي كانت تتقن الكتابة على نحو واضح وجميل ، ولكنها كانت تكره الكتابة ، حيث أنها لم تكن تبدو إلا بالكاد أمراً ملائماً لامرأة غير متبحّرة في العلم .

لا شك أنها أصبحت أكثر تديناً الآن مع بناء معبد جديد في أبرشيتهما المجاورة ، وقد كُرس المعبد لرجل عرفته خلال حياتها بنفسها... ومع شفاء غاوته من مرضه هناك وعودة العافية إليها مجدداً بعد أن كانت عليلة منذ ولادتها للتوأمين . لقد حكى له غونولف أن "الأخوة الواعظين" في هامار قد اضطروا أخيراً لإعادة جثمان إدفين ريكاردسون إلى أخوته في أوسلو ، وكان هؤلاء الآن يقومون بكتابة سجل كامل عن الأمور المتعلقة بسيرة حياة الأخ إدفين والمعجزات التي قيل أنه حققها في حياته وبعد مماته . كانوا ينوون إرسال هذا الكتاب إلى البابا ، ويحاولون تطويب هذا الراهب . لقد ذهب بعض الفلاحين من غاودال ومدالدال جنوباً وشهدوا على العجائب التي حققها الأخ إدفين في أبرشياتهم بشفاعته وبواسطة الصليب الذي كان قد نحته ، والذي كان موجوداً الآن في ميدالهاوس . لقد قرروا بناء كنيسة صغيرة في

فاتسفييلد ، حيث عاش بعض فصول الصيف كناسك ، وحيث كان نبع شاف للأمراض يعود الفضل فيه إليه . لذلك منحوا يداً من جثمانه ليحتفظ بها كذخر مقدس في الكنيسة .

أهدت كريستين كوبين من الفضة والمشبك الضخم المطعم بالحجارة الزرقاء الذي ورثته عن جدتها لأمها ، أولفهيلد هارفاردسداتر ، وجعلت تيدكن باوس ، أحد الصاغة في المدينة ، يصنع يداً فضية منها لتحمل عظام يد الأخ إدفين وأصابعه . وقد ذهبت إلى فاتسفييلد مع سيرا آيليف وأطفالها والكثير من الأتباع حين قام كبير الأساقفة بتقديس الكنيسة في موسم قداس القديس جون في السنة التي تلت رحيل إرلند إلى الشمال .

بعد هذا عادت عافية غاوته إليه بسرعة ، فقد تعلم المشي والنطق : لقد أصبح الآن مثل أترابه . مطمط إرلند جسده... لا شك أنها كانت أعظم فرحة يمكن أن تحل بهم أن غاوته عاد إلى صحته . سيمنح بعض الأرض إلى تلك الكنيسة . كان غاوته وسيماً كما قال غونولف ، وجميل الوجه كأمه . من المؤسف أنه ليس بنتاً... عندها كانوا سيدعونها ماغنهيلد . أجل... كان راغباً الآن في مشاهدة كل أبنائه الوسيمين...

أما غونولف نيكولاوسون فكان مضطجعاً يفكر بذلك اليوم الربيعي قبل ثلاث سنوات ، حين انطلق نحو هوسابي على جواده . فعلى الطريق قابل رجلاً من الضيعة وقال إن السيدة ليست في المنزل ، بل كانت تعود امرأة مريضة .

عبر بجواده ممراً معشباً ضيقاً بين أسيجة قديمة من القضبان . كانت هناك أشجار مورقة صغيرة تغطي الضفاف الطينية ، من فوقه وإلى الأسفل نحو النهر الذي كان يجري هناك في القعر هادراً بطوفان الربيع . سار باتجاه

الشمس ، وراحت الأوراق الخضراء الرقيقة تشع مثل الذهب على الأغصان ، ولكن بعد أن توغل في الغابة كان الظل بارداً وعميقاً على المرج المعشوشب .

ظل متابعاً الركوب حتى لمح البحيرة ، التي كانت إلى الأسفل وتعكس كالمرآة الشاطئ الأبعد إنما على نحو معتم ، والسماء كلها زرقاء وصورة غيوم الصيف الخضراء وقد تكسرت وتغضنت بأمواج التيار . تحت الممر الخاص بالجياد كانت مزرعة تقوم على المنحدرات الخضراء المنثورة بالزهور . كانت مجموعة من ربات البيوت ذوات الأغطية البيضاء على الرؤوس يقفن في الساحة ، ولكن لم تكن كريستين بينهن .

بعد قليل شاهد حصانها ، كان حراً في بقعة مسيجة مع أحصنة أخرى . انخفض الممر أمامه متحولاً إلى تجويف مليء بالظل الأخضر ، وحيث كان الممر يلتف عند المنحدر الثاني من الضفاف الطينية كانت هي واقفة قرب السياج تحت الأوراق تصغي إلى أغنية الطيور . شاهد شكلها الرشيق المرتدي السواد منحنياً فوق السياج باتجاه الغابة . غطاء الرأس والذراع كانا بيضاوين فحسب . لجم حصانه واتجه نحوها بسرعة المشي على الأقدام . ولكنه حين اقترب رأى أنه كان مجرد جذع شجرة بتولا عجوز وقد انتصب هناك .

في مساء اليوم التالي ، حين أبحر به خدمه نحو المدينة ، كان الكاهن نفسه عند دفة المركب . شعر بأن قلبه راسخ وأنه قد ولد من جديد في صدره . لا شيء يمكنه الآن أن يثنيه عن هدفه .

لقد عرف آنذاك أن ما كان يعيقه ويبقيه في هذه الدنيا هو التوق الذي لا يرتوي والذي حمله في جوفه منذ يفاعته... التوق لكسب محبة الناس .

حتى يكون محبوباً كان كريماً ولطيفاً ومرحاً مع صغار الناس . لقد ترك نور العلم يضيء ، ولكن بكل تواضع واعتدال ، بين الكهنة في المدينة ، حتى يحبوه . لقد كان مطيعاً للورد آيليف كورتين بما أن كبير الأساقفة كان صديقاً لأبيه ، وكان يعرف كيف يحب اللورد آيليف ممن هم من حوله أن يتصرفوا . كان لطيفاً وودوداً مع أورم ليكسب القليل من حب الصبي الذي كان يكنه لأبيه ذي المزاج المتقلب . وكان صارماً وقاسياً مع كريستين لأنه كان يعرف أنها في حاجة إلى شيء لا ينهار حين تتشبث به طلباً للدعم . شيء لا يضللها حين تتقدم مستعدة لتلحق به .

و لكنه فهم في تلك الأمسية... كان قد نشد أن يكسب ثقتها فيه أكثر من نشدانه أن يقوي ثقتها بالرب...

لقد وجد إرلند الكلمة هذه الليلة . لست أخي أكثر من كونك أخاً لكل البشرية . كان ذلك هو الدرب الذي عليه أن يسير فيه قبل أن يفيد حبه الأخوي أي شخص .

بعد أسبوعين كان قد وزع ممتلكاته بين أقربائه والكنيسة ، واتخذ لباس "الأخ الواعظ" المنذور . وفي الربيع الماضي ، حين كانت كل الأرواح قد اهتزت بعمق جراء المصيبة المروعة التي حلت بالبلاد... كانت الصاعقة قد ضربت كنيسة المسيح في نيداروس والتهمت نصف مبنى القديس أولاف... كان غونولف قد كسب دعم كبير الأساقفة من أجل خطته القديمة . وهاهو الآن مع الأخ أولاف يونسون الذي كان كاهناً منذوراً شأنه ، وثلاثة رهبان شبان ، أحدهم من نيداروس واثنان من "دير الواعظين" في بيورغفين ، يبحرون شمالاً لإيصال نور "الكلمة" إلى الوثنيين البؤساء الذين كانوا يعيشون ويموتون في ظلام دامس ضمن حدود البلاد المسيحية .

أيها المسيح ، أنت أيها المصلوب ، لقد تخليت عن كل ما يمكنه أن يقيدني . لقد وضعت نفسي بين يديك ، فهل تتفضل بقبول حياتي لشراء منزل الشيطان مجاناً . خذني على نحو أشعر معه أني عبدك ، فهكذا سأعرفك... وهكذا قد يغني قلبه ويصرخ في صدره كما غنى وانتشى حين عبرنا السهول الخضراء عند روما بورغ ، من كنيسة حج إلى أخرى... "أنا ملك محبوبي وله رغبتي..."

اضطجع الأخوان ، كل على مقعده في الكوخ الصغير ، وكلاهما يفكران ويفكران حتى أغفيا . كانت هناك جمرة متقدة في الموقد بينهما راحت تومض على نحو ضعيف . وقد دفعتهما أفكارهما بعيداً الواحد عن الآخر . وفي اليوم التالي انطلق أحدهما شمالاً والآخر جنوباً .

•

كان إرلند قد وعد هافتور غراوت بالإبحار من حول غودوي لاصطحاب أخت هافتور معه جنوباً . كانت متزوجة من ثورولف أسولفسون أوف لنسفيك... وكان هذا أيضاً قريباً لإرلند ، ولكنها قرابة بعيدة .

في صباح اليوم الأول ، حين توقفت السفينة "مارغيغرن" في غودوي ساوند ، وشراعها ينتفخ على خلفية الجبال الزرقاء في النسيم اللطيف ، وقف إرلند على السطح وأولف هالدورسون عند الدفة . صعدت الليدي سونيفا إلى متن السفينة . كانت قد أسدلت قلنسوة عباءتها وراحت الريح تدفع غطاء رأسها الكتاني إلى الخلف كاشفة عن شعرها الأشقر المجعد الذهبي كشعاع الشمس . كانت لها عينان زرقاوان بلون البحر مثل عيني أخيها ، كما كانت مثل أخيها جميلة المحيا ، إنما كان النمش كثيفاً على وجهها ويديها الصغيرتين المدملجتين .

منذ المساء الأول حين رآها في غودوي كانت عيونهما قد تقابلت ثم نظر كل واحد منهما جانباً ، وابتسامة خفية على كل من الوجهين... كان إرلند واثقاً أنها عرفته وأنه عرفها... سونيفا أولافسداتر... كان قادراً على امتلاكها بيديه الفارغتين وكانت هي تنتظر منه ذلك .

و الآن وبينما هو واقف ويدها في يده -كان قد ساعدها على الصعود- فقد حدث أن نظر إلى وجه أولف الخشن الأسمر . كان أولف يعرف ذلك أيضاً ، كما استطاع أن يلاحظ . كان مرتبكاً على نحو غريب من نظرة الرجل . وتذكر في لمحة كل ما عرفه هذا القريب والخادم عنه طوال حياته... كل زاوية دفعته إليها حماقته منذ أن كان يافعاً وحتى الآن . لم يكن هناك مبرر لأولف أن ينظر إليه بكل هذا الاحتقار... هكذا واسى نفسه... وكأنه أراد أن يكون أكثر تحرراً في سلوكه مع السيدة ممّا يسمح به الشرف . كان في سن ناضجة بما فيه الكفاية الآن ، وكان حكيماً بما فيه الكفاية من كثرة ما أحرق أصابعه ، حتى يتحرر في هالوغالاند دون أن ينزلق في عمل من أعمال الحماقة الخالية من الحكمة مع زوجة رجل آخر . فهو نفسه لديه زوجة الآن... وقد كان مخلصاً لكريستين منذ أول يوم رآها وحتى الآن... أما الحادثة أو الحادثتان اللتان جرتا بعيداً في الشمال فليس هناك رجل يمكنه أن يأخذهما في الاعتبار . ولكنه لم ينظر إلى أي امرأة أخرى باشتهاء . كان يعرف الأمر هو بنفسه... مع امرأة نرويجية... من المحتد النبيل نفسه علاوة على ذلك... لا ، لن يعرف راحة البال ولو لساعة واحدة لو كان سيخون كريستين على هذا النحو . ولكن هذه الرحلة البحرية جنوباً وهذه المرأة على متن السفينة... قد يكون الأمر خطيراً .

و قد ساعده في الأمر أن طقساً عاصفاً واجههم على امتداد الشاطئ ،

لذلك كان منهمكاً في عمل آخر غير العبث مع السيدة . في "دينوي "اضطروا للتوقف واللجوء إلى مأوى ، والتوقف هناك في المرفأ لأيام عدة . وبينما كانوا هناك حدث شيء جعل الليدي سونيفا أقل إغراء بكثير في نظره .

كان إرلند مع أولف ورجل آخر أو اثنين ينامون في الكوخ نفسه حيث كانت تنام هي وخادماتها . في صباح أحد الأيام كان وحيداً هناك ولم تكن الليدي قد نهضت من فراشها بعد . نادته وقالت إنها فقدت أحد خواتمها في السرير . وقد التفت الواحد منهما تجاه الآخر الآن ، ثم خلال البحث ، وفي كل مرة كانت هناك ابتسامة كامنة في عيونهما... ولكن حين أمسكت به... أجل ، لم يكن هو شديد الاحتشام ، ولكن الزمان والمكان لم يكونا ملائمين... ولكنها كانت شديدة الجرأة والوقاحة حتى أنه أصبح قاسياً وبارداً فجأة . وبوجه مضرج من الخجل أشاح بنظره بعيداً عن وجهها الضاحك والشهواني ، ثم حرر نفسه بعذر سخيف ، وخرج وأرسل إليها خادماتها .

لا ، ليأخذها الشيطان ، لم يعد هو شاباً صغيراً إلى حد أن يقع في الشرك بكل هذه السهولة . أن يقوم هو نفسه بالخداع مسألة تختلف عن أن يكون موضع خداع . ولكنه لم يستطع مغالبة الضحك... هاهو واقف هنا ، وكان قد هرب للتو من امرأة جميلة ، مثل "يوسف العبراني" ذاك! أجل ، تحدث أمور غريبة في البحر والبرّ .

كلا... ليدي سونيفا... آه ، لم يستطع سوى أن يتذكر واحدة ، امرأة عرفها . لقد ذهبت إلى لقاء معه في منزل مخصص لمواعيد الجنود والسفهاء ، وكانت قد جاءته بخجل وورع كما هو شأن عذراء شابة من منبت ملكي في طريقها إلى القداس . التقيا في الغابات والحظائر... فليسامحه الرب ، فقد نسي محتدها الأصيل وشرفها . كما نسيتهما هي لأجله ، ولكنها

لم تستطع أن ترميهما بعيداً عنها . كان دمها يغلي وينطق عنها ، حتى حين لم تكن تفكر بالأمر .

ليباركك الله يا كريستين... فليساعدني الرب ، لقد منحتك عهدي سراً أمام المذبح ، وهذا العهد سأحافظ عليه طالما بقيت رجلاً . فليكن الأمر كذلك .

أنزل الليدي سونيفا بعد ذلك بفترة قصيرة في إرجار ، حيث لديها أقارب هناك . وأفضل ما في الأمر أنها لم تبد شديدة الغضب أيضاً حين افترقا . لم تكن هناك حاجة إلى إحناء رأسه والاستغراق في التفكير كالرهبان... فقد مارس الكثير من اللعب والمرح على الطريق . عند الفراق قدم لليدي بعض الجلود الثمينة لصنع عباءة منها ، وقد وعدته بأنه سيراها وهي ترتدي تلك العباءة . كانا سيلتقيان مجدداً دون شك وثم... يا للمرأة المسكينة ، فزوجها كان مريضاً ولم يعد شاباً...

و لكنه كان سعيداً لعودته إلى البيت إلى زوجته ولم يكن في ذهنه شيء يخفيه عنها . كما كان فخوراً بصموده الراسخ . كان توقه إلى كريستين شديداً إلى حد الدوار والجنون . كانت أحلى وأجمل الورود والليلك على أي حال... وكانت ملكاً له .

•

كانت كريستين عند المرفأ لتستقبل إرلند حين وصل إلى بيرغسي وكان صيادو السمك قد أوصلوا الأنباء إلى "فيغ" بأن "مارغيغرين" قد شوهدت عند "إرجار" . كان معها أكبر ولدين من أولادها ومارغريت ، أما في البيت في هوسابي ، فقد كان الجميع منهمكين في الاستعداد لإقامة وليمة كبرى للأصدقاء والأقرباء بمناسبة عودة إرلند سالماً .

كانت قد أضحت جميلة إلى حد أن إرلند حبس أنفاسه حين رآها . ولكن كانت قد تغيرت أيضاً وهذا صحيح . لقد زالت عنها تلك الملامح الطفولية التي كانت تعود إليها بعد الإبلال من كل نفاس ، وكذلك المظهر الرقيق الهش الأشبه بمظهر الراهبات تحت غطاء رأس السيدات المتزوجات . كانت زوجة وأماً شابة ومتوردة . وكان خداها مستديرين وأحمرين بين طيتي غطاء رأسها البيضاوين . أما صدرها فكان عامراً وقاسياً تلتمع فوقه السلاسل ودبابيس الزينة ، وفخذاها أكثر استدارة وامتلاء تحت حزام المفاتيح والحقيبة المذهبة الحاوية للسكين والمقص . أجل ، أجل ، لقد أضحت أجمل ، وبدت صعبة المنال على من يريدون أن يطيروها بكل سهولة إلى السماء كما من قبل . حتى اليدين الطويلتين النحيلتين أصبحتا أكثر امتلاء وأشد بياضاً .

توقفوا في "فيغ" لقضاء الليل ، في بيت القس هناك . وكانت كريستين شابة ومتوردة ومرحة ورقيقة وتشع بالسعادة حين ذهبت معه هذه المرة إلى المأدبة في هوسابي ، حين ذهبا إلى البيت في اليوم التالي .

كانت هناك مسائل خطيرة كثيرة عليها أن تحكيها لزوجها حين وصل إلى البيت . وكان هناك ألف مسالة تتعلق بأولادها . وكذلك هواجس تتعلق بمارغريت . كما كانت هناك خططها لجعل الأملاك تستعيد حالتها الطبيعية . ولكن كل هذا ضاع في زحمة الجو الاحتفالي .

راحا يحضران الوليمة إثر الأخرى ، ورافقت هي الحاكم خلال جولاته . كان إرلند قد عين المزيد من الخدم في هوسابي ، فقد كانت هناك دائماً رسائل ومكاتيب تمر بينه وبين مأموريه ونوابه . طوال الوقت كان إرلند مرحاً ومتهوراً كعادته... كيف لا يكون هو الرجل المناسب لمنصب الحاكم ،

كما راح يسأل ، وهو الذي خالف كل قانون من قوانين البلاد والكنيسة ؟ ما يتم تعلمه بصعوبة يتم تذكره جيداً!... كان الرجل ذا بديهة سريعة وحاضرة ، فقد تعلم جيداً في صغره ، وهذا أمر مفيد له الآن . لقد اعتاد أن يقرأ رسائله بنفسه ، وقد اتخذ من شخص آيسلندي كاتباً له . حتى الآن كان من عادته وضع خاتمه على كل ما يقرأه له الآخرون بصوت مرتفع ، وكان يكره دائماً أن ينظر إلى سطر كتابة واحد... وقد لمست كريستين ثمرة هذا خلال سنتين ، فقد اطلعت على كل الأوراق المحفوظة في خزانة الوثائق خاصته .

و لكن بدأ طيش ما ينتاب كريستين لم تكن قد خبرته من قبل . أصبحت أكثر حيوية وأقل هدوءاً في سلوكها حين تكون بين غرباء... فهي تشعر بنفسها أنها جميلة جداً ، وكانت في صحة جيدة ونضرة لأول مرة منذ أن تزوجت . وفي الليالي كان إرلند وهي ينامان في سرير غريب في علية إحدى ضيع الناس الكبار أو في قاعة مزرعة ، فيضحكان ويهمسان ويمزحان حول الأشخاص الذين تقابلا معهم ، ثم ينكتان حول الأنباء التي سمعاها . كان لسان إرلند أكثر فلتاناً من قبل وبدا الناس كأنهم يحبونه أكثر من أي وقت مضى .

لقد رأت ذلك في أطفالها... كانوا مصعوقين من الفرح حين كان أبوهم يلاحظ وجودهم بين الفينة والأخرى . لم يكن ناكفه وبيورغولف يفعلان أي شيء الآن سوى اللعب بالأقواس والسهام والفؤوس وما شابهها من الأسلحة . وقد يحدث أحياناً أن يتوقف أبوهم خلال عبوره الساحة ، فينظر إلى ألعابهم ويصححها : "ليس هكذا يا بنيّ... أمسك بها هكذا ."... كان يبدّل مسكة القبضة الصغيرة ويضع الأصابع في مكانها الصحيح . وحين يحدث مثل هذا ، كانوا يفرحون إلى حد كبير .

كان الولدان الأكبر سناً لا يفترقان . كان بيورغولف الأكبر حجماً والأقوى من كل الأطفال ، بطول ناكفه الذي يكبره بسنة ونصف سنة وأقوى منه . كان له شعر مجعد أسود فاحم . أما وجهه الصغير فكان عريضاً إنما وسيم . أما العينان فزرقاوان داكنتان . في أحد الأيام سأل إرلند الأم بخشية نوعاً ما إن كانت تعرف أن بيورغولف لا يعاني من ضعف في بصر إحدى عينيه... وأنه كان أحول إلى حد قليل جداً أيضاً . قالت كريستين إنها لا تعتقد بوجود ما هو على غير ما يرام . ويبدو أنه حين يكبر سيتخلص من ذلك . ما جرى أن هذا الطفل كان أقل الأطفال تطلباً للاهتمام... لقد ولد حين كانت منهكة من إرضاع ناكفه ، وتبعه غاوته مباشرة . كان الأقوى بين الأطفال ، وبدا أنه الأذكى ، ولكنه كان شديد الصمت . كان إرلند يفضل هذا الطفل على البقية .

و رغم أنه لم يوضح الأمر لنفسه ، فقد كان غاضباً قليلاً من ناكفه لأن الصبي ولد قبل أوانه ، ولأنه سمي باسم جده (لأبيه) . وكان غاوته أقل مما توقعه... فالصبي له رأس كبير وكان هذا منطقياً ، فلمدة سنتين كان رأسه الشيء الوحيد الذي ينمو فيه... والآن كان جسمه وأعضاؤه تعوض عن هذا النقص في النمو . كان ذكاؤه جيداً بما فيه الكفاية ، ولكن نطقه كان بطيئاً ، إذ لو تحدث بسرعة لبدأ يلثغ أو يفأفئ ، ثم كانت مارغريت تقلده ساخرة . كانت كريستين شديدة الولع بهذا الصبي رغم أن إرلند كان قادراً على أن يرى أن الولد البكر كان ما يزال الأغلى عندها... ولكن غاوته كان مريضاً جداً وكان يشبه أباها نوعاً ما بشعره ذي اللون الشبيه بلون التبن وعينيه الرماديتين الداكنتين ، وكان دائم التعلق بملابس أمه . كان ميالاً إلى الوحدة قليلاً ، بين الصبيين الأكبر سناً واللذين كانا معاً طوال الوقت ، والتوأمين اللذين كانا صغيرين جداً بعد حتى أنهما كانا دائماً مع المربيات .

كان لدى كريستين وقت أقل الآن للعناية بأطفالها ، فقد اضطرت إلى القيام بأعمال تزيد عما تقوم بها النساء الأخريات وراحت تترك الخادمات يعتنين بهم... ولكن الطفلين الأكبر سناً كانا يجولان في أنحاء المكان بين الرجال على المزرعة كنوع من الاختيار . لم تعد تفكر بهم بالحنان القديم المبالغ فيه ، ولكنها كانت تضحك وتلعب معهم أكثر حين يكون لديها الوقت لتجمعهم من حولها .

في السنة الجديدة وصلت إلى هوسابي رسالة مختومة بختم لافرانس بيورغولفسون . كانت مكتوبة بخط يده وأرسلت بواسطة بواسطة كاهن أوركيدال الذي كان في الجنوب... لذلك تأخرت شهرين . كان أهم نبأ أوصلته الرسالة هو أنه وافق على خطبة رامبورغ لسايمون أندرسون أوف فورمو . وقد حدد موعد الزواج في الربيع ، في موسم عيد الصليب .

كانت دهشة كريستين كبيرة إلى حد لا يقاس ، ولكن إرلند قال إنه ظن أن الأمور ستجري على ذلك النحو منذ أن سمع أن سايمون دار قد ترمّل ، وأنه عاد ليعيش في ضيعته في "سيل" بعد وفاة السير أندرس غودمونسون العجوز .



٥

كان سايمون دار قد نظر إلى المسألة على أنها بديهية حين اتفق أبوه مع لافرانس بيورغولفسون على خطبة ابنته له . ضمن عائلته كانت العادة هي ترك مثل هذه المسائل بين أيدي الآباء . كان سعيداً حين رأى أن عروسه جميلة ومهذبة إلى ذلك الحد . ولم يكن يتطلع بالفعل إلى ما هو أكثر من أن يكون على علاقة ودية جيدة مع الزوجة التي اختارها له أبوه . كان هو وكريستين متلائمين من حيث السن والمحتد والثروة... ولو كان لافرانس من عائلة أعلى قدراً إلا أن أباه كان فارساً وممّن يتواجدون كثيراً في صحبة الملك هاكون ، بينما عاش لافرانس متقاعداً في ضيعته على الدوام . كما كان سايمون قد لاحظ أن الأزواج المتساوين من حيث المقام والثروة تكون زيجاتهم موفقة .

ثم جاءت تلك الليلة في العلية في فينغسبريكن... حين راحت الألسن الشريرة تلوك شرف الفتاة الشابة البريئة . من تلك الساعة عرف جيداً أن كريستين كانت أعز على قلبه من مجرد خطيبة يشعر نحوها بالحب كواجب . لم يفكر كثيراً في المسألة... ولكنه كان سعيداً . لقد رأى أن الفتاة كانت خجولة وخفرة ، ولكنه لم يفكر كثيراً في هذه المسألة أيضاً . ثم

جاءت تلك الحوادث في أوسلو حين اضطر إلى إعادة التفكير في الأمر... ثم ذلك المساء في عليّة فلوغا .

لقد اصطدم هنا بشيء لم يكن يفكر أنه قد يحدث في هذا العالم... لأناس شرفاء من عائلة جيدة وفي هذا الزمن . لقد حرّر نفسه من هذه الروابط بعد أن لم يعد يتمكن من أن يرى طريقه وكان مذهولاً... رغم أنه من حيث المظهر كان بارداً وهادئاً وثابتاً حين تحدث عن الأمر مع أبيه وأبيها .

و هكذا خالف عادات بيته . ثم لقد قام بشيء آخر لم يُسمع به ضمن عائلته : خطب الأرملة الشابة الغنية في ماندفيك دون التشاور مع أبيه . لقد ذهل حين رأى أن الليدي هالفريد قد أحبته... كانت أشد ثراء وأعلى محتداً بكثير من كريستين ، فهي حفيدة البارون توره هاكونسون أوف تونسبرغ ، وأرملة السير فين أسلاكسون... وكانت جميلة وذات مظهر راق ونبيل ، حتى أن كل النساء اللواتي كان معتاداً على رؤيتهن رحن يظهرن في عينيه أشبه بزوجات المزارعين . وباسم الشيطان سيري الجميع أنه قادر على الحصول على أكثر الزوجات نبلاً . فمن حيث الثروة وكل شيء آخر كانت تبزّ كريستين التي سمحت لسمعتها بأن تُلطخ . وكانت أرملة -هذا أيضاً حسن- أمر معروف ودون حاجة إلى إخفائه- فقد يثق الشيطان نفسه بالعذارى بعد الآن ولكن ليس هو .

لقد تعلم أن العيش في هذا العالم ليس بالأمر البسيط المباشر كما كان يظن وهو بعد في بيته في دايفرين . فهناك كان أبوه يتحكم بالأمور كلها ، وكانت أحكامه على حق . صحيح أن سايمون كان ضمن الحرس الشخصي (للملك) وقد خدم كوصيف (للملك) لفترة من الفترات ، كما أنه اكتسب بعض المعرفة من كاهن أبيه في البيت ، إلا أنه كان يعتبر حكمة أبيه بين

الحين والآخر متخلّفة عن زمنها . كان يغامر أحياناً بمخالفته أيضاً -و لكن ذلك كان مزاحاً ويعتبر كنكتة- فسايمون شاب سريع البديهة ، كما كان يقول والده وأمه ضاحكين ، وكذلك أخوته وأخواته الذين ما كانوا يخالفون قط السير أندرس . ولكن الأمور كلها كانت تتم حسب ما يراه أبوه... وكان سايمون نفسه يعتبر أن هذا هو المنطق .

في السنوات التي عاشها كزوج لهالفريد إرلينغداتر وهو يسكن في ماندفيك راح يتعلم كل يوم على نحو أشد شمولية بأن الحياة قد تكون أكثر عناداً والتواء مما قد سبق للسير أندرس غودموندسون أن حلم به .

أما ألاّ يكون سعيداً مع الزوجة التي نالها... فهذه فكرة ما كان يمكن أن تخطر له في بال . في أعماق تفكيره كان يتلبّث تعجب حزين حين كان ينظر إلى زوجته وهي تتحرك في أرجاء المنزل طوال النهار... كانت جميلة جداً بعينيها اللطيفتين والفم الذي كان رائعاً جداً وخاصة حين تنطبق الشفتان... لم يسبق له أن رأى امرأة ترتدي أثوابها وحليها بكل تلك الرشاقة . وفي عتمة الليل كان كرهه لها يبلي كل شبابه ونضارته... كانت مريضة ، وكانت أنفاسها عليلة ، كما كانت مداعباتها له تعذبه . كانت طيبة جداً إلى حد أنها كانت تشعره بعار يائس... ولكنه لم يستطع أن يتغلب على كرهه لها .

ثم عرف بعد أن مرّ وقت ليس بالطويل على زفافهما أنها لن تستطيع أن تنجب له طفلاً حياً صحيح الجسم . وقد رأى أنها حزينة لذلك أكثر منه... وكان يحز في قلبه أن يفكر بمصيرها في ذلك الأمر . لقد سمع أشياء عنها : كان الأمر هكذا لأن السير فين قد ضربها ورفسها أكثر من مرة حين كانت زوجته ، لذلك فقد أجهضت . كان مجنوناً من الغيرة على زوجته الشابة الجميلة . كان من شأن عائلتها أن تستردها منه ، ولكن هالفريد اعتبرت أن على الزوجة المسيحية أن تتشبث بزوجها في السراء والضراء .

و لكن إن لم يرزق بأولاد منها ، فإن عليه دائماً أن يشعر ، كما يشعر الآن ، بأنهما كانا يسكنان في أرضها ، وأنه كان يدير ثروتها . لقد أدار لها ثروتها بحكمة وترو . ولكن خلال كل هذه السنوات نما في خاطره توق إلى "فورمو" ، الضيعة التي كانت إرث أم السير أندرس ، وكانت ستؤول إليه بعد موت أبيه . وأخيراً أصبح يعتبر أن بيته كان هناك بعيداً في الشمال في غودبراندسدال ، وذلك أكثر ممّا هو في رومريك .

استمر الناس في مناداة زوجته بالليدي هالفريد ، كما كانت عليه الحال في أيام زوجها الأول ، الفارس . وكان هذا يجعل سايمون يشعر أنه مجرد وكيل للأملاك في "ماندفيك" .

•

لقد حدث في أحد الأيام أن كانا جالسين لوحدهما في القاعة ، سايمون وزوجته . كانت إحدى الخادمات قد دخلت إلى القاعة لغرض ما . تابعتها هالفريد بنظرها وهي تغادر .

قالت : "أتساءل... أخشى أن جورون حامل هذا الصيف ."

جلس سايمون وقد وضع قوساً في حجره وهو يصلح قفله . غيّر العزقة ثم نظر إلى علبة النابض وقال دون أن يرفع بصره :

"أجل ، والطفل طفلي ."

صمتت زوجته . حين رفع بصره إليها أخيراً ، كانت جالسة تخيط ، وقد انهمكت في عملها كما كان هو منهمكاً في عمله .

كان سايمون حزيناً لأنه أهان زوجته وكذلك من حماقته لتورطه مع

الفتاة ، وغاضباً لأنه تحمل مسؤولية الأبوة . لم يكن واثقاً من ذلك إطلاقاً . فجورون كانت فتاة رخيصة سهلة كما كان يعرف جيداً . وفي الحقيقة فإنه لم يحببها كثيراً . كانت بشعة وذات لسان حاد ، كما كانت مرحة في حديثها . كانت هي التي تسهر لأجله كلما كان يعود إلى البيت متأخراً خلال الشتاء الأخير . لقد أجاب بسرعة شديدة خشية أن تشكو زوجته وتضع اللوم عليه . كان خوفه أخرق . كان عليه أن يعرف أن هالفريد ما كانت لتنزل إلى مستوى مثل تلك الشكاوى . ولكن بعد أن جرى ما جرى لم يعد ممكناً له التراجع عما قاله . عليه أن يتحمل مسؤولية أبوة طفل الخادمة سواء كان هو الأب أم لم يكن .

لم تتحدث هالفريد مجدداً عن المسألة إلا بعد مرور سنة . ثم حدث في أحد الأيام أن سألت إن كان يعرف أن جورون كانت ستتزوج في بورغ . كان سايمون على علم بذلك ، فقد منحها البائنة بنفسه . أين سيتم وضع الطفلة ؟ سألت زوجته . ستبقى مع جديها لأمها حيث هي الآن ، أجاب سايمون . ثم قالت :

"أعتقد أنه سيكون أكثر ملاءمة لك أن تنمو ابنتك في ضيعتك ."

"أتعنين في ضيعتك ؟" سألها سايمون .

سرت رجفة صغيرة في وجه الليدي .

قالت : "تعرف جيداً يا زوجي أننا طالما كنا على قيد الحياة معاً فإنك السيد هنا في ماندفيك" .

ذهب سايمون ووضع يديه على كتفي زوجته :

"إن كنت تظنين حقاً يا هالفريد أنك قادرة على تحمل رؤية الطفلة هنا في بيتنا ، فسأكون ممتناً جداً لقلبك الكبير ."

لم يحبب ذلك . كان قد رأى الطفلة أكثر من مرة . لم تكن طفلة جميلة ، ولم ير أنها تشبهه أو تشبه أحداً من أقربائه . لم يعد مقتنعاً أبداً بأنه أبوها . وقد كان غاضباً إلى حد كبير حين سمع أن جورون قد عمّدت الطفلة باسم "آرنغييرد" وهو اسم أمه ، دون أن تأخذ منه الإذن بذلك . ولكن عليه أن يترك هالفريد تفعل ما تريده .

أحضرت الطفلة إلى ماندفيك ، ووجدت لها مربية ، ورتبت لها أمورها بحيث لا ينقصها شيء . فكلما وقعت عيناها على الطفلة كانت تأخذها دائماً في حضنها وترعاها بلطف ومحبة . وبالتدريج ومع مشاهدة سايمون للطفلة أكثر فأكثر ، فقد أصبح مولعاً بها... فقد كان يحب الأطفال كثيراً . والآن راح يفكر أيضاً أنه يستطيع أن يرى شبهاً بين أرنغييرد وأبيه . كأنما كانت جورون حكيمة بما فيه الكفاية حتى تسلك سلوكاً حسناً بعد أن تقرب منها السيد... إذن ، فقد تكون إنغييرد ابنته فعلاً ، وما فعله بناء على طلب هالفريد كان الأسلوب الأفضل والأشرف .

بعد زواجهما بخمس سنوات ، أنجبت هالفريد ابناً لزوجها ، طفل كامل الخلقة . لقد طرأ عليها تحول كبير من الفرح ، ولكنها مرضت مرضاً شديداً بعد الولادة حتى لقد بات واضحاً أنها ستموت لابدّ . ومع ذلك كانت شديدة السعادة فهي قد عادت إلى طبيعتها الأصلية لفترة من الزمن . "ستتابع العيش هنا الآن يا سايمون كسيّد ، وسوف تسلم ماندفيك وكل أراضينا إلى أولادك وأولادي" ، قالت لزوجها .

بعد هذا ارتفعت حرارتها كثيراً من الحمى حتى أنها لم تعد واعية ، ولم تحزن أيضاً وهي لا زالت فوق أديم الأرض ، لسماعها بأن ابنها مات قبل أمه بيوم واحد . وفي الدنيا الأخرى ، فكر سايمون ، لن تشعر على الأرجح

بحزن على مثل هذه الأمور ، بل ربما ستكون سعيدة لوجود ابنهما إرلينغ معها .

تذكر سايمون لاحقاً أنه ، في ليلة سجي فيها الجثمانان في العلية ، وقف متكئاً على سياج حقل عند شاطئ البحر . لقد حدث ذلك قبل موعد قداس القديس جون ، وكان الليل صافياً إلى حد أن نور البدر كاد يُكسف . كان الماء يلمع هناك بشحوب ، كما راح يرش الشاطئ ويتدفق عليه . لم يكن سايمون قد نام أكثر من ساعة بالكاد ، منذ ليلة مولد الصبي -بدا له الآن أن هذا حدث منذ زمن طويل- وكان منهكاً جداً حتى أنه ما كان إلا بالكاد قادراً على الشعور بالحزن .

كان في السابعة والعشرين من عمره آنذاك .

•

بعد انقضاء شطر كبير من الصيف ، وحين انتهت تسوية مسائل الإرث ، نقل سايمون ملكية مندفيك إلى "ستيغ هاكسونسون" ابن عم هالفريد . ثم انتقل إلى دايفرين وقضى فيها الشتاء .

كان السير أندرس طريح الفراش وهو يعاني من مرض الاستسقاء وأمراض وأوجاع كثيرة أخرى . كانت نهايته قد أضحت وشيكة وكان كثير الأنين والشكوى... فالحياة لم تكن بالنسبة إليه بسيطة ويسيرة في هذه الأيام الأخيرة . كما لم تكن الأمور تجري كما يجب مع أولاده الوسيمين المحبوبين كما أرادها لهم وبذل جهده في سبيل ذلك . راح سايمون يجلس إلى جوار أبيه ويحاول جاهداً أن يعيد إليه لهجة المزاح التي كانت من دأبه في الماضي... ولكن الرجل العجوز كان يئن دون توقف . إن هيلغا

ساكسسداتر التي تزوجها غيرد كانت رائعة إلى حد أنها لم تكن تعرف ما هي الحماقات التي سترتكبها تالياً... لم يكن غيرد ليجرؤ على أن يتجشأ في بيته دون أن يطلب موافقة زوجته . أما تورغريم هذا فهو دائم القلق حول بطنه... ما كان يجب أن يتزوج تورغريم هذا من ابنته ، لو كان يعرف أن الرجل بائس إلى هذا الحد بحيث لا يستطيع الاستمرار في الحياة ولا الموت . أما آستريد فهي لا تستمتع بشبابها ولا بثروتها طالما كان زوجها على قيد الحياة . وها هي سيغريد المحطمة والحزينة... بعد أن غادرتها الابتسامة ونسيت الغناء ، تلك الابنة الطيبة . وأن ترزق بذلك الطفل... وسايمون دون أولاد! كان السير أندرس يبكي ، فهو رجل عجوز تعيس ومريض . أما غودموند فرفض كل محاولة من أبيه لاختيار عروس له . وأصبح الآن عجوزاً لا نفع فيه بينما ترك ابنه يعيش حياة لا رادع فيها...

و لكن سوء الطالع كله بدأ حين راح سايمون وخطيبته من "ديل" يعارضان والديهما . وكان اللوم يقع على لافرانس... فهو رغم أنه معروف بشجاعته بين الرجال ، فقد كان جباناً أمام نساء بيته . لا شك أن الفتاة تباكت وزعقت حتماً... وفوراً استسلم هو ووافق على تزويجها من مُعاشر البغايا ذاك القادم من تروندهايم والذي لم يستطع الانتظار حتى تصبح خطيبته زوجة شرعية له . ولكن لو كان لافرانس سيداً في بيته ، فإن أندرس دار ، كان سرعان ما سيظهر قدرته على وضع عقل ما في رأس ابنه... ذلك الجرو الأمرد . لقد أنجبت كريستين لافرانسداتر الكثير من الأولاد... ابن صحيح قوي كل أحد عشر شهراً ، كما كان قد انتهى إلى سمعه...

قال سايمون ضاحكاً : "أجل ، ولكن لهذا ثمن باهظ يا أبي . سيتم تقسيم الإرث على نحو يدعو إلى الحزن ." حمل أرنغييرد ووضعها على حضنه... كانت دخلت إلى الغرفة وهي تتمايل في مشيتها .

"أجل ، لن يتوزع إرثك من خلالها هي (يقصد ابنة سايمون) إلى أجزاء صغيرة جداً... كائناً من كان ذاك الذي سيقسمه" ، قال السير أندرس بنزق . كان مولعاً بحفيدته نوعاً ما ، ولكن كان يغضبه أن سايمون كانت له ابنة ذات مولد وضيع . "هل فكرت بالزواج مجدداً يا سايمون ؟"

"كلا ، عليك أن تترك هالفريد تبرد في قبرها أولاً يا أبي" ، قال سايمون ، وهو يربت على شعر الطفلة فاتح اللون . "سأتزوج ثانية في الوقت الملائم... ولكن لا داعي للعجلة الآن ."

أخذ قوسه وأدوات التزلج وانطلق إلى الغابات حيث يستطيع أن يتنفس بحرية أكبر . ومع كلابه راح يطارد الأيائل فوق القشرة الثلجية ، وراح يطلق أسهمه على طيور الطهيوج النائمة فوق أعالي الأشجار . في الليل نام في سايتر غابة دايفرين ، وشعر بالراحة لأنه كان وحيداً .

سمع صوت احتكاك لمزلجة على الثلج القاسي . بدأت كلابه بالنباح ، وأجابت الكلاب من بعيد . فتح سايمون الباب ليرى ليلاً أزرق من نور القمر ، ودخل أخوه الأكبر غيرد ، طويلاً ورشيقاً ووسيماً وهادئاً . بدا أصغر سناً من سايمون الآن ، الذي كان بديناً نوعاً ما طوال عمره وأصبح الآن أكثر بدانة بعد تلك السنوات التي قضاها في ماندفيك .

جلس الأخوان وبينهما حقيبة الطعام ، وراحا يأكلان ويشربان ويحدقان إلى نار المدفأة .

قال غيرد : "لا بد أنك لاحظت أن تورغريم يريد أن يبذر الشقاق بيننا ما أن يرحل والدنا عن هذه الدنيا... وهو قد كسب غودموند إلى جانبه . وكذلك هيلغا . وهم يودون حرمان سيغريد من حصة كحصة أختها الكاملة..."

"لقد لاحظت ذلك . ستنال حصتها الكاملة... أما أنت وأنا يا أخي ، فنستطيع أن نتدبر الأمر رغماً عنهم ."

قال غيرد : "ربما كان من الأفضل أن يرتب والدنا الأمور قبل أن يموت ."

قال سايمون : "كلا ، فلندع والدنا يرحل في سلام . سنكون أنت وأنا قادرين على حماية أختنا وأن نمنعهم من حرمانها لأنها ذات حظ عاثر ."

•

و هكذا حدث أنه لدى وفاة السير أندرس دار أن افترق ورثته وهم على خلاف مرير . كان غيرد هو الوحيد الذي ودعه سايمون حين انطلق مبتعداً عن بيته... وكان يعرف أن الحياة التي يعيشها غيرد تحت إمرة زوجته ليست بالحياة السعيدة . وقد اصطحب سيغريد معه إلى فورمو... كان عليها أن تدير له بيته ويشرف هو على أراضيها وأملاكها .

دخل ضيعته في يوم أزرق رمادي من الثلوج الآخذة بالذوبان ، حين كانت غابات جار الماء عند لاغن بنية اللون من الأزهار . وحين هبط عن حصانه ودخل القاعة ، وأرنغييرد على ذراعه ، قالت سيغريد أندرسداتر :

"لم ابتسمت يا سايمون ؟"

"ابتسمت... ؟"

كان يفكر كم كانت هذه العودة إلى البيت مختلفة عما كان يتطلع إليه ذات مرة... حين سيحين الوقت له ليتخذ له سكناً هنا في الضيعة التي كانت

لجدته لأبيه . ها هي أخته وقد ضيّعت شرفها وطفلته غير شرعية ، هاتان هما أسرته الآن .

•

في الصيف الأول لم ير سكان يورونDغارد إلا لماماً... كان يبذل أقصى جهده ليتجنبهم .

و لكن في يوم الأحد التالي على قداس مريم الثاني في الخريف ، حدث أن وقف إلى جانب لافرانس بيورغولفسون في الكنيسة ، حتى كان عليهما أن يمنح الواحد منهما الآخر قبلة السلام حين صلى السيرا آيريك متوسلا ازدياد سلام الكنيسة المقدسة فينا . عندما أحس بشفتي الرجل العجوز الرقيقتين اليابستين على وجهه ، فقد تأثر إلى حد كبير . لقد لاحظ أن لافرانس كان يعني من قبلته ما هو أكثر من مجرد ممارسة عادة قديمة من عادات الكنيسة .

أسرع بالخروج حين انتهى القداس . ولكنه قابل لافرانس عند مربط الخيل ثانية وقد رجاه هذا أن يصطحبه إلى يورونDغارد ليشاركه في وجبة الغداء . أجاب سايمون بأن ابنته مريضة وأن أخته كانت تمرضها . دعا لافرانس الرب أن يشفي الطفلة . ثم صافحه مودعاً .

في إحدى الأمسيات بعد ذلك اللقاء بعدة أيام ، كان العمل جارياً في فورمو للانتهاء من الحصاد ، فقد بدا الطقس مريباً . كان معظم القمح قد وضع في المخازن مع حلول المساء وذلك حين هطلت أول زخة مطر . ركض سايمون عبر الساحة تحت المطر المنهمر ، بينما راح شعاع من نور الشمس من بين الغيوم يتلألأ على مبنى القاعة والجبل الذي خلفه... هناك

انتبه إلى وجود فتاة صغيرة واقفة عند الباب في الشمس والمطر . كان معها كلبه المفضل... وقد أفلت منها وقفز على الرجل ، وهو يجر وراءه حزام امرأة محبوكاً وقد التف من حول طوقه .

لاحظ أن الفتاة كانت ابنة أناس من علية القوم... كانت دون عباءة وحاسرة الرأس ، ولكن ثوبها الأحمر النبيذي كان مصنوعاً من قماش المدينة ، وكان مطرزاً وقد ثبت عند الصدر بدبوس فضي مذهب . كان هناك شريط حريري يشد إلى الخلف الشعر المجعد ، الذي أصبح داكن اللون الآن من البلل ، بعيداً عن جبينها . كان لها وجه حيوي صغير وجبين واسع وذقن مدببة وعينان كبيرتان لامعتان ، كما كان خداها مضرجين بحمرة قانية وكأنها كانت تعدو بقوة .

عرف سايمون الفتاة وحياها باسمها ، رامبورغ .

"كيف حدث أن منحتنا كل هذا الشرف فجئت إلينا ؟"

كان الكلب هو السبب كما قالت ، فقد دخلت معه إلى المنزل هرباً من المطر . كان من عادته أن يعدو إلى يوروندغارد . وها هي تعيده الآن . أجل ، كانت تعرف كلبه . لقد رأته وهو يتبعه كلما كان يمرّ من جوارهم .

أنّبها سايمون قليلاً لأنها سارت إلى هنا على قدميها ووحدها . قال إنه سيسرج حصانين ويصطحبها إلى بيتها بنفسه . ولكن لا بدّ أولاً من تناول بعض الطعام . ركضت رامبورغ فوراً إلى السرير الذي كانت أرنغييرد الصغيرة تضطجع فيه مريضة ، وقد سرت الطفلة وسيغريد بالضيف ، فقد كانت رامبورغ نشيطة وحيوية . لم تكن مثل أختيها ، كما فكر سايمون .

ركب مع رامبورغ حتى الطريق الجانبي المؤدي إلى الضيعة ، وكان

سيستدير راجعاً لولا أنه قابل لافرانس الذي كان قد علم للتو أن الطفلة لم تكن مع رفيقاتها في اللعب في لاوغاربرو ، وكان قد انطلق مع جماعته للبحث عنها... وكان شديد القلق . طلب إلى سايمون الدخول ، وحين جلس في القاعة سقط الخجل عنه وشعر بسرعة أنه في بيته مع راغنفريد ولافرانس . وقد أمعنوا في الشراب إلى وقت متأخر ، وبما أن الطقس كان رديئاً ، فقد كان ممتناً لقضاء الليل عندهم .

كان هناك سريران في القاعة . جهزت راغنفريد أحدهما على نحو جيد للضيف ، وقد سألها أحدهم أين ستنام رامبورغ : طبعاً مع أبويها أو في مبنى آخر .

قالت الطفلة : "كلا ، أريد أن أنام في سريري . ألا أستطيع أن أنام معك يا سايمون ؟" هكذا رجته .

قال أبوها إن ضيفهم لا يجب أن يزعجه الأطفال وهو في سريره . ولكن رامبورغ تابعت التذمر قائلة إنها تريد أن تنام مع سايمون . وأخيراً قال لافرانس بصرامة إنها أكبر سناً من أن تشارك رجلاً غريباً فراشه .

قالت بعناد : "لست كبيرة يا أبي . هل أنا كبيرة إلى هذا الحد يا سايمون ؟"

قال سايمون ضاحكاً : "أنت صغيرة جداً . اطلبي مني الزواج بعد خمس سنوات وثقي أني لن أرفض يا رامبورغ . ولكني أعتقد أنك ستريدين نوعاً آخر من الرجال آنذاك يا رامبورغ ، وليس رجلاً أرمل بديناً وقبيحاً» .

بدا على لافرانس أنه انزعج من المزحة وقال للفتاة بحدة إن عليها أن تمسك لسانها وتذهب لتنام في سرير والديها . ولكن رامبورغ صرخت مجدداً :

"لقد طلبت يدي يا سايمون دار في حضور أبي ."

أجاب سايمون ضاحكاً : "لقد فعلت ذلك حقاً ، ولكنني أخشى يا رامبورغ أنه سيجيب بالرفض ."

•

بعد ذلك اليوم فإن سكان يورونđغارد وسكان فورمو أصبحوا أكثر تزاوراً . كانت رامبورغ تذهب إلى الضيعة المجاورة كلما سنحت لها الفرصة . كانت تلعب مع أرنغييرد كأن الطفلة كانت دميتها ، وتجري من حول سيغريد لتساعدها في إدارة المنزل ، وتجلس في حضن سايمون حين يكون في القاعة . لقد اعتاد مجدداً على تدليل الفتاة والمزاح معها ، كما كان يحدث في سالف الأيام حين كانت هي وأولفهيلد بمثابة أختيه الصغيرتين .

كان سايمون قد سكن لمدة سنتين في "ديل" وذلك حين خطب غايرموند هرستاينسون أوف "كروكه" سيغريد آندرسداتر . كانت جماعة "كروكه" هذه من نسل حارس ملكي قديم ، ولكن رغم أن واحداً أو أكثر من الأجداد قد خدموا الملوك ضمن "الحرس الخاص" ، إلا أنه لم يسبق لأحدهم أن اكتسب أي شهرة خارج ريفه الخاص . ومع ذلك كان ذلك الزواج ملائماً لتطلعات سيغريد ، وكانت هي شخصياً راغبة بالزواج من غايرموند . وهكذا عقد أخوها الصفقة ، وأجرى سايمون حفل زفاف أخته في منزله .

في إحدى الأمسيات قبل الزفاف ، وبينما كانت جلبة الاستعداد للاحتفال في أسوأ حالاتها ، قال سايمون مازحاً إنه كان لا يعرف ما سيحل ببيته حين تغادره سيغريد . عندها قالت رامبورغ :

"عليك أن تبذل قصارى جهودك لسنتين يا سايمون . في سن الرابعة عشرة تكون الفتاة قد أضحت في سن ملائمة للزواج وتستطيع أن تصطحبني إلى بيتك ."

قال سايمون ضاحكاً : "كلا ، لن تحظي بي . لا أجرؤ على الالتزام بكبح جماح فتاة طائشة مثلك ."

"إن أهدأ البحيرات هي الأعمق ، كما يقول أبي!" هكذا صرخت رامبورغ . "أنا من النوع الطائش . أختي كانت خجولة ورقيقة . هل نسيت كريستين يا سايمون أندرسون ؟"

قفز سايمون من مقعده ورفع الفتاة إلى صدره وقبل نحرها بقوة إلى حد أن بشرتها قد تبقّعت بلون أحمر . ولشدة دهشته وحيرته من نفسه ، فقد أنزلها وأمسك بأرنغييرد ، ورمى بها عالياً ثم ضمها إليه بالأسلوب نفسه ليخفي اضطرابه . تابع اللعب مع الفتاتين ، الصغيرة وتلك نصف الناضجة ، وراح يطاردهما في أرجاء المكان ، بينما كانتا تهربان منه إلى الطاولات والمقاعد . وأخيراً أجلسهما على العارضة الخشبية التي أمام الباب وخرج مسرعاً .

لم يكن اسم كريستين يذكر إلاّ نادراً في يورونـدغارد في حضور سايمون .

•

مع مرور السنين ازدادت رامبورغ لافرانسداتر جمالاً على جمال . كان حديث الريف منصباً على اختيار عرسان لها . ففي إحدى المرات كان

العريس آيندريد هاكونسون من آل غيبيسلينغ من فالدرز . كانوا أقرباء من الدرجة الرابعة ، ولكن لافرانس وهاكون كانا غنيين إلى حد أنهما كانا قادرين على إرسال الرسائل إلى البابا في فالاند والحصول على الإذن . وهذا العريس سيضع حداً إلى الأبد لبعض الدّعاوى القانونية التي استمرت منذ أن خرج آل غيبيسلينغ القدماء مع الدوق سكوله وصادر منهم الملك هاكون أراضي "فاغ" وأعطاها إلى سيغورد إلدياران . كان إلفار غيبيسلينغ الشاب قد استعاد سوندبو بالزيجات والمبادلات ، ولكن هذه المسائل أدت إلى صدامات ونزاعات . كان لافرانس يضحك من هذه الأمور كلها . فالجزء من الغنيمة الذي يستطيع الادعاء أنه حق لزوجته لم يكن يستحق جلد العجل والشمع اللذين استهلكهما في الدعوى : هذا إن لم نذكر المشقة والسفر . ولكن بما أنه كان مشاركاً في النزاع منذ أن تزوج ، فقد كان عليه الاستمرار حتى النهاية...

و لكن آيندريد غيبيسلينغ اتخذ زوجة أخرى ، وبدت جماعة يوروندغارد غير ناقمين كثيراً . لقد حضروا شرب نخب العروس ، وقالت رامبورغ لصديقاتها بفخر ، حين عادت إلى البيت ، أن أربعة رجال قد تقربوا من لافرانس ليخطبوها منه ، إما لأنفسهم أو لأقربائهم . ولكن لافرانس أجاب بأنه لن يعقد أي صفقة تخص يد ابنته حتى تبلغ من العمر سناً يؤهلها أن يكون لها رأي في المسألة هي نفسها .

و هكذا جرت الأمور حتى ربيع العام الذي بلغت فيه رامبورغ سن الربعة عشرة . في إحدى الأمسيات من ذلك الربيع كانت في زريبة الأبقار في "فورمو" مع سايمون لتتفرج على عجل ولد مؤخراً . كان أبيض اللون مع بقعة بنية ، وبدت البقعة لرامبورغ وكأنها تشبه كنيسة . جلس سايمون على حافة

جرن القمح ، بينما اتكأت الفتاة على ركبتيه ، وراح هو يشد لها ضفائرها :

"إذن أراهن أن هذه علامة على أنك سرعان ما تذهبين إلى الكنيسة عروساً يا رامبورغ" .

"أجل ، أنت تعرف جيداً أن أبي سيوافق في اليوم الذي تطلب فيه يدي منه . أنا كبيرة بما فيه الكفاية الآن ، وقد أتزوج هذا العام ."

فوجئ سايمون قليلاً ، ولكنه حاول أن يضحك :

"أتحاولين العبث معي بتلك المزحة القديمة الحمقاء ؟"

قالت الفتاة وهي ترفع إليه عينيها الواسعتين : "تعرف جيداً أن هذا ليس مزاحاً . لقد عرفت منذ زمن طويل... أني أود القدوم إلى هنا إلى فورمو إليك . لم قبلتني ووضعتني في حجرك كثيراً من المرات إن لم تكن تريدني ؟"

"صحيح أنه سيسعدني أن أتزوجك يا رامبورغ . ولكني لم أفكر أبداً بأن فتاة جميلة وشابة إلى هذا الحد يمكن أن تقبل بي . أنا أكبر منك بسبعة عشر عاماً... وأنت لم تفكري على ما أعتقد في أنك قد ترغبين في أن يكون لك زوج ضعيف البصر كبير الكرش في الوقت الذي تبلغين فيه العمر الذي تكونين فيه في أفضل سنوات عمرك..."

قالت بسعادة : "هذه هي أفضل سنوات عمري . ولست أنت عجوزاً متهالكاً بعد يا سايمون ."

"و لكني قبيح... وسرعان ما ستملّين من تقبيلي ."

أجابت ضاحكة كما من قبل : "ليس عليك أن تصدق ذلك لأي سبب من الأسباب" . ثم قدمت له فمها ليقبلها . ولكنه لم يفعل .

"لن أستغل براءتك يا حلوتي . سيصطحبك لافرانس معه جنوباً هذا الصيف . وإذا لم تغيري أفكارك قبل عودتك ، عندها سأشكر الرب وسيدتنا (العذراء) على هذا الحظ الأفضل ممّا كنت أتطلع إليه... ولكنني لن ألزمك الآن يا رامبورغ الجميلة ."

•

نادى على كلابه وتناول رمحه وقوسه وصعد الجبال في ذلك المساء نفسه . كان هناك الكثير من الثلج لا يزال في المرتفعات . انطلق نحو سايتره وحصل على زوج من الزلاجات ثم أمضى أسبوعاً عند البحيرة جنوب "شلالات الخنزير البري" في صيد الغزلان . ولكن في الأسبوع الذي انطلق فيه عائداً إلى البيت بدأ يشعر بالقلق والخوف مجدداً . سيكون من شأن رامبورغ أن تحادث أباها بالموضوع رغم كل شيء . حين وصل إلى قمة الجبل عند سايتر يوروندغارد ، رأى الدخان والشرار يتصاعد من السقف . ظن أن لافرانس نفسه قد يكون هناك ، فصعد إلى الأكواخ .

ظن أنه قادر أن يرى من مظهر الرجل الآخر أن تخميناته كانت صحيحة . ولكنهما جلسا هناك يتحدثان عن فصل الصيف الرديء في السنة الماضية ومتى سيكون الزمن الأمثل لنقل الماشية هذا العام ، عن الصيد وعن صقر لافرانس الجديد ، الذي كان قابعاً على الأرض وهو يرفرف بجناحيه فوق بقايا ريش الطيور التي كانت تشوى على سفود فوق النار . كان لافرانس قد صعد إلى هناك ليتفقد مأوى الجياد خاصته في إلماندسال... كان بعض الناس من إلفدال ممن مروا به ذلك اليوم قد أبلغوه بأنه قد انهار . هكذا مرّ معظم المساء . وأخيراً تكلم سايمون :

"لا أعرف إن كانت... رامبورغ قد ذكرت لك أي شيء عن قضية تطرقنا إليها هي وأنا ذات مساء ؟"

قال لافرانس ببطء :

"أعتقد أنه أمر حسن أنك حادثتني أولاً ، يا سايمون... ربما تعرف الجواب الذي سأعطيك إياه . أجل ، أجل... أفهم كيف حدث أن ذكرت الموضوع أمام الفتاة... وهذا لن يسبب أي إحراج . يسعدني أن أسلم ابنتي إلى يدي رجل أمين ."

بعد هذا لم يكن هناك من داع للمزيد من الكلام ، كما فكر سايمون . يا له من أمر غريب على أي حال... ها هو جالس هنا وهو الذي لم يحلم أبداً بالعبث مع عذراء أو زوجة شريفة ، وها هو قد تلقى وعد شرف للزواج من فتاة كان يتمنى لو لم يحصل عليه ، ولكنه قام بمحاولة واحدة :

"و لكن ليس الأمر وما فيه يا لافرانس أني كنت أغازل ابنتك من خلف ظهرك... ظننت أني كبير في السن إلى حد أنها لن تأخذ هي الأمر إلا أنه مجرد لطف أخوي متلبث من الأيام السالفة حين حادثتها في الأمر . وإذا كنت تعتبرني كبيراً عليها من حيث السن ، فلن أتعجب من ذلك ، ولن أجعل الأمر نهاية للصداقة التي بيننا ."

قال لافرانس : "لم أقابل سوى قليل من الرجال أستطيع تفضيلهم عليك ليصبحوا بمثابة أبناء لي يا سايمون . وإنه ليسعدني أن أقدم لك رامبورغ بنفسي . أنت تعلم من سيكون الوصي عليها حين أرحل ." كانت هذه أول مرة يتم فيها ذكر إرلند نيكولاوسون بين هذين الرجلين . "من نواح كثيرة فإن صهري رجل أفضل مما توقعته منه حين عرفته لأول مرة . ولكني لا أعرف إن كان هو الشخص الذي يستطيع التعامل بحكمة بمسألة تزويج فتاة صغيرة . وقد لمست جيداً رغبة رامبورغ نفسها" .

قال سايمون : "هذا ما تظنه هي الآن . ولكنها بالكاد فارقت مرحلة الطفولة . لذلك لا أريد أن أضغط عليك في هذا الخصوص ، إذا كنت راغباً في تأجيل الموضوع ."

قال لافرانس وهو يعبس قليلاً : "و أنا ليست لدي الرغبة في فرض ابنتي عليك فرضاً ، إياك أن تصدق ذلك ."

قال سايمون بسرعة : "عليك أن تصدق أنه لا توجد فتاة في بلاد النرويج أرغب بها زوجة أكثر من رامبورغ . هكذا هو الأمر يا لافرانس ، أني أعتبر حظي جيداً جداً لو أتيح لي الحصول على مثل هذه العروس الجميلة جداً والشابة جداً والصالحة جداً ، الغنية والأصيلة المحتد من كلا الأبوين . وأن تكون أنت حماي " ، قال بلهجة مرتبكة .

ضحك لافرانس ضحكة خفيفة :

"أوه ، أنت تعرف جيداً رأيي فيك . وأعرف أنك ستعامل ابنتي وميراثها بحيث لن نندم أبداً على إبرام هذه الصفقة ، أمها وأنا..."

"هذا ما سأفعله ، وليساعدني الرب والمقدسون" ، قال سايمون .

و على هذا تصافحا . تذكر سايمون المرة الأولى التي صافح فيها يد لافرانس على صفقة مشابهة ، وأحس بقلبه صغيراً في صدره وأنه يؤلمه .

و لكن رامبورغ كانت بالفعل عروساً أفضل بكثير ممّا كان يأمل فيه . فقد كانت هناك ابنتان فحسب ستتقاسمان ما سيتركه لافرانس . وسيكون هو بمثابة ابن للرجل الذي يجلّه ويقدره أكثر من كل الرجال الذين عرفهم . رامبورغ كانت صغيرة ونضرة وحلوة...

لا شك أنه قد أصبح رجلاً ناضجاً له ذكاء الرجل الناضج . لو كان آخذا

بالانتظار هنا مفكراً في أنه قد يتزوج (يوماً ما) أرملة لم يستطع أن ينالها وهي عذراء (كريستين) -بعد أن يكون ذلك الرجل الآخر قد استمتع بشبابها- ولديها دزينة من الأولاد من نسل ذلك الرجل... كلا ، عندها سيكون أخوته على حق لو أعلنوا أنه عاجز ومنعوه من إدارة شؤونه الخاصة . سيعيش إرلند حتى يشيخ كالجبال... أمثاله يعيشون طويلاً...

أجل ، إذن سيكونان الآن عديلين . لم ير أحدهم الآخر منذ تلك الليلة في ذاك المنزل في أوسلو . حسناً ، لا بدّ أن تذكر الأمر سيكون أصعب على إرلند مما هو عليه .

سيكون زوجاً جيداً لرامبورغ ، دون زيف أو خداع . ورغم أنه قد يقال إن الطفلة قد أوقعته في الشرك...

قال لافرانس : "أتضحك ؟"

"هل ضحكت ؟ كانت تلك مجرد فكرة خطرت في رأسي ."

"عليك أن تقول لي ما هي تلك الفكرة يا سايمون... حتى أضحك أنا أيضاً ."

ثبت سايمون أندرسون عينيه الصغيرتين على الرجل الآخر .

"كنت أفكر في... النساء . أتساءل إن كانت أي امرأة تنظر إلى إيمان الرجال وقوانينهم كما نفعل نحن بين أنفسنا... حين تستطيع هي أن تكسب دون أن تتحمل أي مسؤولية . هالفريد زوجتي الأولى... أجل ، لم أقل هذا لأي روح مسيحية قبلك يا لافرانس بيورغولفسون ، ولن أحكيه لأحد غيرك... كانت طيبة وورعة جداً ومستقيمة إلى حد لم أعرفه في أي امرأة أخرى...لقد حكيت لك كيف تصرفت إزاء مسألة مولد آرنغييرد . ولكن في ذلك الحين

حين رأينا كيف هي الأمور مع سيغريد -أجل- كانت تريدني أن أخفي أختي وأنها ستدعي أنها حامل ، ثم تدعي أن طفل سيغريد هو لها . وهكذا يكون لدينا وريث ، ويكون مستقبل الطفل قد تأمن ، وستسكن سيغريد معنا دون أن تضطر إلى أن تفارق الطفل . وأعتقد حقاً أنها لم تفهم أن هذا الأمر من شأنه أن يكون خيانة ضد أقربائها..."

قال لافرانس بعد وقفة :

"عندها كنت ستقدر على الاحتفاظ بماندفيك ، يا سايمون..."

"أجل" . ضحك سايمون دار بقسوة . "و ربما كنت سأحتفظ بها مثلما يحتفظ أي رجل آخر بالأراضي التي يسميها إرث آبائه . بما أنه ليس لدينا من نأتمنه على مثل هذه الأمور سوى شرف النساء ."

أنزل لافرانس غماء الصقر على رأسه ورفع الطائر على رسغه .

"هذا حديث غريب لرجل يفكر بالزواج" ، قال بصوت خفيض . كان هناك شيء أشبه بالاشمئزاز في صوته .

أجاب سايمون : "فيما يخص بناتك لا يفكر المرء بمثل هذه الأمور ."

نظر لافرانس إلى الصقر وحك ريشه بعصا .

سأله بصوت أخفض : "حتى فيما يخص كريستين أيضاً ؟"

أجاب سايمون بثبات : «لا . لم تتصرف جيداً معي ، ولكني لم أجد في تصرفاتها خداعاً لي . لقد حكت لي ببساطة وصدق أنها قابلت رجلاً تحبه أكثر مني ."

سأله الأب بصوت خفيض : "حين تخليت عنها بكل إرادتك ، ألم يكن ذلك لأنك سمعت بعض... بعض الإشاعات...عنها ؟"

قال سايمون كما من قبل : "لا . لم أسمع أي إشاعات عنها أبداً ."

•

تم الاتفاق على شرب نخب الخطوبة في ذلك الصيف نفسه ، والزفاف سيجري بعد عيد الفصح من العام المقبل حين تكون رامبورغ قد أتمت الخامسة عشرة .

•

لم تكن كريستين قد رأت ديار أهلها منذ يوم غادرته كعروس... وكانت قد مضت ثمانية شتاءات على ذلك . وها هي تعود الآن مع رفقة كبيرة : زوجها ومارغريت وخمسة أبناء ومربيات وخادمات ورجال وأحصنة حمولة مع الأمتعة . خرج لافرانس على حصانه ليلاقيهم على الطريق ، وقابلهم عند دوفر . لم تعد كريستين بكل تلك الخفة كما كان يحدث وهي صغيرة ، ولكن حين رأت أباها قد أتى ليلاقيها ، فإن عينيها اغرورقتا بالدموع . أوقفت حصانها وانزلقت من على السرج ، ثم عادت لتقابله ، وحين تقابلا تناولت يده وقبلتها بتواضع . قفز لافرانس من على حصانه فوراً ورفع ابنته بين ذراعيه . ثم تصافح مع إرلند الذي ترجل أيضاً ، ووصل الآن ليقابل حماه بتحية احترام .

في اليوم التالي وصل سايمون إلى يوروندغارد ليحيّي أنسباءه الجدد . كان غيرد دار وغايرموند أوف كروكه معه ، ولكن زوجتيهما كانتا قد بقيتا في فورمو . لقد اختار سايمون إقامة زفافه في بيته ، لذا كانت النساء منهمكات هناك في نشاط محموم .

أما فيما يخص طريقة اللقاء... فإن سايمون وإرلند قد حيّا واحدهما الآخر بحرية ودون كوابح . كان سايمون مسيطراً على نفسه وإرلند شديد المرح والسرور حتى أن سايمون ظنه نسي حتماً أين كان آخر لقاء بينهما . ثم قدم سايمون يده لكريستين . كانا أقل ثقة بنفسيهما وقد التقت عيونهما إنما للحظة واحدة .

فكرت كريستين في نفسها أنه قد تراجع إلى حد كبير من حيث مظهره . ففي شبابه المبكر كان وسيماً إلى حد كاف ، رغم أنه كان حتى آنذاك ممتلئاً قصير العنق . كانت عيناه الرماديتان بلون الفولاذ تبدوان صغيرتين تحت رموشهما الكثيفة . كان فمه صغيراً جداً ، والغمازات في وجهه الطفولي المستدير كبيرة جداً . إلا أن لون وجهه كان نضراً وكان جبينه أبيض كالحليب تحت شعره البني الفاتح الجميل . كان شعره المجعد لا زال كما هو ، كثيفاً وكستناوياً كما في السابق ، ولكن وجهه كان ذا لون بني أحمر ، وقد تجعد تحت العينين ، وله وجنتان ممتلئتان وذقن مزدوجة . كما كان جسده قد اكتسب المزيد من الوزن... كان له كرش من نوع ما . لم يعد يبدو الآن رجلاً مستعداً للتمدد في الليل على حافة سرير لأجل أن يتهامس مع خطيبته . أحست كريستين بالشفقة على أختها الصغيرة . كانت نضرة وفاتنة وفرحة على نحو طفولي لأنها ستتزوج . منذ أول يوم راحت تعرض لكريستين الصناديق المملوءة بجهاز الزفاف وهدايا سايمون بمناسبة الخطوبة... كما حكت لها كيف سمعت من سيغريد أندرسداتر عن علبة مذهبة موجودة في علية الزفاف في فورمو . كان فيها اثنا عشر غطاء كتانياً ثميناً للرأس ، وهي هدية لها من زوجها في الصباح الأول بعد الزفاف . يا للمسكينة الصغيرة ، كيف يمكنها أن تفهم ما هو الزواج ؟ كان أمراً مؤسفاً أنها لا تعرف هذه الأخت الصغيرة إلا قليلاً... لقد زارت رامبورغ هوسابي

مرتين ، ولكنها كانت هناك كئيبة وغير ودودة... لم تستطع أن تحب إرلند ولا مارغريت التي كانت في مثل سنها .

كان سايمون قد فكر في أنه كان يتطلع إلى ـ أو ربما يأمل في ـ أن يرى كريستين منهكة إلى حد ما بعد أن أنجبت العديد من الأطفال . ولكنها كانت عامرة بالشباب والصحة ، وكانت معتزة بنفسها كما كانت دائماً ، وتمشي بفتنة رغم أن خطواتها أصبحت أثبت على الأرض الآن من الماضي . كانت أجمل أم مع خمسة أبناء وسيمين صغار ملتفين من حولها .

كانت ترتدي ثوباً صوفياً بني اللون من صنع البيت وقد حيكت عليه طيور زرقاء داكنة... تذكر حين كان يقف ويتكئ على نولها وهي جالسة تحوك عليه .

•

حدث بعض الاضطراب حين جلسوا إلى المائدة في القاعة العليا . بدأ سكوله وإيفار بالزعيق ، فقد كانا معتادين على الجلوس بين أمهما ومربيتهما . لم ير لافرانس أنه من اللائق أن تجلس رامبورغ بين خادمة أختها وأطفالها الصغار... لذلك أمر ابنته الأصغر أن تجلس في المقعد العالي إلى جواره ، طالما أنها كانت سرعان ما ستفارق منزله .

كان الصبيان الصغار القادمون من هوسابي هائجين ، ولم يبد عليهم أنهم يعرفون كيف يتصرفون على المائدة . لم تكن الوجبة قد امتدت بهم طويلاً إلا وكان الصبي الصغير الأشقر قد انزلق تحت المائدة وخرج عند المقعد الجداري قرب ركبة سايمون .

قال : "هل لي أن أرى ذلك الغمد الغريب الذي في حزامك يا قريبي ؟" كان يتحدث ببطء وجدية . كان ذاك هو الغمد المطعم بالفضة الذي يحمل ملعقة وسكينين ذاك الذي رآه .

"يمكن لك ذاك يا قريبي . ما اسمك يا ابن العم ؟"

"اسمي غاوته إرلندسون ، يا ابن العم ."

وضع قطعة لحم الخنزير المقدد التي يمسكها في حضن صدارة سايمون الاحتفالية المصنوعة من القماش الفلمنكي الرمادي الفضي ، وسحب السكين من الغمد ونظر عن كثب إليها . ثم أخذ السكين التي كان سايمون يأكل بها والملعقة ووضعها كلها في أماكنها ، حتى يستطيع أن يرى كيف تبدو حين تكون كلها في أغمادها . كان جدياً إلى حد كبير وأصابعه ووجهه قد غطاها الدهن إلى حد كبير . ابتسم سايمون وهو ينظر إلى الوجه الصغير الوسيم والمنهك .

بعد ذلك شق الطفلان الأكبر سناً طريقهما عبر مقعد الرجال ، وانزلق التوأمان تحت المائدة وبدأا يزحفان من حول أقدام الناس... ثم خرجا نحو الكلاب قرب الموقد . لم تكن هناك سوى فرصة ضئيلة أمام الكبار ليتناولوا طعامهم في سلام . كلم الأب والأم أطفالهما وأمراهم أن يجلسوا بهدوء وأدب ، ولكن الأطفال لم يكترثوا . وبدأ الولدان من جانبهما بالضحك منهم طوال الوقت وبدا عليهما أنهما يفكران في أن سلوكهما السيئ ليس بالمسألة المهمة... ولكن حتى قام لافرانس ، بحدة بالأحرى ، وأمر أحد الخدم بإخراج الكلاب إلى الغرفة التي في الأسفل ، حتى يستطيع الناس أن يسمعوا بعضهم البعض وهم يتحدثون في القاعة العليا .

غادرت رامبورغ القاعة مع خطيبها وذهبت معه عبر الليل الربيعي لبعض

من الطريق بين الأسيجة . كان غيرد وغايرموند قد سبقاهما ، وتوقف سايمون ليتمنى لها ليلة سعيدة . كانت قدمه في الركاب حين التفت ثانية وأخذها بين ذراعيه ، وسحق الطفلة الرقيقة حين ضمها إليه بشدة إلى حد أنها أنّت برقة وسعادة .

"فليباركك الله يا رامبورغ العزيزة... أنت رائعة وجميلة... رائعة وجميلة بحيث لا أستحقك" ، هكذا همهم في خصلات شعرها المجعدة المتشابكة .

وقفت رامبورغ وهي تلاحقه بنظرها في ضوء القمر السديمي . فركت أعلى ذراعها... لقد أمسكها بشدة إلى حد أنه آلمها . وراحت تفكر وهي مصابة بالدوار من شدة الفرح في أنها ستزف إليه بعد ثلاثة أيام .

•

وقف لافرانس مع كريستين أمام سرير الأطفال ، وراح يراقبها وهي تضع الأجسام الصغيرة في أمكنتها . كان الأكبر بينهم قد أصبحوا صبياناً كباراً بأجسام نحيلة وأطراف رشيقة ، ولكن الصغيران كانا ممتلئين ولهما لون وردي مع تغضينات في لحمهما ونقرات في مفاصلهما . كان المشهد جميلاً في نظره ، الأطفال النائمون هناك بلونهم الوردي ودفئهم ، وبشعورهم الكثيفة وقد تبللت من العرق ، يتنفسون بانتظام في نومهم . كانوا في صحة جيدة ، وكانوا وسيمين... ولكن لم يسبق له أن رأى أطفالاً رديئي التربية مثل أحفاده هؤلاء . ربما كان أمراً حسناً أن أخت سايمون وزوجة أخيه لم تحضرا المأدبة في هذه الليلة . ولكن ربما لم يكن من شأنه هو أن يتحدث عن تربية الأطفال... تنهد لافرانس قليلاً ، ثم رسم إشارة الصليب فوق الرؤوس الصغيرة .

•

و هكذا احتسى سايمون أندرسون نخب العروس مع رامبورغ لافرانسداتر وكان الزفاف رائعاً ولائقاً من كل النواحي . بدت العروس والعريس سعيدين ، واعتبر كثيرون أنها كانت أجمل في يوم شرفها هذا ممّا كانت عليه أختها... ليست جميلة إلى حد مبهر مثل كريستين ، ولكنها أرق بكثير وأسعد بكثير . لقد استطاع الجميع أن يروا في العينين الصافيتين البريئتين لهذه العروس أنها كانت تضع التاج الذهبي لآل غييسلينغ بكل شرف في هذا اليوم .

و قد جلست سعيدة وفخورة على الكنبة أمام سرير زفافها وشعرها مربوط إلى الأعلى حين صعد الضيوف في صباح اليوم التالي ليحيوا العروسين . وبالضحك والمزاح المنفلت راحوا يتفرجون على سايمون وهو يضع على رأس زوجته الشابة غطاء رأس النساء المتزوجات . جعلت صرخات التهليل وصليل السيوف العوارض الخشبية ترنّ ، بينما نهضت رامبورغ وأخذت يد زوجها وقد انتصبت باستقامة ووجنتين حمراوين تحت غطاء الرأس الأبيض .

لم يكن أمراً مألوفاً جداً أن يقترن سليلا بيتين كبيرين من بيوت أبرشية واحدة... حيث يكون النسب متغلغلاً في كل الفروع ، تكون القرابة وثيقة إلى حد كبير . لذلك اعتبر الجميع هذا الزفاف على أنه احتفال نادر مليء بالفرح والسعادة .

٦

بين أول الأمور التي لاحظتها كريستين في بيتها القديم هي أن كل تماثيل رؤوس الرجال التي كانت منصوبة حيث تلتقي حواف الألواح الخشبية في جمالونات البناء كانت قد أزيلت . وبدلاً عنها كانت وضعت الآن رؤوس مستدقة نقشت عليها طيور ونباتات ، كما كان المخزن الجديد قد زيّن بدوارة ريح مذهبة . أما الأعمدة القديمة للكرسي العالي في مبنى الموقد أيضاً فقد استبدلت بأخرى جديدة . القديمة منها كانت محفورة على شكل رجلين ، قبيحين بما فيه الكفاية... ولكن كان يُظن أنهما موجودان هناك منذ أن بني المنزل لأول مرة ، وكانت العادة هي تلطيخهما بالدهن وغسلهما بالجعة في الاحتفالات . على الأعمدة الجديدة كان أبوها قد أمر بنحت رجلين بخوذتين وترسين رسم عليهما الصليب . لم يكن ذاك هو القديس أولاف نفسه ، كما قال ، فقد كان يرى أنه لا يجوز لرجل آثم أن يضع صور القديسين في منزله ، إلا ليصلي لها... ولكنهما قد يكونان محاربين من حرس أولاف . أما المنحوتات القديمة فقد قطعها إرلند بنفسه وأحرقها... فالخدم لم يجرؤوا على لمسها . كان لا يزال يسمح لهم ، ببعض الريبة ، بحمل الطعام إلى الحجارة العظيمة في التلة التي دفن فيها "يوروند" في الأيام المقدسة...و

لكنه كان يعتبر أنه من الإثم والعار أن يمنع مستأجراً للتلة من أن يمارس ما كان الناس يمارسونه منذ أول ما سكنوا في ذلك المكان . لقد مات هذا قبل فترة طويلة من وصول المسيحية إلى النرويج ، لذلك لم تكن تلك غلطته في أنه كان وثنياً .

لم يحبب الناس هذه الأفعال الجديدة للافرانس كثيراً . كان الأمر جيداً بما فيه الكفاية له هو الذي استطاع شراء الحماية في مجالات أخرى . إن ما حصل عليه بدا بالفعل وكأنه يتمتع بكل الفضيلة المطلوبة ، فقد تمتع هو بالحظ الجيد في الزراعة كما في السابق ولكن هناك أناس سألوا إن لم يكن أولئك الناس هناك سينتقمون لأنفسهم حين يأتي إلى الضيعة سيد أقل ورعاً وليس شديد الكرم إلى هذا الحد مع الكنيسة وكل أملاكها . وبالنسبة إلى الناس صغار الشأن كان الأرخص هو أن تمنح أولئك القدماء ما اعتادوا أن يأخذوه ، وليس أن تكسب عداوتهم وتثق ثقة كلية بالكهنة .

و علاوة على ذلك لم يكن الأمر موثوقاً تماماً ، كما ظن الناس ، فيما يتعلق بمصير الصداقة بين يوروندغارد وبيت الكاهن حين يموت سيرا آيريك . لقد أصبح الكاهن عجوزاً ضعيفاً الآن ، حتى أصبح في حاجة إلى قسيس يساعده . لقد ذكر للأسقف أنه يريد حفيده (ابن ابنته) بنتاين يونسون (ليكون مساعداً له)... ولكن لافرانس تحدث أيضاً إلى الأسقف الذي كان صديقاً قديماً له . ولكن الناس اعتبرت هذا خطأ في التقدير . صحيح أن الكاهن الشاب كان شديد الجرأة مع كريستين لافرانسداتر في ذلك المساء (البعيد) وربما أخاف الفتاة... ولكن لا أحد يعرف إن لم تكن الفتاة نفسها مسؤولة عن مدى جرأة الشاب . لقد تبين لاحقاً وبكل وضوح أنها لم تكن تلك الفتاة الخجولة كما كان يبدو عليها . ولكن الحقيقة كانت هي أن لافرانس كان يثق كثيراً بابنته ويعتبرها كأنها شيء مقدس تقريباً .

بعد هذا طغت البرودة على العلاقة بين سيرا آيريك ولافرانس لفترة من الزمن . ولكن وصل آنذاك سيرا سولموند كقسيس ، وقد تشاجر فوراً مع كاهن الأبرشية حول بعض الأراضي ، حول ما إذا كانت تخص الكنيسة أو سيرا آيريك شخصياً . كان لافرانس يعرف أكثر من كل الرجال الآخرين في الأبرشية عن كل مبيعات الأراضي وما شابه من القديم ، وقد تم إصدار الحكم على القضية بناء على شهادته . ومنذ ذلك الحين لم يعد هو وسيرا سولموند على حال من المودة . ولكن سيرا آيريك وأودون ، القندلفت العجوز ، كانا يعيشان في يوروندغارد الآن ، كما قد يقال . فقد كانا يذهبان يومياً إلى هناك الآن ويجلسان إلى لافرانس ، ليشكوا أخطاء القسيس الجديد ومعاناتهما من تصرفاته المخيفة ، وكانا يُعاملان بكرم يليق بأسقفين .

لقد سبق لكريستين أن سمعت شيئاً ما عن كل هذا من بورغار تروندسون أوف سوندبو . كان قد تزوج امرأة من منطقة تروندهايم وحلّ ضيفاً على هوسابي أكثر من مرة . كان تروند غييسلينغ (خالها) قد توفي قبل بضع سنين . لم يعتبره كثيرون خسارة كبيرة ، فقد كان غصْناً فاسداً من شجرة قديمة ، كما كان فظاً مشاكساً وعليلاً . كان لافرانس هو الوحيد الذي يتحمل تروند ، فقد كان يشعر بالشفقة على ابن حميه وكذلك على غودريد زوجته . الآن كانا قد رحلا عن هذه الدنيا ، فإن كل أبناءهما الأربعة كانوا يسكنون معاً في الضيعة . كانوا رجالاً وسيمين وجريئين ومحبوبين ، لذلك اعتبر الناس ذلك استبدالاً جيداً . كانت هناك صداقة وثيقة بينهم وبين (زوج عمتهم) في يوروندغارد... كان يمضي إلى سوندبو مرتين كل عام ويذهب إلى الصيد معهم في "الجبال الغربية" . ولكن بورغار كان قد أخبر كريستين أن الطريقة التي كان لافرانس وراغنفريد يعذبان بها نفسيهما

بالكفارات والورع كانت أمراً يتعدى أي منطق . "إنه يتجرع الماء بكل صعوبة في أيام الصوم . ولكنه لا يتناول العشاء الرباني بكوب الجعة ، أبوك ، وذلك بالحماسة القديمة نفسها التي اعتاد عليها" ، قال بورغار . لم يكن هناك شخص قادر على فهم هذا الرجل... ما كان أحد يصدق أن لافرانس كان قد ارتكب أي خطيئة سرية حتى يكفر عنها . حسب ما يعرفه الناس ، فلا بدّ أنه عاش حياته كمسيحي بقدر ما فعل أي ابن آدم آخر ، باستثناء القديسين .

في مكان عميق من قلب كريستين كان هناك حدس غامض حول السبب الذي يجعل أباها يجاهد على هذا النحو ليتقرب من الرب أكثر فأكثر . ولكنها لم تجرؤ على التفكير بوضوح في ذلك .

لم تكن لتعترف لنفسها كم لاحظت أن أباها قد تغير . لم يكن الأمر أنه أصبح هرماً إلى حد كبير . لقد حافظ على شكله الوسيم ووقفته المنتصبة واللبقة . كان شعره يشيب بسرعة ، ولكن الناس لم يلاحظوا ذلك كثيراً لأن شعره كان دائماً فاتح اللون . ومع ذلك... فإن ذاكرتها كانت مسكونة دائماً بصورة الرجل الشاب الأشقر اللامع... الخدان النضران المستديران في الوجه الضيق الطويل ، واللون الأحمر الصافي للبشرة التي لفعتها الشمس ، والفم الأحمر المليء ذو الزوايا العميقة . والآن كان الجسد العضلي المصقول قد انكمش إلى مجرد عظام وأوتار ، والوجه أصبح أسمر وحاداً كأنما نحت من خشب ، والخدان مسطحين ونحيلين ، والفم له عقدة عضلية في كل زاوية . أجل ، ولكنه لم يعد شاباً الآن... كما لم يكن عجوزاً أيضاً .

كان على الدوام هادئاً ورزيناً وكانت تعرف منذ طفولتها أنه كان يتبع دائماً أوامر المسيح بحماسة نادرة ، ويحب القداسات والصلوات باللغة

اللاتينية ، وكان دائماً ما يذهب إلى الكنيسة على أنها المكان الذي يجد فيه أفضل سلوان . ولكن الجميع كانوا يشعرون أن تياراً كاملاً ولطيفاً من الشجاعة والاستمتاع بالحياة كان يتدفق عبر روح الرجل الهادئ . وكان يبدو الآن وكأن شيئاً ما قد غادره .

لم تكن قد رأته ثملاً أكثر من مرة واحدة منذ أن عادت إلى البيت... كان ذلك في إحدى الأمسيات خلال فترة الاحتفال بالزفاف في فورمو . كان يترنح نوعاً ما آنذاك وأصبح نطقه ثقيلاً ، ولكنه لم يكن مرحاً إلى حد مبالغ فيه . تذكرته كما كان خلال طفولتها في حفلات شرب الجعة الضخمة في مواسم الأعياد والمآدب... ضاحكاً ضحكته العريضة وضارباً على فخذيه عند كل نكتة . كان يعرض الملاكمة أو المصارعة على أي رجل هناك معروف بقوته . كان يجرب الأحصنة ويقفز خلال الرقص ، وكان أول من يضحك حين كانت قدماه تخونانه ، وكان يوزع الهدايا ويتدفق بالكرم والمحبة نحو كل البشر . لقد فهمت أن أباها كان في حاجة إلى هذه المناسبات الحافلة بالصخب والقصف وسط كل الأعمال الشاقة التي كان يقوم بها والصيام القاسي وحياته العائلية الهادئة مع أسرته ، التي كانت ترى فيه أفضل صديق وأضمن سند .

و أحست أيضاً أنه لو لم يكن زوجها في حاجة إلى أن يشرب حتى الثمالة ، فذلك لأنه كان لا يسيطر على نفسه إلا قليلاً حتى لو أنه لم يكن صاحياً أبداً ، ولكنه يتبع دائماً أساليبه الخاصة دون التأمل كثيراً في مسألة ما هو الصحيح وما هو الخطأ أو ما يعتبره الناس سلوكاً ملائماً وحكيماً . كان إرلند أكثر الرجال الذين عرفتهم حتى الآن صحواً عند شرب المشروبات القوية... كان يشرب ليطفئ ظمأه ولأجل الصداقة الجيدة دون أن يهتم كثيراً بالمسألة .

و لكن كان لافرانس بيورغولفسون قد فقد الآن حماسته القديمة الطيبة من خلال شرب الجعة . لم يعد لديه ما هو في حاجة إلى التنفيس عنه في القصف واللهو . لم يكن قد خطر في باله أبداً أن يغرق همومه في الشراب الكثير ، ولم يكن ذلك في باله الآن... فبالنسبة إليه كان يبدو دائماً أن على الرجل أن يأخذ مرحه إلى حفلات الشراب .

لقد رحل إلى مكان آخر بأحزانه . كانت هناك صورة معلقة دائماً على نحو غائم ونصف متذكر في ذهن ابنته... أبوها في تلك الليلة التي احترقت فيها الكنيسة . كان واقفاً تحت الصليب الكبير الذي أنقذه من النار ، وكان يحمله ويسند نفسه إليه . ودون تفكير بذلك بوضوح ، أحست كريستين في قلبها أن خوفه عليها وعلى مستقبل أطفالها مع الرجل الذي اختارته من ناحية والإحساس بالعجز في هذه المسألة من ناحية أخرى هو ما غيّر لافرانس هذا التغيير .

هذه المعرفة كانت تنهش في قلبها بالسر . وقد وصلت إلى يوروندغارد منهكة من الشتاء القلق الذي كانوا قد أمضوه ، ومن ضعفها لأنها لم تقف أمام تهور إرلند . كانت تعرف أنه كان وسيبقى أبداً مبذراً . أنه لم تكن لديه حنكة في تجارة البضائع والأدوات... وكانت هذه تتضاءل بين يديه ببطء إنما دون توقف . لقد استطاعت أن تجعله يحسن إدارة أمر أو أمرين حين منحته المشورة هي والسيرا آيليف... ولكن لم تكن قادرة بعد الآن على التحدث إليه عن مثل هذه الأمور ، وكان أمراً مغرياً أيضاً الآن أن تستسلم للسعادة معه . كانت منهكة جداً من النضال والكفاح ضد كل الأمور خارج روحها وداخلها على السواء . ومع ذلك كانت هي امرأة تجعلها المتعة اللامبالية مليئة بالهموم وخائفة .

هنا في بيت أهلها تطلعت لتجد السلام الذي أحست به في طفولتها تحت حماية أبيها .

و لكن لا... لم تشعر بالأمان . كان لدى إرلند دخل جيد من عمله كحاكم ، ولكنه كان يعيش الآن بالمزيد من الأبهة مع عائلة أكبر وخدم أكثر وأتباع زعيم كبير . وكان قد بدأ يجعلها خارج كل شؤون حياته التي لا تخص الأشياء الحميمة من حياتهما المشتركة . وقد فهمت أنه لن يرغب في جعل عينيها الحريصتين تراقبان أفعاله . مع الرجال كان يتحدث برغبة عن كل ما رآه وجرّبه في الشمال..و لكنه لم يكن يذكر لها شيئاً عن ذلك . وكانت هناك أمور أخرى . كان قد قابل الليدي انجبيورغ ، أم الملك ، والسير كنوت بورس أكثر من مرة واحدة خلال هذه السنوات . ولم يحدث أن كانت معه خلال كل هذه المرات . كان السير كنوت دوقاً في الدانمارك الآن ، وكانت ابنة الملك هاكون قد ارتبطت به بعرى الزواج . كان الزواج قد أيقظ غضباً مراً في أذهان كثير من النرويجيين . وقد اتُخذت خطوات –لم تفهم كريستين ما هي– ضد الليدي . ولكن أسقف بيورغفين قد أرسل بعض الصناديق إلى هوسابي . كانت الآن على متن السفينة "مارغيغرن" والسفينة راسية في "نيس" . كان إرلند قد أعطي رسائل وكان عليه أن يبحر إلى الدانمارك في وقت لاحق في الصيف . راح يضغط عليها لترافقه ، ولكنها كانت مصمّمة على عدم الذهاب . كانت تعلم أن إرلند كان يتحرك بين هؤلاء الناس الكبار كندّ لهم وكقريبهم العزيز ، وكانت تخشى ما يمكن أن ينتج عن ذلك . كان الأمر غير آمن مع شخص شديد الاندفاع والتهور كإرلند . ولكنها لم تستطع أن تستجمع شجاعتها للذهاب معه... ما كانت قادرة على جعله يصغي إلى المشورة هنا ، وكانت تكره أن تغامر بنفسها في

رفقة أشخاص كانت هي بينهم مجرد ربة بيت عادية . ثم كان هناك رعبها من البحر... وكان دوار البحر بالنسبة إليها أمراً أسوأ من أصعب مخاض .

و هكذا ، وبينما راحت تتجول في بيتها القديم ، فقد كان قلبها مرتجفاً وقلقاً .

•

في أحد الأيام مضت مع أبيها إلى سكيين . ثم رأت مجدداً التحفة الثمينة التي كانت لدى أصحاب تلك الضيعة . كان مهمازاً من الذهب الخالص ، كبيراً عتيق الطراز ، مع زخارف غريبة . وشأن كل طفلة في الريف كانت تعرف مصدره .

كان ذاك في المرة الأولى بعد أن عمّد القديس أولاف "ديل" حين اختطفت "أودهيلد حسناء سكيين" إلى الجبل . لقد جروا جرس الكنيسة صعوداً نحو الجبل وهناك قرع الجرس لأجل الفتاة العذراء ، وفي مساء اليوم الثالث عادت ماشية عبر المراعي ، وكانت مزينة بالذهب إلى حد أنها كانت تلمع كنجم . ثم انقطع الحبل ، وسقط الجرس إلى الوادي ، وكان على أودهيلد أن تعود إلى الجبل مجدداً .

و لكن بعد سنوات كثيرة من ذلك وصل في إحدى الليالي اثنا عشر محارباً إلى الكاهن... كان أول كاهن يتواجد في "سيل" . كانوا يرتدون خوذات ذهبية ودروعاً فضية ويركبون جياداً سمراء داكنة اللون . كان هؤلاء هم أبناء أودهيلد من "ملك الجبل" وقد طلبوا برجاء أن تمنح أمهم فرصة أن تُدفن كامرأة مسيحية وقبراً في أرض مقدسة . لقد ناضلت لتحتفظ بإيمانها وأن تحترم أيام الكنيسة المقدسة وهي في الجبل ، وقد كانت تصلي بحرقة

شديدة لتحصل على مثل هذه البركة . ولكن الكاهن أنكر عليها ذلك... قال الناس إنه بسبب هذا لم يجد الراحة في قبره ، ولكن في ليالي الخريف كان يسمع وهو يمشي في البستان إلى شمال الكنيسة ، وهو يبكي ويئنّ من قسوته . وفي الليلة نفسها ظهر أبناء أودهيلد في سكيين حاملين تحية أمهم إلى والديها العجوزين . وفي الصباح وجدوا المهماز الذهبي في الباحة . وكان واضحاً أن أولئك الأشخاص هناك لا زالوا يعتبرون رجال سكيين أقرباء لهم ، فقد كان حظهم كبيراً في الجبال .

قال لافرانس لابنته وهما يتجهان إلى البيت في الليلة الصيفية على جواديهما :

"لقد تلا أولاد أودهيلد الصلوات التي تعلموها من أمهم . لم يستطيعوا التلفظ باسم الرب أو يسوع ، ولكنهم تلوا "صلاة السيد" و"العقيدة" على هذا النحو : أؤمن بالرب القادر ، وأؤمن بالابن الوحيد المنجب ، وأؤمن بالروح الكلية القدرة . ثم قالوا : تباركت أيتها السيدة المباركة بين النساء... وتباركت ثمرة رحمك... راحة العالم أجمع..."

نظرت كريستين بخجل إلى وجه أبيها النحيل الملوح . في ليلة الصيف النيرة بدا وجهه وقد أنهكته الأحزان والتأملات كما لم يسبق لها أن رأته .

قالت بصوت خفيض : "لم تذكر لي هذا من قبل ."

"ألم أفعل ؟ أوه ، كلا . ربما اعتبرت أن هذه الحكاية قد تمنحك أفكاراً أثقل ممّا قد تتحمله سنك . يقول السيرا آيريك إنه مكتوب في كتاب القديس بولص الإنجيلي : "لا يئن مانهوم لوحده من العبء الثقيل" .

•

في أحد الأيام جلست كريستين تخيط على أعلى الدرج المؤدي إلى

القاعة العليا ، حين دخل سايمون إلى الساحة راكباً جواده وتوقف تحتها مباشرة ، ولكنه لم يرها . خرج أبواها كلاهما لملاقاته . لا ، سايمون لا يريد الترجل . لقد طلبت منه رامبورغ أن يجلب لها خلال مروره الخروف الذي كان حملها المدلل ، حيث لا يجب أن يرسل إلى الجبال بل تود أن تبقيه معها الآن .

سمعت كريستين أباها يضرب رأسه بيده . أجل خروف رامبورغ... ثم ضحك ضحكة غاضبة . لقد حدث أمر سيئ... فقد كان يأمل أن تكون قد نسيته . فقد أعطى أكبر حفيدين من أحفاده بلطتين صغيرتين ، لكل واحد منهما واحدة . وأول شيء فعلاه هو استخدامهما لذبح خروف رامبورغ .

ضحك سايمون قليلاً :

"أجل ، صبيان هوسابي... يا لهم من طاقم من الأوغاد...!"

هبطت كريستين الدرج بسرعة وقد نزعت مقصها الفضي من السلسلة المربوطة بحزامها :

"فلتعط رامبورغ هذا كتعويض عن ذبح ابنيّ لخروفها... أعرف أنها كانت تريد هذا المقص منذ كانت صغيرة . ولن يقول أحد إن أولادي..." كانت تتكلم بانفعال ثم صمتت فجأة . لقد رأت وجهي أبيهاوأمها... كانا ينظران إليها بجدية واستغراب .

لم يتحرك سايمون لأخذ المقص . بدا كأنه مرتبك . ثم شاهد بيورغولف فسار بحصانه نحوه ثم انحنى ورفع الصبي إلى قوس سرجه ووضعه أمامه : "إذن فأنت من الفايكنغ الذين يهاجمون شواطئنا ؟ حسناً ، أنت سجيني ، وغداً يستطيع والداك القدوم إليّ وسوف نتفاوض على فديتك ."

و هكذا لوح ضاحكاً للآخرين وانطلق والصبي يناضل ويضحك بين ذراعيه . كان سايمون قد بنى علاقة ودية مع أولاد إرلند . تذكرت كريستين أنه كان دائماً يعرف كيف يتعامل مع الأطفال ، فقد كانت أختاها الصغيرتان أحبتاه . كان يثيرها إلى حد غريب أن يكون شديد الولع بالأطفال ولديه تلك النزعة للعبث معهم ، بينما كان زوجها يكره الإصغاء إلى حديث الأطفال .

و في اليوم التالي ، حين كانوا في فورمو ، استطاعوا أن يروا بوضوح أن زوجة سايمون لم تكن ممتنة جداً لجلبه ذلك الضيف إلى المنزل .

قالت راغنفريد : "لا أحد يتوقع أن تهتم رامبورغ كثيراً بالأطفال الآن . فهي لم تغادر سن الطفولة إلا بالكاد بعد . ولكني أضمن أنها ستتغير حين تكبر ."

"لا شك أنها ستفعل ." تبادل سايمون وحماته نظرة ثم ابتسامة خفيفة جديدة . آه ، فكرت كريستين ، أجل ، لقد مرّ على الزواج شهران تقريباً حتى الآن...

•

من خلال الانزعاج والقلق اللذين راحت كريستين تعاني منهما الآن ، كانت ميالة إلى تنفيس غضبها في إرلند . كان يمضي رحلته في ضيعته أبيها بسرور ورضا ، كرجل ذي ضمير مرتاح . كان على علاقة طيبة مع راغنفريد ولم يكن يخفي حبه القلبي لحميه . كما بدا لافرانس مولعاً بصهره . ولكن كريستين كانت قد أصبحت شديدة الحساسية والمراقبة حتى أنها أحست في لطف لافرانس لإرلند الكثير من ذلك الحنان المشفق الذي كان لافرانس

يبديه دائماً لكل ما هو حيّ وغير ملائم للوقوف على قدميه على نحو ما .
كان حبه لزوج ابنته الأخرى من نوع آخر : كان سايمون صديقاً ورفيقاً له .

كما كان سايمون وإرلند ودودين حين يلتقيان ، ولكنهما لم يكونا يحبان رفقة أحدهما للآخر . كانت كريستين لا تزال تشعر بنفور خفيّ من سايمون دار... وذلك بسبب ما كان يعرفه عنها ، وكذلك لأنها كانت تعرف أنه منذ ذلك اليوم في أوسلو فقد خرج من المسألة بشرف وإرلند بالعار . لقد كانت غاضبة من فكرة أن يكون إرلند قادراً حتى على نسيان هذا . وهكذا لم تكن أبداً ذات مزاج طيب مع زوجها . ولو كان إرلند في مزاج يتحمل فيه تذمرها بطيبة وتواضع ، فقد كان يثيرها ألاّ يأخذ كلامها على مأخذ الجد . وفي يوم آخر قد يصدف أن يكون مزاجه نكداً فعندها كان يغضب وكانت ترد عليه ببرود ومرارة .

في إحدى الأمسيات جلسوا في مبنى المدفأة في يوروندغارد . كان لافرانس يشعر أنه في بيته في هذا المبنى ، وخاصة في الطقس الماطر حين يكون الهواء ثقيلاً ، كما هو اليوم ، ففي القاعة الكبرى السقف مسطح والدخان من المدفأة كان مزعجاً جداً . ولكن في غرفة المدفأة كان الدخان يصعد ويعلق تحت شجرة السقف حين كان عليهم أن يغلقوا فتحة التهوية بسبب الطقس العاصف .

جلست كريستين إلى القرب من المدفأة ، وهي تخيط . كانت في مزاج سيئ وكئيبة . إلى فوق كانت مارغريت نصف نائمة فوق عملها بالخياطة ، وتتثاءب بين الحين والآخر . أما الأطفال فيلعبون بصخب في الغرفة . كانت راغنفريد في مورمو ، ومعظم الخدم خارجاً . جلس لافرانس في مقعد مرتفع ، وإرلند في النهاية العليا للمقعد الخارجي . كان لوح الشطرنج

بينهما ، وراحا يحركان القطع في صمت وبعد الكثير من التأمل . مرة حين بدا على إيفار وسكوله أنهما مصممان على تمزيق جرو إلى نصفين بينهما ، نهض لافرانس وأخذ الحيوان الزاعق الصغير من يديهما . لم يقل شيئاً ، ولكنه جلس مجدداً ليستأنف اللعب وهو يضع الجرو في حضنه .

اقتربت منهما كريستين ووقفت ويدها على كتف زوجها ، وراحت تراقب اللعب . كان إرلند أقل مهارة بكثير في اللعب من حميه ، وغالباً ما كان يضيع حين يلعب في الأمسيات . ولكنه كان يأخذ هذه الأمور بمزاج جيد لامبال . في هذا المساء كان يلعب على نحو أسوأ من عادته . قرّعته كريستين مرة أو مرتين... ليس بلطف كبير . ثم قال لافرانس أخيراً بنكد :

"كيف يمكن لإرلند أن يركز أفكاره على اللعب بينما تقفين هكذا وأنت تزعجينه ؟ ما الذي تريدينه هنا يا كريستين ؟ لم تكوني ماهرة في مثل هذه الألعاب أبداً ."

"لا ، أعتقد أنكم تظنونني لا أفهم في أي شيء..."

"هناك شيء واحد لا تفهمين فيه" ، قال أبوها بحدة ." وهو كيف يليق بالزوجة أن تكلم زوجها . كان الأجدر بك أن تبقي أولادك ضمن حدودهم...الضجة التي يثيرونها أسوأ من الصيد الوحشي ."

مضت كريستين ووضعت أولادها في رتل واحد على المقعد وجلست إلى القرب منهم .

قالت : "اهدؤوا أيها الأطفال . جدكم لا يحب أن تسببوا أي ضجيج أو أن تلعبوا هنا ."

رفع لافرانس نظره إلى ابنته ، ولكنه لم يقل شيئاً . سرعان ما دخلت المربيات وخرجت كريستين والمربيات ومارغريت مع الأطفال لوضعهم في أسرتهم . قال إرلند بعد أن بقي وحيداً مع حميه :

"كنت أتمنى يا حماي لو أنك لم تقرّع كريستين كما فعلت . لو كان يريحها أن تهاجمني حين تكون في مزاج سيئ ، عجباً ،... فالأمر لا يستحق أن تكلمها عنه ، ولن تسمح لأحد أن يقول كلمة واحدة عن أطفالها..."

سأل لافرانس : "و أنت ، هل تريد أن تسمح بأن يكبر أبناؤك دون تقويم ؟ أين هن الخادمات اللواتي يجب أن يحتفظن بالأطفال إلى جانبهن ويرعينهم ؟"

قال إرلند ضاحكاً وهو يتمطمط : "لقد ذهبن إلى مساكن خدمك الذكور على ما أعتقد جازماً . ولكني لا أجرؤ على قول كلمة لكريستين حول خادماتها... لأنها ستغضب عندئذ ، وتقول إنها وأنا لم نكن مثالاً يحتذى من قبل الآخرين ."

•

في اليوم التالي ، وبينما ذهبت كريستين لقطف الفريز على امتداد المرج إلى الجنوب من الضيعة ، ناداها أبوها من باب ورشة الحدادة ، وأمرها أن تأتي إليه .

ذهبت كريستين ولكن ضد إرادتها . كان السبب هو ناكفه مجدداً ، على وجه الاحتمال... فقد ترك هذا الصباح بوابة مفتوحة وقد دخل القطيع إلى حقل الشعير .

تناول أبوها قطعة حديد محماة حمراء من الكير ووضعها على السندان . جلست الابنة وانتظرت ، ولمدة طويلة لم يكن هناك صوت سوى ضربات المطرقة ، وهي تضرب الحديد الذي يصدر الشرار محولة إياه إلى كلاّب قدر ، ورنين السندان . وأخيراً سألته كريستين عمّا يريد .

كان الحديد بارداً الآن . وضع لافرانس الملقط والمطرقة جانباً واقترب منها . وبالسخام الذي على وجهه وشعره ، وملابسه ويديه المسودتين ، والمريلة الجلدية الكبيرة أمامه ، بدا لها أكثر صرامة من عادته .

"لقد ناديتك يا ابنتي لأقول لك ما يلي : عليك هنا في منزلي أن تظهري لزوجك الاحترام اللائق بزوجة . لا أريد أن أسمع ابنتي تخاطب سيدها كما فعلت مع إرلند البارحة ."

"هذا أمر جديد نوعاً يا أبي ، أن تعتبر إرلند رجلاً يستحق الاحترام من الناس ."

قال لافرانس : "إنه زوجك . لم أجبرك على الزواج منه . عليك أن تتذكري هذا ."

أجابت كريستين : "أنتما الاثنان صديقان حميمان . لو كنت تعرفه آنذاك كما تعرفه اليوم ، لا شك أنك كنت ستسعد بالضغط علي" .

نظر أبوها إليها بجدية وحزن :

"الآن تتكلمين بسرعة يا كريستين وتقولين ما تعرفين أنه غير صحيح . لم أحاول الضغط عليك ، حتى حين كنت مصممة على التخلّي عن خطيبك الشرعي ، رغم أنك تعرفين أني كنت أحب سايمون من كل قلبي..."

"كلا... ولكن لأن سايمون أيضاً ما عاد يريدني..."

"كلا... كان نبيلاً إلى حد أنه كان مصراً على حقوقه ، حين رآك غير راغبة فيه . ولكني لا أعرف إن كان في أعماق قلبه غير راض لو أني فعلت ما طلبه مني أندرس دار... ألاّ أهتم إطلاقاً بعناد كما أنتما الاثنين . وكنت أكاد أشك في أن السير أندرس لم يكن على حق... حيث أني أرى الآن أنك لا

تستطيعين الحياة على نحو لائق مع الزوج الذي بذلت كل ما في وسعك لتناليه..."

ضحكت كريستين عالياً ، ضحكة قبيحة :

"سايمون! ما كان يمكنك أن تجبر سايمون على الزواج من امرأة وجدها مع رجل آخر في منزل كذاك..."

أمسك لافرانس بأنفاسه . "منزل ؟" وقد لفظ هذه الكلمة لاهثاً .

"أجل... منزل من ذاك النوع الذي تسمونه أنتم الرجال بالماخور . والمرأة التي كانت تمتلكه... كانت عشيقة مونان... وقد حذرتني بنفسها من أن عليّ ألاّ أذهب إلى هناك . ولكني قلت إني سأذهب لمقابلة قريبي... لم أكن أعرف أنه كان قريبها هي..." ضحكت مجدداً ضحكة مجنونة قاسية .

قال الأب : "صه!"

وقف هادئاً للحظة . ارتجف وجهه... كانت هناك ابتسامة جعلته شاحباً . ثم خطرت لها فكرة جبل حُرجي... كيف يصبح أبيض حين تهب عليه عاصفة فتقلب كل أوراق الشجر في موجة من النور اللامع الشاحب :

"لا يتعلم من لا يطرح الأسئلة..."

جثمت كريستين حيث كانت جالسة على المقعد ، متكئة على مرفق واحد ، وهي تخفي عينيها باليد الأخرى . ولأول مرة في حياتها شعرت بالخوف من أبيها... بالخوف الشديد .

التفت بوجهه عنها ، وذهب وحمل المطرقة ووضعها في مكانها بين المطارق الأخرى . ثم جمع المبارد والأدوات الصغيرة الأخرى ، وراح يضعها كلاً في مكانها على عمود العارضة المستعرضة بين الجدران . وقف وظهره إليها ويداه ترتجفان بعنف .

"ألم تفكري أبداً يا كريستين... أن إرلند بقي صامتاً فيما يخص هذا ؟" وقف أمامها وهو ينظر إلى وجهها الشاحب الخائف . "لقد أجبته بلا ، بكل كياسة ، حين جاء إليّ في تونسبرغ مع أقربائه الأغنياء وخطبك مني... لم أكن أعرف آنذاك أنه كان عليّ أن أشعر بالامتنان له لأنه كان راغباً في حماية شرف ابنتي المهدور... كان من شأن غيره من الرجال وهم كثر أن يعلموني بذلك آنذاك...

"لقد جاء ثانية وخطبك بكل شرف . لم يكن من شأن كل الرجال أن يكونوا مخلصين إلى هذا الحد في النضال لنيل زوجة كان قد سبق لها –سبق لها– أن كانت كما كنت أنت آنذاك ."

"أعتقد أن أي رجل لم يتجرأ على إخبارك بذلك..."

"لم يكن إرلند يخشى السيف..." أصبح وجه لافرانس متعباً إلى حد لا يوصف . كما أن صوته صار أجوف وميتاً . ولكن سرعان ما قال بهدوء وثبات :

"رغم أن كل هذه القضية كانت رديئة... إلا أني أعتقد أن أسوأ ما فيها أن تحكي أنت عن ذلك الآن بعد أن أصبح زوجك أباً لأبنائك...

"لو كان الأمر كما تقولين ، فأنت عرفت أسوأ ما فيه قبل أن تتحدّي كل شيء حتى تتزوجي منه . وكان هو راغباً في شرائك بأغلى سعر ممكن وكأنك كنت فتاة شريفة . لقد منحك الكثير من الحرية في إدارة حياتك وشؤونك... لذلك عليك أن تكفري عن إثمك بأن تديري بالتفاهم وأن تعوّضي عما ينقص إرلند من الحكمة... أنت مدينة بالكثير لربك وأطفالك .

"لقد قلت أنا نفسي –و قال آخرون ما قلته– إن إرلند لم يبد ملائماً

لأي شيء آخر عدا خداع الناس . أنت مسؤولة جزئياً عن مثل هذه الأمور التي قيلت... والتي شهدت عليها للتو . ومنذ ذلك الحين أظهر أنه على أي حال أهل لأمر آخر : فقد اكتسب لنفسه شهرة في الجرأة والقيادة السريعة في الحرب . وليست هذه بالمكاسب الضئيلة لأبنائك أن يكون أبوهم قد اكتسب شهرة بالجرأة وفن حمل السلاح . أما أنه غير حكيم ، فقد كان عليك أن تعرفي ذلك أفضل منا جميعاً . والأفضل أن تعوضي عن عارك بأن تكرمي وتساعدي الزوج الذي اخترته بنفسك..."

كانت كريستين قد انحنت نحو الأمام من فوق حضنها ، ورأسها بين يديها . رفعت بصرها الآن بعنف ويأس :

"لقد كان تصرفاً قاسياً مني أن أحكي لك كل هذا . أوه ، لقد رجاني سايمون ، كان ذاك هو الأمر الوحيد الذي رجاني أن أفعله... أنه عليّ أن أعفيك من معرفة الأسوأ..."

"أطلب منك سايمون أن تعفيني ؟" سمعت المعاناة في صوته . كما عرفت أن هذا أيضاً كان تصرفاً قاسياً منها ، أن تحكي له أن غريباً رأى أنها في حاجة إلى أن يطلب إليها أن تعفي والدها .

ثم جلس لافرانس إلى القرب منها وأخذ إحدى يديها بين كلتا يديه ووضعها على ركبته .

قال بلطف وحزن : "كان تصرفاً قاسياً يا كريستيني . أنت لطيفة مع الجميع يا طفلتي ويا كنزي ولكن... رأيت الأمر قبل هذا أيضاً... تستطيعين أن تكوني قاسية مع أولئك الذين تحبينهم جداً . لأجل خاطر يسوع ، يا كريستين ، أعفيني من الحاجة إلى الخوف عليك على هذه الحال... الخوف من أن هذا القلب الثائر خاصتك سيجلب المزيد من الحزن لك ولأسرتك . أنت

تحرنين وتعاندين كأي مهرة تربط إلى وتد ، كلما ربطتك خيوط قلبك ."

اتكأت على أبيها باكية ، واحتضنها أبوها بين ذراعيه وضمها بقوة . وقد جلسا على هذا النحو لفترة طويلة ، ولكن لافرانس توقف عن الكلام . وأخيراً رفع لها رأسها .

قال بابتسامة صغيرة : "الآن أصبح لونك أسود . هناك خرقة في تلك الزاوية ، ولكنها قد تجعلك أكثر اسوداداً لو استخدمتها . عليك أن تذهبي إلى البيت وتنظفي نفسك... أي شخص يراك سيعرف أنك كنت جالسة في حضن حداد..."

دفعها إلى خارج الباب وأغلقه خلفها ، وتوقف للحظة . ثم تعثر فوق الدرجات القليلة حتى المقعد وغرق هناك فوق ورأسه مسند إلى الجدار الخشبي ووجهه مرفوع إلى الأعلى وقد التوت ملامحه . وبكل قوته ضغط بيد واحدة على قلبه .

و لكن هذا لم يدم طويلاً . اللهاث ، الدوار الأسود ، والألم المنطلق عبر الأطراف من القلب الذي راح يناضل ويرتجف ، ثم ضرب ضربة أو ضربتين قويتين ووقف يرتجف لا يزال . كان الدم يقرع في عروق الرقبة .

ستمرّ الأزمة بعد فترة قصيرة . غالباً ما تمر بعد أن يجلس قليلاً . ولكنها تكررت مجدداً مرات ومرات أخرى .

كان إرلند قد تواعد مع طواقم سفينته على اللقاء في فيوي[١٣] في مساء يوم قداس القديس جيمس ، ولكنه تأخر في يوروندغارد لفترة أطول ليصاحب سايمون في رحلة لصيد الدب الكبير الذي كان يهاجم قطعان السايتر . حين عاد إلى البيت من الصيد ، وجد رسالة تنتظره بأن رجاله قد

تشاجروا مع رجال البلدة وعليه الإسراع إلى هناك لإخراجهم من السجن بكفالة . كان لدى لافرانس مهمة في تلك المنطقة ، فركب مع صهره إلى هناك .

لم يتمكنوا من الذهاب إلى الجزيرة إلا مع اقتراب احتفال قداس أولاف من نهايته . كانت سفينة إرلينغ فيدكونسون راسية هناك ، وعند صلاة المساء في كنيسة بطرس قابلا الوصي السامي . وصل معهما إلى الدير حيث كان لافرانس يقيم ، وتناول العشاء معهما هناك وأرسل رجاله إلى السفينة ليحضروا بعض النبيذ الفرنسي النادر الجيد كان قد حصل عليه في نيداروس .

و لكن الحديث جرى متعثراً مع شرب النبيذ . جلس إرلند ملتفاً بأفكاره ، وعيناه لامعتان وتواقتان ، شأنه كلما كان مقدماً على مغامرة جديدة ، ولكنه غير مكترث بكلام الآخرين . راح لافرانس يرتشف النبيذ أما سير إرلينغ فكان هادئاً ولم يقل سوى القليل .

قال إرلند له : "تبدو مرهقاً يا قريبي" .

أجل كان مرورهم عبر هوساستادفيكن ضمن ظروف جوية قاسية في الليلة السابقة ، وقد بقي مستيقظاً...

"و عليك أن تقود جوادك بسرعة إن أردت أن تكون في تونسبرغ في يوم قداس لافرانس . ولن تجد سوى القليل من السلوان أو الراحة هناك . هل الماستر بال مع الملك الآن... ؟"

"أجل . هل ستمرّ بتونسبرغ في طريقك ؟"

"لأسأل إن كان الملك يود مني أن أحمل تحياته الودية والدالة على الطاعة إلى أمه ؟" ضحك إرلند . "أو إن كان الأسقف أولفين يود أن يرسل كلمة إلى الليدي معي... ؟"

"يستغرب الكثيرون سفرك إلى الدانمرك الآن مع أن زعماء المملكة يصلون في الوقت الحاضر لعقد الاجتماع في تونسبرغ ،" قال السير إرلينغ .

"أجل ، أليس غريباً أن يستغرب الناس دائماً من تصرفاتي ؟ لا شك أنه ليس بالأمر العجيب أن تكون لدي رغبة في رؤية تلك الأخلاق وتلك التربية التي لم أر مثلها منذ أن كنت في الدانمارك آخر مرة... وأن أشترك في مباراة للفرسان مرة أخرى... بما أن قريبتنا قد دعتني للذهاب إلى هناك . أنت تعرف جيداً أنه ليس بين أقربائها في هذه البلاد من يعترف بها الآن سوى مونان وأنا " .

"مونان..." ، عبس إرلينغ ثم ضحك . "هل لا زالت هناك بقية حياة في الخنزير العجوز بحيث يستطيع أن يحرك لحمه ؟ هذا ما كدت أسألك عنه... إذن سيقيم الدوق كنوت مباراة للفرسان . لا شك إذن في أن مونان سيشارك في المبارزة ؟"

"أجل... لأنه لأمر مؤسف يا إرلينغ أنك لا تستطيع مرافقتنا لتشاهد ما سيجري ." ضحك إرلينغ أيضاً . "ألاحظ جيداً أنك تخشى أن تكون الليدي انجبيورغ قد أمرتنا بالذهاب لحضور احتساء نخب العماد حتى نخمر الجعة لحفل آخر وندعوها إليه . كلا ، لا بد أنك تعرف جيداً أني ثقيل اليد جداً بحيث لا أصلح للمؤامرات . وأنت قلعت كل ضرس في فم مونان..."

"أوه كلا ، لسنا خائفين إلى هذا الحد أيضاً من المؤامرات . أعتقد أنه يجب أن يكون واضحاً كالنهار لإنجبيورغ هاكونسداتر الآن أنها قد تنازلت عن كل حقوقها في أرضها حين تزوجت من ذلك البورسي . ستكون مسألة صعبة عليها أن تضع قدماً داخل أبوابنا ، بعد أن وضعت يدها في يد ذلك الرجل الذي لا نريد منه أن يتدخل إطلاقاً في شؤوننا ."

"اجل ، كان ذاك أمراً حكيماً منك بالفعل عندما فصلت الولد عن أمه" ، قال إرلند بغموض . "إنه مجرد طفل لا يزال... ويحق لنا نحن النرويجيين أن نرفع رؤوسنا عالياً حين نفكر أن الملك الذي يحكمنا قد أقسم يمين الولاء لـ..." .

قال إرلينغ فيدكونسون بصوت خفيض وبشدة : "اصمت! ليس الأمر صحيحاً ونحن على ثقة من ذلك..."

قال إرلند :

"هذا ما يُهمس به في كل ضيعة وفي كل كوخ في الشمال هناك بأن كنيسة المسيح قد احترقت لأن ملكنا ليس أهلاً للجلوس على كرسي القديس أولاف..."

"باسم الرب يا إرلند... أقول إن الأمر لم تتأكد صحته بعد . ولو صح ذلك ، فإن طفلاً شأن الملك ماغنوس ، هو حتماً دون خطيئة في عيني الرب... وهو قادر على إصلاح نفسه... أتظن أننا أبعدناه عن أمه ؟ أقول فليعاقب الرب تلك الأم التي تخون ابنها مثلما خانت انجبيورغ ابنها... ولا تضع ثقتك بشخص كهذا يا إرلند... تذكر أن من تسافر لتقابلهم الآن أناس غير جديرين بالثقة!"

"أعتقد أنهم قد حافظوا على ثقة الواحد منهم بالآخر جيداً... أما فيما يخصك أنت ، فأنت تتكلم وكأن الرسائل من السماء كانت تسقط في حجرك يومياً... هذا ما يجعلك جريئاً على النزال مع أسياد الكنيسة على الأرجح ."

"كلا ، دعنا ننهي هذا يا إرلند . تكلم عن أمور لديك من الذكاء ما يكفي لفهمها يا ولد ، وإلاّ فاصمت ."... كان السير إرلينغ قد نهض ووقف هو وإرلند وجهاً لوجه ، وقد احمر وجهه من الغضب .

"أوه ، انتبه للسانك يا إرلند" ، تابع بعد قليل . فكّر مرتين قبل أن تنطق في ذلك المكان الذي أنت مسافر إليه . وفكر ، فكر عشرين مرة قبل أن تفعل أي شيء..."

"إن كان هذا ما تفعله أنت ، يا من تحكم البيت هنا ، فلا عجب أن كل الأمور لا تتحرك إلا ببطء . ولكن عليك ألا تخشى شيئاً" ، تثاءب . "لن أفعل شيئاً على ما أعتقد . ولكن بلادنا هذه أصبحت صعبة على العيش...

"أجل... أنت ستنطلق باكراً في الصباح . يبدو على حميّ أنه متعب..."

جلس الآخران في صمت ، بعد أن تمنى لهما ليلة طيبة... كان إرلند ينام على متن سفينته... جلس إرلينغ فيدكونسون يقلب قدحه بين أصابعه .

قال لمجرد أن ينطق بشيء ما : "أ أنت تسعل ؟"

"يصاب الرجال العجائز بالرشح بسهولة كبيرة . لدينا نحن الكثير من الأمراض كما ترى يا سيدي ، والتي لا تعرفونها أنتم الشبان" ، قال لافرانس مبتسماً .

و صمتا من جديد ، حتى قال إرلينغ فيدكونسون كأنما يخاطب نفسه :

"أجل... هكذا يفكر كل الرجال... أن هذه البلاد لا تدار جيداً . منذ ست سنوات في أوسلو ، ظننت أني رأيت بوضوح أن هناك نية وطيدة لدعم السلطة الملكية... بين رجال البيوتات الكبيرة الذين يقع عليهم هذا الواجب بموجب مولدهم . وقد اعتدت أنا على ذلك ."

"أعتقد أن ما رأيته كان صواباً يا سيدي ولكنك قلت بنفسك إننا معتادون على التجمع من حول ملكنا... والآن ملكنا طفل... وهو يقضي نصف أوقاته في بلد أجنبي..."

"أجل . هناك أحيان أفكر فيها أننا قد نجد خيراً في أشياء نكرهها . في

قديم الزمان حين كان ملوكنا يتصرفون كالجياد البرية... كان هناك دائماً احتياطي من المهور الشجاعة لتربيتها . كان على شعبنا أن يختار فحسب المهر الذي كان أفضل المقاتلين..."

ضحك لافرانس قليلاً : "أوه ، أجل..."

لقد تكلمنا معاً قبل ثلاث سنوات يا لافرانس لاغماندسون ، حين عدت من حجك إلى سكوفده وزرت أقرباءك في غاوتلاند..."

"أتذكر يا سيدي أنك شرفتني بالبحث عني ."

"كلا ، كلا ، يا لافرانس ، لا حاجة إلى كل هذه المجاملات" ، ثم ضرب بيده الهواء لنفاذ صبره . "الأمر حتى كما قلت آنئذ" ، تابع بكآبة . "لا أحد يستطيع لمّ شمل النبلاء الآن في هذه البلاد . إنهم يدفعون إلى الصفوف الأمامية أولئك الأشد رغبة في ملء بطونهم... لا يزال هناك بعض اللحم في القدر . أما أولئك الطامحون في كسب السلطة والثروة بمثل هذه الخدمة التي كانت مشرفة في أيام آبائنا ، فهم ما عادوا يتقدمون ."

"هكذا يبدو الأمر . صحيح أن الشرف يتبع راية الزعيم" .

"إذن لا بد أن الرجال يعتقدون أن رايتي لا يتبعها سوى القليل من الشرف" ، قال إرلينغ بلهجة جافة . "أنت أيضاً ابتعدت عن كل ما حقق لك الشهرة ، يا لافرانس لاغماندسون" .

"هذا ما فعلته منذ أن تزوجت يا سيدي . لقد تزوجت في سن مبكرة... كانت زوجتي مريضة ، وصحتها لا تتحمل التجول في صحبتي . ويبدو كأن سلالتنا لا تزدهر في النرويج هنا . لقد مات أبنائي صغاراً ، ولم يعش سوى واحد من أولاد أخي ليبلغ مبلغ الرجال ."

جلسا مجدداً في صمت .

قال الوصي السامي بصوت خفيض : "الرجال من أمثال إرلند... إنهم الأشد خطراً . إنهم أولئك الذين لهم أفكار تذهب إلى أبعد من اهتماماتهم بقليل... ولكن ليس إلى مسافة كافية . أجل ، أليس هو أشبه بطفل كسول ، إرلند هذا... ؟" راح يحرك قدح النبيذ بعصبية على المائدة . "ليس هو بالمغفل! كما أنه نبيل المحتد وشجاع . ولكنه لا يزعج نفسه بسماع الكثير عن أي مسألة بحيث يفهمها بالكامل... ولو أنه اهتم بسماع ما يقوله له شخص ما ، لكان سينسى البداية قبل أن يصل إلى النهاية..."

نظر لافرانس إلى الآخر . كان السير إرلينغ قد شاخ كثيراً منذ أن رآه لآخر مرة . بدا منهكاً وتعباً... لم يعد يملأ كرسيه كما من قبل . كانت ملامحه جميلة واضحة ، ولكنها كانت صغيرة جداً ، كما كان لونه شاحباً... شأنه دائماً . أحس لافرانس أن هذا الرجل... رغم أنه كان رجلاً مستقيماً وذا أخلاق فروسية وحكيماً وراغباً في أن يخدم بإخلاص وإقدام ، ومع ذلك ومهما كان قياسه ، إلا أنه كان صغيراً جداً ليحتل المركز الأول في هذه البلاد . لو كان أطول قامة بقليل ، لكان قد وجد بسهولة أكبر الكثير من الأتباع .

قال لافرانس بصوت خفيض :

"إن السير كنوت شخص حكيم بما فيه الكفاية حتى يرى هذا... إن كانوا يتآمرون على شيء ما هناك... فإنه لن يكون لإرلند نفع كبير فيما يخص أي مشاورات سرية..."

"أنت تحبّ صهرك هذا بأسلوب ما يا لافرانس" ، قال الآخر بحنق تقريباً . "رغم أنه ليس لديك -والحق يقال- سبب يدعوك إلى ذلك..."

جلس لافرانس يرسم بإصبعه على المائدة مستعملاً بعض النبيذ

المراق . لاحظ السير إرلينغ كم كانت الخواتم فضفاضة على أصابعه الآن .

رفع لافرانس بصره وهو يبتسم ابتسامة ضعيفة : "هل لديك سبب أنت ؟ ومع ذلك أعتقد أنك تحبه أيضاً ."

"أوه ، أجل ، والرب يعرف... ولكنك تستطيع أن تقسم يا لافرانس أن كثيراً من الأمور تجري في رأس السير كنوت الآن... فهو أب لابن هو حفيد الملك هاكون ."

"أجل ، ولكن حتى إرلند يجب أن يفهم أن أبا ذلك الطفل لديه طموح أكبر من أن يستطيع ذاك اللورد الصغير أن يلتف من حوله . كما أن الأم لديها كامل بلدنا ضدها بسبب ذلك الزواج ."

بعد برهة نهض إرلينغ فيدكونسون وتزنّر بسيفه . كان لافرانس قد أنزل بحركة تدل على المجاملة عباءة ضيفه من على الخطاف حيث كانت معلقة ، ووقف هناك وهي بين يديه... ثم ترنح فجأة وكاد يقع أرضاً ، لولا أن أمسك به السير إرلينغ بين ذراعيه . وبكثير من الألم والجهد استطاع أن يحمل الآخر ، وهو رجل ضخم طويل القامة ، إلى السرير . لم تكن تلك سكتة دماغية ، ولكن لافرانس كان متمدداً هناك وشفتاه زرقاوان وبيضاوان ، وأطرافه مرخية لا حول فيها . عدا السير إرلينغ عبر الباحة وأيقظ الأب المسؤول عن النزل .

بدا لافرانس شديد الخجل حين صحا . أجل ، كان الضعف يسيطر عليه بين الحين والآخر... وقد بدأ ذلك خلال رحلة صيد للأيائل جرت قبل شتائين... ضلّ طريقه في عاصفة ثلجية . ربما كان شيء كهذا مطلوباً ليلقن المرء درساً مفاده أن شبابه قد ولى... ابتسم معتذراً .

انتظر السير إرلينغ حتى قام الراهب بفصد الرجل المريض ، رغم أن لافرانس رجاه ألاّ يزعج نفسه ، وهو يعرف أن الرجل سينطلق عند الفجر .

كان القمر لامعاً ، وهو يصعد عالياً فوق جبال البر الرئيس ، وكان الماء أسود في ظل الجبال ، ولكن على الزقاق البحري طفا النور في رقاقات من فضة . لم يكن هناك دخان يخرج من أي فتحة تهوية ، والعشب على أسقف المنازل كان يلتمع من الندى تحت نور القمر . لم يكن هناك شخص واحد في الشارع القصير الوحيد في هذه البلدة الصغيرة ، بينما راح السير إرلينغ يمشي بسرعة قاطعاً المسافة القصيرة ، التي لا تتعدى بضع خطوات ، نحو بيت الملك ، حيث كان ينام . بدا رشيقاً على نحو غريب تحت نور القمر... والعباءة السوداء قد لفته على نحو وثيق... وهو يرتجف قليلاً . وصل زوج من الخدم كانا ساهرين في انتظاره وهما يتعثران إلى الباحة مع مصباح . أخذ الوصي السامي المصباح وأرسل الرجلين إلى الفراش... ارتجف ثانية وهو يصعد الدرج إلى علية المخزن ، حيث كان سينام .

٧

ما أن مرّ قداس بارتولوميو حتىٰ انطلقت كريستين إلى بيتها مع جماعتها الكبيرة المؤلفة من الأطفال والخدم وكل أمتعتهم . ركب لافرانس معهم حتى وصلوا إلى هييردكين .

كانا يتمشيان في الساحة يتحادثان ، هو وابنته ، في الصباح الذي كان سينطلق فيه هابطاً "ديل" مجدداً . كانت المنطقة المجاورة قابعة تحت نور الشمس اللامعة... فقد كانت الطحالب حمراء الآن ، والهضاب الصغيرة المدورة صفراء كالذهب من غيضات أشجار البتولا الصغيرة . هناك عالياً في الأراضي البور المرتفعة ، كانت البرك الجبلية تتلألأ وتعود لتصبح داكنة من جديد ، مع مرور الغيوم الكبيرة اللامعة ، غيوم الطقس الجميل من فوقها . بقيت تلتف نحو الأعلى دون توقف ، ثم هبطت فوق الصدوع والوديان الصغيرة البعيدة ، بين القمم الرمادية الحجرية والجبال الزرقاء مع أمشاط من الثلج الجديد وحقول الثلج القديم التي كانت تمتد بقدر ما تستطيع العين رؤيته . كانت البقع الرمادية الخضراء الصغيرة من القمح التي تنتمي إلى منزل الاستراحة تنتصب على نحو غريب أمام الألوان الخريفية لهذا العالم الجبلي اللامع .

كانت الريح تهب نضرة وقوية... شد لافرانس قلنسوة عباءة كريستين فوق رأسها بعد أن كانت قد نزلت فوق كتفيها ، ثم ملّس بأصابعه شريط غطاء الرأس الكتاني الذي كان بارزاً من تحتها .

قال : "أعتقد أنك قد شحبت ونحلت في منزلي . ألم نهتم بصحتك جيداً في البيت يا كريستين ؟

"لقد فعلتم ذلك . ولكن الأمر ليس كما تظن..."

قال الأب : "حقاً ، هذه رحلة متعبة لك ، مع كل هؤلاء الأطفال ."

"أجل . ولكن ليس بسبب هؤلاء الخمسة شحبت وجنتاي..." ثم التمعت ابتسامة على وجهها ، وحين نظر إليها أبوها متسائلاً في انزعاج ، أومأت برأسها وابتسمت ثانية ابتسامة صغيرة . أشاح الأب نظره عنها ، ولكنه سأل بعد قليل :

"بما أن الأمر على ما هو عليه ، فإنك لن تستطيعي القدوم إلينا مرة أخرى هنا في "ديل" خلال وقت قصير ؟"

"آمل على الأقل أنه لن يكون بعد ثماني سنوات" ، قالت باللهجة نفسها . ثم لمحت وجه الرجل فقالت : "أبي! أوه... أبي!"

"هدوءاً ، هدوءاً يا ابنتي..." ودون أن يقصد أمسكها من أعلى ذراعها وأوقفها حين أرادت أن ترمي بنفسها عليه . "كلا يا كريستين" .

أخذ بيدها بقوة في يده ، وبدأ يمشي مجدداً إلى القرب منها . كانا قد ابتعدا عن البيوت وراحا يجتازان الآن ممراً صغيراً بين أجمات أشجار البتولا الصفراء... لم يلاحظا أين كانا يتجهان . قفز لافرانس فوق جدول صغير كان يقطع الممر والتفت إلى ابنته وأعطاها يده .

لاحظت حتى في هذه الحركة الصغيرة أنه لم يعد رشيقاً ونشيطاً كما كان في الماضي . كانت قد رأت ذلك سابقاً ولكن دون أن تنتبه له جيداً... لم يعد يقفز إلى السرج بخفة كما كان يفعل . لم يعد يعدو صاعداً درج العلية . لم يعد يرفع شيئاً ثقيلاً بسهولة كما كانت عادته . لقد أصبح يتحرك بجسده على نحو أكثر تيبساً وحرصاً... كأنه كان يعاني من ألم هاجع في داخله وكان يتحرك ببطء حتى لا يوقظه . كان ممكناً مشاهدة الدم وهو يدق في عروق عنقه حين يدخل بعد ركوب لجواده . أحياناً كانت قد رأت ما بدا أنه انتفاخات أو جيوب تحت عينيه... وتذكرت أنه في صباح أحد الأيام حين دخلت القاعة حيث كان مضطجعاً نصف عار في السرير وساقاه العاريتان فوق قدم السرير ، فقد راحت أمها الجاثمة أمامه تفرك مفاصل كاحليه .

"إن كنت ستشعرين بالحزن على كل رجل يشيخ ، يا ابنتي ، فسيكون حدادك طويلاً " ، قال ذلك ببساطة وهدوء . "لديك أبناء رائعون الآن يا كريستين . لا شك أنك لم تكوني تتوقعين أن تري أباك رجلاً عجوزاً . حين افترقنا في الأيام السابقة بينما كنت لا أزال شاباً... لم نكن قادرين أن نعرف في ذلك الحين أكثر ممّا نعرفه الآن ، أي إن كان قدرنا أن نتقابل مجدداً على هذه الأرض . قد أعيش لفترة طويلة بعد... وهذه إرادة الله يا كريستين ."

"أأنت مريض يا أبي ؟" سألته بلهجة حيادية .

"بعض الأمراض تأتي مع التقدم بالعمر" ، أجاب أبوها بخفة .

"و لكنك لست عجوزاً يا أبي . أنت في الثانية والخمسين فحسب..."

"لم يعش أبي حتى هذه السن . تعالي واجلسي إلى القرب مني ."

كان هناك رف منخفض يكسوه العشب تحت جدار صخري يتكئ على

جدول . فكّ لافرانس مشبك عباءته وطواها وجلس عليها ، ثم جذب ابنته إلى جانبه . أمامهما كان الجدول يقرق ويتموج فوق أحجار صغيرة في حوضه ، ويؤرجح غصن صفصاف كان في الماء . جلس الأب وعيناه مثبتتان على الجبال الزرقاء والبيضاء البعيدة خلف الأراضي العالية الخريفية ذات الألوان الدافئة .

قالت كريستين : "أنت بردان يا أبي . خذ عباءتي..." فكت عباءتها ورفعت أسفلها إلى كتفيه بحيث جلسا كلاهما تحتها كأنما تحت مأوى . وتحتها وضع هو ذراعه من حول خصرها .

"أنت تعرفين جيداً يا كريستيني : إن الذي يحزن على من يذهب بعيداً إلى هناك شخص غير حكيم... فلتتركي المسيح يأخذك وليس أنا بالأحرى... لكأنك سمعت القول السائر . أثق بقوة برحمة الرب . لا يفترق الأصدقاء طويلاً أحدهم عن الآخر . ربما يبدو لك الأمر هكذا أحياناً ، وأنت لا تزالين شابة . ولكن لديك أبناؤك وزوجك . حين تصبحين في مثل عمري سوف تعتبرين أن الوقت قد مضى بسرعة شديدة منذ أن رحلنا ، وسوف تتعجبين حين تعدين الشتاءات التي مرت... من أنها كثيرة إلى ذلك الحد... بالنسبة إليّ يبدو الأمر لي وكأنه ليس بعيداً منذ أن كنت صبياً... ومع ذلك فإنها سنوات كثيرة منذ أن كنت الفتاة ذات الشعر الأشقر التي تلاحقني أنّى وقفت أو ذهبت... كنت تتبعين أباك عن حب شديد... فليجزك الله خير جزاء على السعادة التي منحتها لي..."

"أجل... لو كان سيجزيني كما جزيتك..." نزلت على ركبتيها أمامه ، وأمسكت برسغيه ، وقبلت كفيه وهي تخبئ وجهها الباكي فيهما . "يا أبي ، يا أبي العزيز... ما أن أصبحت فتاة ناضجة حتى سددت لك ثمن حبك بأكثر الأحزان مرارة..."

"كلا يا طفلتي ، لا تبكي هكذا ." حرّر يديه منها ، ورفعها لتجلس إلى جواره ، وجلسا كما من قبل .

"لقد حصلت على الكثير من الفرح منك في هذه السنوات أيضاً يا كريستين . لقد رأيت أطفالاً جميلين وواعدين ينمون إلى القرب منك ، ولقد أصبحت امرأة بارزة ومتفهمة... ولقد رأيت أنت قد عودت نفسك على طلب العون حيث يكون مثل هذا الطلب ملائماً ، أي حين تكونين واقعة في ورطة . يا كريستين ، أنت يا ذهبي الأثمن ، لا تبكي بكل هذه الحرقة . يمكنك أن تؤذي ذاك الذي تحملينه تحت حزامك" ، همس هذا الكلام همساً . "كلا ، لا تحزني" .

و لكنه لم يستطع أن يمنعها عن البكاء . ثم حمل ابنته ووضعها في حجره وأجلسها على ركبته ، تماماً كما كان يحدث حين كانت لا تزال طفلة... كانت ذراعاها من حول عنقه ووجهها مضغوط على كتفه .

"هناك أمر لم أخبره لابن امرأة سوى لكاهني... والآن سأحكيه لك . حين كنت يافعاً لا أزال ، في بيتنا في سكوغ ، وحين كنت مع الحرس الشخصي... فقد فكرت في أن أصبح راهباً ، ما أن أبلغ السن المناسبة لذلك . كلا ، لم أف بالوعد ، ولا حتى ضمن قلبي . كان هناك الكثير الذي يشدني إلى الجهة الأخرى أيضاً... ولكن حين كنت أمارس الصيد في "بوتن فيورد" وسمعت أجراس الدير في هوفيدو... وقد بدا ذلك وكأنه يشدني أكثر من أي شيء آخر... ثم حين صرت في السادسة عشرة ، كان أبي قد صنع ذلك الدرع القصير من صفائح الفولاذ الإسباني التي لحمت مع الفضة... ولحمها ريكارد الإنكليزي في أوسلو مع بعضها البعض . وقد حصلت على سيفي أيضاً... ذاك الذي أستعمله دوماً ، وكذلك درع حصاني . لم يكن السلام مخيماً على

البلاد آنذاك كما كانت الحال وأنت صغيرة... كانت هناك حرب مع الدانمركيين... وكنت أعرف أني سرعان ما سأنال الفرصة لاستخدام أسلحتي الجميلة . ولم أستطع أن أضعها جانباً... لقد كانت تواسيني فكرة أن أبي كان سيمتعض لو أن ابنه البكر أصبح راهباً ، وأنه ليس عليّ مخالفة أبويّ .

"و لكني اخترت بنفسي الدنيا ، وقد كافحت لأفكر حين أصبحت الدنيا ضدي : سيكون أمراً غير رجولي أن أتذمر من المصير الذي اخترته لنفسي . فلقد رأيت الأمر أكثر فأكثر مع كل عام عشته... لا يوجد عمل أعلى قيمة للروح البشرية التي عرفت البركة المتأتية من فهم محبة الرب الكريمة ، من أن تخدم الرب وتسهر وتصلي لأجل أولئك الناس الذين لا تزال أبصارهم مغشاة بظل شؤون هذه الدنيا . ولكن علي أن أقول يا كريستين... إنه سيكون من الصعب علي التخلي لأجل الرب عن الحياة التي عشتها فوق مزارعي وأراضيّ ، والاهتمام بالأمور الدنيوية وبمرح دنيوي... مع أمك إلى جانبي ومعك أنت وأطفالك . لذلك على المرء أن يعاني في صبر ، حين يكون قد رُزق بأولاد من لحمه ودمه ، وأنه لأمر يحرق قلبه أن يخسرهم أو إذا لم تكن الدنيا طيبة معهم . الرب الذي منحهم الروح هو الذي يملكهم وليس أنا..."

كان جسد كريستين لا يزال يرتجف من البكاء . وبدأ والدها يهدهدها بين ذراعيه كطفلة صغيرة .

"كانت هناك أمور كثيرة لم أفهمها حين كنت صغيراً . كان أبي يحب آسموند أيضاً ، ولكن ليس بقدر ما كان يحبني . كان ذلك لأجل خاطر أمي ، كما تعرفين... فهو لم ينسها أبداً ، رغم أنه تزوج إنغا لأن تلك كانت رغبة أبيه . والآن أتمنى لو أستطيع أن أقابل زوجة أبي مجدداً في هذه الدنيا وأن أرجوها أن تغفر لي لأني لم أستوعب لطفها..."

"و لكن غالباً ما كنت تقول يا أبي أن زوجة أبيك لم تعاملك معاملة تحمل الخير أو الشر على حد سواء " ، قالت كريستين من خلال دموعها .

"أجل ، فليساعدني الرب... كان ذلك تقصيراً مني في فهمها . والآن يبدو لي أنه كان أمراً كبيراً أنها لم تكرهني ، ولم تخاطبني بكلمة غاضبة واحدة . كيف سيكون رد فعلك يا كريستين لو كنت سترين ابن زوجك يُفضل على ابنك في كل الأوقات وكل الأمور ؟"

كانت كريستين قد هدأت نوعاً ما . كان وجهها ملتفتاً الآن إلى الخارج نحو السلسلة الجبلية . كانت كومة كبيرة رمادية زرقاء من الغيوم تعبر الشمس ، ممّا جعل الجو أعتم... كانت أعمدة صفراء تخترقها ، كما التمع ماء الجدول بحدة .

ثم انفجرت دموعها مجدداً :

"أوه ، كلا... يا أبي ، يا أبي... إن لم أرك حياً مرة أخرى..."

"فليحفظك الله يا كريستين يا ابنتي ، حتى يجد أحدنا الآخر ثانية في ذاك اليوم ، نحن جميعاً الذين كنا أصدقاء في الحياة - وكل روح بشرية... ليحفظك المسيح ومريم العذراء والقديس أولاف والقديس توماس خلال أيام حياتك كلها ." أخذ وجهها بين يديه وقبلها على فمها . "فليكن الله كريماً معك... فليمنحك الرب النور في نور هذه الدنيا وفي النور العظيم لاحقاً..."

•

بعد ساعات من ذلك ، حين ركب لافرانس بيورغولفسون خارجاً من هييردكين ، ذهبت ابنته معه لبعض الطريق ، وهي تمشي إلى جانب

حصانه . كان خادم لافرانس قد ابتعد مسافة كبيرة إلى الأمام ، ولكنه كان لا يزال يحافظ على مسافة معقولة . كان أمراً محزناً أن ينظر إلى وجهها اليائس ، الذي شوهه البكاء . وهكذا جلست أيضاً في كوخ الضيوف ، طوال الوقت ، بينما راح هو يأكل ويتحدث إلى الأطفال ويمازحهم ويضعهم في حضنه الواحد إثر الآخر .

قال لافرانس برقة :

"لا تحزني بعد الآن على ما عليك أن تتوبي عنه لأجلي ، يا كريستين . ولكن تذكري ذلك حين يكبر أطفالك ، وقد تعتبرين أنهم لا يتصرفون تجاهك أو تجاه أبيهم كما تعتقدين أنه الصواب . وتذكري آنذاك أيضاً ما قلته لك عن شبابي . حبك لهم مخلص ، وأعرف ذلك جيداً ، ولكنك تكونين في أقسى حالاتك حيث يكون حبك في أقصى حالاته ، وقد لاحظت أنه في هؤلاء الصبيان أولادك يوجد ما يكفي من العناد" ، قال بابتسامة صغيرة .

و أخيراً طلب منها لافرانس أن تعود أدراجها : "لا أريدك أن تعودي لوحدك لمسافة أطول عن البيوت ." كانا قد وصلا إلى واد صغير بين تلال صغيرة مع أشجار البتولا تحيط بسفوحها وصخور كبيرة على جانبها .

ضغطت كريستين نفسها على قدم والدها في الركاب . راحت تتشبث بأصابعها بثيابه ويده في السرج وعنق الحصان ومؤخرته ، وتهز رأسها من جانب إلى آخر ، وتبكي بكاء عميقاً حزيناً إلى حد أن أباها ظن أن قلبه سينفطر لرؤيتها منغمسة في مثل هذا الأسى .

قفز من على حصانه وأخذ ابنته بين ذراعيه وهو يعانقها للمرة الأخيرة . وقد رسم إشارة الصليب عليها المرة تلو الأخرى وتمنى لها أن يرعاها الله والقديسون . وأخيراً قال إن عليها الآن أن تتركه يمضي في طريقه .

و هكذا افترقا . ولكن بعد أن ابتعد قليلاً ، رأت كريستين أن أباها أبطأ من سير حصانه ، وعرفت أنه كان يبكي وهو يبتعد عنها على ظهر جواده .

ركضت عبر غابة البتولا ، وأسرعت وهي تعبرها ، ثم بدأت تتسلق الصخور الذهبية المغطاة بالطحالب على أقرب تلة . ولكن الصخور كانت كبيرة وصعبة على التسلق ، وكانت التلة الصغيرة أعلى مما توقعت . وأخيراً وصلت إلى القمة ، ولكن كان هو قد ابتعد عن مرمى النظر بين تلال أخفض . تمددت فوق الطحالب ونبات توت الدب الذي كان ينمو على أعلى التلة ، وبقيت هناك تبكي ووجهها مدفون بين ذراعيها .

•

وصل لافرانس بيورغولفسون إلى بيته في يوروندغارد في وقت متأخر من المساء . أحس بدفء مرح صغير حين رأى أن هناك من لا يزال ساهراً في مبنى غرفة المدفأة... كان هناك وميض ضعيف من نور المدفأة خلف لوح الزجاج الصغير في جدار السقيفة . كان يشعر دائماً أن معظم ما هو بيته بالنسبة إليه كان في هذا المبنى .

كانت راغنفريد جالسة في الغرفة مع أشغال درز ذات حجم كبير أمامها فوق المائدة... كما كانت شمعة كبيرة على شمعدان نحاسي قريبة منها . نهضت على قدميها فوراً وحيته تحية المساء ، وضعت المزيد من الحطب في المدفأة وذهبت بنفسها لإحضار الطعام والشراب . لا... لقد أرسلت الخادمات إلى الفراش منذ زمن طويل... فقد كان يومهن قاسياً . ولكن أصبح لديهم الآن ، على أي حال ، خبز شعير جاهز ويكفي حتى موسم عيد الميلاد . كانت بال وغوسنتاين قد مضتا إلى الجبال لجمع الطحالب . وبمناسبة

الحديث عن الطحالب ، هل يود لافرانس أن تصنع ملابسه الشتائية من شبكة من القماش مصبوغة بأوراق دوار الشمس أو من نبات الخلنج الأخضر ؟ كان أورم أوف موار هناك في الصباح طالباً شراء بعض الحبال الجلدية . كانت قد أخرجت الحبال المعلقة قرب الباب في الكوخ ، وقالت له إنه يستطيع أن يأخذها كهدية . أجل ، ابنته أصبحت أفضل الآن... فالجرح في ساقها كان آخذاً بالاندمال الآن...

كان لافرانس يجيب أو يومئ برأسه ، بينما راح هو وخادمه يأكلان ويشربان . ولكن السيد سرعان ما انتهى من الطعام . وقف ، وجفف سكينه على الجهة الخلفية من فخذه ، ثم تناول بكرة كانت قريبة من مكان جلوس راغنفريد . كان الخيط ملفوفاً على وتد منحوت على شكل طائر عند كل نهاية من نهايتيه... كان أحد هذين مكسور الذيل . دوّر لافرانس الكسر وراح ينحته قليلاً ، وجعل للطائر ذيلاً مبتوراً . في وقت من الأوقات ، كان قد صنع الكثير من أوتاد البكرات هذه لزوجته .

"هل عليك أن تصلحي هذا بنفسك ؟" سألها وهو ينظر إلى عملها . كانت تعمل على سرواله الجلدي وتخيط رقعاً على الجزء الداخلي من الفخذين ، حيث اهترأ من ركب السرج . "إنه عمل قاس على أصابعك يا راغنفريد ."

"أوه..." وضعت زوجته حواف قطع الجلد الواحدة إلى قرب الأخرى وراحت تثقب ثقوباً فيها بواسطة مخرزها .

تمنى لهما الخادم ليلة سعيدة وخرج . بقي الزوج والزوجة لوحدهما . وقف قرب المدفأة ليدفئ نفسه ، وقد وضع إحدى قدميه على حافة المدفأة ويده على عمود فتحة الدخان . نظرت راغنفريد نحوه . وقد لاحظت أن

الخاتم الصغير المطعّم بأحجار الياقوت -خاتم خطوبة أمه- لم يعد في يده . عرف أنها لاحظت ذلك .

قال : "أجل... لقد أعطيته لكريستين . لم يكن الخاتم مخصصاً لها... ولكني فكرت في أن عليّ أن أعطيه لها الآن ."

لاحقاً سيقول الواحد للآخر : ربما حان الوقت للذهاب إلى الفراش . ولكنه وقف حيث كان ، وجلست هي إلى عملها . تحدثا قليلاً عن رحلة كريستين ، عن العمل الذي كان جارياً في المزرعة ، وحول رامبورغ وسايمون . ثم تكلما حول الذهاب إلى السرير للراحة ، ولكن لم يتحرك أي منهما .

ثم خلع لافرانس الخاتم الذهبي ذا الحجر الأزرق والأبيض من يده اليمنى واقترب من زوجته . وبخجل واضطراب أخذ يدها ووضع الخاتم في أصبعها... كان عليه أن يبدل مكانه مرة أو مرتين قبل أن يجد الأصبع الملائم . وقد ارتاح على الأصبع الوسطى ، فوق خاتم الزواج .

قال بصوت خفيض ودون أن ينظر إليها : "أريدك أن تأخذي هذا الآن" .

جلست راغنفريد صامتة كصخرة... وخداها قد تضرجا بلون الدم .

همست أخيراً : "لمَ تفعل ذلك ؟ أتظن أني أحسد ابنتنا على خاتمها ؟"

هز لافرانس رأسه وابتسم قليلاً :

"أوه ، أعتقد أنك تعرفين سبب ذلك ."

"قلت من قبل إنك ستأخذ هذا الخاتم معك إلى القبر" ، قالت وهي تهمس أيضاً . ما كان أحد سيحمله بعد رحيلك..."

"لذلك عليك ألاّ تخلعيه من يدك يا راغنفريد... أريد وعداً منك بذلك . لا أريد لأحد أن يحمله من بعدك..."

"لم فعلت ذلك ؟" سألته ثانية وهي تمسك بأنفاسها .

نظر الرجل إلى وجهها .

"في الربيع مرّت أربع وثلاثون سنة على زواجنا . لم أكن وقتها رجلاً ناضجاً بعد... وخلال كل فترة رجولتي كنت إلى جانبي ، وذلك حين كنت أشعر بالأسى أو كانت الأمور تجري على نحو جيد معي . فليكن الرب في عوننا... لم أفهم إلا قليلاً كم كان العبء الذي حملته أنت ثقيلاً ، بينما كنا نعيش معاً . ولكني أعتقد الآن أنه كان يبدو أمراً جيداً أنك كنت هناك معي...

"لا أعرف إن كنت تعتقدين فعلاً أني أحب كريستين أكثر منك . صحيح أنها كانت أكبر دواعي سروري وأنها سببت لي حزناً عظيماً... ولكنك كنت أماً لهم كلهم . ويبدو لي الآن أن أسوأ الأمور هو أن أغادرك ، حين أذهب إلى هناك...

"لذلك عليك ألا تعطي خاتمي إلى أي شخص... لا تعطيه حتى إلى أي من ابنتينا... بل قولي لهما إنه يجب أن يبقى في يدك .

"ربما تعتقدين يا زوجتي أنك كنت تعيسة معي أكثر مما كنت سعيدة... وربما جرت الأمور على نحو خاطئ بيننا . ولكني أعتقد أننا كنا صديقين مخلصين الواحد للآخر . وأظن أنه في الحياة الأخرى سنجد أحدنا الآخر مجدداً على نحو يكون الخطأ معه لا يفرقنا أبداً ، وأن الحب الذي كان بيننا سيعيد الرب بناءه أفضل مما كان سابقاً..."

رفعت الزوجة وجهها الشاحب المجعد... كانت عيناها الكبيرتان

الغائرتان تحترقان وهي تنظر إلى زوجها . كان لا يزال يمسك بيدها . نظرت إليها وهي في يده ، ورفعتها قليلاً . التمعت الخواتم الثلاثة ، الواحد فوق الآخر ، في المستوى الأدنى خاتم الخطبة ثم خاتم الزفاف ثم هذا الخاتم فوقهما .

تذكرت الأمر على نحو غريب . تذكرت حين وضعت الخاتم الأول في يدها... عند الموقد في قاعة بيتها في سوندبو ، وأبواهما واقفان إلى جانبهما . كان (لافرانس) أبيض وأحمر اللون ، بوجنتين مستديرتين لم يغادر مرحلة الصبا إلا بالكاد... وخجولاً قليلاً وهو يتقدم إلى الأمام بعيداً عن السير بيورغولف .

أما الثاني فوضعه على أصبعها أمام باب الكنيسة في غيردارود ، مع لفظ اسم الثالوث ، تحت يد الكاهن .

تحسسته... وبهذا الخاتم الأخير يكون قد تزوجها مجدداً . وحين ستجلس بعد زمن قصير عند جسده الذي فارقته الحياة ، فقد أراد أن تعرف أنه بهذا الخاتم كان قد زوّجها من القوة القادرة والحية التي كانت تسكن في ذلك التراب والرماد .

أحست كأن قلبها كان سينخلع في صدرها ، وأنه ينزف وينزف ، بجنون كما في أيام الشباب... حزناً على الحب الدافئ والحيّ بينما راحت تئن سراً لأنها ستفتقده ، على الفرح المليء بالخوف في حبه الشاحب اللامع هذا الذي كان يجذبها معه نحو الحدود القصوى للحياة الأرضية . عبر الظلمة الداكنة التي كانت تهبط شاهدت التماعة شمس أخرى أرق ، اشتمت رائحة الأعشاب في الحديقة عند نهاية العالم...

أعاد لافرانس يد زوجته إلى حجرها ، وجلس على المقعد ، بعيداً عنها

قليلاً ، وظهره إلى المائدة ،وإحدى ذراعيه من حوله . لم ينظر إليها ، ولكنه حدق إلى نار المدفأة .

حين تكلمت مجدداً كان صوتها هادئاً وساكناً :

"لم أفكر يا زوجي أني كنت عزيزة عليك إلى هذا الحد ."

"أجل ، لقد كنت كذلك" ، تحدث ببساطة كما فعلت هي .

جلسا صامتين لفترة أخرى . حركت راغنفريد خياطتها من حضنها إلى المقعد بجوارها ، وخلال برهة سألته بصوت خفيض :

"الأمر الذي حدثتك عنه في تلك الليلة... هل نسيته ؟"

"لا يستطيع الرجل نسيان مثل هذه الأمور في هذه الدنيا . وهكذا شعرت أن الأحوال لم تكن أفضل بيننا بعد معرفتي بالأمر . رغم أن الرب يعرف يا راغنفريد أني كافحت بشدة حتى لا تلاحظي الكثير من ذلك..."

"لم أعرف أنك كنت تفكر كثيراً بهذا الأمر ."

التفت بحدة نحو زوجته ونظر إليها . ثم قالت راغنفريد :

"كان ذلك خطأي أن الأمور ساءت بيننا يا لافرانس . أظن أنه بما أنك لم تستطع أن تكون معي من كل النواحي كما كنت في السابق -بعد تلك الليلة- إذن فلا بد أنك تهتم بي أقل مما كنت أعتقده . لو أنك أصبحت زوجاً قاسياً معي ، لو أنك ضربتني ، حتى لو فعلت ذلك مرة واحدة حين كنت ثملاً... عندها كنت سأتحمل أساي وندمي على نحو أفضل . ولكنك تعاملت مع الأمر بخفة...!"

"هل اعتقدت أني تعاملت مع الموضوع بخفة ؟"

جعلتها الرجفة الضعيفة في صوته يجنّ من التوق . تاقت إلى أن تغرق نفسها فيه ، لتعرف الأعماق المضطربة التي كان صوته يأتي منها متوتراً ومكافحاً . التهبت :

"أجل ، لو أخذتني بين ذراعيك مرة واحدة ، ليس لأني كنت زوجتك التي تزوجتها حسب الطقوس المسيحية والتي وضعوها هم إلى جوارك ، ولكن كوني الزوجة التي كنت تتوق لها وتناضل لتكسبها... ما كنت لتكون معي أبداً كأنما لم أنطق بتلك الكلمات إطلاقاً ."

فكر لافرانس قليلاً :

"كلا . ربما لا . كلا ."

"هل كنت سعيداً بالخطيبة التي منحت لك كما كان سايمون سعيداً بكريستين ابنتنا..."

لم يجب لافرانس . وبعد قليل قال برقة كأنما ضد إرادته وبخوف :

"لم ذكرت... سايمون ؟"

"لا ، ما كان سيخطر في بالي أن أشبهك بالآخر" ، أجابت زوجته وهي أيضاً مضطربة وخائفة إنما تحاول الابتسام : "أنت وهو لا تشبهان بعضكما البعض أبداً ."

نهض لافرانس على قدميه وسار بضع خطوات ، بقلق... ثم قال بصوت أخفض :

"لن يتخلى الرب عن سايمون ."

سألته زوجته : "هل بدا لك الأمر هكذا لأن الرب قد تخلى عنك ؟"

"لا ."

"ما كانت أفكارك في تلك الليلة التي جلسنا فيها هناك في الحظيرة... حين علمت خلال ساعة واحدة أننا نحن اللتين كنت تحبهما أشد الحب ، غششناك كل ذلك الغش..."

قال الرجل : "لم أفكر كثيراً على ما أعتقد ."

استأنفت زوجته قائلة : "و منذ ذلك الحين رحت تفكر فيه دائماً كما قلت..."

التفت لافرانس بعيداً عنها . رأت الحمرة تضرج عنقه الذي سفعته الشمس .

قال بصوت خفيض جداً : " كنت أفكر بكل المرات التي غششتُ فيها المسيح ."

نهضت راغنفريد... وقفت ساكتة للحظة قبل أن تجرؤ على التقدم من زوجها وتضع يديها على كتفيه . حين وضع ذراعيه من حولها ، وضعت جبينها على صدره ، فأحس أنها كانت تبكي . ضمها إليه وضغط بوجهه على رأسها .

قال بعد وهلة : "الآن يا راغنفريد سنذهب لنرتاح ."

مضيا معاً نحو الصليب ، انحنيا أمامه ، ثم رسما إشارة الصليب . تلا لافرانس صلاة المساء . تلا الصلاة بصوت خفيض وواضح وبلغة الكنيسة ، ورددت زوجته الكلمات من بعده .

خلعا ملابسهما . اضطجعت راغنفريد على الجانب الداخلي من السرير... كانت الوسائد أخفض بكثير مما كانت عليه قديماً ، لأن زوجها في

هذه الأيام الأخيرة كان يعاني من الدوخة . أغلق لافرانس باب الغرفة بالرتاج والقضيب الحديدي ، ورمى رماداً فوق النار ، وأطفأ الشمعة وتمدد إلى القرب منها . تمددا في العتمة ، وذراعاهما يتلامسان . وبعد قليل فإن أصابع أيديهما تشابكت .

فكرت راغنفريد إيفارسداتر : كانت تلك أشبه بليلة زفاف جديدة ، وهي ليلة زفاف غريبة . تدفقت السعادة والتعاسة معاً ورفعتاها فوق موجات قوية جداً إلى حد أنها شعرت في داخلها الآن بأول انحلال لجذور روحها... لقد جذبتها يد الموت... لأول مرة .

قالت له برقة : "كلمني يا لافرانس . أنا مرهقة جداً..."

همس الرجل :

"تعالوا إليّ يا جميع المتعبين وثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (إنجيل متى) هكذا قال الرب . "

مرّر ذراعه من حول كتفيها وضمها إلى جنبه . وقد بقيا لفترة قصيرة والوجنة على الوجنة ثم قالت هي برقة :

"لقد صليت لأم الرب أن تستجيب لدعائي بألاّ أعيش من بعدك يا زوجي أياماً كثيرة ."

لمست شفتاه ورموشه خدها في العتمة بخفة تشابه خفة لمسة أجنحة الفراش .

"يا راغنفريدي ، يا راغنفريدي..."



٨

بقيت كريستين في بيتها في هوسابي هذا الخريف والشتاء ولم ترغب في الذهاب إلى أي مكان... وكان السبب الذي قدمته هو أنها مريضة . ولكنها كانت متعبة فحسب . متعبة كما لم تكن سابقاً طوال حياتها... متعبة من كونها مرحة ومتعبة من الحزن ومتعبة من التأمل أكثر من أي شيء آخر .

سيكون الأمر أفضل حين تكون قد ولدت الطفل الجديد ، كما فكرت... كانت تتوق له كثيراً ، كأنما سيكون منقذها . إن كان صبياً ، ومات أبوها قبل ولادته ، سيحمل اسمه . وفكرت كيف أنها ستحب هذا الطفل وسوف ترضعه من ثدييها ، لقد مرّ زمن طويل منذ أن أرضعت حتى أنها تستطيع أن تبكي من الشوق حين تفكر في أنها سرعان ما سيكون لديها طفل رضيع بين ذراعيها مرة أخرى .

جمعت أبناءها من حولها مجدداً كما اعتادت أن تفعل في الأيام الماضية ، وحاولت أن تكون تربيتهم أكثر انتظاماً وانضباطاً . لقد شعرت أنها كانت في هذا الأمر تطيع رغبة والدها ، وقد جلب هذا بعض السلام إلى روحها . كان سيرا آيليف قد بدأ الآن يعلم ناكفه وبيورغولف الأحرف

الأبجدية واللغة اللاتينية ، وغالباً ما كانت كريستين تجلس في منزل الكاهن حين يكون الصبيان هناك للدرس . ولكنهما لم يظهرا كتلميذين ظمأ كبيراً للمعرفة ، وكان كل الأولاد طائشين وعنيدين ، باستثناء غاوته وحده ، لذلك كان "مدلّل أمه" .

عاد إرلند من الدانمارك في موسم عيد كل القديسين بمعنويات عالية . كان قد حظي بأعظم درجات الشرف من قبل الدوق وقريبته الليدي انجبيورغ . كانا قد شكراه من القلب على هداياه من الفضة والفرو . شارك إرلند في المبارزات وطارد الأيائل من ذكور وإناث . وحين افترق عنهما ، منحه السير كنوت حصاناً إسبانيا أسود اللون ، بينما أرسلت الليدي تحيات ودية وكلاباً سلوقية فضية اللون إلى زوجته . اعتبرت كريستين أن هذه الكلاب الأجنبية تبدو غير مخلصة وخائنة ، وكانت تخشى من أن تؤذي أولادها . وراح الناس في كل أنحاء الريف يتحدثون عن الفحل القشتالي . كان الأمر صحيحاً ، فقد كان إرلند يبدو رائعاً على الحصان ذي السيقان الطويلة الخفيفة البنية ، ولكن مثل هذا الحيوان ما كان يلائم هذه البلاد الشمالية ، والرب وحده يعرف كيف يستطيع الحصان أن يدبر أموره في الممرات الجبلية . وعلى أي حال ، فإن إرلند راح يشتري الآن ، وكلما تجول بالحصان ، أكرم الأفراس السوداء ، حتى أضحت لديه مزرعة لاستيلاد الخيل من أجمل المزارع . في الأيام الأخرى اعتاد إرلند نيكولاوسون أن يمنح جياد الركوب خاصته أسماء أجنبية جميلة : "بلكولور" و"بايارد" وماشابههما من الأسماء ، أما حصانه فكان يقول إنه نادر إلى حد أنه ليس في حاجة إلى مثل هذه الزينة... سيكون اسمه "سوتن" (السخام بالنرويجية) وهذا الاسم البسيط يكفيه .

غضب إرلند كثيراً لأن زوجته كانت ترفض الذهاب معه إلى أي مكان . لم يلاحظ مرضها -لم تكن تدوخ أو تتقيأ هذه المرة- ولم تكن هناك علامة واضحة عليها بعد -و بدا أن شحوبها وإرهاقها ناجمان عن جلوسها الدائم داخل البيت وهي تفكر وتتأمل في أخطائه . وصل موسم عيد الميلاد وثارت بينهما شجارات حامية . لم يعد إرلند الآن يأتي لاحقاً ليطلب المغفرة عن مزاجه العنيف ، كما اعتاد أن يفعل دائماً في السابق . حتى الآن كان يفكر أنه كلما تشاجرا يكون الخطأ خطأه . كانت كريستين طيبة . كانت دائماً على حق . ولو كان قلقاً ومنزعجاً في بيته ، فذلك يعود إلى أنه كان من طبيعته أن يقلق مما هو جيد وحق حين يكون لديه الكثير منهما . ولكنه في الصيف الماضي لاحظ أكثر من مرة أن حماه كان يؤازره ويبدو وكأنه يعتبر أن كريستين تفتقر إلى الرقة والصبر اللذين يليقان بالزوجات . ثم خطر له أنها كانت تحمل الأمور محمل الجد على نحو يتسم بضيق الأفق ولم تكن تغفر له بسهولة هفواته الصغيرة التي لم يكن سوء النية من ورائها . ودائماً ما كان يرجو منها الغفران حين يكون لديه الوقت ليفكر..و كانت تقول له إنها غفرت له ، ولكنه كان يلاحظ لاحقاً أن الأمر كان يُكتم ولا يُغفر . لذلك أصبح يغيب كثيراً عن البيت ، وكان غالباً ما يصطحب ابنته مارغريت معه . كانت تربية الفتاة واحداً من الأمور التي تسبب لهما اختلافاً دائماً . لم تكن كريستين تذكر الموضوع إطلاقاً ، ولكن إرلند كان يعرف ما تفكر هي به ؛ والآخرون كذلك . كان يتعامل مع مارغريت كأنما كانت طفلته الشرعية ، وكان الناس يرحبون بها وكأنها كذلك حين ترافق أباها وزوجته . في زفاف رامبورغ كانت واحدة من وصيفات العروس ، وقد حملت إكليل غار ذهبياً على شعرها المتطاير . لم ينل هذا رضا كثير من النساء ، ولكن لافرانس أقنعهن وكذلك سايمون أنه ليس على أحد أن يتفوه بأي شيء

مخالف لذلك أمام إرلند أو يذكره أمام الفتاة نفسها... لم يكن ذنب الطفلة الجميلة أنها كانت سيئة الحظ إلى هذا الحد في ولادتها . ولكن كريستين لاحظت أن إرلند كان قد خطط لتزويج مارغريت من مرشح لرتبة فارس يخدم في الجندية ، وكان هو يعتقد أنه بعد أن حقق ما حققه من مركز ، فسيكون قادراً على إنجاز هذه المهمة ، رغم أن الفتاة ولدت من علاقة زنا ، وسيكون أمراً صعباً أن يكسب لها مكانة ثابتة بين كبار الناس . وربما سيتم ذلك صدفة لو شعر الناس عن حق بأن إرلند يود أن يحافظ على ويزيد من سلطة وثروة بيته . ولكن ورغم أن إرلند كان محبوباً ومحترماً على نحو ما ، فإن الأمر كان وكأنما ما كان أحد ليصدق أن حظوظ هوسابي الطيبة ستدوم . وهكذا كانت كريستين تخشى أن يكون مصمماً على تنفيذ خططه فيما يخص مارغريت للوصول إلى نتيجة طيبة . ورغم أنها لم تكن تحب مارغريت كثيراً ، ومع ذلك فقد كانت تشفق على الفتاة وتخشى ذلك اليوم الذي لا بد أن يتحطم فيه كبرياؤها... إن كان عليها أن تقبل بعريس أكثر ضعة بكثير ممّا رباها أبوها على التطلع إليه ، وأن تعيش بطريقة أخرى في الحياة من تلك التي عوّدها عليه .

هذا ما كان عليه الحال حين حضر بعد "عيد تطهير مريم العذراء" (٢شباط / فبراير) ثلاثة رجال من فورمو إلى هوسابي . كانوا قد عبروا الجبال على المزالج مسرعين وقد جلبوا لإرلند رسائل من سايمون أندرسون . كتب سايمون أن حماهما كان مريضاً جداً الآن إلى حد أنه ما كان يؤمل له أن يعيش طويلاً ، وأن لافرانس طلب منه أن يرسل في طلب إرلند ليحضر إلى "سيل" إن كان ذلك ممكناً . كان يود أن يخاطب صهريه عن كل الأمور التي يتوجب ترتيبها بعد رحيله .

راح إرلند يتجول وهو يختلس النظر إلى زوجته . كانت على وشك أن تلد الآن ، وكانت شاحبة نحيلة الوجه -بدت حزينة جداً- في كل لحظة كانت الدموع تنهمر من عينيها . بدأ يندم على سلوكه تجاهها في الشتاء . لم يكن مرض أبيها أمراً غير متوقع ، ولو كانت مضطرة لتخفي حزنها السرّي ، فقد استطاع الآن أن يفهم سبب تصرفها اللاعقلاني .

كان يستطيع القيام بالرحلة لوحده إلى "سيل" والعودة بسرعة كافية ، مستخدماً الزلاجات عبر الجبال . ولكنه لو اصطحب زوجته لكانت رحلته بطيئة ومرهقة . وعندها سيضطر إلى البقاء هناك إلى ما بعد "آرمسماستر" في فترة الصوم الكبير ثم يحدد موعداً للاجتماع مع مأموريه هناك . وكانت هناك بعض الاجتماعات أيضاً عليه حضورها بنفسه . قبل أن يتمكنوا من الانطلاق سيكون موعد ولادتها قد أزف... وكريستين لا تستطيع احتمال السفر بالبحر حتى حين تكون في أتم صحة . ولكنه كان كارهاً أن يفكر في عدم رؤيتها لأبيها قبل أن يموت . في المساء حين كانا مضطجعين ، سألها إن كانت تجرؤ على القيام بالرحلة .

و قد بدا له أنه تلقى مكافأته حين رمت بنفسها بين ذراعيه ، وهي مترعة بالامتنان ، وبالندم على عدائيتها تجاهه في الشتاء . رق قلب إرلند كما هي حاله دائماً حين يسبب حزناً لامرأة وعليه أن يراها حزينة أمام عينيه . كما أنه تحمل لاحقاً خيالات كريستين . قال منذ البداية إن الأطفال لن يصطحبوها . ولكن الأم أصرت على أن ناكفه كان كبيراً الآن ، وسيكون أمراً جيداً له أن يحضر رحيل جده . قال إرلند : لا . ثم كانت هي متأكدة من أن إيفار وسكوله كانا صغيرين جداً على أن يتركا في رعاية الخادمات . كلا ، قال الأب . ثم كان لافرانس شديد الولع بغاوته . كلا ، قال إرلند

-فالأمر سيكون صعباً بما فيه الكفاية- وهي على تلك الحال من الحمل- على راغنفريد ، أي أن يكون لديها ولادة في البيت بينما زوجها على فراش المرض... وكذلك سيكون الأمر صعباً عليهما في رحلة العودة ومعهم طفل حديث الولادة . إما أن تعطي الطفل إلى مرضعة في إحدى مزارع لافرانس ، أو عليها المكوث في يورونِدغارد حتى الصيف... ولكن سيكون عليه أن يحضر قبلها إلى البيت . كان عليه أن يكرر كل هذا أمامها مرة إثر أخرى . ولكنه حاول جاهداً أن يتكلم بهدوء ومنطق .

ثم فكر في أن عليه أن يأخذ من نيداروس بعض الأشياء التي قد تحتاجها أمها في حفلة الشراب ما بعد الدفن : نبيذ وشمع ودقيق القمح والدخن وما شابه . ولكنهم استعدوا أخيراً للانطلاق ، ووصلوا إلى يورونِدغارد في اليوم السابق على "قداس جرترود" .

•

و لكن كريستين وجدت الأمر مختلفاً عما توقعته في بيت أهلها .

كان من شأنها أن تفرح من كل قلبها لأنها مُنحت الفرصة لترى أباها مرة أخرى . وحين تذكرت فرحته بقدومها وكيف شكر إرلند على ذلك ، فقد كانت سعيدة بالفعل . ولكنها شعرت أنها أصبحت مبعدة الآن عن كثير مما يجري وهذا ما آلمها .

كان قد تبقى شهر على ولادتها ، وحظر عليها لافرانس أن تشارك في تمريضه والعناية به . لم يسمحوا لها بالسهر عليه ليلاً مع الأخريات اللواتي كن يتناوبن على ذلك ، ولم تسمح لها أمها بتحريك أصبع واحدة لتقدم العون رغم كل ضغط العمل . كانت تجلس إلى القرب من أبيها طوال النهار ، ولكن

نادراً ما كانا لوحدهما في أي وقت . وفي كل يوم كان الضيوف يحضرون إلى البيت -أصدقاء يأتون لزيارة لافرانس بيورغولفسون مرة أخرى خلال حياته . كانت هذه الزيارات تسرّ أباها ، رغم أنها كانت ترهقه أشد الإرهاق . كان يتحدث بحماسة ومرح مع الجميع ، رجالاً ونساء ، أغنياء وفقراء ، شباناً وشيباً -يشكرهم جميعاً على صداقتهم ، ويطلب منهم أن يصلوا لأجل خلاص روحه- ونرجو من الله أن نلتقي في يوم النعيم!- في الليل ، حين تكون أسرته فحسب معه ، كانت كريستين تضطجع في القاعة العليا وهي تحدق إلى العتمة ، ولا تستطيع النوم من تفكيرها في رحيل أبيها وحماقة قلبها وخبثه .

كانت نهاية لافرانس تقترب بسرعة . لقد بقي محافظاً على تماسكه حتى ولدت رامبورغ طفلتها ولم تعد هناك حاجة لراغنفريد أن تمكث كثيراً في فورمو . وقد طلب مرة أن يؤخذ إلى هناك ليرى ابنته وحفيدته التي سميت أولفهيلد . ولكنه أوى إلى السرير بعد ذلك ولم يكن أمراً وارداً أن ينهض منه مجدداً .

كان يضطجع في الغرفة الكبيرة تحت القاعة العليا . كانوا قد رتبوا له نوعاً من السرير هناك فوق مقعد الكرسي العالي ، فهو لم يكن يحتمل أن يبقى رأسه عالياً على الوسادة -فهو يشعر فوراً بالدوخة وكانت تنتابه نوبات إغماء ونوبات قلبية . لقد توقفوا عن فصده ، بعد أن اضطروا إلى القيام بذلك خلال الخريف والشتاء حتى أنه أصبح مستنزف الدم . كان لا يقدر سوى على تناول القليل من الطعام والشراب .

كانت ملامح أبيها الدقيقة الوسيمة حادة الآن ، أما سمرته فقد غادرت وجهه الذي كان ذا لون نضر سابقاً . كان أصفر الآن كالعظام ، وكانت شفتاه

وزوايا عينيه باهتة اللون خالية من الدم . أما الشعر الكثيف ، بلونه التبني المرشوش بالأبيض ، فكان مرسلاً وذابلاً لا قوة فيه فوق غطاء الوسادة المطرز بالأزرق ، ولكن ما غيّره أعظم التغيير كان اللحية الخشنة الرمادية على أسفل وجهه والعنق العريض الطويل ، حيث كانت الأوتار بارزة كالحبال القاسية . كان لافرانس دائماً حريصاً على حلاقة لحيته قبل كل يوم مقدس . أما جسده فكان قد هزل الآن إلى مجرد هيكل عظمي . ولكنه قال إنه مرتاح طالما بقي متمدداً دون أن يتحرك إلا قليلاً . وكان مرحاً وسعيداً طوال الوقت .

كانوا ينحرون الذبائح ويخمّرون الجعة ويخبزون تحضيراً لوليمة الدفن . كما حضروا أغطية لكل الأسرة وعملوا عليها باهتمام... كل ما كان ممكناً تحضيره الآن تم تحضيره ، حتى يكون كل شيء هادئاً وساكناً حين يأتي النزع الأخير . لقد كان أمراً يسرّ لافرانس إلى حد كبير أن يسمع عن كل هذه التحضيرات... لن تكون آخر ولائمه أدنى من كل الولائم التي أقيمت في يورونْدغارد . سيغادر الإشراف على أراضيه وناسه بشرف وعبادة . في أحد الأيام أراد أن يرى البقرتين اللتين كانتا ستلحقان بموكب جنازته ، كهدية إلى سيرا آيريك وسيرا سولموند . وقد اقتيدتا إلى القاعة . كانتا قد غذيتا تغذية مضاعفة طوال فصل الشتاء ، وكانتا باختصار رائعتين وسمينتين كبقرات السايتر في عيد قداس أولاف ، رغم أنهم كانوا الآن في وسط موسم الندرة في الربيع . كان هو الذي ضحك أكثر من الجميع حين سقطت إحدى البقرتين على أرض القاعة... لكنه كان يخشى أن تكون زوجته مرهقة تماماً . كانت كريستين تظن بأنها ربة بيت ممتازة هي نفسها... وكانت معروفة بهذا الاسم في البيت في سكاون . ولكن بدا لها أنها لا شيء بالمقارنة مع أمها . لم يكن هناك من هو قادر على فهم كيف كانت راغنفريد

قادرة على القيام بكل ما تقوم به... ومع ذلك بدت وكأنها لا تبتعد كثيراً عن زوجها ، وكانت تشارك في السهر عليه في كل ليلة .

كانت تقول وهي تضع يدها في يد زوجها : "لا تقلق عليّ يا زوجي . بعد أن تموت ، فأنت تعرف أني سأرتاح تماماً من كل هذه الهموم ."

كان لافرانس بيورغولفسون قد اشترى قبل بضع سنوات قبراً في كنيسة الأخوة الواعظين في هامار ، وكانت راغنفريد إيفارسداتر مصممة على حمل جثته إلى هناك والإقامة هناك إلى جواره . كانت ستقيم هناك كشخص من العامة في نزل يمتلكه الرهبان في البلدة . ولكن في البداية كان التابوت سينقل إلى كنيسة أولاف هنا في البيت ، مع عطايا كبيرة إلى الكنيسة والكهنة . أما حصانه فكان سيقاد إلى هناك لاحقاً حاملاً درعه وأسلحته ، وكانت هذه ستشترى من قبل إرلند لقاء خمسة وأربعين ماركاً من الفضة . وربما سيعطى أحد أبنائه من كريستين هذه الأشياء... وبالاختيار سيكون ذلك هو الطفل الذي ستلده قريباً ، إن كان ذكراً... وربما سيكون في أحد الأيام لافرانس أوف يورونداغارد ، كما قال الرجل المريض مع ابتسامة . في الطريق عبر غودبراندسدال أيضاً ، كان جسده سيمرر على بعض الكنائس خلال الليل... وكل هذه الكنائس مذكورة في وصية لافرانس مع هدايا مالية وشموع .

•

أحست كريستين بالدوار ، ولكن السبب كان الأسى والقلق في روحها . فهي لم تكن قادرة على أن تخفي الأمر عن نفسها... كان يؤلمها أكثر وجودها لفترة أطول في البيت . كان قلبها يؤلمها لأنها ترى الآن أن

أباها إذ راح يقترب من حتفه ، أصبحت زوجته هي الأقرب إليه من الجميع .

لطالما سمعت أن حياة والديها معاً كانت نموذجاً للزواج اللائق الفاضل من حيث الاتحاد والصدق والود . ولكنها شعرت ، دون أن تفكر بالأمر ، أنه كان هناك شيء ما على أي حال يقف بينهما ، ظل غير أكيد ، إلا أنه كان يلقي بثقله على الحياة في بيتهم ، رغم أنهما كانا يتعايشان في سلام وحسن معاملة . لم يعد الآن من ظل بين والديها . كانا يتحادثان ببساطة وهدوء معاً ، وخاصة عن الأمور الصغيرة اليومية . ولكن كريستين شعرت أن هناك شيئاً ما جديداً في عيونهما وفي لهجة صوتيهما . لقد لاحظت أن أباها كان يفتقد زوجته دائماً حين لا تكون إلى القرب منه . حين كان يحاول إقناعها بنيل قليل من الراحة ، كان يمكث منتظراً بقلق . وحين تدخل ، فكأنما كان السلام والسعادة يأتيان معها إلى الرجل المريض . في أحد الأيام سمعتهما يتحدثان عن أطفالهما المتوفين . ولكنهما بدت عليهما السعادة . وحين وصل سيرا آيريك وراح يقرأ للافرانس ، كانت راغنفريد تجلس دائماً إلى القرب منهما ، ثم غالباً ما كان يمسك بيد زوجته ويداعب أصابعها ويدير الخواتم فيها .

كانت تعرف أن أباها يحبها كما من قبل . ولكنها لم تكن قد رأت بوضوح سابقاً أنه كان يحب أمها . وقد فهمت كم هو مختلف حب الرجل لزوجته التي عاشت معه حياة طويلة في السراء والضراء عن حبه لابنة لم تشاركه سوى أفراحه وأخذت منه حنان دواخل قلبه . وقد بكت وصلت للرب وللقديس أولاف طلباً للمساعدة... فقد تذكرت ذلك الوداع الدامع والرقيق في الخريف الماضي على الجبال ، ولكن لا يمكن أن يكون صحيحاً أنها راحت تتمنى الآن لو كان ذلك الوداع هو الأخير!

•

في اليوم الذي يبدأ فيه نصف سنة الصيف (١٤ نيسان / أبريل) ولدت

كريستين ابنها السادس ، وفي اليوم الخامس بعد الولادة كانت قد نهضت من فراشها ومضت إلى القاعة لتجلس مع أبيها . لم يعجب لافرانس هذا... فلم تكن العادة في منزله أن تقوم امرأة نفساء بالخروج إلى الهواء الطلق قبل أن تدخل الكنيسة . قال إن عليها على الأقل ألاّ تعبر الساحة إلا حين تكون الشمس في أعالي السماء . كانت راغنفريد تصغي وهو يتحدث عن هذا :

قالت : "كنت أفكر الآن يا زوجي بأنك لم تلق منّا نحن نساء بيتك إلا القليل من الطاعة ، وأننا غالباً ما كنا نفعل ما نريده ."

سألها زوجها ضاحكاً : "أما كنت تعرفين ذلك من قبل ؟ لم تكن إذن تلك غلطة أخيك تروند... ألا تذكرين أنه كان دائماً يلومني قائلاً إني امرأة عجوز لأني أعطيكن اليد العليا أنتن أيتها النساء ؟"

كان سيرا آيريك يأتي يومياً ليعود الرجل المحتضر . كان بصر كاهن الأبرشية العجوز قد أصبح حسيراً تقريباً ، ولكنه كان يقرأ قصة الخلق باللغة النرويجية والأناجيل والمزامير باللاتينية بوضوح وتدفق كما كانت عادته ، فقد كان يعرف هذه الكتب جيداً جداً . ولكن لافرانس كان قد حصل على كتاب ضخم قبل سنوات من ساستاد ، وكان سعيداً في أن يقرأ عليه منه... إلا أن سيرا آيريك ما كان قادراً على القراءة فيه ، بسبب بصره الحسير . لذلك كان الأب يرجو من كريستين أن تحاول القراءة منه . وحين اعتادت على القراءة منه ، فقد لاحظت أنها قادرة على القراءة فيه جيداً ، وكانت تجد في ذلك متعة كبيرة حيث أصبح لديها ما تقوم به لأجل أبيها .

كان هذا الكتاب يحوي أشياء مثل الحوارات بين "الخوف" و"الشجاعة" وبين "الإيمان" و"الشك" وبين "الجسد" و"الروح" . كما كان يحوي حكايات قديمة عن رجال مقدسين ، وأكثر من حكاية عن أشخاص هاموا

وهم أحياء في ملكوت الروح وعرفوا آلام مكان العذاب ومحنة نار المطهر وسعادة المملكة السماوية . كان لافرانس يتحدث الآن كثيراً عن نار المطهر التي كان ينتظر دخولها سريعاً ، ولكنه لم يكن خائفاً . كان يأمل في الحصول على سلوان كبير من أصدقائه ومن توسطات الكهنة ، ويثق بشدة بأن القديس أولاف والقديس توماس سيمنحانه القوة في آخر محاكماته هذه ، كما أحس غالباً بأنهما كانا يدعمانه في حياته . لقد سمع دائماً أن ذاك الذي يكون ثابت الإيمان لن يضيع ولو للحظة واحدة السعادة الأبدية التي ستستمر بها روحه عبر النيران المحرقة . لاحظت كريستين أن أباها يفكر بسعادة بما كان آتياً ، وكأنه امتحان لرجولته . تذكرت على نحو غامض من أيام طفولتها ذلك اليوم الذي انطلق فيه رجال الملك المحلفون من "ديل" إلى الحرب ضد الدوق آيريك... لقد بدا لها الآن أن أباها كان يتطلع إلى موته كما كان يتطلع آنئذ إلى المغامرات والمعارك .

في أحد الأيام قالت له إنها تعتقد أنه مرّ بامتحانات كثيرة في هذه الحياة حتى أنه سيجتاز امتحانات العالم الآخر بسهولة . أجابها لافرانس : لا يبدو الأمر هكذا له الآن . لقد كان رجلاً غنياً ، وقد ولد لأسرة نبيلة . لقد عرف الأصدقاء وتقدم جيداً في هذا العالم . "إن أعظم أحزاني كان هو أني لم أر وجه أمي ، وأني فقدت أطفالي... ولكن سرعان ما سوف تنقضي هذه الأحزان . وهكذا سيكون الحال بالنسبة للأمور الأخرى التي أثقلت عليّ خلال حياتي... لم تعد تلك أحزاناً ."

غالباً ما كانت أمها معهما خلال قراءة كريستين . وبعض الأغراب أيضاً . وكان يسعد إرلند الآن أن يجلس ويصغي . كان هؤلاء جميعاً يستمتعون بالقراءة ، ولكنها كانت هي نفسها مهزوزة ويائسة... وقد فكرت

في قلبها أنها كانت تعرف جيداً ما هو الجيد والحق ، ومع ذلك فقد كانت مصممة دائماً على اللاورع . وكانت تخشى على طفلها الصغير... فهي لا تتجرأ إلا بالكاد على النوم ليلاً حتى لا يموت وثنياً . كان معها امرأتان تسهران باستمرار للمراقبة ، ومع ذلك كانت تخشى أن تغفو هي نفسها . كان أطفالها الآخرون كلهم معمدين قبل أن يبلغوا ثلاثة أيام من أعمارهم . ولكنهم كانوا قد أجلوا تعميد هذا الأخير ، حيث أنه كان طفلاً كبيراً قوياً ، وكانوا يريدون أن يسموه باسم لافرانس... وفي "ديل" هنا كان الناس يحافظون بإصرار على عادة عدم تسمية الأطفال باسم أشخاص أحياء . في أحد الأيام وبينما كانت جالسة قرب أبيها والطفل في حجرها ، رجاها أن تفك عنه قماطه . فهو لم يكن قد رأى سوى وجه الطفل الصغير . وقد فعلت ذلك ووضعت الصبي على ذراع أبيها . ربت لافرانس على الصدر الصغير المستدير وأخذ بيده واحدة من اليدين المنقبضتين :

"من الغريب يا قريبي أنك ستحمل درع صدري... وأنت لا تملأ فيه الآن ما تملؤه دودة في جوزة فارغة ، وهذه اليد أمامها طريق طويل تقطعه قبل أن تستطيع الإمساك بقراب سيفي . حين يرى المرء مثل هذا الوغد الصغير ، سيفهم تقريباً أن إرادة الرب لم تكن أن نحمل السلاح . ولكنك لن تكبر كثيراً قبل أن تحمل السلاح أيها الصغير . إن قلة قليلة بين الرجال تولد من النساء وتحمل حباً كبيراً للرب حتى تنكر على أنفسها حمل الأسلحة . لم أحمل مثل هذا الحب للرب ."

تمدد قليلاً وهو ينظر إلى الطفل الوليد .

قال ضاحكاً : "تحملين أطفالك تحت قلب محب يا كريستيني... الصبي كبير وسمين ، ولكنك شاحبة ونحيلة كالعصا ، وهكذا كانت حالك كما تقول

أمك حين ولدت كل واحد منهم . كانت بنت رامبورغ صغيرة ونحيلة ، ولكن رامبورغ متوردة كزهرة ."

قالت كريستين : "و لكن يبدو لي أمراً غريباً أنها لا ترضع ابنتها بنفسها ."

"سايمون لا يريدها أن تفعل ذلك... يقول إنه لا يستطيع أن يرد لها هديتها بأن يجعلها ترهق نفسها . تذكري أن رامبورغ لم تكن تبلغ السادسة عشرة... لم تكن قد أبلت خف الطفولة إلا بالكاد حين أنجبت هذه الطفلة... ولكنها لم تعانِ من أي دوار من قبل... ليس أمراً عجيباً أن تكون ذات صبر نافذ . أما أنت فكنت امرأة ناضجة حين تزوجت يا كريستيني ."

و فجأة انهارت كريستين باكية بجنون... لم تكن تعرف إلاّ بالكاد سبب بكائها . ولكنه كان أمراً صحيحاً تماماً... لقد أحبت أطفالها من أول ساعة عرفت فيها أنها تحملهم في رحمها . كانت تحبهم وهم يسببون لها القلق ويثقلون عليها ويجعلونها سيئة المظهر . لقد أحبت وجوههم الصغيرة من أول لحظة رأتهم فيها ، وأحبتهم في كل ساعة وهم يكبرون ويتغيرون . ولكن لم يحببهم أحد عن حق معها ، أو تمتع بهم معها... لم يكن ذاك أسلوب إرلند رغم أنه كان مغرماً بهم إلى حد كاف . ولكنه كان يعتقد أن ناكفه وصل مبكراً جداً ، ومع وصول كل واحد منهم ، كان يفكر أنهم أصبحوا أكثر ممّا هو ضروري . وتتذكر على نحو غامض أفكارها حول ثمرة الخطيئة في أول شتاء قضته في هوسابي : عرفت أنها كانت مضطرة لتذوق مرارتها ، رغم أن ذلك كان مخالفاً لما كانت تخشاه . كان شيء ما قد جرى على نحو منحرف بينها وبين إرلند في تلك الأيام الأولى ، وتبيّن أنه ما عاد ليستقيم مجدداً .

سأل الأب بهدوء بعد وهلة : "ما الأمر الآن يا كريستين ؟" لم تستطع أن تحكي له كل هذا . لذلك قالت ما أن استطاعت الكلام من شدة البكاء :

"ألا يجب أن أحزن يا أبي ، وأنت مضطجع هنا... ؟"

و أخيراً ، حين ضغط عليها لافرانس ، تحدثت عن خشيتها على ابنها غير المعمّد . وهنا أعطى أوامره مباشرة بأن يؤخذ الطفل إلى الكنيسة في اليوم المقدس التالي... قال إنه لا يعتقد أن هذا سيقتله قبل الموعد الذي حدّده له الرب .

قال ضاحكاً : "و علاوة على ذلك ، فقد مرّ علي زمن كاف وأنا راقد هنا . إن حضورنا ورحيلنا (عن هذا العالم) أمر حزين يا كريستين... فنحن نولد بالمرض وبالمرض نموت ، إن لم نمت فجأة . حين كنت شاباً كان يبدو لي أفضل موت هو أن يقتل المرء في ساح الوغى . ولكن الرجل الآثم قد يكون في حاجة إلى سرير المرض... رغم أني لا أستطيع أن أشعر الآن أن روحي ستنمو أقوى من خلال وجودي هنا مضطجعاً..."

و هكذا عمّد الطفل في يوم الأحد التالي ، وأعطي اسم جده لأمه . وقد وُجّه اللوم بشدة في الريف إلى كريستين وإرلند بسبب هذا ، رغم أن لافرانس بيورغولفسون قال لكل من زاره أن ذلك قد تم بموجب رغبته : ما كان يرغب بوجود وثني في منزله حين يأتي الموت إلى بابه .

بدأ لافرانس يخشى الآن أن يأتيه الموت في غمرة بذار الربيع ، مما يفرض صعوبات كبيرة على الناس الراغبين في المشاركة في جنازته باللحاق بموكبها . ولكن في صباح أحد الأيام ، وبعد أربعة عشر يوماً من التعميد ، دخل إرلند إلى كريستين في مبنى الحياكة القديم ، حيث كانت تنام منذ ولادة الصبي . كان شطر كبير من الصباح قد انقضى ، بعد وقت الغداء ،

ولكنها كانت لا تزال في الفراش ، فقد كان الصبي قلقاً . كان إرلند شديد التأثر ، قال لها بهدوء ومودة إن عليها أن تنهض وتأتي إلى أبيها . كان لافرانس قد عانى من نوبات قلبية مخيفة عند الفجر ، وهو منذ ذلك الحين يعاني من نوبات إغماء طويلة : كان سيرا آيريك معه الآن وقد سمع اعترافه للتو .

كان ذلك هو اليوم الخامس بعد قداس هالفارد . كان المطر يهطل برقة إنما باستمرار . حين خرجت كريستين إلى الساحة ، وصلتها نفحة هواء من الجنوب تحمل رائحة الحقول المحروثة والمسمدة حديثاً . كان الريف يقبع بنياً تحت مطر الربيع ، والجو أزرق بين الجبال العالية ، وراح الضباب ينجرف على امتداد نصف المسافة صعوداً إلى جوانب الجبال . وصلها رنين أجراس من الدغل على امتداد النهر الرمادي الطافح... كانت قطعان الماعز قد أطلقت وراحت تقضم من الغصينات المزهرة . كان ذاك هو الطقس الذي كان يفرح قلب أبيها دائماً ، نهاية الشتاء والبرد للناس والقطعان ، فالحيوانات ستتحرر من الحظائر المعتمة الضيقة والعلف القليل .

لاحظت من وجه أبيها أن الموت أصبح وشيكاً جداً . من حول منخريه كانت البشرة بيضاء كالثلج وقد ازرقت شفتاه والدائرتان من حول عينيه الكبيرتين ، وشعره قد تجمع في خصل مخضلة فوق جبينه الندي . ولكنه كان واعياً تماماً الآن ، ويتحدث بوضوح ، إنما ببطء وبصوت ضعيف .

اقترب خدم بيته من سريره ، الواحد في إثر الآخر ، وكان لافرانس يأخذ كل واحد منهم بيده ، ويشكرهم على خدمتهم ويودعهم ويرجو منهم الصفح إن كان قد ارتكب أي خطأ تجاههم مهما كان . كما رجاهم أن يذكروه في صلاة على روحه . ثم ودع أسرته . طلب من ابنتيه أن تنحنيا

حتى يقبلهما ، ثم دعا الرب وكل القديسين أن يباركوهما . بكت الاثنتان بمرارة ، ورمت رامبورغ الشابة بنفسها بين ذراعي أختها . ثم وبأذرع متشابكة ابتعدت ابنتا لافرانس نحو مكانهما عند أسفل السرير ، والصغرى ما تزال تبكي على صدر كريستين .

ارتجف وجه إرلند ، وجرت الدموع على وجنتيه حين رفع يد لافرانس وقبلها ، بينما راح يرجو حماه بصوت خفيض أن يغفر له كل الخطايا التي ارتكبها ضده في كل الأوقات . قال لافرانس إنه يغفر له من كل قلبه ، ودعا الرب أن يكون معه على الدوام . كان هناك نور شاحب غريب فوق وجه إرلند الوسيم حين استدار ووقف إلى جانب زوجته يده في يدها .

لم يبك سايمون دار ، ولكنه ركع عندما أخذ يد حميه ليقبلها ، وبقي راكعاً لفترة قصيرة وهو يمسك بها بشدة . قال لافرانس بابتسامة ضعيفة : "يدك دافئة وطيبة يا صهري ." التفتت رامبورغ إلى زوجها حين اقترب ليقف إلى جوارها ، ورمى سايمون بذراعه من حول كتفيها الرقيقتين الأشبه بأكتاف البنات الصغار .

و أخيراً ودع لافرانس زوجته . تهامسا ببعض الكلمات دون أن يسمعهما أحد ، وتبادلا قبلة أمام الجميع ، كما كان ملائماً ولائقاً والموت متلبث في الغرفة . وبعد هذا ركعت راغنفريد أمام سرير زوجها ووجهها نحو وجهه ، شاحبة وهادئة وساكنة .

تلبث سيرا آيريك بعد أن مسح على الرجل المتوفي بالزيت المقدس وقدم إليه قربان الموت . جلس عند رأس السرير ، وهو يتلو صلواته . كانت راغنفريد جالسة الآن على حافة السرير . مضت بضع ساعات . كان لافرانس مضطجعاً بعينين مغمضتين . حرك رأسه الآن باضطراب فوق

الوسادة ، وراح يتلمس بيديه غطاء السرير ويتنفس بصعوبة وينن مرة أو مرتين . ظنوا أنه فقد القدرة على الكلام ، ولكن لم يكن هناك نزاع الموت .

حل الغسق مبكراً ، وأشعل الكاهن شمعة . جلس الناس بصمت وهم ينظرون إلى الرجل المحتضر ويصغون إلى هطول وتنقيط المطر خارج المنزل . ثم بدأ الاضطراب يطغى على الرجل المريض ، فارتجف جسده ، وغطى ظل أزرق جسده ، كما بدا وكأنه يناضل ليلتقط أنفاسه . مرّر سيرا آيريك ذراعه من خلف كتفيه ورفعه إلى وضعية الجلوس ، بينما أبقى رأسه على صدره ورفع الصليب عالياً أمام وجهه .

فتح لافرانس عينيه ، ثبتهما على الصليب الذي في يد الكاهن ، وتكلم بضعف إنما بوضوح حتى سمع معظم من كان في الغرفة كلماته (باللاتينية) :

" *"لأنك أنت اقتنيتني بكليتي"*

(المزمور ١٣٩) .

و من جديد اعترته بعض الرجفة في جسده ، وراحت يداه تتلمس غطاء السرير . تابع سيرا آيريك الإمساك به بقوة لبعض الوقت . ثم وبحذر أعاد جسد صديقه إلى الوسادات ، وقبل جبينه ومسح الشعر من حوله ، ثم أغلق له جفنيه ومنخريه ، وبعدها نهض على قدميه وبدأ بالصلاة .

•

منحت كريستين الإذن لتأخذ دورها في السهر على الجثمان ليلاً . كانوا قد وضعوا لافرانس على القش في القاعة العليا . كان المكان واسعاً هناك ، وكانوا يتوقعون تجمع حشد من الناس لأجل السهر على الجثمان .

بدا أبوها جميلاً إلى حد لا يوصف وهو ممدّد هناك تحت نور الشمعة ووجهه الذهبي الشاحب عارياً . كانوا قد أنزلوا الفوطة من على وجهه حتى لا يتسخ بأيدي الكثير من الناس الذين وصلوا ليلقوا نظرة على الجثمان . كان سيرا آيريك وكاهن الأبرشية من كفام يرنمون من فوقه... كان كاهن كفام قد وصل في المساء ليودع لافرانس ، إلا أنه تأخر كثيراً .

و لكن في اليوم الثاني كان قد سبق للناس وبدأوا يفدون راكبين إلى الضيعة ، وقد أصبح متوجباً على كريستين الآن ، لأجل اللياقة ، أن تخلد إلى السرير مجدداً ، فهي لم تدخل الكنيسة بعد . والآن كان دورها لتغطي سريرها بأغطية حريرية وأفضل الوسائد التي في البيت . لقد أحضر مهد آل غييسلسنغ من فورمو على أساس الإعارة . لقد وضع لافرانس الصغير فيه ، وفي كل يوم كان الناس يدخلون ويخرجون ليروها هي والطفل .

بقي جسد أبيها نضراً طيب الرائحة ، كما سمعت... ولكنه زاد اصفراراً نوعاً . ولم يكن هناك من شاهد من قبل كل هذا العدد من الشموع من حول سرير شخص ميت .

في اليوم الخامس بدأت وليمة الجنازة... وكانت فخمة إلى أقصى حد من كل ناحية... حضر أكثر من مئة حصان غريب إلى الضيعة وفي لاوغاربرو ، وعلاوة على ذلك فإن بعض الضيوف اضطروا إلى النوم في فورمو . في اليوم السابع تقاسم الورثة الأراضي والأملاك بكل ود واتفاق... كان لافرانس قد رتب كل الأمور بنفسه قبل أن يموت ، وقد اتبع الجميع رغباته بإخلاص .

و في اليوم التالي كان يجب أن يجلب الجثمان الراقد الآن في كنيسة أولاف للبدء بالرحلة إلى هامار .

في مساء اليوم السابق... وكان ذلك بالأحرى في الليل ، دخلت

راغنفريد غرفة المدفأة ، حيث كانت ابنتها تنام مع طفلها . كانت سيدة المنزل في منتهى الإرهاق ، ولكن وجهها كان صافياً وهادئاً . طلبت من الخادمات المغادرة .

"كل مكان في المنزل مليء ، ولكنني أعتقد أنك ستجدين زاوية في مكان ما . أنا أفكر في السهر على صحة ابنتي بنفسي ، في آخر ليلة لي في بيتي ."

أخذت الطفل من ذراعي كريستين ، وحملته إلى المدفأة ، وجهزته لليل .

قالت كريستين : "لا بد أنه أمر غريب بالنسبة إليك يا أمي أن تهربي من هذا المكان حيث عشت مع أبي كل هذه السنين . لا أفهم إلا بالكاد كيف تستطيعين احتمال ذلك ."

قالت راغنفريد وهي تهدهد لافرانس الصغير في حجرها... سيكون الأمر أهون على الاحتمال من العيش هنا دون أن أرى أباك وهو يتجول بين الأبنية ."

ثم بدأت تقول بعد فترة : "لم تعرفي أبداً كيف هربنا إلى هنا إلى ديل واتخذناه بيتاً . لقد جرى الكلام عن أن أبي إيفار على وشك أن يلفظ أنفاسه ، وكنت غير قادرة على السفر على الطرقات . كان على لافرانس السفر شمالاً لوحده . وأتذكر جيداً أن الطقس كان جميلاً في مساء ذلك اليوم حين انطلق... كان قد سبق له وبدأ يحب الركوب في وقت متأخر ، في الجو البارد . لذلك كان عليه أن يسير إلى أوسلو في تلك الليلة . كان منتصف الصيف قريباً . وقد مضيت معه إلى حيث كان الطريق من الضيعة يتقاطع مع طريق الكنيسة... أتعرفين أين ؟ هناك بعض الصخور العارية الضخمة

وبعض التربة القاحلة من حولها... إنها أسوأ أرض في منطقة سكوغ كلها ، فهناك يشعرون بالقحط قبل الجميع... ولكن في ذلك العام كان القمح ينمو جيداً في تلك الحقول ، وقد تحدثنا عن ذلك . سار لافرانس وهو يقود حصانه ، وكنت أمسك بيدك... كنت في سن الرابعة...

"حين وصلنا إلى حيث يلتقي الطريقان ، طلبت منك أن تذهبي إلى البيوت . كنت كارهة ذلك ، ولكن أباك قال إن عليك أن تمضي لتفتشي عن خمسة أحجار بيضاء وتضعيها بشكل صليب في الجدول الذي تحت النبع... كان ذلك لحمايته من الأقزام في غابة ميورسا وهو يبحر قريباً منها . ثم انطلقت تركضين..."

سألتها كريستين : "أهو أمر يتحدث عنه الناس هناك ؟"

"لم أسمع به أبداً لا قبل ذلك ولا بعده . لا بدّ أن أباك قد اخترعه على ما أعتقد في التّو واللحظة . ألا تذكرين أنه كان يختلق الكثير من الحكايات وهو يلاعبك ؟"

"أجل ، أتذكر ذلك" .

"لقد مضيت معه عبر الغابة ، طول الطريق إلى حجر القزم . ثم جعلني أرجع وعاد هو أيضاً معي إلى مفترق الطرق مجدداً... ضحك وقال إنني قد عرفت أنه لن يدعني أمشي وحدي عبر الغابة ، وبعد غروب الشمس أيضاً . وبينما كنا واقفين هناك عند مفترق الطرق وضعت ذراعيّ حول عنقه . كنت في معنويات منهارة جداً لأني لم أستطع العودة إلى موطني... لم أكن قادرة على العيش في سكوغ ، وكنت أتوق إلى العودة شمالاً إلى ديل . وواساني لافرانس وأخيراً قال : "حين أعود ، وإن وجدتك حاملة ابني بين ذراعيك ، عندها قد تطلبين مني ما تشائين على أن يكون ضمن مقدرة الإنسان على

منحك إياه ، ولن يكون طلبك عبثاً" . فأجبته : إذن هل أطلب منك أن تهرب إلى هناك ونسكن في أرض ميراثي . لم يكن أبوك يحب ذلك وقال : «أما كنت قادرة على إيجاد شيء أهم تطلبينه ؟... ضحك قليلاً ، وفكرت : لن يفعل ذلك أبداً... وبدا لي أيضاً أنه أمر معقول ألا يفعل ذلك . ولاحقاً ، تعرفين كيف جرت الأمور معي... سيغورد أصغر أخوتك لم يعش حتى لساعة واحدة... وقد عمّده هافلاند ومات مباشرة بعد ذلك...

"وصل أبوك في الصباح الباكر من أحد الأيام... كان قد سمع في أوسلو في الليلة السابقة ما حدث في البيت ، وقد ركب حصانه بشكل متواصل دون أن يتوقف . كنت لا أزال في السرير . كنت حزينة جداً إلى حد أني لم أستطع النهوض... وقد بدا لي أني لن أنهض مجدداً . فليسامحني الرب ، فحين أدخلوك إليّ ، التفتّ بوجهي إلى الجدار ، ورفضت النظر إليك ، يا طفلتي الصغيرة . ولكن لافرانس قال آنئذ وهو يجلس على طرف سريري ، وعباءته وسيفه لا زالا عليه ، إن علينا أن نحاول لنرى إن كانت الأمور ستسير على نحو أفضل لو ذهبنا لنعيش في يوروندغارد... وهكذا هربنا من سكوغ . ولكن بما أن الأمور كانت على ما هي عليه ، لذلك فقد تعتقدين أني لا أرغب بالسكن هنا ، بعد أن رحل لافرانس ."

مضت راغنفريد حاملة الطفل ووضعته على صدر أمه . رفعت الغطاء الحريري الذي كان ينشر فوق سرير كريستين في النهار ، طوته ووضعته جانباً . ثم وقفت لفترة وهي تنظر إلى ابنتها ، ولمست الضفيرة الشقراء البنية السميكة التي كانت تقبع بين ثدييها الأبيضين .

"لقد سألني أبوك غالباً إن كان شعرك لا يزال سميكاً وأشقر كما كان دائماً . لقد سره كثيراً أنك لم تفقدي جمالك من حملك للكثير من الأولاد .

لقد كان فرحاً جداً بك في هذه السنوات الأخيرة ، وأنك قد أصبحت امرأة قديرة ولا تزالين نضرة وجميلة مع كل أبنائك الوسيمين من حولك ."

شرقت كريستين بدموعها مرة أو اثنتين .

"كان دائماً يتحدث إليّ عنك وكيف أنك أفضل الزوجات... قال لي أن أخبرك بذلك..." توقفت خجلة ، وضحكت راغنفريد برقة .

"قد يكون لافرانس عرف أنه ليس في حاجة إلى أي شخص ليحمل إليّ رسالة عن حبه لي ." ربتت على رأس الطفل وعلى يد ابنتها التي كانت تحيط بالطفل الصغير . "و لكن ربما فعل ذلك... لا تظنّي يا كريستين أني حسدتك في أي يوم من الأيام على حب أبيك لك . كنت حلوة وجميلة جداً وأنت صغيرة... لم أكن ممتنة بما فيه الكفاية لأن الرب حفظك لي . ولكني كنت أفكر فيما خسرته أكثر من تفكيري فيما كنت أمتلكه ."

جلست راغنفريد على جانب السرير .

"كانت لديهم أساليب أخرى في سكوغ غير أساليبنا في البيت هنا . لا أستطيع أن أتذكر أن أبي قبلني ولو مرة واحدة... كان يقبل أمي حين تضطجع في فراش الولادة . كانت أمي تقبل فودرون في أيام القداس ، فقد كانت تقف إلى القرب منها ، ثم قبلتني أختي... ولكننا لم نعتد التقبيل...

"في سكوغ اعتدنا حين نصل من الكنيسة بعد تناول القربان المقدس وبعد أن نترجل عن أحصنتنا في الساحة ، أن يقبل السير بيورغولف ابنه ويقبلني على الخد ، وكنا نقبل يده . لاحقاً كان كل زوجين يقبل الواحد منهما الآخر ، ثم كنا نتصافح بالأيدي مع كل الخدم الموجودين في الخدمة ، ونتمنى الواحد للآخر أطيب التمنيات مع الطعام المقدس . وكان من عادة

لافرانس وآسموند أن يقبلا يد أبيهما حين يقدم لهما الهدايا في مناسبات كتلك . وحين كان هو أو إنغا يدخلان ، فإن الابنين كانا ينهضان واقفين ويبقيان كذلك حتى يطلب منهما الجلوس . في البداية بدا لي هذا على أنه أمر أحمق ، على أنها أساليب أجنبية في السلوك...

"لاحقاً ، في السنوات التي عشتها مع أبيك ، وحين فقدنا أبناءنا ، وعبر كل تلك السنوات حين كنا نعاني من الخوف والأسى الكبيرين على أولفهيلد... كان أمراً جيداً لي عندها أن لافرانس كان قد نشأ على ذلك النحو ، أي أن يكون رقيقاً ومحباً ."

بعد برهة قالت كريستين :

"إذن لم ير أبي سيغورد أبداً ."

قالت راغنفريد باللهجة الخفيضة نفسها : "لا . ولم أره أنا أيضاً وهو حيّ ."

بقيت كريستين صامتة لبرهة ، ثم قالت :

"على أي حال ، يا أمي ، يبدو لي الأمر وكأنك عرفت الكثير من الخير في حياتك..."

بدأت الدموع تهطل من وجه راغنفريد إيفارسداتر الأبيض :

"أجل . ليكن الرب في عوني . هكذا يبدو الأمر لي الآن ."

و سرعان ما أخذت الطفل الذي قد نام الآن ، من على صدر أمه ، ووضعته في المهد . ثبتت شلحة كريستين بالدبوس الصغير ، وربتت على خد ابنتها ، ثم طلبت منها أن تنام . رفعت كريستين يدها .

قالت بتوسل : "أمي..." .

انحنت راغنفريد ، قرّبت ابنتها منها محتضنة إياها بين ذراعيها وقبلتها مرات كثيرة . لم تكن قد فعلت هذا من قبل في كل السنوات التي مرت منذ أن ماتت أولفهيلد .

•

في اليوم التالي كان الطقس ربيعياً جميلاً كأجمل ما يكون الطقس الربيعي ، وقد وقفت كريستين وراء زاوية مبنى القاعة وراحت تتطلع إلى الجبال وراء النهر . كانت رائحة النمو في كل مكان ، وأغنية الجداول قد انطلقت بحرية . كانت هناك لمسة خضراء على كل الغابات والمروج . وحيث يجري الطريق على امتداد جانب الجبل فوق لاوغاربرو ، كانت بقعة من الجاودار الشتائي تلتمع نضرة متلألئة... كان يون قد أحرق الحشائش هناك في العام الماضي وبذر الجاودار في البقعة المحروقة .

كانت سترى الموكب الجنائزي وهو يمر من هناك .

و ها هو يمر الآن ، متحركاً ببطء ، تحت ركام الحجارة في جانب الجبل ، وفوق حقل الجاودار الجديد النضر .

استطاعت أن تميز الكهنة كلهم وهم يتقدمون فوق جيادهم في المقدمة . كان هناك مساعدو كهنة أيضاً في المجموعة الأولى ، يحملون الصلبان والشموع . لم تستطع أن ترى الشعلة في ضوء النهار ، ولكنها رأت الشموع نفسها كخطوط بيضاء رشيقة . ثم كان هناك حصانان يحملان بينهما تابوت أبيها على محفة ، ثم استطاعت أن تميز إرلند على جواده الأسود وأمها وسايمون ورامبورغ ، وكثيراً من الأقرباء والأصدقاء في الموكب الجنائزي الطويل .

و لفترة استطاعت أن تسمع بوضوح غناء الكهنة فوق هدير نهر لاغن ، ثم تلاشى صوت الترنيمة بين صخب النهر وهمهمة الجداول على جوانب الجبل . وقفت كريستين صامتة ، محدقة وذلك بعد فترة طويلة من مرور آخر حصان حمولة مع الأمتعة وغيابه عن الأنظار في الغابات الجانبية .

القسم الثالث

إرلند نيكولاوسون



١

لم تعش راغنفريد إيفارسداتر سنتين كاملتين بعد وفاة زوجها ، فقد ماتت في بداية شتاء عام (١٣٣٢) . المسافة من هامار إلى سكاون بعيدة ، لذلك لم يسمعوا في هوسابي بوفاتها إلا بعد شهر من دفنها . ولكن في موسم وايتسونسايد في العام التالي وصل سايمون أندرسون لزيارتهم . كان هناك أمر أو اثنان للتناقش حولهما بين الأقرباء حول ميراث راغنفريد . كانت كريستين لافرانسداتر تمتلك يوروندغارد الآن ، وقد تقرر أن يكون سايمون مسؤولاً عن أراضيها وأملاكها ، وأن يحاسب مزارعيها . كان قد أدار أملاك حماته في "ديل" خلال سكنها في هامار .

في هذا الوقت بالضبط كان إرلند يعاني من الكثير من المشاكل والحنق فيما يخص بعض الأمور التي برزت خلال عمله كقيّم . ففي الخريف السابق ، قام هونتيوف ، وهو مزارع من مزارعي فوريغد في أوبدال بقتل أحد جيرانه لأنه دعا زوجته بالجنية القزمة . جلب أعضاء الأبرشية القاتل موثقاً إلى "الحاكم" ، وقد أمر إرلند بحبسه في إحدى العليات . ولكن حين اشتد البرد في الشتاء ، ترك الرجل يتجول حراً بين أتباعه . كان هونتيوف مع إرلند على متن "مارغيغرن" في الشمال ، وكان قد أدى خدمته برجولة هناك .

لذلك حين أرسل إرلند رسائل تتعلق بقضية هونتيوف ، فقد توسل أن يمنح "مهلة"[١٤] بحيث يبقى في منزله حتى يصدر الحكم بحقه ، وقد مدح الرجل إلى حد كبير . وحين ضمن أولف هالدورسون أن هونتيوف سيتقدم إلى المحكمة في الوقت الملائم في مجلس أوركيدال ، ترك إرلند الرجل يمضي إلى بيته لقضاء فترة عيد الميلاد . ولكنه انطلق من بيته بصحبة زوجته لزيارة حارس بيت الراحة في دريفدال -كان يمت إليهم بصلة قرابة- وخلال تلك الرحلة اختفيا . اعتقد إرلند أنهما ماتا خلال العاصفة الكبيرة التي هبت في ذلك الحين ، ولكن الكثيرين قالوا إنهما هربا بجلدهما... ويمكن لجماعة "الحاكم" أن تطالب بهما دون طائل الآن . ثم برزت أمور أخرى تخص الهاربين... كان هونتيوف قد قتل رجلاً قبل بضع سنين في الجبال ودفنه في كوم حجارة... وهو رجل اعتقد أنه جرح مهرةً له في كفلها . وقد تبين بوضوح أن الزوجة كانت تمارس السحر .

ثم قام كاهن أوبدال ومفوض الأسقف بالتحقيق والبحث في هذه الشائعات عن ممارسة السحر . وقد أدى هذا إلى حدوث أمور مؤسفة تتعلق بالأسلوب الذي كان فيه الناس يتعاملون مع الدين المسيحي في كثير من أنحاء مقاطعة أوركدولا . وكان ذلك بارزاً أشد البروز في الأبرشيات البعيدة ، مثل رينابو وأوبسدالكوغ ، ولكن حكاية الرجل العجوز من بودفيك ، قد طرحت أيضاً أمام محكمة الأسقف في نيداروس . وفي هذه القضية لم يظهر إرلند سوى القليل من الحماسة رغم كثرة الكلام عنها . كان للأمر علاقة بالخادم العجوز "آن" ، الذي كان يعيش قرب البحيرة إلى الجنوب من هوسابي ، ويكاد يحسب واحداً من سكان ضيعة إرلند . كان يمارس كتابة الطلاسم والرقى ، وجرى حديث كبير عن بعض الأصنام في كوخه ، والتي كان الناس يقولون إنه معتاد على التضحية لها . ولكن لم يكتشف شيء من

هذا بعد وفاته . كان إرلند نفسه وأولف هالدورسون معه ، كما هو معروف ، حين مات... ولا بد أنهما قد أزالا دون شك بعض الأشياء قبل وصول الكاهن ، كما قالت الناس . أجل ، وحين يفكر الناس في مثل هذه الأمور ، ألم تكن خالة إرلند قد اتُهمت بممارسة السحر والدعارة وقتل الزوج ؟... رغم أن الليدي آشيلد غاوتسداتر كانت شديدة البراعة وماهرة في التهرب ، وكان لديها الكثير من الأصدقاء الأقوياء ، فلم يثبت شيء من هذا ضدها . وفي الوقت نفسه تذكر الناس أن إرلند عاش في شبابه بأسلوب مخالف للعقيدة المسيحية إلى حد كبير ، ولم يكترث بالحرمان الكنسي .

و كانت نهاية ذلك كله أن استدعى الأسقف إرلند نيكولاوسون لزيارته والتشاور معه في نيداروس . وقد ذهب سايمون برفقة عديله إلى المدينة ، إذ كان عليه أن يحضر ابن أخته من رانهايم ، إذ كان من المفروض أن يعود الصبي معه إلى "ديل" ، ليكون مع أمه لبعض الوقت .

كان قد بقي أسبوع على انعقاد مجلس المقاطعة ، وكانت المدينة تعجّ بالناس . وحين وصل العديلان إلى قصر الأسقف وأدخلا إلى قاعة المقابلات الرسمية ، فإن عدداً من "رهبان الصليب" وبعض الناس من ذوي الصيت... وكان بينهم رئيس مجلس المقاطعة ، هارالد نيكولاوسون ، وأولاف هرمانسون رئيس مجلس نيداروس ، والسير غوتورم هلفسون ، حاكم يمتدلند . كما كان هناك آرن غيافالدسون الذي تقدم من سايمون دار وحياه بحرارة . تنحى آرن لسايمون جانباً وأخذه إلى زاوية إحدى النوافذ وجلسا هناك .

كان سايمون قلقاً . لم يكن قد قابل الشخص الآخر منذ أن كان في رانهايم قبل عشر سنوات ، ورغم أن سكان رانهايم كانوا قد استقبلوه بحفاوة

في ذلك الحين ، إلا أن زيارته إلى هناك كانت في مهمة تركت أثراً موجعاً في نفسه .

و بينما راح آرن يتفاخر بغيافالد الشاب ، جلس سايمون يراقب عديله . كان إرلند جالساً يخاطب "أمين الخزينة"[١٥] الذي كان اسمه السير بارد بيترسون ، ولم يكن قريباً من آل هستنايس . لا يمكن للمرء أن يقول إن إرلند كانت تنقصه الكياسة ؛ إلا أنه كان شديد التحرر والجرأة وهو واقف هناك يتحدث إلى الرجل النبيل العجوز... وهو يتأرجح قليلاً إلى الأمام والخلف ، ويداه خلف ظهره . وكما كانت عادته غالباً ، فقد كان يرتدي ملابس داكنة اللون ، ولكنها غالية الثمن : كوثاردي بنفسجي لصيق بجسده ومشقوق عند الجانبين ، ذيل كم أسود ، مع قلنسوة مدفوعة إلى الخلف لإظهار البطانة الحريرية الرمادية ، وحزام مطعم بالفضة ، وجزمة حمراء طويلة مربوطة بشرائط حول الكعبين وتبرز ساقي وقدمي الرجل حسنة الشكل .

في النور الحاد القادم من نوافذ القاعة الزجاجية ، كان واضحاً بما فيه الكفاية مشاهدة فودي إرلند نيكولاوسون وقد وخطهما شيب كثير . من حول فمه وتحت عينيه فإن البشرة التي لفحتها الشمس كانت مغضنة بغضون دقيقة ، كما كانت بعض التجاعيد المتصالبة تظهر في العنق الطويل المقوس على نحو جميل . ومع ذلك فقد كان يبدو شاباً بين الآخرين المتواجدين هناك ، رغم أنه لم يكن أبداً أصغر الحضور سناً . ولكنه كان رشيقاً ونحيلاً كعادته ، وكان يتحرك بليونة وبلا اهتمام كما كان شأنه في شبابه ، ويمشي بخفة وحيوية ، كما يفعل الآن بعد أن تركه أمين الصندوق ، إذ راح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، ويداه ما زالتا معقودتين خلف ظهره . كان الرجال

الآخرين جالسين جميعاً ، يتكلمون بأصوات خفيضة جافة . أما خطوات إرلند الخفيفة ورنين مهمازيه الفضيين الصغيرين فكانت مسموعة بوضوح .

و أخيراً طلب منه أحد الشبان الجلوس : "كن أهدأ قليلاً يا رجل!"

توقف إرلند وعقد حاجبيه ، ثم التفت إلى الرجل الذي تكلم .

"أين كنت تشرب مساء البارحة يا قريبي يون حتى يؤلمك رأسك إلى هذا الحد اليوم ؟" قال ضاحكاً وجلس . وحين اقترب منه هارالد لاغماند ، نهض بالفعل ووقف ساكناً حتى جلس الآخر ، ولكنه سقط إلى القرب من لاغماند ، ووضع ساقاً فوق ساق ، وجلس ويداه مشبوكتان على ركبتيه ، بينما راح هارالد يتكلم .

كان إرلند قد صارح سايمون بكل المشاكل التي وقع فيها بسبب هروب القاتل والساحرة من يديه . ولكن ما كان شخص يبدو أكثر لا مبالاة من إرلند وهو جالس هناك يناقش الأمر مع لاغماند .

دخل الأسقف الآن . وقد اقتيد إلى كرسيه العالي من قبل شخصين أسنداه بالوسائد . لم يكن سايمون قد شاهد من قبل اللورد آيليف تورتين . بدا عجوزاً وضعيفاً ، وبدا أنه يشعر بالبرد رغم ارتدائه لعباءة من الفرو وقبعة مبطنة بالفرو . وحين جاء دورهما ، قاد إرلند عديله نحو الأسقف ، وركع سايمون على ركبة واحدة وهو يقبل خاتم اللورد آيليف . كما قبل إرلند أيضاً الخاتم بكل احترام .

كان يتصرف بكل لباقة واحترام أيضاً حين وقف أخيراً أمام الأسقف بعد أن تحدث رجل الكنيسة لفترة طويلة مع الآخرين حول أمور مختلفة . ولكنه أجاب بخفة بالأحرى على أسئلة أحد كهنة الكاتدرائية وكان أسلوبه أسلوب شخص واثق من براءته .

و لكنه كان قد سمع الشائعات عن ممارسة السحر منذ سنوات كثيرة ولكن طالما لم يطلب منه أحد الإرشاد ، فهو ما كان قادراً على البحث عن الحقيقة بين كل الحديث الذي كانت تتداوله نساء الأبرشية . لا شك أن القيام بالتحقيق كان من اختصاص الكاهن ، إن كان هناك أساس لدعوى ضد أي شخص كان .

ثم سئل عن الرجل العجوز الذي كان يقطن في هوسابي ، والذي كان الناس يقولون إنه ساحر .

ابتسم إرلند قليلاً . أجل ، كان "آن" يتبجّح بنفسه ، ولكن لم ير إرلند أي دليل على ممارساته السرية . فمنذ طفولته كان يسمع "آن" وهو يتكلم عن بعض النسوة اللواتي دعاهن "هان" و"سكوغول" و"سنوترا" ، ولكنه لم يأخذ هذه الأمور إلا على أساس أنها حكايات للأطفال . استجوبه أخي غونولف وكاهننا سيرا آيليف مرة أو مرتين ، على حد علمي ، ولكني أعتقد أنهما لم يجدا ما يدينه ، حيث أنهما لم يفعلا شيئاً . كان الرجل يرتاد الكنيسة في كل قداس ، وكان يعرف صلواته المسيحية ." لم يكن إرلند يصدق قدرات "آن" السحرية ، وبما أنه رأى في شمال لابلاند السحر والرقى ، فقد أدرك جيداً أن السحر الذي كان يمارسه "آن" كان مجرد حماقات .

ثم سأله الكاهن إن كان صحيحاً أن إرلند نفسه قد أخذ من "آن"" شيئاً يجلب له الحظ في الحب ؟

أجاب إرلند بسرعة ووضوح وبابتسامة بالإيجاب . كان ذلك وهو في الخامسة عشرة من عمره ، على ما يتذكر ، أي منذ ثمانية وعشرين عاماً أو نحوها . كان ذلك كيساً من الجلد فيه حجر أبيض وأشياء مجففة... قطع

صغيرة من حيوان ، كما كان يعتقد . ولكنه لم يكن يؤمن كثيراً في مثل هذه الأشياء حتى في تلك الأيام... وكان تخلى عنه في السنة التالية ، أي في السنة الأولى من وجوده في القصر . كان ذلك في أحد حمامات البلدة... ففي لحظة اندفاع ومرح أخرج الرقية ليريها لبعض الفتيان الآخرين... وقد جاءه لاحقاً أحد رجال الحرس عارضاً شراءها . وقد بادلها إرلند بموسى من الفولاذ الجيد .

و قد سئل من كان ذلك الرجل .

في البداية رفض إرلند أن يذكر الاسم . ولكن الأسقف نفسه أمره أن يفعل . رفع إرلند نظره ووميض من الشر في عينيه الزرقاوين : "كان ذلك السير إيفار أوغموندسون" .

بدا على وجوه الرجال التوتر . أما السير غوتورم هلفسون العجوز فقد نخر على نحو غريب . أما اللورد آيليف نفسه فحاول جاهداً ألاّ يبتسم . ثم تابع إرلند وقد اعترته الحماسة وعيناه تنظران إلى الأرض وهو يعض على شفته السفلى قليلاً :

"يا سيدي ، أعتقد أنك لن تزعج فارساً ممتازاً بهذه الحكاية القديمة . وكما قلت لكم ، فإني لا أؤمن كثيراً في هذه الرقية ، كما أني لم ألحظ أنها حققت شيئاً لأي منا بعد أن أعطيته هذا الكنز..."

ضحك السير غوتورم عالياً ، واستسلم الآخرون للقهقهة . أما الأسقف فضحك ضحكة مكبوتة صغيرة ، ثم سعل وهز رأسه . كان معروفاً عن السير إيفار أن إرادته أقوى من حظه بكثير في مسائل معينة .

بعد برهة صحا واحد من رهبان الصليب وذكّر الحاضرين بأنهم قد

اجتمعوا لمناقشة أمور جدية . سأل إرلند بحدة إن كانت قد وجهت إليه تهمة من جهة من الجهات ، وإن كان يُحاكم هنا ، فهو قد افترض أنه قد استدعي للتشاور الودي . واستؤنف الكلام الآن كما في السابق ، ولكن مع بعض الاضطراب الذي كان يثيره غوتورم هلغسون بين الحين والآخر إذ ينفجر بالضحك .

في اليوم التالي ، حين كان العديلان في طريق العودة من رانهايم ، تطرق سايمون إلى هذا الاجتماع . لقد بدا له أن إرلند كان يأخذ الأمور بخفة : قال إنه لاحظ بوضوح أن أكثر من واحد من أولئك الرجال الكبار هناك كان مستعداً لإيذائه لو استطاع .

قال إرلند إنه يعرف ذلك جيداً ، وأنهم قد يفعلون لو استطاعوا . ففي الشمال هنا كان معظم الناس من حزب "المستشار"... ولكن ليس الأسقف : فإرلند يثق بهذا كصديق . ولكن معالجة إرلند لكل الأمور كانت لا تخالف القانون... وكان يشاور كاتبه كلونغ أرسون في كل المسائل ، وكان هذا شديد البراعة في هذه القضايا . كان إرلند يتحدث بجدية الآن ، ولكنه كان يبتسم بخفة وهو يقول إنه ما كان أحد يتوقع منه أن يكون ماهراً في معالجة المسائل التي وضعت تحت إشرافه كما أثبت هو بالفعل ، لا أصدقاءه الأعزاء في هذا الريف ولا حتى لوردات المجلس . أما بالنسبة إلى البقية ، فلم يكن واثقاً أنه مهتم بالبقاء في منصب "الحاكم" لو كانت وفق شروط أخرى غير تلك التي وضعت خلال وجود إرلينغ فيدكونسون في القمة . كانت أموره الآن في وضع -منذ وفاة والدي زوجته- لم يعد فيها مضطراً للمقايضة لصالح الرجال الذين وصلوا إلى السلطة حين أعلن أن الملك قد بلغ سن الرشد .

أجل فليدّعوا أن ذلك الفتى الفاسد قد بلغ سن الرشد الآن أو لاحقاً ،

فمن غير المحتمل أنه لن يصبح رجلاً بمزيد من الوصاية عليه . وسيعرف المرء الآن على نحو أسرع ما كان هذا ينوي فعله... هو أو اللوردات السويديون الذين كانوا يمسكون بالخيطان . وسرعان ما سيعرف الناس أن إرلينغ كان ذا بصيرة واضحة على أي حال . وسيكلفنا الأمر كثيراً لو حاول الملك ماغنوس أن يضع "سكان" تحت وصاية التاج السويدي ، وسيعني ذلك الحرب مع الدانمركيين في لحظة وصول رجل واحد ، سواء كان دانمركياً أو ألمانياً ، إلى السلطة في الدانمارك . وكان السلام في الشمال سيدوم عشر سنوات... وكان نصف هذه المدة قد انقضى الآن ، ولم يكن الأمر مؤكداً أن الروس سيحافظون على الحلف حتى في السنوات الخمس المتبقية . لم يكن إرلند يثق بهم كثيراً ، كما لم يكن إرلينغ يثق بهم أيضاً ، فيما يخص ذلك . أجل ، كان المستشار "بال" رجلاً عالماً دون شك وحكيماً علاوة على ذلك ، من نواح كثيرة ، ربما . أما نبلاء المجلس الذين عينوه قائداً لهم... فقد كان "سوتن" ،(حصانه)هذا يتحلى بالذكاء أكثر منهم كافة . حسناً ، لقد تخلوا عن إرلينغ الآن... مؤقتاً . ومؤقتاً أيضاً فإن إرلند يود أن يتنحى جانباً هو أيضاً . ولكن إرلينغ وأصدقاءه كانوا يحبذون بالأحرى أن يستمر في التمسك بسلطاته وثرواته في الشمال هنا... لذلك لم يكن قد حزم أمره بعد .

لم يستطع سايمون دار أن يغالب القول : "أعتقد أنك تعلمت الآن كيف تتناغم مع السير إرلينغ ."

أجاب إرلند : أجل كان الأمر كذلك . فقد كان سكن في منزل السير إرلينغ في الصيف الماضي ، حين كان في بيورغفين ، وقد تعلم كيف يفهم الرجل على نحو أفضل الآن . الأمر وما فيه أن السير إرلينغ كان يرغب فوق كل شيء في أن يدعم سلام الملك في البلاد . ولكنه كان يرغب أيضاً في أن

يكون لمملكة النرويج سلام الأسود ، أي ألاّ يكون لأحد الإذن بكسر سن أو بتقليم مخلب من أسد قريبهم الملك هاكون... وأنه لا يجب أن يُحول إلى كلب صيد مدرب لشعب بلد آخر . أما بالنسبة إلى البقية ، فإن إرلينغ كان راغباً جداً الآن في أن يضع حداً للنزاعات القديمة بين النرويجيين والليدي إنجبيورغ . وبما أنها أصبحت أرملة الآن بعد وفاة السير كنوت ، فإن المرء لا يستطيع سوى أن يتمنى أن تعود إليها بعض السلطة على ابنها مجدداً . صحيح أنها تحمل الكثير من الحب العظيم للأطفال الذين رزقت بهم من كنوت بورس حتى لقد بدا أنها نسيت إلى حد ما ابنها البكر ، ولكن لا شك أن هذا كله سيتغير حين ستلتقي به مجدداً .

اعتبر سايمون أن كل هذا يبدو وكأنه يدل على أن إرلند كان إلى حد ما مطلعاً على مجريات الأمور . ولكنه تساءل إن كان إرلينغ فيدكونسون... ذلك الوصي المخلوع يعتقد أن إرلند نيكولاوسون كان يتحلى بالذكاء الكافي ليصدر حكماً في مثل هذه الأمور ، أو هل كان إرلينغ الآن يتمسك بأي قشة ضمن متناوله ؟ لم يكن هناك من يستطيع أن يقول عنه إنه كان يستخدم الأمور لصالحه ، ولكن مع كل ثروته ومنصبه ، فإنه ما كان في حاجة إلى فعل ذلك . وقال الجميع إنه مع مرور سنوات فترة وصايته فقد أصبح أكثر عناداً وحكمة في تقديره الشخصي ، ومع ازدياد مقاومة اللوردات الآخرين في المجلس له ، فقد صار في النهاية شديد الاستبداد إلى حد أنه ما عاد يقبل بالكاد الاستماع إلى كلمة من أي رجل .

لكأنما كان إرلند الآن -إذا جاز التعبير- قد صعد إلى متن سفينة إرلينغ فيدكونسون بكلتا قدميه ، ولكن في اللحظة التي واجهتها فيها رياح معاكسة وبدا وكأنه لم يكن واثقاً فيما إذا كان إلقاؤه لنفسه من كل قلبه إلى جانب

قريبه الغنيّ سيكون في صالح أي منهما سواء السير إرلينغ أو إرلند نفسه . ومع ذلك لم يستطع سايمون سوى أن يعترف لنفسه بأنه مهما كان إرلند متهوراً في كلامه عن الناس وعن الأمور ، إلا أنه بدا وكأن هناك جوهراً من الصواب فيما كان يقوله .

و لكن في تلك الليلة كان في مزاج عصبي متهور . كان ينزل الآن في دارة السير نيكولاوسون التي تخلى عنها أخوه إلى إرلند حين لبس قلنسوة الراهب . كانت كريستين معه وكذلك ثلاثة من أطفالهما ، الاثنان الأكبر سناً وأصغرهم طراً ، وكذلك ابنته مارغريت .

في وقت متأخر من المساء كان كثير من الناس يزورونهما ، ومن بينهم بعض الرجال الذين حضروا الاجتماع في مقر الأسقف في الصباح السابق . وبينما كانوا يجلسون وهم يحتسون الشراب على المائدة بعد العشاء ، أصدر إرلند الكثير من الضجيج والضحك . كان قد تناول تفاحة من طبق على المائدة وراح يكتب ويخرمش عليها بخنجره ، ثم دحرجها عبر المائدة إلى حضن الليدي سونيفا أولافسداتر التي كانت تجلس مقابله .

أرادت السيدة الجالسة إلى القرب من سونيفا أن ترى التفاحة وحاولت اختطافها . إلا أن الأخرى لم تقبل التخلي عنها ، وراحت المرأتان تتدافعان وتتنازعان الواحدة مع الأخرى وهما تضحكان وتصرخان . ولكن إرلند صاح بأن السيدة إيفور ستنال تفاحة كاملة هي الأخرى . وقبل أن يمر وقت طويل كان قد رمى بالتفاح إلى كل النساء الموجودات في الغرفة ، وكان قد رسم طلاسم الحبّ عليها كلها كما قال .

صرخ أحد الرجال : "ستكون قد انتهيت أيها الشاب قبل أن تستطيع تلبية كل تلك الوعود!"

أجاب إرلند : "إذن سأتركها كلها دون تلبية... وهذه ليست المرة الأولى التي اضطر إلى فعل ذلك ." ومن جديد عم الضحك الجميع .

و لكن كلونغ الإيسلندي كان قد نظر إلى إحدى التفاحات وصرخ بأن ما يكتبه ليس طلاسم ، بل مجرد كتابات لا معنى لها . وهو مستعد أن يريهم ، كما قال ، كيف ترسم الطلاسم . ولكن إرلند صرخ به ألاّ يفعل شيئاً كهذا :

"لأنهم سيطلبون مني أن أسجنك يا كلونغ ، ولا أستطيع أنا الاستغناء عنك ."

في وسط كل هذا الاضطراب ، دخل أصغر أولاد إرلند وكريستين إلى القاعة بخطى قصيرة قلقة . كان لافرانس إرلندسون قد تجاوز السنتين بقليل الآن ، طفلاً وسيماً جداً ، أشقر وسميناً ، بشعر حريري جميل ومجعّد . وهكذا راحت كل النسوة الجالسات فوق المقعد الخارجي يحاولن أن يمسكن بالطفل... ورحن يمررنه من حضن إلى حضن ، ويربتن عليه ، ليس بلطف كبير ، فقد كنّ الآن ثملات جميعاً وفي حالة مرح شديد . توسلت كريستين التي كانت جالسة مع زوجها فوق الكرسي العالي أمام الجدار أن يجلبوا الطفل إليها ، وكان الصغير يتذمر ويحاول الوصول إليها ، ولكن دون جدوى .

و فجأة ، قفز إرلند من فوق المائدة وأخذ الطفل الذي كان يزعق الآن ، لأن الليدي سونيفا والليدي إيفور كانتا تشدّانه وتتقاتلان عليه . رفع الأب الصبي بين ذراعيه ، وراح يلاطفه ، وبينما كان الصغير لا يزال مستمراً في البكاء ، فقد بدأ هو يسكته ويهدهده ، وهو يذرع القاعة به في نصف العتمة . وقد بدا الآن أن إرلند قد نسي ضيوفه تماماً . كان رأس الطفل اللامع الصغير على كتف أبيه تحت شعر الرجل الأسود ، وكان إرلند بين

الحين والآخر يربت بشفتين نصف مفتوحتين اليد الصغيرة التي كانت ترتاح على صدره . وهكذا تابع السير حتى دخلت الخادمة التي كان عليها أن تعتني بالطفل وتضعه في فراشه قبل وقت طويل .

صاح بعض الضيوف بأن على إرلند أن يغني لهم الآن حتى يرقصوا على غنائه... كان له صوت جميل قوي . في البداية لم يكن راغباً ، ولكنه ذهب إلى حيث كانت ابنته الشابة جالسة على مقعد النساء . وضع ذراعه من حول مارغريت وجذبها إلى الأرض .

"عليك أن ترقصي إذن يا مارغريت ، مع أبيك ."

اقترب شاب وأخذ يد الفتاة... "لقد وعدتني مارغريت بأن ترقص معي هذه الليلة"... ولكن إرلند رفع ابنته بين ذراعيه ووضعها على الجانب الآخر ؛

"ارقص مع زوجتك يا هاكون... لم أرقص أبداً مع الأخريات حين كنت عريساً جديداً مثلك" .

"تقول إنجبيورغ إنها لا تستطيع الرقص الليلة... وقد وعدت هاكون بالرقص معه يا أبي" ، قالت مارغريت .

لم يكن سايمون دار راغباً في الرقص . وقف لفترة من الوقت مع سيدة عجوز ، وهو يتفرج... كانت نظرته تستقر بين الحين والآخر على كريستين . وبينما كانت خادماتها ينظفن المائدة ويمسحنها ويجلبن المزيد من الشراب وأطباق الجوز ، كانت هي تقف عند نهاية المائدة . لاحقاً ، جلست قرب المدفأة وتكلمت مع كاهن كان بين الضيوف . وخلال فترة وجيزة كان سايمون يجلس إلى جانب هذين الاثنين .

بعد أن رقصا رقصة أو اثنتين ، اقترب إرلند من زوجته .

"تعالي وارقصي معنا يا كريستين" ، قال بتوسل وهو يمدّ يده .

قالت وهي ترفع بصرها للحظة : "أنا متعبة ."

"ألن تطلب منها الرقص يا سايمون... لا تستطيع أن ترفض طلبك للرقص ."

نهض سايمون نصف نهضة من كرسيه ومدّ يده ، ولكن كريستين هزت رأسها : "لا تطلب مني يا سايمون... أنا منهكة جداً..."

وقف إرلند هناك قليلاً . بدا وكأنه غاضب جداً من هذا . ثم عاد إلى الليدي سونيفا وأخذ يدها ضمن سلسلة الراقصين ، بينما راح يطالب مارغريت بأن تغني لهم .

سأل سايمون : "من ذاك الذي يراقص ابنة زوجك ؟" لقد فكر في ذهنه في أنه لم يعجب بمنظر الرجل ، رغم أنه كان يبدو شاباً ذا مظهر رجولي ببشرة سمراء نضرة وأسنان جيدة وعينين لامعتين... إلا أن العينين كانتا قريبتين من جسر الأنف ، ورغم أن فمه كان كبيراً وقوياً وكذلك ذقنه ، إلا أن جبينه وأعلى رأسه كانا ضيقين . قالت كريستين إنه هاكون آيندريدسون من غيسار ، حفيد توره أيندريدسون ، حاكم مقاطعة غاولدولا . كان هاكون هذا قد تزوج للتو من المرأة الجميلة الضئيلة الحجم الجالسة هناك في حضن أولاف لاغماند... الذي كان عرّابها . كان سايمون قد لاحظ هذه المرأة ، فهي تشبه نوعاً ما زوجته الأولى ، رغم أنها لم تكن جميلة بقدر ما كانت تلك . واكتشف الآن وجود قرابة بعيدة أيضاً ، فقد مضى نحو إنجبيورغ وحياها وجلس يحادثها .

انفرط عقد حلقة الراقصين بعد فترة وجيزة . مضى كبار السن نحو

مائدة الشراب ، ولكن الشبان تابعوا الغناء واللهو في القاعة . مضى إرلند نحو المدفأة مع بعض الرجال الأكبر سناً ، ولكنه كان لا يزال ممسكاً بيد الليدي سونيفا وقادها معه ، كأنما دون تفكير . جلس الرجال قرب النار ، لم يكن هناك كرسي للسيدة ، فوقفت قرب إرلند تأكل الجوز الذي كان يكسره لها بأصبعه .

قالت فجأة : "يا لك من رجل يخلو من اللباقة دون شك يا إرلند . فها أنت جالس وعليَّ أن أقف أمامك ."

قال إرلند ضاحكاً : "لا ، بل ستجلسين أنت أيضاً ." ثم جذبها وأجلسها في حضنه . قاومت ضاحكة ونادت على سيدة المنزل وهي تطلب إليها أن ترى ما كان زوجها يفعله بها .

أجابت كريستين ضاحكة : "هذه مجرد الشفقة التي في قلب إرلند . فما أن تحك قطة فروها على ساقيه حتى يحملها ويضعها في حضنه ."

بقي إرلند والسيدة جالسين كما من قبل ، دون أن يقوما بأي إشارة ، ولكن تضرج وجهاهما كلاهما بالأحمر القاني . كان يضع إحدى ذراعيه من حولها بارتخاء ، وكأنه لا يلاحظ إلا بالكاد أنها كانت جالسة هناك ، بينما راح هو والرجال الآخرون يتحدثون عن النزاع بين إرلينغ فيدكونسون والمستشار بال ، وهو الموضوع الذي كان يشغل بال الناس كثيراً في تلك الأيام .

سأل سايمون بعد برهة : "ما رأيك الآن يا كريستين ؟"... كانت جالسة هادئة ومستقيمة ، ويداها مطويتان في حجرها . أجابت :

"كنت أفكر في مارغريت ."

في وقت لاحق من الليل ، حين خرج إرلند وسايمون في مهمة إلى الساحة ، فقد أجفلا زوجاً كانا يقفان خلف زاوية المنزل فابتعد أحدهما عن الآخر . كان الليل صافياً كالنهار ، وعرف سايمون أنهما هاكون من غيسمار ومارغريت إرلندسداتر . لاحقهما إرلند بنظره -كان صاحياً بما فيه الكفاية- ولاحظ سايمون أنه كره ما رآه ؛ ولكنه قال ، وكأنما في محاولة لإيجاد العذر ، إن هذين الاثنين يعرفان أحدهما الآخر منذ الطفولة وكانا معتادين دائماً على إغاظة أحدهما الآخر والمزاح فيما بينهما . وقد فكر سايمون في أنه حتى لو لم يكن في الأمر أي ضرر آخر ، فقد كان أمراً مثيراً لشفقة بالنسبة للزوجة الشابة إنجبيورغ .

و لكن في اليوم التالي ، حين دخل هاكون الشاب إلى المنزل في مهمة له وسأل عن "مارغيت" ، صرخ إرلند في وجهه غاضباً :

"ابنتي ليست مارغريت بالنسبة إليك . وإذا كنت لم تنه حديثك معها البارحة ، فالأفضل لك أن تجعل ما لديك لتقوله لها ينتظر..."

هزّ هاكون كتفيه ، وتوسل إليهم وهو خارج أن يوصلوا سلامه إلى "مارغريتا" .

•

بقيت جماعة هوسابي في نيداروس حتى انتهت اجتماعات "المجلس" ، ولكن سايمون لم يشعر بسعادة كبيرة أو أنه مرتاح بينهم . كان من عادة إرلند الوقوع في نوبات من الشكوى حين يكون في منزل المدينة ، لأن غونولف كان قد منح للمستشفى ، الذي كان يقع على الجانب الآخر من البستان ، حق استخدام بعض الأبنية التي تفتح على البستان ، وكذلك بعض

الحقوق في الحديقة . كان إرلند مصمماً على شراء هذه الحقوق . لم يكن يحب مشاهدة المرضى في الحديقة وفي الباحة... كان البعض منهم في حالة مزرية جداً... وكان يخشى أن يلتقط أولاده العدوى من مرض ما . ولكنه لم يستطع الوصول إلى اتفاق مع الرهبان الذين كانوا يديرون المستشفى .

ثم كانت هناك قضية مارغريت إرلندسداتر . فهم سايمون أن كثيراً من الحديث كان يجري عنها ، وأن كريستين كانت منزعجة من ذلك . ولكن والد الفتاة لم يبد عليه الاكتراث... لقد بدا أنه يشعر بالثقة في قدرته على حماية ابنته وأنه لا شيء يدعو للخوف . ومع ذلك فقد ذكر يوماً لسايمون أنه يظن أن كلونغ آرسون يفكر في الزواج من ابنته ، وهو لا يعرف ما يفعله في هذا الشأن . لم يكن لديه أي شيء ضد ذلك الأيسلندي سوى أنه كان ابن كاهن... كان يكره أن يقال عن أولاد مارغريت إن هناك شائبة تتعلق بمولد الأبوين كليهما . أما فيما عدا ذلك فقد كان كلونغ رجلاً محبوباً ومرحاً حاد الذكاء ومثقفاً . أما أبوه ، "سيرا آر" ، فكان قد رباه وعلّمه بنفسه . كان يريد لابنه أن يكون كاهناً ، ويقال إنه قد اتخذ خطوات ليحصل له على الإعفاء اللازم ، ولكن كلونغ انسحب ورفض لبس المسوح . لقد بدا وكأن إرلند كان ينوي أن يترك المسألة تنتظر قليلاً... وإن لم يجد عريساً أفضل ، فهو يستطيع أن يقدم الفتاة إلى كلونغ آرسون .

و لكن كان معروفاً أنه سبق لإرلند أن تلقى عرضاً جيداً لأجل ابنته حتى أن الناس بدأوا يتحدثون عن اعتزازه بنفسه وحماقته في جعل تلك الصفقة تفلت من يديه . كان العرض قد وصل من حفيد بارون سيغفات أوف لايرهول... كان اسم الرجل هو سيغموند فينسون . لم يكن غنياً ، فقد رزق (أبوه) فين سيغفاتسون بأحد عشر طفلاً بقوا جميعاً على قيد الحياة . وما

كان ممكناً أن ندعوه شاباً ، فقد كان في عمر إرلند تقريباً –و لكن كان رجلاً يحظى بتقدير كبير ويتحلى بفهم كبير . ومع الأراضي التي منحها إرلند لابنته حين تزوج من كريستين لافرانسداتر ، ومع كل المجوهرات والهدايا الثمينة التي كان يهبها للطفلة بين الحين والآخر ، ومع البائنة التي اتفق مع سيغموند على أن يمنحها لمن يتزوجها ، فإن مارغريت ستكون أكثر من غنية . لقد كان إرلند بالفعل سعيداً بما فيه الكفاية في أن يجد مثل هذا الخطيب لابنته ذات المولد غير الشرعي . ولكنه حين عاد إلى البيت مع العريس لتراه الفتاة ، فإنها قالت إنها لن تتزوج سيغموند لأن له ثآليل على حافة أحد جفنيه ، وقالت إن هذا يجعلها تكرهه . استسلم إرلند أمام نزوة الفتاة ، وحين غضب سيغموند وتكلم عن فك عهد الخطوبة ، فإن إرلند غضب أيضاً وقال إن على الآخر أن يفهم بالتأكيد أن كل عهود الخطوبة تتم على شرط أن تكون الفتاة راغبة... ولا يجب إجبار ابنته على دخول فراش الزوجية بالقوة . فكرت كريستين مع زوجها في أن عليه ألاّ يجبر الفتاة بالقوة ، ولكن كان معروفاً أنها كانت تعتقد أنه كان من واجب إرلند أن يتكلم بجدية مع ابنته ويجعلها تفهم أن سيغموند فينسون عريس ملائم ، وذلك لأسباب تتعلق بمولدها ، وأنها لن تأمل في أن تجد عريساً أفضل منه . ولكن إرلند غضب من زوجته لتجرؤها على هذا الكلام ، رغم أنها قالته له وحده . سمع سايمون هذه الأمور في رانهايم . لقد تنبأ الناس هناك بأن كل هذا سينتهي نهاية سيئة . صحيح أن إرلند كان رجلاً ذا أهمية الآن ، وأن الفتاة كانت جميلة ، ولكن كان من المستحيل أن تنتهي الأمور لصالحها إن كان أبوها سيدللها كل هذه السنوات ويغذي اعتزازها بنفسها وعنادها .

•

بعد انتهاء "مجلس فروستا" ، مضى إرلند إلى هوسابي مع زوجته وأولاده ، وكذلك سايمون دار .

و الآن ، حين أصبح الأبناء الأكبر في عمر ملائم لركوب الخيل مع أبيهم خارج المنزل ، فقد بدأ يمنحهم المزيد من الاهتمام . لاحظ سايمون أن كريستين لم تكن سعيدة جداً بذلك... كانت تعتبر أن اختلاطهم برجال أبيهم لم يكن فيه الخير فحسب . وكان غالباً ما يتم تبادل الكلمات غير الودية بين الزوجين على الأغلب حين تتم مناقشة موضوع الأطفال... وحتى لو لم يتشاجرا مباشرة ، فقد كانا غالباً ما يقتربان من ذلك إلى حد لا يراه سايمون ملائماً . وقد بدا له أن كريستين كانت هي المخطئة في أغلب الأحيان . كان إرلند سريع الغضب ومتسرعاً ، ولكنها كانت غالباً ما تتكلم من حقد دفين . وهذا ما جرى أحد الأيام حين راحت تتذمر حول ناكفه . أجاب إرلند بأنه سيتحدث بصرامة مع الصبي ، ولكن حين تلفظت زوجته بمزيد من الكلام ، فقد انفجر بمرارة ، قال إنه لا يستطيع أن يضرب غلاماً كبيراً مثله بسبب قلة خدم المنزل .

"كلا ، فقد سبق السيف العذل . لو أنك ضربته وهو أصغر سناً ، لكان سيصغي إليك الآن . ولكنك ما كنت في تلك الأيام حتى لتنظر في اتجاهه ."

"أوه ، بل كنت . رغم أن المنطق كان يقول إن عليّ أن أتركه يبقى معك حين كان صغيراً ما يزال... وليس عملاً يليق بالرجال في اعتقادي أن يضرب الأطفال الصغار الذين لم يرتدوا البنطال بعد ."

قالت كريستين باحتقار ومرارة : "لكنك لم تكن من هذا الرأي في الأسبوع الماضي ."

لم يجب إرلند ، بل نهض وخرج . وقد رأى سايمون في هذا أن الغلط

صادر عن زوجة إرلند . فها هي تستذكر أمراً حدث في الأسبوع الذي مضى . إذ حدث حين وصل إرلند وسايمون إلى الساحة وهما يمتطيان جواديهما أن جرى باتجاههما لافرانس الصغير حاملاً سيفاً من الخشب ؛ وبينما راح يجري قرب جواد أبيه ، ضربه بسيفه ، في نوع من اللعب الشرير ، على ساقه . شب الحصان على قائمتيه الخلفيتين... وفي اللحظة التالية كان الصبي قد سقط أرضاً تحت حوافره . شد إرلند الحصان إلى الخلف ثم جذبه إلى الجانب وقفز منه ، ورمى بالعنان إلى سايمون . كان وجهه شاحباً من الخوف وهو يرفع الصبي بين ذراعيه . ولكن حين لاحظ أن الطفل لم يصب بأذى ، فقد وضعه على ذراعه اليسرى ، وتناول السيف الخشبي وضربه به على مؤخرته العارية : لم يكن الصبي قد ألبس بنطالاً بعد . في فورة غضبه لم يعرف كم كان ضربه قاسياً ، وها هو لافرانس ما زال حتى الآن يعاني من آثار زرقاء وسوداء . ولكن إرلند كان يحاول منذئذ أن يصادق الصبي مرة أخرى طوال الوقت... بينما كان الرجل الصغير يقطب جبينه ، ويتمسك بتنورة أمه ، ويهدد أباه ويلطمه . وحين وضع لافرانس ليرتاح في المساء في سرير أبويه ، حيث ينام عادة (فقد كانت أمه لا تزال ترضعه حتى الآن) ، جلس إرلند قرب السرير طوال المساء ، وهو يرنو إلى الطفل النائم ويتلمسه . وقد قال لسايمون إن هذا الصبي هو الأحب إلى نفسه بين أخوته .

•

حين انطلق إرلند لحضور الاجتماعات الصيفية للناس الذين تحت إمرته ، مضى سايمون إلى بيته . سار بجواده خبباً نحو الجنوب عبر

غاولدال ، حتى أن الشرار قد تطاير من الحجارة تحت حوافر جواده . وقد سأله رجاله ذات مرة ، حين أبطأوا المسير عند جبل شديد الانحدار ، إن كانوا سيقطعون مسيرة الأيام الثلاثة في يومين ، فضحك سايمون وقال إنه ينوي ذلك... "فأنا راغب في أن أكون في فورمو الآن ."

كان يتوق إلى العودة حين يكون بعيداً عن ضيعته لفترة من الزمن... فقد كان رجلاً محباً لبيته ، وكان يبتهج دائماً حين يوجه حصانه نحو الطريق المؤدية إلى بيته . ولكن بدا له أنه لم يكن مرة مشتاقاً إلى العودة إلى "ديل" وضيعته وابنتيه كهذه المرة... أجل ، هو مشتاق الآن لرامبورغ أيضاً . بدا له أنه ليس لديه سبب معقول لشوقه ، ولكن الحياة في هوسابي قد أثقلت على نفسه حتى أنه يظن أنه أصبح يعرف الآن كيف تشعر القطعان حين تكون هناك عاصفة على وشك الهبوب .

٢

خلال الصيف كله ، لم تكن كريستين تفكر سوى بما حكاه لها سايمون عن وفاة أمها .

ماتت راغنفريد إيفارسداتر وحيدة -لم يكن أحد بجوارها حين لفظت آخر أنفاسها ، باستثناء خادمة كانت نائمة . لم يكن في ذلك سلوان كبير... أي فيما قاله سايمون... أنه رغم حدوث الموت على نحو فجائي جداً ، ومع ذلك فقد كانت هي على أتم استعداد له . بدا وكأن العناية الإلهية الخاصة قد ارتأت أن تجعل راغنفريد تشعر قبل أيام قليلة من وفاتها بجوع لجسد المخلص إلى حد أنها ذهبت للاعتراف والتناول في الدير عند الكاهن مرشدها . لا شك أن ميتتها كانت ميتة صالحة ، فقد رأى سايمون جثمانها ، وقال إنها بدت له رائعة في موتها . فقد كانت جميلة جداً . كانت في الستين من عمرها تقريباً ، وكان وجهها كثير التجاعيد والأخاديد منذ سنوات . ولكن هذا تغيّر تماماً : لقد عاد وجهها شاباً وصقيلاً ، حتى بدت كامرأة شابة في حالة سبات . وقد دفنت قرب زوجها . كانوا قد أحضروا إلى هناك أيضاً رفات أولفهيلد لافرانسداتر بعد فترة قصيرة من وفاة أبيها . وقد وضع فوق القبور لوح حجري كبير ينصّفه صليب منحوت على نحو جميل ،

وقد كتب على لفافة قصيدة لاتينية طويلة نظمها مقدّم الدير . ولكن سايمون لم يستطع تذكرها على النحو الصحيح ، فقد كان لا يعرف إلا القليل من تلك اللغة .

كان لراغنفريد منزل في الباحة في البلدة حيث يعيش عامة الدير : هو عبارة عن غرفة منفردة وفوقها عليّة جميلة . هناك كانت تعيش لوحدها مع فلاحة فقيرة آواها الرهبان لقاء مبلغ زهيد مقابل أن تقدم يد العون لواحدة من نساء العامة الثريات . ولكن في نصف السنة الأخيرة على الأقل كانت راغنفريد هي التي تساعد المرأة الأخرى ، فهذه الأرملة -التي كان اسمها "تورغونا"- كانت مريضة ، وراحت راغنفريد تعتني بها بكثير من اللطف والاهتمام .

في الأمسية الأخيرة من حياتها حضرت صلاة المساء في كنيسة الدير ، ثم مضت إلى المطبخ في باحة العامة . وهناك طبخت قدراً كبيراً من الحساء ووضعت فيه أعشاباً مقوية ، وقالت للنساء الأخريات هناك إنها ستطعم تورغونا منه ، وأنها كانت تأمل أن تكون تلك في حالة جيدة في الصباح بحيث ترافقها إلى صلاة الصبح . وكانت تلك آخر مرة شوهدت فيها تلك الأرملة من يورونداغارد على قيد الحياة . لم تحضر المرأتان صلاة الصبح ، لا راغنفريد ولا الفلاحة -كما لم تحضرا صلاة الضحى . وحين لاحظ بعض الرهبان في الجوقة أن راغنفريد لم تكن في الكنيسة لأجل القداس النهاري أيضاً ، فقد بدأوا يتساءلون... إذ لم تكن قد فوتت ثلاث صلوات من قبل . أرسلوا إلى البلدة يسألون إن كانت أرملة لافرانس بيورغولفسون مريضة . وحين دخل الناس إلى العلية ، وجدوا قدر الحساء لم يمس على المائدة . في السرير كانت تورغونا تنام نوماً هنيئاً قرب الجدار ، ولكن راغنفريد

إيفارسداتر كانت تضطجع على الجانب الخارجي من السرير ويداها متصالبتان فوق صدرها ، ميتة ، وقد برد جثمانها . وصل سايمون ورامبورغ لحضور الدفن ، وكانت جنازة ممتازة .

بما أن سكان هوسابي قد زاد عددهم الآن إذ رزقت كريستين بستة أبناء ، فلم تعد قادرة على الاهتمام بكل نواحي التدبير المنزلي . كانت مضطرة إلى استخدام مدبرة منزل ، وهكذا فإن سيدة المنزل أضحت تقضي معظم وقتها في القاعة وهي تخيط . كان هناك على الدوام من هو في حاجة إلى ملابس... إرلند ، مارغريت ، أو أحد الصبيان .

آخر مرة رأت فيها أمها كانت وهذه تمتطي جوادها خلف نعش زوجها... في ذلك اليوم الربيعي المشرق حين وقفت في مرج يورروندغارد وشاهدت جنازة أبيها تمر عبر الرقعة الخضراء من شوفان الشتاء تحت ركام الصخور .

كانت أبرة كريستين تطير وتطير ، وفكرت في والديها وبيتها في يورروندغارد . الآن بعد أن أصبح كل شيء مجرد ذكرى ، فقد بدا لها أنها أصبحت واعية بالكثير مما لم تره حين كانت تعيش في وسطه ، وكانت تعتبر رعاية أبيها الحنون لها وعمل أمها الصامتة ذات الوجه الحزين وعنايتها الدؤوب على أنها أمور مسلّم بها . فكرت بأطفالها : كانوا أعز عليها من دم قلبها . لم يكونوا ليغيبوا عن ذهنها ساعة واحدة من يقظتها . ولكن كان هناك الكثير من الأمور كانت تتأملها أكثر... كانت تحب أطفالها دون تفكير في الأمر . ما كانت قد فكرت قط ، حين كانت تسكن في منزل أبويها ، إلاّ أن هذين كانا يكرسان كل حياتهما وأفعالهما ونضالهما لأجلها ولأجل أختيها . والآن بدا لها أنها ترى بين هذين الأبوين الذين زوِّجا وهما صغيران بإرادة أبويهما ، دون أن يستشارا ، تيارات سريعة قوية جارية من الحزن

والفرح... لكنها لم تكن تعرف عنها شيئاً سوى أنهما قد مضيا الآن ، يداً بيد ، خارجين من حياتهما . الآن فهمت أن حياة هذا الرجل وهذه المرأة كان فيها أكثر من مجرد حبهما لأطفالهما... ومع ذلك كان ذلك الحب قوياً وواسعاً وعميقاً دون غور ، بينما كان الحب الذي بادلتهما إياه ضعيفاً عديم التفكير وأنانياً ، حتى حين كانا هذان ، في طفولتها ، هما عالمها كله . بدا وكأنها ترى نفسها واقفة بعيدةً ، بعيدةً جداً... صغيرة جداً ، صغيرة جداً أمام الامتداد الهائل للزمن والمكان . وقفت تحت عمود نور الشمس الذي كان يتسلل هابطاً عبر فتحة الدخان في غرفة المدفأة القديمة في بيت أهلها ، في بيت شتاء طفولتها . وقف والداها إلى الخلف قليلاً ، في الظل... كانا يبدوان ضخمين كما كانت تراهما وهي صغيرة بعد ، وكانا يبتسمان لها... تلك الابتسامة التي تعرف الآن أنها تنتاب الشخص حين يأتي الطفل ليبعد أفكاراً ثقيلة ومزعجة .

"اعتقدت يا كريستين أنك حين ستحملين طفلاً أنت نفسك ، فلا شك أنك ستفهمين على نحو أفضل ."

تذكرت حين قالت لها أمها هذه الكلمات . فكرت بحزن... لم يكن صحيحاً ، كما خشيت ، أنها قد فهمت أمها حتى الآن . ولكنها بدأت تفهم كم كان هناك من أمور لم تفهمها .

•

في هذا الخريف مات الأسقف آيليف . وفي الوقت نفسه تقريباً غيّر الملك ماغنوس فترات الخدمة لكثير من الحكام ، ولكن ليس إرلند نيكولاوسون . وحين كان إرلند في بيورغفين في آخر صيف قبل بلوغ الملك

سن الرشد ، فقد أعطي رسائل تمنحه ربع دفعات العفو[١٤] كافة ، وكذلك الغرامات والمصادرات التي تتم في حاكميته... وقد تحدث المجلس كثيراً عن منحه هذه المنحة مع اقتراب نهاية فترة الوصاية على العرش . بما أن إرلند كان يمتلك الكثير من الأراضي الآن ، وغالباً ما كان يعيش في مزارعه لدى الانتقال في أنحاء حاكميته ، وبما أنه سمح لمزارعيه بفك الرهن عن رسوم أراضيهم ، فإن دخله كان كبيراً . صحيح أن هذا كان يعني أن الدخل من رسوم الأراضي عيناً كان صغيراً ، وأنه كان يحتفظ بحاشية كبيرة مكلفة... هذا علاوة على تابعيه في الضيعة حيث كانت ترافقه ثلة من اثني عشر رجلاً مسلحاً في هوسابي . وكان هؤلاء من الفرسان المسلحين جيداً . وحين كان يتجول في مهماته كان رجاله يعيشون عيشة اللوردات .

و قد جرت أحاديث عن ذلك اليوم بعينه حين وصل لاغماند هارالد وتوره ، الحاكم السابق لمقاطعة غالدولا ، إلى هوسابي . أجاب إرلند بأن كثيراً من هؤلاء الرجال كانوا معه حين كان يقوم بالمسيرات في الشمال . «وهناك كنا نتشارك فيما كنا نستطيع الوصول إليه... السمك المجفف والجعة الخفيفة الحامضة . والآن أمنح الرجال الطعام واللباس ليعرفوا أني لا أغبطهم الخبز الأبيض والجعة القوية . وإن غضبوا بين الحين والآخر ، فإني آمرهم بالذهاب إلى جهنم ، فيفهمون جيداً أني لا أعني أن عليهم أن ينطلقوا قبل أن أقود الطريق بنفسي .

قال أولف هالدورسون الذي كان رئيس مجموعة حرس إرلند الآن ، لعشيقته لاحقاً إن الأمر كان كذلك حقاً . كان رجال إرلند يحبونه وكان هو مسيطراً عليهم جيداً .

"تعرفين جيداً يا كريستين أن المرء لا يجب أن يأبه كثيراً بما يقوله إرلند . على المرء أن يحكم عليه بما يفعله ."

كانت هناك مسألة أخرى أثارت الكثير من الكلام ، أن إرلند علاوة على خدم منزله ، كان يحتفظ برجال في كل أنحاء الريف... وليس في أوكدولا فحسب... وأنه قد حلف الأيمان على خدمته على قراب سيفه . كان قد تلقى منذ بعض الوقت رسائل ملكية حول هذا الموضوع ، ولكنه أجاب بأن هؤلاء الرجال كانوا يشكلون طاقم سفينته ، وأنّه قد جعلهم يحلفون اليمين في أول ربيع حين كان عليه الإبحار شمالاً . وبناء على هذا فقد كان ملتزماً بإحلال هؤلاء الرجال من يمينهم لدى انعقاد المجلس القادم لنشر الأحكام والمراسيم الخاصة باجتماع "لاغ" ، وأنه لأجل هذا الغرض سيكون عليه استدعاء الرجال من خارج البلاد ، على أن يتحمل بنفسه نفقات سفرهم . وكان قد أرسل في الحقيقة بعضاً من بحارته القدماء من مور إلى مجلس أوركدال . ولكن لم يسمع أحد عن إحلاله لهم من يمينهم ، أو عن إحلال أي رجل آخر كان تابعاً له من يمينه . على أي حال لم يتم التطرق إلى هذا الأمر مجدداً . وهكذا ، مع مرور الخريف توقف الكلام حول هذه المسألة .

في أواخر الخريف سافر إرلند جنوباً وبقي موسم عيد الميلاد في بلاط الملك ماغنوس الذي كان في أوسلو في تلك السنة . كان غاضباً لأنه لم يستطع إحضار زوجته معه ، ولكن كريستين كانت تكره تلك السفرة الشتائية المرهقة ، وبقيت في البيت في هوسابي .

•

عاد إرلند بعد ثلاثة أسابيع من عيد الميلاد ، حاملاً معه هدايا ثمينة لزوجته ولكل الأطفال . قدم لكريستين جرساً فضياً لتنادي به على خادماتها . أما مارغريت فقدم لها مشبكاً من الذهب الخالص ، لم تكن قد

حصلت على مثيله من قبل ، رغم أنها كانت تملك الكثير من أدوات الزينة المنوّعة الفضية والمطلية بالفضة . ولكن بينما كانت المرأتان تضعان هداياهما الثمينة كل في صندوق مجوهراتها ، فإن شيئاً ما في صندوق مارغريت قد علق بكمّها وظل معلقاً فيه . غطته الفتاة بسرعة بيدها وهي تقول لزوجة أبيها :

"أمي هي من تركت لي هذا ، لذلك لا يريد مني أبي أن أريك إياه ."

كان وجه كريستين قد تضرج أكثر من وجه االفتاة . راح قلبها يدق بقوة من الخوف ، ولكن بدا أن عليها أن تكلم الفتاة لتحذرها .

بعد برهة قالت لها بصوت خفيض متعثر :

"هذا يشبه الإبزيم الذهبي الذي كانت الليدي هيلغا أوف غيمسار ترتديه في الاحتفالات ."

"أجل... تتشابه الأشياء الذهبية كلها" ، أجابت الفتاة باختصار .

أقفلت كريستين صندوقها ووقفت ساكنة ويداها ما تزالان فوقه ، حتى لا ترى مارغريت كيف كانتا ترتجفان .

قالت برقة ولطف : "يا مارغريت العزيزة" -كان عليها أن تتوقف- ولكنها استجمعت قواها وتابعت تقول : "يا مارغريت العزيزة ، لقد ندمت بمرارة - ولم أستطع قط التمتع بأي سعادة ، رغم أن أبي سامحني من كل قلبه على أخطائي في حقه- وأنت تعرفين أني أخطأت في حق أبويّ لأجل خاطر أبيك . ولكن كلما عشت لفترة أطول سأشعر أني على وشك أن أفهم ، وكلما ثقل عليّ أن أتذكر أني سدّدت دينهما علي بأن سببت لهما الحزن . يا مارغريت العزيزة ، لقد كان أبوك طيباً في معاملته معك طوال أيام حياتك..."

أجابت الفتاة : "لا حاجة إلى الخوف يا أمي ، فأنا لست ابنتك . لا حاجة بك إلى الخوف من أني سأبلي شلحتك الوسخة أو أحلّ محلك..."

التفتت كريستين بوجه متضرج من الغضب نحو ابنة زوجها . ثم قبضت بيدها على الصليب الذي كانت ترتديه من حول عنقها بقوة ، وابتلعت الكلمات التي كانت على شفتيها .

•

مضت إلى سيرا آيليف في ذاك المساء نفسه بعد صلاة الغروب ، ونظرت عبثاً في وجه الكاهن بحثاً عن أي علامة... هل حلّ الأسوأ وهل عرف به ؟ تذكرت شبابها المضطرب ، ووجه سيرا آيريك الذي كان لا ينمّ عن شيء ، بينما كان يعيش اليوم إثر اليوم معها ومع أبويها الواثقين ، ومع سرها الآثم المكتوم في صدرها... وهي نفسها قاسية وصماء تحت تهديداته وتحذيراته الصارمة . وتذكرت ذلك الوقت بعد أن كانت مخطوبة شرعاً لإرلند ، حين عرضت أمام أمها الهدايا التي جلبها لها وهي في أوسلو . كان مظهر الأم ساكناً في هدونه وهي تتحسس الهدايا بيدها ، واحدة إثر أخرى ، وتنظر إليها تثني عليها ثم تضعها من يدها .

كانت في حالة من الخوف القاتل اليائس ، وراحت تراقب مارغريت مراقبة لصيقة . لاحظ إرلند وجود شيء ما على غير ما يرام في زوجته ، وفي إحدى الأمسيات ، حين ذهبا ليرتاحا ، سألها إن كانت حاملاً مرة أخرى .

لم ترد كريستين في البداية ولكنها أجابت بعد برهة أنها تعتقد الأمر كذلك . وحين أخذها زوجها ، لدى سماعه هذا ، ثم احتضنها بين ذراعيه بمودة ولم يعد يطرح المزيد من الأسئلة ، لم تستطع أن تجبر نفسها على

القول إن مسألة أخرى كانت تثقل عليها . ولكن حين همس إرلند أن عليها في هذه المرة أن تؤدي واجبها وتنجب له ابنة ، لم تعد فيها القوة على الإجابة ، بل تمددت هناك وقد تيبّست من الخوف ، مفكرة أن إرلند قد يعرف خلال وقت وجيز جداً نوع الفرح الذي تجلبه الفتيات .

•

بعد بضع ليال من هذا أوى سكان هوسابي إلى فُرُشهم بعد الكثير من الشراب ومتخمين من الطعام ، فقد كانت تلك هي الأيام السابقة على "الصوم"... وهكذا نام الجميع نوماً ثقيلاً . ولكن في وقت متأخر من الليل استيقظ لافرانس الصغير في سرير أبويه ، وبدأ يتذمر ويبكي ، وهو لا يزال نصف نائم ، طالباً ثدي أمه . إلا أنه كان قد حان أوان فطامه . استيقظ إرلند ، ونخر بغضب ، إلا أنه حمل الصبي وسقاه حليباً من فنجان كان موضوعاً على درج السرير ، ثم وضعه على جانبه من السرير .

كانت كريستين قد غرقت مجدداً في وسن عميق ، حين أحست فجأة بإرلند يجلس منتصباً في السرير . وقد سألته نصف مستيقظة عما يحصل ، ولكنه أمرها بالسكوت بصوت لم تعرفه . ودون صوت تسلل من الفراش . لاحظت أنه كان يرتدي بعض ملابسه ، ولكن حين اتكأت على مرفقها ، فقد ضغط عليها بيد واحدة فوق الوسادة ثم تناول السيف الذي كان معلقاً فوق رأس السرير .

تحرك بهدوء الوشق ، ولكنها أحست أنه قد نزل السلم الذي يؤدي إلى غرفة نوم مارغريت فوق الغرفة الخارجية .

شلّها الخوف لحظة . ثم جلست ووجدت شلحتها وتنورتها ، وتلمست في العتمة باحثة عن حذائها على الأرض قرب السرير .

في اللحظة نفسها سمع زعيق امرأة في العلية... لا شك أنه سُمع في الضيعة كلها . صرخ صوت إرلند بكلمة أو اثنتين... ثم سمعت صليل السيوف ودبيب الأقدام من العلية... ثم صوت سلاح يسقط على الأرض ، وصرخة رعب من مارغريت .

ركعت كريستين جاثية قرب المدفأة... حركت الرماد الساخن بيديها ونفخت على الجمر . وحين استطاعت أن توقد المشعل المصنوع من جذور التنوب ، وحملته بيديها المرتعشتين ، رأت إرلند وهو في الأعلى هناك في العتمة... قفز الدرج دون توقف ، حاملاً سيفه المجرد بيديه وهو يعدو خارجاً من الباب الخارجي .

من كل جانب ، في العتمة ، كانت رؤوس الصبيان قد برزت . ذهبت إلى السرير الشمالي حيث كان الثلاثة الكبار ينامون ، وأمرتهم بأن يناموا ، ثم أغلقت باب السرير . أما إيفار وسكوله اللذان جلسا فوق المقعد الذي كان سريراهما قد رتبا فوقه ، فقد كانا يرتعشان خوفاً وحيرة من النور ، فجعلتهما يزحفان إلى سريرها وأغلقت عليهما الباب أيضاً . ثم أضاءت شمعة وخرجت إلى الساحة .

كان المطر يهطل... للحظة واحدة ، وبينما كان نور شمعتها منعكساً في قشرة الجليد اللامعة الرطبة ، رأت جمهرة من الناس خارج باب أقرب مبنى... كان ذاك هو مسكن الخدم حيث ينام تابعو إرلند . ثم انطفأت الشمعة... وحلّ الليل الحالك مجدداً... ثم جاء أولف هالدورسون من مبنى الخدم يحمل قنديلاً .

انحنى فوق جسد معتم كان ممدداً في كومة على الجليد الرطب المتكتّل . ركعت كريستين وتحسست جسد الرجل بيديها... كان ذاك هو

الشاب هاكون أوف غيمسار... وكان مغمى عليه أو ميتاً . وعلى الفور كانت يداها مغطاتين بالدم . ساعدها أولف على قلب الجسد ورفعه . كان الدم ينزف من الذراع اليمنى التي فصلت عنها اليد بالكامل .

و بدون وعي رمت بنظرة إلى الأعلى إلى حيث كان مصراع نافذة غرفة نوم مارغريت ينصفق تحت الريح لم تستطع أن ترى وجهاً هناك... ولكن الظلام كان شديداً .

و بينما هي راكعة في بركة من الماء وهي تضغط رسغ هاكون بكل قوتها لتوقف اندفاع الدماء ، فقد كانت واعية على نحو غامض برجال إرلند الملتفين من حولها نصف عراة . ثم رأت وجه إرلند الرمادي الملتوي –و كان يمسح سيفه المدمى بالجزء السفلي من معطفه– كان عارياً تحت المعطف وقدماه حافيتين .

قالت : "فليجد لي أحدكم عصبة ، وأنت يا بيورن ، اذهب وأيقظ سيرا آيليف... علينا أن نحمله إلى منزل الكاهن ."

تناولت الشريط الجلدي الذي قدم لها ولفته من حول جدعة الذراع . وفجأة قال إرلند بصوت وحشي قاس :

"لا تدعوا أحداً يلمسه! دعوا الرجل ملقياً حيث رمى نفسه..."

قالت كريستين بهدوء رغم أن قلبها كان يدق حتى كاد يخنقها : "أنت تعرف جيداً يا زوجي أن هذا غير ممكن ."

غرز إرلند رأس سيفه في الأرض بقوة .

"أجل... إنها ليست من لحمك ودمك... لقد جعلتني أشعر بذلك طوال هذه السنين ."

نهضت كريستين وتكلمت بصوت رقيق قريباً منه :

"و مع ذلك أودّ لأجل خاطرها أن يُخفى هذا... إن كان ذلك ممكناً . أنتم أيها الرجال" -التفتت إلى الرجال الواقفين من حولها- "مخلصون حقاً لسيدكم ، على ما أعتقد ، إلى الحد الذي لن تذكروا معه هذا الأمر حتى يقول هو لكم كيف سينتهي هذا النزاع بين هاكون وبينه ؟"

أجاب الرجال جميعاً بنعم . تقدم أحدهم إلى الأمام... لقد استيقظوا -كما قال- إذ سمعوا امرأة تصرخ وكأن شخصاً كان يغتصبها -ثم قفز أحدهم على سقف مبناهم ، ولكن لا بد أنّ قدمه زلّت على القشرة الجليدية ، فقد سمعوا شيئاً ينزلق نزولاً ثم سقطة ثقيلة في الساحة . ولكن كريستين طلبت من الرجل الصمت . ثم وصل سيرا آيليف وهو يعدو الآن .

حين التفت إرلند ودخل ، لحقت به زوجته محاولة أن تسبقه . وحين اقترب من درج العلية ، سبقته وأمسكت به من ذراعيه .

"إرلند... ما الذي تريد أن تفعله بالطفلة ؟" لهثت في وجهه الرمادي الثائر .

لم يجب... حاول أن يبعدها جانباً ، ولكنها تشبثت به .

"توقف يا إرلند ، توقف... ابنتك! أنت لا تعرف... فالرجل كان في كامل ملابسه" ، صرخت يائسة .

صرخ صرخة عالية مبحوحة قبل أن يجيب... وقد شحبت هي من الرعب... كانت كلماته غليظة وصوته قد تغيّر كثيراً بسبب ألمه المجنون .

و من جديد تصارعت بصمت مع الرجل الهائج الذي كان يهدر ويصرّ بأسنانه . وأخيراً التقت عيناها عينيه في نصف النور :

"إرلند... دعني أذهب أولاً . لم أنس اليوم الذي كنت فيه في وضع ليس أفضل من وضع مارغريت" .

ثم أطلقها ، وهو يترنح مستنداً إلى جدار الحجرة ، ووقف هناك مرتجفاً كحيوان يحتضر . ذهبت كريستين وأضاءت شمعة ، ثم عادت ومرت به وهي صاعدة إلى مارغريت في حجرة نومها .

كان أول شيء سقط عليه النور سيفاً ملقياً على الأرض ليس بعيداً عن السرير ، وإلى القرب منه اليد المقطوعة لرجل . خلعت كريستين غطاء رأسها الذي كان دون أن تدري معلقاً من حول شعرها المسدل قبل أن تخرج إلى الرجال . والآن رمته فوق هذه الأشياء الملقية على الأرض .

كانت مارغريت جالسة وهي متكومة على الوسائد عند رأس السرير وتحدق إلى كريستين بعينين مفتوحتين على آخرهما . كانت تلف أغطية السرير من حولها ، ولكن كتفيها العاريين كانا يلتمعان بيضاوين عبر خصل شعرها الذهبي . كان هناك الكثير من الدم في أرجاء الغرفة .

انفجر كبت روح كريستين في نوبة قوية من البكاء... كان مشهداً شديد البؤس ، مشهد الطفلة الجميلة بين كل هذا الرعب . ثم صرخت مارغريت :

"أمي... ما الذي سيفعله بي أبي ؟"

لم تستطع كريستين مغالبة الأمر... ففي غمرة إشفاقها العميق على الفتاة ، بدا قلبها وكأنه يضمر ويصبح قاسياً في صدرها . لم تسأل مارغريت عمّا فعله أبوها بهاكون . وفي ومضة تجلت الصورة أمامها : إرلند وهو ممدد على الأرض ، وأبوها واقف فوقه حاملاً سيفه المدمى ، وهي بنفسها... ولكن

مارغريت لم تتحرك من المكان . لم تستطع أن تعيق الكره القديم المترع بالاحتقار من أن يبرز مرة أخرى في صدرها ، بينما كانت مارغريت تتشبث ، مرتجفة ، وتكاد تجنّ من الخوف ، بينما جلست هي على حافة السرير محاولة تهدئة الطفلة قليلاً .

و هكذا كانتا جالستين حين دخل إرلند عبر الباب المسحور . كان يرتدي كامل ملابسه الآن . زعقت مارغريت مجدداً ، واختبأت بين ذراعي زوجة أبيها... رفعت كريستين عينيها إلى زوجها للحظة . كان هادئاً الآن ، إنما شاحب وغريب الوجه . ولأول مرة بدا في عمره الحقيقي .

و لكنه قال بهدوء : "عليك أن تنزلي يا كريستين... سأتحدث مع ابنتي لوحدي" . أطاعته . وضعت الفتاة في السرير بعناية ، وغطتها حتى الذقن بالأغطية ، ثم مضت نحو الدرج .

و كما فعل إرلند ، مضت لترتدي كامل ملابسها... ما كان هناك أحد في هوسابي سيعود إلى النوم في تلك الليلة... ومضت لتهدئ من روع الأطفال والخدم الخائفين .

•

في صباح اليوم التالي ، وفي عاصفة ثلجية عاتية ، خرجت خادمة مارغريت وهي تبكي مغادرة المكان حاملة حوائجها في كيس على ظهرها . كان سيدها قد طردها بأقسى العبارات والتهديد بأنه سيسلخها حية لأنها باعت سيدتها على هذا النحو .

ثم استجوب بقية الخدم... ألم تشك الخادمات بوجود شيء شرير حين بدأت "انغلايف" في الخريف والشتاء تنام معهن بدلاً من نومها في غرفة نوم

مارغريت ؟ وكيف حدث أن الكلاب كان مقفلاً عليها داخل وجارها ؟ ولكنهن أنكرن كل شيء كما هو متوقع .

و أخيراً استجوب زوجته ، على انفراد . أصغت كريستين المتألمة المنهكة إليه وحاولت أن تحوّل عنها ظلمه بالإجابات الرقيقة . لم تنكر أنها كانت خائفة ، وأنها امتنعت عن أن تقول إنها لم تكلمه خوفاً منه ، لأنها لم يسبق لها أن حصدت سوى نكران الجميل منه حين حاولت أن تنصحه أو مارغريت في صالح الفتاة . ولكنها أقسمت بالله وبالعذراء مريم أنها لم تكن تعرف ولا استطاعت أن تفكر في أن رجلاً قد يصعد إلى غرفة مارغريت في العلية ليلاً .

قال إرلند باحتقار : "أنت! تقولين أنت نفسك إنك تتذكرين ذلك الزمان حين لم تكوني في وضع أفضل من وضع مارغريت... والرب في السماء يعرف أنك جعلتني ألاحظ ، في كل يوم من أيام السنين التي عشناها سوية ، أنك تتذكرين الخطأ الذي ارتكبته في حقك -رغم أن رغبتك لم تكن أقل من رغبتي ، وأن أباك وليس أنا هو الذي سبب الكثير من المشاكل برفضه تزويجك مني- كنت راغباً بما فيه الكفاية منذ الساعة الأولى في افتداء خطيئتي . وحين شاهدت قطعة المصاغ خاصة غيمسار"... وهنا أمسك بيدها بقوة ورفعها حتى التمع الخاتمان اللذان أهداهما إياهما في غيردارود في النور..." ألم تعرفي معناها ؟ لقد كنت ترتدين في كل يوم من أيام هذه السنين الخواتم التي أهديتك إياها يوم منحتني شرفك..."

كانت كريستين على وشك الانهيار من الإنهاك والحزن ، فأجابت بصوت خفيض :

"أستغرب يا إرلند لو كنت لا تزال تتذكر ذلك الزمن الذي هزمت فيه شرفي..."

دفن رأسه بين ذراعيه ورمى بنفسه على المقعد ، وهو يتقلّب ويتلوى . جلست كريستين على مسافة قريبة منه... كانت تتمنى لو تستطيع مساعدة زوجها . فهمت أن هذه البليّة قد حلّت على نحو أشد عليه لأنه هو نفسه قد ارتكب بحق الآخرين إثماً مشابهاً لما ارتكب ضده الآن . وهو إذ لم يكن راغباً في مجابهة خطئه وجهاً لوجه في أي مشكلة سببها هو بنفسه ، فلن يستطيع قط أن يلوم نفسه على هذا... ولم يكن هناك شخص آخر سواها يستطيع هو أن يلقي اللوم عليه . ولكنها لم تكن كثيرة الغضب أو الحزن أو الخوف مما سيحصل الآن .

بين الحين والآخر كانت تصعد لتجلس مع مارغريت في العلية . كانت الفتاة تقبع شاحبة دون حراك ، تحدق أمامها . لم تكن قد سألت بعد عمّا جرى لهاكون... ولم تكن كريستين تعرف إن كان ذلك بسبب عدم جرأتها على طرح السؤال أو أن بؤسها قد جعلها بليدة الحس .

في عصر ذلك اليوم رأت كريستين إرلند وكلونغ الأيسلندي يمضيان معاً عبر الثلج الذي كان يهطل كثيفاً نحو مخزن السلاح . ولكن بعد مضيّ زمن قصير ، عاد إرلند لوحده . رفعت كريستين بصرها للحظة وهو عائد نحو النور ومرّ إلى القرب منها... بعد ذلك لم تجرؤ على النظر باتجاه زاوية القاعة حيث كان يخفي نفسه . لقد لاحظت أنه كان محطماً تماماً .

و بعد ذلك بوقت قصير ، وحين ذهبت لأمر ما إلى المستودع ، وصل إيفار وسكوله وهما يعدوان وقالا لأمهما إن كلونغ الأيسلندي سيرحل هذا المساء... كان الصبيان حزينين لذلك ، فقد كان رجل الدين ذاك صديقاً حميماً لهما . كان يحزم أغراضه الآن وسيمضي إلى بيرغسي هذه الليلة...

لقد سبق لها وخمّنت ما كان قد جرى . لقد عرض إرلند ابنته على

رجل الدين ، وقد رفض هذا يد الفتاة الساقطة . ولكن كم كانت تلك المفاوضات صعبة على إرلند... شعرت بالدوخة والغثيان ولم تستطع تحمل التفكير في ذلك .

في اليوم التالي ، وصل خبر من منزل الكاهن . لقد رجاه هاكون ايندريدسون أن يطلب له الإذن لمخاطبة إرلند . ردّ إرلند على ذلك بأنه ليس لديه ما يقوله لهاكون . قال سيرا آيليف لكريستين إن هاكون لو بقي على قيد الحياة فسيكون معوقاً بالكامل... وعلاوة على ذلك فإنه فقد يده اليمنى ، كما أنه قد آذى ظهره ووركيه بشدة حين سقط من سطح مبنى الخدم . ولكنه كان مصمماً على الذهاب إلى بيته ، حتى في حالته تلك ، وقد وعده الكاهن بأن يحصل له على عربة جليد . كان قد ندم على خطيئته الآن من كل قلبه... قال إن والد مارغريت تصرف ضمن حقوقه ، مهما يقول القانون في ذلك ، ولكنه كان راغباً في أن يبذل الجميع جهدهم لإبقاء المسألة سراً ، حتى يكون تصرفه الشائن وعار مارغريت مكتومين قدر الإمكان . في عصر ذلك اليوم حمل إلى عربة الجليد ، التي استعارها سيرا آيليف من ربستاد ، وصحبه الكاهن بنفسه إلى غاولدال .

•

و هكذا حدث في اليوم التالي الذي كان أربعاء الرماد (أول أيام الصوم الكبير) ، أن كان على سكان هوسابي النزول إلى فينيار إلى كنيسة الأبرشية . ولكن مع حلول صلاة الغروب جعلت كريستين القندلفت يقودها إلى المعبد في البيت .

استطاعت أن تشعر بالرماد وهو لا يزال على جبينها حين ركعت قرب قبر ابن زوجها وتلت صلاة "أبانا الذي" على روحه .

لن يكون قد تبقى سوى العظام من الفتى الآن ، هناك تحت حجارة قبره . العظام والشعر وبقايا الثياب التي دفن فيها . لقد شاهدت عظام أختها الصغيرة حين نبشوها ليدفنوها قرب أبيها في هامار . تراب ورماد... فكرت بوجه أبيها الوسيم وبأمها ذات العينين الواسعتين في الوجه المغضن والقد الذي بقي شاباً ورشيقاً على نحو غريب ، رغم أن وجهها شاخ مبكراً . هاهم هناك تحت الأحجار ، وقد انهاروا كما تنهار المنازل حين يغادرها ساكنوها . رفرفت الصور ثم بهتت... الخرائب المحترقة للكنيسة في ضيعة أهلها ، مزرعة في سيلسادال اعتادوا أن يمروا بها في طريقهم إلى "فاغ"... كانت المنازل تقف فارغة ومتهاوية ، والناس الذين كانوا يفلحون الأرض ما عادوا يجرؤون على الاقتراب منها بعد غروب الشمس . فكرت بالموتى من الأحباب -بمظهرهم وأصواتهم وابتساماتهم وقدودهم- والآن بعد أن رحلوا بعيداً إلى هناك إلى ذلك البلد البعيد ، فإن التفكير في أشكالهم كان مؤلماً . كان ذلك أشبه بتذكر بيت المرء وهو يعرف أنه خاو ، وأن أعمدته الخشب كانت غارقة في التراب .

جلست عند المقعد الجداري في الكنيسة الخاوية ، وجعلت رائحة البخور البارد العتيق أفكارها تتلبث على صور الموت وفساد كل الأشياء الدنيوية . وكانت عاجزة عن التسامي بروحها لتلقي نظرة على الأرض حيث كان أحباؤها ، إلى حيث أُخذ كل الخير والحب والحقيقة أخيراً ليُكنز هناك . في كل يوم حين كانت تصلي لسلام أرواحهم ، كان يبدو لها أمراً غريباً وغير لائق أن يكون عليها أن تصلي لهم ، أولئك الذين كانت أرواحهم على الأرض قد عرفت السلام على نحو أعمق بكثير ممّا عرفته هي منذ أن دخلت طور النساء . وقد قال سيرا آيليف بالفعل إن الصلاة على الأموات كانت دائماً مفيدة ، مفيدة لها ، حتى لو كان أولئك الآخرون قد سبق لهم وورثوا سلام الرب .

و لكن ذلك لم يساعدها . بدا لها أنه حين سيكون جسدها المنهك آخذاً بالتعفن تحت حجر القبر ، فإن روحها القلقة ستبقى محكوماً عليها بالتجوال في مكان ما قريب ، كما يتجول شبح حزين من حول البيوت المنهارة في مزرعة خربة . ففي روحها لا تزال الخطيئة موجودة كما هي نسج جذور الأعشاب المتجذرة في التربة . لم تعد تزهر وتضطرم وتفغ بعطرها في الهواء ، ولكنها كانت ما تزال هناك في التربة ، مبيّضة إنما قوية مترعة بالحياة . ورغم الحنان الذي كان ينبع من قلبها حين كانت ترى يأس زوجها ، إلاّ أنها لم تكن تتمتع بالإرادة أو القوة على إخماد الصوت الذي في داخلها صارخاً في مرارة وغضب : هل تستطيع أن تكلمني أنا على هذا النحو ؟ هل نسيت ذلك الوقت الذي وهبتك فيه عهدي وشرفي ؟ هل نسيت ذلك الوقت الذي كنت فيه أعز الأحباء على قلبك ؟ ومع ذلك كانت تعرف أنه طالما كان هذا الصوت يتساءل في داخلها على هذا النحو ، فإنها كانت ستكلمه وكأنها قد نسيت .

أغرقت نفسها في أفكارها أمام ضريح القديس أولاف ، تأملت في العظام المتعفنة ليد الأخ إدفين بعيداً في الكنيسة في فاتسفييلد . كوّرت قبضتها من حول المذخرات التي تحوي مزقاً من كفن امرأة ميتة وشظايا عظام شاهد دموي... بحثت عن الأمان في البقايا الصغيرة التي بقي فيها من خلال الموت واللاشيء قليل من فضيلة الروح المغادرة... مثل القوة السحرية التي تتشبث بالسيوف الصدئة التي تُنبش من قبور المحاربين القدماء .

•

في اليوم التالي ، ركب إرلند حصانه إلى المدينة ، مصطحباً معه أولف

ورجلاً واحداً آخر فحسب . وخلال فترة الصيام كلها لم يعد قط إلى هوسابي ، ولكن أولف جاء لاصطحاب الحرس لمقابلته في مجلس منتصف الصيام في أوركيدال .

في حديثه المنفرد مع كريستين ، قال لها أولف إن إرلند قد اتفق مع تييدكن باوس ، الصائغ الألماني في نيداروس ، على أن تتزوج مارغريت من ابن تييدكن المسمى غرلاك ما أن يمرّ عيد الفصح .

عاد إرلند إلى البيت في عيد الفصح . كان هادئاً وساكناً الآن ، ولكن كريستين فكرت أنها قادرة على ملاحظة أنه ما كان قادراً على رمي هذا الموضوع جانباً كما فعل فيما يخص أموراً أخرى كثيرة... وسواء كان السبب هو أنه لم يعد شاباً إلى ذلك الحد ، أو أنه لم يسبق لأي أمر آخر أن أشعره بهذه الضعة إلى ذلك الحد .

بدت مارغريت غير مكترثة بكيفية ترتيب أبيها الأمور لها .

و لكن حدث في أحد الأمسيات أن كان الزوجان لوحدهما ، فقال إرلند :

"لو كانت ابنتي الشرعية –أو لو كانت أمها امرأة غير متزوجة– لما كنت سأزوجها إلى رجل غريب وحالها على ما هي عليه . كنت سأحميها وأحرسها هي ومن يخصها . هذه طريقة بشعة للخلاص ، ولكن بالنظر إلى مولدها غير الشرعي ، فإن زوجاً شرعياً يستطيع أن يرعاها على أفضل نحو ممكن ."

و بينما كانت كريستين تجهز الأمور الآن لرحيل ابنة زوجها ، قال إرلند في أحد الأيام بلطف :

"يبدو أنك لست في حالة صحية تؤهلك للذهاب معنا إلى المدينة ؟"

قالت كريستين : "إن كنت ترغب في ذلك ، فأنت تعرف أني سأذهب ."

"و لمَ أرغب بذلك ؟ بما أنك لم تكوني قط في مقام أمها بالنسبة إليها ، فلا حاجة بك إلى فعل ذلك الآن... كما أنه لن يكون زفافاً بهيجاً إلا بالكاد . إن الليدي غونا أوف راسفولد وكنّتها قد وعدتنا بالحضور مراعاة منها للقرابة بيننا ."

و هكذا بقيت كريستين في هوسابي ، بينما قام إرلند في نيداروس بعقد قران ابنته على غرلاك تييدكنسون .

٣

في ذلك الصيف ، قبل قداس القديس يوحنا ، عاد غونولف نيكولاوسون إلى ديره . كان إرلند في المدينة آنئذ لحضور "مجلس فروستا" ، فأرسل إلى زوجته يسألها إن كانت قادرة على القدوم إلى هناك لترى أخاه . لم تكن كريستين في صحة جيدة ، ومع ذلك فقد جاءت . حين قابلت إرلند ، حكى لها أن صحة أخيه بدت له منهارة تماماً . لم يكن "رهبان مونكفيورد" قد أنجزوا الكثير من مهمتهم في الشمال . أما الكنيسة التي بنوها فلم يستطيعوا تكريسها ؛ فالأسقف لم يستطع السفر إلى أقصى الشمال في ذلك الزمن العصيب . وكانوا مضطرين لتلاوة القداس في مذبحهم الخاص بالسفر . وفي النهاية أضحوا دون خبز ونبيذ وشموع وزيت لأجل الصلوات ، وحين أبحر الأخ غونولف والأخ أسلاك إلى فارغوي للحصول على هذه المواد رمى اللابلانديون سحراً عليهما ، فانقلب بهما الزورق واضطرا إلى البقاء ثلاث ليال وثلاثة أيام على جزيرة صغيرة صخرية... وبعد هذا مرضا كلاهما ، وتوفي الأخ أسلاك لاحقاً . لقد عانيا من داء الأسقربوط في "الصوم الكبير" ، فلم يكن لديهم الدقيق أو الأعشاب لتناولها مع السمك المجفف . لذلك أمر الأسقف هاكون ، أسقف بيورغفين والماستر آرن (الذي كان رئيس

دير الكاتدرائية في نيداروس خلال رحيل الأسقف الجديد ، السير بال ، إلى الإدارة البابوية لتكريسه) بأن يعود الرهبانَ الذين كانوا ما يزالون على قيد الحياة بالعودة ، وأن على كهنة فارغوي أن يهتموا بالرعية في مونكفيورد حتى إشعار آخر .

و على الرغم من هذا التمهيد ، إلا أن كريستين أصيبت بالهلع حين رأت غونولف نيكولاوسون مرة أخرى . مضت مع إرلند إلى الدير في اليوم التالي ، وقد اقتيدا إلى البهو . دخل الراهب... كان محني الظهر ، وقد شاب شعره المحلوق على شكل حلقة ، وتحت عينيه الغائرتين كانت البشرة مجعدة وذات لون بني داكن ، ولكن على البشرة البيضاء الناعمة للوجه كانت بقع ذات لون رصاصي ، كما بدت على يده بقع مشابهة حين سحبها من كمه ومدها نحو كريستين . ابتسم... فلاحظت أنه فقد كثيراً من أسنانه .

جلسوا وتحادثوا فترة من الوقت ، ولكن بدا وكأن غونولف قد نسي كيف يتكلم . ولم يقل الكثير قبل أن يغادره الآخران .

"و لكن أنت يا إرلند لم تتغير... لا يبدو عليك أنك قد تقدمت في السن" ، قال بابتسامة صغيرة .

كانت كريستين تعرف جيداً أنها كانت تبدو بائسة الآن . وكان إرلند ذا مظهر وسيم ، وهو واقف هناك بطوله ورشاقته وسمرته وملابسه الثمينة . ومع ذلك فقد فكرت كريستين في أنه قد تغيّر كثيراً... لقد كان أمراً غريباً أن غونولف لم ير ذلك... وهو الذي كان حاد البصر قديماً .

•

في أحد أيام أواخر الصيف كانت كريستين في علية الملابس ، وكانت الليدي غونا أوف راسفولد معها... لقد جاءت إلى هوسابي لتساعد كريستين ، فقد كانت على وشك أن تضع مولوداً جديداً . وبينما هما واقفتان هناك سمعتا ناكفه وبيورغولف يغنيان في الباحة ، وهما يشحذان خنجريهما ، أغنية سفيهة فظة كانا يصرخان بها بأعلى صوتيهما .

غضبت أمهما إلى أقصى حد... ذهبت إليهما وعنّفتهما بأقسى العبارات . ثم قالت إنها تريد أن تعرف ممن تعلّما مثل هذه الأغنية... ربما كان ذلك في مبنى الخدم ، ولكن أي من الرجال هو من يعلم الأطفال مثل هذه الأمور ؟ لم يجب الصبيان . ثم خرج سكوله من تحت درج العلية وقال إن على الأم أن تصمت لأنهم تعلموها من أبيهم .

عندها تكلمت الليدي غونا . ألا يخشون الرب حتى يغنوا مثل هذه الأغنية... ؟ ألا يعرفون ، أنهم قد ينامون في إحدى الليالي ليستيقظوا وقد فقدوا أمهم قبل أن يصيح الديك ؟ لم تقل كريستين شيئاً بعد ذلك ، بل دخلت المنزل بهدوء .

و فيما بعد ، وحين اضطجعت قليلاً في سريرها ، دخل ناكفه واقترب منها . أخذ يد أمه ، ولكنه لم يقل شيئاً ، ثم بدأ يبكي بهدوء . حادثته بلطف ومازحته طالبة منه التوقف عن البكاء أو النواح . لقد مرت بهذه الأزمة ست مرات حتى الآن ولا بد أنها ستمر بها للمرة السابعة أيضاً بنجاح . ولكن الصبي راح يبكي أكثر فأكثر . وأخيراً تركته يزحف إلى السرير بينها وبين الجدار ، وهناك راح يبكي وذراعاه من حول عنقها ورأسه على صدرها . ولكنها لم تستطع أن تجعله يحكي سبب حزنه ، رغم أنه بقي ممدداً هناك حتى أدخلت الخادمة طعام العشاء .

كان ناكفه في الثانية عشرة الآن ، صبياً كبير الحجم بالنسبة إلى سنه ، وكان يحب التصرف كشخص راشد وبرجولة ، ولكن قلبه كان رقيقاً ، وكانت الأم قادرة على أن تلاحظ أحياناً أنه لا يزال طفولياً جداً . كان في سن تؤهله ليفهم مصيبة أخته ، وقد تساءلت الأم إن كان قد فهم أيضاً كم تغير أبوه .

كان إرلند على الدوام رجلاً قادراً على التلفظ بأسوأ الأمور حين يغضب... ولكنه قبل الآن لم يكن يوجه عبارات قاسية إلى أحد إلاّ إذا كان غاضباً . وكان سريعاً في المصالحة بعد أن يفتر غضبه . ولكنه كان قادراً الآن على التلفظ بأمور قاسية وبشعة بكل برود . كان رجلاً فظيعاً من حيث الشتم واللعن . ولكنه تخلى عن هذه العادة الشريرة ، إلى حد ما ، لأنه لاحظ أنها تؤذي مشاعر زوجته وكذلك سيرا آيليف الذي كان قد بدأ يكنّ له الكثير من الاحترام تدريجياً . ولكنه لم يكن قط بذيئاً أو غير لائق في كلامه... ففي كلامه كان أكثر احتشاماً من كثير من الرجال الذين عاشوا حياة أنقى من حياته . لقد شعرت كريستين بألم شديد من سماع مثل تلك الكلمات تخرج من شفاه أولادها الصبيانية ، خاصة أنها كانت في تلك الحال التي هي عليها ، أما أن تسمع منهم أنهم تعلموها من أبيهم ، فقد كان ذلك أمراً جعلها تحس بمرارة هي الأشد : لقد لاحظت أن إرلند كان لا يزال طفولياً بما فيه الكفاية حتى يظن أنه قادر على أن يجابه سقطة ابنته بكلماته غير اللائقة .

لقد حكت لها "فرو غونا" أن مارغريت رزقت بولد ميت قبل قداس أولاف . وقد عرفت الليدي أيضاً أن مارغريت لم تكن تعيسة إلى حد كبير... فقد كانت على وفاق مع غرلاك وكان هو لطيفاً معها . كان إرلند يذهب لزيارة ابنته حين يكون في المدينة . وكان غرلاك يستقبل حماه بكل

حفاوة ، رغم أن إرلند لم يكن يعامل الآخر كقريب . لم يكن إرلند قد ذكر اسم ابنته منذ أن غادرت هوسابي .

أنجبت كريستين ابناً آخر ، وقد سمي "مونان" باسم جده لأبيه . وخلال الفترة التي قضتها مضطجعة في القاعة الصغيرة ، كان ناكفه يأتي يومياً ، ليرى أمه ، حاملاً التوت والجوز ممّا قطفه من الغابات ، أو أكاليل من الأعشاب الشافية التي قام بضفرها . وقد عاد إرلند إلى البيت حين أصبح عمر الوليد ثلاثة أسابيع . كان يجالس زوجته كثيراً ، ويحاول جاهداً أن يكون لطيفاً ومحباً... وهذه المرة لم يتذمر لأن الوليد لم يكن بنتاً ، أو أنه ضعيف البنية ويبدو مريضاً . ولكن كريستين لم تكن ترد كثيراً على كلماته اللطيفة . كانت هادئة وحزينة متأملة... وفي هذه المرة كان إبلالها شديد البطء .

خلال الشتاء كله كانت كريستين مريضة ، وبدا أن الطفل لن يبقى حياً على الأرجح . وهكذا لم يكن لدى أمه أي وقت توفره إلاّ للاهتمام بالصغير المسكين ، وقد سمعت دون اهتمام كبير عن الأحداث الجسام التي كانت تجري في هذا الشتاء . كان الملك ماغنوس يعاني من ضائقة مالية كبيرة بسبب محاولاته بسط السيطرة على "سكان" ، وقد طلب النجدة من النرويج . كان بعض لوردات "المجلس" راغبين في الوقوف إلى جانبه في هذه القضية . ولكن وصلت الرسل إلى تونسبرغ بالنبأ القائل إن أمين الخزينة قد رحل ، وأن ستيغ هاكونسون حاكم تونسبرغهوس قد أغلق بوابات القلعة أمام رجال الملك ، واتخذ الاستعدادات للاستعصاء في المكان بقوة السلاح . كان معه قلة من الرجال ، ولكن إرلينغ فيدكونسون الذي كان عم زوجته ، ويقيم آنذاك في ضيعته في آكر ، أرسل له أربعين من رجاله المسلحين لدعم

القلعة ، بينما أبحر هو بنفسه غرباً . في هذه الأثناء كان أبناء عم الملك ، يون وسيغورد هافتورسون قد تمرّدا على الملك لأن حكماً قضائياً صدر ضد بعض رجالهم . ضحك إرلند على هذه الأنباء ، وقال إن ابنا هافتور قد برهنا على أنهما جاهلان وأحمقان . ساد الكثير من السخط على الملك ماغنوس في كل أنحاء البلاد . طالب النبلاء بأن يعين وصي سام للإشراف على شؤون المملكة وأن يوضع الخاتم الكبير بين يدي رجل نرويجي ، بما أن الملك ، كان مصمماً على إنفاق معظم وقته في السويد ، بسبب مسألة "سكان" . ساد الخوف السكان ورجال الدين في المدن من الإشاعات التي تحدثت عن قروض الملك من المدن الألمانية . كانت غطرسة الألمان واستهزاؤهم بقوانين وعادات البلاد أكبر مما يمكن احتماله الآن ، وكان يقال إن الملك قد وعدهم بحقوق وامتيازات أكبر في النرويج ، حتى أن الأمور ستصبح غير محتملة إطلاقاً للتجار النرويجيين الذين كانوا في حالة ضيق . بين العامة كانت الشائعات التي تتعلق بخطيئة الملك ماغنوس السرية واسعة الانتشار ، وكان الكثير من كهنة الأبرشيات والرهبان الجوالين خلف واحدة من هذه الإشاعات ، فقد قالوا إن هذه هي السبب في احتراق كنيسة أولاف في تروندهايم . وهكذا وجد المزارعون في هذه أيضاً السبب في الكثير من الكوارث التي نزلت بهم في خلال السنوات الأخيرة : الأوبئة التي حلت بالقطعان والآفات التي أصابت القمح ، والتي تسببت في أمراض وعلل للإنسان والحيوان وكذلك مواسم القمح والتبن الرديئة . لذلك قال إرلند إنه لو كان لدى ابني هافتور من الحكمة ما يكفي للصمود قليلاً ولو استطاعا أن يكسبا لنفسيهما السمعة في الكرم والزعامة ، فلا شك أن الناس كانوا سرعان ما يتذكرون أن هذين هما أيضاً من أحفاد الملك هاكون .

هدأت هذه الاضطرابات ، ولكن نتيجتها كانت أن الملك عيّن إيفار

أوغموندسون وصياً سامياً في النرويج . كان إرلينغ فيدكونسون وستيغ هاكونسون وآل هافتورسون وكل أتباعهم مهددين الآن بتهمة الخيانة العظمى . وقد استسلموا عندما عرفوا بذلك وتصالحوا مع الملك . كان هناك رجل قوي في "الأراضي المرتفعة" اسمه أولف ساكسسون كان قد انضم إلى انتفاضة آل هافتورسون إلا أنه لم يشارك الآخرين في الصلح بل جاء إلى نيداروس بعد عيد الميلاد . كان يخالط إرلند كثيراً في المدينة ، وقد حصل الناس شمال دوفر منه على الأنباء المتعلقة بكل هذه الأمور ، من وجهة نظره هو فيها . ارتابت كريستين كثيراً بهذا الرجل ؛ لم تكن تعرفه ولكنها كانت تعرف أخته هيلغا ساكسسداتر التي تزوجت من غيرد دار أوف دايفرين . كانت جميلة إنما شديدة الاعتزاز والغرور بنفسها ، ولم يكن سايمون يحبها ، رغم أن رامبورغ كانت على وئام معها . وسرعان ما بدأ الصوم ووصلت رسائل من الحكام تعلن أن أولف ساكسسون خارج على القانون في "المجالس" ، ولكنه كان قد غادر البلاد في ذلك الحين إذ أبحر في وسط الشتاء .

•

في ذلك الربيع كان إرلند وكريستين في منزلهم في المدينة لأجل عيد الفصح ، وكان معهما ابنهما الأصغر مونان ، فقد كانت هناك راهبة في "دير باكه" ماهرة في الطب حتى أن كل الأطفال الذين وضعوا تحت رعايتها قد شفوا على يديها ، إلاّ إن كانت تلك إرادة الرب في ألاّ يموتوا .

في أحد الأيام بعد العيد مباشرة ، عادت كريستين إلى البيت من الدير مع الطفل الصغير . كان الخادم والخادمة اللذان اصطحباها قد دخلا القاعة .

كان إرلند وحيداً هناك ، وقد اضطجع على أحد المقاعد . بعد أن خرج الرجل ووضعت المرأة العباءات في مكانها... جلست كريستين قرب النار مع الطفل ، وكانت الخادمة تدفئ بعض الزيت الذي جلبوه من الراهبة... فبدأ إرلند يسأل من المكان الذي كان مضطجعاً فيه عما قالته الأخت راغنهيلد عن الطفل . أجابته كريستين باختصار ، وهي جالسة تفك قماط الطفل . وأخيراً ما عادت تجيب إطلاقاً .

"هل حال الطفل سيئة إلى هذا الحد يا كريستين حتى أنك لا تريدين الحديث عنها ؟ سأل وقد ساد صوته بعض نفاد الصبر .

"لقد سألتني هذا من قبل يا إرلند" ، أجابت زوجته ببرود . "و قد حكيت لك كل ما لديّ مرات عديدة . ولكنك لا تهتم بالصبي بما فيه الكفاية لتتذكره من يوم لآخر..."

قال إرلند وهو ينهض ويقترب منها : "لقد حدث يا كريستين أن أضطر أنا أحياناً أيضاً إلى أن أجيبك مرتين وثلاث فيما يخص أموراً سألتني أنت عنها بنفسك ، لأنك لم تكوني مهتمة بتذكر ما قلته لك ."

"لم تكن تلك أموراً تافهة أيضاً... في هذا الشتاء الأخير . فأنا على الأقل كان لدي الكثير في القلب ."

"هذا ليس صحيحاً يا إرلند . لقد مرّ زمن طويل منذ أن تحدثت إليّ عن الأمور التي تخص قلبك ."

قال إرلند للخادمة : "اخرجي يا سغنه" . كان وجهه قد احمر حتى الجبين... وقد التفت إلى زوجته الآن . "أفهم ما تودين التطرق إليه . من تلك الناحية لن أكلمك تحت سمع خادمتك... حتى لو كنت على علاقة ودية معها

بحيث لا تكترثين لو سمعتك تتشاجرين مع زوجك وتتهمينني بعدم الصدق..."

قالت كريستين باختصار : "هذا آخر أمر يراه الرجل ، وهو الخشبة التي في عينه ."

"لا أفهم جيداً ما تعنينه . لم يسبق لي أن تحدثت إليك تحت سمع شخص غريب ، أو نسيت أن أظهر لك كل الاحترام والتقدير أمام الخدم ."

انفجرت كريستين في ضحكة غريبة قانطة مهزوزة .

"أنت بارع في النسيان يا إرلند! خلال كل هذه السنوات عاش أولف هالدورسون معنا . أتتذكر أنك قد أرسلته هو وهافتور لإحضاري إليك في علية النوم في منزل برينهيلد في أوسلو ؟"

غرق إرلند في المقعد وهو يحدق إلى زوجته ، بشفتين فاغرتين . ولكنها تابعت تقول :

"لم يحدث الكثير في هوسابي -أو في مكان آخر- من الأمور غير اللائقة أو المخزية التي فكرت في إخفائها عن خدمك... سواء كان ذلك مشيناً لك أو لزوجتك..."

جلس إرلند صامتاً وهو ينظر إليها في فزع .

"أتتذكر الشتاء الأول بعد زواجنا ؟ كنت حاملاً بناكفه ، وكانت الأمور قاسية جداً عليّ حتى أنجح في كسب الطاعة والتقدير من خدم منزلي . أتتذكر كيف ساعدتني ووقفت إلى جانبي ؟ أتذكر حين وصل أبوك بالتربية ليكون ضيفنا مع سيدات غريبات وخدم من الجنسين ، وكان خدمنا يجلسون إلى المائدة معنا... أتذكر كيف قام مونان بتجريدي من كل خرقة ثياب كان يمكنها أن تخفيني وراءها وكنت أنت صامتاً أبكم لا تجرؤ على جعله يغلق فمه... ؟"

"يا للمسيح! هل كنت تختزنين هذا ضدي منذ خمس عشرة سنة!" نظر إليها... وقد بدت عيناه بتلك النظرة بلون أزرق فاتح غريب ، وكان صوته ضعيفاً يائساً . "و مع ذلك يا كريستين العزيزة... أعتقد أن ما هو أسوأ من هذا أن نتبادل نحن الاثنين عبارات عدائية ومريرة..."

قالت كريستين : "أجل ، ولقد حزَّ في قلبي على نحو أسوأ ما جرى في تلك المرة في عيد الميلاد حين قرّعتني وهزأتني لأني وضعت عباءتي على مارغريت... وكانت هناك سيدات من ثلاث بلدان مختلفة واقفات وهن يصغين..."

لم يجب إرلند .

"و الآن تلومني لأن الأمور جرت مع مارغريت على ما جرت عليه... بينما كانت هي في كل مرة أحاول فيها تقويم اعوجاجها تهرع إليك ، وكنت تأمرني بعبارات عدائية أن أتركها في حالها... فقد كانت ابنتك وليس ابنتي..."

" لمتك أنا ؟... كلا لم أفعل!" قال إرلند بصوت مجهد ، وهو يحاول جاهداً أن يتحدث بهدوء . "لو كان لنا ابنة ، لربما كان الفهم أسهل عليك حين تحل مثل هذه الأمور بابنتك... وكيف تؤثر في الأب حتى نقي العظام..."

"اعتقدت أني أظهرت لك في العام الماضي أني فهمت" ، قالت زوجته بصوت خفيض . "كان يكفيني أن أتذكر أبي..."

قال إرلند بهدوء كما من قبل : "فيما يخص ذلك فقد كان هذا أمراً أسوأ . كنت رجلاً عازباً . وهذا الرجل متزوج . لم أكن مرتبطاً... كما هو" ، صحح نفسه . "على نحو لا أستطيع معه أن أتحرر..."

قالت كريستين : "و مع ذلك لم تحرر نفسك . أتتذكر كيف تحررت... ؟"

قفز إرلند وصفعها على وجهها . وقف مذهولاً فيما بعد... وقد ارتسمت علامة حمراء على وجنتها البيضاء . ولكنها جلست متيبسة وصامتة وبعينين قاسيتين . كان الطفل قد بدأ يبكي من الخوف... هدهدته قليلاً في حضنها وأسكتته .

قال الرجل بصوت مرتجف : "لقد كان كلامك شديد القسوة..."

قالت برقة" :حين ضربتني آخر مرة ، كنت أحمل طفلك تحت قلبي . والآن ضربتني وأنا أضع ابنك في حضني..."

"أجل ، هؤلاء الأطفال... نحن دائماً معهم..." صرخ بنفاذ صبر .

صمتا . بدأ إرلند يمشي بسرعة جيئة وذهاباً في القاعة . حملت الطفل إلى المختلى ووضعته في السرير . وحين خرجت من باب المختلى ، توقف أمامها :

"ما كان عليّ أن... أن أصفعك يا كريستين . أتمنى من كل قلبي لو أني لم أفعل ذلك... سأندم على ذلك بقدر ما ندمت على المرة الأخيرة . ولكنك وبختني لأنك تظنين أني أنسى بخفة . ولكنك لا تنسين شيئاً... لا تنسين أي خطأ واحد ارتكبته في حقك . رغم محاولاتي... لقد حاولت أن أكون زوجاً صالحاً لك . ولكنك لا تعتبرين هذا أمراً يستحق التذكر . أنت... أنت جميلة يا كريستين..." نظر إليها وهي تمرّ به .

أجل ، كانت مشية الزوجة الهادئة الجليلة جميلة كما كانت وهي شابة . كان صدرها وردفاها أكثر امتلاء ولكنها كانت أطول أيضاً . كانت ذات وقفة مستقيمة ويحمل عنقها الرأس المستدير باعتزاز ورشاقة كما كان شأنه دائماً . أما الوجه الشاحب النحيل بعينيه الواسعتين الرماديتين

الداكنتين فكان يثيره ويوقد روحه القلقة بهدوئه الغامض . مضى نحوها وأمسك بيدها :

"كنت يا كريستين ولا تزالين وستبقين أجمل النساء وأعزهن على قلبي..."

تركته يمسك بيدها ، ولكنها لم ترد على ضغطته . ثم رمى بيدها بعيداً عنه حين طغت عليه مرارته مجدداً .

"أتقولين أني نسيت ؟ لا أعتقد أن أسوأ الخطايا هو النسيان . لم أدّع أبداً أني رجل ورع . ولكني أتذكر ما تعلمته من سيرا يون وأنا طفل ، وقد ذكرني رجال الدين به منذ ذلك الحين . إنه لخطيئة أن نتأمل ونستذكر الخطايا التي اعترفنا بها أمام الكاهن وكفّرنا عنها أمام الرب ، ومنحنا عفوه بواسطة الكاهن . ولست تقومين بنبش هذه الخطايا القديمة ، خطايانا ، من شدة ورعك يا كريستين ، بل هي مجرد سلاح تشهرينه في وجهي كلما جابهتك في أي شيء..."

سار مبتعداً عنها ، ثم عاد .

"أنت تطمعين في أن تسودي -الله يعلم أني أحبك يا كريستين- ومع ذلك فأنا أرى أنك طماعة في السيادة ، ولم يسبق لك أن غفرت لي لأني أسأت إليك وأغويتك على الشر . لقد تحملت منك الكثير يا كريستين ، ولكني لن أتحمل من الآن فصاعداً ألاّ أُترك في سلام بسبب هذه الحوادث المؤسفة القديمة ، كما لن أتحمل أن أسمعك تكلمينني وكأنني عبد لك..."

كانت كريستين ترتجف من الانفعال وهي تجيبه :

"لم أحكمك قط كعبد . هل سبق لك وسمعتني أكلم بقسوة أو بغضب

أي شخص يمكن أن يعتبر أقل مني منزلة... حتى لو كان ذاك أسوأ وأدنى الخدم قيمة ؟ أعرف أني بريئة أمام الله من خطيئة الإساءة إلى فقرائه بالقول أو بالفعل . ولكن يجب أن تكون أنت سيدي . أنت من يجب أن أطيع وأحترم ، وأن أنحني أمامك وأعبدك بعد الله... حسب قانون الله يا إرلند . وإن كنت قد فقدت صبري وكلمتك على نحو لا يليق بزوجة أمام زوجها... فأعتقد أن ذلك مرده إلى أنك صعّبت عليّ الأمر مرات عديدة فلم أستطع أن أجعل بساطتي تركع أمام فهمك الأفضل ، وأن أُجلّ وأطيع زوجي وسيدي إلى الحد الذي كنت أتمنى فعله... وربما كنت آمل أنك... ربما ظننت أني كنت أحثّك لأريك أنك رجل ، وأني مجرد امرأة بسيطة مسكينة...

"و لكن فلتشعر بالراحة يا إرلند ، فلن أزعجك بعد اليوم بعباراتي ، فبعد هذا اليوم لن أنسى أبداً أن أكلمك بكل لطف ، وكأنك بالفعل ، قد ولدت من نسل عبيد..."

تضرج وجه إرلند... رفع قبضته... ثم التفت بحدة على كعبه ورفع بعباءته وسيفه عن المقعد قرب الباب واندفع خارجاً .

•

في الخارج كان نور الشمس وريح قوية... كان الجو بارداً ولكن الشرارات اللامعة التي انتشرت عليه من أفاريز المنزل والأشجار التي اكتسحتها الريح كانت قطرات من الماء ذابت ثم تجمدت مجدداً في الهواء . كان الثلج على قمم المنازل يتلألأ كالفضة ، وخلف الهضاب الخضراء الداكنة المغطاة بالأشجار من حول المدينة كانت الجبال تشع بلون أزرق بارد وأبيض لامع في النهار القارس المضيء الشتائي الربيعي .

مرّ إرلند عبر الشوارع والحارات... بسرعة ودون هدف . كان يغلي في الداخل... لقد كانت هي على خطأ ، وكان ذلك واضحاً وضوح النهار أنها على خطأ منذ البداية ، وكان هو على حق . وقد لعب هو دور المغفل وضربها وبدا أقل أحقية منها... ولكن الخطأ كان خطأها . ما الذي عليه أن يفعله بنفسه الآن ، كان لا يعرف . لم يكن يرغب في الذهاب إلى منزل أي من معارفه ، ولا يريد العودة إلى البيت .

كانت المدينة تشهد بعض النشاط والحركة . لقد وصل تاجر كبير من آيسلندا -الأول هذا العام- إلى رصيف الميناء في الصباح . تجول إرلند غرباً عبر الحارات ، ووصل إلى كنيسة القديس مارتين ، ثم هبط نحو الحارات القريبة من الشاطئ؛ فقد كان الوقت بداية فترة ما بعد الظهر ، إلا أنه سمع الضجيج والصياح من حانات الجعة ومن البارات . في شبابه ، كان قادراً على الدخول إلى مثل تلك الأماكن مع رفاقه وأصدقائه . ولكن الناس جميعاً سيحدقون إليه ويغتابونه لاحقاً إن كان هو حاكم مقاطعة أوركدولا ، صاحب الدارة الكبيرة في المدينة ، قد دخل حانة جعة وطلب كأساً من جعتهم الخفيفة الرديئة . ولكن هذا ما كان في ذهنه أن يفعله... أن يجلس ويشرب مع المزارعين الصغار الموجودين في المدينة هذا اليوم ومع الخدم والبحارة . لم يكن ليحدث أي لغط حين يصفع هؤلاء الرجال نساءهم ، وبعد ذلك يعود كل شيء كما كان... يا للجحيم! كيف يستطيع الرجل أن يسود امرأة حين لا يستطيع أن يضربها ضرباً مبرحاً بسبب محتدها النبيل وشرفه الخاص ؟... لدى تبادل العبارات لا يمكن للشيطان نفسه أن يكون نداً لهن . كانت جنّية... وجميلة جداً أيضاً... لو أنه يستطيع فحسب أن يضربها حتى تعود صالحة من جديد...

•

بدأت الأجراس تقرع في كل كنائس المدينة لتنادي الناس إلى صلاة المساء... وخلطت ريح الربيع كل الأصوات معاً في الهواء الصاخب فوق رأسه . كأنما كانت هي ذاهبة الآن إلى "كنيسة المسيح" ، تلك الجنية الورعة ، لتشكو إلى الرب ومريم العذراء وأولاف المقدس أن زوجها صفعها . أرسل إرلند نحو القديسين الراعين لزوجته أفكاراً مترعة بالخطيئة ، بينما راحت الأجراس ترن وتصلصل وتتردد أصداؤها . شق طريقه نحو كنيسة القديس غريغوري .

كان قبر أبيه وأمه أمام مذبح القديسة آن في الجناح الشمالي . وبينما راح يتلو صلواته ، فقد رأى الليدي سونيفا أولافسداتر وخادمتها وهما تدخلان من باب الكنيسة . وحين أنهى صلاته ، ذهب إليها ليحييها .

كان من عادته هو وهذه السيدة منذ أن تعرف إليها ، أنه كلما التقى بها راحا يتداعبان ويتمازحان . في هذا المساء ، وبينما هما جالسان على المقعد الجداري ينتظران صلاة المساء حتى تبدأ ، فقد كان شديد المباشرة حتى أنه أتيحت لها الفرصة لتذكره بأنهما كانا في كنيسة وأن الناس كانوا يمرون بهما باستمرار .

قال إرلند : "أجل ، أجل ، ولكنك جميلة جداً هذا المساء يا سونيفا . إنه لأمر جيد أن أمزح مع سيدة لها مثل هاتين العينين اللطيفتين..."

قالت ضاحكة : "أنت لا تستحق كثيراً يا إرلند نيكولاوسون أن أنظر إليك بعينين لطيفتين ."

قال إرلند وهو يضحك أيضاً : "إذن سأحضر وأمازحك في العتمة حين تنتهي صلاة المساء ، سأذهب إلى البيت معك..."

ثم دخل الكهنة إلى الجوقة ، ومضى إرلند إلى الجانب الجنوبي ليأخذ مكانه بين الرجال .

و حين انتهت الصلاة ، خرج من البوابة الكبيرة . شاهد الليدي سونيفا وخادمتها وقد تقدمتا على الطريق وفكر في أنه من الأفضل له ألا يذهب معها ، بل أن يذهب إلى بيته مباشرة . في تلك اللحظة ، وصلت عصبة من الأيسلنديين من رفاق التاجر إلى الشارع ، كانوا يترنحون ويتدافعون ، وبدا وكأنهم يعيقون طريق المرأتين . عدا إرلند خلف السيدة . وما أن رأى البحارة سيداً يحمل سيفاً في حزامه يقترب منهما ، حتى ابتعدوا عن الطريق وسمحوا للمرأتين بالمرور .

قال إرلند : "أعتقد أنه من الأفضل أن أوصلك إلى البيت على أي حال ، فالمدينة ليست شديدة الهدوء الليلة ."

"أتستطيع أن تصدق يا إرلند... رغم أني امرأة عجوز ، فإني لا أكره أن يظن بعض الرجال أني ما زلت جميلة إلى حد أستحق معه أن يُعترض طريقي..."

لم يكن هناك سوى جواب واحد يستطيع رجل مهذب أن يجيب به على هذا الكلام .

•

عاد إلى بيته في صباح اليوم التالي مع غبش الفجر ، وتوقف قليلاً خارج الباب المقفل للقاعة ، متجمداً ، منهكاً تماماً ، حزيناً ومشمئزاً . هل يوقظ أهل البيت بأن يقرع على الباب ثم يدخل ليتسلل إلى السرير إلى جوار كريستين النائمة والطفل على صدرها... لا! كان معه مفتاح علية مبنى المستودع الشرقي . هناك كانت البضائع مخزنة في عهدته . دخل وخلع

حذاءه وجمع بعض شبكات النسيج الصوفي الخشن وبعض الأكياس الفارغة ونشرها على القش الذي في هيكل السرير . لف عباءته من حوله ثم تسلل تحت الأكياس ، وبما أنه كان منهكاً ومرهقاً فقد استطاع أخيراً أن ينسى كل شيء في النوم .

كانت كريستين شاحبة ومنهكة من السهر حين جلست إلى فطور الصباح مع سكان المنزل . حكى لها أحد الخدم أنه توسل إلى السيد أن يأتي إلى طعام الفطور... فقد كان نائماً في علية مبنى المستودع الشرقي كما قال... ولكن إرلند طلب منه أن يذهب إلى الشيطان .

•

كان لدى إرلند موعد في إلغسايتر بعد القداس النهاري ، إذ كان عليه أن يكون شاهداً في بعض المعاملات العقارية . ولكنه تمكن من التهرب من الوليمة التي تلت ذلك وأقيمت في حجرة الطعام في الكنيسة ، وكذلك من آرن غيافالدسون الذي لم يستطع مثله أن يبقى ليشرب مع الرهبان ، ولكنه كان مصمماً على جعل إرلند يرافقه إلى رانهايم .

ندم لاحقاً لأنه فارق الآخرين... انتابه الفزع وهو عائد لوحده إلى البلدة... عليه أن يفكر الآن فيما فعله . فكر برهة في الذهاب مباشرة إلى كنيسة القديس غريغوري... كان معه الإذن بأن يعترف لأحد الكهنة هناك ، حين يكون في نيداروس . ولكنه لو فعل ذلك مجدداً بعد الاعتراف ستكون الخطيئة أعظم . كان من الأفضل أن ينتظر بعض الوقت...

لا شك أن سونيفا تفكر الآن أنه مجرد فرّوج أمسكت به بيديها المجردتين . ولكن ليأخذه الشيطان لو سبق له وفكّر بأن هناك امرأة قادرة

على تعليمه الكثير ممّا هو جديد... وهاهو يتجول متثائباً لا يزال من تلك المغامرة . كان يثني على نفسه لأنه كان بارعاً فيما يسمى "فن الحب" أو مهما يكن الاسم الذي يطلقه العلماء عليه . لو أنه كان لا يزال شاباً وغرّاً لاعتزّ بنفسه ولاعتبره عملاً جيداً وجريئاً . ولكنه لم يكن يحب تلك المرأة -المرأة المجنونة- كان مشمئزاً منها . كان مشمئزاً من النساء كافة عدا زوجته... وكان مشمئزاً من هذه أيضاً! وإنه يقسم بالصليب... أنه كان متزوجاً منها إلى حد أنه أصبح ورعاً هو نفسه... فقد كان يصدق ورعها... ولكن كانت مكافأته العادلة من زوجته الورعة على إخلاصه وحبه... تلك الجنية! تذكر كلماتها اللاذعة السامة في اليوم السابق... إذن فهي تعتبر أنه يتصرف وكأنه ابن عبد رقيق!... وتلك الأخرى ، سونيفا ، لا شك أنها تظن أنه لم يكن سوى شخص ضعيف فج ، فقد سمح لها أن تفاجئه وأن يعبر عن فزعه من طريقتها في ممارسة الحب . سيريها الآن أنه لم يعد بالرجل الورع . لقد وعدها بأن ينزل إلى منزل ثورولف في المدينة تلك الليلة ، وقد يذهب فعلاً . لقد ارتُكبت الخطيئة وارتُكبت ، فلماذا لا يتمتع بأي لهو قد يصاحبها ؟

لقد سبق له ونكث بعهده لكريستين ، وهي نفسها من سبّب ذلك ، بأساليبها الكريهة الجائرة نحوه...

ذهب إلى البيت ، وتجول في الإسطبلات والأبنية الخارجية ليجد شيئاً معيباً ينتقده . أنّب خادمة كاهن المستشفى لأنها جلبت الملت إلى مبنى التجفيف خاصته ، رغم أنه يعرف جيداً أنهم ما كانوا في حاجة إليه وهم في المدينة . تمنى لو كان أولاده هنا -كانوا سيمنحونه رفقة طيبة- وتمنى لو يذهب تواً إلى هوسابي . ولكن كان عليه أن ينتظر في المدينة رسائل ستأتيه من الجنوب... كان أمراً غير مضمون أن تصله مثل تلك الرسائل إلى بيته في الريف بالسرعة المطلوبة .

لم تحضر سيدة المنزل إلى مائدة العشاء... كانت مضطجعة في السرير في الحجرة ، كما قالت "سيغنه" خادمتها ، وهي تنظر إلى سيدها نظرة تأنيب . أجابها إرلند بقسوة بأنه لم يسأل عن سيدتها . وحين غادر الخدم القاعة ، ذهب إلى الحجرة . كان الظلام دامساً هناك . انحنى إرلند فوق السرير .

"هل تبكين ؟" سألها بصوت خفيض جداً إذ كان تنفسها غريباً جداً . ولكنها أجابت بصوت أجش أبح أنها لم تكن تبكي .

"هل أنت متعبة ؟ أجل... سأذهب لأرتاح الآن" ، قال بالصوت الخفيض نفسه .

ارتجف صوت كريستين وهي تقول :

"إذن أتمنى يا إرلند أن تذهب وتنام هذه الليلة حيث نمت الليلة الماضية ."

لم يجب إرلند . خرج وأحضر الشمعة من القاعة إلى الحجرة ، وفتح صندوق ملابسه . كان يرتدي ملابس لانقة للذهاب إلى حيث كان ينوي ، فقد كان لا يزال يلبس "الكوتاردي" البنفسجي الذي كان يلبسه في "إلغسايتر" في الصباح . ولكنه غيّر ملابسه ببطء وتعمّد... فارتدى قميصاً حريرياً أحمر وجاكيتاً مخملياً رمادياً يصل إلى الركبة مع أجراس فضية صغيرة عند رؤوس الأكمام ، ومشط شعره وغسل يديه . وراح ينظر المرة تلو الأخرى إلى زوجته... كانت تضطجع صامتة دون حراك . ثم خرج دون أن يتمنى لها ليلة سعيدة . وفي اليوم التالي عاد إلى البيت صراحة وقت الإفطار .

و هكذا مضت الأمور لأسبوع كامل . ثم عاد إرلند إلى البيت في إحدى الليالي من "هانفرار" حيث كان قد ذهب إلى هناك في مهمة وعلم أن كريستين قد انطلقت في ذلك الصباح إلى هوسابي .

لقد توضح له أنه لم يسبق لرجل أن نال متعة أقل من متعته هو في ممارسة الخطيئة مع سونيفا أولافسداتر . ففي قلبه كان منهكاً إلى أقصى حد من تلك المخلوقة المجنونة... وكان يشمئز منها حتى وهو يداعبها ويلاطفها . كان تصرفه هذا عملاً جنونياً ومتهوراً أيضاً... فقد كان من المحتمل الآن أن يكون قد عُرف في كل أنحاء الريف أنه يقضي الليالي في منزل ثورولف... كان عملاً جنونياً أن يلطخ اسمه بالعار لأجل سونيفا تلك! بين الحين والآخر كان يفكر أيضاً أن الأمر قد يثير بعض المشاكل... فقد كان للمرأة زوج عجوز ومريض... كان أمراً مؤسفاً أن يتزوج ثورولف من مثل هذه المرأة المتهورة الغبية... والأرجح أنه لم يكن أول رجل يتلاعب بشرف الزوج . وماذا عن هافتور... كان قد نسيه تماماً ، حين بدأ هذه المغامرة مع سونيفا ، لقد نسي أنها كانت أخت هافتور... لم يتذكر ذلك إلا بعد فوات الأوان . لقد أصبحت الأمور في أسوأ حال الآن... ويبدو الآن أن كريستين تعرف بالأمر أيضاً .

لن تستطيع دون شك أن تفكر في رفع دعوى ضده أمام الأسقف... مطالبة بالانفصال عنه . كان لديها يوروندغارد لتلتجئ إليها... ولكن كان من المستحيل السفر إلى هناك عبر الجبال في مثل هذا الوقت من العام ، وكان من المستحيل إطلاقاً لو كانت ستصطحب الأولاد الصغار معها... وما كانت كريستين لتتركهم وراءها . لا... هكذا راح يفكر ليريح نفسه... وما كانت قادرة على السفر بحراً أيضاً ، مع مونان ولافرانس ، في هذا الوقت المبكر

من الربيع . أوه ، ولكن لم يكن من دأب كريستين أن تطلب من الأسقف المساعدة ضده -رغم أن لديها السبب الملائم لذلك- إلا أنه سيبتعد عن فراشها من تلقاء نفسه... حتى تعرف أنه كان نادماً من كل قلبه . لم تكن كريستين لتتمنى أن تطرح هذه المسألة علناً . ولكنه كان يعرف في قلبه أنه قد مضى وقت طويل منذ أن كان يعرف عن حق ما تستطيع أو لا تستطيع زوجته أن تفعله .

كان يضطجع ليلاً في سريره ، ويترك أفكاره تسرح وتمرح . لقد اتضح له أنه تصرف على نحو أشد غباء ممّا كان قد ظنه في البداية ، فقد ترك نفسه يتورط في هذه المغامرة البائسة ، في هذا الوقت الذي كانت فيه الدولة في خضم أعظم المشاريع .

لعن نفسه لأنه كان لا يزال أحمق في علاقته مع زوجته إلى حد أنه مكّنها من أن تدفعه إلى ارتكاب هذا . لعن كلاً من كريستين وسونيفا . لا شك أنه لم يكن مغرماً بالنساء أكثر من الرجال الآخرين وحق الشيطان... بل كانت علاقاته النسائية أقل عدداً بكثير من علاقات غيره من الرجال الذين يعرفهم . ولكن بدا وكأن الشيطان القذر نفسه قد رتّب له أموره... لم يكن قادراً على الاقتراب من أي امرأة دون أن يجد نفسه وقد غرق حتى العنق في مستنقع...

ستكون هناك نهاية لذلك الأمر الآن . حمداً لله أنه كان مشغولاً بأمور أخرى الآن . وسرعان ما سيكون قد حصل دون شك على رسائل الليدي انجبيورغ . أجل ، فيما يخص تلك المسألة أيضاً ، فقد كان عليه أن يكون قادراً على معرفة طباع النساء . ربما كان ذلك عقاب الرب على خطايا شبابه . ضحك إرلند في نفسه في العتمة . على الليدي أن ترى أن الأمور

كانت كما طرحت أمامها . أما المسألة فكانت ما إذا كان أحد أبنائها أو أبناء أختها التي لم تكن بنتاً شرعية هو من سيناصره النرويجيون ضد الملك ماغنوس . وكانت هي تحب أولادها من كنوت بورس كما لم تحبب قط أولادها الآخرين .

سرعان ما سيكون معانقاً الرياح العاتية ومتكسّرات الماء المالح . يا للرب في السماء! سيكون أمراً جيداً أن تبلّله الأمواج مجدداً وأن تهب عليه الريح النقية حتى تصل إلى نقي عظامه... سيهجر كل النساء لفترة طويلة ولذيذة .

أما سونيفا ، فتستطيع أن تفكر بما تشاء . لن يذهب إليها بعد الآن . وقد تذهب كريستين إلى يورونداغارد لو شاءت ، بسببه . ربما سيكون أفضل وآمن لها وللأطفال لو كانوا بعيدين تماماً عن غودبراندسال هذا الصيف . وفيما بعد لن يكون هناك شك في أنهما سيتصالحان مجدداً...

في صباح اليوم التالي ركب جواده إلى سكاون . ولكنه لم يستطع أن يجد الراحة حتى تأكد ممّا كانت زوجته ستفعله .

قابلته بلباقة باردة لطيفة حين وصل إلى هوسابي في وقت متأخر من النهار . لم تخاطبه بكلمة واحدة بمبادرة منها ، كما لم تتلفظ بكلمة عدائية واحدة . كما أنها لم تعارض حين ذهب في الليل ، وكأنه يتحسس طريقه ، نحو سريرهما وتمدّد فيه . وبعد أن استلقى هناك لفترة ، حاول بتعثر أن يضع يده على كتفها .

كان صوت كريستين يرتجف ، ولكن إرلند لم يستطع أن يعرف إن كان ذلك بسبب الحزن أو الغضب بينما كانت تهمس قائلة :

"لا أعتقد أنك رجل وضيع إلى هذا الحد يا إرلند ، حتى أنك تريد أن تجعل الأمر أسوأ بالنسبة إليّ مما هو عليه . لا أستطيع أن أقاومك وأولادنا ينامون من حولنا . وبما أني رزقت بسبعة أبناء منك ، فلن يسعدني أن يعرف خدم المنزل أني امرأة مظلومة..." بقي إرلند صامتاً لفترة طويلة قبل أن يجيب :

"أجل ، فليرحمني الله يا كريستين ، فقد ظلمتك . ما كنت... ما كنت لأفعل ذلك لو استطعت ألاّ أبالي بالكلمات القاسية التي قلتها لي في ذلك اليوم في نيداروس . أنا لم أحضر إلى البيت لأطلب منك الغفران . فأنا أعرف أيضاً أنه سيكون أمراً خطيراً جداً أن أطلب ذلك منك الآن..."

أجابت زوجته : "أرى أن مونان باردسون قد نطق بالصواب ، فلن يأتي قط ذلك اليوم الذي ستقف فيه وتتحمل مسؤولية أفعالك . من الأفضل لك أن تلتفت إلى الرب وتحاول أن تتصالح معه... فالأجدر بك تطلب الغفران منه وليس مني..."

قال إرلند بمرارة : "أجل ، أستطيع أن أرى ذلك" . وبعد هذا لم يتبادلا الحديث . وفي صباح اليوم التالي عاد إلى نيداروس .

•

كان في المدينة منذ بضعة أيام حين اقتربت منه خادمة الليدي سونيفا في إحدى الأمسيات وهو في كنيسة القديس غريغوري . بدا لإرلند أنه لا بأس في أن يكلم السيدة مرة أخرى وأخيرة . وقد أمر الفتاة بأن تسهر للمراقبة هذه الليلة ، فهو سيأتي بالطريقة السابقة نفسها .

كان عليه أن يزحف ويتسلق بجهد مثل لص الدجاج حتى يصل إلى

العلية حيث تجري لقاءاتهما . كان مشمئزاً من العار الآن إذ راح يفكر كم كان أحمق... أيفعل ذلك رجل في مثل عمره ومقامه ؟ ولكنه كان يعتبر في البداية أن في ممارسة مثل هذه الألعاب الصبيانية بعض التسلية .

كانت السيدة في الفراش حين دخل .

"هل أتيت أخيراً ومتأخراً إلى كل هذا الحد ؟" ضحكت وتثاءبت . "أسرع الآن يا حبيبي ، وتعال إلى الفراش . ثم سنتحدث لاحقاً حول سبب غيابك الطويل ."

لم يعرف ما يفعله أو كيف سيقول لها ما كان في قلبه . ودون تفكير بدأ يخلع ملابسه .

قال : "إن ما فعلناه يا سونيفا حماقة... أعتقد أنه ليس أمراً جيداً أن أمكث هنا هذه الليلة . لا بد أن ثورولف سيبدأ بالشك قريباً ؟"

"أأنت خائف من زوجي ؟" سألت سونيفا بلهجة مغيظة . "لقد رأيت بنفسك أن ثورولف لم يهتز له جفن بينما كنا نلعب ونمزح أمام عينيه . ولو أنه سمع أنك كنت تأتي إلى المنزل ، فأنا أضمن أن أجعله يصدق أنها مجرد حماقة عجائز . إنه يثق بي جيداً..."

"أجل ، يبدو أنه يثق بك جيداً" ، ضحك إرلند وهو يدفن أصابعه في الشعر اللامع فوق كتفيها البيضاوين المكتنزتين .

"أهذا رأيك ؟" وأمسكت به من رسغه . "و مع ذلك فأنت تثق بزوجتك أيضاً . وأنا كذلك كنت خجولة وحييّة حين تزوجني بارد..."

"اتركي زوجتي خارج هذه القضية" ، قال إرلند بحدة ، وهو يفلت يده منها .

"لماذا ؟... أتعتقد أنه أمر غير لائق أن نتكلم عن كريستين لافرانسداتر بينما هو لائق أن نتكلم عن سير ثورولف ، زوجي ؟"

صرّ إرلند بأسنانه ولم يجب .

قالت سونيفا بسخرية : "أعتقد أنك واحد من أولئك الرجال يا إرلند الذين يظنون أنهم رابحون وعادلون حتى أنهم لا يعتقدون إلا بالكاد أنه من الخطأ أن تكون فضيلة المرأة هشة كالزجاج أمامهم ، بينما قد تكون صلبة كالفولاذ أمام كل الآخرين ."

أجاب إرلند بخشونة : "لم أفكر بك على هذا النحو ."

التمعت عينا سونيفا .

"ما الذي تريده مني يا إرلند... بما أنك سعيد في زواجك إلى هذا الحد ؟"

"لقد قلت لك إنه ليس عليك أن تذكري زوجتي..."

"زوجتك أو زوجي..."

"أنت من بدأت الكلام عن ثورولف ، وأنت من سخر منه على أسوأ نحو" ، قال إرلند بمرارة . "و لو لم تهزئي منه بكلماتك... فقد كان واضحاً كم تحافظين على شرفه ، حين تدخلين رجلاً إلى سرير زوجك . أما هي... فهي لم تنزل إلى مثل هذا الدرك ."

"هل هذا ما تريد قوله لي... إنك تحب كريستين ، رغم أنك تودني بما فيه الكفاية لتعبث معي..."

"لا أعرف كم أودك... لقد أظهرت لي أنك توديني..."

"و كريستين ألا تقوّم حبك التقويم الصحيح ؟" ضحكت هازئة . "لقد رأيت بما فيه الكفاية كم تعتني بك بلطف يا إرلند ."

صرخ الرجل : "أمسكي عليك لسانك الآن! ربما هي تعرف ما أستحق!" قال بقسوة ووحشية . "ربما كنا أنت وأنا متشابهين..."

سألت سونيفا بلهجة تهديدية : "هل الأمر هكذا إذن ؟ أني كنت مجرد سوط تلهب به ظهر زوجتك ؟"

"سمّيه هكذا ، إن شئت . ولكنك وضعت نفسك تحت تصرفي ."

جلست في السرير وانتظرت . ولكن إرلند لم يخالفها ولم يحاول أن يصطنع شجاراً . عاد ليرتدي كامل ملابسه مجدداً وغادرها دون أي كلمة .

لم يكن شديد السرور من نفسه ، أو من الأسلوب الذي غادر به سونيفا . لم يكن في الأمر الكثير من التصرف الشريف بالنسبة إليه . ولكن ما كان ممكناً أن يفعل سوى ذلك... وعلى الأقل فهو قد تخلص منها الآن .

٤

في فصلي الربيع والصيف هذين لم يكن السيد يُرى كثيراً في هوسابي . وفي الأوقات التي يتواجد خلالها في الضيعة ، كان يعامل زوجته باحترام وودّ . لم يحاول إرلند قط أن يحطم الجدار الذي أنشأته هي الآن بينهما ، رغم أنه كان غالباً ما يتابعها بنظراته بدقة . أما فيما يتعلق بالبقية ، فقد كان يبدو وكأن لديه الكثير ليفكر فيه خارج بيته . أما فيما يتعلق بإدارة الأملاك فلم يكن يطرح سؤالاً واحداً .

و كانت قضية الأملاك هذه هي ما طرحته عليه زوجته حين أرادها بعد يوم الصليب المقدس في الربيع أن تصطحبه إلى راومسدال . كان لديه بعض الأعمال في أوبلاندز... فما رأيها لو تصحب الأطفال معها ، وتبقى لبعض الوقت في يوروندغارد ، فترى أقرباءها وأصدقاءها في "ديل" ؟ ولكن كريستين رفضت رفضاً باتاً الموافقة على هذا .

كان في نيداروس حين جرى اجتماع مجلس "لاغ" ، وبعد ذلك في أوركيدال . ثم عاد إلى هوسابي ، ولكنه شغل نفسه فوراً بالاستعداد للرحلة إلى بيورغفين . كان السفينة "مارغيغرن" راسية في نيدارهولم ، وكان ينتظر فحسب هافتور غراوت الذي كان سيبحر معه .

قبل ثلاثة أيام من قداس مارغريت (١٠ حزيران / يونيو) بدأوا بجمع التبن في هوسابي . كان الطقس كأجمل ما يمكن ، وحين عاد التبّانون إلى المروج بعد استراحة منتصف النهار ، فإن أولاف ، رئيس العمال ، استأذن ليصطحب الأطفال معه .

كانت كريستين في مستودع الملابس الذي كان في الطابق الثاني في مبنى الأسلحة . كان للمبنى درج خارجي يؤدي إلى هذه الغرفة التي لها شرفة أمامها . أما الطابق الثالث ، فهو مستودع الأسلحة ، فكان فوق الشرفة ، وما كان ممكناً الوصول إليه إلا عبر سلم معلق من علية الملابس يؤدي إلى فتحة في الأرضية . كانت الفتحة مشرعة إذ كان إرلند في مستودع الأسلحة .

حملت كريستين خارجاً عباءة الفرو التي كان إرلند سيأخذها معه لأجل الرحلة البحرية ، وهزّتها في الشرفة . ثم سمعت ضجيج مجموعة كبيرة من الفرسان ، ورأت في اللحظة نفسها أشخاصاً يخرجون من الغابات على ظهور الجياد . وفي اللحظة التالية كان إرلند يقف إلى القرب منها .

"هل قلت يا كريستين إن النار في المطبخ قد أطفئت هذا الصباح ؟"

"أجل... لقد قلبت غودريد قدر المرق . علينا أن نقترض ناراً من سيرا آيليف ."

نظر إرلند بعيداً نحو منزل الكاهن .

"كلا ، لا يجب أن نورطه في هذا الأمر . يا غاوته" ، نادى بصوت رقيق على ابنه ، الذي كان يتسكع تحت الشرفة ، وهو يرفع المدمّة إثر الأخرى ، غير راغب في الانطلاق نحو جمع التبن . "تعال إلى هنا ، اصعد السلم... لا تصعد أكثر حتى لا يروك ."

حدقت كريستين إلى زوجها . لم يسبق لها أن رأته في مثل هذه الحالة... كان الهدوء المتوتر اليقظ في صوته ، في وجهه ، وهو يتطلع نحو الجنوب على امتداد الطريق... وفي كامل قامته الطويلة المرنة يهرع إلى داخل العلية ويعود فوراً ومعه رزمة مسطحة ، وقد غلفت بقماشة مخيطة من الكتان . أعطاها للصبي :

"خبئ هذه في صدرك... وانتبه جيداً لما سأقوله لك . عليك أن تنقذ هذه الرسائل... الخطر المحدق أكبر ممّا تستطيع فهمه يا غاوته . ضع مدمّتك فوق كتفك واذهب بهدوء عبر الحقول حتى تصل إلى أجمة جار الماء . ابق بين الشجيرات حتى تصل إلى الغابة... أنت تعرف كل الممرات هناك وأنا أعرف ذلك... وازحف بين أكثف الأجمات طول الطريق إلى سكيولدفيركستاد . حين تصل إلى هناك ، تأكد أولاً أن كل شيء هادئ في المزرعة . وإن رأيت علامات تدل على أن هناك ما هو غير ما يرام أو وجود أغراب ، عندها اختبئ . ولكن لو كنت واثقاً أن كل شيء آمن ، فامض إلى المزرعة وأعط هذه إلى أولف إن كان في البيت . ولكن إن لم تستطع أن تعطي الرسائل إليه باليد وأنت متأكد من عدم وجود أحد في الجوار ، فأحرقها في اللحظة التي تستطيع فيها ذلك . ولكن تأكد أن كلاً من الكتابة والأختام قد احترقت تماماً ، وأنها لن تقع بين يدي أحد آخر عدا أولف . فليكن الرب في عوننا يا ابني... هذه أمور عظيمة حتى توضع بين يدي صبي في العاشرة... إنها حياة ومصالح كثير من الرجال الصالحين... أتفهم يا ترى مدى الخطر يا غاوته ؟"

"أجل يا أبي ، لقد فهمت كل ما قلته لي . "رفع غاوته بصره من الدرج ووجهه الوسيم الصغير مليء بالحماسة .

"قل لإيزاك إن لم يكن أولف في البيت ، إن عليه أن يركب جواده

وينطلق مباشرة إلى هافنه وأن يسير الليل بطوله... ويقول لهم بأن ريحاً رئيسية قد هبت ، وأني أخشى أن أعمال سحر شريرة قد أفسدت رحلتي . هل تفهم ؟

"أجل يا أبي . أفهم تماماً كل ما قلته لي ."

"اذهب إذن . فليحفظك الرب يا بنيّ" .

هرع إرلند إلى مستودع السلاح ، وكان يودّ إغلاق الفتحة ، ولكن كريستين كان قد سبق لها ودخلت الفتحة . انتظر صعودها الكامل ، ثم أغلق الفتحة ، وأسرع إلى خزانة ، وأخرج بعض الأوراق . مزّق الأختام وداسها بقدميه على الأرض ، ومزق الأوراق ولفها مع بعضها حول مفتاح الخزانة وأسقط الرزمة الصغيرة من ثقب النافذة إلى وسط الأشواك التي كانت تنمو خلف المخزن . وقف ويداه على إطار النافذة يتابع الصبي بعينيه وهو يمشي على امتداد طرف حقل القمح نحو المرج ، حيث كان الحصادون يتحركون نحو الأمام في خط واحد ، وهم يحملون مناجلهم ومدماتهم . وحين اختفى غاوته في الأيكة الصغيرة بين حقل القمح والمرج ، أغلق المصراع . كان هدير الحوافر قد أضحى عالياً الآن ويأتي من مكان قريب .

التفت إرلند إلى زوجته :

"هل يمكنك التخلص ممّا رميته الآن ؟... ابعثي بسكوله ، فهو ذكي... قولي له أن يرمي بالرزمة في الحفرة خلف الزريبة . من المرجح أنهم سيراقبونك وربما الصبيان الكبار أيضاً . ولكنهم لن يفتشوك..." وضع كسور الأختام في صدر ثوبها . "لا أحد سيميزها على ما أعتقد ، ومع ذلك..."

"هل أنت في خطر يا إرلند ؟" سألت بهدوء . وحين نظر إلى وجهها ،

جذب ذراعيها الممدودتين من حولها . ضغطها إليه لحظة :

"لا أعرف يا كريستين . سرعان ما سنرى ، على ما أعتقد . إن "توره أيندريدسون" يقود الرجال والسير بارد معهم ، لو كنت على صواب فيما رأيت . لا أعتقد إلاّ بالكاد أن "توره" قادم إلى هنا لأي أمر طيب..."

كان الفرسان في الباحة الآن . وقف إرلند ساكناً لحظة . ثم قبّل زوجته بقوة ، وفتح الفتحة ، ونزل منها مسرعاً . وحين خرجت كريستين إلى الشرفة ، رأت إرلند في الباحة يساعد أمين الخزنة ، الذي كان عجوزاً وبديناً على الترجل عن حصانه . كان هناك ثلاثون رجلاً مسلحاً على الأقل مع السير بارد وحاكم مقاطعة غاولدولا . وحين عبرت كريستين الباحة ، سمعت الحاكم يقول :

"أنقل إليك تحيات أولاد عمك يا إرلند . إن بورغار وغوتورم تروندسون هما ضيفا الملك الموقران في فيوي ، وأعتقد أن هافتور تورسون سيكون الآن قد قام بزيارة ودية لإيفار والشاب الصغير في منزلهم في سوندبو . لقد وضع السير بارد غراوت تحت الحراسة صباح أمس ."

"أرى الآن أنكم أتيتم إلى هنا لتأمروني بحضور اجتماع الحراس نفسه" ، قال إرلند مبتسماً .

"هكذا هي الحال يا إرلند " .

"و لا شك أنكم قادرون تفتيش ضيعتي هنا أيضاً ؟ أوه لقد أديت مثل هذه الأمور غالباً حتى أني أعرف كيف تتم ."

قال توره : "و لكنك لم تتعامل بأمور خطيرة كقضية الخيانة العظمى ."

قال إرلند : "لا ، ليس قبل الآن . ويبدو كأني كنت ألعب مع الرجال

السود يا توره ، وأنت كنت رفيقي... أليس كذلك يا قريبي ؟"

"علينا أن نجد الرسائل التي في حوزتك والتي بعثت بها الليدي انجبيورغ هاكونسداتر" ، قال توره أندريدسون .

"إنها في الخزانة مغطاة بجلد أحمر في مستودع السلاح... ولكن لن تجد الكثير فيها عدا بعض التحيات كما هي من عادة الأقرباء أن يحيوا أحدهم الآخر... وهي رسائل قديمة .سيصطحبك ستاين هذا إلى هناك ."

كان الفرسان الغرباء قد ترجلوا الآن وقد راح خدم المنزل يتجمهرون في الباحة .

"في تلك الرسالة التي أخذناها من بورغار تروندسون كان هناك ما هو أكثر من ذلك" ، قال توره . صفّر إرلند قليلاً .

قال : "الأفضل أن ندخل إلى القاعة ، فقد بدأ المكان يصبح شديد الازدحام هنا ."

لحقت كريستين بالرجال إلى القاعة . وبإشارة من توره ، فإن اثنين من الرجال المسلحين دخلا معهم .

قال توره أوف غيمسار حين وقف داخل القاعة : "عليك أن تسلم سيفك يا إرلند ، كعلامة على أنك سجيننا ."

ضرب إرلند على فخذيه ليظهر لهم أنه لم يكن يحمل أي سلاح آخر عدا الخنجر الذي في حزامه . ولكن توره قال مجدداً :

"عليك أن تسلم سيفك كعلامة..."

"أجل ، أجل ، إن كان هذا كله سيتم بكل هذه اللباقة... قال إرلند

ضاحكاً قليلاً . مضى نحو المشجب وسحب سيفه ثم أمسك بالغمد وقدم مقبض السيف إلى توره آيندريدسون بانحناءة صغيرة .

حلّ عجوز غيسمار شرائط السيف وجرده ثم مرّر أصابعه على امتداد حدّه .

"أكان هذا هو السيف يا إرلند الذي... ؟"

ومضت عينا إرلند الزرقاوان كالفولاذ ، وضاق فمه ورقّت شفتاه :

"أجل . بهذا السيف أدّبت حفيدك حين وجدته مع ابنتي ."

وقف توره حاملاً السيف . نظر إليه وتكلم بلهجة التهديد :

"أنت الذي عليك أن تدعم القانون يا إرلند... لا شك أنك عرفت ذلك في الحين الذي تجاوزت فيه ما يسمح به القانون لك..."

عاد إرلند برأسه إلى الخلف ، وقد تضرج وجهه وقال بغضب :

"هناك قانون يا توره لا يمكن للملوك ولا لأعضاء المجالس أن ينحوه جانباً... يمكن للرجل أن يحمي عرضه بالسيف..."

"من حسن حظك يا إرلند أنه لم يستخدم أحد هذا القانون ضدك" ، أجاب توره أوف غيمسار بخبث . "وإلاّ لكنت في حاجة إلى عدد من الأرواح بقدر ما للهرّة..."

قال إرلند بلهجة لاذعة البطء :

"ألا تعتقد أن هذه المسألة شديدة الخطورة حتى أن الوقت غير ملائم لخلطها مع حكايات قديمة من أيام فتوتي ؟"

"لا أعرف إن كان ثورولف أوف لنسفيك يعتبر هذه المسائل شديدة القدم ."

ثار غضب إرلند وكاد يردّ عليه ، ولكن توره صرخ قائلاً :

" كان عليك أن تعرف أولاً يا إرلند إن كانت عشيقاتك ماهرات في قراءة الخطوط قبل أن تنطلق نحو مواعيدك الليلية حاملاً رسائل سرية في حزام خصرك! اسأل بارد هناك الذي حذرنا من أنك تدبر مؤامرات خيانية ضد ملكك الذي حلفت يمين الولاء له ، وتحتل منصبك وتتلقى راتباً من..."

و دون قصد رفع إرلند يداً إلى صدره... نظر إلى زوجته برهة ، وتضرج وجهه . ثم هرعت كريستين نحوه ورمت بذراعيها من حول عنقه . نظر إرلند إلى وجهها... فلم ير فيه سوى الحب :

"إرلند... زوجي ."

لم يكن أمين الخزينة قد نطق بكلمة واحدة حتى الآن . مضى الآن نحو الزوجين وقال برقة :

"سيدتي العزيزة... ربما كان من الأفضل لك أن تأخذي الأطفال والخادمات معك إلى دار النسوة ، وأن تبقوا هناك طالما كنا في الضيعة ."

أطلق إرلند سراح زوجته بضغطة أخيرة من ذراعه حول كتفيها .

"هذا أفضل يا كريستين... افعلي ما يقوله السير بارد ."

وقفت كريستين على رؤوس أصابعها وقدمت له فمها ليقبله . ثم خرجت إلى الباحة . ثم جمعت أطفالها من بين الحشد المختلط من أطفالها وخادماتها وحملتهم معها إلى القاعة الصغيرة... لم تكن هناك دار أخرى للنسوة في هوسابي .

مرّت بضع ساعات وهم جالسون هناك ، بينما كان هدوء وثبات السيدة يبقي الأطفال الصغار المروعين في حالة من الهدوء . ثم دخل إرلند ، مجرداً

من السلاح ومرتدياً ملابس السفر . وقف رجلان مسلّحان غريبان عند الباب .

صافح أولاده الأكبر سناً ثم رفع الصغار بين ذراعيه ، بينما سأل عن غاوته..." ولكن عليك أن تبلغه تحياتي يا ناكفه . لقد عدا إلى الغابات مع قوسه ، كما أعتقد ، كعادته . قل له إنه يستطيع الحصول على القوس الطويل الإنكليزي على أي حال... لقد أنكرت عليه ذلك حين طلبه مني يوم الأحد ."

ضمته كريستين إليها دون أي كلمة .

"متى تعود يا إرلند ، يا أعز الناس ؟ "همست له بتوسل .

"متى شاء الله يا زوجتي" .

تراجعت عنه ، محاولة ألاّ تنهار . لم يكن معتاداً على مخاطبتها إلا باسمها الأول ، وهذه الكلمات الأخيرة التي نطقها هزّتها حتى الصميم . كأنما فهمت الآن فحسب ما كان يجري بالفعل .

•

عند غروب الشمس جلست كريستين على التلة الواقعة إلى شمال المباني .

لم تكن قد رأت السماء حمراء وذهبية إلى هذا الحد من قبل . فوق التلة المشرفة عليها مباشرة كانت غيمة كبيرة . كان شكلها كجناح طائر ، وكانت تتوهج في داخلها كما الحديد في الكير ، وتلتمع كالعنبر . كانت خيوط ذهبية كالريش قد تحررت منها وراحت تعوم في السماء . في مكان عميق إلى الأسفل فوق البحيرة في قعر الوادي كانت السماء تعكس الغيوم

والجبال التي فوقها... بدا وكأنه من هناك في الأسفل في الأعماق كان الوهج المشتعل يخرج ليلوّن كل ما كان يمتد أمامها .

كان العشب في المروج ينشر بذوره ، وكانت أوراقه الحريرية تلتمع بلون أحمر داكن في النور الأحمر القادم من السماء . أما الشعير فكان في سنابله ، وقد عكس الوهج من لحاه الحريرية الشابة . كانت أسقف دور الضيعة المصنوعة من الخث مغطاة بطبقة سميكة من نبات الحماض والحوذان ، ونور الشمس يغطيها كلها بأشعة واسعة . أما ألواح سقف الكنيسة السوداء فكانت تتوهج بلون داكن ، كما طليت حجارة الجدران الفاتحة بلون ذهبي رقيق .

خرجت الشمس من تحت الغيمة ، وارتاحت فوق قمة الجبل وأرسلت نورها عبر مدى وراء مدى من الجبال الحرجية . كان المساء شديد الصفاء... وقد كشف النور أمام الأبصار أماكن صغيرة مقصوصة الأشجار بين حواف الجبال المغطاة بأشجار الصنوبر . استطاعت أن ترى سايترات ومزارع صغيرة بين الغابات التي لم تكن تعرف من قبل أنه من الممكن مشاهدتها من هوسابي . كتل هائلة من الجبال ، لونها بنفسجي داكن ، ووردي في الجنوب ، نحو "دوفر" ، حيث كان الغيم أو السديم يتواجد هناك .

بدأ أصغر أجراس المعبد في الأسفل بالرنين ، ثم بدأ جرس الكنيسة في فينيار يردّ عليه . جلست كريستين وقد انحنت فوق يديها المطويتين حتى توقفت ضربات الكنيسة الثلاثية في الهواء .

كانت الشمس الآن تحت قمة الجبل ، والشعاع الذهبي راح يشحب ويتحول اللون الأحمر إلى لون زهري رقيق . وبعد أن صمتت الأجراس ، بدأ تنهّد الغابات يرتفع مجدداً وينتشر إلى الخارج . بدا هدير النهر الصغير الذي

يجري عبر غابات الأوراق هناك في الوادي أعلى على الأذن . ومن البقعة المسيجة إلى الجوار وصل الرنين المألوف من أجراس قطعان المنزل . راحت خنفساء محوّمة تهمهم من حولها ثم ابتعدت .

أطلقت تنهيدة أخيرة بعد صلواتها... صلاة لأجل الغفران لأن أفكارها كانت في مكان آخر وهي تصلّي .

كانت الضيعة الكبيرة الجميلة تقع تحتها على جانب التلة ، مثل جوهرة على صدر التلة العريض . نظرت عبر كل الأراضي التي كانت تمتلكها مع زوجها . كان التفكير في هذه الضيعة والاهتمام بها قد ملأا ذهنها حتى الحافة . كانت قد عملت وناضلت... ولم تعرف حتى هذه الليلة كيف كافحت لتجعل هذه الضيعة تقف على قدميها ولتبقيها آمنة... لقد وجدت القوّة لفعل ذلك ولكم نجحت .

كانت قد فهمت الأمر على أنه قدرها الذي يجب أن تتحمله بصبر ودون إحجام ، وأن هذا كله كان يقع على عاتقها . وحتى لو ناضلت لتكون صبورة ولترفع رأسها عالياً تحت العبء الذي فرضته عليها حياتها ، في كل مرة كانت تعرف أنها كانت حاملاً من جديد بطفل تحت قلبها... مرة إثر أخرى . ومع كل ابن يضاف إلى القطيع ، كانت تحس على نحو أقوى بواجب حماية مصلحة وسلامة المنزل... ولقد لاحظت الليلة أيضاً أن قدرتها على مراقبة كل شيء ويقظتها قد ازدادتا مع كل طفل جديد يكون عليها مراقبته والكفاح من أجله . لم يسبق لها أن رأت بكل هذا الوضوح مثلما ترى هذا المساء ما الذي كتبه لها القدر وما الذي منحها إياه ، وذلك حين وهبها هؤلاء الأبناء السبعة . ومجدداً ثم مجدداً فإن المتعة المستمدة منهم كانت تسرّع دقات قلبها ، والخوف عليهم كان يخترق قلبها... كانوا أولادها ، هؤلاء

الصبيان الكبار بأجسادهم النحيلة الصبيانية البارزة العظام ، كما كانوا أولادها أيضاً حين كانوا صغاراً جداً وممتلئي الأبدان إلى حد ما كانوا قادرين معه على إيذاء أنفسهم حين يتعثرون في رحلاتهم بين المقعد وركبتها . كانوا أولادها ؛ وقد كانوا كذلك حين كانت تضطر إلى رفع رأسها حين ترفع أحدهم من المهد إلى صدرها لترضعه ، لأن رأسه كان يضرب على عنقها الرقيق كما تطرق زهور الجريس رؤوسها على سيقانها . أنى تجولوا في هذا العالم أو أنى ذهبوا ، وقد نسوا أمهم ، فقد كانت تشعر أن حياتهم كانت لا تزال فعلاً من أفعال حياتها ، وأنهم يجب أن يبقوا متحدين معها كما كانوا حين كانت الوحيدة في هذا العالم التي تعرف عن الحياة الجديدة التي كانت مختبئة في داخلها تشرب من دمها وتشحب خديها . لقد عرفت مرة أخرى ومجدداً الرعب الممرض المعرق : والآن فإنه حان أوانها مرة أخرى ، والآن مجدداً كانت ستمرّ بتجربة المخاض... حتى تحمل طفلاً جديداً بين ذراعيها . كم كانت تصبح أغنى وأقوى وأشجع مع كل طفل ، وهي لم تفهم ذلك قط حتى هذه الليلة .

و مع ذلك فقد لاحظت الليلة أنها ما زالت كريستين من يورونوندغارد التي لم تتعلم قط تحمّل كلمة غير لطيفة ، لأنها كانت محمية طوال حياتها بحبّ قوي وحنون جداً . بين يدي إرلند كانت لا تزال كما هي...

أجل ، أجل ، أجل . كان صحيحاً أنها قد تابعت تكديس ذكرى كل جرح أصابها في كل سنة من سنوات عمرها... رغم أنها عرفت دائماً أنه كان يجرحها ليس بنيّة سيئة كما يجرح الرجل الراشد رجلاً آخر ، بل كما يضرب طفل رفيقه في اللعب خلال اللعب . لقد كانت ذكرى كل مرة ضربها بها كذكرى ضربة سوط على اللحم إذ كانت تترك أثراً يفرز قيحاً . لم تكن

تخزّن أحقادها ضد زوجها عن رغبة وتعمّد . كانت تعرف أنها لم تكن ضيقة الأفق تجاه الآخرين ، ولكن حيث يتعلق الأمر به هو فقد كانت شديدة المباشرة . حين يكون إرلند على صلة بالموضوع ، فهي لا تستطيع أن تنسى شيئاً ، وكل خدش صغير في روحها كان يؤلم وينزف ويتورم ويخفق ، وذلك حين يكون هو من سبّبه .

لم تكن تزداد حكمة تجاهه ، ولا قوة . قد تناضل لتبدو ، في حياتها معه أيضاً ، قادرة وشجاعة وقوية وورعة ، ولكن لم يكن صحيحاً أنها كانت كذلك . لطالما كان التوق ينهشها من الداخل... التوق إلى أن تكون بالنسبة إليه مجدداً كريستين غابة غيردارود .

في تلك الأيام كانت راغبة في فعل كل ما تعرف أنه شرير وخاطئ مقابل ألاّ تخسره . وحتى تربط إرلند بها ، فقد منحته كل ما تملكه : حبها وجسدها وشرفها ودورها في خلاص ربها . كما منحته ما استطاعت أن تجده لتمنحه إياه رغم أنه لم يكن ملكاً لها : شرف أبيها وثقته في ابنته . لقد قلبت رأساً على عقب كل ما أسسه الرجال الراشدون الحكماء العقلاء لضمان سلامة عذراء شابة في سني قصورها . لقد تحدّت خططهم الرامية إلى رفاه وتقدم سلالتهم وآمالهم بأن عملهم سيثمر حين يكونون قد أضحوا تحت التراب ، تحدت كل ذلك بحبّها . لقد غامرت بأكثر من حياتها في هذه اللعبة ، حيث كانت المكافأة الوحيدة هي حب إرلند نيكولاوسون .

و لقد ربحت . لقد عرفت ، من ذلك الحين الذي قبّلها فيه أول مرة في الحديقة في هوففين ، وحتى اليوم حين قبّلها في القاعة الصغيرة قبل أن يقاد سجيناً من بيته... أن إرلند يحبها كما يحب حياته . وإن لم يكن قد عرف كيف يقود حياته جيداً ، ومع ذلك فقد كانت تعرف تقريباً منذ الساعة الأولى

التي قابلته فيها كيف كان يقود حياته . وإن لم يكن قد عاملها جيداً إلا أنه كان يعاملها أفضل ممّا كان يعامل نفسه .

يا للمسيح ، كيف كسبته! لقد اعترفت لنفسها هذا المساء... كانت هي نفسها قد دفعته إلى أن ينتهك قدسية الزواج بسبب برودها وكلماتها السامة . لقد اعترفت لنفسها الآن...حتى في هذه السنوات حين كانت تنظر إلى مداعباته غير اللائقة مع هذه المرأة سونيفا ، وقد غضبت بسبب ذلك ، وأحست في وسط غضبها بمتعة متعالية ومتحدية... لم يكن هناك من يعرف بهذه اللطخة المكشوفة في شرف سونيفا أولافسداتر ، ومع ذلك كان إرلند يحادثها ويمازحها كما يفعل خادم مع امرأة الحانات . وقد عرف هو منها أنها تستطيع أن تكذب وتخون الذين يثقون بها أشد الثقة ، وأنها كانت تترك نفسها تُغوى في أكثر الأماكن إثارة للخجل... ومع ذلك فقد وثق بها ، ولم يخنها . وبما أنه من السهل عليه أن ينسى كل الخوف من الخطيئة ، ورغم أنه كان سهلاً عليه أن يحنث بوعد قام به أمام الله عند المذبح ، ومع ذلك فقد أسف على خطاياه ضدها ، وناضل طوال سنوات حتى يستطيع أن يحافظ على وعوده لها .

لقد اختارته بنفسها . لقد اختارته في جنون الحب ، كما اختارته مجدداً في كل يوم من أيام تلك السنوات القاسية في بيت أهلها في يوروندغارد... اختارت انفعاله المتهور الثائر أمام حب أبيها لها وهو الذي لم يكن يتحمل أن تهب عليها الريح بقوة . لقد رمت بعيداً بالمصير الذي اختاره لها أبوها حين كان سيعطيها إلى رجل كان من شأنه أن يقودها ضمن أسلم الطرق ، وكان سينحني علاوة على ذلك ليبعد كل حجرة صغيرة قد تدوسها قدمها . لقد اختارت أن تلحق بالآخر ، الذي كانت تعرف أنه تائه

في ممرات خطرة . لقد أشار الرهبان والكهنة إلى طريق التوبة والكفارة حتى تصل إلى السلام... وقد اختارت الشقاء على أن تتخلى عن خطيئتها وحبها .

لذلك كان أمامها طريق واحد : ألاّ تتذمّر أو تبكي ، مهما أصابها من جانب ذلك الرجل . وقد تراءى لها الآن ، دون وضوح ، ذلك الزمان حين غادرت أباها . ولكنها شاهدت وجهه الحبيب وتذكرت كلماته ذلك اليوم في ورشة الحدادة حين طعنت قلبه تلك الطعنة الأخيرة ، وتذكرت حديثهما عالياً في الجبال في الساعة التي رأت فيها باب الموت وقد انفتح بانتظاره . إنه لأمر غير لائق أن تتذمر من المصير الذي اختاره المرء لنفسه... يا أولاف المقدس ، ساعدني على أن أبدو جديرة بحب أبي!

إرلند ، إرلند... حين قابلته في شبابها ، كانت الحياة قد أضحت بالنسبة إليها نهراً سريعاً يندفع فوق الصخور والشلالات . في هذه السنوات في هوسابي ، انتشرت الحياة متسعة وهادئة كبحيرة ، عاكسة كل ما يحيط بها . تذكرت حين كانت في بيت أهلها وكان نهر "لاغن" يفيض في فصل الربيع ، ويبدو رمادياً وقوياً في قعر الوادي ، حاملاً على صدره ما جرفه التيار ، بينما كانت قمم الأشجار الورقية في طريقه تتمايل فوق المياه . في وسطه كانت تبدو دوامات صغيرة داكنة مهدّدة ، حيث يجري التيار مسرعاً ثائراً وخطراً تحت السطح اللامع . والآن عرفت أنه رغم كل ذلك كان حبها لإرلند يجري كتيار سريع وخطر تحت سطح حياتها عبر كل هذه السنوات . والآن كان يندفع إلى الأمام... ولكنها لا تعرف إلى أين .

إرلند ، أيها الحبيب...!

و من جديد تلت كريستين "سلام لك يا مريم" تحت توهج المساء . وسلام لك يا مريم ، يا ممتلئة بركة! أتجرأ على أن أتوسل إليك أن تمنحيني

هذه الرحمة الوحيدة التي أراها الآن : أنقذي إرلند ، أنقذي حياة زوجي...!

نظرت إلى هوسابي هناك في الأسفل وفكرت بأبنائها . والآن كانت الضيعة قابعة هناك في نور المساء كرؤيا حلم قد يذوب مبتعداً... الآن حين كان الخوف على المصير المبهم لأبنائها يهز قلبها... خطر لها خاطر : إنها لم تشكر الرب قط من كل قلبها على الثمار الرائعة التي نجمت عن تعبها طوال هذه السنوات . كما أنها لم تشكره قط كما يجب أنه منحها ابناً سبع مرات .

من خارج قبة سماء المساء ، من كل الريف القابع تحت عينيها ، وصلت العبارات المهمهمة للقداس الذي سمعته آلاف المرات ، بصوت أبيها الذي كان يقول لها الكلمات وهي بعد طفلة صغيرة على ركبته : هكذا يغني سيرا آيريك في "برافاتيو" حين يلتفت إلى المذبح ، وهكذا يقول باللغة النرويجية :

إنه لأمر لائق وعادل وحق ومتاح للخلاص علينا دائماً ، وفي كل الأماكن ، أن نشكر الرب ، أيها الرب المقدس ، أيها الأب كلي القدرة ، أيها الإله الخالد .

حين رفعت وجهها من بين يديها رأت غاوته صاعداً الجبل باتجاهها . جلست كريستين صامتة وانتظرت حتى وقف الصبي أمامها ، ثم مدت يدها وأخذت يده . كان هناك مرج مغطى بالأعشاب لمسافة طويلة من حول الصخرة التي كانت تجلس عليها ولا مكان يمكن لها أن تختبئ فيه .

سألت برقة : "كيف نفذت المهمة التي أوكلها أبوك إليك ؟"

"كما أمرني . وصلت إلى المزرعة بحيث لا يراني أحد . لم يكن أولف

في البيت ، لذلك أحرقت ما أعطانيه أبي في الموقد الذي في القاعة . أخرجته من القماشة ." تردد قليلاً . "أمي ، كان فيها تسعة أختام..."

"يا غاوته العزيز" . رفعت الأم يديها حتى ارتاحتا فوق كتفي الصبي ونظرت إلى وجهه . "لقد وضع أبوك مسائل كبرى بين يديك . إن كنت تظن أنك لا تستطيع سوى أن تحكي عنها لشخص ما ، إذن فاحك لأمك عمّا يثقل عليك . ولكن الأفضل في رأيي أن تبقى صامتاً تماماً يا بنيّ ."

الوجه ذو اللون الفاتح تحت الشعر ذي اللون التبْني ، والعينان الكبيرتان والفم الأحمر المكتنز... لكم يشبه أباه الآن! أومأ غاوته برأسه . ثم وضع ذراعاً من حول كتف أمه .

و قد خطر بعذوبة وحزن لكريستين الآن أنها تستطيع أن تضع رأسها على صدر الصبي النحيل الصغير . كان طويلاً الآن إلى حد أنه حين يقف وهي جالسة ، فإن رأسه كان يصل إلى ما فوق قلبها . ولأول مرة اتكأت على ابنها .

قال غاوته :

"كان إيزاك وحيداً في المنزل . لم أُرِه ما كنت أحمله بل قلت له فحسب إن عليّ أن أحرق شيئاً ما . لذلك أوقد ناراً كبيرة في المدفأة قبل أن يخرج ليسرج الحصان .

أومأت أمه برأسها . ثم تخلى عن عناقها والتفت نحوها وقال برعب واستغراب طفوليين في صوته :

"أمي ، أتعرفين ما يقولون ؟ يقولون إن أبي... كان سيصبح **ملكاً**..."

أجابت بابتسامة : "لا يبدو الأمر محتملاً جداً يا بنيّ..."

"و لكنه من عائلة ملكية يا أمي" ، قال الصبي بحماسة وفخر . "و أعتقد أن من شأن أبي أن يكون ملكاً أفضل من الرجال الآخرين ."

"اسكت" . أخذت يده مجدداً . "يا غاوته العزيز... عليك أن تفهم بعد أن أظهر أبوك ثقته بك إلى هذا الحد ، أن عليك وعلينا جميعاً ألا نفكر بشيء أو نقول أي شيء ، ولكن علينا أن نراقب ألسنتنا جيداً حتى نكون قد تعلمنا شيئاً ما ، حتى نستطيع أن نحكم على ما يكون علينا أن نقوله وكيف نقوله . سأذهب إلى نيداروس غداً ، وإذا ما استطعت مخاطبة أبيك وحدي في أي وقت من الأوقات ، فسوف أحكي له دون شك أنك نفذت المهمة التي أوكلها إليك جيداً...

"خذيني معك يا أمي!" توسل الصبي بقوة .

"علينا ألاّ ندع أحداً يفكر يا غاوته أنك أكثر من مجرد طفل خالي البال . عليك أن تحاول يا بنيَّ الصغير أن تلعب هنا في البيت وتكون مرحاً بقدر ما تستطيع... حتى تخدم أباك على أفضل نحو ."

•

صعد ناكفه وبيورغولف التلة ببطء . وصلا إلى أمهما ووقفا هناك ، ووجهاهما الشابان متوتران من المشاعر . لاحظت كريستين أنهما مازالا طفلين يلجأان إلى أمهما حين يواجهان المتاعب... ومع ذلك فقد اقتربا من سن الرجولة حتى أنهما كانا راغبين في منحها السلوان والتشجيع ، لو استطاعا أن يجدا السبيل إلى ذلك . ولكن لم يقل أي منهما أي شيء .

و سرعان ما هبطوا جميعاً ، وقد وضعت كريستين يديها على كتف كل واحد من ولديها الأكبر .

"لم تنظر إليّ يا ناكفه ؟" ولكن الصبي تضرج وجهه ، والتفت برأسه بعيداً ، ولم يجب .

لم يكن قد فكر سابقاً بمنظر أمه . كان قد مر زمن طويل منذ أن بدأ يقارن أباه مع الرجال الآخرين... كان أبوه أوسمهم ويبدو كزعيم أكثر منهم جميعاً . كانت أمه هي الأم التي ترزق بأولاد جدد كانوا ينضمون ، وهم يكبرون خارج أيدي النساء ، إلى تلك المجموعة الصغيرة من الأخوة ، وذلك ليشاركوا في حياة المجموعة في رفاقية وصداقة وكفاح . كان للأم يدان مفتوحتان يتدفق منهما كل ما هم في حاجة إليه . كانت الأم تعرف ما تفعله فيما يتعلق بكل الأمراض تقريباً . كانت أمهم أشبه بالنار في الموقد ، كانت تحمل حياة البيت كما تحمل الأراضي المحيطة بهوسابي المحاصيل كل سنة . كانت الحياة والدفء ينبعان منها كما من البقر في الزريبة أو الجياد في الإسطبلات . لم يفكر الصبي أبداً في تشبيه أمه بالنساء الأخريات...

في هذا المساء شاهد كل شيء على الفور : كانت سيدة أبيّة وجميلة . ومع الجبين الواسع الأبيض تحت غطاء الرأس الكتاني ، والتحديقة المباشرة للعينين الرماديتين الفولاذيتين تحت الحاجبين الجميلين المقوسين ، والصدر الممتلئ والأطراف الطويلة حسنة الشكل . كانت تحرك جسدها كله باستقامة كرمح . ولكنه لم يقدر أن يتحدث عن هذا . كان يتابع السير متضرج الوجه وصامتاً ويدها فوق عنقه .

سار غاوته خلف بيورغولف وهو يتمسك بحزام أمه . بدا الأخ الأكبر يتذمر لأن غاوته كان يدوس على كعبيه... وراح الاثنان يتدافعان ويتشاجران قليلاً . أوقفت الأم الشجار وأمرتهما بالهدوء ، وقد لان وجهها الجدي وابتسمت . على أي حال كان أولادها جميعاً مجرد أطفال .

●

استلقت كريستين مستيقظة في الليل... كان مونان نائماً على صدرها ولافرانس بينها وبين الجدار .

حاولت أن تتوصل إلى حكم في قضية زوجها . لم تستطع أن تصدّق أن الحظ يمكن يكون عظيماً إلى هذا الحد . لقد اتهم إرلينغ فيدكونسون وأولاد عم الملك في سودرهايم بعدم الولاء والخيانة . ولكنهم عادوا الآن إلى بيوتهم سالمين غانمين كما كانوا دائماً ، رغم أنهم لم يكونوا قد نالوا رضا الملك إلى ذلك الحد من قبل .

يبدو أن إرلند قد تورط في أعمال غير شرعية في خدمته لليدي إنجبيورغ . وفي كل هذه السنوات كان يحافظ على الصداقة مع قريبته النبيلة تلك . كانت تعرف أنه منحها نوعاً من المساعدة اللاقانونية التي كان يجب أن تبقى سراً وذلك قبل خمسة شتاءات حين حلّ ضيفاً عليها في الدانمارك . وبما أن إرلينغ فيدكونسون قد تبنّى قضية الليدي ، وكان سيجعلها تحوز على أملاك لها في النرويج ، فقد يكون إرلينغ قد نصحها باللجوء إلى إرلند ، أو أنها لجأت إلى قريب أبيها من تلقاء نفسها ، بعد أن قام إرلينغ بالتصالح مع الملك . ويبدو أن إرلند قد تصرف بحماقة في هذه القضية...

و لكنها لم تستطع أن تفهم جيداً كيف أن أقرباءها في سوندبو قد تورطوا في هذا أيضاً .

و لكن كان من المستحيل أن تكون نهاية المسألة لا شيء سوى أن إرلند سيتوصل إلى أن يدفع كفارة إلى الملك ، إن كانت كل جريمته هي أنه كان شديد الحماسة في خدمة أم الملك .

خيانته . لقد سمعت عن سقوط أودون هستاكورن... وموته على

المشنقة في نوردنس... وقد جرى ذلك خلال فترة شباب أبيها . ولكن تهماً مخيفة أحيلت على سير أودون . كلا... ما كان عليها أن تفكر في مثل هذه الأمور . كان أمراً قليل الاحتمال أن تكون لقضية إرلند نهاية أسوأ من... من نهاية إرلينغ فيدكونسون وأولاد هافتور ، مثلاً...

نيكولاس إرلندسون أوف هوسابي . آه ، لقد بدا لها الأمر الآن كذلك... كانت هوسابي أجمل ضيعة في أراضي النرويج . ستذهب إلى السير بارد وتعرف منه كل ما يمكن أن يُعرف . إن أمين الخرينة كان صديقها على الدوام . وكذلك أولاف لاغماند... في الأيام السالفة . ولكن إرلند فهم الموضوع من جانبه السيئ حين صدر مرسوم لاغماند ضده في تلك الدعوى المتعلقة بالمنزل الذي في المدينة . وقد تأثر أولاف كثيراً بالمصيبة التي حلّت بزوج ابنته بالمعمودية .

لم يكن لهما أقرباء مقربون ، لا إرلند ولا هي... رغم أن أقرباءهما كانوا كثراً . ما كان مونان باردسون معدوداً من بينهم . لقد أدين لقيامه بصفقات غير قانونية وهو يتولى منصب حاكم رنجريك . كان يتوق جداً إلى أن ينجح أولاده الكثر في هذه الدنيا... كان قد رزق بأربعة زواجاً وخمسة من خارج الزواج . ويقال إن حاله تدهورت منذ وفاة الليدي كاترين . لم تكن إنجه من ريفيكله ولا جوليتا وزوجها ولا راغنفريد المتزوجة في السويد يعرفون إرلند إلاّ قليلاً . هؤلاء كن بنات الليدي آشيلد . بين آل هاستنس وإرلند لم تكن هناك مودة إطلاقاً منذ وفاة السير بارد بيترسون . أما تورمود أوف راسفولد فكان يعيش طفولته الثانية ، فأولاده من الليدي غونا قد توفوا ، بينما أحفادهما لا يزالون دون سن الرشد .

لم يكن لديها أقرباء آخرون هي نفسها من ناحية أبيها في النرويج عدا

كتيل آسموندسون من سكوغ ، وسيغورد كيرنينغ ، الذي كان متزوجاً من ابنة آسموند الكبرى . أما الابنة الثانية فكانت أرملة ، والثالثة راهبة . أما رجال سوندبو فكانوا أربعتهم منخرطين في القضية .

كان الراهب المريض في "دير الواعظين" هو القريب اللحّ الوحيد لإرلند . وكان الرجل الأقرب إليها في هذا العالم هو سايمون دار المتزوج من أختها الوحيدة .

استيقظ مونان وهو ينشج ، والتفتت كريستين إليه ووضعته على ثديها من الجهة الأخرى . لم تكن تستطيع اصطحابه معها إلى نيداروس ، إذ لم تكن واثقة من سير الأمور هناك . ربما ستكون هذه هي المرة الأخيرة التي سيرضع فيها هذا الصغير من ثدي أمه . وربما ستكون هذه هي المرة الأخيرة في هذه الدنيا تستلقي فيها هي على هذا النحو ، وهي تضم طفلها ، على هذا النحو المبارك الميمون . لو كانت حياة إرلند في خطر...! يا مريم المباركة ، يا أم الرب ، هل سبق لها وتذمرت مرة واحدة في أي وقت من الأوقات بسبب الأولاد الكثيرين الذين منحهم إياها الرب... ؟ هل ستكون هذه هي القبلة الأخيرة التي ستنالها من هذا الفم الصغير اللبني... ؟

٥

ذهبت كريستين إلى القصر في صباح اليوم التالي بعد أن وصلت إلى المدينة . أين وضعوا إرلند يا ترى ضمن هذا المبنى الكبير ؟ هكذا فكرت وهي تنظر إلى الأبنية الحجرية الكثيرة . بدا لها أنها تفكر في حال إرلند أكثر ممّا تفكر فيما ستعلمه عنه . ولكن قيل لها لدى السؤال إن أمين الخزينة قد غادر البلدة .

آلمتها عيناها بعد الرحلة الطويلة بالزورق في نور الشمس اللامع ، وكان ثدياها المترعان بالحليب يزعجانها . وحين نام الخدم في الغرفة ، نهضت وذرعت أرض الغرفة جيئة وذهاباً طوال الليل .

في اليوم التالي أرسلت هالدور ، خادمها ، إلى القصر... عاد إلى البيت ، مذعوراً وتعيساً : لقد أخذ عمه أولف هالدورسون ، سجيناً في الزقاق البحري ، وهو يحاول العبور نحو الدير في هولم . لم يكن أمين الخزينة قد عاد بعد .

و هذا النبأ وضع كريستين أيضاً في حالة من الخوف . حاولت كريستين إرسال رسالة إلى زوجها ولم تصله . فكرت في مشاهدة غونولف في الدير ،

ولكنها أحست أنها لا تستطيع ذلك . ذرعت أرض القاعة جيئة وذهاباً في البيت ، بعينين نصف مغمضتين تحرقانها باستمرار . كانت تضطجع أحياناً ، ولكن يطغى الخوف والآلام عليها مجدداً فتستيقظ وتمشي لتحتملها .

بعد العصر بقليل وصل غونولف نيكولاوسون . هرعت كريستين لتستقبل الراهب .

"هل شاهدت إرلند يا غونولف ، ما هي التهمة ضده... ؟"

"هناك أنباء حزينة يا كريستين . لا ، إنهم لا يسمحون لأحد بمشاهدة إرلند... وخاصة جماعة الدير . وهم يعتقدون أن رئيس الدير أولاف كان على اطلاع على مخططاته . صحيح أنه اقترض أموالاً من هناك ، ولكن "الأخوة" جميعاً يقسمون بأنهم ما كانوا يعرفون شيئاً عما كان ينوي إرلند فعله حين وضعوا خاتم الدير مع الصك . كما أن رئيس الدير لا يذكر شيئاً عن أفعاله...

"أجل . ولكن ما هو هذا الأمر ؟... هل أن الدوقة قد أغرت إرلند ليسير في هذا الطريق... ؟"

و أجاب غونولف :

"يبدو وكأنهم اضطروا إلى الضغط عليها بشدة قبل أن تنضم إلى مخططاتهم . والرسالة التي رأى شخص ما مسودتها ، والتي أرسلها إرلند وأصدقاؤه إليها في الربيع الماضي ، فهم لا يستطيعون وضع اليد عليها ، على ما أعتقد ، إلا إذا أجبروا الليدي على أن تسلمهم إياها . ولم يجدوا المسودة . ولكن في الرسالة الجوابية وفي رسالة السير آغه لاوريسن ، التي أخذوها من بورغار توروندسون في فيوي ، يبدو مؤكداً أنها تلقت رسالة من هذا النوع من إرلند والرجال الذين تعهدوا بالوقوف معه في خطته .

ويبدو واضحاً أنها كانت تخشى منذ زمن طويل إرسال الأمير هاكون إلى النرويج... ولكنهم حثّوها على ذلك ، فمهما تكن نتيجة الأمر كله ، إلا أن الملك ماغنوس ما كان سيقدم على إيذاء الطفل الذي هو أخوه . وإن لم ينجح هاكون كنوتسون في كسب تاج النرويج ، فلن يكون الأمر أسوأ ممّا كان قبلاً... ولكن هؤلاء الرجال كانوا راغبين في المغامرة بحياتهم وأموالهم ليضعوه على العرش ."

بقيت كريستين صامتة فترة طويلة .

"أفهم ذلك . أليست هذه مسائل أخطر ممّا كان بين السير إرلينغ أو أولاد هافتور والملك ؟"

"أجل" ، قال غونولف بصوت خفيض . "كان من المقرر أن هافتور غراوت وإرلند سيبحران إلى بيورغفين . إلا أنهما كانا ينويان الذهاب إلى كالدونبورغ ، وكانا سيجلبان الأمير هاكون معهما إلى النرويج بينما كان الملك ماغنوس خارج النرويج لا يزال مشغولاً بمغازلاته..."

بعد فترة قصيرة قال الراهب بصوت لا يزال خفيضاً :

"لقد مرّ أكثر من... لقد مرّ مئتا عام تقريباً منذ أن تجرأ أي نبيل نرويجي على فعل مثل هذا الأمر ، أن يحاول خلع ملك ورث العرش وتنصيب ملك منافس في مكانه..."

جلست كريستين تحدق أمامها . لم يستطع غونولف مشاهدة وجهها .

"أجل" ، قالت بعد وهلة مفكرة . "آخر الرجال الذين تجرؤوا على ممارسة هذه اللعبة كان أسلافك وأسلاف إرلند... وفي تلك المرة أيضاً فإن أقربائي المتوفين الراحلين من غييسلنغ وقفوا إلى جانب الملك سكوله ."

قابلت نظرة غونولف المتسائلة ، ثم انفجرت بحرارة وقوة :

"أنا مجرد امرأة بسيطة يا غونولف... ولم أكن أهتم كثيراً حين كان زوجي يتحدث مع رجال آخرين حول مثل هذه الأمور... كما لم أكن راغبة في الإصغاء حين كان يحدثني عنهم... فليكن الرب في عوني ، كانت هذه الأمور الهامة تتجاوز مستوى فهمي . ولكن رغم أني امرأة بسيطة لا أتقن سوى أعمالي المنزلية وتربية أطفالي... ورغم أني أعرف أن الحق والعدل سيكون عليهما أن يقطعا مسافة طويلة قبل أن تستطيع قضية زوجي أن تصل إلى الملك ويعودا مجدداً من حيث انطلقا ؛ إلاّ أني فهمت أيضاً أن العامة في هذه البلاد يعانون الآن من ازدهار أقل ويعيشون أوقاتاً أصعب ممّا كان عليه الحال وأنا طفلة وكان الملك هاكون طيب الذكر هو ملكنا . زوجي..." تنفست بسرعة وارتجفت مرة أو اثنتين... "زوجي... أرى الآن أنه قد اتخذ على عاتقه قضية كبيرة إلى حد أن أياً من الزعماء الآخرين في البلاد لم يجرؤوا على المشاركة فيها..."

"و لكنه تجرأ على ذلك ." كور الراهب قبضتيه بشدة وانخفض صوته إلى مجرد همسة . "قضية كبيرة جداً إلى حد أن الكثيرين سيعتبرون الأمر على أنه نحس لأنه كان السبب في سقوطه... وعلى هذا النحو..."

صرخت كريستين وأجفلت . جعلت هذه الحركة العنيفة المفاجئة الألم في صدرها وذراعيها حاداً إلى درجة أن جسدها كله استحم بالعرق . التفتت إلى الراهب على نحو عنيف ومحموم وصرخت بصوت مرتفع :

"لم يكن إرلند من فعل ذلك –لقد كان محكوماً على الأمر بالإخفاق– كان ذلك حظه السيئ..."

رمت كريستين بنفسها على ركبتيها ، ويداها مضغوطتان على المقعد ورفعت وجهها المحمر اليائس نحو الراهب :

"ليس علينا أنت وأنا يا غونولف -أنت أخاه وأنا زوجته منذ ثلاث عشرة سنة- أن نلقي باللوم على إرلند ، لأنه أضحى الآن سجيناً مسكيناً ، وربما تكون حياته مهددة..."

ارتجف وجه غونولف . نظر إلى المرأة الجاثية .

"فليكافئك الرب يا كريستين لأنك تستطيعين أن تستوعبي الأمر على هذا النحو ." ومن جديد عصر يديه معاً . "فليمنح الرب الحياة لإرلند ، والقدرة على تعويضك عن إخلاصك . أرجو من الله أن يبعد عنك هذا الشر وعن أطفالك يا كريستين..."

"لا تنطق بمثل هذا الكلام!" جلست باستقامة على ركبتيها ورفعت عينيها إلى وجه الرجل . "لم ينته الأمر نهاية جيدة يا غونولف حين تدخلت في شؤون إرلند وشؤوني . لم يحكم عليه أحد بالقسوة التي حكمت أنت بها عليه... أنت أخاه وخادم الرب!"

"لم تكن إرادتي قط أن أحكم على إرلند على نحو أقسى من... ممّا يجب ." كان وجهه الأبيض قد ازداد بياضاً . "ليس هناك شخص على الأرض أحبه كما أحب أخي . لذلك فإنه لأمر يعتصر روحي كأنما كانت الخطيئة خطيئتي أنا وعليّ أنا أن أكفّر عنها ، وذلك حين أساء إرلند إليك . ثم كانت هناك هوسابي... كان على إرلند وحده أن يتابع مسيرة سلالته التي هي سلالتي أيضاً . منحته الجزء الأكبر من إرثي . أبناؤك هم أقرب الأقرباء إليّ..."

"لم يسئ إرلند إليّ! لم أكن أفضل منه! لمَ تحدثني على هذا النحو يا غونولف ؟... لم تكن أبداً كاهني في الاعتراف . لم يلم سيرا آيريك زوجي بسببي... لقد قوّمني بسبب أخطائي حين كشفت له عن مشاكلي . كان كاهناً

أفضل منك... وهو الذي عيّنه الرب وصياً علي ، وأن عليّ أن أصغي إليه... ولم يقل أبداً إني تعرضت إلى الإساءة . سأصغي إليه!"

كان غونولف قد نهض حين وقفت هي . همهم ووجهه شاحب وقلق :

"أنت تقولين الحقيقة . عليك الإصغاء إلى سيرا آيريك فحسب..."

التفت ليرحل ، ولكنها أمسكت بيده متضرعة :

"كلا ، لا تتركني هكذا! أتذكر يا غونولف... أتذكر حين كنت ضيفتك هنا في هذا المنزل... كان منزلك في ذلك الحين ، وكنت طيباً معي . أتذكر المرة الأولى التي قابلتك فيها... كنت خائفة ومتألمة... أتذكر أنك تحدثت إليَّ معتذراً عن إرلند -لم تستطع أن تعرف- لقد صليت وصليت لأجل حياتي وحياة ابني . أعرف أنك كنت تتمنى لنا الخير وأنك تحب إرلند...

"أوه ، لا تتكلم عن إرلند بقسوة يا غونولف... من منا طاهر أمام الرب ؟ لقد أحبه أبي في النهاية . وأولادنا يحبون أباهم . تذكر أنه وجدني ضعيفة وسهلة على الإغواء ، ولكنه حفظ لي شرفي . أجل ، إن الجو جميل في هوسابي... في المساء الأخير قبل أن أغادر البيت كان الجو جميلاً جداً ، وكان الغروب رائعاً في ذلك المساء . لقد عشنا أياماً طيبة كثيرة معاً هناك ، إرلند وأنا . وكيفما سينتهي بنا الأمر ، كيفما سينتهي بنا الأمر ، سيبقى هو زوجي ، زوجي الذي أحب..."

"كريستين ، لا تثقي الآن بوهج الغروب وبالحبيب الذي تتذكرين الآن أنك تخشين على حياته .

"...أتذكر أمراً من أيام شبابي حين كنت مساعد قندلفت فحسب . كانت غودبيورغ التي تزوجت لاحقاً من ألف أوف أوفاسون ، خادمة في

سيهايم في ذلك الحين ؛ وقد اتهمت بسرقة خاتم ذهبي . وقد تبين لاحقاً أنها كانت بريئة . ولكن العار والخوف هزّا روحها إلى حد أن العدو سيطر عليها . ذهبت إلى البحيرة وكانت تريد أن تغرق نفسها فيها . وقد شهدت لنا غالباً فيما بعد أنها وهي تدخل البحيرة بدا لها العالم بلون أحمر وذهبي وجميل ، والتمع الماء وأحست به دافئاً ومريحاً ، ولكنها حين وقفت فيه حتى وسطها ذكرت اسم يسوع ورسمت إشارة الصليب على نفسها ، ثم بدا العالم كله رمادياً ، والمياه باردة ، وعرفت إلى أي مصير كانت تتجه..."

تكلمت كريستين برقة : "إذن لن أسميها" . نهضت ووقفت باستقامة وتصلّب... "إذا استطعت أن أصدق ذلك عندها سأشعر بإغراء يجذبني إلى التخلي عن سيدي وهو في الشدة . ولكني أعتقد أنه لن يكون اسم المسيح بل اسم عدوه بالأحرى هو القادر أن يفعل أمراً مشابهاً..."

"لم أكن أعني ذلك ، بل عنيت –و لتكوني قوية يا كريستين بعون الرب– تحمل أخطاء زوجك بروح محبّة..."

"أنت ترى أني أفعل ذلك" ، قالت الزوجة باللهجة نفسها..."

التفت غونولف بعيداً عنها ، وقد شحب وراح يرتجف . مرّر يده فوق وجهه :

"سأمضي إلى البيت . أستطيع بسهولة أكبر... في البيت أستطيع بسهولة أكبر أن أجمّع أفكاري... إني سأبذل كل ما لدي من مقدرة لأجل إرلند ولأجلك . فليحفظ الرب... الرب وكل القديسين حياة أخي وحريته . أوه يا كريستين إياك أن تصدقي أن أخي ليس عزيزاً عليّ..."

بعد أن غادر المكان ، اعتبرت كريستين أن كل الأمور كانت تجري

نحوالأسوأ . رفضت أن يدخل الخدم إليها ، وراحت تمشي وتمشي ، وهي تفرك يديها وتئنّ بصوت رقيق . كان المساء قد توغل حين سمعت ضجيج رجال على جياد في الباحة . بعد لحظة ، فتح الباب واقترب منها مسرعاً رجل طويل بدين في عباءة ركوب ، رأته أولاً دون وضوح في نور الغسق بمهمازين رنانين وسيف يتجرجر على الأرض . حين عرفت أنه سايمون أندرسون انفجرت في بكاء عال وركضت نحوه بذراعين مفتوحتين ، ولكنها صرخت متألمة حين شدّها إليه . حررها سايمون من قبضته . وقفت ويداها على كتفيه وجبينها على صدره ، تبكي بيأس . وضع ذراعاً من حولها برقة :

"باسم الرب يا كريستين!"... بدا وكأن هناك نغمة إنقاذ في لهجة صوته الجاف الدافئ ، وفي الرائحة الحية الرجولية الصادرة عنه... الممتزجة بالعرق وغبار الطرقات والجياد والملابس الجلدية . "باسم الرب... لا زال الوقت باكراً على فقدان الأمل والشجاعة... لابد من وجود حلّ ، كوني واثقة..."

خلال وقت قصير هدأت بما فيه الكفاية لترجوه العفو . كانت مريضة وبائسة جداً ، كما قالت ، فقد كان عليها أن تفطم ابنها الأصغر على نحو فجائي جداً .

عرف منها سايمون ما جرى لها خلال هذه الأيام والليالي الثلاث الأخيرة . نادى على خادمتها وسألها بغضب إن لم يكن هناك في المنزل امرأة واحدة لديها من الذكاء ما يكفي لتعرف ما الذي كان يمرض سيدتهن . ولكن كانت هذه خادمة شابة غرة وكان وكيل منزل إرلند في المدينة أرمل له ابنتان عازبتان . أرسل سايمون رجلاً إلى المدينة ليجلب الحكيمة وطلب من كريستين أن تذهب إلى سريرها . وحين ستصبح في حال أفضل سيذهب إليها ويكلمها .

وبينما راحا ينتظران الحكيمة ، قُدِّم له ولتابعه الطعام في القاعة . وخلال الطعام حادثها بينما كانت تخلع ملابسها ضمن حجرة النوم . أجل ، لقد ركب شمالاً ما أن سمع ما جرى في سوندبو... لقد وصل إلى هناك وذهبت رامبورغ إلى هناك لتكون مع زوجتي إيفار وبورغار . لقد اقتيد إيفار إلى "قلعة ميوس" ، ولكن هافارد ترك حراً طليقاً ، ولكن على أن يتعهد بعدم مغادرة الأبرشية . ويقال إن بورغار وغوتورم كانا محظوظين بما فيه الكفاية إذ هربا... أما يون من لاوغاربرو فقد أسرع على جواده إلى راومسدال ليعرف الأنباء ، وكان سيرسل رسالة إلى هنا . أما سايمون فقد كان في هوسابي في منتصف النهار ، ولكنه لم يتأخر طويلاً . الأولاد كلهم بخير ، إلا أن ناكفه وبيورغولف توسّلا وتوسلا إليه ليصطحبهما معه .

كانت كريستين قد استعادت رباطة جأشها وهدوءها حين جلس سايمون في وقت متأخر من المساء على حافة سريرها . كانت تستلقي وهي تشعر بتعب مترع بالامتنان بعد أن ولت أوجاعها التي لا تطاق ، ونظرت إلى وجه زوج أختها البدين الذي لوحته الشمس وعينيه الصغيرتين القويتين . لقد أراحها وهدأها أنه قد جاء . وقد بدا على سايمون الجدية حين سمع على نحو مفصل عن القضية ، ومع ذلك فقد تكلم على نحو متفائل .

بقيت كريستين تنظر إلى حزام جلد الأيائل من حول خصره السمين . كان الإبزيم الكبير المسطح من النحاس الملبس بالفضة ، دون أي زينة أخرى سوى حرفي " A" و" M" اللذين يرمزان إلى Ave Maria (السلام عليك يا مريم) . أما الخنجر الطويل فكان مطعماً بالفضة المذهبة والأحجار البلورية الكبيرة التي تزين القبض ؛ وإلى سكين الطاولة الصغيرة ذات

المقبض من القرن المتشقق والمربوطة بأسلاك نحاسية... كل هذا كانت تعرفه منذ كانت طفلة كجزء من عدة أبيها اليومية . تذكرت حين حصل سايمون على هذه الأشياء... قبل أن يموت أبوها مباشرة ، إذ كان ينوي إعطاء سايمون أفضل حزام مذهّب لديه وكذلك بعض الفضة لصنع صفائح تكفي لتطويله ليلائم خصر صهره . ولكن سايمون توسل أن يعطى هذا الحزام... وحين قال لافرانس إن سايمون يغش نفسه ، قال سايمون إن الخنجر على الأقل كان قطعة ثمينة . "أجل ، ثم السكين" ، قالت راغنفريد بابتسامة صغيرة ، ثم ضحك الرجلان وقالا : "أجل ، السكين ، طبعاً" . أما فيما يخص السكين فإن أباها وأمها قد تجادلا كثيراً حولها . كان أمراً مثيراً لغضب راغنفريد في كل يوم وكل ساعة أن ترى مثل هذا الشيء القبيح الرديء في حزام زوجها . ولكن لافرانس أقسم إنه لن يسمح لها بتحقيق مأربها فيفارق السكين . "لم يسبق لي قط أن سحبتها ضدك يا راغنفريد . وهي سكين جيدة كأي سكين أخرى في النرويج لقطع الزبدة... حين تكون ساخنة بما فيه الكفاية ."

رجت سايمون أن يدعها ترى السكين ، وبقيت بين يديها مدة من الزمن وهي تنظر إليها .

قالت برقة وتوسل : "كنت أتمنى لو امتلكت هذه السكين ."

"اجل –أستطيع أن أصدق ذلك– أنا سعيد بامتلاكي هذه السكين... وإني لن أبيعها حتى بعشرين من الماركات ." أمسك برسغيها ضاحكاً واستعاد منها السكين . كانت يدا سايمون الصغيرتان المكتنزتان مريحتين عند اللمس دائماً ، فهما دافئتان وجافتان .

بعد ذلك بقليل تمنى لها ليلة طيبة وأخذ الشمعة وخرج إلى القاعة .

سمعته يجثو أمام الصليب هناك ثم يقف مجدداً ويرمي بحذائه إلى الأرض ، ثم يرمي بنفسه بثقل بعد ذلك على السرير قرب الجدار الشمالي . ثم غرقت كريستين في نوم عذب عميق .

•

لم تستيقظ إلا وقد انقضى شطر كبير من اليوم التالي . كان سايمون أندرسون قد خرج منذ وقت طويل ، وكان خدم المنزل قد تلقوا الأوامر بأن يتوسلوا إليها باسمه أن تبقى هادئة في المنزل .

لم يعد إلا قبل صلاة العصر بقليل ، ولكنه قال على الفور :

"أحمل لك تحيات إرلند يا كريستين... لقد كلمته ."

لاحظ كم أصبح وجهها شاباً ورقيقاً وحنوناً على نحو قلق . لذلك أمسك يدها وهو يحكي لها القصة . لم يكونا قادرين على التكلم كثيراً هو وإرلند ، فالرجل الذي رافق سايمون إلى السجين مكث معهما طوال الوقت . حصل أولاف لاغماند على إذن لسايمون لأجل هذه الزيارة ، وذلك في سبيل القرابة التي كانت تجمعهما حين كانت هالفريد لا تزال على قيد الحياة... يرسل إرلند تحيات المحبة إليها وإلى الأطفال . لقد سأل عنهم جميعاً ، وخاصة غاوته . ويعتقد سايمون أنه في يوم ما قد تستطيع كريستين الحصول على الإذن لترى زوجها . بدا إرلند هادئاً وفي معنويات عالية .

"لو خرجت معك اليوم لشاهدته أنا أيضاً" ، قالت الزوجة برقة .

قال سايمون إن هذا ليس صحيحاً ، فقد استطاع الوصول إليه لأنه كان وحيداً . "على أي حال يا كريستين ، فقد يكون أسهل عليك أن تشقي طريقك حين يسبقك رجل ."

كان إرلند مسجوناً في غرفة في "البرج الشرقي" تطل على النهر... وهي غرفة من غرف السادة وإن تكن صغيرة . أما أولف فكان في الزنزانة كما يقال . أما هافتور فهو في زنزانة أخرى .

و بينما راح يتحسس طريقه بحذر ، ليتأكد من مدى قدرتها على التحمل ، حكى لها سايمون ما سمعه في البلدة . وحين لاحظ أنه سبق لها وتفهمت الوضع تماماً ، فإنه لم يخف عنها أنه يعتقد أيضاً أن القضية خطيرة . ولكن كل من تحدث إليهم قالوا إنه لم يكن أمراً ممكناً أن يكون إرلند قد تجرأ على التخطيط لمثل هذه المهمة ، وأن يستمر فيها كما فعل ، إلاّ إن كان واثقاً أن قسماً كبيراً من الفرسان والنبلاء يدعمونه . وبما أن الكبار المتذمرين عديدين ، فلن يكون محتملاً أن يتجرأ الملك على التعامل بقسوة شديدة مع قائدهم ؛ بل ربما سيفضل بالأحرى أن يتصالح إرلند معه على نحو ما .

سألت كريستين بصوت خفيض :

"و أين موقع إرلينغ فيدكونسون في هذه القضية ؟"

"هذا كما أرى أمر هناك كثير من الناس مستعدون لدفع ثمن ما لقاء معرفته" . قال سايمون .

و رغم أنه لم يقله لكريستين ولم يقله للرجال الذين تحدث إليهم عنه ، فقد بدا له أن الاحتمال كان ضعيفاً في أن تدعم إرلند أي مجموعة من الرجال الذين غامروا بحياتهم وأموالهم في هذه المسألة الخطيرة... وإن كان الأمر كذلك فإنهم ما كانوا سيختارونه زعيماً لهم ، فقد كان إرلند مندفعاً وغير مستقر وكل رفاقه لا بدّ يعرفون ذلك . كان صحيحاً أنه قريب الليدي انجبيورغ والطامع صغير السن في العرش ، لقد تمتع بالكثير من السلطة

والتقدير في هذه السنوات الأخيرة ، كما لم يكن مفتقراً إلى الخبرة في الحرب كما كان معظم الرجال الذين في سنه... وكان محبوباً ومطاعاً من رجاله... ورغم أنه كان يتصرف غالباً دون ذكاء ، ومع ذلك كان قادراً لو أراد أن يتحدث جيداً وبدقة . لذلك كان يعتقد إلى حد كبير أنه قد تعلم أخيراً الحكمة من أخطائه . وفكر سايمون في أنه من المحتمل أن هناك البعض ممّن عرف بخطة إرلند وقد شجعه على التقدم بها . ولكنه ما كان قادراً إلا بالكاد على أن يصدق بأنهم متماسكون بقوة إلى حد أنهم لا يستطيعون الانسحاب الآن وترك إرلند يتحمل اللوم لوحده .

لقد رأى سايمون أن إرلند نفسه ما كان يتطلع إلى أي شيء آخر ، وأنه كان مصمماً على أن يدفع ثمن مغامرته اليائسة باهظاً . حين يتلوث بالوحل ، يكون على المالكين أن يولوا الأدبار" ، قال ضاحكاً بعض الشيء . ولكن إرلند لم يكن قادراً دون شك على قول الكثير مع وجود رجل ثابت يصيخ السمع .

تعجب سايمون من أن هذا اللقاء مع عديله قد أثّر فيه إلى هذا الحد . ولكن الحجرة البرجية الصغيرة حيث رجاه إرلند أن يجلس على السرير... كان السرير يمتد من جدار إلى الآخر ويملأ نصف الغرفة... فإن شكل إرلند المستقيم الرشيق وهو واقف هناك قرب شق الجدار الصغير من حيث كان النور يصلهم... كان إرلند غير خائف ، صافي العينين ، هادئاً ، إما بسبب الخوف أو الأمل... كان شخصاً نضراً بارداً رجولياً ، بعد أن أزيلت عنه كل شباك العنكبوت المعوقة ، شباك العبث مع النساء والحماقة . صحيح أن ما أوصله إلى هنا كان النساء والحب غير الشرعي ، مع كل خططه الجريئة التي انتهت قبل أن تبصر النور . ولكن لم يبد أن إرلند كان يفكر في ذلك . لقد

وقف هناك كرجل تجرأ على رمية يائسة ، وخسرها ، وهو يعرف كيف يتحمل الهزيمة جيداً وبرجولة .

كما أن تأمّله المتسائل والمرح حين رأى عديله كان ملائماً له . قال سايمون حين رآه :

"أتتذكر يا قريبي تلك الليلة حين سهرنا معاً على حمينا المحتضر ؟ لقد تصافحنا ، ووضع لافرانس يده فوق يدينا... وقد وعدناه ووعد أحدنا الآخر أننا سنقف معاً مثل الأخوة طوال عمرنا ."

"أجل" ، وأضاءت ابتسامة وجه إرلند . "أجل ، وأعتقد أن لافرانس لم يكن يفكر قط في أنك ستحتاج يوماً إلى المساعدة مني ."

قال سايمون دون تأثر : "كلا ، ربما كان من الأرجح أنه اعتبرك ، في المنصب الذي تبوأته ، قادراً على تقديم العون إليّ وليس أنه من المحتمل أن تحتاج أنت إلى أن أقدم لك العون ."

ابتسم إرلند مجدداً .

"كان لافرانس رجلاً حكيماً يا سايمون . ورغم أن الأمر قد يبدو غريباً... إلا أني أعرف أنه أحبّني جيداً ."

فكر سايمون ، أجل ، كان أمراً غريباً ، والرب يعرف ذلك... ومع ذلك حتى هو نفسه –رغم كل ما كان يعرفه عن إرلند ، وكل ما فعله له– حتى هو لم يستطع مغالبة الشعور بحنان أخوي نوعاً ما تجاه زوج كريستين . ثم سأل إرلند عنها .

حكى له سايمون كيف وجدها مريضة ومترعة بالخوف على زوجها . لقد وعد أولاف هومانسون بأن يبذل قصارى جهده ليسمح لها برؤيته ما أن يعود السير بارد إلى الوطن .

"ليس قبل أن تعود إليها صحتها!" قال إرلند بسرعة . وتضرّج وجهه الأسمر غير الحليق ، كما يتضرج وجه فتاة صغيرة . "الشيء الوحيد الذي أخشاه يا سايمون... ألا تكون لديّ القدرة الآن على تحمل الأمر جيداً حين أراها ."

و لكنه قال بعد قليل بهدوئه السابق :

"أعرف أنك ستقف إلى جانبها بإخلاص ، لو ترمّلتْ هذا العام . لن يكونوا مفلسين ، هي والأطفال ، وهي التي ورثت كل ذلك الإرث من لافرانس . وأنت ستكون إلى جانبها إذا ما سكنت في يوروندغارد .

•

"في اليوم التالي على "مولد مريم" (٨ أيلول / سبتمبر) ، وصل الوصي السامي ، سير إيفار أوغمندسون إلى نيداروس . كان اثنا عشر من أتباع الملك المحلّفين من شمال دوفر قد عُينوا الآن كهيئة محكمة للنظر في قضية إرلند نيكولاوسون . وقد اختير السير فين أوغموندسون ، شقيق الوصي السامي ، ليتقدم بالاتهام ضده .

قبل هذا ببعض الوقت في الصيف ، كان هافتور أولافسون من غودوي قد انتحر بذبح نفسه بسكين صغيرة سمح لكل سجين بالاحتفاظ بها ليقطع بها طعامه . قال الناس إن السجن قد أثر على هافتور إلى حد أنه لم يكن في كامل قدراته العقلية . قال إرلند لسايمون حين سمع بذلك إنه لم يعد في خوف من لسان هافتور . ومع ذلك فقد تأثر كثيراً .

مع مرور الوقت ، كان يحدث أحياناً أن الحرس كانوا يذهبون في مهمة

خارجاً حين يكون سايمون أو كريستين مع إرلند . وقد رأى هذان كلاهما -و قد تحدثا عن ذلك الواحد إلى الآخر- أن الفكرة الأولى والأخيرة في ذهن إرلند هي أن يخرج من هذه القضية دون أن يفشي بأسماء من كانوا معه في هذه المؤامرة . وقد قال ذلك ذات مرة لسايمون صراحة . لقد وعد كل من انضم إليه أنه سيتصرف بشكل يجعله يتحمل العبء وحده لو وصلت الأمور إلى النتيجة الأسوأ .

كما لم يكن عملاء الملك قادرين حتى الآن على تقصّي اسم أي شخص آخر ساهم في مؤامرة إرلند ، باستثناء الأخوين غرايب وتورفارد تورسون من "موره" . وهذان ما كانا ليعترفا بأنهما كانا يعرفان أن النية من خطة إرلند كانت لا شيء سوى أنه مع رجال آخرين قد أقنعوا الدوقة بالسماح للأمير هاكون كنوتسون أن يتربى في النرويج . ولاحقاً كان الغرض هو أن الزعماء سيتوسلون إلى الملك ماغنوس قائلين إنه كان في صالح مملكتيه كلتيهما أن يمنح أخاه غير الشقيق اسم "الملك" في "النرويج" .

كان بورغار وغوتورم تروندسون محظوظين بما فيه الكفاية للهرب من القصر في "فيوي"... ولم يعرف أحد كيف تم الأمر ، ولكن الناس خمنت أن بورغار حصل على المساعدة من امرأة ما -كان شاباً وسيماً خفيف الظل . وكان إيفار لا يزال في السجن في قلعة ميوس ، أما هافارد الشاب فقد كتم عنه أخوته الأمر .

و بينما كان اجتماع رجال الملك منعقداً في القلعة ، عقد الأسقف اجتماعاً في قصره . كان سايمون رجلاً ذا أصدقاء ومعارف كثر . وهكذا كان قادراً على أن يخبر كريستين بما كان يحدث . لقد اعتبر الجميع أنه من المحتمل أن يعتبر إرلند خارجاً على القانون وينفى وتصادر أراضيه وأمواله

لصالح الملك . وقال إرلند أيضاً إنه من المحتمل أن يكون الأمر كذلك . كان في حالة معنوية عالية... كان ينوي اللجوء إلى الدانمرك . وكما كانت الحال عليه في تلك البلاد ، فإن طريق التقدم كانت دائماً مفتوحة أمام رجل ذي همة وبارع في السلاح ، وكانت الليدي انجبيورغ سترحب طبعاً بزوجته كقريبة لها وتعاملها بكل الاحترام المطلوب . سيكون على سايمون أن يأخذ الأطفال ، باستثناء الاثنين الأكبر سناً بينهم اللذين كان إرلند ينوي اصطحابهما إلى الدانمرك .

لم تكن كريستين خارج المدينة ليوم واحد طوال هذه الفترة ، ولم تكن قد رأت أولادها عدا ناكفه وبيورغولف . لقد وصلا على حصانيهما ودخلا إلى الباحة في إحدى الأمسيات لوحدهما . أبقتهما أمهما عندها لبضعة أيام . ولكنها أرسلتهما إلى راسفولد لاحقاً ، حيث كانت الليدي غونا قد اصطحبت الصغار ليكونوا معها .

تمنى إرلند أن تجري الأمور على هذا المنوال . وكانت كريستين تخشى من الأفكار التي قد تنتابها إن كانت سترى أولادها من حولها ، وتصغي إلى أسئلتهم ، وتحاول أن توضح الأمور لهم . بذلت قصارى جهدها لترمي بعيداً عنها كل الأفكار عن سنوات زواجها في هوسابي . كانت تلك السنوات شديدة الغنى حتى بدت لها الآن على أنها كانت سكوناً كبيراً واحداً... حتى لو أنه بدا سكوناً على بحر متلاطم حين يقف المرء في مكان عال بما فيه الكفاية من فوقه على صخرة كبيرة . تبدو الأمواج التي تطارد بعضها البعض أبدية لا تتغير... هكذا كانت الحياة تتلاطم عبر روحها في تلك السنوات الغنية .

و الآن عادت الأمور كما كانت وهي شابة ، حين راحت تناضل لتكسب

إرلند ضد كل الأمور وكل الناس . والآن مجدداً كانت حياتها انتظاراً من ساعة إلى ساعة ، بين الساعات التي كانت ترى فيها زوجها ، تجلس إلى القرب منه على السرير في الحجرة البرجية من القلعة ، تحادثه بهدوء وببساطة... حتى يتركان لوحدهما صدفة برهة ، وعندها كانا يتعانقان ، ويتبادلان قبلات محمومة وعناقاً مجنوناً .

في مرات أخرى كانت تجلس في كنيسة يسوع لساعات بحالها كل مرة . كانت تجثو على ركبتيها وتحدق إلى محراب القديس أولاف الذهبي خلف شبك مكان جلوس الجوقة . أيها الرب ، أنا زوجته . أيها الرب ، كنت مخلصة له حين امتلكني إثماً وبهتاناً . وبرحمة من الله تزوجنا شرعاً . كنا مثقلين بوزر الخطيئة ومسفوعين بنارها ، حين دخلنا معاً عبر عتبة بيت الرب ، ومعاً تلقينا جسد مخلّصنا من يدي الكاهن . هل أشكو الآن إن كان الرب سيضع إخلاصي مع موضع البرهان ؟ هل عليّ أن أفكر في أي شيء آخر عدا أني زوجته وأنه زوجي طالما كنا كلانا على قيد الحياة... ؟

•

في يوم الخميس السابق على "قداس ميكائيل" ، جرى اجتماع لمحكمة رجال الملك وصدر الحكم على إرلند نيكولاوسون أوف هوسابي . وقد تبين للمحكمة أنه مذنب بالتآمر لسلب الملك أراضيه وأتباعه بالخيانة ، وكذلك لإثارة تمرد ضد الملك داخل البلاد وإدخال قوات أجنبية مأجورة إلى النرويج . وبعد أن تم النظر في كل الحالات المشابهة في الأزمان الماضية ، فإن القضاة قرروا أن تصادر حياة وكل أملاك إرلند نيكولاوسون لتوضع تحت تصرف الملك ماغنوس .

وصل آرن غيافالدسون إلى سايمون دار وكريستين في منزل نيكولاوس في البلدة . كان قد حضر الاجتماع .

لم يحاول إرلند إنكار ما فعله . من الواضح والثابت أنه اعترف بهدفه ، أن يجبر الملك ماغنوس على منح أخيه غير الشقيق ، الأمير "هاكون كنوتسون بورس" تاج النرويج . وقد اعتبر آرن أن إرلند تحدث على نحو جيد جداً . لقد أشار إلى الصعاب والمشاكل الكبيرة التي أضحى يعاني منها الشعب ، لأن الملك في هذه السنوات الأخيرة لم تطأ قدماه إلا بالكاد التراب النرويجي ، وكان يبدي باستمرار عدم رغبته في تعيين نواب للملك يطبقون العدل ويستخدمون السلطة الملكية . وبسبب التزامات الملك في "سكان" ، والتبذير وسوء التدبير في المسائل المالية من قبل الأشخاص الذين يثق بهم الملك أشد الوثوق ، عانى الشعب من الكبح والإفقار ، ولم يعد يستطيع الشعور بالأمان بسبب المطالب الجديدة بتقديم العون والضرائب الجديدة . وبما أن الفرسان والمرشحين لرتبة فارس من النرويجيين الحاملين للسلاح يتمتعون بحقوق وحريات أقل بكثير من الفرسان السويديين ، فقد كان صعباً عليهم المنافسة مع السويديين ضمن شروط متعادلة ، لذلك كان من المنطقي والطبيعي أن شخصاً كالسير ماغنوس آيريكسون ، وهو شاب وتنقصه المهارة في الأمور ، سيصغي أكثر إلى لورداته السويديين ويحبهم أكثر ، حيث أنهم يملكون ثروات أكبر وبالتالي القدرة الأكبر على دعمه بمحاربين مسلحين ومدربين جيداً .

لقد اعتبر هو وأصدقاؤه المتحالفون معه أن لديهم معرفة أكيدة بما تفكر به الأغلبية الغالبة للشعب ، نبلاء وفلاحين وسكان مدن ، في شمال وغرب النرويج ، حتى أنهم لم يشكّوا أبداً في أنهم سيجدون مناصرة كاملة

لهم هناك لو استطاعوا أن يقدموا لهم أميراً قريباً من ملكهم المحبوب ، الملك هاكون طيب الذكر ، بقدر قرابة ملكهم الحالي . وقد توقع أن الشعب سيوافق بأجمعه بأن علينا أن نضغط على الملك ماغنوس ليجعل أخاه يعتلي العرش هنا . وبينما يقسم الأمير هاكون على المحافظة على السلام والأخوة مع الملك ماغنوس ، والحفاظ على سلامة مملكة النرويج حسب الحدود القديمة ، والدفاع عن حقوق كنيسة الرب وقوانين وعادات البلاد كما ورثناها منذ القديم ، وكذلك حقوق وحريات سكان الريف والمدن ، وكذلك وضع حد لاقتحام الأجانب المملكة . كانت نيته هو وأصدقاؤه أن يعرضوا هذه الخطة على الملك ماغنوس ودياً . ومع ذلك كان المزارعون والزعماء النرويجيون يتمتعون منذ القديم بحق تنحية الملك الذي يحاول الحكم على نحو مخالف للقانون .

أما عن أفعال أولف ساكسسون في إنكلترا وسكوتلاندا ، فقد قال إن نية أولف كانت مجرد كسب التأييد هناك للأمير هاكون ، إذا ما شاء الرب أن يصبح ملكنا . لم يكن معه في هذه الخطة أي نرويجيين عدا هافتور أولافسون من غودوي (يرحمه الله) وأقرباؤه أولاد تروند غييسلنغ الثلاثة من سوندبو وغرايب وتورفارد توريسون من آل هاتبرغ .

أثرت عبارات إرلند في سامعيه بقوة ، كما قال آرن غيافالدسون . ولكن في النهاية حين تكلم عن الدعم الذي كانوا يتطلعون إليه من رجال الكنيسة ، فقد استذكر تلك الإشاعات القديمة منذ تلك الأيام التي كان فيها الملك ماغنوس طفلاً بعد ، والتي كانت تتصف بعدم الحكمة . كان ممثل الأسقف قد وبّخه بحدة... كان الأسقف بال باردسون ، كما كانوا يعرفون ، خلال عمله كمستشار ومنذ ذلك الحين ، يكنّ حباً كبيراً للملك ماغنوس بسبب

ورع الملك . والشعب الآن يود أن ينسى أن مثل هذه الشائعات قد سبق لها وانتشرت فيما يخص سمعة ملكهم . وعلاوة على ذلك ، فقد كان الآن على وشك الزواج من سيدة ، هي ابنة كونت نامور ، وإن كان هذا صحيحاً ، فلا بد أن يُعتبر أن ماغنوس آيريكسون قد جعله يبتعد عن كل هذه الأمور .

...لقد أظهر آرن غيافالدسون أعظم آيات الصداقة لسايمون أندرسون خلال وجود سايمون في نيداروس . وكان آرن أيضاً هو من ذكّر سايمون أنه يحق لإرلند أن يستأنف هذا الحكم ، حيث أنه تم التوصل إليه على نحو لا قانوني . فحسب نص القانون فإن التهمة الموجهة إلى إرلند كان يتوجب توجيهها من قبل شخص من أنداده ، إلاّ أن السير فين أوف هستبو كان فارساً ، وإرلند مجرد مرشح لرتبة فارس . إلاّ أن علينا أن نأخذ في الاعتبار أيضاً ، كما يفكر آرن ، في أن المحكمة الجديدة قد تجد أن عقوبة أقسى من الخروج على القانون لا يمكن فرضها على إرلند .

أما فيما يخص ما ذكره إرلند حول نوع الحكم الملكي الذي يعتبره الأفضل للبلاد ، فقد بدا كلامه عادلاً وجيداً حقاً . وكانت الناس كلها تعرف أين يمكن إيجاد الرجل الذي سيكون سعيداً بما فيه الكفاية لتسلُّم القيادة والسير في هذا الاتجاه خلال فترة الوصاية على الملك الجديد قبل بلوغه السن القانونية... وقد حكّ آرن لحيته الرمادية ونظر إلى سايمون .

"ألم يسمع أحد منه أو عنه شيئاً في هذا الصيف ؟"سأل سايمون بصوت خفيض .

"لا . يقال كما سمعت إنه لا ينال رضى الملك ويقف خارج هذه الأمور . لقد مرّ زمن طويل منذ أن كان في الوطن مصغياً لكلام الليدي إلين . أما بناته فهن جميلات وغبيات كأمهن ، كما تقول الناس ."

كان إرلند قد سمع قرار المحكمة بهدوء يدل على رباطة الجأش ، وقد حيّا أعضاء المحكمة على النحو الملائم وبحرية ولباقة حين اقتيد خارجاً كما فعل حين دخل . كان هادئاً ومرحاً حين منحت كريستين وسايمون الإذن ليكلماه في اليوم التالي . كان آرن غيافالدسون معهما ، وقال إرلند إنه سيتبع نصيحة آرن .

"لم أستطع قط أن أقنع كريستين بالقدوم معي إلى الدانمرك فيما سبق" ، قال وهو يحيط خصر زوجته بذراعه . "و كنت أنوي دائماً الدخول إلى العالم معها ."

ارتجف وجهه ، وفجأة قبل خدها الشاحب بقوة غير آبه بوجود الشخصين الآخرين .

●

ركب سايمون أندرسون إلى هوسابي ليقوم بنقل حوائج كريستين إلى يوروندغارد . وقد نصحها بإرسال الأولاد أيضاً إلى غودبراندسدال في الوقت نفسه . قالت كريستين :

"لن يرحل أولادي بعيداً عن منزل أبيهم حتى يطردوا منه ."

قال سايمون : "ما كنت لأنتظر ذلك ، لو كنت في مكانك . إنهم صغار جداً ، ولن يستطيعوا أن يفهموا على النحو الصحيح هذه المسألة . الأفضل أن تجعليهم يغادرون هوسابي وهم على قناعة بأنهم سيغادرون هوسابي للقيام بزيارة لخالتهم فحسب ، وليروا ميراث أمهم في ديل ."

أيّد إرلند سايمون في هذا . ولكن النتيجة كانت أن إيفار وسكوله هما

الوحيدان اللذان ذهبا جنوباً مع زوج خالتهم . لم تستطع كريستين إبعاد الصغيرين عنها . وحين جلب إليها لافرانس ومونان إلى منزل المدينة ، ولاحظت أن أصغر أبنائها لم يعد يعرفها ، فقد انهارت تماماً . لم يرها سايمون تذرف دمعة واحدة منذ تلك الليلة الأولى حين وصل إلى نيداروس ، ولكنها راحت تبكي الآن وتبكي على مونان وهو يبسط ذراعيه وساقيه ويقاوم ، وقد ضمته أمه بقوة إلى ذراعيها ، بينما كان هو يحاول أن يصل إلى ذراعي مربيته . كما بكت بسبب لافرانس الصغير الذي زحف إلى حضنها وضمها من عنقها ، وبكى لأنها بكت . وهكذا أبقت هذين الاثنين معها ، وغاوته أيضاً... كان غير راغب في الذهاب مع سايمون ، وقد بدا لها أنه أمر غير حكيم أن تدع هذا الطفل ، الذي يحمل على كاهله عبئاً أكبر من أن تتحمله سنوات عمره القليلة ، بعيداً عن عينيها .

كان سيرا آيليف قد جلب الأولاد إلى المدينة . لقد توسل إلى الأسقف ليسمح له بترك الكنيسة لفترة قصيرة ليزور أخاه في "تاوترا" . وقد منح هذا فوراً لكاهن منزل إرلند نيكولاوسون . وحين بدا له أن كريستين ما كانت قادرة إلا بالكاد على العناية بهذا العدد الكبير من الأطفال وهي وحيدة في المدينة ، فقد عرض اصطحاب ناكفه وبيورغولف إلى الدير معه .

في الليلة الأخيرة قبل أن ينطلق الكاهن والولدان في رحلتهما -كان سايمون قد سبق له وغادر مع التوأمين- اعترفت كريستين أمام الرجل الورع ذي القلب الطاهر الذي كان أباها الروحي طوال هذه السنوات . وقد جلسا معاً ساعات عديدة ، وقد طلب إليها سيرا آيليف أن تكون مطيعة ومتواضعة أمام الرب وصبورة ومخلصة ومحبة لزوجها . ركعت عند المقعد حيث كان يجلس . ثم نهض سيرا آيليف وركع إلى جانبها ، وهو لا يزال يحمل

البطرشيل الأحمر ، رمز نير محبة المسيح ، وصليا لفترة طويلة بحرارة ودون كلمات . ولكنها كانت تعرف أنه كان يصلي للأب والأم ، والأطفال وكل سكان المنزل ، الذين ناضل هو بإخلاص لحماية صحة أرواحهم .

في اليوم التالي ، وقفت على الشاطئ في براتورن وراقبت الرهبان من تاوترا وهم يبحرون على الزورق الذي كان سيحمل الكاهن وابنيها الأكبر . في طريق العودة إلى البيت دخلت إلى كنيسة المينوريت وتلبثت هناك حتى وجدت في نفسها القوة الكافية للعودة إلى منزلها . وفي المساء ، حين نام الصغيران ، جلست تغزل وتحكي لغاوته الحكايات حتى حان وقت نومه هو أيضاً .

٦

كان إرلند سجيناً في القلعة حتى قداس كلمنت (٢٣ تشرين الثاني / نوفمبر) . ثم وصل أمر ورسائل بأنه يتوجب نقله جنوباً تحت حراسة مشددة(١٦) ، ليمثل أمام الملك ماغنوس . كان الملك ينوي إقامة الاحتفال بأعياد الميلاد في باغهاوس(١٧) في ذلك العام .

أصيبت كريستين بهلع شديد . لقد عودت نفسها على الهدوء بعد نزاعات تصعب على الوصف ، وإرلند سجين مهدد بالإعدام . والآن سيؤخذ بعيداً إلى مصير مشكوك فيه . وكانت الناس تقول إنه إذا نظرنا إلى الجو المحيط بالملك وتلك الحفنة من الرجال من حوله فإن إرلند ليس له أصدقاء . لقد تكلم إيفار أوغمندسون حاكم القلعة الآن في باغهاوس عن خيانة إرلند بأقسى الكلمات . وكان يُقال إنه كاره لإرلند لأنه نُمي إليه أن إرلند ذكره بالسوء في الأيام الخالية .

و لكن إرلند كان مسروراً بالأنباء ، كما لاحظت كريستين فعلاً ، حتى أنه استخف بالفراق الحالي . ولكن هذا السجن الطويل قد بدأ ينهكه حتى أنه شهق بحماسة عند سماع فكرة الرحلة الطويلة بحراً ، وبدا أنه لا يهتم بأي شيء آخر .

خلال ثلاثة أيام كان كل شيء جاهزاً ، وأبحر إرلند في سفينة السير "فين"... كان سايمون قد وعد بالعودة إلى نيداروس قبل أيام الأحد الأربعة السابقة على عيد الميلاد ، بعد أن يكون قد رتب أموره وشؤونه في البيت ، ولكن لو وصلت أي أنباء جديدة قبل ذلك الموعد ، فإنه يتوسل إلى كريستين أن تبلغه وسوف يحضر حالاً . وقد خطر لها الآن أن تسافر جنوباً إليه ، ومن هناك ستذهب إلى حيث كان الملك ، وسوف ترمي بنفسها عند قدميه وتتوسل الرحمة لزوجها... وسيسعدها أن تعرض كل أملاكها لقاء حياته .

كان إرلند قد باع أو رهن دارته في نيداروس إلى أناس متنوعين . كان دير نيدارهولم يمتلك مبنى القاعة الآن ، ولكن رئيس الدير أولاف قد كتب رسالة مودة إلى كريستين ، يرجوها فيها أن تستخدمه طالما كانت في حاجة إليه . كانت هناك لوحدها مع خادمة واحدة ، ومع أولف هالدرسون (الذي أطلق سراحه لعدم كفاية الأدلة) ، وابن أخيه هالدور ، خادم كريستين .

تشاورت مع أولف ، وقد أبدى هو بعض الشك أولاً : لقد اعتبر أن الرحلة ستكون قاسية جداً عليها عبر دوفرفييلد . فقد سبق أن هطل الكثير من الثلج في الجبال . ولكن حين رأى ألم المرأة الروحي ، فقد نصحها بالذهاب . أخذت الليدي غونا الطفلين الصغيرين إلى راسفولد . ولكن غاوته رفض أن يفارق أمه ، وأحست هي أيضاً أنها لا تجرؤ على ترك الصبي يبقى شمال دوفر وبعيداً عن عينيها .

حين اتجهوا جنوباً نحو الجبال العالية كان الطقس قاسياً جداً ، حتى أنهم استعاروا بناء على نصيحة أولف أدوات تزلج عند دريفستوين وتركوا جيادهم هناك ، حتى لا يضطروا إلى تمضية الليلة التالي في العراء . لم تكن

كريستين قد لبست حذاء تزلج منذ أن كانت بنتاً صغيرة ، وكان صعباً عليها أن تشق طريقها ، رغم أن الرجال أسندوها وساعدوها إلى أقصى حد ممكن . لم يستطيعوا أن يتابعوا المسير ذلك اليوم إلى أكثر من منتصف الطريق في الهضاب بين درايفستوين وهييردكين . وحين حلّ الظلام ، كان عليهم أن يلجأوا إلى غابة من أشجار البتولا وأن يحفروا مأوى لهم في الثلج . في توفتار استطاعوا أن يستأجروا جياداً مرة أخرى ، وهنا وجدوا أنفسهم ضمن الضباب ، وحين وصلوا إلى "ديل" ، كان الطقس ماطراً هناك . وحين تابعوا طريقهم بعد ساعات من حلول الظلام ، نحو باحة فورمو ، كانت الريح تعوي من حول زوايا المنزل ، والنهر يزمجر ويأتي صوت مندفع هادر من غابات الجبل . كانت الباحة أشبه بمستنقع وقد خمدت أصوات حوافر الجياد... كان الوقت مساء السبت وهو مساء عطلة عن العمل ولم تكن هناك إشارة تدل على الحياة في الدارة الكبيرة ، ولم يبد أن الناس أو الكلاب أحسوا بقدومهم .

قرع أولف باب مبنى القاعة برمحه . فتح خادم الباب... بعد لحظة كان سايمون نفسه يقف في باب الغرفة الخارجية ، عريضاً ومعتماً أمام النور الذي كان خلفه وهو يحمل طفلاً بين ذراعيه . كان يقود الكلبين النابحين من خلفه . وقد صرخ حين رأى أخت زوجته ، فوضع الطفل على الأرض وجذبها هي وغاوته إلى الداخل ، وخلع عنهما ملابسهما الخارجية المبتلة بنفسه .

كان الجو مريحاً ودافئاً في القاعة ، ولكن الهواء ثقيل جداً ، فقد كانت غرفة بمدفأة ذات سطح مستوٍ تحت القاعة العليا . وكانت مليئة بالناس ، وبدا الأطفال والكلاب يحتشدون في كل زاوية . ثم ميزت كريستين وجهي طفليها الصغيرين الأحمرين الدافئين والمرحين خلف المائدة حيث كانت

هناك شمعة موقدة . تقدما الآن وحيّيا أمهما وأخاهما ببعض الخجل . رأت كريستين أنها قد دخلت إلى هنا وسط راحة هؤلاء الناس الطيبين ومرحهم . أما البقية ، فكانت الغرفة مغطاة كلها بالفضلات ، وعند كل خطوة كانت تدوس على قشور جوز تتهشم تحت قدمها : كانت متناثرة فوق الأرضية .

أرسل سايمون الخدم والخادمات خارجاً في مهمات متنوعة وتبعهم جزء كبير من الأطفال والكلاب... كان هؤلاء جيران مع أتباعهم... وبينما راح يستفسر منها ويصغي إليها ، أحكم إغلاق قميصه وسترته ، بعد أن كانا مفتوحين ، يكشفان عن صدره العاري المشعر . كان الأطفال قد أوصلوه إلى هذه الحال كما قال معتذراً . كان بالفعل في حالة من الفوضى المحزنة : كان حزامه ملتوياً وقد اتسخت يداه وملابسه وأصبح وجهه مسخماً وشعره مليئاً بالغبار والقش .

و سرعان ما وصلت خادمتان وقادتا كريستين وغاوته إلى قاعة السيدات الخاصة برامبورغ . كانت النار موقدة هناك وراحت الخادمات المشغولات يوقدن الشموع ويرتبن السرير ويساعدنها والصبي على ارتداء ملابس جافة عوضاً عن ملابسهما ، بينما راحت أخريات يجلبن اللحم والشراب . جلبت فتاة صغيرة شعرها مضفور بالحرير كوب جعة عليه رغوة . كانت الفتاة هي كبرى بنات سايمون المسماة أرنغييرد .

ثم دخل هو نفسه وقد رتب نفسه الآن وكان أكثر شبهاً بسايمون الذي عهدته... في ملابس جيدة وثمينة . كان يقود ابنته الصغيرة من يدها وجاء معه إيفار وسكوله .

سألت كريستين عن أختها ، وقال سايمون إنها ذهبت مع سيدات من سوندبو إلى رينغهايم . لقد وصل "جوستاين" ليأخذ ابنته "هيلغا" ، وكان

يتمنى أن يأخذ "داغني" ورامبورغ معه أيضاً . إنه شخص مرح وعجوز ، وقد وعد أن يبذل قصارى جهده في رعاية الزوجات الصغيرات الثلاث . لذلك قد تبقى رامبورغ هناك خلال الشتاء كله . كانت تتوقع أن تلد طفلاً آخر في قداس القديس ماثيو أو نحو ذلك... ثم فكر سايمون في أنه قد يضطر للغياب عن المنزل هذا الشتاء . لذلك ستكون في حال أفضل مع قريبتها الشابة . أوه ، كلا... فيما يخص إدارة المنزل هنا في فورمو ، فلم يكن أمراً ذا بال سواء كانت في البيت أم لم تكن ، ضحك سايمون... فهو لا يطالب فتاة صغيرة شأن رامبورغ بأن تنهك نفسها بالكدح في منزل كبير .

لدى سماعه بخطط كريستين ، قال سايمون على الفور إنه سيصطحبها إلى الجنوب ، كان لديه أقارب عديدون هناك والكثير من أصدقاء أبيه وأصدقائه القدامى ، حتى أنه كان يأمل في تقديم المزيد من الخدمات إليها هناك بالمقارنة مع تروندهايم . وسواء كان أمراً حكيماً أم لا أن تقابل الملك بمفردها ، فإنه سيحكم على ذلك على نحو أفضل حين يصلان إلى هناك . وسيكون مستعداً للسفر خلال ثلاثة أو أربعة أيام .

ذهبا معاً إلى القداس في اليوم التالي ، إذ كان يوم أحد ، ولاحقاً ، ثم مضيا لاحقاً ليريا سيرا آيريك في رومونغارد . كان الكاهن قد أضحى عجوزاً الآن . رحب بكريستين بمودة ، وبدا آسفاً جداً على مصابها . ثم تجولا في يوروندغارد .

كانت المباني لا تزال كما هي ، وفي الغرف كانت الأسرة والمقاعد والموائد نفسها . كانت هذه الآن هي ضيعتها الخاصة ، وقد بدا أمراً شديد الاحتمال أن أولادها سيترعرعون هنا ، وأنها ستضطجع في يوم من الأيام هنا لتغلق عينيها إلى الأبد . ولكنها لم تشعر قط بكل هذا الوضوح كما في هذه

الساعة أن الحياة في هذا البيت كانت تعتمد على أبيها وأمها كلياً . ومهما كانت المشاكل المخفية بينهما والتي كانا ينافحانها ، إلا أن الدفء والعون والأمان كانت تتدفق منهما تجاه كل من كان يعيش من حولهما .

كانت قلقة مثقلة القلب ، وكان يتعبها قليلاً سايمون حين يتحدث عن شؤونه الخاصة وأملاكه وأطفاله . لقد لاحظت هي بنفسها أنه لم يكن هناك منطق في الأمر ، فقد كان جاهزاً لمساعدتها بكل ما يستطيع من مقدرة ، ورأت أنه كان أمراً طيباً من جانبه أن يكون راغباً في مغادرة منزله في فترة أعياد الميلاد وأن يفترق عن زوجته في وقت كهذا... كان لا شك يفكر كثيراً في إنجاب صبي الآن... فهو لم يرزق سوى بطفلة واحدة من رامبورغ حتى الآن ، رغم زواجهما منذ ست سنوات . لم تستطع أن تحتمل اهتمامه بمصيبتها هي وإرلند إلى حد أن ينسى كل الفرح في حياته السعيدة . ولكن كان أمراً غريباً أن تتجول معه هنا وأن تكون مرحة ودافئة وآمنة في بيته .

و بدون قصد فكرت هي أن أولفهيلد سايمونسداتر ستكون أشبه بأختها الصغيرة التي سميت باسمها... ستكون شقراء ونحيلة ذات بشرة فاتحة . ولكن ابنة سايمون الصغيرة كانت ممتلئة الجسم وبدينة ، ولها وجنتان مثل تفاحتين وفم أشبه بتوتة حمراء . وكان لها عينان رماديتان سريعتان كعيني أبيها في شبابه ، وشعر بني مجعد جميل . كان سايمون يحب ابنته الحيوية الممتلئة صحة كثيراً وكان فخوراً بثرثرتها سريعة البديهة .

"رغم أن هذه الفتاة الصغيرة قبيحة وكريهة وبغيضة جداً" ، قال وهو يضع يديه على كل جانب من جانبي صدرها وراح يدورها وهو يرفعها في الهواء ، "إلا أنني أعتبرها طفلة مستبدَلة جلبتها الجنيات من الجبل الذي هنا إلى أمها

ووضعنها في المهد لأمها ولي ، هذه الفتاة النكدة الشرسة" . ثم وضعها فجأة على الأرض ورسم بسرعة إشارة الصليب ثلاث مرات فوقها وكأنه خاف من كلماته المتهورة .

كانت ابنته غير الشرعية آرنغييرد غير جميلة ، إلا أنها كانت تبدو طيبة ومتفهمة ، وكان أبوها يصطحبها معه في أغلب الأوقات التي يستطيعها . كان يمتدح كثيراً براعتها... نظرت كريستين إلى خزانة آرنغييرد لتشاهد كل الأشياء التي غزلتها وحاكتها وخاطتها لأجل بائنتها .

"في اليوم الذي أضع فيه يد ابنتي هذه في يد عريس مخلص وطيب" ، قال سايمون وهو ينظر إلى الفتاة مطولاً ، "سيكون واحداً من أسعد أيام حياتي التي عرفتها ."

و لتوفير النفقات وإيجاز الرحلة ، لن تصطحب كريستين أي خادمة معها ولا أي خادم عدا أولف هالدورسون . قبل عيد الميلاد بأربعة عشر يوماً ستنطلق هي وهو من فورمو بصحبة سايمون وخادميه الشابين القويين .

حين وصلا إلى أوسلو ، سرعان ما علم سايمون أن الملك لن يأتي إلى النرويج... فسيقيم احتفال عيد الميلاد في ستوكهولم على ما يبدو . كان إرلند في القلعة في أكرسنس ، وكان حاكم القلعة مسافراً ، لذلك لم يكن ممكناً لهما أن يريا السجين . ولكن نائب أمين الخزانة ، أولاف كيرمينغ وعد بأن يبلغ إرلند بوجودهما في المدينة . أبدى أولاف كثيراً من الود تجاه سايمون وكريستين ، فقد كان أخوه متزوجاً من رامبورغ أسمموندسداتر أوف سكوغ ، لذلك كان يعتبر نفسه من الأقرباء البعيدين لبنات لافرانس .

و قد وصل كتيل من سكوغ ودعاهما للذهاب إلى سكوغ لتناول شراب عيد الميلاد معه ، ولكن كريستين ما كانت راغبة في الاحتفال بالأيام

المقدسة بالولائم بينما كان إرلند في تلك الحال . أما سايمون فرفض الذهاب وحده ، رغم أنها توسلت إليه كثيراً . كان سايمون وكتيل يعرفان الواحد الآخر ، ولكن كريستين لم تكن قد رأت ابن خالها سوى مرة واحدة منذ أن دخل طور الرجولة .

نزلت كريستين وسايمون في الدارة نفسها حيث حلّت ذات مرة ضيفة على أبوي سايمون وهما مخطوبان . ولكنهما نزلا في مبنى آخر . كان هناك سريران في الغرفة ، فنامت هي في واحد ونام سايمون وأولف في الآخر . ونام الخدم في الإسطبل .

في مساء عيد الميلاد ، رغبت كريستين في الذهاب إلى قداس منتصف الليل في كنيسة نونستر... قالت إنه بسبب أن الأخوات كن ينشدن على نحو عذب جداً هناك . وهكذا مضى خمستهم إلى هناك . كان الليل صافياً والنجوم نيّرة ، كان ليلاً لطيفاً وجميلاً ، وكان الثلج قد هطل قليلاً في المساء ، لذلك كان خفيفاً نوعاً ما . حين قرعت الأجراس من الكنائس اندفع الناس خارجين من كل المنازل وكان على سايمون أن يقود كريستين من يدها . بين الحين والآخر كان يختلس نظرة منها . كانت قد هزلت إلى حد كبير في هذا الخريف الأخير ، ولكن بدا وكأن قوامها الطويل المستقيم قد تراجع إلى حد ما عن قوام الفتاة الشابة اللدن والهادئ . فوق وجهها الشاحب عادت مجدداً النظرة التي كانت لديها في أيام يفاعتها ، نظرة الهدوء واللباقة التي تغطي توقعاً عميقاً ومخفياً ومصغياً . لقد أصبحت تحمل شبهاً شبحياً غريباً بكريستين الشابة في عيد الميلاد ذاك قبل زمن طويل... ضغط سايمون على يدها ، ولم يعرف أنه كان فعل ذلك حتى أحس بضغطة جوابية . رفع بصره... ابتسمت وأومأت برأسها ، وفهم أنها اعتبرت إمساكه

بيدها كتخدير لها حتى تكون شجاعة... والآن كانت تكافح لتريه أنها كانت شجاعة بالفعل .

مع اقتراب نهاية الأعياد ، وصل السير مونان لزيارتها... كان قد سمع للتو أنها في المدينة كما قال . حيّاها من كل قلبه وكذلك سايمون أندرسون وأولف ، الذي خاطبه عند كل ثاني كلمة بـ"قريبي" و"صديقي العزيز" . قد يكون صعباً عليهم مشاهدة إرلند ، كما قال ، فقد كان تحت حراسة مشددة... وهو لم يستطع أن يتسلل لمشاهدة ابن خالته . ولكن أولف قال ، ضاحكاً ، بعد أن غادر الفارس ، أنه لم يبد أن مونان قد مارس الضغوط بما فيه الكفاية ليستطيع الدخول... لقد كان في خوف مميت من أن يصبح متورطاً في المسألة حتى أنه ما كان ليحتمل إلا بالكاد أن يسمع بها تذكر أمامه . كان مونان قد أصبح عجوزاً جداً ، وأصلع جداً ، وهزيلاً جداً . كان جلده يبدو معلقاً على بدنه الضخم . كان يقطن في سكوغهايم ومعه واحدة من بناته اللاشرعيات التي ترملت . كان الأب يتمنى التخلص منها مع الامتنان ، فقد كان جميع أولاده الآخرين ، الشرعيون منهم واللاشرعيين ، يرفضون الاقتراب منه طالما كانت أختهم غير الشقيقة هذه تحكم بيته ؛ فقد كانت امرأة مستبدة وطماعة وسليطة . ولكن مونان ما كان يجرؤ على طردها .

و أخيراً ، وفي وقت ما من العام الجديد ، حصل أولف كيرنينغ على الإذن لزوجة إرلند وسايمون بمشاهدته . ومن جديد كان من نصيب سايمون أن يرافق الزوجة الحزينة في هذه اللقاءات التي تحطم القلب . كانت المراقبة هناك أكثر صرامة ممّا كان عليه الحال في نيداروس حتى يتم التأكد من أن إرلند ما كانت تتاح له الفرصة ليتحدث إلى أحد إلاّ بحضور تابعي الحاكم .

كان إرلند هادئاً كما مضى ، ولكن سايمون لاحظ أن هذا الانتظار كان قد بدأ يمضّه . لم يشكُ قط ، وقال إنه لم يكن يعاني من سوء المعاملة وأن كل ما يمكن أن يقدم له يجري تقديمه . ولكنه قال إنه يعاني كثيراً من البرد... لم تكن هناك مدفأة في الزنزانة . ولم يكن قادراً على ممارسة النظافة الشديدة... رغم أنه لولا اضطراره لمكافحة القمل ، لكان الزمن سيبدو أطول بالنسبة إليه .

كانت كريستين هادئة أيضاً... هادئة إلى حد أن سايمون انتظر خائفاً لاهثاً لليوم الذي ستنهار فيه تماماً .

كان الملك ماغنوس يقوم بمسيرته الملكية في السويد ، ولم يبد أن هناك احتمالاً بأنه سيعبر الحدود قريباً ، أو أن أي تغيير في حالة إرلند كان وشيكاً .

في يوم قداس غريغوري (١٣ شباط / فبراير) ، كانت كريستين وأولف هالدورسون في الكنيسة في نونستر . وبينما هما عائدان ، عبرا الجسر فوق نهر"نونبك" ، فلم تسلك هي الطريق نحو مكان سكنها ، الذي كان قريباً من قصر الأسقف ، بل التفّت شرقاً نحو المكان المفتوح قرب كنيسة كلمنت ، ثم نحو الحارات الضيقة بين الكنيسة والنهر .

كان النهار رمادياً وكثيف الضباب... والطقس لطيفاً لبعض الوقت... ولكن أحذيتهما والجزء الأسفل من عباءتيهما قد تبللت بسرعة وأضحت ثقيلة من الطين الأصفر لشاطئ النهر . خرجا إلى الأرض الخالية من الزرع باتجاه الضفة المرتفعة للنهر . ومن جديد تقابلت أعينهما . ضحك أولف دون ضجة ، والتوى فمه في نوع من التكشيرة ، ولكن عينيه كانتا حزينتين . ابتسمت كريستين ابتسامة غريبة مريضة...

و سرعان ما كانا يقفان على حافة الأرض العالية . كان هناك انزلاق أرضي ذات مرة في الضفة الطينية هنا ، كان منزل فلوغا إلى اليمين تحتها ، قريباً جداً من المنحدر الطيني الأصفر ، حيث كانت أعشاب سوداء قزمة قليلة تنمو ، ولكن نتانة حظيرة الخنازير التي كانا ينظران إليها وصلت إليها بقوة... كان خنزيران بدينان يتشممان الأرض في الطين الأسود . كانت ضفة النهر مجرد شريط ضيق هنا . أما تيار النهر الموحل الرمادي وفوقه رقاقات الثلج المتراقصة ، فكان يصل إلى المنازل المتداعية ذات الأسقف الخشبية الرمادية المبيضة .

و بينما كانا واقفين هناك ، وصل رجل وامرأة إلى حاجز الحظيرة ونظرا إلى الخنازير... اتكأ الرجل وبدأ يحك أحد الخنازير بنهاية مقبض الفأس الخفيفة الملبّسة بالفضة التي كان يستخدمها كعصا . كان ذاك هو مونان باردسون نفسه ، أما المرأة فكانت برينهيلد . رفع بصره وأحس بهما... وقف مشدوهاً وهو يحدق إليها ، وحيته كريستين بمرح .

بدأ السير مونان يضحك بصوت مرتفع . قال : "انزلا واشربا كوباً من الجعة الدافئة لصدّ هذا الطقس الرديء" .

و بينما كانا يهبطان إلى البوابة ، حكى أولف لكريستين أن برينهيلد يونسداتر لم تعد تحتفظ بالنزل ولا بحانة الجعة . لقد مرت بمشاكل عديدة وأخيراً هددوها بالجلد ولكن مونان أخرجها وكفلها على أنها لن تعود إلى التجارة بالأمور غير القانونية . أما أبناؤها فكانوا في وضع جيد الآن حتى أن أمهم اضطرت لأجلهم إلى التفكير في تحسين سمعتها الرديئة . وبعد وفاة زوجته ، فقد عاد مونان باردسون إلى معاشرتها ، وغالباً ما كان يتواجد في منزلها .

قابلهما عند الباب .

قال ضاحكاً : "هانحن أيها الأقرباء ، أربعتنا كلنا ، على نحو ما"... كان قد تناول بعض الشراب ولكن ليس الكثير منه . "أنت امرأة طيبة يا كريستين لافرانسداتر ، ورعة إنما لست متغطرسة... برينهيلد الآن امرأة شريفة وورعة أيضاً... وأنا لم أكن متزوجاً حين أنجبت لي ابنين... وهما الأفضل بين كل أولادي... لقد قلت لك ذلك دائماً يا برينهيلد . إن إنجه وغودلايك هما الأعز عليّ بين كل أولادي .

كانت برينهيلد لا تزال جميلة ، ولكن بشرتها كانت شاحبة ومصفرة ، وبدت ذات ملمس ندي ، كما فكرت كريستين ، كما يحدث حين تكون المرأة قد وقفت طوال النهار فوق قدور الدهن . ولكن منزلها كان جيد الترتيب ، والطعام والشراب اللذان وضعتهما على المائدة كانا من أفضل الأنواع ، أما أدوات المائدة فكانت جيدة ونظيفة .

قال مونان : "أجل ، أزور هذا المكان حين تكون لدي مهمة في أوسلو . أنت تعرفين أن الأم تحب سماع أخبار أولادها . يكاتبني إنجه بين الحين والآخر ، فهو رجل متعلم ، فإن على مندوب الأسقف أن يكون كذلك ، كما تعرفين ، وقد دبرت له زواجاً جيداً أيضاً من تورا بيارنسداتر من غرويته . أتظنين أن رجالاً كثيرين قادرين على الحصول على مثل هذه الزوجة لأولادهم غير الشرعيين ؟ إذن نحن نجلس هنا ونتحدث عن هذا الموضوع ، وتحمل برينهيلد اللحم والجعة لي ، كما اعتادت أن تفعل في الأيام الغابرة ، حين كانت تحمل مفاتيح منزلي في سكوغهايم . إنه لعمل مضن أن أجلس هناك الآن وأفكر بزوجتي الراحلة... لذلك أركب جوادي وأحضر إلى هنا لأجد بعض السلوان... وذلك حين يصدف أن تكون برينهيلد في مزاج لا تنكر معه أن توفر لي بعض المودة والراحة ."

جلس أولف هالدورسون وقد أسند ذقنه إلى يده ، وراح ينظر إلى سيدة هوسابي . جلست كريستين وأصغت وأجابت بهدوء ورقة ولباقة... وكانت هادئة وودودة وكأنها في واحدة من ضيع كبار القوم في تروندهايم .

"أجل ، أنت يا كريستين لافرانسداتر قد كسبت لقب الزوجة وشرفك" ، قالت برينهيلد فلوغا ، "رغم أنك جئت بكل إرادتك لتقابلي إرلند في عليّتي . لقد دُعيتُ بالمومس والمرأة الساقطة طوال حياتي... فقد باعتني زوج أبي إليه هناك... وقد عضضت وخرمشت وتركت آثار كل ظفر من أظفاري على وجهه قبل أن ينال وطره مني..."

تذمر مونان : "هل عليك أن تتحدثي دائماً عن هذا ؟ كوني على ثقة - وقد قلت لك هذا غالباً- كنت سأسمح لك أن تذهبي في سلام لو تصرفت كبشر وجعلتني أتركك في سلام... ولكنك هاجمتني كالقطة البرية قبل أن أدخل من الباب..."

ضحك أولف هالدورسون برقة .

قال مونان : "و قد عاملتك جيداً منذ ذلك الحين وحتى الآن . كان عليك أن تشيري إلى أي شيء وكنت أعطيك إياه... وولدانا... أجل إنهما أفضل بكثير وأكثر أماناً من أولادَ كريستين المساكين... فليحفظ الرب الصبيان الصغار المساكين كما أراد إرلند توجيه الأمور لصالح أولاده! أعتقد أن هذا يرضي قلب الأم أكثر من لقب الزوجة... وأنت تعرفين أني غالباً ما كنت أتمنى لو كنت من محتد يسمح لي بالزواج منك على نحو شرعي... فأنا لم أحبب امرأة أخرى كما أحببتك... رغم أنك نادراً ما كنت طيبة أو كريمة معي... أما الزوجة التي نلتها فعسى الرب يجازيها...! لقد أنشأت مذبحاً لكاترين ولنفسي في الكنيسة التي في ضيعتي ، يا كريستين... لقد حمدت

الرب وسيدتنا كل يوم على حياتي الزوجية... لم يعرف أي رجل حياة أفضل..."
أنّ ثم نشق .

قال أولف هالدورسون بعد قليل إن عليهما الرحيل . لم يتبادل هو وكريستين أي كلمة في طريق العودة . ولكن خارج الباب مدت يدها إلى الرجل :

" أولف ... قريبي وصديقي ."

قال بصوت خفيض : "لو كان في الأمر مجال لذهبت بسعادة إلى المشنقة بدلاً عن إرلند... لأجله ولأجلك!"

في ذلك المساء ، قبل النوم بقليل ، جلست كريستين وحدها في القاعة مع سايمون . وفجأة بدأت تحكي له أين كانت طوال النهار . وحكت عن الاجتماع في بيت برينهيلد فلوغا .

كان سايمون جالساً على كرسي منخفض ليس بعيداً عنها . انحنى إلى الأمام قليلاً ، وذراعاه على فخذيه ، ويداه مدلاتان ، وراح يرفع بصره إليها بنظرة غريبة فاحصة في عينيه الصغيرتين الحادتين . لم ينطق بكلمة واحدة ، ولم تتحرك عضلة واحدة في وجهه الكبير السمين .

و لكنها لم تخبره أنها أخبرت أباها بكل شيء ، وما الذي كان قد قاله لها .

بقي سايمون جالساً كما من قبل ، دون حراك . ولكن خلال برهة قال بهدوء :

"كان هذا الشيء الوحيد الذي كنت أرجوه منك ، في كل السنوات التي عرفنا بها واحدنا الآخر -إن كنت أتذكر على النحو الصحيح- أنك لن... لو أنك تبقين صامتة حتى توفري الأسى على لافرانس ، لماذا..."

ارتجف جسد كريستين كله :

"أجل! ولكن أوه......إرلند ، إرلند ، إرلند..."

عند الصرخة المجنونة قفز الرجل واقفاً... كانت كريستين قد رمت بنفسها نحو الأمام ورأسها بين ذراعيها ، وكان تهزّ جسدها من جانب إلى آخر ، ولا تزال تنادي اسم إرلند بين النحيب المرتعش والأنين الذي بدا وكأنه يمزق جسدها .

"كريستين... باسم المسيح!"

حين أمسك بأعلى ذراعها وحاول أن يوقفها عن النحيب ، رمت بنفسها عليه بكل ثقل جسدها ، وطوّقت عنقه ، بينما تابعت وهي تبكي تنادي باسم زوجها .

"كريستين... اهدئي..." أمسك بها بشدة بين ذراعيه ورأى أنها لم تلاحظ ذلك... كانت تنتحب إلى حد أنها لم تكن قادرة على الوقوف منتصبة . ثم رفعت نفسها بين ذراعيه... ضمها إليه بقوة لحظة ، ثم حملها ووضعها على السرير .

"اهدئي" ، توسل إليها مجدداً بصوت مختنق ويكاد يكون مهدّداً... وضع يديه فوق وجهها ، وأمسكت برسغيه وذراعيه والتصقت به .

"سايمون... سايمون... أوه! يجب أن ننقذه..."

"أقوم بما أقدر عليه يا كريستين... والآن عليك أن تهدئي . " التفت بحدة وسار إلى الباب وخرج إلى الباحة . صرخ حتى تردّد الصدى من الجدران والمنازل ، منادياً على الخادمة التي استأجرتها كريستين في أوسلو . وصلت الفتاة وهي تعدو ، وأمرها سايمون أن تذهب إلى سيدتها .

وخلال لحظة خرجت مجدداً... فسيدتها تود البقاء وحيدة ، هذا ما قالته خائفة لسايمون الذي كان لا يزال واقفاً في البقعة نفسها .

أومأ برأسه وسار إلى الإسطبلات ، وبقي هناك حتى وصل غونار وخادمه وأولف هالدورسون ليعلفا الجياد . سار سايمون معهما قليلاً ثم ذهب مع أولف عائدين إلى القاعة .

•

لم تَرَ كريستين زوج أختها في اليوم التالي . ولكن بعد صلاة العصر كانت جالسة تخيط ثوباً كانت تنوي أن تأخذه إلى زوجها ، فجاءها مسرعاً ولم يقل شيئاً ولم ينظر إليها ، إنما فتح صندوق السفر خاصته ، وملأ طاسه الفضي بالنبيذ وخرج مسرعاً كما جاء . نهضت كريستين ولحقت به . أمام الباب كان يقف رجل غريب وهو لا يزال ممسكاً بحصانه... سحب سايمون خاتماً ذهبياً من أصبعه ورماه في الطاس وشرب نخب القادم الجديد .

خمنت كريستين ما يعنيه هذا وصاحت بفرح :

"لقد رزقت بابن ذكر يا سايمون!"

"أجل" . ربت على كتف الرجل الغريب بينما كان الرجل يشكره وقد وضع الطاس والخاتم في حزامه . ثم أمسك سايمون بأخت زوجته من خصرها ودوّرها في المكان . بدا سعيداً جداً حتى أن كريستين لم تستطع سوى أن تضع يديها حول كتفيه... ثم قبلها على فمها وضحك عالياً .

"إذن فإن نسل آل دار هو الذي سيرث ضيعة فورمو حين ترحل عن هذه الدنيا يا سايمون" ، قالت بمرح .

"أجل سيكون الأمر هكذا -إن شاء الله- لا ، الليلة سأذهب لوحدي" ، قال حين سألته كريستين إن كانا سيذهبان معاً إلى صلاة المساء .

في تلك الليلة قال لكريستين إنه سمع أن السير إرلينغ فيدكونسون كان الآن في ضيعته في آكر قرب تونسبرغ .و في ذلك الصباح كان قد استأجر مكاناً في سفينة متجهة إلى الزقاق البحري... كان ينوي أن يكلم السير إرلينغ في موضوع إرلند .

لم تقل كريستين كثيراً رداً عليه . ولم يكونا قد تحدثا إلا بالكاد عن هذا الموضوع من قبل... وكانا يبتعدان عن الخوض فيه... أي إن كان السير إرلينغ على اطلاع بخطط إرلند أم لا . قال سايمون إنه سيكون أمراً جيداً أن يطلب نصيحة إرلينغ فيدكونسون فيما يخص خطة كريستين بأن يذهب سايمون معها إلى أقرباء لافرانس ذوي النفوذ في السويد للمطالبة بحقوق القرابة وطلب المساعدة .

ثم نطقت كريستين بأفكارها :

"و لكن ، مع وصول هذه الأنباء العظيمة يا زوج أختي ، فأعتقد أنها السبب في أن عليك أن تؤجل هذه الرحلة إلى آكر... وأن تذهب أولاً إلى رينغهايم لترى رامبورغ وابنك ."

كان مضطراً إلى الالتفات فقد كان شديد الإحراج . لقد انتظر طويلاً... أن تقوم كريستين بأي إشارة بأنها تفهم كم كان تواقاً لمشاهدة ابنه . ولكن بعد أن تحكم بنفسه نوعاً ما ، قال ببعض الخجل في صوته :

"لقد كنت أفكر يا كريستين... بأن الرب قد يضمن أن يعيش الصبي وينمو بقوة لو استطعت أن أكون صبوراً وسيطرت على توقي لرؤيته حتى أكون قد استطعت مساعدتك وإرلند قليلاً في هذه القضية .

في اليوم التالي خرج وجلب هدايا ثمينة وفاخرة لأجل زوجته وابنه... ولكل النساء أيضاً اللواتي كن مع رامبورغ لدى ولادتها للصبي . أخرجت كريستين ملعقة فضية جميلة كانت ورثتها عن أمها... وهي هدية لأندرس سايمونسون... إلا أنها أرسلت إلى أختها السلسلة الفضية الثقيلة التي أعطاها إياها لافرانس في طفولتها مع الصليب المذخر . وربطت الصليب الآن بالسلسلة التي كان إرلند قد أعطاها إياها كهدية خطوبة . وفي اليوم التالي أبحر سايمون في منتصف النهار .

في المساء رست السفينة عند جزيرة في الزقاق البحري . بقي سايمون على المتن . كان يضطجع في كيس نوم من الجلد وفوقه كانت بعض قطع من القماش الصوفي الخشن ، وهو ينظر إلى السماء المليئة بالنجوم ، حيث بدت المجموعات النجمية تصعد لتغطس ثانية مع تحرك السفينة على الأمواج . كان الماء يتناثر ورقاقات الجليد تحتك بجوانب السفينة وتضربها برقة . كان أمراً مريحاً أن يشعر بالبرد يزحف نحو جسده . كان ذاك يخدّر...

لكنه كان واثقاً الآن : لقد جرت الأمور على نحو رديء معه حتى أنها لن تصل إلى الدرجة من السوء مجدداً . والآن هاهو قد رزق بابن . لم يكن الأمر وما فيه أنه يفكر في أن يصبح أكثر حباً للصبي من ابنتيه ، بل كان ذاك أمراً آخر . فلقاء كل السعادة القلبية التي تمنحها إياه ابنتاه ، حين كانتا تلعبان معه وتضحكان وتثرثران -و مهما كان أمراً عذباً أن يضعهما في حضنه ويتحسس شعرهما الناعم على ذقنه ـ ومع ذلك فإن الرجل لا يستطيع أن يتخذ مكانه في تسلسل رجال عائلته ، إن كانت أراضيه وأمواله وذكرى أفعاله في الدنيا ستذهب إلى أيدي ابنته ومنها إلى أسرة غريبة . ولكن الآن ، وإن استطاع أن يأمل في ذلك ، ولو أن الله سيمنح ذلك الصبي الصغير

الفرصة لينمو ويصبح رجلاً ، وأن يأتي ابن لفورمو بعد الأب... أندرس غودموندسون ، سايمون أندرسون ، أندرس سايمونسون... الآن لا شك أن الأمر سيستتبع أنه سيقف من أندرس الموقف الذي وقفه أبوه منه ، رجلاً شريفاً في أفكاره السرية كما في أفعاله المكشوفة .

... أحياناً جرت الأمور على نحو لم يفهم معه كيف استطاع أن يتحمل الأمر بعد الآن . لو أنه شاهد فحسب ولو علامة واحدة على أنها فهمت أي شيء! ولكنها كانت بالنسبة إليه كالأخ والأخت من أم وأب... حريصة على مصلحته ولطيفة ومحبة ورقيقة... ولم يكن يعرف كم سيدوم هذا... كم سيعيشان معاً على هذا النحو في منزل واحد . ألم يخطر في بالها قط أنه لم يستطع أن ينسى... أنه حتى لو كان متزوجاً من أختها ، إلاّ أنه لن يستطيع قط أن ينسى أنهما كانا سيتزوجان ذات يوم ؟

و لكن لديه ابن الآن . كان دائماً خجولاً فلا يضيف إلى كلماته تمنياته أو شكره حين يصلّي . ولكن يبدو أن المسيح ومريم العذراء كانا يعرفان جيداً أنه كان يكرر مرتين "أبانا الذي" و"السلام عليك يا مريم" في هذه الأيام الأخيرة . وكان سيحافظ على هذا طالما كان بعيداً عن البيت . ومن ناحية أخرى سيظهر امتنانه بأسلوب ملائم وكريم . وهكذا ربما سيكسب المساعدة في رحلته الحالية أيضاً .

على أي حال فقد كان يظن هو أيضاً أنه لن ينجم الكثير عن هذه الزيارة . فقد كان السير إرلينغ شديد الغربة عن الملك الآن . ومهما كان الوصي السابق على العرش قوي النفوذ وآمناً ، ومهما تكن حاجته إلى الخوف قليلة من الملك الشاب ، فمن كان ذا مركز حساس مثله -أغنى وأكرم رجل في النرويج من حيث المحتد- ولكن لا أمل في أن يكون راغباً في إغضاب

الملك ماغنوس وجعل الشك ينصب على نفسه لأنه كان على اطلاع بخيانة إرلند . وحتى لو كان له دور في ذلك... أجل حتى لو كان في أسفل الخطة كلها ، وجاهزاً للدخول ووضع نفسه على رأس الأمور في لحظة وجود ملك قاصر مرة أخرى على العرش... لن يشعر قط أنه مضطر إلى المخاطرة إطلاقاً إلى مساعدة رجل خرّب الخطة كلها لأجل مغامرة غرامية مخزية . لكأن سايمون قد نسي ذلك حين كان مع إرلند وكريستين... فقد بدا أنهما لا يتذكرانها بعد الآن . ولكن حدث أن إرلند قد جلب سوء الحظ بيده -كان فشل الخطة كلها وانتهاؤها إلى الدمار الذي حلّ بإرلند من عمل إرلند نفسه - كما جلب سوء الحظ أيضاً للرجال الطيبين الذين خانهم هو بدناءته وحماقته .

و لكن عليه أن يطرق كل الأبواب ليساعدها هي وزوجها . والآن بدأ يأمل . ربما سيقدم الرب ومريم العذراء أو بعض القديسين الذين اعتاد هو على تقديم النذور لهم والحسنات باسمهم مساعدتهم في هذا أيضاً .

•

وصل إلى آكر في وقت متأخر من مساء اليوم التالي . قابله وصيف وأرسل الرجال ، بعضهم مع الجياد والبعض مع تابع سايمون إلى مبنى الخدم . بينما مضى سايمون بنفسه إلى العلية حيث كان الفارس جالساً يشرب . خرج سير إرلينغ نفسه إلى الشرفة على الفور ووقف هناك بينما كان سايمون يصعد الدرج . ثم حيّا ضيفه بما يكفي من اللياقة ، وقاده نحو القاعة حيث كان ستيغ هاكونسون من ماندفيك مع ابن إرلينغ الوحيد ، بيارن إرلينغسون ، وهو شاب يافع تماماً .

تـم التـرحيب بـه على نحو جميـل -أخذ الخدم منه ملابسه الخارجية وأدخلوا اللحم والشراب . ولـكنه حزر أن الرجال خمّنوا -على الأقل السـير إرلينغ وستيغ- سبب قدومه ، وأحسّ أنهم كانوا يتراجعون . لذلك حين بدأ ستيغ يقول كم من النادر مشاهدته في هذا الجزء من البلاد وكم من النادر أن يطرق أبواب أنسبائه السابقين- وسأله إن كان قد سافر ذات مرة إلى ما دون دايفرين منذ أن ماتت هالفريد... فأجاب سايمون : لا ، ليس قبل هذا الشتاء . ولـكنه كان في أوسلو منذ بضعة شهور مع أخت زوجته كريستين لافرانسداتر زوجة إرلند نيكولاوسون .

عند هذا ساد صمت قصير . ثم سأل سير إرلينغ بلباقة عن حال كريستين وعن زوجة سايمون وعن أخوته وأخواته . سأل سايمون عن حال الليدي إلين وبنات إرلينغ ، وكيف هي أمور ستيغ ، وجيرانه القدامى في ماندفيك وعن الأنباء القادمة من هناك .

كان ستيغ هاكونسون بديناً ، داكن الشعر ، ويكبر سايمون ببضع سنوات ، وهو ابن أخ هالفريد إرلينغسداتر غير الشقيق ، أي ابن السير هاكون توريسون ، وابن أخ زوجة إرلينغ فيدكونسون ، الليدي إلين توريسداتر . لقد خسر حاكمية سكيدو وحاكمية قلاع تونسبرغ قبل شتائين ، حين سقط مع الملك . ولكنه كان لا يزال في حال جيدة مع أملاكه في ماندفيك . إلاّ أنه كان أرمل ودون أولاد . كان سايمون يعرفه جيداً وكانا صديقين جيدين كما كان مع كل أقرباء زوجته الأولى -حتى لو لم تكن تلك الصداقة شديدة الدفء . كان يعرف جيداً كيف كانوا ينظرون إلى زواج هالفريد الثاني -فقد كان الابن الثاني للسير أندرس غودموندسون رجلاً غنياً من محتد كريم ، ولكنه لم يكن نداً لهالفريد إرلينغسداتر ، كما كان

يصغرها بعشر سنين . لم يفهموا السبب في وقوعها في حب هذا الشاب... ولكنهم تركوها تفعل ما تريد حيث أنها كانت في بؤس لا يحتمل مع زوجها الأول .

لم يكن سايمون قد قابل إرلينغ فيدكونسون سوى مرات قليلة من قبل . وكان ذلك دائماً في صحبة الليدي إلين . في مثل تلك المناسبات لم يكن ينطق بالكثير... فما كان أحد في حاجة إلى أن يقول أكثر من أجل وكلا حين تكون هي حاضرة . كان السير إرلينغ قد شاخ كثيراً منذ آخر مرة... ولقد أضحى أبدن ، ولكن شكله كان لا يزال وسيماً ونبيلاً ، فقد كان يتحرك على نحو رشيق ، وكان يلائمه أن شعره الأصفر المحمرّ الفاتح قد تحول الآن إلى اللون الرمادي الفضي اللامع .

لم يكن سايمون قد شاهد بيارن إرلينغسون من قبل . كان قد ربّي قرب بيورغفين في منزل أحد الكهنة ، وهو صديق لإرلنغ - ولكن كان يقال في أوساط الأقرباء إن السبب في هذا كان أن أباه لا يريده أن يعيش في "غيسكه" في وسط مجموعة من النساء الحمقاوات . لم يكن إرلينغ نفسه يتواجد هناك أكثر من الحالات الضرورية ، ولم يجرؤ على اصطحاب الصبي معه في رحلاته الدائمة ، فقد كان بيارن ضعيف البنية ومريضاً في يفاعته ، وكان أبوه قد فقد ابنين آخرين في طفولتهما .

بدا الشاب وسيماً جداً وهو جالس والضوء من خلفه ، وقد ظهر جانب من وجهه . كان شعره الأسود المجعد الكثيف قد تهدل فوق جبينه ، أما عيناه الواسعتان فبدتا سوداوين ، أما أنفه فكان كبيراً وذا انحناءة قوية ، والفم ممتلئاً وقاسياً وجميلاً والذقن جيد التشكيل . كما كان طويلاً رشيقاً عريض المنكبين . ولكن حين اضطر سايمون إلى الجلوس إلى المائدة

لتناول الطعام ، فإن الخادم حرك الشمعة ، فرأى سايمون أن جلد عنق بيارن كان متآكلاً من ندوب سل الغدد اللمفاوية... كانت تمتد على كلا الجانبين تحت الأذنين وتحت الذقن ، بقع بيضاء ميتة وخطوط حمراء زرقاء وعقد متورمة . كما كان من عادة بيارن أن يجذب المرة تلو الأخرى قلنسوة عباءته المخملية ذات الحاشية الفرو التي كان يرتديها حتى هنا في الغرفة - وكان يجذبها نحو الأعلى فوق رأسه . وحين أصبح الجو شديد الحرارة عليه ، راح يقلبها نحو الأسفل ، ثم يرفعها إلى الأعلى ثانية... لم يبد عليه أنه كان واعياً لما يفعله . أحس سايمون بيديه تضطربان أخيراً من النظر إلى هذا... رغم أنه حاول منع نفسه من النظر .

لم يكن السير إرلينغ يرفع نظره إلاّ بالكاد عن ابنه... ولكنه لم يبد عليه هو أيضاً أنه يعرف أنه كان يحدق بكل تصميم إلى الشاب . كان وجه إرلينغ فيدكونسون ثابتاً لا يتغير وكانت عيناه الزرقاوان الفاتحتان لا تكشفان إلا القليل من مشاعره... ولكن تحت ذلك كانت النظرة الغامضة الندية بدا كامناً هناك القلق والأفكار وحب السنوات التي لا نهاية لها .

و هكذا تبادل الرجال الثلاثة الكبار حديثاً لبقاً بطيناً بينما راح سايمون يأكل ، وجلس الشاب يعبث بقلنسوته . لاحقاً جلس الأربعة يشربون لبعض الوقت ، ثم سأل السير إرلينغ إن لم يكن سايمون مرهقاً من رحلته ، وسأل ستيغ إن كان يود النوم معه . كان سايمون سعيداً لأنه تمكن من تأجيل التحدث في مهمته . لقد تركته الليلة الأولى في آكر حزيناً جداً .

في اليوم التالي حين تطرق إلى القضية ، كان جواب السير إرلينغ قريباً جداً مما توقعه سايمون . قال إن الملك ماغنوس لم يصغ إليه قط عن طيب خاطر ، وقد لاحظ أنه منذ أن أصبح ماغنوس إيريكسون في سن تؤهله

لتكون له إرادته الخاصة فإن رغبته كانت هي أن يبقى إرلينغ فيدكونسون بعيداً عن التدخل في شؤونه ما أن يبلغ سن الرشد . ومنذ النزاع بينه وبين أصدقائه من ناحية والملك من الناحية الأخرى لم يسمع من الملك وأصدقاء الملك أي شيء ، ولا هو حاول أن يسمع . ولو أنه تدخل لصالح إرلند لدى الملك ماغنوس ، لن تكون هناك فائدة تذكر لإرلند في ذلك . لقد كان يعرف جيداً أن كثيرين في هذه البلاد يعتقدون أنه وراء خطة إرلند . ولكن سواء صدقه سايمون أم لم يصدقه ، فلم يكن هو أو أي من أصدقائه على علم بما كان يخطط له . ولو أن هذه القضية تكشفت بأسلوب آخر ، أو لو أن هؤلاء الشبان المتهورين المغامرين قاموا بمغامرتهم وفشلوا ، عندها كان سيتدخل ويحاول أن يقيم الصلح . ولكن بما أن ما جرى قد جرى ، فهو لا يعتقد أن أي شخص قادر على أن يطالبه على نحو عادل بالتقدم وبالتالي أن يدعم شكوك كل الناس بأنه قد مارس دوراً مزدوجاً .

و لكنه نصح سايمون باللجوء إلى أولاد هافتور . كانوا أولاد عم الملك ، وحين لا يكونون في حالة نزاع معه ، فهم أصدقاؤه نوعاً ما . وضمن ما فهمه إرلينغ من القضية ، فإن الرجال الذين كان إرلند يحميهم قد يكونون على الأغلب بين أعضاء حزب آل هافتورسون ، وبين أصغر النبلاء سناً .

كان سايمون يعرف الآن أن الملك سيقيم حفل زفافه في النرويج هذا الصيف . وقد تكون هذه فرصة ملائمة لماغنوس ليبدي رقة وتسامحاً مع أعدائه . كانت أم الملك والليدي إيزابيل ستحضران دون شك حفل الزفاف . وبما أن أم سايمون كانت وصيفة شرف للملكة إيزابيل في شبابها ، فقد يلجأ سايمون إلى الليدي إيزابيل ، أو قد ترمي زوجة إرلند بنفسها أمام عروس الملك والليدي انجبيورغ هاكونسداتر وتتوسل إليهما أن تتدخلا

لأجل العفو عن زوجها .

فكر سايمون في أن آخر فرصة أمامه هو أن يطلب من كريستين الركوع أمام الليدي انجبيورغ . لو كانت الدوقة تعرف ما هو الشرف حقاً ، لكان عليها أن تتقدم منذ زمن طويل وتنقذ إرلند من محنته . ولكنه حين ذكر هذا مرة أمام إرلند ، ضحك هذا وقال إن الليدي لديها دائماً مسائل حساسة تخصّها وترعاها ، ولاشك أنها كانت غاضبة ، حيث أنه كان يبدو الآن أن أعز أطفالها إليها لن يحمل لقب الملك إطلاقاً .

٧

كان الربيع قد حلّ حين سافر سايمون أندرسون شمالاً إلى "توتن" ليحضر زوجته وابنه الصغير ويصطحبهما إلى بيته في فورمو . ثم بقي هناك فترة ليرعى شؤونه الخاصة .

ما كانت كريستين لترضى الانتقال من أوسلو . لم تكن تجرؤ على الاستسلام أمام شوقها الحارق التوّاق إلى أولادها الذين كانوا في "ديل" . أما أن تبقى صامدة وتتحمل الحياة التي كانت تحياها الآن من يوم لآخر ، فعليها بالتالي ألاّ تفكر في أطفالها . لقد صمدت ، وبدت هادئة وشجاعة . كلمت الغرباء وأصغت إليهم ، كما استمعت إلى نصائحهم وتشجيعاتهم . ولكن حتى تقوم بذلك عليها أن تتشبث بالتفكير بإرلند ، وإرلند وحده! في اللحظات الشاردة حين كانت غير قادرة على جعل إرادتها تتحكم بأفكارها ، كانت الصور والأفكار تمر مسرعة عبر ذهنها : كان إيفار واقفاً في الكوخ الخشبي في فورمو مع سايمون ، يراقب زوج خالته باهتمام بينما راح هذا يبحث عن قضيب خشبي لأجل أن يصنع منه مقبضاً لبلطة الصبي ، فراح يلوي القضبان ويختبرها بيديه . كان وجه غاوته الصبياني الوسيم رجولي الملامح وهو ينحني إلى الأمام مقاوماً العاصفة الثلجية في ذلك اليوم الشتائي الرمادي

في الجبال... لقد انزلقت زحافة الجليد خاصته فغرق في الثلج على المنحدر ، وهبط عميقاً في الثلج المكدس... كان سيماؤه الرجولي قد تلاشى كله لبرهة ، فأصبح طفلاً شديد القلق عاجزاً . وتلتفت أفكارها إلى الصغيرين . كان مونان قادراً على الكلام والمشي قليلاً الآن... هل كان جميلاً مثلما كان الآخرون وهم في سنه ؟ لا شك أن لافرانس قد نسيها الآن . كما أن الاثنين الأكبر سناً في الدير الآن في "تاوترا"... ناكفه ، ناكفه ، بكرها... إلى أي حد كان هذان الأكبر سناً يفهمان وما هي أفكارهما ؟ كيف استطاع ناكفه ، وهو طفل لا يزال ، أن يتحمل فكرة أنه لا شيء في الحياة سيكون بالنسبة إليه الآن كما كانت تظن هي ويظن هو وكل الناس الآخرين أنها ستكون ؟

كان سيرا آيليف قد أرسل إليها رسالة ، وقد حكت لإرلند ما كان فيها من أخبار عن أبنائهما . ولم يتحدثا عن أولادهما إلاّ عبر هذه الرسالة . ما عادا يتكلمان عن الماضي أو المستقبل . كانت كريستين تجلب له قطعة ملابس أو طبقاً من الطعام . كان يسألها عن أموالها منذ أن رآها آخر مرة . كانا يجلسان يداً بيد على سريره . ثم قد يحدث أحياناً أن يتركا لوحدهما برهة في الغرفة الصغيرة الباردة المنتنة... وكانا يتلاصقان في عناقات خرساء حارقة ، ويسمعان دون أن يلاحظا ذلك خادمة كريستين وهي تضاحك الحارس في الخارج على الدرج .

لديها ما يكفي من الوقت ، ريثما يتبين لها إن كان سيؤخذ منها أو يُردّ إليها ، حتى تواجه التفكير في فصيلة الأولاد التي لديها والتغيير الذي سيحصل في مصيرهم... التفكير في كل شيء آخر في حياتها وهذا الرجل ليس إلى القرب منها . لم تكن قادرة على تحمل خسارة ساعة واحدة من الزمن الذي كان قد تُرك لهما ليقضياه معاً ، ولم تكن تجرؤ على التفكير في

الاجتماع مجدداً بالأولاد الأربعة الذين خلفتهم في الشمال... لذلك كانت مستعدة للموافقة حين عرض عليها سايمون أندرسون أن تذهب وحدها إلى تروندهايم ، وأن ترعى ، مع آرن غيافالدسون ، مصالحها في تسوية الأملاك المصادرة . لن يكون الملك ماغنوس أغنى مع حصوله على أملاك إرلند... كان الرجل مديوناً أكثر مما كان يدري هو نفسه ، وقد جمع أموالاً أرسلت إلى الدانمارك وسكوتلاندا وانكلترا . هزّ إرلند كتفيه وقال بنصف ابتسامة إنه لم يكن يتطلع الآن إلى أن يحصد أي مردود منها .

هكذا كانت حال إرلند حين عاد سايمون إلى أوسلو حوالي عيد الصليب في الخريف (١٤ أيلول / سبتمبر) . ولكنه جزع حين رأى كم كانا يبدوان مرهقين ، كريستين وعديله ، وأحس بغثيان غريب مزعج في قلبه حين لم يعد لديهما من السيطرة على النفس ما يكفي ليوجها إليه الشكر لقدومه إلى هناك في ذلك الوقت من العام ، حين يكون من الصعب عليه الابتعاد عن أملاكه . ولكن كانت وجوه الناس كلها متجهة الآن نحو تونسبرغ حيث كان الملك ماغنوس قد وصل منتظراً عروسه .

في فترة لاحقة من الشهر نفسه ، استطاع سايمون أن يستأجر مكاناً في سفينة متجهة إلى هناك مع بعض التجار الذين كانوا سيبحرون لمدة ثمانية أيام . وفي صباح أحد الأيام قدم خادم غريب ليرجو سايمون أندرسون أن يتفضل بالقدوم فوراً إلى كنيسة القديس هالفارد... فقد كان أولاف كيرنينغ بانتظاره هناك .

كان نائب أمين الخزينة شديد الانفعال . كان مسؤولاً عن القلعة خلال وجود أمين الخزينة في تونسبرغ . وفي المساء السابق وصلت مجموعة من السادة قدموا له خطاباً مختوماً بخاتم الملك ماغنوس ، ويفيد الخطاب بأن

عليهم النظر في قضية إرلند نيكولاوسون . وقد أحضر السجين إليهم . كان ثلاثة منهم من الأجانب ، فرنسيين لاشك... لم يفهم أولاف لغتهم ، ولكن القس كلمهم باللاتينية هذا الصباح ويقال إنهم أقرباء الليدي التي ستصبح ملكتنا... بداية رائعة!" لقد استجوبوا إرلند تحت التعذيب... كان معهم نوع من السلم وقد اعتاد بعض الناس استخدام مثل هذه الأمور . واليوم رفض إخراج إرلند من زنزانته ، ووضع عليه حراسة مشددة... فقد كان مستعداً لتحمل المسؤولية عن ذلك ، فقد كان ما يفعلونه غير قانوني ، ولم يسبق أن ارتكب مثله في النرويج من قبل!

اقترض سايمون حصاناً من أحد كهنة الكنيسة وانطلق مع أولاف فوراً إلى أكرسنس .

نظر أولاف كيرنينغ بخوف بعض الشيء إلى وجه الرجل الآخر المكفهرّ ، والذي كانت تهب على وجهه أمواج حمراء عاصفة . تكراراً كان سايمون يقوم بحركة عنيفة طائشة ، وكأنه لا يعرف ما يفعله... وراح الحصان الغريب يثب جانباً ، يشب على قائمتيه الخلفيتين ويتوقف فجأة تحت راكبه .

قال أولاف كيرنينغ : "يستطيع المرء أن يرى أنك غاضب ."

لم يكن سايمون نفسه يعرف ما كان الأمر الرئيسي في ذهنه . كان شديد الانفعال حتى الأعماق حتى أنه شعر أحياناً بنوبات من الغثيان . كان الشعور الأعمى المجنون الذي راح يصطرع في أعماقه ويصل به إلى الغضب الأقصى نوعاً من العار... رجل عاجز ، دون سلاح أو دفاع ، يضطر إلى تحمل قبضات رجال غرباء تقتحم ملابسه ، غرباء يخاشنون جسده... كان ذاك يشبه اغتصاب النساء . أحس بالدوار من التعطش إلى الانتقام ، والتوق إلى

رؤية الدماء تراق لأجل ذلك . لا... لم تكن مثل هذه الأمور من عادات وتقاليد هذه البلاد... هل سيجعلون النبلاء النرويجيين يعانون من مثل هذه الأمور... ؟ لا يجب أن يحصل هذا قط!

كان يشعر بالغثيان لشدة الرعب مما كان سيراه... سيطر عليه الخوف من العار الذي سيجلبه على شخص آخر لرؤيته في مثل هذه الحالة ممّا ألغى كل المشاعر الأخرى ، وذلك حين فتح له أولاف كيرنينغ باب زنزانة إرلند .

كان إرلند ممدداً على الأرض منحرفاً من إحدى زوايا الغرفة إلى الأخرى . كان طويلاً جداً إلى حد أنه لم يكن يجد مجالاً كافياً له ليتمدد بكامل طوله . كان بعض القش والملابس قد فرشت تحته فوق الطبقة السميكة من القذارة التي تغطي الأرضية ، وكان جسده مغطى كله بعباءة زرقاء داكنة مبطنة بالفرو حتى ذقنه ، حتى أن الفرو الرمادي البني لحيوان الدلق كان يختلط باللحية السوداء المجعّدة التي نمت لإرلند خلال وجوده في السجن .

كان فمه يبدو أبيض اللون من خلال اللحية . أما وجهه فكان أبيض كالثلج . كان المثلث المستقيم الكبير للأنف يبرز على نحو ضخم فوق الخدين الغائرين ، والشعر الذي وخطه الشيب قد تكتل نحو الوراء فوق الجبين الضيق العالي في خصل دبقة منفصلة... وعلى كل واحد من الصدغين الغائرين كانت علامة زرقاء حمراء كبيرة ، كأن شيئاً ما كان قد ضغط عليهما أو أمسك بهما في تلك البقعة .

ببطء ، وبجهد ، فتح عينيه الزرقاوين الكبيرتين بلون البحر وحاول أن يرسم نوعاً من الابتسامة حين ميّز الرجل . بدا صوته كأنما هو من خلف ستار وغريباً .

"اجلس يا عديلي..." حرك رأسه قليلاً نحو السرير الفارغ . "أجل... لقد تعلمت الآن شيئاً جديداً نوعاً ما... منذ أن تقابلنا لآخر مرة..."

انحنى أولاف كيرنينغ فوق إرلند وسأل إن كان هناك أي شيء يريده . لم يكن هناك جواب... لاشك أن إرلند لم يكن قادراً على الكلام... وقد رفع العباءة عنه . كان إرلند يرتدي مجرد سروال داخلي من الكتان وبقايا قميص... وقد هزّ منظر الأعضاء المتورمة التي فقدت لونها سايمون وأثار جنونه كشيء مثير للرعب وكريه . وقد تساءل إن كان لدى إرلند شعور مشابه... هبط ظل أحمر فوق وجهه بينما راح أولاف يمرّر قماشة مبلّلة ، كان يغمسها في دلو من الماء ، فوق ذراعيه وأعضائه . وحين أعاد وضع العباءة ثانية ، دفعها إرلند إلى مكانها ببعض الحركات الصغيرة من أعضائه بأن جرّ القلنسوة إلى الأعلى بذقنه حتى أصبح مغطى تماماً .

قال إرلند : "أجل" . كان صوته قد أصبح أقرب إلى صوته المألوف الآن ، والابتسامة على فمه كانت أوضح قليلاً . "في المرة التالية... سيكون الأمر أسوأ! ولكنني لست خائفاً... لا حاجة إلى أحد أن يكون خائفاً... لن ينتزعوا مني شيئاً بهذه الطريقة..."

أحس سايمون في داخله أن الرجل كان ينطق بالحقيقة . لن ينتزع التعذيب كلمة واحدة من إرلند نيكولاوسون . لم يكن هناك أي شيء لا يمكنه فعله ، ولا شيء لا يمكن أن يكشفه في حالة غضب أو تهور... ولكنه لن يتزحزح قيد شعرة بالقوة . وأحس سايمون أن العار والإهانة اللتين عانى منهما هو نيابة عن رجل آخر لم يكن هذا يشعر بهما إطلاقاً... كان ممتلئاً بمتعة عنيدة في تحدي المعذّبين وبثقة ، بمدى صلابته ، نابعة من رضى ذاتي . هو الذي كان ينهار على نحو مثير للشفقة لدى مواجهته لإرادة قوية ،

والذي كان هو نفسه قاسياً في لحظة خوف ، هاهو يبزّ نفسه الآن حين أحس أن في هذه الوحشية معارضاً أضعف من نفسه .

و لكن جواب سايمون خرج يزأر عبر أسنانه :

"المرة التالية... لا أعتقد أنه ستكون هناك مرة ثانية! ما رأيك يا أولاف ؟"

هزّ أولاف رأسه ، ولكن إرلند قال بنوع من القحة المتهورة المألوفة في صوته :

"أجل ، لو كنت قادراً فحسب -على تصديق ذلك- بقدر ما تصدقه أنت! ولكن هؤلاء السادة لن يكتفوا بهذا فحسب..." أصبح واعياً بملامح سايمون الثقيلة العصبية : "كلا يا سايمون... يا نسيبي!"... كان إرلند يريد أن يرفع نفسه على مرفقه . ولكن الألم أخرج منه بالقوة أنيناً غريباً مكتوماً ، وعاد ليغرق في إغماءة .

اهتم به أولاف وسايمون باضطراب . حين عاد إلى وعيه ، كان إرلند متمدداً بعينين مفتوحتين . وعندها تحدث على نحو أكثر جدية :

"ألا ترى... أن الأمر يعني كثيراً لماغنوس... أن يتقفى آثار الرجال الذين عليه ألاّ يثق بهم...إلى أبعد مما يستطيع أن يراهم ؟ رغم الكثير من القلاقل ومن السخط..."

"أجل... إن كان يعتبر هذا سيقمع السخط..." ، قال أولاف كيرنينغ مهدداً . ثم قال إرلند بصوت خفيض وواضح :

"لقد تعاملت في هذا الأمر بحيث أن قلة من الناس ستعتبر... أنه أمر مهم كيف سينتهي الأمر بي... أعرف ذلك بنفسي..."

احمر وجها الرجلين الآخرين . كان سايمون يظن أن إرلند لم يكن يرى هذا بنفسه... ولم تكن الليدي سونيفا قد أشارت ولو مجرد إشارة من قبل إلى وجود شيء بينهما . والآن قال سايمون يائساً :

"كيف أمكنك أن تتصرف بكل هذا الطيش... هذا الجنون ؟"

"كلا ، لا أفهم ذلك أيضاً... حتى الآن" ، قال إرلند ببساطة . "و لكن... باسم الجحيم!... كيف أمكنني أن أفكر في أنها قادرة على قراءة الخط ؟ لقد بدت... جاهلة تماماً..."

تراخى جفناه وانغلقا وكان على وشك الإغماء مرة أخرى . همهم أولاف كيرنينغ حول إحضار شيء ما ، ثم خرج . انحنى سايمون فوق إرلند ، الذي كان متمدداً الآن بعينين نصف مفتوحتين .

"يا عديلي... هل كان إرلينغ فيدكونسون معكم في هذا ؟"

هز إرلند رأسه قليلاً ثم قال بابتسامة بطيئة :

"و حق المسيح كلا! لقد فكرنا... أنه إما لن يكون جريئاً بما فيه الكفاية للانضمام إلينا... أو أنه سيضع الأمور كلها بين يديه . ولكن لا تسأل يا سايمون... لن أقول شيئاً... إلى أي شخص... حتى أتأكد من ألآ أدع أي شيء يفلت من لساني..."

و فجأة همس إرلند باسم زوجته . انحنى سايمون من فوقه ثانية... أمل في ألآ يطلب منه الآخر أن يحضر كريستين إليه الآن . ولكنه قال بسرعة كأنما في رعشة حمى :

"عليها ألآ تعرف بهذا يا سايمون . قل لها إن أمراً قد وصل من الملك بعدم السماح لأحد بزيارتي . خذها إلى مونان... إلى سكوغهايم...

أتسمع ؟..هؤلاء الفرنسيون... أو المغاربة... الأصدقاء الجدد... لملكنا... لن يتخلوا عن الموضوع بعد! أخرجها من المدينة قبل أن ينتشر الخبر! سايمون ؟"

"أجل ." كيف سيبلغها ذلك ، إنه لا يعرف .

بقي إرلند بعينين مغمضتين لفترة قصيرة . ثم قال بنوع من الابتسامة :

"فكرت الليلة الماضية... في تلك المرة ولدت فيها ابننا البكر... لم تكن في حال أفضل من حالي... إن كان المرء قادراً على الحكم من خلال صراخها . ولو كانت قادرة على تحمل ذلك... سبع مرات... لأجل متعتنا... أعتقد أني أستطيع..."

صمت سايمون . أحس بانكماش مخيف... من النظر إلى أعمق أسرار الحياة المتعلقة بالعذاب والمتعة... بدا إرلند وكأنه لم يختبرها بعد . لقد عبث بأسوأ وأجمل الأشياء ببساطة صبي لا يشعر بالذنب ، صبي جلبه أصدقاؤه معهم إلى ماخور وهو سكران وفضولي...

هزّ إرلند رأسه فاقد الصبر :

"هذا الذباب... هو أسوأ الكل... أعتقد أنه الشيطان القذر نفسه..."

خلع سايمون قبعته وراح يضرب عالياً ونازلاً التجمعات السميكة من الذباب الأزرق الأسود ، حتى طارت في الهواء في غيمة طنانة... ثم راح يدوس بجنون على الطين الذي على الأرض فوق الذبابات الدائخة . لم يكن هناك فائدة كبيرة من ذلك إذ كان ثقب الشباك في الجدار مفتوحاً... في الشتاء السابق ، كان مغلقاً بمصراع خشبي له ثقب مغطى بكيس ، ولكن ذاك جعل الغرفة شديدة العتمة .

و لكنه كان لا يزال يطارد الذباب حين عاد أولاف كيرنينغ مع كاهن يحمل كأس شراب . رفع الكاهن رأس إرلند ، وسقاه من الكأس وهو يسند له رأسه . كان مقدار كبير من السائل ينزل إلى لحيته ثم إلى عنقه ، ثم تمدّد بهدوء وسكون كأنه طفل بينما راح الكاهن لاحقاً يمسح الشراب المهدور بقماشة .

أحس سايمون بكيانه كله يغلي . راح الدم يقرع ويقرع في عنقه تحت الأذنين ، وبدأ قلبه يدق على نحو غريب مضطرب . نهض للحظة وراح يحدق من الباب إلى الجسد الطويل الممدد تحت العباءة . راحت سورة الحمى تأتي وتذهب في موجات فوق وجه إرلند . كان هناك بعينين لامعتين نصف مفتوحتين ، إلاّ أنه ابتسم لعديله ، إنها ظل ابتسامته الصبيانية الغريبة .

•

في اليوم التالي ، وبينما كان ستيغ هاكونسون من ماندفيك جالساً إلى مائدة الإفطار مع ضيفيه ، سير إرلينغ فيدكونسون وابنه بيارن ، سُمع وقع حوافر جواد وحيد في الباحة . وفي اللحظة التالية فتح باب القاعة بقوة ، ودخل سايمون أندرسون بسرعة نحوهم . مسح وجهه بكمه وهو داخل... كان مغطى حتى العنق بالطين المتناثر خلال رحلته على ظهر الحصان .

نهض الرجال الثلاثة لاستقبال القادم ، مع صرخات صغيرة نصفها للترحيب ونصفها تعبيراً عن الدهشة . لم يرد سايمون على تحياتهم... وقف متكئاً على سيفه ، وكلتا يديه على مقبض السيف وقال :

"هل تريدون سماع نبأ غريب ؟ لقد أخذوا إرلند نيكولاوسون ومدّدوه على مخلعة... إنهم بعض الأجانب الذين أرسلهم الملك ليستجوبوه..."

صرخ الرجال وهم يلتفون من حول سايمون أندرسون . ضرب ستيغ يداً بأخرى :

"ما الذي قاله... ؟"

في اللحظة نفسها التفت هو وبيارن إرلينغسون ، كأنما دون وعي ، نحو السير إرلينغ . انفجر سايمون ضاحكاً... ضحك وضحك .

جلس في الكرسي الذي سحبه لأجله بيارن إرلينغسون ، وتناول كوب الجعة الذي عرضه عليه الشاب وشرب بشراهة .

سأل السير إرلينغ بصرامة : "لم تضحك ؟"

"ضحكت على ستيغ ." جلس قليلاً إلى الأمام ويداه تستريحان فوق فخذيه الموحلتين... ومع ذلك فقد اندفع يضحك مرة أخرى أو مرتين ضحكات صغيرة . "كنت أظن... أننا نحن أبناء النبلاء ، جميعنا هنا... كنت آمل أنكم ستغضبون لأن واحداً منا تعرض لمثل هذه المعاملة ، أنكم ستسألون أولاً كيف يمكن السماح بمثل هذه الأشياء...

"لا أستطيع أن أقول إني أعرف بدقة ما ينص عليه القانون في مثل هذه المسائل . منذ أن مات سيدنا الملك هاكون ، فقد كان كافياً بالنسبة لي أن أقدم خدماتي إلى من يأتي إلى عرشه حين ينادي بذلك ، في الحرب والسلام ، وخلاف ذلك أمكث بهدوء في أرضي . ولكني لا أستطيع أن أرى في هذه القضية ضد إرلند نيكولاوسون سوى التصرفات غير القانونية . لقد حققت جماعته في القضية وأصدرت حكماً فيها... لا أعرف كم كانوا محقين في إصدار حكم الإعدام عليه... ثم عرض عليه إرجاء تنفيذ حكم الإعدام ثم نقله على نحو آمن ليقابل الملك ، قريبه... وذلك حتى يكون متاحاً منح إرلند

العفو والمصالحة معه... ومنذ ذلك الحين والرجل قابع في برج قلعة أكرس وقد مرّ عليه قرابة العام ، والملك كان خارج البلاد طوال هذه الفترة... وقد تم تبادل بعض الخطابات ولم يتم الوصول إلى نتيجة . ثم يرسل بعض الأوغاد -أشخاص ليسوا بالنرويجيين ولا هم من حرس الملك- وهؤلاء يتجرأون على استجواب إرلند على ذلك النحو الذي لم أسمع أن نرويجياً من قبل يتمتع بحقوق رجال الحرس قد عومل بمثله... هذا بينما السلام مخيم على البلاد وأصدقاء إرلند وأقرباؤه مجتمعون في تونسبرغ لحضور زفاف الملك...

"ما رأيك بهذا يا سير إرلينغ ؟"

"أعتقد..." جلس إرلينغ على المقعد مقابله . "أعتقد أنك قد عرضت المسألة بوضوح وبساطة يا سايمون دار . لا أرى أن الملك يستطيع أن يفعل سوى واحد من ثلاثة : إما أن يدع إرلند يدفع العقوبة حسب الحكم الصادر في نيداروس... أو عليه أن يختار محكمة جديدة من رجال الحرس على أن يدعي على إرلند رجل لا يحمل لقب فارس ، وهؤلاء سيحكمون على إرلند على أنه خارج على القانون مع منحه الإرجاء حسب ما يسمح به القانون لفترة يستطيع معها أن يبعد نفسه عن الملك ماغنوس... أو عليه أن يمنح إرلند العفو للمصالحة معه . وهذا سيكون أكثر القرارات التي يستطيع أن يصدرها حكمة .

"تبدو لي هذه القضية الآن شديدة الوضوح حتى أن أي شخص ستعرضها عليه في تونسبرغ سيشاركك الرأي ويقف إلى جانبك . يون هافتورسون وأخوه هناك . إرلند قريبهما بالدرجة نفسها كما هو قريب الملك . كما أن على الأخوة أوغموندسون أن يروا أن هذا التصرف ظالم وأحمق . كان الأجدر بك أن تذهب أولاً إلى رئيس التشريفات وتطلب إليه هو والسير بال

إريكسون أن يدعوا إلى اجتماع لرجال الملك المحلفين الموجودين في البلدة وأن يأخذوا المسألة بين أيديهم وهذا أنسب الحلول..."

"ألن تذهب معي أنت وأقرباؤك يا سيدي ؟"

"لا نرغب بالذهاب إلى احتفال الزفاف" ، قال إرلينغ باختصار .

"أولاد هافتور صغار السن... والسير بال عجوز ومريض... والآخرون... أنت تعرف بنفسك يا سيدي... لا شك أن لديهم بعض النفوذ ، عبر رضى الملك وما شابه ، ولكن... يا إرلينغ فيدكونسون ، من هم بالمقارنة معك ؟ أنت يا سيدي لك من النفوذ في هذه البلاد ما ليس لأي زعيم آخر منذ... منذ زمن لا أعرف مقداره . من خلفك يا سيدي تقف الأسر العتيقة التي عرفها الناس في هذه البلاد رجلاً رجلاً ، إلى أن نعود إلى الوراء مع ما يحفظه السجل من الأزمان الرديئة والأزمان الجيدة في أريافنا هنا . من ناحية الأب... فما هو مولد ماغنوس آيريكسون أو أولاد هافتور أو سوردهايم بالمقارنة مع مولدك... هل ثرواتهم تستحق الذكر بالمقارنة مع ثرواتك ؟ هذه النصائح التي تسديها إليّ... كلها تستغرق وقتاً ، وهؤلاء الفرنسيون في أوسلو ، ويمكنك أن تراهن بروحك على أنهم لن يستسلموا بسهولة... لقد بعث أولاف كيرنينغ بخطابات إلى كل السادة الذين استطاع أن يجدهم لينضموا إليه ، وقد وعد الأسقف بأنه سيكتب خطابات... ولكن هذا الاضطراب والنزاع ، يا إرلينغ فيدكونسون ، تستطيع أنت وضع حد له ، في الساعة نفسها التي تقابل فيها الملك ماغنوس . أنت تقف على رأس ورثة أولئك الذين حكموا هذه الأرض في غابر الزمان... والملك يعرف أنك تريدنا جميعاً من خلفك" .

"لا أستطيع القول إلا بالكاد إني لاحظت كل هذا منذ بعض الوقت" .

قال إرلينغ بمرارة . أنت تتحدث بدفء دفاعاً عن عديلك يا سايمون –و لكن ألا تستطيع أن تفهم ؟ الآن لا أستطيع حراكاً . سيقال : في اللحظة نفسها التي مورس فيها الضغط الشديد على إرلند حتى ليخشى المرء ألاّ يكون قادراً على إبقاء لسانه بين أسنانه... في تلك اللحظة تدخلت أنا!"

ساد الصمت برهة . ثم سأل ستيغ ثانية :

"هل تكلم إرلند ؟"

أجاب سايمون نافذ الصبر : "لا . لقد أمسك عليه لسانه . وأعتقد أنه سيتابع ذلك يا إرلينغ فيدكونسون" ، قال بتوسل ." إنه قريبك... وكنتما صديقين..."

تنفس إرلينغ بأنفاس قصيرة ثقيلة مرة أو مرتين .

"أجل يا سايمون أندرسون . هل فهمت تماماً ما كان إرلند نيكولاوسون يخطط له ؟ أن يضع نهاية لهذه المشاركة للملك مع السويديين –هذا النوع من الحكم الذي لم يسبق أن جُرّب من قبل– وهي المشاركة التي تبدو وكأنها تجلب المزيد ثم المزيد من الصعوبات والمشاكل للبلاد مع كل سنة تمرّ ؛ وأن يعيدنا إلى الملكية التي عرفناها سابقاً والتي نعرف أنها تجلب الحرب والحظ الجيد . ألا ترى أن هذه نصيحة حكيمة وجريئة... وأن هذه النصيحة لا يمكن أن يتابعها أحد بعده ؟ لقد خرّب قضية أولاد كنوت بورس... ولا يوجد رجال آخرون من البيت الملكي يستطيع الناس التحلق من حولهم . قد تقول إنه لو نفذ إرلند نيته وجلب الأمير هاكون إلى النرويج ، لكان سيصبح تحت سيطرتي . ما كان هؤلاء الشبان الصغار بقادرين على القيام بما هو أكثر من جعل الصبي (الأمير) يهبط في النرويج... ما كانوا قادرين على الاستمرار بخططهم دون الرجال الحكماء

الذين كان عليهم التقدم وإنجاز ما تبقى عمله . هكذا هو الأمر... أتجرأ على الاعتراف بذلك . ومع ذلك فالرب يعرف أني لم أكسب شيئاً... أفضل بالأحرى أن أهتم بشؤوني الخاصة... في تلك السنوات العشر حين كنت أعيش في قلق وجهد وكفاح ومشاكل لا نهاية لها... لم يفهم سوى القليل من الرجال هذا ، وعليّ أن أقنع حتى بذلك ." ضرب بيده بقوة على المائدة . "ألا ترى يا سايمون أن الرجل الذي حمل على كاهله مثل هذه الخطط الهائلة التي لا يعرف أحد إن كانت مصلحتنا جميعاً في هذه البلاد ومصلحة أولادنا لأجيال قادمة تتوقف عليها... رمى بذلك كله عنه مع بنطاله على سرير عاهرة!... أقسم بدم الرب... ألن يكون جزاؤه عادلاً لو تلقى العقوبة التي نالها أودون هستاكورن ؟"

ثم تابع على نحو أكثر هدوءاً :

"و مع ذلك يسعدني إنقاذ إرلند . وإياك أن تصدق أني لم أغضب حين سمعت بالنبأ الذي أبلغتنا به . وأعتقد أنك لو اتبعت نصيحتي ، ستجد رجالاً بعدد كاف ينضمون إليك في هذه القضية . ولكني لا أعتقد أن رفقتي ستقدم المساعدة لك إلى حد أنه من أجلها سيكون عليّ أن أمثل أمام الملك دون دعوة منه ."

نهض سايمون ، متيبساً وثقيلاً . كان وجهه مضطرباً رمادي اللون من القلق . مضى ستيغ هاكونسون وأخذه من كتفيه... سيجلب بعض الطعام الآن . لقد انتظر حتى انتهى الحديث قبل السماح للخدم بالدخول . ولكن على سايمون الآن أن يقوي نفسه باللحم والشراب وينام ناسياً الموضوع . شكره سايمون... عليه أن يتابع سيره إن كان ستيغ قادراً على تزويده بحصان مرتاح . وهل له أن يمنح المأوى لخادمه "يون دالك" لهذه الليلة ؟... كان على

سايمون أن يترك الرجل خلفه على الطريق ، إذ لم يستطع حصانه مجاراة "ديغربابن" (السيقان الكبيرة) في العدو . أي ، لقد ركب معظم الليل -كان يظن أنه يعرف الطريق هناك جيداً- ومع ذلك فقد ضلّ مرة واحدة .

رجاه ستيغ البقاء حتى الغد ، وكان سيصطحبه -على الأقل لجزء من الطريق- أجل ، وقد يتابع معه حتى تونسبرغ أيضاً...

قال سايمون :

"لم يعد لديّ سبب يدعوني للبقاء ، سأذهب إلى الكنيسة... وحيث أني وصلت إلى هنا مرة أخرى ، فإني أودّ أن أصلي حيث يرقد جثمان هالفريد..."

اندفع الدم ورنّ في جسمه المتعب . راح قلبه يدق بعنف . كان الأمر أشبه بمن عليه أن يسقط ورأسه في المقدمة . كان كمن هو نصف مستيقظ . ولكنه سمع صوته يقول بهدوء وتوازن :

"ألن ترافقني يا سير إرلينغ ؟ أعرف أنها تعتبرك الأعز عليها بين كل أقربائها ."

لم ينظر إلى الرجل الآخر ، ولكنه أحس به يتصلب . وخلال وقت قصير سمع ، عبر اندفاع دمائه وغنائها ، صوت إرلينغ فيدكونسون الواضح والدمث :

"سأفعل ذلك عن طيب خاطر يا سايمون دار... الطقس عاصف" ، قال وهو يتزنر بسيفه ويرمي بعباءة ثقيلة من حول كتفيه . وقف سايمون ساكناً كصخرة حتى استعد الآخر . ثم خرجا .

في الخارج كان مطر الخريف يهطل بقوة ، وكان الضباب يندفع من

البحر إلى حد كثيف جداً حتى أنهما ما كانا قادرين إلاّ بالكاد أن يريا أكثر من أمتار قليلة عبر الحقول وأجمات الأشجار الصفراء المحيطة بالممر من كل جانب . لم يكن الطريق طويلاً إلى الكنيسة . أحضر سايمون المفتاح من منزل القس المجاور... كان سعيداً لأنه لاحظ أنهما شخصان جديدان ولذا سيوفران عليه كثيراً من الكلام .

كانت كنيسة حجرية صغيرة ذات مذبح واحد . ودون اهتمام شاهد سايمون مجدداً الصور والزينة نفسها التي رآها مئات المرات ، بينما كان راكعاً قرب الضريح الرخامي الأبيض بعيداً عن إرلينغ فيدكونسون بمسافة قصيرة ، وهو يتلو صلواته ، ويرسم إشارة الصليب على نفسه حيث كان ملائماً... دون أن يعرف ما كان يفعله .

لم يفهم هو نفسه أنه كان قادراً على محاولة هذا . ولكنه كان الآن في وسط المسألة . لم يكن يعرف ما يحكيه... ولكن لشدة مرضه من الرعب والعار ، كان يعرف أنه سيقوم بالمحاولة مهما كان الثمن .

تذكر وجه المرأة الأبيض المتألم الشائخ الغارق في عتمة السرير ، وصوتها الجميل الرقيق... في عصر ذلك اليوم حين جلس على حافة سريرها وحكت له . كان ذلك قبل شهر من ميلاد الطفل... وتوقّعت هي أن يكلفها حياتها... وكانت راغبة وسعيدة في أن تشتري ابنهما بذلك الثمن الغالي جداً . كانت المرأة المسكينة ترقد هنا تحت الصخرة الكبيرة في تابوت صغير إلى جوار أمها... لا ، لا يمكن لأي رجل أن يفعل ما كان ينوي هو فعله...

و لكن وجه كريستين الأبيض . كانت تعرف ما قد جرى حين عاد إلى البيت من أكرسنس في ذلك اليوم . كانت شاحبة وهادئة حين تحدثت عن

الأمر واستجوبته... ولكنه شاهد عينيها في لمحة قصيرة ، ولم يتجرأ على مواجهتها بعد ذلك . لم يكن يعرف أين كانت الآن أو ما قد فعلته... هل بقيت يا ترى في مكان سكنها أو هي مع زوجها ، أو هل استطاعوا إقناعها بالذهاب إلى سكوغهايم... لقد ترك الأمر بين يدي أولاف كيرنينغ وسيرا إنغولف... لم يعد قادراً على فعل المزيد ، وكان يعتقد أنه ليس عليه أن يخسر أي وقت...

لم يكن سايمون يعرف أنه أخفى وجهه بين يديه . هالفريد... لا عار ولا خطيئة في ذلك يا هالفريد العزيزة... ومع ذلك فما الذي قالته له هو زوجها... حكت عن أساها وحبها اللذين جعلاها تبقى تحت سقف الشيطان العجوز . لقد سبق له وقتل طفله تحت قلب أمه... وقد بقيت معه لأنها لن تغوي أعزّ أحبائها...

ركع إرلينغ فيدكونسون ووجهه عديم اللون واضح الملامح لا يبدي أي أمارة . رفع يديه إلى صدره وكفاه مضغوطتان معاً . بين الحين والآخر كان يرسم إشارة الصليب على نفسه بإشارة هادئة مرنة لبقة ، ثم يرفع بنانه معاً من جديد .

كلا ، فكر سايمون . كان هذا أمراً كريهاً لا يمكن لأي إنسان أن يفعله . ولا حتى لأجل كريستين يستطيع هو فعله... نهضا معاً ، وقدّما احترامهما للمذبح ، ثم هبطا نحو صحن الكنيسة . رنّ مهماز سايمون قليلاً عند كل خطوة كان يمشيها فوق الحجارة المرصوفة . وبما أنهما لم يتبادلا كلمة واحدة معاً منذ أن غادرا الضيعة ، لم يعرف سايمون إطلاقاً ما سيجري الآن .

أقفل باب الكنيسة . سار إرلينغ فيدكونسون عبر المقبرة . توقف تحت السقف الصغير للمدخل المسقوف . صعد سايمون ووقفا قليلاً تحت هذا الملجأ قبل أن يخرجا إلى المطر المنهمر .

تحدث إرلينغ فيدكونسون بهدوء وثبات ، ولكن سايمون أحس بالغضب الفاتر غير المحدود في داخل الرجل الآخر... لم يجرؤ على رفع نظره .

"باسم الشيطان يا سايمون أندرسون ، ما الذي قصدته من تدبيرك هذا ؟"

لم يستطع سايمون أن يجيب بكلمة واحدة .

"أتظن أنك تستطيع تهديدي... أن تجبرني على تنفيذ إرادتك... لأنك سمعت على الأرجح إشاعات كاذبة حول أمور حدثت حين لم تكن أنت قد فطمت عن ثدي أمك... ؟" صعد غضبه إلى السطح الآن .

هزّ سايمون رأسه :

"ظننت يا سيدي حين ذكرتها هي تلك الأفضل من الذهب الخالص... أنك قد تشفق ربما على زوجة إرلند وأولاده ."

نظر إليه سير إرلينغ... لم يجب ، بل بدأ يزيل الأشنات والطحالب عن حجارة جدار ساحة الكنيسة . ابتلع سايمون ريقه وبلّل شفتيه بلسانه :

"لا أعرف بالكاد ما كنت أفكر به يا إرلينغ فيدكونسون... ربما حين تذكرتها تلك التي عانت من كل تلك السنوات الشريرة... دون أي سلوان أو عون سوى من الرب وحده... عندها فحسب فإنك ستساعد هؤلاء المساكين... فأنت تستطيع ذلك!... بما أنك لم تستطع أن تساعدها هي . لو كنت قد ندمت في أي حين أنك ركبت مبتعداً عن ماندفيك في ذلك اليوم وتركت هالفريد تبقى وراءك تحت سيطرة السير فين..."

"و لكني لم أفعل ذلك!" كان صوت إرلينغ ثاقباً الآن . "لأني أعرف أنها

لم تفعل قط... ولكن أعتقد أنك لا تفهم ذلك . فلو أنك فهمت لساعة واحدة كم كانت فخورة بنفسها تلك السيدة التي تزوجتها" -ضحك في غضبه- "عندها لما كنتَ فعلتَ هذا . لا أعرف كم تعرف ، ولكن يمكنك أن تعرف هذا . لقد أرسلوني -إذ كان هاكون مريضاً في الفراش حينها- لإحضارها إلى بيت ذويها . كانت إلين وهي قد ترعرعتا معاً كأختين... كانا متقاربتين في السن رغم أن إلين كانت عمتها... وقد جرت الأمور على نحو جعلتنا نتقابل كل يوم وكل ساعة . كنا نجلس ونتحادث ، عبر الليل كله ، على شرفة "بيت التنين" وكل كلمة كنا نقولها هي وأنا أستطيع أن أتحمل مسؤوليتها أمام الرب يوم القيامة . ثم فليكن الرب من يجيب عنا ولماذا فعلنا ما فعلناه ..."

"رغم أن الرب كافأها على ورعها في النهاية . لقد منحها زوجاً جيداً ليواسيها بدلاً عن الزوج السابق -صبي حقير مثلك- كان يعاشر خادماتها في بيتها- وكان عليها أن تربي أنغالك..." رمى بعيداً بكرة الطحالب التي جمعها معاً .

وقف سايمون دون حراك أو كلام . قشر إرلينغ رقاقة من الطحالب مجدداً ورمى بها بعيداً :

"لقد فعلت ما أمرتني به هي . هل سمعت ما فيه الكفاية ؟ لم تكن هناك وسيلة أخرى . أين كان يمكن لنا أن نتقابل في هذا العالم... لقد مارسنا... (الزنا) ليست بالكلمة العادلة... (غشيان المحارم) كلمة أبشع منها حتى..."

حرك سايمون رأسه بإيماءة صغيرة متصلبة .

لقد أحس بذلك هو نفسه... كان أمراً مثيراً للضحك أن يقول ما كان يفكر فيه . كان إرلينغ فيدكونسون رجلاً في العشرينات ، دمثاً وشهماً .

وقد أحبته هالفريد كثيراً حتى أنها كانت تسعد بتقبيل آثار قدميه على العشب الرطب في الساحة في صباح ذلك اليوم الربيعي . كان هو مزارعاً كهلاً وضخماً وقبيحاً... وكريستين ؟ ما كانت لتفكر قط بأنه سيكون هناك خطر على روح أي منهما ، لو عاشا تحت سقف واحد مدة عشرين سنة . لا شك أنه قد تعلم كيف يفهم ذلك جيداً...

لذلك قال بصوت خفيض ، وبتواضع تقريباً :

"لم تكن لديها المقدرة على جعل الطفلة البريئة تعاني ، رغم أنها كانت طفلة خادمتها التي أنجبتها بالذات ، من الظلم في هذه الدنيا . هي التي رجتني أن أفعل الصواب والعدل بقدر ما أستطيع . أوه يا إرلينغ فيدكونسون... لأجل زوجة إرلند المسكينة البريئة... ستحزن حتى الموت . أعتقد أني لا أستطيع أن أترك حجراً واحداً دون أن أقلبه بحثاً عن المساعدة لها وكل أطفالها...

وقف إرلينغ فيدكونسون متكئاً على عمود الباب . كان وجهه هادئاً كعادته ، وصوته بارداً ودمثاً ، حين تكلم مجدداً :

"لقد أحببتها جيداً ، كريستين لافرانسداتر ، رغم قلة مشاهدتي لها -إنها امرأة جميلة وجليلة- وقد سبق أن قلت لك يا سايمون أندرسون إني أعتقد جازماً أنك ستجد العون لو اتبعت نصيحتي . ولكني لا أفهم تماماً ما تعنيه بهذه الحيلة الغريبة . لا يمكنك بكل تأكيد أن تظن أنه بسبب اضطراري إلى جعل عمي يحكم في مسألة زواجي ، حيث كنت لا أزال دون سن الرشد ، ولأن الفتاة التي أحببتُ أكثر من الجميع كانت مخطوبة لشاب آخر حين تقابلنا لأول مرة... ولا أعتقد أن زوجة إرلند بريئة جداً كما تقول . أجل ، أنت متزوج من أختها ، أعرف ذلك . ولكن كنت أنت وليس أنا من

تسبب في هذا الحوار الغريب... ولذلك عليك أن تتحمل ذكري للأمور بأسمائها . أتذكر أنه كان هناك الكثير من اللغو حول الأمر ، حين تزوجها إرلند... لقد تمت الصفقة رغماً عن رأي لافرانس بيورغولفسون وإرادته . ولكن الفتاة فكرت في تنفيذ مشيئتها أكثر مما فكرت في إطاعة والدها أو حماية شرفها . أجل ، قد تكون زوجة صالحة على أي حال... ولكنها حصلت على إرلند أخيراً ، وقد عرفا دون شك الكثير من الفرح والمرح . أعتقد أن لافرانس لم يكن شديد السعادة بذلك الصهر... إذ كان قد اختار رجلاً آخر لابنته قبل أن تتعرف على إرلند... كانت مخطوبة كما أعرف..." . توقف عن الكلام ونظر إلى سايمون برهة ، والتفت برأسه جانباً في بعض الاضطراب .

احمر وجه سايمون من العار ، فأحنى رأسه على صدره ، ولكنه تكلم على أي حال بصوت خفيض إنما ثابت :

"أجل كانت مخطوبة لي ."

وقفا لبرهة دون أن يجرؤا على تبادل النظرات . ثم رمى إرلينغ فيدكونسون بآخر كرة من الطحالب جمّعها ، والتفت وخرج إلى المطر الهاطل . تُرك سايمون واقفاً لوحده... ولكن حين كان الرجل الآخر قد ابتعد ضمن الضباب ، توقف وأشار إليه نافذ الصبر .

ثم عادا معاً ، بصمت كما جاءا . وحين كادا يصلان إلى المنزل ، قال السير إرلينغ :

"سأفعلها يا سايمون أندرسون . عليك الانتظار حتى الغد ، ثم سنركب معاً ، نحن الأربعة جميعاً ."

رفع سايمون نظره إلى الآخر... بوجه متغيّر من الألم والعار . كان سيشكره ولكنه لم يستطع . كان عليه أن يعض على شفته بقوة ، وكان فكه السفلي يرتجف بعنف شديد .

و بينما راحا يعبران باب القاعة ، لمس إرلينغ فيدكونسون كتف سايمون ، كأنما صدفة . ولكن كان كل منهما يعرف أنه ليس قادراً على النظر في عيني الآخر .

في اليوم التالي ، حين كانا يستعدان للرحلة ، ضغط ستيغ هاكونسون على سايمون ليسمح له بإعارته بعض الملابس... لم يكن سايمون قد جلب أي غيار معه . نظر سايمون إلى نفسه... كان خادمه قد مسح ونظف ملابسه ، ولكنها كانت في حال سيئة من رحلة الركوب الطويلة عبر الطقس الرديء . ولكنه ضرب على فخذيه وقال :

"أنا سمين جداً يا ستيغ... ولن أذهب إلى هناك كضيف في الاحتفال ."

وقف إرلينغ فيدكونسون بقدم واحدة فوق المقعد ، بينما راح ابنه يثبت له مهمازه المطلي بالذهب... بدا كأن السير إرلينغ كان يحاول إبقاء خدمه بعيدين اليوم قدر الإمكان . ضحك الفارس بأسلوب يدل على الغضب العجيب :

"لن يكون هناك ضرر كما أعتقد لو بدا على سايمون دار أنه لم يدخر جهداً في خدمة نسيبه ، ولكنه انفجر لدى وصوله من الطرقات العامة بخطابه الجريء والدقيق . ليس هو بالشخص الأخرق معقود اللسان هذا الذي كان نسيباً لنا في يوم من الأيام يا ستيغ . هناك أمر واحد أخشاه... ألاّ يعرف متى يكون عليه أن يتوقف..."

وقف سايمون هناك وقد تضرج وجهه بحمرة قانية . لقد لاحظ في كل ما قاله له إرلينغ فيدكونسون منذ اليوم السابق وجود سخرية حاقدة وشفقة غريبة غير مقصودة... وإرادة مصممة على حل هذه المشكلة... بعد أن قرر الخوض فيها نهائيا .

و هكذا انطلقوا معاً شمالاً منماندفيك ، سير إرلينغ وابنه وستيغ ، مع عشرة من الأتباع المسلحين في ملابس جميلة . فكر سايمون مع تابعه الوحيد أنه كان عليه أن يختار القدوم إلى الاجتماع بخدم أكثر وبتجهيزات كافية... لم يكن سايمون دار أوف فورمو مضطراً للركوب مع أنسبائه السابقين في زي مالك أرض صغير راح يطلب نجدتهم وهو في حال من اليأس . ولكنه لم يأبه كثيراً بكل ذلك . كان مرهقاً ومحطماً جداً بسبب ما مرّ به في اليوم السابق ، حتى بدا له تقريباً الآن أنه لم يعد يهتم بنتيجة الرحلة مهما كانت .

•

كان سايمون يؤكد دائماً أنه لا يثق في الإشاعات القبيحة حول الملك ماغنوس . لم يكن قديساً إلى ذلك الحد حتى يسمح لدعابة كبيرة بين الرجال الراشدين أن تنطلي عليه . ولكن حين كان الناس يتهامسون ويتذمرون وهم يرتعدون من الخطايا السوداء والسرية ، كان يشعر بالقلق والاضطراب . وقد بدا له أمراً غير لائق أن يصدق أو يصغي إلى أي من هذه الأشياء التي تقال عن الملك الذي يعتبر هو واحداً من رجاله المحلّفين .

و مع ذلك فقد امتلأ بالعجب حين وقف أمام الملك الشاب . لم يكن قد شاهد ماغنوس آيريكسون منذ أن كان هذا الملك طفلاً ، ورغم عدم تصديقه ، فقد تطلع إلى أن يجد شيئاً أنثوياً ، شيئاً ما فاسداً فيه... ولكن هاهو أمامه واحد لم تر عيناه مثيلاً له من قبل في الوسامة والتمايز... لقد بدا رجولياً وملكياً أيضاً ، رغم شبابه ورهافته الرقيقة .

كان يرتدي ثوباً طويلاً ذا لون أزرق فاتح منقطاً باللون الأخضر ،

ينسدل حتى قدميه ، وقد طوق خصره النحيل بحزام مذهب ، كما كان يتحرك برشاقة مفرطة محركاً جسده الطويل النحيل في ثوبه الثقيل . كان للملك ماغنوس شعر فاتح ينسدل بنعومة على رأسه الوسيم ، إلا أنه كان مجعداً على نحو جميل عند النهايات ، حتى لبدا أنه يخفق ويتماوج من حول عنقه العريض المستقيم . كانت ملامحه دقيقة جريئة التقاطيع ، ولون بشرته نضراً ؛ له خدان أحمران وقد لفحته الشمس . كانت عيناه صافيتين ونظرته صريحة . كان يتحرك بحرية وبلطف يكسب القلوب وهو يحيّي رجاله المخلصين . ثم وضع يده بعد فترة على كم إرلينغ فيدكونسون وجره بضع خطوات بعيداً عن الآخرين ، بينما راح يشكره على قدومه .

تحادثا معاً بعض الوقت ، وأبلغه السير إرلينغ أن هناك مسألة خاصة يطمع فيها برحمة الملك وكرمه . ثم وضع الحجاب الملكيون كرسياً للفارس أمام عرش الملك ، وقادوا الرجال الثلاثة الآخرين إلى أماكن أبعد قليلاً ضمن القاعة ثم خرجوا .

و بدون جهد بدا سايمون وكأنه وجد مجدداً السلوك اللائق والدمث الذي تعلمه في شبابه ، وبما أنه كان قد خضع للضغط واستعار من ستيغ رداء بنياً طويلاً فخماً ، فقد بدا من حيث المظهر الخارجي غير مختلف عن أي من الرجال الآخرين . ولكنه حين جلس هناك أحس وكأنه كان وسط حلم... كان ولم يكن سايمون دار نفسه ، الابن سريع البديهة والدمث لفارس نبيل ، حمل المنديل والشمعة أمام الملك هاكون في قصر أوسلو في حكاية دون نهاية قبل سنين مضت... كان ولم يكن سايمون ، المرشح لرتبة فارس فورمو ، والذي عاش حياة الحرية والمرح بعيداً في الشمال في "ديل" خلال هذه السنوات كلها... متحرراً من القلق نوعاً ما ، رغم أنه عرف طوال حياته

أنه تقبع في داخله جمرة متوقدة... ولكنه التفت بأفكاره بعيداً عن ذلك . كانت نكتة مملة وخطرة عن التمرد قد برزت في الرجل... كانت خطيئة أو خطأ مرغوباً فيه من قبله وكان يعرفه ، ولكن القدر هو الذي نفخ على الجمرات حتى اشتعلت ، ولذلك عليه أن يناضل وألا يقوم بأي إشارة خلال الشّي فوق نار بطيئة .

نهض حين فعل الآخرون جميعاً ذلك... فقد كان الملك ماغنوس نهض :

وصل صوته الشاب النضر : "أقربائي الأعزاء ، أعتقد أن المسألة وما فيها هي أن «الأمير» هو أخي ، ولكننا لم نحاول قط أن نحمي البلاط معاً بحرس مشترك... والرجال لا يستطيعون هم أنفسهم خدمتنا معاً نحن الاثنين . ولا يبدو أن إرلند قد قصد أن تستمر الأمور على هذا النحو... حتى أنه بقي في منصب حاكم لمدة من الزمن في خدمتي ، بينما كان في الوقت نفسه قد أقسم يمين الإخلاص لهاكون . ولكن من يرغب من رجالي باتباع أخي هاكون يحق له أن يحصل على الإذن للانصراف عن خدمتي وله مطلق الحرية في الالتحاق به في بيته . ومن هم هؤلاء... هذا ما أريد أن أعرفه من فم إرلند ."

"إذاً عليك يا سيدي الملك أن تحاول الوصول إلى اتفاق مع إرلند نيكولاوسون فيما يخص هذه المسألة . عليك أن تحافظ على عهدك بأن تؤمن له سلامة الوصول وأن تمنح قريبك فرصة للقائك..."

"أجل ، هو قريبي وقريبك ، وقد طلب مني السير إيفار أن أمنحه عهداً بسلامة الوصول... ولكنه لم يحافظ على قسمه الذي أقسمه لي ، ولم يتذكر القرابة التي بيننا" . ضحك الملك ماغنوس قليلاً ثم وضع يده مجدداً على ذراع إرلينغ . "يبدو أقربائي مخلصين للقول المأثور السائد لدينا في هذه

البلاد : «لا أظلم من القريب» . والآن أريد بملء إرادتي أن أعبر عن كرمي لقريبي إرلند أوف هوسابي لأجل خاطر الرب ومريم العذراء ، ولأجل خاطر سيدتي . سأمنحه حياته وأملاكه والإذن بالإقامة هنا إن كان سيصالحني... والإذن الشرعي لنزوحه عن أراضيّ ، إن كان يريد الالتحاق بسيده الجديد الأمير هاكون . وهذا السماح نفسه سأمنحه لكل رجل يريد الإخلاص له... ولكني أريد أن أعرف من هم هؤلاء الرجال وأي من رجالي الذين يقطنون في هذه البلاد ولا يخدمون سيدهم بإخلاص . ما رأيك يا سايمون أندرسون ؟... أعرف أن أباك كان التابع الأمين لجدي وأنك خدمت الملك هاكون بشرف... ألا تعتقد أن لي الحق في تقصّي هذه المسألة ؟"

"أعتقد يا سيدي الملك"... تقدم سايمون نحو الأمام وقدم فروض الطاعة مجدداً... "أنه طالما كان سموكم هو الحاكم حسب قانون وعادات هذه البلاد وبرحمة ، فلن تعلموا قط من هم الرجال الذين خططوا للجوء إلى تصرفات غير قانونية وللخيانة . فحالما يرى شعب هذه البلاد أن سموك سيتشبث بالحق والعدل اللذين وضع لهما الأسس آباؤك وأجدادك ، فلا شك أنه ما من رجل في هذه المملكة سيفكر في تعكير صفو السلام . وأولئك سيبقون صامتين وسيفكرون مجدداً ، بعد أن استصعبوا قيامكم بحكم مملكتين كبيرتين رغم شبابكم يا سيدي وذلك بكل حكمة وقوة ."

تدخّل إرلينغ فيدكونسون : "الأمر هكذا يا سيدي الملك . ليس في هذه البلاد من فكر في إنكار حق الطاعة عليك في أي شيء تحكم به بالحق..."

"أ لم يفعلوا ؟ إذاً أ تظن ربما أن إرلند ليس مذنباً بجرم العصيان والخيانة... إذا ما تمحصنا في الأمر على نحو أوثق ؟"

بدا السير إرلينغ مضطرباً لبرهة وهو يبحث عن جواب فاستلم سايمون الكلام :

"أنت يا سيدي مولانا... ويتطلع إليك كل شخص لتعاقب من يخرق القانون حسب القانون . ولكنك لو اتبعت مسار إرلند نيكولاوسون ، فإنه على الرجال الذين تريد أسماءهم بكل هذه الحدة أن يتقدموا هم ويعلنوا أسماءهم عالياً ، أو أن أشخاصاً آخرين قد يبدؤون بالتأمل حول حقوق وأخطاء هذه القضية... فالكثير من الكلام سيجري لو أن سموكم تصرفتم في هذه المسألة - على النحو الذي تهددون به - مع رجل مشهور جداً ونبيل المحتد شأن إرلند نيكولاوسون ."

"ما الذي تعنيه يا سايمون أندرسون ؟" قال الملك بحدة... تضرج وجهه وهو يتكلم .

تدخّل بيارن إرلينغسون قائلاً : "سايمون يعني أن يقول إنه سيضر بسموكم لو أن الناس ستبدأ بالتساؤل حول السبب في أن يعاني إرلند من مثل هذا التشويه لسمعته مع أن القانون يضمن للجميع حماية من ذلك ، باستثناء اللصوص والجبناء[١٨] . وقد يحدث عند ذاك أن يفكروا في أحفاد الملك هاكون الآخرين..."

التفت إرلينغ فيدكونسون بحدة نحو ابنه -بدا غاضباً- ولكن الملك سأل بلهجة جافة فحسب :

"ألا تعتبر الخونة والمتمردين جبناء ؟"

أجاب بيارن : "لا أحد يدعوهم على هذا النحو يا سيدي إن كانت خططهم تلاقي النجاح ."

وقف الجميع صامتين برهة . ثم تكلم إرلينغ فيدكونسون :

"مهما لقبنا إرلند يا سيدي ، إلا أنه لا ينبغي لكم أن تتجاوزوا القانون لتنالوا منه..."

"إذاً فليُعدَّل القانون في هذا الخصوص" ، قال الملك بقوة . "إن كانت الحال على ما هي عليه ولا أتمتع بالسلطة التي تخولني معرفة كيف يريد الناس أن يبقوا على ولائهم لي..."

قال السير إرلينغ بعناد : "و لكنكم لا تستطيعون العمل بقانون معدّل قبل تعديله ، وذلك دون اضطهاد شعب البلاد... والشعب يجد دائماً صعوبة في التعود على ظلم الملوك ."

"لدي فرساني ورجالي المحلفون ليدعموني" ، أجاب ماغنوس آيريكسون بضحكة صبيانية . "ما رأيك يا سايمون ؟"

" أقول يا سيدي... قد يبرهن هذا جيداً على أن ذلك ليس بالدعم المضمون... وذلك إذا كنا سنحكم وفقاً للمقياس الذي عامل به فرسان ونبلاء الدانمارك والسويد ملوكهم حين كان العامة دون قدرة على دعم السلطة الملكية ضدهم . ولو أن سموك مصمم على هذه الآراء ، إذاً سأطلب منك أن تحلّني من واجب خدمتك... لأني عندها سأكون مع العامة ."

كان سايمون قد تحدث بهدوء وجدية حتى بدا وكأن الملك لم يفهم ما عناه أولاً . ثم ضحك .

"أهذا تهديد يا سايمون أندرسون ؟... هل تريد أن ترمي قفازك في وجهي ؟"

"سيكون هكذا حسب ما تريد يا سيدي" ، قال سايمون ببساطة كما من قبل ، ولكنه أخرج قفازيه من حزامه وحملهما بيده . ثم انحنى بيارن الشاب إلى الأمام وتناولهما :

"ليست هذه قفازات زفاف ملائمة تشتريها سموك!" رفع بالقفازين

السميكين المهترئين الخاصين بالركوب في الهواء وضحك . "إذا ما تبين يا سيدي أنك تريد مثل هذه القفازات ، لكنت ستحصل على عروض كثيرة منها... وكلها رخيصة ."

ندت صرخة عن إرلينغ فيدكونسون . وبحركة حادة بدا أنه يريد أن يزيح الملك الشاب إلى جانب ، والرجال الثلاثة إلى الآخر . ثم قاد الرجال نحو باب القاعة :

"عليَّ أن أكلم الملك على انفراد" .

"لا ، لا! سأكلم بيارن!" صاح الملك وهو يلحق بهم . ولكن السير إرلينغ دفع بابنه خارجاً مع الآخرين .

تسكعوا في ساحة القلعة بعض الوقت ثم نحو التلة التي في الخارج... لم ينطق أحد منهم بكلمة... بدا ستيغ هاكونسون في حالة شك ، ولكنه أمسك لسانه كما فعل حتى الآن . راح بيارن إرلينغسون يتجول طوال الوقت بابتسامة صغيرة مخفية . بعد فترة من الوقت خرج حامل سلاح السير إرلينغ وطلب إليهم بناء على أوامر سيده أن ينتظروه في مكان إقامتهم... كانت جيادهم في ساحة القلعة .

جلسوا لاحقاً في النزل . كانوا يخجلون من الكلام عما حدث للتو... وأخيراً بدأوا يتحدثون عن الجياد وكلاب الصيد والصقور . وفي النهاية سهر ستيغ وسايمون إلى وقت متأخر من الليل يرويان حكايات عن النساء . كان لدى ستيغ هاكونسون على الدوام ذخيرة غنية من مثل هذه الحكايات ، ولكن بالنسبة إلى سايمون كان أسوأ ما في الأمر أن معظم هذه الحكايات التي تذكرها بدأ ستيغ مباشرة بسردها وكانت دائماً تدور عن حدث جرى له أو جرى مؤخراً في مكان ما قرب ماندفيك... حتى لو تذكر سايمون أنه سمع الحكاية في صباه من خدم المنزل في بيته في دايفرين .

و لكنه ضحك من كل قلبه كما فعل ستيغ . بين الحين والآخر كان الأمر أشبه بأن المقعد قد اهتز تحته وهو جالس هناك... كان يخشى من شيء ما ، ولكنه لم يتجرأ على التفكير فيما كان ذلك . ضحك بيارن إرلينغسون بهدوء ، وشرب النبيذ وقضم التفاح وعبث بقلنسوة عباءته ، وراح يحكي بين الحين والآخر نتفاً من حكاية... كانت هذه أسوأها كافة ، ولكنها كانت مخفية على نحو ماكر حتى أن ستيغ لم يفهمها . كان بيارن قد سمعها من كاهن في بيورغفين ، كما قال .

و أخيراً وصل إرلينغ . ذهب ابنه ليقابله ويأخذ منه ملابسه الخارجية . التفت إرلينغ بغضب إلى الشاب .

"أنت!" رمى بعباءته إلى يدي الشاب... ثم ارتسم على وجهه بسرعة ، كأنما دون إرادته ، ظل ابتسامة . التفت إلى سايمون :

"أجل... الآن عليك أن تكون سعيداً يا سايمون أندرسون! لا أشك أبداً في أنك تستطيع الآن أن تجلس في سلام وراحة مع ضيعك المجاورة -أنت وإرلند- وزوجته وكل أبنائه ."

كان سايمون قد شحب قليلاً حين نهض وشكر السير إرلينغ... لقد عرف الآن ما هو الخوف حتى أنه لم يجرؤ على النظر في وجهه . ولكن لم يكن هناك الآن مخرج آخر .

•

بعد أربعة عشر يوماً من ذلك ، أطلق سراح إرلند نيكولاوسون . ركب سايمون واثنان من رجاله وأولف هالدورسون إلى أكرسنس وأحضروه .

كانت الأشجار عارية تقريباً الآن ، فقد كانت الريح عصفت بقوة في الأسبوع الذي انقضى . كان جليد أسود قد حل الآن... والأرض ترن قاسية تحت حوافر الجياد ، والحقول شاحبة من الجليد ، وهم على جيادهم في طريقهم إلى البلدة . بدا وكأن الثلج كان قادماً... فالسماء كانت مليئة بالغيوم ونور النهار كان كئيباً ورمادياً قارساً .

لاحظ سايمون أن إرلند كان يجرّ إحدى قدميه قليلاً ، وهو يخرج إلى ساحة القلعة ، وبدا وكأنه متصلب الجسم ويجد صعوبة في امتطاء الحصان . كان شديد الشحوب أيضاً, أما لحيته فكانت قد حلقت وقص شعره وجعل مرتباً... أما القسم العلوي من وجهه فكان أصفر اللون باهتاً ، وإلى الأسفل فإن ازرقاق اللحية المحلوقة كان بارزاً بالمقارنة مع الوجنتين البيضاوين والذقن الأبيض . كانت هناك تجاويف تحت عينيه . ولكن شكله كان جليلاً في ثوبه الطويل الأزرق الداكن وعباءته ، وحين ودع أولاف كيرنينغ ووزع النقود على الرجال الذين كانوا يحرسونه ويجلبون له الطعام في السجن ، فقد تصرف كزعيم يودع جماعة بيته في احتفال زفاف .

في البداية ، وبينما كانوا في طريقهم ، بدا عليه أنه يشعر بالبرد . لقد ارتجف أكثر من مرة . ثم برز بعض اللون في وجنتيه... أضاء وجهه... كأنما كان النسغ والحياة ينبعان فيه . فكر سايمون : ليس سهلاً كسر إرادة إرلند كما هو ليس بالسهل كسر غصن السنديان .

وصلوا إلى النزل وكانت كريستين قد خرجت للقاء زوجها في الباحة . حاول سايمون ألا ينظر إليهما ، ولكنه لم يستطع .

أمسك كل منهما بيدي الآخر وتبادلا بعض الكلمات بلهجة هادئة واضحة . لقد استطاعا أن ينجزا هذا اللقاء تحت أبصار كل الناس في المنزل

على نحو جميل ولائق . ولكن كلاهما تضرج وجهه ، ونظر إلى الآخر برهة ، ثم أسدل كلاهما عينيه . ثم عرض إرلند يده مجدداً على زوجته وذهبا معاً نحو غرفة العلية حيث كانا سينزلان بينما هما في المدينة .

التفت سايمون نحو الغرفة التي كان هو وكريستين ينزلان فيها حتى الآن . ثم التفتت كريستين عند الدرجة السفلى من السلم ونادته بصوت رنان رائع :

"ألن تأتي يا زوج أختي ؟..اجلب بعض الطعام أولاً... وأنت يا أولف!"

بدت شابة ولدنة جداً وهي واقفة هناك ، والتفتت قليلاً من عند وركيها ونظرت من فوق كتفها . ما أن وصلت إلى أوسلو حتى بدأت تربط غطاء رأسها بأسلوب آخر . هنا في الجنوب كانت زوجات المزارعين الصغار هن فحسب اللواتي يرتدين غطاء الرأس الكتاني بأسلوب الأيام الغابرة الذي اعتادت عليه منذ أن تزوجت . كان يُشد من حول الوجه كما تفعل الراهبة ، والأطراف تعقد فوق الكتفين حتى لا يكون العنق ظاهراً ، مع كثير من الطيات على الجوانب وفوق عقدة الشعر عند مؤخر الرأس . في تروندهايم كان يعتبر رمزاً للورع أن يوضع غطاء الرأس على هذا النحو ، والذي كان الأسقف آيليف يمتدحه باستمرار على أنه الأسلوب الأكثر ملاءمة وتواضعاً للنساء المتزوجات . ولكن حتى لا يكون ملحوظاً جداً ، فقد راحت الآن تستخدم الأسلوب الشائع في المناطق الجنوبية : فالقماش الكتاني كان يوضع فوق قمة الرأس ثم يترك لينسدل إلى الخلف ، حتى يكون الشعر الأمامي ظاهراً للعيان ، والعنق والكتفان غير مستورين... ثم كان الأمر الصحيح هو ترك الضفائر معقودة حتى لا تظهر تحت حافة غطاء الرأس ، بينما كان القماش الكتاني ملتزاً من الأعلى مما يبدي شكل الرأس . صحيح أن سايمون كان

قد شاهد هذا سابقاً واعتبره ملائماً لها... ولكنه لم يكن قد رأى من قبل كم كانت تبدو شابة على ذلك النحو . وكانت عيناها تتلألآن الآن كنجمتين .

•

في وقت لاحق من النهار وصل الكثير من الناس لتحية إرلند... كيتيل من سكوغ وماركوس تورغايرسون ، ولاحقاً في المساء أولاف كيرنينغ نفسه ، وكذلك سيرا انغولف والكاهن غوتورم ، وهو كاهن من كنيسة القديس هالفارد . حين وصل الكاهنان ، كان الثلج قد بدأ بالهطول -رذاذاً خفيفاً ذا حبيبات صغيرة جافة- وقد أخطأا الممر ودخلا بين نباتات شوك الأرقطيون... كانت ملابسهما مليئة بالأشواك . وبدأ الجميع بالعمل على نزع الأشواك عن الكاهنين وأتباعهما -قام إرلند وكريستين بنزع الأشواك عن الكاهن غوتورم- بين الحين والآخر كان وجهاهما يتضرجان ، ويبدو صوتاهما مضطربين على نحو غريب وهما يمازحان الكاهن ويضحكان .

شرب سايمون كثيراً في الجزء الأول من السهرة . ولكنه لم يصب بالدوار من الشراب... بل أصبح يشعر بثقل في جسده . سمع كل كلمة كانت تقال بحدة غير طبيعية . وسرعان ما أصبح الآخرون ينطقون بحرية... لم يكن أي منهم صديقاً للملك .

كان يحس بالانزعاج من الموضوع كله الآن بعد أن انتهى . كانوا يهذرون بحماقة وهم جالسون هناك... بأصوات مرتفعة وحماسية . كان كتيل اسموندسون شخصاً بسيط العقل نوعاً ما ، كما لم يكن زوج أخته ماركوس بالحكيم إلى ذلك الحد . أما أولاف كيرنينغ فكان شخصاً عاقلاً قويم الرأي... كما لم يبد الكاهنان لسايمون صاحبي ذهن صاف . لقد جلسوا هناك جميعاً

وراحوا يصغون لإرلند ويؤيدون كلامه ، وكان يعود أكثر فأكثر إلى نفسه ، عنيفاً وطائشاً . لقد أخذ يد كريستين الآن ووضعها فوق ركبته ، وجلس وهو يلعب بأصابعها... كانا يجلسان وكتفاهما متلاصقان . والآن كان تضرج الدم العميق يظهر واضحاً على بشرتها ؛ ما كانت قادرة على رفع عينيها عنه... وحين كان يضع ذراعيه من حول خصرها ، كان فمها يرتجف ، حتى أنها كانت تبذل جهداً كبيراً لتبقي شفتيها مغلقتين...

ثم فتح الباب ودخل مونان باردسون .

"أخيراً وصل الدب الكبير بنفسه!" صرخ إرلند ضاحكاً وقفز ليحيّيه .

"فليكن الرب ومريم العذراء في عوننا... أعتقد أنك لا تهتم البتة يا إرلند" ، قال مونان غاضباً .

"أجل ، أ تظن إذن أن التذمر والأسى لا يفيد يا قريبي ؟"

"لم أر شبيهاً لك... لقد رميت بعيداً بكل مصالحك..."

"أجل... فأنا لم أكن ذلك النوع الذي يذهب إلى الجحيم دون بنطال حتى أنقذ بنطالي من الاحتراق" ، قال إرلند وضحكت كريستين برقة وتشوش .

تمدد سايمون فوق المائدة ورأسه بين ذراعيه . لو أنهم يحسبونه ثملاً جداً حتى أنه نام!... كان راغباً في أن يُترك في سلام .

لم يكن هناك ما هو مخالف لتوقعاته... أو ما كان يجب أن يبدو مخالفاً لتوقعاته على الأقل . لا شيء... ولا حتى هي . هاهي تجلس هنا ، المرأة الوحيدة بين كل هؤلاء الرجال... رقيقة وخجولة ومطمئنة وآمنة كما كانت دائماً . حتى لو كانت في زمن آخر –حين خانته– عديمة الخجل أو بريئة ، لم يعرف أيهما . أوه ، كلا ، لم يكن الأمر هكذا أيضاً . لم تكن شديدة

الإحساس بالأمان ، لم تكن عديمة الخجل -خلف هدوء مظهرها لم تكن هادئة... ولكن ذلك الرجل قد سحرها- لأجل إرلند فإنها مستعدة أن تطأ الجمر بسعادة- وقد وطأت فوقه وكأنها لا تعرف إلا أنه مجرد حجر بارد .

أوه ، كل هذا كان حماقة... كان ذهنها مصمماً على تنفيذ ما تريده ، ولم يكن يهمها أي شيء آخر . فليتمتعوا بفرحهم ، فهو لا يهتم قط . وما الذي يهمه لو رزقا بسبعة أبناء آخرين ، حتى يكون هناك أربعة عشر ولداً يتوازعون نصف إرث لافرانس بيورغولفسون ؟ لم يبد كأنه سيحتاج إلى أن يكون حريصاً وقلقاً على أولاده... لم تكن رامبورغ سريعة الإنجاب مثل أختها... ولكنه سيترك لأولاده وأولادهم في الوقت الملائم الثروات والسلطة ، ولكن كان الأمر بالنسبة إليه سيان هذه الليلة . كان يتمنى لو شرب أكثر... ولكنه كان يعرف أن هدايا الرب الليلة لن تفرحه... وثم سيكون قد رفع رأسه وربما سيشارك في الحوار .

"أجل ، أتظن أنك الرجل الذي سيصبح الوصي على عرش المملكة" ، قال مونان باحتقار .

"كلا ، لا بد أنك تعرف أننا كنا نريدك لهذا المنصب" ، قال إرلند ضاحكاً .

اقترب إرلند ولمس كتف سايمون :

"هل أنت نائم يا عديلي ؟" رفع سايمون عينيه . وقف الآخر أمامه وفي يده كأس . "تعال ، اشرب معي يا سايمون . أنت من عليّ أن أشكره أكثر من الجميع لأني نجوت بحياتي... وبما أن الأمر على ما هو عليه ، فهو عزيز عليّ يا فتى! لقد وقفت إلى جانبي كأخ... ولو لم تكن عديلي فإني أعتقد أني كنت سأخسر رأسي دون شك . ثم هل كنت ستتزوج من أرملتي..."

قفز سايمون . وقف الاثنان برهة ينظر أحدهما إلى الآخر... شحب إرلند وصحا ، وانفرجت شفتاه مشدوهاً... ضرب سايمون بقبضته الكأس من يد الآخر... تناثر الميد على الأرض . ثم التفت وخرج من الغرفة .

وقف إرلند هناك وحيداً . ودون أن يعرف ما فعله ، جفف يده ورسغه بالجزء الأسفل من سترته ، ثم نظر إلى الخلف . لم يكن الآخرون قد لاحظوا شيئاً . وبقدمه ضرب الكأس إلى ما تحت المقعد -وقف ساكناً برهة- ثم خرج بهدوء وراء عديله .

وقف سايمون دار عند أسفل الدرج... كان "يون دالك" يقود جياده خارج الإسطبل . لم يقم بأي حركة حين نزل إرلند إليه :

"سايمون! سايمون... لم أعرف... لم أعرف ما قلت!"

"أنت تعرفه الآن ."

كان صوت سايمون دون نبرة . وقف هادئاً تماماً ، دون أن ينظر إلى الرجل الآخر .

نظر إرلند فيما حوله ، وكأنه قد جن جنونه . كان القمر يبدو على نحو شاحب ، مجرد بقعة باهتة ، عبر ستار الغيوم . كانت حبات قاسية صغيرة من الثلج تهطل عليهما . قام إرلند بحركة مرتجفة .

"أين... أين ستذهب ؟" سأل بصوت فاتر ، وهو ينظر إلى الرجل والجياد .

قال سايمون باختصار : "لا أجد مكاناً آخر أنام فيه . ربما تستطيع أن تفهم أني لا أهتم بالبقاء هنا ."

"سايمون!" انفجر إرلند . "أوه ، لا أعرف ما هو الشيء الذي أنا مستعد لإعطائه لك لو كنت تذكره فحسب!"

"و لا أنا أيضاً" ، أجاب الآخر كما من قبل .

فتح باب الغرفة العليا . خرجت كريستين إلى الشرفة وفي يدها قنديل . انحنت فوق الدرابزون وألقت بالنور عليهما من علٍ .

سألت بصوت واضح : "لم تقفان هنا ؟ ما الذي تريدانه خارج المنزل ؟"

"أحسست أن عليّ الخروج لأرى جيادي... حسب الأسلوب المحتشم" ، أجاب سايمون وهو يضحك لها .

"و لكن... لقد أخرجت الجياد" ، قالت في عجب ضاحك .

"أجل... يمكن للرجل أن يفعل أموراً غريبة وهو ثمل" ، قال سايمون باللهجة نفسها .

"حسناً ، عد الآن إذن" ، قالت بلهجة مرحة وسعيدة .

"أجل ، خلال لحظة ." دخلت ونادى سايمون على يون أن يعيد الجياد . التفت إلى إرلند... كان الرجل واقفاً هناك ، بلا حول ولا قوة من حيث المظهر والوقفة . "سأدخل بعد قليل . علينا... أن نحاول أن نتصرف وكأن ما قلته لم يُقل يا إرلند... لأجل خاطر زوجتينا . ولكن عليك ربما أن تفهم أيضاً... أنت آخر رجل على الأرض كنت أود... كنت أود معرفته... ولا تنس أني لست بالشخص الذي ينسى كثيراً شأنك في ذلك!"

فتح الباب العلوي مجدداً . خرج الضيوف في مجموعة . كانت كريستين معهم وخادمتها تحمل القنديل .

"أجل" ، ضحك مونان باردسون . "الليل قد سبق له وانقضى... وهذان الشخصان الطيبان يريدان الذهاب إلى الفراش على ما أعتقد..."

•

"إرلند... إرلند... إرلند!" رمت كريستين بنفسها بين ذراعيه في اللحظة التي وقفا فيها لوحدهما داخل باب غرفة العلية . التصقت به وضمته بشدة . "إرلند... تبدو شديد الأسى..." همست في خوف وشفتاها نصف المفتوحتين قريبتان من فمه . "إرلند..." ضغطت كفي يديها على صدغيه .

وقف قليلاً وذراعاه مدلاتان من حولها . ثم وبأنين رقيق من حنجرته ، ضمها إليه بقوة .

•

خرج سايمون إلى الإسطبل... كان سيقول شيئاً ما ليون ، ولكنه نسيه على الطريق . وقف برهة عند باب الإسطبل ، وهو يرفع بصره إلى ضوء القمر الشاحب والثلج المتساقط... لقد بدأ يهطل الآن في رقاقات كبيرة . خرج يون وأولف وأغلقا الباب خلفهما ، وانطلق الرجال الثلاثة معاً إلى المنزل الذي سينامون فيه .

(انتهى الجزء الثاني من الثلاثية)



الحواشي

١-هوسابي (انظر الخريطة)

تقع ضيعة هوسابي العتيقة التي تتألف من حوالي (٣٠) مزرعة كبيرة وصغيرة ومنازل من حولها أراض للزراعة ، على بعد حوالي (٢٠) ميلاً إنكليزياً إلى جنوب شرق تروندهييم (نيداروس) تقع الأبنية الرئيسية على منحدر جبلي عريض يعلو بحيرة صغيرة ، تبعد حوالي عشرة أميال إنكليزية عن أقرب نقطة من تروندهييم فيورد (بيرغسي) ، وبين الوديان الكبيرة في غولدال وأوركيدال ، وتمتد جنوباً حتى دوفرفييلد . والرحلة من هوسابي إلى نيداروس تتم عادة على الحصان إلى بيرغسي ثم بالزورق . إن خط السير الذي اتبعته كريستين في حجتها يمر عبر الجبال إلى مصب نهر غولا ، ومنه عبر باينز ، القنة الجبلية العالية التي تخترق الزقاق البحري بين مصبي غولا ونيد .

٢-القاعة في هوسابي (انظر المخطط)

كانت القاعة في هوسابي بناءً حجرياً قديماً وكبيراً بأسلوب زمن الحكايات البطولية ، حين كان الزعيم وأتباعه يقيمون وينامون تحت سقف واحد : وكانت الخادمات ينمن في منزل مستقل خاص بالنساء (القاعة الصغيرة في هذا الكتاب) .

هناك صفان من الأعمدة الخشبية يدعمان السقف . بين خط الأعمدة والجدار على كل جانب كانت الأسرّة ذات الأبواب في نهاية القاعة وكذلك مقعدان عريضان يمتدان على بقية طول القاعة . هذان المقعدان مقسمان إلى أمكنة لنوم المحاربين (يسميان في الأصل "غرفاً") وكانا واسعين إلى حد يسمح للرجل أن يضع أمتعته إلى القرب منه ، بينما كانت أسلحته تعلق على الجدار فوقه . وكما في "مبنى الموقد" الخاص بالضيعة القروسطية المتأخرة ، فإن الغرفة كانت تدفأ من موقد في وسط الأرضية ، والنور الوحيد كان يدخل من فتحة الدخان فوق هذا الموقد أو من الباب . ولكن الموقد كان أطول بكثير ، وكانت نيران عدة توقد عادة فيه ، حين تكون التدفئة مطلوبة . وفي الاحتفالات كانت موائد طويلة تنصب... في الحالات الأخرى كان كل رجل يتناول وجباته جالساً في "غرفته" مع وعاء العصيدة أو اللحم في حضنه ، أو يشرب جعته وهو جالس على الأرض قرب الموقد .

في أوقات لاحقة ، حين كان بناء مستقل يخصص للرجال من الخدم ، كانت "الغرف" في القاعة تترك فارغة لتستخدم عند الضرورة كأمكنة لنوم أعضاء الأسرة أو الضيوف . كان المقعد الأيمن يحرك إلى النهاية الشرقية للقاعة والموائد المؤقتة كانت تنصب يومياً لوجبة اليوم الرئيسية (العشاء) .

و فيما بعد ، حدثت تغييرات أخرى . وهكذا نرى في المخطط القاعة كما كانت مرتبة للوليمة الموصوفة في القسم الأول ، الفصل (٢) . في هذا الوقت ، سنرى أن مائدة أصغر كانت تنصب عبر القاعة ، أمام المقعد العالي ، مع مقعد خارجي للخدم .

فوق "الغرفة الخارجية" و"الحجرة" عند النهاية السفلى للقاعة كان هناك في هوسابي علية (سرير مارغريت) يتم الوصول إليها عبر سلم يبدأ من القاعة .

٣-أغنية غونولف

لا بد أن الماستر غونولف قد وقع على نسخة أقدم من الأغنية الإنكليزية القديمة "الصقر" وقد طورها كما شاء مع ميل إلى تهذيبها .

٤-القابلات من رتبة ليدي

كانت القوانين الكنسية وكذلك الأعراف في نرويج القرون الوسطى (والدانمارك) تجعل من واجب كل النساء المتزوجات العمل كقابلات للنساء القاطنات في الجوار . والقابلات اللواتي يعشن في الجوار كن مضطرات للقدوم وترافق كل واحدة منهن خادمة . أما القابلات المحترفات فلم يكن معروفات ، ولكن أي امرأة كانت تكتسب الشهرة في القبالة كانت مضطرة للذهاب كلما أرسل في طلبها حتى مسافة رحلة نصف يوم على ظهر الحصان . وما كان ممكناً المطالبة بدفع أجور على هذه المساعدة ، إلا أن العرف كان أن يرسل الأب مع السيدات والنساء هدايا عند مغادرتهن المنزل . وقيمة الهدايا كانت تتناسب مع أهمية الحدث... في حال كان الابن بكراً يتوقع من الأب أن يبدي كرماً خاصاً .

و حين يكون متوقعاً ولادة وريث ، يكون على الأب أن يطلب من كل قابلة مجاورة ذات مركز اجتماعي – قبل شهور عدة مقدماً – أن تأتي لمساعدة زوجته . وكانت هذه مسألة ذات أهمية عملية ، حيث يكون الدليل الذي توفره السيدات مطلوباً لتسوية قضايا الإرث . مثلاً ، إن ماتت الأم والجنين كلاهما ، ستشهد النساء فيما يخص موضوع ولادة الطفل : هل كان حياً وتم تعميده ؟ أم مات قبل أو بعد أمه . في الحالة الأولى فإن أسرة الزوجة كانت ترث حصتها من الملكية المشتركة . وفي الحالة الثانية كان الزوج يرث من الطفل . إن اجتماعاً للنساء الحكيمات يكون دائماً ضماناً لتحديد شخصية الوريث إن كانت الشكوك تحوم حول ذلك .

و هكذا فإن تقصير إرلند في دعوة سيدات الريف إلى مخاض زوجته كان خطأً فضائحياً يدل على التهور .

٥-كاتدرائية تروندهييم

في الضفة الرملية المنحدرة لنهر نيد حيث كان جثمان الملك أولاف قد دفن

في أول شتاء بعد وفاته في معركة ستيكلستاد (حوالي عام ١٠٣٠ بعد الميلاد) ، فإن نبعاً قد تفجر ، وقد اعتبر أن لمياهه قوة على الشفاء . في هذا الموقع ، بني أولاً معبد صغير ، ثم كنيسة الأسقف التي اكتملت في عام (١٠٧٥) إذ بنيت على شرف المسيح والقديس أولاف ، والضريح الذي يحوي رفات القديس الذي نقل إليها من الكنيسة الخشبية التي كان خلفاؤه قد وضعوه فيها .

في عام (١١٥٢) أصبحت النرويج مقاطعة كنسية مستقلة ، وتأسست أسقفية نيداروس من قبل الكاردينال نيكولاس بريكسبير الذي أضحى لاحقاً البابا هادريان الرابع . بعد ذلك بفترة قصيرة بدأ بناء الكاتدرائية الكبرى في موقع كنيسة الأسقف . كان الشخص ذو النفوذ الواسع في العمل كما يقول البروفسور نورد كاهن هو "ايشتاين إرلندسون ، الأسقف الثالث المستبد الموهوب (١١٦١-١١٨٨)" وقد بدأ العمل بالأسلوب النورماني ، ولكن لدى العودة من منفاه الذي دام ثلاث سنوات في إنكلترا (١١٨٠-١١٨٣) الذي حدث بسبب نزاع مع الملك سفير الذي لم يكن أقل استبداداً وطغياناً منه... جلب آيشتاين معه أفكاراً جديدة حول العمارة كانت قد وصلت إلى إنكلترا وتوضع موضع التطبيق في بناء مكان الجوقة في كاتدرائية كانتربري . في وقت لاحق بقي العمل متأثراً بالتطورات المعاصرة في الأسلوب القوطي في إنكلترا (حوالي الفترة التي تتحدث عنها هذه الرواية) ، فأضحت الكاتدرائية أعجوبة الشمال ، وكان آلاف الحجاج يحجون إليها لزيارة ضريح القديس والبئر العجائبية . وكان الضغط على أشده في فترة الاحتفال بعيد أولاف الكبير (٢٩ تموز/يوليو) . إن فيغنسبريكه (جبل السرور) هو الجبل الذي يقع على طريق الحج ، ومن قمته كانت تشاهد لأول مرة المدينة والكاتدرائية .

كان أول حريق عانت منه الكاتدرائية بين حرائق عديدة لاحقة هو حريق عام (١١٣٨) ، المذكور في هذه الرواية . كما اجتاحتها النيران مجدداً عامي (١٤٢٣) و(١٥٣١) ، وحتى مع بقائها نصف مدمرة في عام (١٥٦٧) ، فإن كاتباً نرويجياً من تلك الفترة يصفها بـ"تاج وزهوة وزينة المملكة" . كما حدثت حرائق أخرى في

عامي (١٧٠٨) و(١٧١٩) ، حتى أن عظمتها الأصلية قد اختفت مع حلول القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وقد وضعت مخططات دقيقة جداً لترميمها حوالي نهاية القرن التاسع عشر ، وقد تم تنفيذها كلها تقريباً ، رغم أن تجديد الواجهة الغربية لم يكتمل بعد .

٦-محكمة الستة

عملياً كل النبلاء والجزء الأكبر من ملاك الأراضي في النرويج كانوا "حراساً" أو "رجال الملك" أي أنهم قد خدموا ذات مرة أو أكثر في قصر الملك . وكانت الدعاوى القانونية بين مثل هؤلاء الحراس لا تحال إلى المحاكم العادية بل إلى محكمة الستة الخاصة المؤلفة من ستة من الزملاء من حراس الملك .

٧- النرويج ١٣١٩-١٣٣٥

كان ماغنوس السابع (ملك النرويج بين عامي ١٣١٩-١٣٤٣) حفيد هاكون الخامس ، وهو ابن ابنة الملك هاكون المسماة انجبيورغ والدوق آيريك السويدي . في عام (١٣١٨) اغتيل الدوق آيريك على يد أخيه الملك بيرغر . وقد انتفض حزب الدوق المغدور وطرد الملك ، مما جعل الأمير الطفل ماغنوس ملكاً على السويد بدلاً عنه . كان قائد الجيش هو الفارس الدانمركي الشهم الوسيم كنوت بورس الذي كان من أتباع الدوق المخلصين .

و بما أن ماغنوس كان وريثاً لعرش النرويج أيضاً ، فإن الملك هاكون على فراش الموت تنبأ باتحاد التاجين . وقد عين ثمانية لوردات نرويجيين كمجلس وصاية على الملك القاصر ، وجعلهم يقسمون يمين الولاء بأن يحكموا حسب قوانين البلاد وأن يبعدوا الأجانب عن كل المناصب ذات النفوذ ، وخاصة عن قلاع التاج . وحين مات الملك هاكون في عام (١٣١٩) ، أصبح ماغنوس ملكاً على البلدين ، وأبرمت اتفاقية بين مجلس وصاية المملكتين على إقامة علاقات مستقلة

وواجبات تخص كل جهة وقد منحت أم الملك منصباً كبير النفوذ في كلا البلدين .

و لكنها سرعان ما بدأت تسيء استغلال سلطتها لصالح كنوت بورس ، وأصبح تعلق الأرملة الشابة ببطلها موضوعاً للغو بين الناس . كانت خطة كنوت بورس هي وضع المقاطعة الدانمركية المسماة (سكانيا في جنوب السويد) بالغزو تحت سيطرة التاج السويدي ، وأن يكسب لنفسه دوقية ، حتى يصبح في منصب يؤهله للزواج من الليدي انجبيورغ . وحين حدث في عام (١٣٢١) أن خطبت أخت الملك ماغنوس الصغيرة "يوفينيا" إلى ابن "الدوق هنري أسد مكلنبرغ" في حضور أعضاء الحكومتين السويدية والنرويجية معاً ، فقد تعاهد الدوق والسير كنوت سراً على أن يقوم الدوق بتقديم الجنود دعماً لمشروع سكانيا . وقد وضع بعض النبلاء النرويجيين ، ومن بينهم السير مونان باردسون الذي كان صديقاً حميماً للسير كنوت بورس والليدي انجبيورغ أختامهم على هذا العهد . وقد حاولت الليدي انجبيورغ التي كانت تحمل على نحو لا قانوني الخاتم الكبير للنرويج أن تجمع الأموال لهذه الحرب بكل الوسائل .

و لكن في صيف عام (١٣٢٢) تقابل اللوردات السويديون في البرلمان في سكارا ، وبانقلاب حرموا الليدي من كل سلطاتها . وفي شباط (١٣٢٣) ، تجمع النبلاء النرويجيون تحت قيادة الأسقف آيليف في أوسلو وفعلوا ما فعله السويديون . وقد تم تعيين لورد كبير يعود نسبه إلى أسمى عائلات البلاد وأغناها ، هو السير إرلينغ فيدكونسون ، وصياً على عرش النرويج ، (الوصي العالي) مع مجلس من النبلاء لمساعدته .

و نتيجة للاتحاد بين التاجين ، جرّت النرويج إلى حروب بين السويد وروسيا ، وقد قام الروس خلال عام (١٣٢٣) والأعوام التي تلته بشن سلسلة هجمات تدميرية على شواطئ النرويج الشمالية حتى وصلوا إلى هالوغلاند جنوباً . وقد اتخذ السير إرلينغ عدة إجراءات للدفاع عن البلد وحقق بعض النجاح ، ولكنه كان في حاجة إلى الأموال على نحو ملحّ ، فقد تركت له الليدي انجبيورغ خزينة

فارغة . وقد طلب المساعدة من الأساقفة حيث أن الروس كانوا يعتبرون هراطقة بل وأسوأ من ذلك . وقد وقف الأساقفة إلى جانبه ، إلا أن الأسقف أودفين أوف بركن رفض تقديم يد العون . وفي السنوات التي تلت تشاجر إرلينغ عدة مرات مع هذا الأسقف الذي كان من المؤيدين المخلصين لليدي انجبيورغ . وقد دافع الأسقف دفاعاً مريراً عن حقوق الليدي في بعض الأراضي الواقعة في أسقفيته حين قامت في عام (١٣٢٦) بإثارة غضب بلدها الأصلي بالزواج من كنوت بورس الذي أصبح الآن بسبب تقلبات في النزاع بين الملك الدانمركي كريستوفر الثاني ونبلائه دوقاً دانمركياً . وعلى أي حال فقد توفي كنوت بورس في عام (١٣٣٠) مخلفاً وراءه أرملته مع ابنين هما هاكون وكنوت .

في عام (١٣٢٦) حل السلام بين النرويج وروسيا على شروط مشرفة للنرويج .

في عام (١٣٣٠) أعلن أن الملك ماغنوس الذي أصبح في السادسة عشرة من عمره ، قد وصل إلى السن الملائمة ، واستقال إرلينغ فيدكونسون . وقد تابع الملك ماغنوس خطة زوج أمه المتعلقة بضم سكانيا ، وبقي في السويد ، وجعل شخصاً معادياً منذ القديم للسير إرلينغ هو بال باردسون مستشاراً له في النرويج وحاملاً للخاتم الكبير . ولكن حين اختير "بال" أسقفاً خلفاً للأسقف آيليف ، لم يستطع ماغنوس تعيين مستشار جديد ، وبما أن الملك كان لا يزال في السويد ، وكان يعاني دائماً من نقص في الأموال ويطالب بتزويده بها ، وكان قد ترك النرويج دون حكومة شرعية ، فإن مجموعة من النبلاء النرويجيين يرأسهم إرلينغ فيدكونسون والابنان الشابان لعم الملك يون وسيغورد هافتورسون ، قد ثاروا ضده . ولكن القضية تمت تسويتها على أي حال في العام نفسه دون سفك للدماء . تم منح العفو عن قادة التمرد وحافظوا على مناصبهم وألقابهم ، وعين الملك ماغنوس السير إيفار أوغموندسون مستشاراً للنرويج ، وتم تدعيم سلطات المجلس ، وعادت النرويج تتمتع مجدداً بحكومة فعالة . ويبدو أن هذا ما كان

يهدف إليه السير إرلينغ فيدكونسون الذي يقدمه التاريخ كشخص مستقيم وشريف وشجاع وعاقل ، رغم أنه كان يفتقر نوعاً ما إلى الحيوية لتنفيذ الأمور الكبيرة .

أما محاولة إرلند نيكولاوسون اللاحقة لفصل تاجي النرويج والسويد بتنصيب ابن الليدي انجبيورغ هاكون على العرش النرويجي فلم تذكر في التاريخ ، الذي يذكر على أي حال زفاف الملك ماغنوس في تونسبرغ في عام (١٣٣٥) من الكونتيسة بلانش أوف نامور .

٨- مكوس الحرب

كان على كل أصحاب الأراضي أن يدفعوا إلى التاج مساهمة سنوية للدفاع عن البلاد . وكان هذا مفروضاً في أوقات السلم كما في أوقات الحرب ، ولكن قد يتم طلب المزيد من المساعدة الطوعية في حالات الطوارئ .

إن التقصير في دفع الضريبة يجعل المقصر عرضة لدفع الغرامة . وقد التزم لافرانس بدفع أي غرامات قد تفرض على مزارعيه المستأجرين بسبب رفضهم الالتزام بالمطالبات غير الشرعية التي فرضت عليهم على أساس أن يتم دفع المساهمات بالقوة .

٩-المجالس

في فترة هذه الرواية كانت هناك ثلاث فئات من المجالس الشعبية :

١- مجلس الأبرشية : يعقد عادة في فترات منتظمة ، ولكن يمكن استدعاؤه خصيصاً لأجل إجراء كل أنواع الصفقات التجارية المحلية . استئناف قراراته يمكن رفعه إلى :

٢- مجلس المقاطعة : الذي كان ينعقد مرتين في السنة : في منتصف موسم الصوم الكبير وبعد ثلاثة أسابيع من عودة ممثلي المقاطعة من مجلس المحافظة (انظر أدناه) . إن مجالس المقاطعة هذه كانت تعقد من قبل حاكم المقاطعة (انظر

الهامش رقم /١٢/ الحكام) . أما الدعاوى القضائية التي ترفع أمام مجلس المقاطعة فيجب أن يعلن عنها في مجالس المقاطعة . أما قراراته وأحكامه (التي يتم الوصول إليها من قبل هيئة المحلفين وليس من قبل الحاكم ، الذي ليست له وظائف قضائية) فهي قابلة للاستئناف لدى مجلس المحافظة .

٣- مجلس المحافظة : كانت النرويج تقسم إلى أربع محافظات ولكل واحدة مجلسها السنوي . خلال فترة هذه الرواية كانت كل هذه المجالس تجتمع في اليوم نفسه ، يوم القديس بوتولف (١٧ حزيران/يونيو) . كان مجلس محافظة الشمال يجتمع في نيداروس .

و كل واحد من المجالس الأربعة كان كينونة تشريعية وقضائية . وكان المجلس يتألف من ممثلين يختارهم الحاكم من بين أعضاء مجالس المقاطعات ، ويحضره كل الحكام في المحافظة ، وكان واجبه متابعة القضايا من مختلف المقاطعات وتقديم القرارات وأي تشريع جديد إلى مجلس المقاطعة الذي يستدعى للاجتماع بعد ثلاثة أسابيع من عودة الأعضاء من مجلس المحافظة .

رئيس مجلس المحافظة يعرف بـ"لاغماند" . وكانت وظيفته تشبه وظيفة رئيس مجلس البرلمان في مجلس العموم في إنكلترا في بداياته .

١٠-روما القرن الرابع عشر

كان الماستر غونولف قد زار طبعاً روما خلال فترة ما يعرف بـ"المنفى البابلي" لبابوات أفينيون " الذي بدأ في عام (١٣٠٥) .

١١-قياسات الأراضي

الكلمات المترجمة بـ"نصف هيد" تعني حرفياً "منطقة لحم تكفي شهرين" أي الأرض التي مساحتها تكفي لتغذية شخص واحد لشهر واحد .

١٢-الحكام

كان الحاكم موظفاً رفيعاً مسؤولاً عما يشبه المقاطعة في إنكلترا ، وواجباته هي واجبات مدير الإدارة الرئيسي والقائد العسكري ورئيس الشرطة . وكان تعيينه يتم من قبل التاج بين الأشخاص المتميزين . وفي فترة الرواية فإن الحاكم يكون من الفرسان عادة . كان عليه أن يبقي تحت إمرته عدداً من الرجال المسلحين والموظفين . كان يتلقى راتبه إما من التاج أو من حصة ينالها من الغرامات والإقطاعات .

بين الواجبات الأخرى كان على الحاكم أن يعقد كل سنة خلال الصوم الكبير المجلس المسمى "فابينثينغ" وفيه تتم مراجعة الأسلحة التي يملكها الرجال في مقاطعة الحاكم ليتأكد من أن كل رجل لديه الأسلحة التي يتوجب عليه امتلاكها حسب القانون ، حسب منصبه . وكان عليه أن يختار المبعوثين من منطقته إلى مجلس المحافظة السنوي في محافظته (انظر الهامش رقم /٩/ المجالس) وأن يحضر المجلس لمتابعة كل القضايا المتعلقة بمنطقته . وخلال ثلاثة أسابيع من عودته إلى مقره كان عليه أن يدعو المجالس وأن يبلغ الناس القرارات والأحكام التي أصدرها مجلس المحافظة والتي لها علاقة بمنطقته ، وكل القوانين الجديدة التي تم إصدارها...إلخ . وكان عليه أن يجمع الغرامات والضرائب الأخرى للتاج ويقدمها إلى أمين الخزينة في المحافظة (انظر الهامش /١٥/ أمناء الخزينة) .

١٣-فيوي

جزيرة صغيرة قرب "مولده" حيث كان فيها في العصور الوسطى بلدة سوق صغيرة وكنيستان ودارة ملكية .

١٤-العفو عن المجرم

حين يرتكب رجل ما جريمة يعاقب عليها القانون باعتباره خارجاً عن القانون (مثل قتل رجل آخر أو اختطاف امرأة) يجوز أن يمنح العفو إذا دفع مبلغاً محدداً إلى التاج ، وعندها سيسمح له بالبقاء في منزله تحت حماية القانون حتى يتم الحكم في قضيته .

١٥-أمناء الخزينة

لأغراض الإدارة المالية جرى تقسيم النرويج إلى أربع محافظات مالية ، وكل واحدة تتبع أمين خزينة . إن مركز أمين خزينة المنطقة في بلدة تونسبرغ كان يعادل منصب وزير المالية الذي يشرف على الجميع .

١٦-الوصول الآمن

بما أن إرلند هو من حراس الملك (انظر الهامش رقم /٦/) ، فقد كان يحق له أن يحاكم من قبل محكمة فيها قضاة من أنداده ضمن حدود المحافظة (انظر الهامش رقم /٩/) حيث يقطن . ولأنه قدم استئنافاً ضد قرار المحكمة وحكمها على أساس لا قانونية تشكيلها ، وطالب بمحاكمة جديدة ، فقد منح حق الوصول الآمن حتى يخرج خارج حدود المحافظة ليمثل أمام الملك . إن نتيجة هذا لو فشل في المصالحة مع الملك كان أنه يحق له أن يصل بسلام إلى محافظته ، وهناك يحاكم مجدداً أو ينفذ حكم المحكمة الأصلية حسب قبول استئنافه أو رفضه .

١٧- باغاهوس

الآن تسمى "باهوس" في السويد قرب غوتنبرغ . الحدود بين النرويج

والسويد في تلك الفترة كانت تتمثل بنهر غوتا وكانت باغاهوس هي البلدة الحدودية النرويجية .

١٨-حصانات الرجال الأحرار

حسب القوانين القديمة فإن الرجل الحر في النرويج كان يمنح الحصانة من الأذى الجسدي والانتهاكات ضد شخصه وشرفه . وكان هذا يتضمن في زمن الحكايات البطولية حق الانتقام لنفسه وأقربائه .

سيغريد أوندست

نوبل ١٩٢٨

- ولدت سيغريد أوندست (١٨٨٢ ـ ١٩٤٩) في كالدوندبورغ . وحين بلغت السنتين من عمرها انتقلت أسرتها إلى النرويج واستقرت في كريستيانيا (المعروفة الآن باسم أوسلو) . وبعد وفاة والدها في عام (١٨٩٣) ، تخلّت عن طموحها في أن تصبح رسامة ، وحين أصبحت في السادسة عشرة بدأت بالعمل في أحد المكاتب .
- أعاد الناشر لها أولى مخطوطاتها ، رواية تاريخية ، حوالي عام (١٩٠٥) مع العبارات التالية : «لا تحاولي أبداً كتابة رواية تاريخية مرة أخرى . لست قادرة على هذا النوع من الكتابة . قد تحاولين كتابة شيء معاصر . ولا يمكن لكِ أن تعرفي ما قد يحدث» . في عام (١٩٠٧) كان أول ظهور لها مع رواية «السيدة مارتا أولي» ، ولكن الفتح الحقيقي لها جاء مع رواية «جني»(١٩١١) .
- إنتاج سيغريد أوندست غني ومتنوع ، ويمتد من الروايات المعاصرة إلى الروايات القروسطية العظيمة والقصص القصيرة والمقالات وحكايات السفر .
- «كريستين لافرانسداتر» هي قمة عطائها وهذه الثلاثية هي التي كانت السبب في منحها جائزة نوبل للآداب في عام (١٩٢٨) .

علي مولا

ISBN => 2-84305-181-9
EAN => 9782843051814